شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي
قم - ايران ١٤٠٤ هـ ق

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY DUPL
32101 015650987

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

JUN 15 2011

Ibn Abī al-Ḥadīd

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل ابراهيم

الجزء الخامس

دار إحياء الكتب العربية

عيسى البابي الحلبي وشركاه

2264
.1067
.741
1985
juzʿ 3

2274
.8788
.741
1985
juz' 3

2264
.1067
.741
1985
Juz' 5-6

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي

قم - ايران ١٤٠٤ هـ ق

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY
32101 015650987

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله أجمعين

(٥٨)

الأصل :

وقال عليه السلام لما عزم على حرب الخوارج ، وقيل له : إنّ القوم قد عبروا جسر النَّهْروان :

مَصارِعُهُمْ دُونَ النُّطْفَةِ ؛ وَاللهِ لَا يُفْلِتُ مِنْهُمْ عَشَرَةٌ ، وَلَا يَهْلِكُ مِنكُمْ عَشَرَةٌ .

***

قال الرضيّ رحمه الله :

يَعنى بالنُّطْفَةِ ماء النَّهر ، وهِى أفصح كناية عنِ الماء وإنْ كَانَ كَثِيراً جَمّاً ، وَقَدْ أشرنا إلى ذلِكَ فيما تقَدَّم عِندَ مُضِيِّ ما أشْبَهَه .

***

الشرح :

هذا الخبرُ من الأخبار التى تكاد تكون متواترة ؛ لاشتهاره ونَقْل الناس كافّةً له؛ وهو من معجزاته وأخباره المفصّلة عن الغيوب .

والأخبار على قسمين :

أحدُهما : الأخبار المجمَلة ، ولا إعجازَ فيها : نحو أن يقولَ الرجلُ لأصحابه : إنكم

سَتُنْصَرون على هذه الفئة التى تلقونها غدا : فإن نُصِر جعل ذلك حُجّة له عنــد أصحابه وسمّاها معجزة ، وإن لم يُنْصَر ، قال لهم : تغيّرتْ نِياتُكم وشككتُمْ فى قولى ، فمنعكم الله نصره ؛ ونحو ذلك من القول : ولأنه قد جرت العــادةُ أنّ الملوكَ والرؤساء يَعِدُون أصحابَهم بالظّفر والنّصر ، ويُمنّونهم الدُّوَل ، فلا يدلّ وقوعُ مايقع منْ ذلك على إخبارعن غَيْبٍ يتضمّن إعجازا .

والقسم الثانى : فى الأخبار المفصّلة عن الغيوب ، مثل هذا الخبر ، فإنه لايحتمل التلبيس، لتقييده بالعَدَد المعينّ فى أصحابه وفى الخوارج ، ووقوع الأمر بعد الحرب بموجِبه من غير زيادة ولا نقصان ، وذلك أمرٌ إلهىّ عرفه من جهة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وعرّفه رسول الله صلى الله عليه وآله من جهة الله سبحانه . والقُوّة البشرية تقصُر عن إدراك مثل هذا ، ولقد كان له من هذا الباب مالم يكنْ لغيره .

وبمقتضى ماشاهــد الناس من معجزاته وأحواله المنافية لقُوَى البشر ، غَلاَ فيه مَنْ غلا ، حتى نُسِب إلى أنّ الجوهرَ الإلهىّ حلّ فى بدنه ، كما قالت النصــارى فى عيسى عليه السلام، وقد أخبره النبىّ صلى الله عليه وآله بذلك ، فقال: « يهلِك فيك رجلان: محبّ غالٍ ، ومُبغض قالٍ » . وقال له تارة أخرى : « والّذى نفسى بيده ، لولا أنّى أشفق أن يقول طوائفُ من أمّتى فيك ماقالت النصارى فى ابن مريم ، لقلت اليوم فيك مقــالا ، لاتمرّ بملأٍ من الناس إلا أخذوا التراب من تحت قدميك للبركة » .

●●●

[ذكر الخبر عن ظهور الغلاة]

وأوّلُ مَنْ جهر بالغُلُوِّ فى أيامه عبدُ الله بن سَبأ[١] ، قام إليه وهو يخطب ، فقال له : أنتَ أنتَ ! وجعل يكرِّرها ، فقال له : وَيْلَكَ ! مَنْ أنا ؟ فقال : أنت الله ؛ فأمر بأخْذِه وأخْذِ قومٍ كانوا معه على رأيه .

وروى أبو العباس أحمد بن عبيد الله ، عن عَمّار الثقفىّ ، عن علىّ بن محمد بن سليمان النوفلىّ ، عن أبيه وعن غيره من مشيخته ؛ أنّ عليا قال : يهلِكُ فىّ رجلان : محبٌّ مُطْرٍ يضعُنِي غير موضعى ويمدحُني بما ليس فىّ ، ومبغض مفْترٍ يرميني بما أنا منه برىء » .

وقال أبو العباس : وهذا تأويل الحديث المروىّ عن النبىّ صلى الله عليه وآله فيه ، وهو قوله : « إن فيكَ مَثَلًا من عيسى بن مريم ، أحبّتْه النصارى فرفعتْه فوق قَدْره ، وأبغضته اليهودُ حتى بهتَتْ أمّه » .

قال أبو العباس : وقد كان علىّ عَثَر على قوم خرجوا من محبّتِه باستحواذ الشيطان عليهم ، إلى أنْ كفرُوا بربِّهم ، وجحدوا ما جاء به نبيُّهم ، واتخذوه ربًّا وإلهاً ، وقالوا : أنت خالقُنا ورازقنا ، فاستَتابَهُم وتوَعَّدَهم ، فأقاموا على قولهم ، فحفر لهم حَفراً دخّن عليهم فيها طمعا فى رجوعهم ، فأبوا ، فحرقهم بالنار ، وقال :

ألَا ترَوْن قدْ حفرْتُ حفَرا[٢] إنى إذا رأيتُ أمراً مُنْكَرا

* وقدتُ نارِى ودَعَوْتُ قنبرا *

---

(١) عبد الله بن سبأ : رأس الطائفة السبئية ؛ نقل ابن حجر عن ابن عساكر فى تاريخه : « كان أصله من اليمن ؛ وكان يهوديا فأظهر الإسلام ؛ وطاف بالمسلمين ليلفتهم عن طاعة الأئمة ؛ ويدخل بينهم الشر ؛ ودخل دمشق لذلك » . وانظر لسان الميزان ٣ : ٢٨٩ ـ ٢٩٠ .

(٢) الحفر ، بالسكون ويحرك : البئر الواسعة .

وروى أصحابنا في كتب المقالات أنه لما حرّقهم صاحوا إليه : الآن ظهر لنا ظهوراً بيّناً أنك أنت الإله ؛ لأنّ ابنَ عمك الذي أرسلَه قال : « لا يعذِّب بالنار إلا ربُّ النار » .

وروى أبو العباس ، عن محمد بن سليمان بن حبيب المِصِّيصِيّ[1] عن علىّ بن محمد النوفلىّ ، عن أبيه ومشيخته ، أنّ علياً مرّ بهم وهم يأكلون فى شهر رمضان نهارا ، فقال : أسَفْر أم مرضى ؟ قالوا : ولا واحدة منهما ، قال : أفمِنْ أهل الكتاب أنتم ؟ قالوا : لا ، قال : فما بالُ الأكل فى شهر رمضان نهارا ! قالوا : أنت أنت ! لم يزيدوه على ذلك، ففهم مُرادَهم ، فنزل عن فرَسِه ، فألصق خَدّه بالتراب ، ثم قال : وَيْلَكم ! إنما أنا عبدٌ من عبيد الله ؛ فاتقوا الله وارجعوا إلى الإسلام، فأبوْا ،فدعاهم مرارا ، فأقاموا على أمرهم، فنهض عنهم ، ثم قال : شُدُّوهم وَثاقا ، وعلىّ بالفعَلة والنار والحطب ، ثم أمَرَ بحفر بئرين ، لحفرتا ؛ فجعل إحداهما سَرَباً[2] ، والأخرى مكشوفة ، وألقى الحطَب فى المكشوفة ، وفتح بينهما فَتْحًا ، وألقى النار فى الحطب ، فدخَّن عليهم ، وجعل يهتف بهم ، ويناشدهم: ارجعوا إلى الإسلام ، فأبوْا ، فأمر بالحطب والنار ، وألقى عليهم ، فاحترقوا ، فقال الشاعر :

لِتَرْمِ بىَ المنيةُ حيثُ شاءتْ إذا لَمْ ترْمِ بى فى الحُفْرتَيْنِ
إذا ما حُشّتا حطباً بنــارٍ[3] فذاكَ الموتُ نَقْدًا غــيْرَ دَيْنِ

قال : فلم يبرحْ واقفا عليهم حتى صاروا حُمَماً .

قال أبو العباس : ثم إن جماعة من أصحاب علىّ ؛ منهم عبد الله بن عباس ، شَفَعوا فى عبد الله بن سَبَأ خاصة ، وقالوا : يا أمير المؤمنين ،إنه قد تابَ فاعفُ عنه،فأطلقه بعد أن اشترط عليه ألّا يقيمَ بالكوفة ، فقال : أين أذهب ؟ قال : المدائن ، فنفاه إلى المدائن ،

---

(١) المصيصى ، بكسر الميم والصاد المشددة وسكون الياء : منسوب إلى المصيصة : مدينة على ساحل البحر
(٢) السرب ، بفتحتين : الحفير تحت الأرض .
(٣) حش النار ؛ أى أوقدها .

فلما قُتِل أميرُ المؤمنين عليه السلام أظهر مقالته ، وصارت له طائفة وفِرْقة يصدّقونه ويتّبعونه . وقال لما بلغه قتلُ عليّ : والله لو جئتمونا بدِماغه فى سبعين صُرّة ، لعلمنا أنّه لم يمت ، ولا يموت حتى يسوق العربَ بعصاه . فلما بلغ ابنَ عباس ذلك ، قال : لو علمنا أنه يرجع لما تزوّجْنا نساءه ، ولا قَسَمْنَا ميراثه .

قال أصحاب المقالات : واجتمع إلى عبد الله بن سبأ بالمدائن جماعة على هذا القول ؛ منهم عبد الله بن صَبْرة الهمْدانيّ ، وعبد الله بن عَمرو بن حرب الكِنديّ ، وآخرون غيرهما ؛ وتفاقم أمرُهم .

وشاع بين الناس قولهم ، وصار لهم دعوة يدعُون إليها ، وشبهة يرجعون إليها ، وهى ما ظهر وشاع بين الناس ، من إخباره بالمغيَّبات حالًا بعد حال ، فقالوا : إن ذلك لا يمكن أن يكون إلّا من الله تعالى ، أو ممّنْ حلّتْ ذاتُ الإله فى جسَدِه ، ولعَمْرِى إنه لا يقدر على ذلك إلا بإقدار الله تعالى إياه عليه ، ولكن لا يلزم من إقداره إياه عليه أن يكون هوَ الإله ، أو تكون ذات الإله حالّة فيه . وتعلق بعضُهم بشبهة ضعيفة ، نحو قول عمر – وقد فقأ عليّ عينَ إنسان ألحدَ فى الحرم – : ما أقول فى يدِ الله ؛ فقأتْ عيناً فى حرم الله ! ونحو قول عليّ : والله ما قلعتُ بابَ خيبر بقوّة جسدانية ، بل بقوة إلهية ، ونحو قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا إله إلّا الله وحدَه ، صدق وعدَه ، ونصر عبدَه ، وهزم الأحزَاب وحده » ، والذى هزم الأحزاب هو عليّ بن أبى طالب ، لأنه قتل بارِعَهم[2] وفارسَهم عَمراً لما اقتحموا الخندق ، فأصبحوا صبيحة تلك الليلة هاربين مفلولين ، من غير حربٍ سوى قتل فارسهم . وقد أومأ بعضُ شعراء الإمامية إلى هذه المقالة ، فجعلها من فضائله ، وذلك قوله :

إذا كُنْتمُ ممن يرومُ لحــاقَهُ　　　فهلاّ برزْتمْ نَحْوَ عَمْرٍو وَمَرْحَبِ[1]

(١) عمرو بن ود ، ومرحب اليهودى ؛ قتل على أولهما يوم الخندق ، وثانيهما يوم خيبر ؛ وخبرهما مشهور معروف .　　(٢) ج : « شجاعهم » .

وكيف فررتم يوم أُحُـدٍ وَخَيْبَرٍ ... ويوم حُنَيْنٍ مَهْرَبًا بَعْدَ مَهْرَبِ

ألم تشهدوا يوم الإخاء وبيعـة الـغدير وكلٌّ حُضَّرٌ غير غُيَّبِ (١)

فكَيْفَ غدا صِنْوُ النُّفَيْلِ وَنَجْـلُـه ... أميراً على صِنْوِ النبيِّ المرجَّبِ!

وَكَيْفَ عَلَا مَنْ لا يطا ثوب أحمدٍ ... عَلَى مَنْ عَلَا مِنْ أحمدٍ فوق مِنْكَبِ

إمامُ هُدًى رُدَّتْ له الشمسُ جَهْرَةً ... فصلّى أداءً عَصْرَهُ بَعْدَ مَغْرِبِ (٢)

وَمِنْ قَبْلِهِ أفنَى سليمانُ خَيْـلَهُ ... رَجاءَ فلَمْ يبلُغْ بِهـا نَيلَ مَطْلَبِ (٣)

يجِلُّ عن الأفهام كُنْهُ صفـاتِهِ ... ويرجع عنها الذِّهْنُ رَجْعَةَ أخيبِ

فليسَ بيانُ القول عنهُ بِـكاشِفٍ ... غِطاءً، ولا فصلُ الخطاب بمُعْرِبِ

وحقَّ لقَـبْرٍ ضَمَّ أعضاءَ حَيْدَرٍ ... وغُودِرَ مِنْهُ فى صَفيحٍ مُغَيَّبِ (٤)

(١) هو غدير خم: موضع بين مكة والمدينة؛ روى صاحب الرياض النضرة (٢ : ١٦٩): عن البراء ابن عازب، قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فى سفر فنزلنا بغدير خم، فنودى فينا: الصلاة جامعة، فأوى رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة، فصلى الظهر وأخذ بيد على، وقال: ألستم تعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى، فأخذ بيد على وقال: «اللهم من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه». قال: فلقيه عمر بعد ذلك، فقال: هنيئا لك يابن أبى طالب، أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنه.

(٢) قال الشريف المرتضى فى أماليه (٢ : ٣٤٠): «هو خبر عن رد الشمس له عليه السلام فى حياة النبي صلى الله عليه وآله؛ لأنه روى أن النبي صلى الله عليه وآله كان نائما، ورأسه فى حجر أمير المؤمنين عليه السلام، فلما حان وقت صلاة العصر، كره أن ينهض لأدائها، فيزعج النبي صلى الله عليه وآله من نومه، فلما مضى وقتها وانتبه النبي عليه السلام دعا الله تعالى بردها له، فردها، فصلى عليه السلام الصلاة فى وقتها»؛ ثم أورد بيت السيد الحميرى:

رُدَّتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ لَمَّا فَاتَهُ ... وَقْتُ الصَّلَاةِ وَقَدْ دَنَتْ لِلْمَغْرِبِ

(٣) يشير إلى ما رواه بعض المفسرين لقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾: أن سليمان عرض عليه خيل جياد – فى وقت العصر – فألهاه ذلك عن صلاة العصر؛ فغضب لذلك، وطلب من الله أن يرد عليه الشمس بعد غروبها ليصلى العصر حاضرا؛ فردت، ثم غضب على الخيل التى كانت سببا فى فوت الصلاة فقطع أعناقهم وسوقها».

(٤) الصفيح: الحجر الرقيق تسقف به القبور.

يَكُونُ تَرَاهُ سِرٌّ قُدْسٍ مُمَنَّعٍ وَحَضْبَاؤُهُ مِنْ نُورٍ وَخْيٍ مُحَجَّبِ
وتغشاه من نور الإله غمامة تُفَادِيه من قُدْسِ الجَلالِ بصيِّبِ
وتنقضّ أسرابُ النُّجُومِ عَوَاكِفاً عَلَى حُجْرَتَيْهِ كَوْكَبٌ بَعْدَ كَوْكَبِ
فلولاكَ لم ينجُ ابن مَتَّى ولا خَبَا سَعِيرٌ لإبراهيم بعد تلَهُّبِ
ولا فلق البحرَ ابنُ عمرانَ بالعصا ولا فرّتِ الأحزابُ عن أهلِ يَثْرِبِ
وَلَا قُبِلَتْ من عابدٍ صَلَوَاتُهُ وَلَا غفَرَ الرَّحْمٰنُ زَلَّةَ مُذْنِبِ
ولم يغلُ فيك المسلمونَ جهالةً ولكن لسرٍّ في عُلاك مُغَيَّبِ

وقالوا أيضاً : إنَّ بَكْرِيًّا وشيعيًّا تجادلا ، واحتكما إلى بعض أهل الذّمّة ؛ ممن لاهوى له مع أحد الرجلين فى التفضيل ، فأنشدهما :

كَمْ بَيْنَ مَنْ شَكَّ فى عقيدَتِهِ وَبَيْنَ مَنْ قِيلَ إنه اللهُ !

***

[طرق الإخبار عن الغيوب]

فأما الإخبار عن الغيوب ، فلمعترض أن يقول : قد يقع الإخبار عن الغيوب من طريق النُّجُوم ؛ فإنَّ المنجّمين قد اتفقوا على أن شكلاً من أشكال الطالع إذا وقع لمولود ، اقتضى أن يكون صاحبُهُ متمكناً من الإخبار عن الغيوب .

(١وقد يقع الإخبار عن الغيوب من الكُهّان ، كما يحكى عن سَطِيح ، وشِقّ ، وسَوَاد ابن قارب وغيرهم١) .

(١ـ١) ساقط من ب وشق بن أنمار بن نزار ، وسطيح بن مازن بن غسان ، وسواد بن قارب الدوسى ؛ وأخبارهم فى الكهانة معروفة فى كتب الأدب والتاريخ .

وقد يقع الإخبار عن الغيوب لأصحاب زَجْر الطير والبهائم ، كما يحكى عن بنى لِهْب فى الجاهلية[١] .

وقد يقع الإخبار عن الغيوب للقَافَة ، كما يحكى عن بنى مُدْلِج[٢] .

وقد يخبر أرباب النّيرنجات[٣] وأرباب السّحر والطّلّسْمات بالمغيبات . وقد يقع الإخبار عن الغيوب لأرباب النفس الناطقة القوية الصافية ، التى تتصل مادّتها الرُّوحانيّة على ما تقوله الفلاسفة . وقد يقع الإخبار عن الغيوب بطريق المنامات الصادقة ؛ على ما رآه أكثرُ الناس ، وقد وردت الشريعة نصًّا به .

وقد يقع الإخبار عن الغيوب بأمرٍ صناعىّ يشبه الطبيعىّ ، كما رأيناه عن أبى البيان وابنه .

وقد يقع الإخبار عن الغيوب بواسطة إعلام ذلك الغيب إنسانًا آخرَ ، لنفسه بنفس ذلك المخبر اتحاد أو كالاتحاد ، وذلك كما يحكى أبو البرَكات بن ملكا الطبيب فى كتاب " المعتبر "[٤] قال : والمرأة العمياء التى رأيناها ببغداد ؛ وتكرّرت مشاهدتُنا لها منذ مدة مديدة ، قدْرها ما يقارب ثلاثين سنة ؛ وهى على ذلك إلى الآن تعرض عليها الخبايا ، فتدلّ عليها بأنواعها وأشكالها ومقاديرها ، وأعدادها ؛ غريبها ومألوفها ؛ دقيقها

---

(١) الزجر : الاستدلال بأصوات الحيوانات وحركاتها وسائر أحوالها على الحوادث واستعلام ما غاب عنهم وبنو لهب : حى فى الأزد ؛ كانوا أزجر العرب .

(٢) القيافة قسمان : قيافة الأثر ؛ ويقال لها العيافة ؛ وقيافة البشر ؛ أما العيافة فهو علم باحث عن تتبع آثار الأقدام والأخفاف والحوافر فى المقابلة للأثر ؛ حتى لقد روى أن بعضهم كان يفرق بين أثر قدم الشاب والشيخ وقدم الرجل والمرأة ، والبكر والثيب . أما قيافة البشر فهى الاستدلال بهيئات أعضاء الشخصين على المشاركة والاتحاد بينهما فى النسب والولادة وسائر أحوالها وأخلاقهما وكان بنو مدلج ، وهم بطن فى كنانة ، من أعلم العرب فى قيافة البشر .

(٣) فى القاموس : « النيرنج ، بالكسر : أخذ كالسحر ، وليس به .

(٤) هو كتاب المعتبر فى المنطق ؛ لأبى البركات هبة الله بن ملكا البغدادى ، المتوفى سنة ٥٤٧ ؛ ذكره صاحب كشف الظنون .

وجليلها ، تجيب على أثر السؤال من غير توقف ولا استعانة بشىء من الأشياء ، إلا أنها كانت تلتمس أن ترى الذى يُسأل عنه أبوها ، أو يسمعه فى بعض الأوقات دون بعض ، وعندقوم دون قوم ، فيتصوّر فى أمرها أنّ الذى تقوله بإشارة من أبيها ؛ وكان الذى تقوله يبلغ من الكثرة إلى ما يزيد على عشرين كلمة ؛ إذا قيل بصريح الكلام الذى هو الطريق الأخصر ، وإنما كان أبُوها يقول إذا رأى ما يراه من أشياء كثيرة مختلفة الأنواع والأشكال فى مدة واحدة كلمة واحدة ، وأقصاه كلمتان ؛ وهى التى يكرّرها فى كلّ قول ومع كلّ ما يسمع ، ويَرى : سلْهاوسلْها تخبرك ، أو قولى له ، أو قولى يا صغيرة .

قال أبو البركات : ولقد عاندته يوما وحاققته فى ألا يتكلم البتة ، وأريته عدّة أشياء ، فقال لفظة واحدة ، فقلت له : الشَّرْط أَملك[1] ؛ فاغتاظ واحتدّ طيشُه عن أن يملكَ نفسَه ، فباح بخبيئته ، قال : ومثلُك يظنّ أننى أشرت إلى هذا كله بهذه اللفظة ! فاسمع الآن ، ثم التفت إليها ، وأخذ يشير بإصبعه إلى شىء ، وهو يقول تلك الكلمة ، وهى تقول : هذا كذا وهذا كذا ؛ على الاتصال من غير توقف ، وهو يقول تلك الكلمة ، لا زيادةَ عليها ، وهى لفظة واحدة ، بلَحْنٍ واحد ، وهيئة واحدة ، حتى ضَجِرْنا ، واشتدّ تعجّبنا ، ورأينا أنّ هذه الإشارة ، لو كانت تتضمّن هذه الأشياء لكانت أعجبَ من كل ما تقوله العمياء .

قال أبو البركات : ومن عجيب ما شاهدناه من أمرها ، أنّ أباها كان يغلط فى شىء يعتقده على خلاف ما هو به ، فتخبرُ هى عنه على معتقَد أبيها ؛ كأنّ نفسَها هى نفسُه .

قال أبو البركات : ورأيناها تقول ما لا يعلمُه أبوها من خبيئة فى الخبيئة التى اطّلع عليها أبوها ، فكانت تطّلع على ما قدْ علمه أبوها ، وعلى ما لم يعلمه أبوها ، وهذا أعجب وأعجب .

---

(١) من المثل : الشرط أملك ؛ عليك أم لك ؛ أى أن الشرط يملك صاحبه فى إلزامه إياه المشروط ؛ إن كان له أو عليه .

قال أبو البركات : وحكاياتها أكثرُ من أن تُعَدّ ، وعند كلّ أحد من الناس من حديثها ما ليس عند الآخر ، لأنها كانت تقول من ذلك على الاتصال لشخص شخص جواباً بحسب السؤال .

قال : وما زلت أقولُ : إنّ من يأتى بعدنا لايصدّق ما رأيناه منها ؛ فإن قلت لى : أريد أن تفيدَنى العلّة فى معرفة المغيّبات هذه ؟ قلت: لك العلة التى تصلح فى جواب « لِمَ » فى نسبة المحمول إلى الموضوع تكون الحدّ الأوسط فى القياس وهذه ، فالعلّة الفاعلة الموجبة لذلك فيها هى نفسها بقوتها وخاصتها، فما الذى أقوله فى هذا ! وهلْ لى أن أجعل ماليس بعلة عِلّة !

***

واعلم أنّا لا ننكر أن يكونَ فى نوع البشر أشخاصٌ يخبرون عن الغيوب ، ولكن كلّ ذلك مستند إلى البارئ سبحانه بإقداره وتمكينه وتهيئة أسبابه ، فإن كان المخبِر عن الغيوب ممن يدعى النبوة لم يَجُزْ أن يكون ذلك إلا بإذن الله سبحانه وتمكينه ، وأن يريد به تعالى استدلالَ المكلفين على صدق مُدّعِي النبوّة، لأنه لو كان كاذباً لكان يجوز أن يمكن الله تعالى الجنّ من تعليمه ذلك إضلالاً للمكلّفين ، وكذلك لايجوز أن يمكّن سبحانه الكاذب فى ادعاء النبوّة من الإخبار عن الغيب بطريق السحر وتسخير الكواكب، والطّلسمات ، ولا بالزّجْر ، ولا بالقيافة ، ولا بغير ذلك من الطرق المذكورة ، لما فيه من استفساد البشر وإغوائهم .

وأما إذا لم يكن المخبر عن الغيوب مدّعياً للنبوّة ، نُظر فى حاله ، فإن كان ذلك من الصالحين الأتقياء نُسِب ذلك إلى أنه كرامةٍ أظهرها الله تعالى على يدهِ ، إبانة له وتمييزا

من غيره ، كما فى حق علىّ عليه السلام ، وإن لم يكن كذلك أمكنَ أن يكونَ ساحرا أو كاهنا ، أو نحو ذلك .

وبالجملة فصاحب هذه الخاصيّة أفضلُ وأشرف ممن لا تكون فيه ، من حيث اختصاصُه بها ، فإن كان للإنسان العارى منها مزية أخرى يختص بها توازيها ، أو تزيد عليها ، فنرجع إلى التمييل[١] والترجيح بينهما ، وإلا فالمختصّ بهذه الخاصية أرجَحُ وأعظمُ من الخالى منها على جميع الأحوال .

(١) ب : « التمثيل » ، والصواب ما أثبته من ج .

(٥٩)

الأصل :

وقال لما قتل الخوارج وقيل له : يا أمير المؤمنين، هلك القوم بأجمعهم :

كَلَّا وَاللهِ ؛ إِنَّهُمْ نُطَفٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ ، وَقَرَارَاتِ النِّسَاءِ ، وكُلَّمَا نَجَمَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ حَتَّى يَكُونَ آخِرُهُمْ لُصُوصاً سَلَّابِينَ .

الشرح :

نَجَم : ظهر وطلع .

قرارات النّساء : كناية لطيفة عن الأرحام .

***

ومن الكنايات اللطيفة الجارية هذا المجرى قوله تعالى : ﴿ أَوْلَا مَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ [1]، يعني الجماع .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ [2] .

وقوله : ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ ﴾ [3] ، يعني الفروج .

---

(١) سورة النساء ٤٣ ، المائدة ٦

(٢) سورة ص ٢٣ ، والنعجة هنا كناية عن المرأة ، كما كنوا عنها بالشاة أيضا ، ومنه قول عنترة :

يَا شَاةَ مَاقَنَصٍ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ   حَرُمَتْ عَلَيَّ وَلَيْتَهَا لَمْ تَحْرُمِ

(٣) سورة فصلت ٢٠

وقول رسول الله صلى الله عليه وآله للحادى : « يا أنجشة ، رِفقاً بالقوارير »(١). يعني النساء .

***

[الكناية والرموز والتعريض مع ذكر مثل منها]

والكناية إبدال لفظة – يُستحَى من ذكرها ، أو يستهجن ذِكْرُها ، أو يُتَطَيَّرُ بها ، و يقتضي الحال رَفضَها لأمرٍ من الأمور – بلفظة ليس فيها ذلك المانع ؛ ومن هذا الباب قول امرئ القيس :

سَمَوْتُ إليْهَا بَعْدَ ما نَامَ أهْلُهَا ... سُمُوَّ حَبَابِ الماءِ حالًا عَلَى حالِ(٢)

فقَالَتْ لكَ الوَيْلَاتُ إنّكَ فَاضِحِي ... ألَسْتَ تَرَى السُّمَّارَ والنَّاسَ أحْوَالِي(٣)

فَلَمّا تَنَازَعْنَا الحَدِيثَ وَأسْمَحَتْ ... هَصَرْتُ بِغُصْنٍ ذِي شَمَارِيخَ مَيَّالِ(٤)

فَصِرْنَا إلَى الحُسْنَى وَرَقَّ كَلَامُنَا ... وَرُضْتُ فَذَلَّتْ صَعْبَةً أيَّ إذْلَالِ(٥)

قوله : « فصرنا إلى الحسنى » كناية عن الرَّفَث ومقدّمات الجماع .

***

وقال ابنُ قتيبة : تمازحَ(٦) معاوية والأحنف ؛ فما رُئِيَ مازحان أوقر منهما ، قال

(١) أنجشة الأسود الحادى ، كان حبشيا يكنى أبا مارية ، وكان حسن الصوت بالحداء . . . وعن أنس قال : كان أنجشة يحدو بالنساء ، وكان البراء بن مالك يحدو بالرجال ، فإذا اعتقب الإبل قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير » .

(٢) ديوانه ٣١ ، ٣٢ مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات . وحباب الماء : طرائقه . وقوله : « حالا بعد حال » ، أى شيئا بعد شىء .

(٣) الديوان : « فقالت : سباك الله » .

(٤) تنازعنا الحديث ، أى حدثتها وحدثتنى ، وأصله من النزع بالدلو ، وهو جذبها . وأسمحت ؛ انقادت وسهلت بعد صعوبتها وامتناعها . وهصرت ، أى جذبت ، وشبه شعرها بشماريخ النخل لتداخله وغزارته .

(٥) رق كلامنا ، أى صرنا إلى الصبا والغزل فلم نرفع أصواتنا لئلا يشعر بنا . ورضت فذلت ، أى لينتها بالكلام ، كما يراض البعير بالسير .

(٦) الخبر فى عيون الأخبار ٢ : ٢٠٣ ، وروى بيتين ، والثالث فى اللسان (١٦ : ٢٠) ، ونسب الأبيات إلى يزيد بن عمرو بن الصعق ، وهى أيضا فى الكامل ١ : ٩٨ (طبعة أوربا) ، ونسبها لأبى مهوش الفقعسى ، ونقل عن دعبل أنها لأبى المهوش الأسدى

معاوية : ياأبا بَحْر ، ما الشيء الملفَّفُ فى البِجاد ؟ فقال : السخينةُ [١] ياأمير المؤمنين ، وإنما كَنَى معاوية عَنْ رَمْى بنى تميم بالنَّهَم وحُبِّ الأكل ، بقول القائل :

إذَا مَا مَاتَ مَيْتٌ مِنْ تَمِيمٍ ... فَسَرَّكَ أَنْ يَعِيشَ فَجِئْ بِزَادِ
بِخُبزٍ أو بتمرٍ أو بِسَمْنٍ ... أو الشيء الملفف فِي الْبِجَادِ [٢]
تَرَاهُ يَطُوفُ فى الآفاقِ حِرْصاً ... ليأكلَ رأسَ لُقْمَانَ بن عادِ

وأراد الشاعر وَطْبَ اللبن ، فقال الأحنف : « هو السخينة ياأمير المؤمنين » ؛ لأنَّ قريشا كانت تعيَّر بأكلِ السخينة قبل الإسلام ؛ لأنَّ أكثرَ زمانها كان زمان قَحْطٍ ، والسخينة مايُسَخَّن بالنار ويُذَرّ عليه دقيق ؛ وغلب ذلك على قريش حتى سميت سخينة ، قال حسّان :

زَعَمَتْ سَخِينَةُ أنْ سَتَغْلِبُ رَبَّهَا ... وَلَيُغْلَبَنَّ مغالب الغَلَّابِ [٣]

فعبَّر كل واحد من معاوية والأحنف عمّا أراده بلفظ غير مستهجَن ولا مستقبح ، وعلِم كُلٌّ واحد منهما مرادَ صاحبه ، ولم يفهم الحاضرون مادار بينهما ؛ وهذا من باب التعريض ، وهو قريب من الكناية .

***

ومن كنايات الكتاب العزيز أيضا قولُه تعالى : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَئُوها ﴾ [٤] ، كَنى بذلك عن مناكح النساء .

ومنها قوله تعالى : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ [٥] ، كَنى عن مواقع النسل بمواقع الحرث .

(١) السخينة : طعام يتخذمن دقيق وسمن ، وكانت قريش تكثر من أكلها ، فعيرت بهاحتى سموا سخينة.
(٢) البجاد : كساء مخطط ، من أكسية الأعراب .
(٣) وكذا فى الاقتضاب ٤٦ ، والصواب أن البيت لكعب بن مالك الأنصارى ؛ من قصيدة له فى سيرة ابن هشام ٣ : ٢٨٥ ـ ٢٨٩ .
(٤) سورة الأحزاب ٢٣
(٥) سورة البقرة ٢٢٣

ومما ورد فى الأخبار النبويّة فى هذا الباب ، الخبر الذى فيه : إن المرأة قالت للرجل القاعد منها مَقْعد القابلة : لايحلّ لك أن تفضّ الخاتَم إلّا بحقّه ، فقام عنها وتركها .

وقد أخذ الصاحب بن عباد هذه اللفظة ؛ فقال لأبى العلاء الأسدىّ الأصفهانى ، وقد دخل بزوجةٍ له بكْر :

قُلْ لِي عَلَى الْحُرْمَةِ يا أبا الْعَلَا ... فَهَلْ فَتَحْتَ الْمَوْضِعَ الْمُقْفَلَا ![1]
وَهَلْ فَضَضْتَ الْكِيسَ عَنْ خَتْمِهِ ... وَهَلْ كَحَلْتَ النَّاظِرَ الأَحْوَلَا !

وأنشد الفرزدق فى سليمان بن عبد الملك شعرا قال فيه :

دَفَعْنَ إلىّ لم يُطْمَثْنَ قَبْلِي ... وَهُنَّ أصَحُّ مِنْ بَيْضِ النَّعَامِ[2]
فَبِتْنَ بِجَانِبَيَّ مُصَرَّعَاتٍ ... وَبِتُّ أفُضُّ أغْلَاقَ الْخِتَامِ

فاستنكر سليمان ذلك ـ وكان غيورا جدا ـ وقال له : قد أقررت بالزنا ، فلأجلدنّك ، فقال : يا أمير المؤمنين إنى شاعر ؛ وإن الله يقول فى الشعراء : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالَا يَفْعَلُونَ ﴾ ، وقد قلتُ مالم أفعل[3] ، قال سليمان : نجوت بها .

ومن الأخبار النّبوية أيضا ، قولُه عليه السلام فى الشهادة على الزنا ، « حتى تشاهد المِيلَ[4] فى المُكْحُلة » .

---

(١) الكناية والتعريض للثعالبي ١٣

(٢) ديوانه ٨٣٦ ، وفيه : « يمدح هشام بن عبد الملك » بقصيدة مطلعها :

أَلَسْتُمْ عَائجِينَ بِنَا لَعَنَّا ... نَرَى الْعَرَصَاتِ أَوْ أَثَرَ الْخِيَامِ

والخبر أيضا فى كنايات الجرجانى ٢١ .

(٣) زاد الجرجانى بعدها : « ثم أنشأ يقول :

لَقَدْ شَهِدَتْ لِي فِي الطَّوَاسِينِ آيَةٌ ... أَقَامَ بِهَا عُذْرِي الْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ
يَقُولُونَ مَالَا يَفْعَلُونَ وَإِنَّنِي ... مِنَ الْقَوْمِ قَوَّالٌ لِمَا لَسْتُ أَفْعَلُ

(٤) الميل : الحديدة التى يكتحل بها .

ومنها قوله عليه السلام للمرأة التى استفتته فى الذى استحْلت له ولم يستطع جِماعها : « لَا ، حَتَّى تَذُوقِ عُسَيلَتَهُ وَيَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ » .

ومنها قول المرأة التى شكت إلى عائشة زوجها أنه يُطمح بصرَه إلى غيرها : « إنى عزمتُ على أن أقيِّد الجمل » ؛ إشارة إلى رَبْطه .

ومنها قول عمر : يا رسول الله ، هلكت ، قال : « وَمَا أَهْلَكَكَ ؟ » قال : حوّلتُ رَحْلى ؛ فقال عليه السلام : « أقبل وأدبرْ واتّق الحيْضة » ، ففهم صلى الله عليه وآله ما أراد .

ورأى عبد الله بن سلاَم على إنسان ثوباً معصفرا ، فقال : لو أن ثوبك فى تَنّور أهلك لكان خيرا لك ؛ فذهب الرجلُ فأحرق ثوبه فى تَنُّور أهله ؛ وظنّ أنه أراد الظاهر ؛ ولم يرد ابن سلاَم ذلك ؛ وإنما أراد : لو صُرِف ثمنهُ فى دقيق يخبزه فى تنُّور أهله .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وآله : « إياكُم وخضراء الدِّمَن » والدِّمَن : جمع دِمْنة ، وهى المزبلة فيها البعْر تُنبت نباتا أخضر ، وكنى بذلك عن المرأة الحسناء فى منبت السوء .

ومن ذلك قولهم : « إياكَ وعقِيلة الملح » ، لأن الدُّرّة تكون فى الماء الملح ، ومرادهم النهى عن المرأة الحسناء وأهلها أهل سوء .

ومن ذلك قولهم : « لبس له جلد النَّمِرِ » ، و « قلب له ظهرَ المِجنّ »[1] .

وقال أبو نواس :

لاَ أَذُودُ الطَّيرَ عَنْ شَجَرٍ ... قَدْ بَلَوْتُ المُرَّ من ثَمَرِهْ[2]

---

(١) لبس له جلد النمر ، مثل يضرب فى إظهار العداوة وكشفها ، وقلب له ظهر المجن ، مثل أيضا يضرب لمن كان مع صاحبه على مودة ، ثم حال عن العهد . وانظر الميدانى ٢ : ١٠١ ، ١٨٠ .

(٢) من قصيدة يمدح فيها العباس بن عبيد الله بن أبى جعفر المنصور ، ومطلعها :

أَيُّهَا المُنْتَابُ مِنْ عُفُرِهْ ... لَسْتَ مِنْ لَيْلِي ولا سَمَرِهْ

ديوانه ٦٦ .

وقد فسّر قومٌ قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مرُّوا باللَّغوِ مَرُّوا كِراما ﴾[١] فقالوا : أراد: وإذا عبّروا عن اللفظ بما يقبُح ذكرُه كَنَوْا عنه ، فسمى التعبير عن الشئ مُرورا به ، وسمّى الكناية عنه كرما .

ومن ذلك أنّ بنتَ أعرابية صرخت ، وقالت : لسعتْنى العقرب ، فقالت أمّها: أين؟ فقالت : موضع لا يضع الرّاق فيه أنفه ؛ كَنَت بذلك عن السوءة .

ومن هذا الباب قوله سبحانه : ﴿ مَا المَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾[٢] ؛ قال كثير من المفسرين: هو كناية عن الغائط ، لأنه يكون من الطعام ، فكنى عنه ، إذا هو منه مسبَّب ، كما كنوا عن السِّمَة بالنار فقالوا : مانار تلك ؟ أى ماسمتها ؟ ومنه قول الشاعر[٣] :

قد وَسَمُوا آبالَهُمْ بالنارِ[٤] والنَّارُ قَدْ تَشْفِى من الأُوارِ[٥]

وهذا من أبيات المعانى ، يقول : هم أهل عزّ ومَنَعة ، فسقى راعيهم إبلهم بالسّمات التى على الإبل ؛ وعلم المزاحمون له فى الماء أنه لا طاقة لهم بمنازعتهم عليه لعزّهم ، فكانت السِّمات سبباً لسقيها . والأوار : العطش ؛ فكنى سبحانه بقوله : ﴿ يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ عن إتيان الغائط ؛ لما كان أكل الطعام سبباً له ؛ كما كَنَى الشاعر بالنّار عن السِّمَة ؛ لما كانت النار سبب السِّمَة .

---

(١) سورة الفرقان ٧٢

(٢) سورة المائدة ٧٥

(٣) الرجز فى اللسان ٧ : ١٠٢ ، والمقاييس ١ : ٤٠ من غير نسبة .

(٤) رواية البيت فى المقاييس :

* قَدْ شَرِبَتْ آبالُهُمْ بالنّارِ *

وروايته فى اللسان :

* حتى سَقَوْا آبالَهُمْ بالنّارِ *

وقال فى شرحه : « أى سقوا إبلهم بالسمة ، أى إذا نظروا فى سمة صاحبه عرف صاحبه فسقى وقدم على غيره لشرف أرباب تلك السمة ، وخلوا لها الماء » .

(٥) وروى هذا البيت أيضا فى اللسان ٥ : ٩٥ .

ومن هذا الباب قوله سبحانه : ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ ؛[١] كَنَى بالإفضاء عن الجماع .

ومن الأحاديث النّبويّة : « مَنْ كَشَفَ قناعَ امرأة ، وَجَبَ عليه مهرُها » ، كَنَى عن الدخول بها بكشف القناع ؛ لأنه يكشف فى تلك الحالة غالبا .

والعرب تقول فى الكناية عن العِفّة : ما وضعت مومسة عنده قناعا .

ومن حديث عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وآله يصيب من رءوس نسائه وهو صائم ؛ كنت بذلك عن القبْلة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ ﴾ ،[٢] كَنَى بذلك عن الجماع والمخالطة .

وقال النابغة الجعدىّ :

إذا ما الضَّجيعُ ثَنَى عِطفَها ... تثنّتْ فكانَتْ عليه لباسا[٣]

وقد كنَت العرب عن المرأة بالريحان ، وبالسَّرْحة ؛ قال ابن الرقيّات :

لَا أَشَمُّ الرَّيْحَانَ إِلَّا بِعَيْنِى ... كَرَمًا إِنَّمَا تَشَمُّ الْكِلَابُ[٤]

أى أقنع من النساء بالنظر ؛ ولا أرتكب منهنّ محرما .

وقال حُميد بن ثور الهلالىّ :

أَبَى اللّهُ إِلّا أنّ سَرْحَةَ مالِكٍ ... عَلَى كُلِّ أفنانِ العِضاهِ تَرُوقُ[٥]

فياطيبَ ريّاها وَبَرْدَ ظِلَالِها ... إذا حان مِنْ حامى النَّهارِ وَدِيقُ

---

(١) سورة النساء ٢١

(٢) سورة البقرة ١٨٧

(٣) ديوانه ٨١ ومقاييس اللغة ٥ : ٢٣٠ ، وروايتها : « ثنى جيدها » . وهو فى اللسان ٧ : ٨٧

(٤) ديوانه ٨٥

(٥) ديوانه ٤٠ .

وَهَلْ أنا إن علّلت نفسى بِسَرْحَــةٍ من السَّرْح مَسْــدُودٌ عَلَىَّ طَرِيقُ !

والسَّرْحة : الشجرة .

وقال أعرابىّ ، وكَنَى عن امرأتين :

أيانخلتَىْ أَوْدٍ إذا كَانَ فِيكُمَا جَنًى فانظُرا مَنْ تُطْعِمَانِ جنَا كُمَا ![1]

ويانخلتَىْ أَوْدٍ إذَا هبَّتِ الصَّبَــا وأمسيتُ مقروراً ذكرتُ ذَرَا كُمَا

* * *

ومن الأخبار النبويّة قوله عليه السلام: « مَنْ كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر فلايسقينّ ماءه زرع غــيره » ؛ أراد النّهى عن نــكاح الحبائل ؛ لأنّه إذا وطئها فقــد سَقَى ماءه زرع غيره .

وقال صلى الله عليه وآله لخوّات بن جُبير[2]: « مافَعَلَ جَمَلُك ياخَوّات »؟ يمازحه، فقال : قيّدَه الإسلام يارسول الله ؛ لأن خَوّاتاً فى الجاهلية كان يغشَى البيوت ، ويقول : شَرَدَ جملى وأنا أطلبه ؛ وإنّما يطلب النساء والخلوة بهنّ ؛ وخوّات هـذا هو صاحب ذات النِّحْيَيْن .

ومن كنايات القرآن العزيز قوله تعالى:﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾[4] ؛ كَنَى بذلك عن الزنا ، لأنّ الرجل يكون فى تلك الحال بين يدى المرأة ورجليها .

ومنه فى الحديث : « إذا قعَد الرجُل بين شُعَبها الأربع » .

---

(١) أود : موضع بالبادية .

(٢) خوات ابن جبير بن النعمان بن أمية الأنصارى الصحابى ، أبوعبدالله ، وقيل : أبوصالح ، أحد فرسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مات سنة ٤٠ . تاج العروس ١ : ٥٤٣ .

(٣) هى امرأة من تيم الله بن ثعلبة ؛ كانت تبيع السمن فى الجاهلية ؛ وهى موضع المثل : أشغل من ذات النحيين ، وانظر الميدانى ١ : ٣٧٦

(٤) سورة الممتحنة ١٢ .

وقد فسّر قوم قولَه تعالى: ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحطب ﴾[١]؛ عن النميمة، والعرب تقولُ لمن يَنِمّ ويَشِى: يُوقِدُ بين النّاس الحطَبَ الرَّطْب.

وقال الشاعر يذكر امرأة:

مِنَ البِيضِ لم تُصْطَدْ على خَيْلِ لَامَةٍ ... ولم تَمْشِ بَيْنَ النَّاسِ بالحَطَبِ الرَّطْبِ[٢]

أى لم تؤخذ على أمرٍ تلام عليه، ولم تُفسِد بين الحىّ بالكذب والنميمة.

***

ومما ورد نظير ممازحة معاوية[٣] والأحنف من التعريضات أنّ أبا غسّان المِسْمعىّ مرّ بأبى غِفَار السّدوسىّ، فقال: ياغِفَار؛ مافعل الدِّرْهمان؟ فقال؛ لحقا بالدرهم؛ أراد بالدِّرهمين قول الأخطل:

فإنْ تَبْخَلْ سَدُوسُ بدِرْهَمَيْها ... فإنّ الريحَ طَيِّبَةٌ قَبُولُ[٤]

وأراد الآخر قول بشّار:

وَفِى جَحْدَرٍ لؤمٌ، وفى آلِ مِسْمَعٍ ... صَلَاحٌ ولكنْ دِرْهَمُ القومِ كَوْكَبُ[٥]

***

وكان محمد بن عِقَال المجاشعىّ عند يزيد بن مَزْيد الشيبانىّ، وعنده سيوفٌ تُعرَض عليه؛ فدفع سيفا منها إلى يد محمد، فقال: كيف ترى هذا السيف؟ فقال: نحن أبصر بالتّمر منّا بالسيوف، أراد يزيد قول جرير فى الفرزدق:

بِسَيْفِ أبى رَغْوَانَ سَيْفِ مُجَاشِعٍ ... ضربتَ ولم تضربْ بسيفِ ابنِ ظَالِمِ[٦]

ضربتَ به عنــد الإمام فأُرْعِشَتْ ... يَدَاك، وقالوا: مُحْدَثٌ غيرُ صارِمِ

(١) سورة اللهب ٤

(٢) البيت فى اللسان ١ : ٣١٣، من غير نسبة. (٣) ص ١٥، ١٦.

(٤) ديوانه ١٢٦

(٥) ديوانه ١ : ٣٤٣

(٦) ديوانه ٥٦٣.

وأراد محمد قول مَروان بن أبي حفصة :

لقد أفسدت أسنان بكر بن وائل   من التّمر مالو أُصلحتْه لَمارَهَا

* * *

وقال محمد بن عمير بن عطاء التميمىّ لشريك النميرىّ ، وعلى يده صقْر : ليس فى الجوارح أحبّ إلىّ من البازى ؛ فقال شريك : إذا كان يصيد القطا ، أراد محمد قول جرير :

أنا البازِى المطِلُّ عَلَى نُمَيْرٍ   أُتيحَ من السَّماء لها انْصِبَابَا[(1)]

وأراد شريك قول الطِرِمّاح :

تميمٌ بطرْق اللؤْمِ أهْدَى من القطا   وَلَوْسَلَكَتْ سُبْلَ المكارِمِ ضَلَّتِ[(2)]

* * *

ودخل عبد الله بن ثعلبة المحاربىّ على عبد الملك بن يزيد الهلالىّ ؛ وهو يومئذ والى أرمينِيَة ، فقال له : ماذا لقينا الليلة من شيوخ محارب ! منعونا النَّوْم بضوضائهم ولَغَطهم ؛ فقال عبدالله بن ثعلبة : إنهم — أصلح الله الأمير — أضلّوا الليلة برُقعا ، فكانوا يطلبونه .

أراد عبد الملك قولَ الشاعر :

تَـكِشُّ بلا شىء شيوخُ محارِبٍ   وماخلتُها كانَتْ تَرِيش ولا تَبْرِى[(3)]

ضفادع فى ظلماء ليلٍ تجاوبت   فدلَّ عليها صوتُها حيّةَ البحرِ

وأراد عبد الله قول القائل :

لِـكُلِّ هلالىٍّ من اللؤم بُرْقُعٌ   ولابن يزيد بُرْقُعٌ وجِـــلَالُ[(4)]

(١) ديوانه ٧٢ .

(٢) الشعر والخبر فى اللآلى ٨٦٣ ، وكنايات الجرجانى ٧٢

(٣) للأخطل ، ديوانه ١٣٢ ، تـكِش : تصوت ، وفى الديوان : «تنق»

(٤) الشعر والخبر فى كنايات الجرجانى ٧٢

وروى أبو بكر بن دُريد فى كتاب " الأمالى " عن أبى حاتم ، عن العُتبىّ ، عن أبيه ؛ أنه عُرِض على معاوية فرس ، وعنده عبد الرحمن (١) بن الحكَم بن أبى العاص ؛ فقال : كيف ترى هذا الفرس يا أبا مطرّف ؟ قال أراه أجشّ هزيما ، قال معاوية : أجل ، لكنه لا يطّلع على الكنائن ، قال : يا أمير المؤمنين ؛ ما استوجبتُ منك هذا الجواب كلّه ، قال : قد عوّضتك عنه عشرين ألفا .

قال أبو بكر بن دريد : أراد عبد الرحمن التعريض بمعاوية بما قاله النجاشى فى أيام صِفّين :

وَنَجّى ابنَ حربٍ سابحٌ ذُو عُلَالَةٍ ... أجشُّ هَزِيمٌ والرّماح دوانى (٢)

إذا قلت أطراف الرماح تَنُوشُه ... مَرَتْه له السّاقَان والقَدَمَانِ (٣)

فلم يحتمل معاوية منه هذا المَزاح ؛ وقال : لكنه لا يطّلع على الكنائن ؛ لأن عبد الرحمن كان يُتّهم بنساء إخوته (٤) .

***

وروى ابن دريد أيضا فى كتاب " الأمالى " عن أبى حاتم النَّخَعىّ ، أنّ النجاشىّ دخل على معاوية ، فقال له : كيف قلت : « ونجّى ابنَ حربٍ سابحٌ » ، وقد علمت أنّ الخيل لا تجرى بمثلى (٥) فرارا ؟ قال : إنما عنيت عتبة أخاك — وعُتْبة جالس — فلم يقل معاوية ولا عُتبة شيئا .

***

(١) ب : « عبد الله » ، والصواب من ا ، ج ، وجمهرة الأمثال ١١٠

(٢) السابح : الفرس السريع ، كأنه يسبح ، والعلالة : البقية من السير . والأجش : الغليظ الصوت من الإنسان والخيل والرعد وغيره . والهزيم : الفرس الشديد الصوت .

(٣) مرته : استدرت جريه .

(٤) الخبر برواية أخرى فى الأغانى ١٣ : ٢٦٠ .

(٥) ب : « بى » .

وورد إلى البصرة[١] غلام من بنى فَقْعس ، كان يجلس فى المِرْبد[٢] ، فينشد شعرا . ويجمع الناس إليه ؛ فذُكر ذلك للفرزدق ، فقال : لأسوءنّه ، فجاء إليه ، فسمع شيئا من شعره ، فحسَده عليه ، فقال : ممّنْ أنت ؟ قال : من بنى فَقْعس ، قال : كيف تركت القنان[٣] ؟ فقال : مقابل لَصافِ[٤] ؛ فقال : ياغلام ، هل أنجدَتْ أمك ؟ قال : بل أنجد أبى .

قال أبو العباس المبرّد : أراد الفرزدق قول الشاعر[٥] :

ضَمِنَ القَنَانُ لِفَقْعَسٍ سوآتها إن القَنَانَ لِفَقْعَسٍ لمعمَّرُ[٦]

والقَنَان جبل فى بلاد فَقْعس ؛ يريد أن هذا الجبل يستر سوآتهم ، وأراد الغلام قول أبي المهوِّش[٧] :

وإذا يَسُرُّكَ من تميم خَـلَّةٌ فلَمَا يَسُوءك مِنْ تميمٍ أكثرُ[٨]
أكلت أُسَيْدٌ والهُجَيْمُ ودارِمٌ أيْرَ الحمار وخُصيتيه العَنْبَرُ
قد كنتُ أحسِبُهم أسودَ خَفِيَّةٍ فإذا لَصَافِ يبيض فيه الحُمَّرُ

ولَصَاف : جبل فى بلاد بنى تميم ،وأراد بقوله : « هل أنجدَتْ أمك »،أى إن كانت

---

(١) الخبر فى أمالى القالى ٢ : ٢٣٦ وكنايات الجرجانى ٧٣ وخزانة الأدب ٣ : ٨٥ واللآلى للبكرى ٨٥٩ مع اختلاف الرواية .

(٢) المربد ، يطلق على مواضع ؛ والمراد هنا مربد البصرة ؛ قال ياقوت : « من أشهر محالها ؛ وكان يكون سوق الإبل فيه قديما ؛ ثم صار محلة عظيمة ؛ سكنها الناس ؛ وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء

(٣) فى الأصول : « القيان » تصحيف ؛ والقنان : موضع ذكره ياقوت ، وقال : « هو جبل فيه ماء يدعى العسيلة ؛ وهو لبنى أسد ؛ ولذلك قيل . . . » ، وأورد البيت .

(٤) رواية الخزانة : « تبيض فيه الحمر » .

(٥) هو نهشل بن حرى ؛ يهجو بنى فقعس ، كما ذكره ياقوت (لصاف) .

(٦) قال ياقوت : « معمر ، أى ملجأ » .

(٧) من أبيات تسعة ذكرها صاحب الخزانة ٣ : ٨٤ نقلا عن ضالة الأديب ، وهى أيضا فى الوحشيات ٢١٨

(٨) فى الجرجانى والبكرى والخزانة : « خصلة » .

أنجدتْ فقد أصابها أبى ، فخرجتَ تشبهنى ؛ فقال : بل أنجد أبى ؛ يريد بل أبى أصاب أمّك فوجدها بغيًّا .

***

قال عبد الله بن سوّار : كنا على مائدة إسحاق بن عيسى بن علىّ الهاشمىّ ؛ فأتينا بحريرة قد عمِلت بالسكر والسمن والدقيق ؛ فقال معدّ[1] بن غَيلان العبْدىّ : ياحبذا السخينة ! ما أكلت – أيها الأمير – سَخينةً ألذّ من هذه ؛ فقال : إلّا أنها تولّد الرياح فى الجوف كثيرا ؛ فقال : إنّ المعايب لاتذكر على الخوان .

أراد معدّ ما كانت العرب تعيّر به قريشا فى الجاهلية من أكل السّخينة[2]، وقد قدّمنا ذكره ، وأراد إسحاق بن عيسى مايعيّر به عبد القيس من الفَسْو ؛ قال الشاعر :

وَعَبْد الْقَيس مُصْفَرٌّ لحاهــا ... كأنّ فساءها قِطَعُ الضّبـابِ

***

وكان سِنان[3] بن أحمس النّميرىّ يساير الأمير عمر بن هبيرة الفزارىّ ، وهو على بغلة له ، فتقدمت البغلة على فرس الأمير ، فقال : اغضض[4] بغلتك ياسنان ؛ فقال : أيها الأمير ؛ إنها مكتوبة ؛ فضحك الأمير .

أراد عمر بن هبيرة قول جرير :

فَغُضّ الطّرْفَ إنّكَ مِنْ نُمَــيرٍ ... فلا كَعْبــاً بلغتَ وَلَا كِلابًا

وأراد سنان قولَ ابن دارة[5] :

لاتأمَنَنّ فَزَارِيًّا خَــلَوْتَ بِهِ ... عَلَى قَلُوصِك واكْتُبْهَا بأسْيارِ

---

(١) فى كنايات الجرجانى « معدل » .

(٢) الخبر فى الكنايات للجرجانى ٧٢

(٣) فى الاقتضاب : « شريك بن عبد الله النميرى » .

(٤) فى الاقتضاب : « غض من لجام بغلتك » .

(٥) فى الأصول : « الأخطل » ، وهو خطأ ، والبيت لسالم بن دارة ، من أبيات أوردها صاحب الخزانة : ١ : ٥٥٧ وانظر الجرجانى ٧٤ ، والفاضل ٥٤ ، والسهيلى ٢ : ٢٨٨ ، وزهر الآداب ٢١ ، والاقتضاب ٥٠ .

وكانت فَزارة تعيَّر باتيان الإبل ؛ ولذلك قال الفرزدق يهجو عمر بن هبيرة هذا ، ويخاطب يزيد بن عبد الملك [١] .

أمير المؤمنين وأنت برٌّ تقىٌّ لَسْتَ بالجشع الحريصِ [٢]
أَأطعمتَ العِرَاق وَرَافِدَيْه فزاريًّا أحَذَّ يدَ القميصِ [٣]
تَفَنَّق بالعراقِ أبو المثنَّى وَعلَّم قومَه أكل الخبيصِ [٤]
ولم يك قبلَها راعِى مخاضٍ لتأمنه على وَرِكَىْ قَلُوصِ [٥]

الرافدان : دِجْلة والفُرات ، وأحذّ يد القميصِ ، كناية عن السرقة والخيانة. وتفنّق: تنعَّم وسمن ، وجارية فنُق ؛ أى سمينة .

والبيت الآخر كناية عن إتيان الإبل الذى كانوا يُعيّرون به [٦] .

وروى أبو عُبيدة عن عبد الله بن عبد الأعلى قال : كنا نتغدّى مع الأمير عمر بن هبيرة . فأحضر طباخُه جامَ خَبيص ، فكرهه للبيت المذكور السابق ، إلا أنّ جلَدَه أدركه ، فقال : ضعه ياغلام ، قاتل الله الفرزدق ، لقد جعلنى أرى الخبيص فأستحى منه [٧] !.

***

قال المبرّد : وقد يسير البيت فى واحد ؛ ويرى أثره عليه أبدا ، كقول أبى العتاهية

---

(١) ديوانه ٤٨٧ ، الكامل ٤٧٩ (طبع أوربا) ، الفاضل ١١١ ، كنايات الجرجانى ٧٤ ، الحيوان ٥ : ١٩٧ ، الشعراء لابن قتيبة ٣٤

(٢) الديوان والحيوان : « بالوالى الحريص » .

(٣) الأحذ : السريع اليد الخفيفها . قال ابن قتيبة : « يريد أنه خفيف اليد بالخيانة ، فاضطرته القافية لذكر القميص » .

(٤) فى الحيوان « تفتق » ، من قولهم : تفتقت خواصر الغنم من البقل ، إذا اتسعت من كثرة الرعى . والخبيص : ضرب من الحلوى المطبوخة .

(٥) المخاض : الحوامل من النوق ؛ والقلوص : الشابة من الإبل .

(٦) كنايات الجرجانى ٧٤

(٧) كنايات الجرجانى ٧٥ .

فى عبد الله بن معن بن زائدة :

فما تَصْنَعُ بالسَّيفِ　　إذا لم تكُ قتّالَا [1]
فكَسِّرْ حِلْيةَ السَّيفِ　　وصُغْها لكَ خلخالا

وكان [2] عبد الله بن معن إذا تقلّد السيفَ ورأى مَنْ يرمُقه بان أثرُه عليه ؛ فظهر الخجل منه .

***

ومثل ذلك مايحكى أنّ جريرا قال : والله لقد قلتُ فى بنى تَغلِب بيتاً لو طُعِنُوا بعدَها بالرّماح فى أستاهم ماحَكُّوها ؛ وهو :

والتَّغْلَبىّ إذا تَنحنَحَ لِلقِرَى　　حَكّ استَه وتمثّــل الأمثالا [3]

***

وحكى أبو عبيدة عن يونس ، قال : قال عبدالملك بن مَرْوان يوما ؛ وعنده رجال : هل تعلمون أهلَ بيت قيل فيهم شعر ، وَدُّوا لو أنهم افتدوْا منه بأموالهم ؟ فقال أسماء بن خارجة الفَزارِىّ : نحن ياأمير المؤمنين ؛ قال : وماهو ؟ قال : قول الحارث بن ظالم المرّىّ :

وما قومى بثعلبة بن سعدٍ　　ولا بفَزارةَ الشُّعْر الرقابا

فوالله ياأميرَ المؤمنين ؛ إنى لألبَس العمامة الصفيقــة ؛ فيخيَّل لِى أن شعر قفــاىَ قد بدا منها .

---

(١) ديوانه ٣٣٤ ، والخبر والبيتان فى كنايات الجرجانى ٧٥ ، وقبلهما :

لقد بُلِّغْتُ ماقالا　　فما باليتُ ماقالا
ولو كانَ من الأُسْدِ　　لمــا هال ولا صالا

(٢) الجرجانى : « قال : فكان » .

(٣) الخبر فى كنايات الجرجانى ٧٥ .

وقال هانئ بن قبيصة النميرى : نحن ياأمير المؤمنين ؛ قال وما هو ؟ قال قول جرير :

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنكَ مِنْ نُمَيرٍ فَلا كَعْباً بَلَغْتَ وَلا كِلابا[1]

كان النميرى ياأمير المؤمنين إذا قيل له : ممّن أنت ؟ قال : من نُمير، فصار يقول بعد هذا البيت : « من عامر بن صعصعة »[2] .

ومثل ذلك ما يروى أنّ النجاشى لما هجا بنى العجلان بقوله[3] :

إذَا اللهُ عَادَى أهلَ لؤمٍ ورِقّةٍ فعادى بنى العَجْلان رهطَ ابن مُقْبِل[4]

قُبَيِّلَةٌ لا يغدِرُون بذِمّـــة ولا يَظلِمُون النَّاسَ حَبَّةَ خردلِ

وَلَا يرِدُون الماء إلّا عَشِيَّـةً إذا صدَر الوُرَّاد عن كلِّ منهلِ

وَما سُمِّى العَجْلان إلا لقولِهِ : خذ القَعْبَ فاحلُب أيها العبد واعجَلِ[5]

فكان الرَّجُل منهم إذا سُئل عن نسبه يقول : من بنى كعب ، وترك أن يقول : « عجلانىّ » .

***

وكان عبد الملك بن عمير القاضى ، يقول : والله إنّ التّنحنُحَ والسعال ليأخذنى وأنا فى الخلاء فأردّه حياء من قول القائل :

إذَا ذَاتُ دَلٍّ كلّمته لحاجةٍ فهمّ بأن يقضى تَنَحْنَحَ أو سَعَلْ

***

(١) ديوانه ٧٥

(٢) كنايات الجرجانى ٧٥ ، والعمدة لابن رشيق ١ : ٧٥ .

(٣) الأبيات فى العمدة لابن رشيق ١ : ٢٧ ، كنايات الجرجانى ٧٥ ، مختارات ابن الشجرى ١٣١، الشعر والشعراء ٢٩٠ ، الخزانة ١ : ١١٣ ، مع خبر مذكور ، بمختلف رواية .

(٤) ابن مقبل ، هو تميم بن أبى بن مقبل ، قال الجمحى فى الطبقات ١٢٥ : « تميم بن أبى بن مقبل ، شاعر خنذيذ مغلب ، غلبه النجاشى » ولم يكن إليه فى الشعر ، وقد قهره فى الهجاء فقال :

* إذا الله عادى أهلَ لؤمٍ ودِقّةٍ *

(٥) القعب : القدح الضخم الغليظ الجافى .

ومن التعريضات اللطيفة ، ما رُوِى أن المفضّل بن محمد الضبىّ بعث بأضحيةٍ هزيل إلى شاعر ، فلما لقيَه سأله عنها ، فقال : كانت قليلة الدم ، فضحِك المفضّل ، وقال : مهلا يا أبا فلان ؛ أراد الشاعر قول القائل :

وَلَوْ ذُبِح الضّبىّ بالسَّيْفِ لم تَجِدْ من اللؤم للضبىّ لحمًا ولَا دَمَا[1]

***

وروى ابن الأعرابىّ فى الأمالى قال : رأى عقال بن شبّة بن عقال المجاشعىّ على أصبع ابن عنبس وَضَحا ، فقال : ماهذا البياض على إصبعك يا أبا الجرّاح ؟ فقال : سَلْح النعامة يابن أخى ؛ أراد قول جرير :

فضحَ العشيرةَ يومَ يسْلَح قائما سَلْح النعامة شَبَّةُ بنُ عقالِ[2]

وكان شبّة بن عقال قد بَرَز يوم الطُّوانة[3] مع العبّاس بن الوليد بن عبد الملك إلى رجل من الروم ؛ فحمل عليه الرومىّ ، فنكَص وأحدث ؛ فبلغ ذلك جريرا باليمامة ، فقال فيه ذلك[4].

***

ولقى الفرزدق مخنثا يحمِلُ قُماشه[5] ، كأنه يتحوّل من دار إلى دار ؛ فقال : أين راحت عمّتُنا ؟ فقال : قد نفاها الأغرّ يا أبا فراس ؛ يريد قول جرير فى الفرزدق :

نفاكَ الأغرّ ابنُ عبد العزيز وَحَقُّكَ تُنفَى من المسجدِ[6]

---

(١) كنايات الجرجانى ٧٧
(٢) ديوانه ٤٧١
(٣) الطوانة ؛ بضم أوله، وبعد الألف نون : بلد بثغور المصيصة.
(٤) كنايات الجرجانى ٧٧
(٥) قماش البيت : متاعه .
(٦) ديوانه ١٢٨

وذلك أن الفرزدق وَرَد المدينة ، والأمير عليها عمر بن عبد العزيز ، فأكرمه حمزة بن عبدالله بن الزبير وأعطاه ، وقعد عنه عبدالله بن عمرو بن عثمان، وقصّر به ، فمدح الفرزدقُ حمزة بن عبدالله ، وهجا عبدالله ، فقال :

مَا أَنتُمُ مِنْ هاشِمٍ فى سِرِّها فاذْهَبْ إليكَ ولا بَنِي العوّامِ[1]
قومٌ لهمْ شرفُ البطاحِ وأنتمُ وَضَرُ البلاط موطّئوا الأقدام

فلما تناشد الناس ذلك ، بعث إليه عمر بن عبد العزيز ، فأمره أن يخرج عن المدينة ، وقال له : إن وجدتك فيها بعد ثلاث عاقبتُك ، فقال الفرزدق : ما أرانى إلا كثمود حين قيل لهم : ﴿ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ[2] ﴾ ؛ فقال جرير يهجوه :

نفاكَ الأغرّ ابنُ عبدُ العزيز وَحَقُّكَ تنفَى من المسجد[3]
وَسَمَّيتَ نفسكَ أشقى ثمودَ فقالوا ضللتَ ولم تهتدِ
وقد أجّلوا حين حلّ العذابُ ثلاث ليالٍ إلى الموعدِ
وَجَدْنا الفرزدق بالموسمَينِ خبيثَ المداخِل والمشهد

***

وحكى أبو عبيدة ، قال : بينا نحن على أشراف الكوفة وقوف ؛ إذ جاء أسماء بن خارجة الفزاريّ فوقف ؛ وأقبل ابن مكعبر الضبيّ فوقف متنحيًا عنه ؛ فأخذ أسماء خاتما كان فى يده ، فصّه فيروز أزرق ، فدفعه إلى غلامه ، وأشار إليه أن يدفعه إلى ابن مكعبر؛ فأخذ ابن مكعبر شِسْع نعلِه ؛ فربطه بالخاتم ، وأعاده إلى أسماء ؛ فتمازحا ولم يَفهمْ أحدٌ من الناس ما أرادا ، أراد أسماء بن خارجة قول الشاعر :

لقد زَرِقت عيناكَ يابنَ مكعبرٍ كذا كلّ ضَبِّيٍ من اللؤم أزرقُ

---

(١) ديوانه ٧٧٧ ، وروايته : « فى مثل أسرة هاشم »
(٢) سورة هود ١١
(٣) ديوانه ١٢٨

وأراد ابن مكعبر قول الشاعر :

لا تأمَنَنَّ فزاريًا خَلَوْتَ بِه ... عَلَى قَلُوصِكَ وَاكْتُبْهَا بأسيارِ[1]

وكانت فَزارة تعيّر بإتيان الإبل ؛ وعيّرت أيضا بأكل جُرْدَان الحمار ؛ لأن رجلا منهم كان فى سفر فجاع ، فاستطعم قوماً فدفعوا إليه جُرْدان الحمار ، فشواه وأكله ، فأكثرت الشعراء ذكرهم بذلك ؛ وقال الفرزدق :[2]

جَهِّزْ إذا كنتَ مُرْتاداً ومنتجِعاً ... إلى فزارة عَيْراً تحمل الكَمَرَا[3]

إنَّ الفزارىَّ لَوْ يَعْمَى فيطعِمُه ... أيْرَ الحمارِ طبيبٌ أبرأ البَصَرَا

إنَّ الفزارىَّ لا يشفيه مِنْ قَرَمٍ ... أطايبُ العَيْر حتى يَنْهشَ الذَّكَرا

وفى كتب الأمثال أنه اصطحب ثلاثة : فزارىّ وتغلَبى ومُرىّ – وكان اسم التغلَبىّ مرقة – فصادوا حمارا ، وغاب عنهما الفَزارىّ لحاجة ، فقالوا : نخبأ له جُرْدَانه، نضحك منه؛ وأكلوا سائره ؛ فلما جاء دفعا إليه الجردان ؛ وقالا : هذا نصيبك ، فنهسَه فإذا هو صلب ، فعرف أنهم عَرَّضوا له بما تُعاب به فزارة ؛ فاستلّ سيفه ، وقال : لتأكلانِه ؛ ودفعه إلى مَرْقة ، فأبى أن يأكله ، فضربه فقتله ، فقال المرّىّ : طاح مِرْقة ؛ قال : وأنت إن لم تلقمه ! فأكله[4].

وذكر أبو عبيدة أنّ إنسانا قال لمالك بن أسماء بن خارجه الفزارىّ : اقضِ دينى أيها الأمير ؛ فإنّ علىّ ديناً ؛ قال : مالك عندى إلا ماضرب به الحمار بطنه، فقال له عبيد بن أبى مِحْجَن :

---

(١) اللآلى ٨٦٢ ، وكنايات الجرجانى ٧٩ .

(٢) ديوانه ٢٨٤ .

(٣) فى الديوان : « جهز فإنك ممتار ومبتعث » .

(٤) الخبر فى اللآلى ٨٦٠ ، وكنايات الجرجانى ٧٦ .

بارك الله لكم يابنى فَزارة فى أيْر الحمار؛ إن جُعْتُمْ أكلتموه؛ وإن أصابكم غُرْمٌ قضيتموه به .

ويحكى أن بنى فزارة وبنى هلال بن عامر بن صعصعة تنافرُوا إلى أنس بن مدرك الخثعمىّ؛ وتراضَوْا به ،فقالت بنو هلال : أكلتم يابنى فَزارة أيْر الحمار،فقالت بنوفزارة: وأنتم مَدَرْتُم[1] الحوض بسلْحكم؛ فقضى أنَس لبنى فَزارة على بنى هلال؛ فأخذ الفَزاريّون منهم مائة بعير كانوا تخاطروا عليها؛ وفى مادر يقول الشاعر :

لَقَدْ جَلّلتْ خِزياً هلالُ بن عامرٍ بنى عامرٍ طُرًّا بسلْحَةِ مادِرِ[2]
فأفٍّ لكُمْ لاتذكروا الفَخْرَ بعدها بنِي عامرٍ ،أنتم شرارُ المعاشرِ[3]

***

وذكر أبو العباس محمد بن يزيد المبرد فى كتاب "الكامل"، أن قتيبة بن مسلم لما فتح سَمرْقَنْد؛ أفضى إلى أثاث لم يُرَ مثله، وآلات لم يسمع مثلها؛ فأراد أن يُرِىَ الناسَ عظيمَ مافتح الله عليه، ويعرّفهم أقدار القوم الذين ظهر عليهم؛ فأمر بدارٍ ففُرِشت، وفى صحنها قدورٌ يُرتقى إليها بالسلالم؛ فإذا بالحُضَيْن بن المنذر بن الحارث بن وَعْلة الرقاشىّ قد أقبل؛ والناس جلوسٌ على مراتبهم - والحُضَيْن شيخ كبير - فلمّا رآه عبد الله بن مسلم قال لأخيه قتيبة : ائذن لى فى معاتبته، قال : لا تُرِدْه، فإنه خبيث الجواب، فأبى عبدُ الله إلاّ أنْ يأذن له - وكان عبد الله يُضَعَّف[4]، وكان قد تسوّر حائطا إلى امرأة قبل ذلك - فأقبل على الحُضين، فقال: أمِنَ الباب دخلت ياأباساسان؟ قال : أجل؛ أسنّ عمُّك عن تسوُّر

(١) مدرتم الحوض؛ أى سلحتم فيه .
(٢) فى اللسان : «وفى المثل : «ألأم من مادر»؛ وهو جد بنى هلال بن عامر». وفى الصحاح : «هو رجل من هلال بن عامر بن صعصعة؛ لأنه سقى إبله، فبقى فى أسفل الحوض ماء، فسلح فيه، ومدر به حوضه، بخلا أن يشرب من فضله».
(٣) كنايات الجرجانى ٧٦، ٧٧، والبيتان أيضا فى اللسان ٧ : ٨
(٤) يضعف؛ أى يوصف بالضعف لقلة عقله .

الحيطان ؛ قال : أرأيتَ هذه القدور ؟ قال : هى أعظم من ألّا تُرَى ؛ قال : ما أحسب بكرَ ابن وائل رأى مثلها ، قال : أجل ، ولا عَيْلان ؛ ولو رآها سُمِّىَ شَبْعان ؛ ولم يسمَّ عَيْلان ، فقال عبد الله : أتعرف يا أبا ساسان الذى يقول :

عَزَلْنا وأمَّرنا وبَـكْرُ بن وائلٍ تَجُرُّ خُصاها تبتغى من تُحـالفُ[1]

فقال : أعرفه ، وأعرف الذى يقول :

فأدَى الغُرْم مَنْ نادى مشيرا ومَنْ كانَتْ له أسْرَى كلابِ
وخَيْبَةُ مَنْ يخيب على غَنِيٍّ وباهـلة بن أعصر والرِّبابِ[2]

فقال : أفتعرف الذى يقول :

كأنَّ فِقاح الأزْد حَوْلَ ابن مِسْمَعٍ وقد عرِقَتْ أفواهُ بكر بن وائلِ

قال : نعم وأعرف الذى يقول :

قوم قتيبـةُ أمُّهمْ وأبوهمُ لولا قتيبـة أصْبَحُوا فى مجهلِ

قال : أما الشعر فأراكَ ترويه ، فهل تقرأ من القرآن شيئا ؛ قال : نعم ؛ أقرأ الأكثر الأطيب[3] : ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾[4].

---

(١) فى رغبة الكامل للمرصفى ٦ : ١١٧ : رواية غيره : « نزعنا وولينا » ؛ وبعده :

وَمَا مات بكرىٌّ من الدَّهْرِ ليلةً فيصبحُ إلّا وَهْوَ للذلِّ عارِفُ

وهذا الشعر لحارثة بن بدر الغدانى ؛ قاله يوم رضى أهل البصرة أن يولوا عليهم بعد موت معاوية بن يزيد ابن عبد الله بن الحارث بن نوفل الهاشمى ؛ حتى يجتمع الناس على إمام ، وكان عبيدالله بن زياد الوالى عليهم قد طلب الإمارة لنفسه ، فلم يرضوا به ، فلما رأى الغدر منهم هرب هو وأخوه ، فلجأ إلى دار مسعود ابن عمرو الأزدى ، وقد استخف بكر بن وائل مالك بن مسمع الجحدرى ، فجمع وأعد وطلب من الأزد المحالفة على نصرة عبيد الله بن زياد ؛ ورده إلى دار الإمارة فلم ينجح » .

(٢) فى زيادات الكامل . « أى ياخيبة من يخيب » . والرباب : قبائل ، والبيتان لزيد الخيل ذكرهما ابن قتيبة فى الشعراء ٢٤٦ ، وفيه وفى الكامل : « الركاب » بدل « الرباب » .

(٣) الكامل : « الأغلب » .

(٤) سورة الإنسان آية : ١

فأغضبه ؛ فقال : والله لقد بلغنى أنّ امرأة الحُضَيْنِ حُمِلَتْ إليه وهى حُبلى من غيره ؛ قال: فما تحرّك الشيخ عن هيئته الأولى ، بل قال على رِسْلِه[1] : وما يكون ! تلد لاما على فِراشِي ؛ فيقال: فلان ابن الحُضَين ؛ كما يقال: عبد الله بن مسلم ؛ فأقبل قتيبة على عبدالله؛ وقال له : لا يبعِدِ الله غيرك[2].

وغرضنا من هذه الحكاية الأدبية المستحسنة قول الحُضَيْن تعريضا بفاحشة عبدالله: « أجلْ ؛ أسنّ عمّك عن تسوُّر الحيطان » .

***

ويحكى أن أبا العيناء أهْدَى إلى أبي عليٍّ البصير — وقد ولد له مولود — حَجَرا ، يذهب فى ذلك إلى قوله عليه السلام: « الولد للفراش، وللعاهر الحجَر »، فاستخرج أبو عليٍّ ذلك بفطنته وذكائه ؛ ثم ولد بعد أيام لأبى العيناء مولود ؛ فقال له : فى أىّ وقت وُلِدَ لك ؟ قال :وقت السَّحَر ، فقال: اطّرد قياسُه ،وخرج فى الوقت الذى يخرج فيه أمثاله — يعنى السُّؤَّال— يعرّض بأن أبا العيناء شَحّاذ ، وأن ولده خرج يشبهه[3].

***

ومن التّعريضات والرموز بالفعل دون القول ما ذكره مؤرّج بن عمرو السّدوسىّ فى كتاب " الأمثال " أنّ الأحوص بن جعفر الكلابىّ ، أتاه آتٍ من قومه، فقال: إن رجلا لا نعرفه جاءنا، فلما دنا منّا حيث نراه ، نزل عن راحلته ، فعلّق على شجرة وَطْبا من لبن، ووضع فى بعض أغصانها حَنْظَلة ، ووضع صُرّة من تراب ، وحُزْمة من شوك ، ثم أثار راحلته ، فاستوى عليها وذهب — وكان أيام حرب تميم وقيس عَيْلان— فنظر الأحوص فى ذلك ، فعىّ به ، فقال : أرسلوا إلى قيس بن زهير ، فأتوا قيساً ، فجاءوا به إليه ، فقال له : ألم تك أخبرتنى أنه لا يرد

(١) على رسله ؛ أى على مهله وتؤدته .
(٢) الكامل ٢ : ١٣ ، ١٤ .
(٣) كنايات الجرجانى ٧٩

عليك أمرٌ إلا عرفتَ مافيه مالم تر نواصيَ الخيل ! قال : ماخبرُك؟ فأعلمه ، فقال :«قد بيّن الصبح لذى عينين » ، هذا رجل قد أُخِذَتْ عليه العهود ألا يكلّمكم ، ولا يرسل إليكم، وإنه قد جاء فأنذركم . أما الحنظلة ، فإنه يخبركم أنه قد أتاكم بنو حنظلة ، وأما الصُّرّة من التراب ، فإنه يزعُم أنهم عدد كثير ، وأما الشوك فيخبركم أنّ لهم شَوْكة، وأما الوطْب فإنه يدلّكم على قُرْب القوم وبعدهم ؛ فذوقوه ، فإن كان حُلْواً حليبا فالقوم قريب ، وإن كان قارصا[1] فالقوم بعيد ،وإن كان المَسِيخ[2] لاحلوا ولا حامضا فالقوم لاقريب ولا بعيد. فقاموا إلى الوَطْب فوجدوه حليبا ، فبادروا الاستعداد ، وغشيَتهم الخيل فوجدتهم مستعدين[3].

ومن الكنايات، [4]بل الرّموز الدقيقة[4] ، ماحِكيَ أنّ قتيبة بن مسلم دخَل على الحجاج وبين يديه كتاب قد وَرَد إليه من عبد الملك، وهو يقرؤه ، ولا يعلم معناه ، وهو مفكّر، فقال : ماالذى أحزن الأمير ؟ قال : كتاب وَرَد من أمير المؤمنين ، لاأعلم معناه ، فقال : إنْ رأى الأميرُ إعلامِى به ! فناوله إياه ، وفيه : « أمابعدُ ، فإنك سالم ، والسلام » . فقال قتيبة : مالى إن استخرجتُ لك ما أراد به ؟ قال : ولاية خراسان ، قال : إنه مايسرّك أيها الأمير ، ويقرُّ عينك ، إنما أراد قول الشاعر :

يُدِيرُونَنِي عَنْ سَالِمٍ وأديرهُمْ ... وَجِلْدَةُ بَيْنَ العين والأنف سالم[5]

أى أنت عندى مثل سالم عند هذا الشاعر ؛ فولّاه خراسان[6].

حكى الجاحظ فى كتاب "البيان والتبيين" قال : خطب الوليد بن عبد الملك فقال:

---

(١) القارص : اللبن الحامض .
(٢) المسيخ : الذى لاطعم له .
(٣) كنايات الجرجانى ٨٠
(٤ ـ ٤) ساقط من ا ، ج
(٥) البيت فى اللسان ١٥ : ١٩١ ، ونسبه إلى عبد الله بن عمر ، يقوله فى ابنه سالم .
(٦) كنايات الجرجانى ٨٢

« أمير المؤمنين عبدُ الملك قال : إن الحجّاج جلدة ما بين عينى وأنفى ، ألا وإنى أقول : إن الحجّاج جلدة وجهى كله »(١) .

وعلى ذكر هذا البيت، حُكى أنّ رجلا كان يسقى جلساءه شرابا صِرْفا غير ممزوج ؛ وكان يحتاج إلى المَزْج لقوّته ؛ فجعل يغنّى لهم :

يُديرونَني عَنْ سالمٍ وأديرهُمْ ... وجِلدة بين العَيْن والأنف سالم(٢)

فقال له واحد منهم : ياأبا فلان، لو نقلت « ما » من غنائك إلى شرابك، لصلَح غِناؤنا ونبيذنا جميعا(٣) .

ويشبه حكاية قتيبة والحجاج كتابُ عبد الملك إلى الحجاج ، جوابا عن كتاب كتبه إليه يغلِظ فيه أمرَ الخوارج ، ويذكر فيه حال قَطَرِىّ وغيره وشدة شوكتهم ؛ فكتب إليه عبد الملك : « أوصيك بما أوصَى به البكرىّ زيدا ؛ والسلام » .

فلم يفهم الحجاج ما أراد عبد الملك ، فاستعلم ذلك من كثير من العلماء بأخبار العرب فلم يعلموه ، فقال : مَنْ جاءنى بتفسيره فله عشرة آلاف درهم ؛ وورد رجل من أهل الحجاز يتظلّم من بعض العمال ، فقال له قائل : أتعلم ماأوْصَى به البكرىّ زيدا ؟ قال : نعم أعلمه ، فقيل له : فأت الأمير ؛ فأخبِرْه ولك عشرة آلاف درهم ، فدخل عليه فسأله ، فقال: نعم أيها الأمير ، إنه يعنى قوله :

أقول لزيدٍ لا تُتَرْتِرْ فإنهمْ ... يرون المنايا دون قتلِك أو قتلى(٤)

فإنْ وضعوا حربا فضعها، وإن أبوْا ... فَعُرْضَةُ نارِ الحرب مثلك أومثلِي

وإن رفعوا الحرْبَ العوَانَ التى ترى ... فشُبَّ وقود النار بالحطَب الجزْل

فقال الحجاج : أصاب أمير المؤمنين فيما أوصانى ؛ وأصاب البكرىّ فيما أوصى به زيدا ؛ واصبت أيّها الأعرابى ؛ ودفع إليه الدّراهم .

---

(١) البيان والتبين ١ : ٢٩٢

(٢) كذا فى الأصول وكتاب الكنايات ؛ ويبدو أن الأصوب زيادة كلمة « ما » بعد كلمة « وجلدة » على سبيل الخطأ ؛ ليكون الخبر مفهوماً .

(٣) كنايات الجرجانى ٨٢ .

(٤) الأبيات لموسى بن جابر ، حماسة أبى تمام بشرح المرزوقى ٣٣٦ ، والترترة : العجلة .

وكتب إلى المهلّب : إنّ أمير المؤمنين أوصانى بما أوصى به البكرىّ زيدا ؛ وأنا أوصيك بذلك ؛ وبما أوصى به الحارث بن كعب بنيه .

فنظر المهلب فى وصية الحارث بن كعب، فإذا فيها: يابنىّ كونوا جميعا، ولا تكونوا شيَعا فتفرّقوا ، وبزّوا قبل أن تُبَزّوا . الموت فى قوّة وعزّ ،خير من الحياة فى ذلّ وعجز .

فقال المهلّب : صدق البكرىّ وأصاب ، وصدق الحارث وأصاب .

***

واعلم أنّ كثيرا مما ذكرناه داخلٌ فى باب التعريض ؛ وخارج عن باب الكناية ؛ وإنما ذكرناه لمشابهة الكناية ، وكونهما كالنوعين تحت جنس عام؛ وسنذكر كلاماً كلياً فيهما إذا انتهينا إلى آخر الفصل إن شاء الله .

ومن الكنايات قول أبى نواس :

وَناظِرَةٍ إلىّ من النقابِ تلاحِظُنى بطَرْفٍ مستراب[1]
كَشَفْتُ قِناعها فإذا عجوزٌ مُمَوِّهَة المفارِق بالخِضابِ
فما زالت تجشّمُنِي طويلا وتأخذ فى أحاديث التّصابِي
تحاولُ أن يقومَ أبو زيادٍ ودون قيامه شَيْبُ الغرابِ
أتت بجرابها تكتال فيه فقامت وهى فارغةُ الجراب

والكناية فى البيت الأخير وهى ظاهرة .

ومنها قول أبى تمام :

مالِي رأيتُ ترابَكُمْ يبْسَ الثَّرَى مالِي أرَى أطْوادَكُم تتهدَّمُ[2]

---

(١) المثل السائر ٢ : ٢٠٧

(٢) ديوانه ٣ : ١٩٩ ؛ وديوانه :

[illegible]

فكنى بـ « بئس الثرى » عن تنكّرِ ذات بينهم ؛ وبـ « تهدّم الأطواد » عن خِفة حلومهم وطيش عقولهم .

ومنها قول أبي الطيب :

وَشَرُّ ما قَنَصَتْهُ راحَتِي قَنَصٌ   شُهْبُ البزاةِ سواءٌ فيه والرَّخَمُ[1]

كَنَى بذلك عن سيف الدولة ؛ وأنه يساوى بينه وبين غيره من أراذل الشعراء وخاملِيهم فى الصلة والقرب .

***

وقال الأقيشر لرجل : ما أراد الشاعر بقوله[2] :

ولقد غدوت بِمُشْرِفٍ يافوخُهُ   مثل المراوة مَتْنُه يتفصّدُ[3]

أرِنٌ يسيل من المراح لُعَابُهُ   ويكاد جلد إهَابِهِ يتقدّدُ[4]

قال : إنه يصف فرساً ؛ فقال : حملك الله على مثله ، وهذان البيتان من لطيف الكناية ورشيقها ؛ وإنما عَنَى العضو .

وقريب من هذه الكناية قول سَعيد بن عبد الرحمن بن حسان ، وهو غلام يختلف إلى عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب ولد هشام بن عبد الملك ، وقد جمشه[5] عبد الصمد فأغضبه ، فدخل إلى هشام ، فقال له :

إنه والله لولا أنت لم   يَنْجُ مِنّي سالماً عبدُ الصمدْ

---

(١) — ديوانه ٣ : ٣٧٣ .

(٢) الخبر والبيتان ومعهما ثالث فى كنايات الجرجانى ٢٠ ؛ وفيه : « وحكى ابن دريد قال : وقف أعرابى على أبي عبيدة فقال : ما يعنى الشاعر بقوله ... إلى آخر ؛ الخبر » وهما أيضا فى شرح التبريزى على الحماسة ٤ : ٣٥٦ .

(٣) رواية التبريزى : « عسر المكرة » .

(٤) أرن ، أى نشيط ، ورواية التبريزى : « مرح يعج » ؛ وذكر بعده :

حَتّى عَلَوْتُ بِهِ مشَقّ ثَنِيّةٍ   طَوْراً أغُورُ بِهِ وَطَوْراً أنجدُ

(٥) الجمش : الملاعبة والمغازلة

فقال هشام : ولم ذلك ؟ قال :

إنهُ قدْ رامَ مِنِّى خُطَّةً لم يَرُمْها قبلَه مِنِّى أحــد

قال هشام : وما هى ؟ ويحك ! قال :

رَامَ جَهْلًا بى وجــهلا بِأَبى يُدْخِلُ الأفعى إلى بيت الأسدْ

فضحك هشام ، وقال : لو ضربتَه لم أنكِرْ عليك(١) .

ومن هذا الباب قول أبى نواس :

إذا ما كنتَ جارَ أبى حُسَيْنٍ فَنَمْ ويَدَاكَ فِى طَرَفِ السِّلَاحِ(٢)
فإنَّ له نســاء سارقاتٍ ــ إذا مابِتْن ــ أطراف الرِّمَاحِ
سرقن وقد نزلتُ عليه عضوى فلم أظفر به حتّى الصبــاح
فجــاء وقد تخدَّشَ جانباه يئنُّ إلى من ألمِ الجــراحِ

والـكناية فى قوله : « أطراف الرماح » ، وفى قوله : « فى طرف السلاح » .

* * *

ومن الـكناية الحسنة قول الفرزدق يرْثى امرأته ، وقد ماتت بجُمْع (٣) :

وجفنِ سلاحٍ قد رزئتُ فلم أنُحْ عليه ، ولم أبعث عليه البواكِيَا(٤)
وفى جوفه من دارمٍ ذُو حفيظةٍ لَوَ انَّ المنايا أخطأته ليــاليا(٥)

---

(١) الأغانى ٨ : ٢٧١ ، ٢٧٢ ، .

(٢) المثل السائر ٢ : ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٣) بجمع ، أى ماتت وولدها فى بطنها .

(٤) ديوانه ٨٩٤ ؛ وروايته : « وغمد سلاح » .

(٥) الديوان :

* لَوَ انَّ اللَّيَالِى أنسأتهُ لَيَالِيَا *

أخذه الرضيّ رحمه الله تعالى فقال يرثى امرأة :

إن لم تَكُنْ نصلا فغِمْدُ نُصُولِ   غَالَتْهُ أحْدَاثُ الزمانِ بِغَولِ[(١)]

أو لم تَكُنْ بأبى شُبول ضيغم   تَدْمَى أظافِرُه فأمّ شُبُولِ

ومن الكنايات ما يروى أنّ رجلا من خواص كسرى أحبّ الملك امرأته ، فكان يختلف إليها سرًّا وتختلف إليه ، فعلم بذلك ، فهجرها وترك فراشها ، فأخبرتْ كسرى ، فقال له يوما : بلغنى أنّ لك عيناً عذبة ، وأنك لا تشرب منها ! فقال : بلغنى أيها الملك أنّ الأسد يرِدُها فخفتهُ ، فتركتها له ؛ فاستحسن ذلك منه ووصله .

***

ومن الكنايات الحسنة قول حاتم :

وما تشتكينى جارَتى غير أنّنى   إذا غاب عنها بَعلُهَا لا أزُورها[(٢)]

سيبلغها خيرِى ويرجع بعلُها   إليها ، ولم يُسْبَلْ علىّ ستورُها[(٣)]

فكنّى بإسبال الستر عن الفعل ؛ لأنه يقع عنده غالبا .

فأما قول عمر : « مَنْ أرخى سترا أو أغلق بابا فقد وجب عليه المهر » . فيمكن أن يُكَنّى بذلك عن الجماع نفسه ؛ ويمكن أن يُكَنّى به عن الخلوة فقطْ ؛ وهو مذهب أبى حنيفة ؛ وهو الظاهر من اللفظ لأمرين : أحدهما قوله : « أغلق بابا » فإنه لو أراد الكناية لم يحسن الترديد بـ « أو » ، وثانيهما أنه قد كان مقررا عندهم أنّ الجماع نفسه يُوجب كمال المهر ؛ فلم يكن به حاجة إلى ذكر ذلك .

ويشبه قولَ حاتم فى الكناية المقدّم ذكرها قولُ بَشّار بن بشر[(٤)] :

(١) ديوانه لوحة ١٤٩ ؛ مطلع قصيدة يعزى فيها أبا سعد بن خلف عن أخته .

(٢) دايونه ١١٠

(٣) الديوان : « ولم يقصر على » .

(٤) هوبشار بن بشرالمجاشعى ؛ حماسة ابن الشجرى ١٣٥ ، والأبيات أيضا فى أمالى المرتضى ١ : ٣٧٩ ونسبها إلى هلال بن خثعم ، مع اختلاف فى الرواية ، وترتيب الأبيات .

وإنى لعفٌّ عَنْ زيارَةِ جارَتى ... وإنى لمشنوءٌ إلىَّ اغتيابُهـــا
وَلَمْ أكُ طلّابا أحاديثَ سِرِّها ... ولا عالماً من أىّ حَوْكٍ ثيابُها[1]
إذا غابَ عنها بعلُها لم أكُنْ لَهَا ... زَءوراً ولم تنبَحْ عَلَىَّ كلابُها[2]

وقال الأخطل فى ضدّ ذلك يهجو رجلا ويرميه بالزنا :

سَبَنْتى بَظَلُّ الـكَلْبُ يَمضَغُ ثَوْبَه ... لَهُ فى دِيارِ الغانياتِ طَرِيقُ[3]

السَّبنتى : النَّمِر ؛ يريد أنه جرىء وقح ، وأنّ الـكلب لأنسه به وكثرة اختلافه إلى جاراته يعرفه ، ويمضغ ثوبه ، يطلب ما يطعمه ، والعفيف ينكره الـكلب ولا يأنس به ؛ ثم أكّد ذلك بأنه قد صار له بـكثرة تردّده إلى ديار النساء طريق معروف .

* * *

ومن جيّد الـكناية عن العفّة قول عَقِيل بن عُلّفة المرّى[4] :

وَلَسْتُ بسائلٍ جارَاتِ بيتى ... أغيَّابٌ رِجالُكِ أم شُهُودُ[5]

(١) رواية المرتضى :

* وَمَا أَنَا بِالدَّارِي أَحَادِيثَ بَيتِهَا *

وذكر بعده :

وَإِنَّ قِرَابَ ٱلْبَطْنِ يَـكْفِيكَ مِلْؤُهُ ... وَيَـكْفِيكَ عَوْرَاتِ ٱلنِّسَاءِ ٱجْتِنَابُهَا

وزاد ابن الشجرى بعده :

إِذَا سُدَّ بَابٌ عَنْكَ مِنْ دُونِ حَاجَةٍ ... فَذَرْهَا لِأُخْرَى لَيِّنٍ لَكَ بَابُهَا

(٢) ابن الشجرى : « لم تأنس إلى كلابها » ، ويقـال : رجل زوار وزءور ، كذا ذكره صاحب اللسان واستشهد بالبيت .

(٣) ديوانه ٢٦٧ ، وروايته : «له فى معان الغانيات » ، وفى شرحه : «المعان : منزل القوم ومحلهم». وفيه أيضا : « السبنتى : الذئب » .

(٤) من أبيات فى حماسة أبى تمام ــ بشرح التبريزى ١ : ٣٧٧ ، واللآلى ١٨٥ ، والخزانة ٤ : ١٢ ، وكنايات الجرجانى ١٠ ، وفى الأصول وكتاب الجرجانى « عقيل بن علقمة » وهو خطأ .

(٥) قال التبريزى : « ويجوز أن يـكون عرض بقذف الذى يهجوه ، كما يقول من لم تجر عادته بلزوم الأسواق لمن هو متعود للمبايعة والمشاراة : لست أعاشر المنادين ولا أبخس إذا وزنت ، أى أنك ياسامع تفخر بذلك » .

وَلَا مُلْقٍ لِذِي الْوَدَعَاتِ سَوْطِي أُلَاعِبُهُ وربيتَـــــه أريد[1]

* * *

ومن جيّد ذلك ومختاره قولُ مسكين الدارميّ :

نَارِي وَنَارُ الْجَارِ واحِدَةٌ وإليه قبلِي تَنْزِلُ الْقِدْرُ[2]
ما ضرّ جاراً لِي أجاورُه ألّا يكون لبابِهِ سِتْرُ
أعمَى إذا ما جارتى بَرَزَتْ حتَّى يُوارِي جارتى الخِدْرُ[3]

* * *

والعرب تكْنِي عن الفرْج بالإزار ؛ فتقول : هو عفيف الإزار ، وبالذيل ؛ فتقول : هو طاهر الذّيل ؛ وإنما كنوْا بهما ؛ لأنّ الذيل والإزار لابدّ من رفعهما عند الفعل ؛ وقد كنوْا بالإزار عن الزوجة فى قول الشاعر :

ألَا أبْلِغْ أبا بِشْرٍ رَسُولًا فِدًى لكَ من أخِي ثِقَةٍ إزارِى[4]

يريد به زوجتى ؛ أو كنى بالإزار ها هنا عن نفسه .

وقال زُهير :

---

(١) يعنى بذى الودعات الطفل ، لأنهم يعلقون عليه الودع .

(٢) الأبيات فى معجم الأدباء ١١ : ١٣١ ، ١٣٢ ، وأمالى المرتضى ١ : ٤٣ ، ٤٤ ، وكنايات الجرجانى ١٠ .

(٣) معجم الأدباء : « أغضى » ، وذكر بعده :

وبصرّ عمَّا كان بَيْنَهما سَمْعِي وَمَا بى غيرُهُ وَقْرُ

(٤) البيت مع آخر فى كنايات الثعالبى ٣ ، ذكرهما فى خبر ، قال : « وأما الكناية بالقلوص ، فكما كتب رجل من مغزى كان فيه إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يوصيه بنسائه :

أَلَا أَبْلِغْ أَبَا حَفْصٍ رَسُولاً فِدًى لَكَ مِنْ أَخِي ثِقَةٍ إِزَارِي
قَلَائِصُنَا هَدَاكَ اللهُ إِنَّا شُغِلْنَا عَنْكُمُ زَمَنَ الْحِصَارِ

الحافِظُونَ ذِمَامَ عَهْدِهِمُ ... والطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الأُزُرِ(١)
السِّتْرَ دون الفاحشات ولا ... يلقاكَ دون الخيرِ مِنْ سُتُرِ

***

ويقولون فى الكناية عن العفيف : ما وضعتْ مُومسة عنده قِناعا ؛ ولا رفع عن مومسة ذيلا .

وقد أحسن ابنُ طباطبا فى قوله :

فَطَرِبْتُ طَرْبَةَ فاسقٍ متهتكٍ ... وَعَفَفْتُ عِفَّةَ نَاسِكٍ متحرِّجِ(٢)
الله يعلمُ كيفَ كانت عِفَّتِى ... ما بين خَلخالٍ هُنَاكَ ودُمْلُجِ

ومن الكناية عن العفة قولُ ابن ميّادة :

وَمَانِلتُ مِنْهَا مُحَرَّمًا غَيْرَ أَنّنى ... أُقَبِّلُ بَسَّامًا من الثغرِ أفْلَجَا(٣)
وألثمُ فاها آخِذاً بقُرُونها ... وأترُكُ حاجاتِ النُّفوس تحرُّجا

فكنى عن الفعل نفسه بحاجات النفوس ، كما كنى أبو نواس عنه بذلك العمل فى قوله :

مرَّ بِنا وَالْعيونُ تَرْمُقُهُ ... تَجْرَحُ مِنْهُ مواضِعَ الْقُبَلِ

---

(١) كذا نسب المؤلف البيتين لزهير ، والثانى فى ديوانه ٩٥ ، من قصيدته التى يمدح فيها هرم بن سنان ، ومطلعها :

لِمَنِ الدِّيَارُ بِقُنَّةِ الْحِجْرِ ... أَقْوَيْنَ مِنْ حِجَجٍ وَمِنْ دَهْرِ

وليس منها البيت الأول ، وهو فى الكامل ٤٩٥ ، واللآلى ٥٤٨ من أبيات للخرنق أخت طرفة ، بهذه الرواية ، وفى وخزانة الأدب ٤ : ٣٠١ وكنايات الجرجانى ١١ ، والكتاب بهذه الرواية :

النَّازِلينَ بِكُلِّ مُعْتَرَكٍ ... والطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الأُزُرِ

(٢) كنايات الجرجانى ١٠

(٣) كنايات الجرجانى ١١

أفرِغَ في قالب الجمال فما يصلح إلا لذلك العَمَلِ

وكما كنى عنه ابن المعتزّ بقوله :

وَزَارَنِي فِي ظَلَامِ اللَّيلِ مُسْتَتِراً يستعجلُ الخطوَ من خوفٍ ومن حَذَرِ
ولاح ضوءُ هلالٍ كاد يفضحُهُ مثل القُلامة قد قُصَّتْ من الظُّفُرِ
فقمت أفرش خدِّى فى الطريق لهُ ذُلًّا وأسحبُ أذيالِي على الأثرِ
فَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا لَسْتُ أَذْكُرُهُ فظُنَّ خيراً ولا تسأل عن الخبرِ

* * *

ومما تطيَّروا من ذكره، فكَنَوْا عنه قولُهم: « مات » ، فإنهم عبّروا عنه بعبارات مختلفة داخلة فى باب الكناية ، نحو قولهم : « لعق إصبعه » . وقالوا : « اصفرّت أنامله » لأن اصفرار الأنامل من صفات الموتى ، قال الشاعر[1] :

فَقَرِّبَانِي بأبِي أنتُمَا مِنْ وَطَنِي قبلَ اصفِرار البنانْ
وَقبلَ مَنعاىَ إلى نِسْوَةٍ منزلها حَرّانُ والرَّقّتانْ[2]

وقال لَبيد :

وَكُلّ أناسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بينهمْ دُوَيْهِيَةٌ تصفرُّ منها الأنامِلُ[3]

يعنى الموت .

ويقولون فى الكناية عنه: صَكٌّ لفلانٍ على أبى يحيى ،وأبو يحيى كنية الموت، كُنِيَ عنه بضده ، كما كنوا عن الأسود بالأبيض ، وقال الخوارزمىّ :

سريعةُ موتِ العاشقين كأنَّما يغارُ عليهمْ مِنْ هَواهَا أبُو يحيى[4]

---

(١) هو عوف بن محلم الخزاعى ، من قصيدة يمدح فيها عبد الله بن طاهر وأباه ، ذكرها ياقوت فى معجم الأدباء ١٦ : ١٤٣ ، ١٤٤ وأولها :

يابْنَ الذى دان له المَشْرِقان وألْبَسَ الأمْنَ به المغربانْ
إن الثمانين — وبلغتها — قدأحوجَتْ سَمْعى إلى تَرْجمان

(٢) كنايات الجرجانى ٤٩ وفيها : « والرقان » .
(٣) ديوانه ٢ : ٢٨
(٤) كنايات الجرجانى ٤٩ ، وثمار القلوب ١٩٧ .

وكنى رسول الله صلى الله عليه وآله عنه بهاذم(1) اللذات، فقال: «أكثروا من ذكر هاذم اللذات».

وقال أبو العتاهية:

رَأيتُ المنايا قُسِّمَتْ بينَ أنفسٍ ... ونفسِي سيأتِي بينهن نصيبُها(2)

فياهاذِمَ اللَّذاتِ مامِنكَ مَهرَبٌ ... تحاذِرُ نفسِي مِنكَ ما سَيُصِيبُها

وقالوا: حلقت به العنقاء، وحلقت به عنقاء مُغرِب، قال:

فلولَا دِفاعِي اليومَ عنك لحلقَتْ ... بِشِلْوِكَ بَيْنَ القَوْمِ عَنقَاءُ مُغْرِبُ(3)

وقالوا فيه: زَلّ الشِّراكُ عن قدمه، قال:

لا يسلمون العــــــداةَ جارَهُمُ ... حتى يَزِلَّ الشِّرَاكُ عن قَدَمِه(4)

أى حتى يموت، فيستغنى عن لبس النعل.

فأما قولهم: «زلت نعله» فيكنَى به تارة عن غَلَطه وخطئه، وتارة عن سوء حاله واختلال أمره بالفقر، وهذا المعنى الأخير أراده الشاعر بقوله:

سَـأَشكُرُ عَمْراً ماتراخَتْ مَنِيتِي ... أيادِيَ لَمْ تُمْنَنْ وإن هِيَ جَلَّتِ(5)

---

(1) هاذم، بالذال؛ أى قاطع.

(2) ديوانه ٣٥، وكنايات الجرجانى ٤٩

(3) كنايات الجرجانى ٥٠، وروايته:

إذَا مَا ابْنُ عَبْدِ اللهِ خَلَّى مَـكَانَهُ ... فَقَدْ حَلَّقَتْ بِالْحَقِّ عَنْقَاءُ مُغْرِبُ

(٤) كنايات الجرجانى ٥٠

(٥) معجم الشعراء للمرزبانى ٣٥٩؛ ونسبها إلى محمد بن سعد الكاتب التميمى، أمالى القالى ١ : ٤٠، ونسبها لبعض الأعراب: وقال أبو عبيد البكرى فى اللآلى: الشعر لأبى الأسود الدؤلى؛ وكان عند عمرو بن سعيد بن العاص؛ فبينا هو يحدثه إذ ظهر كم قميصه من تحت جبته وبه خرق؛ فلما انصرف بعث إليه بعشرة آلاف درهم ومائة ثوب فقال هـذا الشعر. وذكر على بن الحسين أن الشعر لعبد الله ابن الزبير الأسدى؛ وأنه أتى عمرو بن أبان؛ فسأله فقال لوكيله: اقترض لنا مالا؛ فقال: مايعطينا التجار؛ فقال: أربحهم؛ فاقترض ثمانية آلاف بإثنى عشر ألفا؛ فهو أول من تعين (أى استقرض بالربا، من العينة)؛ فقال فيه ابن الزبير... وذكر الأبيات: اللآلى ١٦٦. وقيل: الشعر لإبراهيم بن العباس الصولى؛ مجموعة المعانى ٦٦، ابن خلكان: ٧ ٢٤٧. والأبيات أيضا فى حماسة أبى تمام — بشرح المرزوقى ٤ : ١٥٨٩ من غير نسبة.

فتًى غيرُ محجوبِ الغنى عن صديقِه ... ولا مظهرِ الشكوى إذا النعلُ زلّتِ
رأى خَلَّتِي من حيث يخفى مكانُها ... فكانت قذى عينيه حتى تجلّتِ

ويقولون فيه : شالَتْ نعامتُه ، قال :

ياليتَ أمّيَ قَدْ شالَتْ نَعَامَتُها ... أيْمَا إلى جَنَّةٍ أيْمَا إلى نارِ[1]
ليست بِشَبْعَى ولو أوردْتُها هَجَراً ... ولا بِرَيَّا وَلَوْ حَلَّتْ بذِي قَارِ

أى لا يشبعُها كثرة التمر ولو نزلت هَجَر — وهَجَر كثيرة النخل — ولا تروى ولو نزلت ذا قار ، وهو موضع كثير الماء .

قال ابن دريد : والنعامة خطّ باطنِ القدم فى هذه الكناية .

ويقال أيضا للقوم قد تفرّقوا بجلاء عن منازلهم : شالتْ نعامتُهم ، وذلك لأنّ النعامة خفيفة الطيران عن وجه الأرض ، كأنهم خَفّوا عن منزلهم .

وقال ابن السكّيت : يقال لمن يغضب ثم يسكنُ : شالت نعامتُه ثم وقعت .

وقالوا أيضا فى الكناية عن الموت : مضى لسبيله، واستأثر الله به ، ونقله إلى جواره ، ودُعِى فأجاب ، وقضى نحبَه ، والنَّحب : النذر ، كأنهم رأوْا أنّ الموت لمّا كان حتما فى الأعناق كان نذرا .

وقالوا فى الدعاء عليه: اقتضاه الله بذنبه؛ إشارة إلى هذا ؛ وقالوا : ضَحَا ظلّه، ومعناه صار ظله شمسا ؛ وإذا صار الظل شمسا فقد عدم صاحبه .

ويقولون أيضا : خلّى فلان مكانه ؛ وأنشد ثعلب للعتبىّ فى السرىّ بن عبدالله :

كأنّ الذى يأتى السرىّ لحاجةٍ ... أباحَ إليه بالذى جاء يطلبُ[2]
إذا ما ابنُ عبد الله خَلّى مكانه ... فقد حلّقت بالجودِ عَنقاء مُغْرِبُ

---

(١) كنايات الجرجانى ٥٠ ؛ والبيت الأول من شواهد المغنى ١ : ٥٣ (المطبعة الشرقية ١٣٢٨) ؛ وفى حاشية الأمير : « هو لرجل من بنى عبد القيس ؛ يقال له سعد ؛ كان عاقا لأمه ، وكانت بارة به » .

(٢) كنايات الجرجانى ٥٠

وقال دُريد بن الصمّة :

فإن يكُ عبدُ الله خلّى مكانَه ... فما كانَ وَقّافاً ولا طائشَ اليدِ[١]

وكثير ممّن لا يفهم يعتقد أنه أراد بقوله : « خلّى مكانه » فرّ ، ولو كان كذلك لكان هجاء .

ويقولون : وقع فى حِياضِ غتِيم ، وهو اسم للموت[٢] .

ويقولون : طار من ماله الثّمين ؛ يريدون الثُّمُن ، يقال: ثُمْن وثمِين ، وسُبْع وسبيع ، وذلك لأنّ الميّت ترِث زوجته من ماله الثمن غالبا ، قال الشاعر يذكر جودَه بماله ويخاطب امرأته :

فلَا وأبيكِ لا أولى عَلَيْهَا ... لتمنع طالباً منهـــا اليمين[٣]

فإنى لست منكِ ولستِ مِنّى ... إذا ما طـار من مالى الثمين

أى إذا مت ، فأخذتِ ثُمنَك من تركتى .

وقالوا : لحق باللطيف الخبير ، قال :

وَمِنَ النّاس مَنْ يُحِبّك حُبًّا ... ظَاهِرَ الوُدِّ ليس بالتّقصِيرِ[٤]

فإذا ما سألتَــهُ رُبْــعَ فَلسٍ ... ألحق الوُدَّ باللّطيف الخبيرِ

وقال أبو العلاء :

لَا تَسَلْ عَنْ عِداكَ أين استقرّوا ... لَحِقَ القومُ باللّطيف الخبير[٥]

---

(١) كنايات الجرجانى ٥٠

(٢) كنايات الجرجانى ٥٠

(٣) كنايات الجرجانى ٥٠

(٤) كنايات الجرجانى ٤٨ ؛ وقال : هذان ينسبان لدعبل ؛ بعد البيت الأول :

وَإِذَا مَا خَبَرْتَهُ شَهِدَ الطّرْ ... فُ على حُبّهِ بِمَا فِي الضّمِيرِ

وَإِذَا مَا بَحَثْتُ قُلْتُ : كَهٰذَا ... ثِقَةٌ لِي وَرَأْسُ مَالٍ كَبِيرِ

(٥) سقط الزند ٢٣٤ ، وكنايات الجرجانى ٤٨ .

ويقولون : قَرَضَ رباطَه[1] ؛ أى كاد يموت جهدا وعطشا .

وقالوا فى الدعاء عليه : لا عُدَّ مِنْ نفره ؛ أى إذا عُدّ قومُه ؛ فلا عُدّ معهم ، وإنما يكون كذلك إذا مات ، قال امرؤ القيس :

فَهْوَ لا تَنْمِى رَمِيَّتُهُ ... مالَهُ لا عُدَّ مِنْ نَفَرِهْ[2]

وهذا إنما يريد به وصفَه ، والتعجّب منه ؛ لا أنه يدعو عليه حقيقة؛ كما تقول لمن يجيد الطعن : شَلَّتْ يَدُه ؛ ما أحذقه !

* * *

وقالوا فى الكناية عن الدَّفن : أضلّوه وأضلّوا به ، قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[3] ؛ أى إذا دُفِنّا فى الأرض .

وقال المخبّل السعدىّ :

أَضَلَّتْ بنو قَيْسِ بن سعدٍ عَمِيدَهَا ... وَسَيِّدَها فى الدَّهْرِ قَيْسَ بْنَ عاصِمِ[4]

* * *

ويقولون للمقتول : رَكِبَ الأشقر ، كناية عن الدم ، وإليه أشار الحارث بن هشام المخزومىّ فى شعره ، الذى يعتذر به عن فِراره يوم بَدْر عن أخيه أبى جهل بن هشام حين قتل :

اللهُ يَعلَمُ ما تَرَكْتُ قِتالَهُمْ ... حَتّى عَلَوْا فَرَسِى بأَشْقَرَ مُزْبِدِ[5]

---

(١) الرباط هنا : القلب .

(٢) ديوانه ١٢٥ ؛ وفى شرحه : قوله : «فهو لا تنمى رميته» ؛ أى لا تنهض بالسهم وتغيب عنه ، بل تسقط مكانها لإصابته مقتلها ، يقال : نمت الرمية وأنماها الرامى ، إذا مضت بالسهم فغابت به . . . . وقوله : «لا عد من نفره» دعاء عليه على وجه التعجب .

(٣) سورة السجدة ١٠

(٤) اللسان ١٣ : ٤١٩ ، ورواه : «وفارسها» .

(٥) سيرة ابن هشام ٢ : ٣٨٥ .

وعلمت أني إن أقاتلْ واحداً أُقتَلْ ولا يضْرُرْ عَدُوِّى مَشْهَدِي (١)

فصددتُ عنهم والأحبة فيهمُ طَمَعاً لهم بعقاب يومِ مرصدِ (٢)

أراد بدم أشقر ، فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه كناية عنه ؛ والعرب تقيم الصفة مقام الموصوف كثيرا ، كقوله تعالى : ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ (٣) ، أى على سفينة ذات ألواح ، وكقول عنترة :

* تَمْكُو فَرِيصَتُه كَشِدْقِ الأعْلَمِ (٤) *

أى كشدق الإنسان الأعلم ، أو البعير الأعلم .

ويقولون : تُرِك فلان بجَعْجَاع ؛ أى قتِل ، قال أبو قيس بن الأسلت :

مَنْ يَذُقِ الحَرْبَ يجِدْ طَعْمَها مُرًّا وتتركه بجَعْجَاعِ (٥)

أى تتركه قتيلا مُخَلَّى بالفضاء .

* * *

ومما كنوا عنه قولهم للمقيَّد : هو محمول على الأدهم ؛ والأدهم : القيد ، قال الشاعر :

أوْعَدَنى بالسِّجْنِ والأداهِمِ رِجْلِي وَرِجْلِي شَثْنَةُ المناسِمِ

وقال الحجاج للغضبان بن القَبَعْثَرَى : لأحملنك على الأدهم ، فتجاهل عليه ؛ وقال : مثل الأمير حمَل على الأدهم والأشهب (٦) .

---

(١) ابن هشام : « ولا يبكى عدوى » .

(٢) ابن هشام : « مفسد » .

(٣) سورة القمر ١٣

(٤) من المعلقة ١٩٢ – بشرح التبريزى ، وصدره :

* وَحَلِيلِ غَانِيَةٍ تَرَكْتُ مُجَدَّلاً *

الحليل : الزوج . والغانية : التى استغنت بزوجها ، أو بحسنها ، وقيل : هى الشابة . وتمكو : تصفر . والفريصة : الموضع الذى يرعد من الدابة والإنسان إذا خاف . والأعلم : المشقوق الشفة العليا .

(٥) جمهرة أشعار العرب ١٢٦ . والجعجاع : المكان الذى ينشف فيه الماء .

(٦) كنايات الجرجانى ٤٢

وقد كنوا عن القَيْد أيضاً بالأسمر ، أنشد ابن عرفة لبعضهم :

فما وَجْدُ صُعلوكٍ بصنعاء موثَقٍ ... بساقيه من سُمْرِ القيود كُبُولُ
قليلُ الموالي مُسْلَمٌ بجريرةٍ ... له بعد نَوْماتِ العيون غَلِيلُ
يقول له البوّاب أنت معذَّبٌ ... غَدَاةَ غدٍ أو رائحٌ فقتيلُ
بأكثرَ مِنْ وجدى بكم يوم راعَنِي ... فراقُ حبيبٍ ما إليه سبيلُ

وهذا من لطيف شعر العرب وتشبيهها .

***

ومن كناياتهم عنه : ركب رَدْعَه ، وأصله في السهم يُرمى به فيرتدع نصله فيه ، يقال : ارتدع السهم ، إذا رجع النصل في السِّنْخ متجاوزا ، فقولهم : ركبَ رَدْعه ، أي وُقِصَ فدخل عنقه في صَدْره ، قال الشاعر وهو من شعر الحماسة(1) :

تَقُولُ وَصَكَّتْ صَدْرَها بيمينِهَا ... أَبَعْلِيَ هَـذَا بالرَّحَا المُتَقَاعِسُ(2)!
فقلتُ لها لا تعجلِي وتبيَّنِي ... بلاءَ إذا التفَّتْ علىَّ الفوارسُ
ألستُ أردُّ القِرْنَ يَرْكَبُ رَدْعَه ... وفيه سِنانٌ ذُو غِرارينِ يابسُ(3)
لَعمرُ أبيكِ الخَيْرِ إنى لَخَادِمٌ ... لضيفى وإنى إنْ ركبتُ لفارسُ

وأنشد الجاحظ في كتاب "البيان والتبيين" لبعض الخوارج(4) :

وَمُسَوَّمٍ للموتِ يَرْكَبُ رَدْعَهُ ... بَيْنَ الأَسِنَّةِ وَالقَنَا الخَطَّارِ
يَدْنُو وترفعُه الرِّمَاحُ كأنَّهُ ... شِلْوٌ تنشَّبَ في مخالبِ ضَارِي

---

(1) الكامل ١ : ١٤٢ — بشرح المرصفي ، قال : « ومما يستحسن ويستجاد قول أعرابي من سعد ابن زيد مناة بن تميم ، وكان مملكا ، فنزل به أضياف ، فقام إلى الرحا فطحن لهم ، فمرت به زوجته في نسوة ، فقالت لهن : هذا بعلي ! فأعلم بذلك فقال . . . » ، وذكر الأبيات : وقد نسب أبو تمام هذه الأبيات إلى المذلول بن كعب العنبري ؛ وانظر الحماسة — بشرح المرزوقي ٦٩٥

(2) المتقاعس : الذي يخرج صدره ويدخل ظهره .

(3) الغرار : الحد .

(4) البيان والتبيين ١ : ٤٠٦ ، قال : « وذكر أبو العيزار جماعة من الخوارج بالأدب والخطب فقال » .

فَثَوَى صَرِيعاً والرماحُ تَنُوشُهُ إن الشُّرَاةَ قَصيرةُ الأعمار[1]

***

وقد تطيرت العرب من لفظة البَرَص، فكنوا عنه بالوَضَح، فقالوا: جذيمة الوضّاح، يريدون الأبرص، وكُني عنه بالأبرش أيضا، وكل أبيض عند العرب وَضّاح، ويسمّون اللبن وَضَحاً، يقولون: ما أكثر الوَضَح عند بني فلان[2]!

***

ومما تفاءلوا به قولهم للفلاة التي يُظَن فيها الهلاك: مَفَازة، اشتقاقا من الفَوْز وهو النجاة، وقال بعض المحدَثين:

أحبُّ الفأل حين رأى كَثِيراً أبوهُ عن اقتناء المجدِ عاجزْ[3]

فسمّاه لِقِلّتِـهِ كَثِيراً كتلقيب المهالكِ بالمفاوزْ

فأما من قال: إن المفازة «مفعلة» من فَوَّز الرجل، أي هلك، فإنه يُخرج هذه اللفظة من باب الكنايات.

ومن هذا تسميتهم اللديغ سَليما، قال:

كأني من تذكُّرِ ما ألاقي إذا ما أظلم الليل البهيمُ[4]

سليمٌ ملَّ منه أقربُوه وأسلمه المجاور والحميمُ

---

(١) ثوى: هلك. تنوشه: تأخذه وتتناوله، وفي البيان والتبيين بعده:

أُدَبَاءُ إمّا جئتهمْ خطباءُ ضمناءُ كلِّ كتيبةٍ جرّارِ

(٢) كنايات الجرجاني ٥٣

(٣) كنايات الجرجاني ٥٣

(٤) كنايات الجرجاني ٣، ونسبهما إلى بقيلة، وذكر قبله:

أرِقتُ وَنَامَ عَنّي مَنْ يَلُومُ وَلَـكِنْ لَمْ أَنَمْ أَنَا وَالْهُمُومُ

وقال أبو تمام فى الشيب[1] :

شُعْلةٌ فى المفارقِ استودعَتْنِى ... فى صَمِيمِ الأحْشاء ثُكْلاً صَمِيماً[2]

تستثيرُ الهمومُ ما اكتَنّ منها ... صُعُدا وهى تستثيرُ الهُموما

دِقّةٌ فى الحياةِ تُدْعَى جَلالاً ... مِثْلَما سُمّىَ اللّدِيغُ سَلِيما

غُرّةٌ بَهْمةٌ ألا إنّما كُنْـ ... ـتُ أغرَّ أيامَ كنتُ بهيما

حَلّمتنِى - زعمتمُ - وأرانى ... قبل هذا التّحْلِيم كُنْتُ حَلِيما

ومن هذا قولهم للأعور : ممتّع ، كأنهم أرادوا أنه قد مُتّع ببقاء إحدى عينيه ؛ ولم يُحْرَمْ ضوءهما معا[3] .

***

ومن كناياتهم على العكس قولهم للأسود : ياأبا البيضاء ؛ وللأسود أيضا : يا كافور، وللأبيض : ياأبا الجون ؛ وللأقرع : ياأبا الجعْد .

وسمّوا الغراب أعور لحدّة بصرِه ، قال ابن ميّادة :

ألا طرقَتْنا أمّ عمرو وَدُونَهـا ... فَيافٍ من البَيْدَاء يَعْشَى غُرَابُها

---

(١) ديوانه ٣ : ٢٢٣ ، من قصيدة يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف ، ومطلعها :

إنّ عَهْداً لوْ تَعْلَمانِ ذميا ... أنْ تنَامَا عن ليلتى أو تنيمَا

(٢) قال شارح الديوان : « الشعلة : تحتمل وجهين : أحدهما أن يكون من شعلة النار ، والآخر أن يكون من شعلة الفرس ، يقال : فرس أشعل ، إذا كان فى ذنبه بياض . وقال : « شعلة فى المفارق » ، فصنع بذلك ، لأن الشعلة جرت عادتها أن تكون فى الأذناب ، وهى هنا فى المفارق ، فهى مخالفة لتلك . وصميم كل شىء : خالصه » .

(٣) الجرجانى ٥٣ ، وروى فى ذلك بيتين :

ولُقّبْتُ بالكافِى عمًى وجهالَةً ... وَإن كانَ أمرُ العجزِ عندكَ أوقعَا

كما سُمّىَ الأعمى بَصيراً وسمّى اللـ ... ـديغُ سَليماً ، والمخلّ ممتَّعـا

خصّ الغراب بذلك لحدّة نظره ؛ أى فكيف غيره !

***

ومما جاء فى تحسين اللفظ ماروِى أنّ المنصورَ كان فى بستان دارِه والربيع بين يديه، فقال له : ماهذه الشجرة ؟ فقال : « وِفاق » يا أمير المؤمنين ؛ وكانت شجرة خِلَاف ، فاستحسن منه ذلك .

ومثل هذا استحسان الرشيد قولَ عبدالملك بن صالح ، وقد أهدى إليه باكورَة فاكهة فى أطباق خيزُران : بعثتُ إلى أمير المؤمنين فى أطباق قُضْبانٍ تحمل من جنَايا باكورة بستانه ماراج وأينع ؛ فقال الرشيد لمن حضر :ما أحسن ماكَنى عن اسم أمّنا !

ويقال : إن عبد الملك سبق بهذه الكناية ، وإن الهادىَ قال لابن دأب ، وفى يده عصا : ماجنسُ هذه ؟ فقال : من أصول القنا ـ يعنى الخيزران ، والخيزران أمّ الهادى والرشيد معا .

وشبيه بذلك مايقال : إن الحسنَ بن سهل كان فى يده ضِغْثٌ من أطراف الأراك ، فسأله المأمون عنه : ماهذه ؟ فقال : « محاسنك » يا أمير المؤمنين ، تجنبًا لأن يقول : « مساوئك » ؛ وهذا لطيف .

ومن الكنايات اللطيفة أنّ عبد الملك بعث الشعبىّ إلى أخيه عبد العزيز بن مروان وهو أمير مصر يومئذ ، لِيَسْبُرَ أخلاقه وسياسته ، ويعود إليه فيخبره بحاله ، فلما عاد سأله فقال : وجدتُه أحوجَ الناس إلى بقائك يا أمير المؤمنين ؛ وكان عبد العزيز يُضَعَّف .

ومن الألفاظ التى جاءت عن رسول الله صلى الله عليه وآله من باب الكنايات قوله صلى الله عليه وآله : « بُعِثتُ إلى الأسود والأحمر » ، يريد إلى العرب والعجم ، فكَنى عن العرب بالسُّود وعن العجم بالحمر ، والعرب تسمى العجمىّ أحمر ، لأنّ الشقرة تغلب عليه .

قال ابن قتيبة : خطب إلى عَقِيل بن علفة المرّى ابنتَه هشامُ بن إسمعيل المخزوى ـ وكان والىَ المدينة ، وخال هشام بن عبدالملك ـ فردّه ، لأنه كان أبيض شديد البياض ـ وكان عَقِيل أعرابيا جافيا غيورا مفرط الغَيْرة ـ وقال :

رَدَدْتُ صحيفةَ القرشىّ لمّا ... أبت أعراقـــه إلا احمرارا

فردّه ، لأنه توسّم فيه أن بعضَ أعراقه ينزع إلى العجم ، لما رأى من بياض لونه وشُقرته[1] .

ومنه قول جرير يذكر العجم :

يُسَمُّونَنا الأعرابَ والعَرَبُ اسْمُنَا ... وأسماؤهم فِينـــــا رقابُ المزاوِدِ[2]

وإنما يسمونهم رقاب المزاود ، لأنها حمراء .

* * *

ومن كناياتهم تعبيرهم عن المفاخرة بالمساجلة ، وأصلها من السَّجْل ؛ وهى الدَّلو الملىء ، كان الرجلان يستقيان ، فأيّهما غلب صاحبَه كان الفوز والفخر له ، قال الفضلُ بن العباس ابن عتبة بن أبى لهب بن عبد المطلب :

وَأَنَا الأَخْضَرُ مَنْ يَعْرِفُنِى ... أخضَرُ الجِلْدَةِ مِنْ بَيْتِ العَرَبْ[3]

مَنْ يساجلْنى يُساجِلْ ماجِداً ... يملأُ الدَّلْو إلى عَقْدِ الكَرَبْ[4]

برســـولِ الله وابنَىْ عمّه ... وبعباس بن عبد المطلب

ويقال : إنّ الفرزدق مرّ بالفضل وهو ينشد : « مَنْ يساجلنى » ، فقال : أنا أساجلك ،

---

(١) عيون الأخبار ٤ : ١٢

(٢) كذا ذكره المؤلف ، ولم أجده فى ديوانه ؛ وفى عيون الأخبار (٤ : ١٢) نسبه لرجل من الأعراب .

(٣) الخبر فى الكامل ١ : ١٩٣ ؛ والأبيات فى ستة مع الخبر ، فى الأغانى ٦ : ١٧٢ وهى فى كنايات الجرجانى ٥١ .

(٤) الكرب : حبل يشد على عراق الدلو .

ونزع ثيابه ، فقال الفضل : « برسول الله وابن عمه » ، فلبس الفرزدق ثيابه، وقال: أعضّ الله مَنْ يساجلك بما نفت المواسى من بَظْر أمه ؛ ورواها أبو بكر بن دريد : « بما أبقت المواسى » .

وقد نزل القرآن العزيز على مخرج كلام العرب فى المساجلة ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ ﴾ (١) ، الذّنوب : الدّلو ، والمراد ماذكرناه .

وقال المبرّد : المراد بقوله : « وأنا الأخضر » ، أى الأسمر والأسود ، والعرب كانت تفتخر بالسمرة والسواد ، وكانت تكره الحُمْرة والشقرة ؛ وتقول : إنهما من ألوان العجم .

وقال ابن دُرَيد : مراده أن يبقى ربيعٌ أبدا مخصِب ، كثير الخير ، لأنّ الخِصْب مع الخضرة ، وقال الشاعر :

قومٌ إذا اخضرّت نعالهمُ   يتناهقون تناهُق الحمرِ (٢)

أى إذا أعشبت الأرض اخضرّت نعالهم من وطئهم إياها، فأغار بعضُهم على بعض ، والتناهق هاهنا : أصواتهم حين ينادَوْن للغارة ، ويدعو بعضهم بعضا ، ونظير هذا البيت قول الآخر :

قومٌ إذا نبَتَ الربيعُ لَهُمْ   نبتَت عداوتُهمْ مع البَقْلِ (٣)

أى إذا أخصبوا وشبعوا غزا بعضهم بعضا . ومثله قول الآخر :

يابن هشام أهلكَ النّاسَ اللّبَنْ   فكلُّهمْ يغدو بسيف وقَرَنْ (٤)

أى تسفهوا لما رأوا من كثرة اللبن والخصب ، فأفسدوا فى الأرض ، وأغار بعضهم على بعض . والقرَن : الجَعْبة .

---

(١) سورة الذاريات ٥٩ .
(٢) كنايات الجرجانى ٥٢ .
(٣) كنايات الجرجانى ٥٢ .
(٤) كنايات الجرجانى ٥٢ .

وقيل لبعضهم : متى يُخاف من شرّ بنى فلان ؟ فقال : إذا ألبنوا .

***

ومن الكنايات الداخلة فى باب الإيماء قول الشاعر :

فَتًى لا يرى قَدَّ القميص بخَصْرِهِ ... ولكنّما يُوهِى القميص عَواتِقُه[1]

لما كان سلامة القميص من الخرق فى موضع الخَصْر تابعاً لدقة الخَصْر ، ووهْنُه فى الكاهل تابعا لعظم الكاهل، ذكر ما دلّ بهما على دقّة خَصْر هذا الممدوح وعظَم كاهله :

ومنه قول مسلم بن الوليد :

فَرْعَاءُ فى فَرْعِها لَيلٌ عَلَى قَمَرٍ ... عَلَى قَضِيبٍ على حِقْفِ النَّقا الدَّهِسِ[2]

كأنّ قلبي وشاحَاها إذا خطرتْ ... وقَلْبَها قُلْبُها فى الصَّمْت والخَرَسِ

تجرى محبّتُها فى قَلْب عاشقها ... مجرى السّلامة فى أعضاء منتكسِ

فلما كان قلق الوشاح تابعا لدقة الخَصْر ذكره دالاً به عليه .

ومن هذا الباب قول القائل :

إذا غرّدَ المُكّاء فى غَيْر روضة ... فويلٌ لأهل الشاء والحُمُراتِ[3]

أومأ بذلك إلى الجدب ؛ لأن المُكّاء يألف الرياض ، فإذا أجدبت الأرض سقط فى غير روضة وغرّد ، فالويل حينئذ لأهل الشاء والحُمُر .

ومنه قول القائل :

لعمرِى لنعم الحىّ حىّ بنى كعبٍ ... إذا جُعِل الخَلخال فى موضِع القُلْبِ

(١) كنايات الجرجانى ٥٢ ، وفيه : « كواهله » .

(٢) ملحق ديوانه ٤٢٥ وكنايات الجرجانى ٥٢ ، والحقف ، بالكسر : المعوج من الرمل. والدهس: لون يعلوه أدنى سواد .

(٣) المكاء : طائر أبيض نحو القنبرة ، يكون بالحجاز ؛ وله صفير .

القُلْب: السوار؛ يقول: نعم الحىّ هؤلاء إذا رِيع الناس وخافوا، حتى إنّ المرأة لشدّة خوفها تلبَس الخلخال مكانَ السوار؛ فاختصر الكلام اختصارا شديدا.

ومنه قول الأفوه الأودىّ:

إنّ بَنِى أَوْدٍ هُمُ مَـــاهُمُ للحرْب أو للجدْب عامَ الشُّمُوسِ[1]

أشار إلى الجدب وقلّة السحب والمطر، أى الأيام التى كلّها أيام شمس وصحو؛ لا غيم فيها ولا مطر.

فقد ذكرنا من الكنايات والتعريضات وما يدخل فى ذلك ويجرى مجراه من باب الإيماء والرّمز قطعة صالحة، وسنذكر شيئا آخر من ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى؛ إذا مررنا فى شرح كلامه عليه السلام بما يقتضيه ويستدعيه.

---

(١) ديوانه ١٦ (ضمن مجموعة الطرائف الأدبية).

[حقيقة الكناية والتعريض والفرق بينهما]

وقد كنا وعدنا أن نذكر كلاما كليًّا فى حقيقة الكناية والتعريض ، والفرق بينهما ، فنقول :

الكناية قسم من أقسام المجاز ؛ وهو إبدال لفظة عَرَض فى النطق بها مانع بلفظةٍ لا مانعَ عن النطق بها ، كقوله عليه السلام : « قوارات النساء » ؛ لمّا وجد الناس قد تواضعوا على استهجان لفظة « أرْحَام النساء » .

وأما التّعريض فقد يكون بغير اللفظ كدفع أسماء بن خارجة الفَصّ الفيروز الأزرق من يده إلى ابن مكعبَر الضَّبّى إذكاراً له ؛ بقول الشاعر :

* كذا كلُّ ضَبِّيّ من اللؤم أزرقُ[1] *

فالتعريض إذاً هو التنبيه بفعل أو لفظ على معنى اقتضت الحال العدول عن التصريح به .

وأنا أحكى ها هنا كلام نصر الله بن محمد بن الأثير الجزرىّ فى كتابه المسمى " بالمثل السائر " فى الكناية والتعريض[2] ، وأذكر ما عندى فيه ؛ قال :

خلط أربابُ هذه الصناعة الكناية بالتعريض ، ولم يفصلوا بينهما ، فقال ابن سنان[3] : إن قولَ امرئ القيس :

فصِرْنا إلى الحُسنَى ورَقَّ كلامُنا ورُضْتُ فذلّتْ صعبةَ أىَّ إذلالِ[4]

---

(١) صدره :

* لقَدْ زرِقَتْ عيناكَ يابن مُكَعْبَرٍ *

واظر ص٣١ من هذا الجزء

(٢) المثل السائر ٢ : ١٩١ وما بعدها ؛ مع تصرف فى العبارات .

(٣) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ١٧٦ (٤) ديوانه ٣٢ .

من باب الكناية [1]، والصحيح أنه من باب التعريض .

قال : وقد قال الغانمي والعسكري وابن حمدون وغيرهم نحوَ ذلك ، ومزجوا أحدَ القسمين بالآخر .

قال : وقد حدّ قوم الكناية ، فقالوا : هي اللفظ الدالّ على الشيء بغير الوضع الحقيقيّ ؛ بوصفٍ جامع بين الكناية والمكنيّ عنه ، كاللمس والجماع ، فإن الجماعَ اسم لموضوع حقيقيّ ، واللمس كناية عنه ، وبينهما وصف جامع ، إذ الجماع لَمسٌ وزيادة ، فكان دالاً عليه بالوضع المجازيّ .

قال : وهذا الحدّ فاسد ؛ لأنه يجوز أن يكون حداً للتشبيه والمشبَّه ، فإنّ التشبيه هو اللفظ الدالّ على الوضع الحقيقيّ الجامع بين المشبّه والمشبّه به في صفة من الأوصاف ؛ ألا ترى إذا قلنا : زيد أسد ، كان ذلك لفظا دالاً على غير الوضع الحقيقيّ ؛ بوصف جامع بين زيد والأسد ؛ وذلك الوصف هو الشجاعة [2] .

قال : وأمّا [3] أصحابُ أصول الفقه ، فقالوا في حدّ الكناية : إنها اللفظ المحتمل ؛ ومعناه أنها اللفظ الذي يحتمل الدلالة على المعنى ، وعلى خلافه .

وهذا منقوض بالألفاظ المفردة المشتركة ، وبكثير من الأقوال المركبة المحتملة للشيء وخلافه ؛ وليست بكنايات .

قال : وعندي أنّ الكنايات لا بدّ أنْ يتجاذبها جانبا حقيقة ومجاز ؛ ومتى أفردت جاز حملها على الجانبين معا ؛ ألا ترى أنّ اللمس في قوله سبحانه : ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [4]

---

(١) في المثل السائر : « وهذا مثل ضربه للكناية عن المباضعة » .

(٢) في المثل السائر بعدها: « ومن هنا وقع الغلط لمن أشرت إليه في الذي ذكرته في هذه الكناية » .

(٣) المثل السائر : « علماء » .

(٤) سورة النساء : ٤٣ .

يجوز حمله على الحقيقة والمجاز ؛ وكلٌّ منهما يصح به المعنى ولا يختل ! ولهذا قال الشافعىّ : إن ملامسَة المرأة تنقض الوضوء والطهارة[1] .

وذهب غيرُه إلى أنّ المرادباللمس فى الآية الجماع ؛ وهو الكناية المجازية ؛ فكلّ موضع يَرِدُ فيه الكناية ، فسبيله هذا السبيل ؛ وليس التشبيه بهذه الصورة ولا غيره من أقسام المجاز ؛ لأنه لايجوز حملُه إلا على جانب المجاز خاصة ؛ ولو حمل على جانب الحقيقة لاستحال المعنى ؛ ألاترى أنا إذا قلنا : زيد أسد لم يصحّ أن يحمل إلا على الجهة المجازية ؛ وهى التشبيه بالأسد فى شجاعته ، ولايجوز حمله على الجهة الحقيقية ، لأنّ «زيدا» لا يكون سَبُعا ذا أنياب ومخالبَ ، فقد صار إذَنْ حدّ الكناية أنها اللفظ الدالّ على معنى يجوز حمله على جانبى الحقيقة والمجاز ؛ بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز .

قال : والدليل على ذلك أنّ الكناية فى أصل الوضع أنْ تتكلّم بشىء وتريد غيره ، يقال : كَنَيْتُ بكذا عن كذا ، فهى تدلّ على ما تكلّمت به ، وعلى ما أردته من غيره فلا يخلو[2] إمّا أن يَكُونَ فى لفظ تجاذبه[3] جانبا حقيقة وحقيقة ، أو فى لفظ تجاذبه جانبا مجاز ومجاز ، أو فى لفظ لا يتجاذبه أمر . وليس لنا قسم رابع[3] .

والثانى باطل ، لأن ذاك هو اللفظ المشترك ، فإن أطلق من غير قرينة مخصصة كان مبهما غير مفهوم ، وإن كان معه قرينة صار مخصّصا لشىء بعينه ، والكناية أنّ تتكلّم بشىء وتريد غيره ، وذلك مخالف للفظ المشترك إذا أضيف إليه القرينة ، لأنه يختصّ بشىء واحد بعينه ، ولا يتعدّاه إلى غيره ، والثالث باطل أيضا ، لأنّ المجاز لابد له من حقيقة ينقل عنها لأنه فرع عليها .

(١ — ١) المثل السائر : « ولهذا ذهب الشافعى رحمه‌الله إلى أن اللمس هو مصافحة الجسد ؛ فأوجب الوضوء على الرجل إذا لمس المرأة ؛ وذلك هو الحقيقة فى اللمس » .

(٢) المثل السائر : « وعلى هذا فلا تخلو » .

(٣ — ٣) المثل السائر : « تجاذبه جانبا حقيقة ومجاز ، أو فى لفظ تجاذبه جانبا مجاز ومجاز ، أو فى لفظ تجاذبه جانبا : حقيقة وحقيقة ، وليس لنا قسم رابع » .

وذلك اللفظ الدالّ على المجاز، إما أنْ يكونَ للحقيقة شركة فى الدلالة عليه أو لا يكون لها شركة فى الدلالة عليـه ، كأن اللفظ الواحد قد دلّ على ثلاثة أشياء : أحدها الحقيقة ، والآخران المجازان .

وهذا مخالف لأصل الوضع ، لأن أصل الوضع أن تتكلّمَ بشىء وأنت تريد غيره ، وهاهنا يكون قد تـكلمت بشىء وأنت تريد شيئين غيرين ، وإن لم يكن للحقيقة شركة فى الدلالة ، كان ذلك مخالفاً لأصل الوضع أيضا، إذ أصل الوضع أن تتكلم بشىء وأنت تريدُ غيره ، فيكون الذى تـكلّمت به دالّا على غيره ، وإذا أخرجت الحقيقة عن أن يكون لها شركة فى الدلالة ، لم يكن الذى تـكلّمت به ، وهذا محال ، فثبت إذن أنّ الـكناية هى أن تتكلم بالحقيقة وأنت تريد المجاز .

قال : وهذا مما لم يسبقنى إليه أحد .

***

ثم قال : قد يأتى من الـكلام ما يجوزُ أن يكون كناية، ويجوز أن يكون استعارة، ويختلف ذلك باختلاف النظر إليه بمفرده والنظر إلى ما بعده . كقول نصر بن سيّار [فى أبياته المشهورة التى يحرض بها على بنى أميّة عند خروج أبى مسلم][1] :

أَرَى خَلَلَ الرَّمَادِ وَمِيضَ جَمْرٍ ۝ وَيُوشِكُ أَنْ يَـكُونَ لَه ضِرامُ[2]
فإنّ النارَ بالزّندينِ تُورِى ۝ وإنّ الحربَ أولُها كلامُ[3]

---

(١) من المثل السائر .
(٢) الأبيات فى الأخبار الطوال ٣٤٠ .
(٣) الأخبار الطوال :

* وإن الشر مبدؤه الـكلام *

أقول من التعجّب : لَيْتَ شعرِى ... أأيقاظٌ أميةُ أم نيـــام ! [1]

فالبيت الأول لو ورد بمفرده لـكان كناية ، لأنه لا يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز [2] ؛ فإذا نظرنا إلى الأبيات بجملتها ؛ كان البيت الأول المذكور استعارة لا كناية .

***

ثم أخذ فى الفرق بين الـكناية والتعريض ، فقال : التعريض هو اللفظ الدالّ على الشىء من طريق المفهوم ؛ لا بالوضع الحقيقىّ ولا بالمجازىّ ؛ فإنك إذا قلت لمن تتوقع معروفه وصِلَته بغير طلب : أنا محتاج ولا شىء فى يدى ، وأنا عريانُ والبرد قد آذانى ؛ فإن هذا وأشباهَه تعريضٌ بالطلب ، وليس اللفظ موضوعا للطلب ، لا حقيقة ولا مجازا ؛ وإنما يدلّ عليه من طريق المفهوم بخلاف قوله : ﴿ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ [3] . وعلى هذا ورد تفسير التعريض فى خِطبة النكاح ، كقولك للمرأة : أنت جميلة ، أو إنك خلية وأنا عزَب . فإن هذا وشبهه لا يدلّ على طلب النكاح بالحقيقة ولا بالمجاز ، والتعريض أخْفَى من الـكناية ، لأنّ دلالة الـكناية وَضْعية من جهة المجاز ، ودلالة التعريض من جهة المفهوم المركّب ، وليست وضعية ؛ وإنما يسمى التعريض تعريضا ؛ لأنّ المعنى فيه يفُهم من عُرْض اللفظ المفهوم ، أى من جانبه .

***

---

(١) الأخبار الطوال : « أقول » ؛ وبعده فى المثل السائر :

فَإِنْ هَبُّوا فَذَاكَ بَقَاءُ مُلْكٍ ... وَإِنْ رَقَدُوا فَإِنِّى لَا أُلَامُ

وبعده فى الأخبار الطوال :

فَإِنْ يَكُ أَصْبَحُوا وَثَوَوْا نِيَامًا ... فَقُلْ قُومُوا فَقَدْ حَانَ الْقِيَامُ

(٢) فى المثل السائر بعد هذه الـكلمة : « أما الحقيقة فإنه أخبر أنه رأى وميض جمر فى خلل الرماد ؛ وأنه سيضطرم ؛ وأما المجاز فإنه أراد أن هنـاك ابتداء شر كامن ، ومثـله بوميض جمر من خلل الرماد » .

(٣) فى المثل السائر : « بخلاف دلالة اللمس على الجماع » .

قال : واعلم أنّ الكناية تشتمل على اللفظ المفرد ، واللفظ المركّب ؛ فتأتى على هذا مرّة ، وعلى هذا أخرى ؛ وأمّا التعريض فإنه يختصّ باللفظ المركب ، ولا يأتى فى اللفظ المفرد ألبتّة ، لأنه لا يُفهم المعنى فيه من جهة الحقيقة ، ولا من جهة المجاز ، بل من جهة التلويح والإشارة ، وهذا أمر لا يستقلّ به اللفظ المفرد ، ويحتاج فى الدلالة عليه إلى اللفظ المركب .

قال : فقد ظهر فيما قلنا فى البيت الذى ذكره ابن سنان مثال الكناية ، ومثال التعريض هو بيت امرئ[1] القيس ؛ لأن غَرض الشاعر منه أن يذكر الجماع ؛ إلا أنه لم يذكرْه بل ذكر كلاما آخر ، ففهم الجِماع من عرضه ، لأنّ المصير إلى الحسنى ورقّة الكلام لا يدلان على الجماع ، لا حقيقة ولا مجازا .

ثم ذكر أن من باب الكناية قوله سبحانه : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النَّارِ . . .[2] ﴾ الآية .

قال : كَنَى بالماء عن العِلم ، وبالأودية عن القُلوب ، وبالزّبد عن الضلال .

قال : وقد تحقق ما اخترعناه وقدرناه من هذه الآية ؛ لأنه يجوز حملها على جانب الحقيقة ، كما يجوز حملها على جانب المجاز .

قال : وقد أخطأ الفرّاء حيث زعم أن قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ[3] ﴾ كناية عن أمر النبىّ صلى الله عليه وآله ، وأنه كَنى عنه بالجبال.

قال : ووجه الخطأ أنّه لا يجوز أن يتجاذَب اللفظَ ها هنا جانبا الحقيقة والمجاز ؛ لأنّ مكرهم لم يكن لتزول منه الجبال الحقيقية ، فالآية إذاً من باب المجاز لا من باب الكناية .

---

(١) هو بيت امرىء القيس :

فصِرْنَا إلَى الْحُسْنَى وَرَقّ كَلَامُنَا ... وَرُضْتُ فَذَلّتْ صَعْبَةً أىّ إذْلَالِ

(٢) سورة الرعد ١٧ .

(٣) سورة إبراهيم ٤٦ .

قال : ومن الكنايات المستحسَنة قولُه عليه السلام للحادى بالنساء : « يا أنجشَة رِفقا بالقوارير » .

وقول امرأة لرجل قعد منها مقعد القابلة : لا يحلّ لكَ أنْ تَفضَ الخاتم إلا بحقّه .

وقول بُدَيْل بن ورقاء الخزاعىّ لرسول الله صلى الله عليه وآله : إنّ قريشا قد نزلت على ماء الحُدَيبِيَة معها العُوذ المطافيل ، وإنهم صادوك عن البيت .

قال : فهذه كناية عن النساء والصبيان ، لأنّ العُوذَ المطافيل : الإبل الحديثات النّتاج ومعها أولادها .

ومن الكناية ما ورد فى شهادة الزنا ، أن يُشهد عليه برؤية المِيل فى المكحُلة .

ومنها قول عمر لرسول الله صلى الله عليه وآله : هلكتُ يا رسول الله ، قال : « وما أهلكك ؟ » ، قال : حَوّلت رحلى البارحة[1] . قال : أشار بذلك إلى الإتيان[2] فى غير المأتَى .

ومنها قول ابن سلّام لمن رأى عليه ثوبا معصفرا : « لو أنّ ثوبك فى تنّور أهلك لكان خيرا لك » .

***

قال : ومن الكنايات المستقبحة قول الرضىّ يرثى امرأة :

* إن لم تكن نَصْلا فغِمدُ نُصُولِ *

لأن الوهم يسبق فى هذا الموضع إلى مايقبح ، وإنما سرقه من قول الفرزدق فى امرأته وقد ماتت بجُمْع :

وَجَفنِ سِلاحٍ قَدْ رُزِئْتُ فلم أَنُحْ عَلَيْهِ ، ولم أبعثْ عليه البواكيَا[3]

(١) فى المثل السائر بعدها : « فقال له النبى صلى الله عليه وسلم » : أقبل وأدبر واتق الدبر والحيضة .
(٢) فى ا ، ج : « إتيان » .
(٣) ديوانه ٨٨٤ ، وانظر ص ٤٠ من هذا الجزء .

وفى جوفهِ من دارمٍ ذُو حفيظة ... لَوَ أنّ المنايا أخطأته لياليا

فأخذه الرضىّ فأفسده ولم يحسِن تصريفَه .

قال : فأما أمثلة التعريض فكثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾[1]، فقوله: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ تعريضٌ بأنّهم أحقّ بالنبوّة ، وأنّ الله تعالى لو أراد أنْ يجعلها فى واحد من البشَر لجعلها فيهم ؛ فقالوا: هبْ أنّك واحد من الملإ وموازِيهم فى المنزلة ، فما جعَلك أحقّ بالنبوّة منهم! ألا ترَى إلى قوله : ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾ .

هذه خلاصة ماذكره ابن الأثير فى هذا الباب .

واعلمْ أنا قد تكلّمنا عليه فى كثير من هذا الموضع فى كتابنا الذى أفردناه للنّقض عليه؛ وهو الكتاب المسمّى بـ «الفلك الدائر على المثل السائر» فقلنا[2] أولا : إنه اختار حدّ الكناية وشرَع يبرهِنُ على[3] التّحديد ، والحُدود لا يبرهَن عليها ؛ ولا هِيَ مِنْ باب الدّعاوى التى تحتاج إلى الأدِلّة ؛ لأنّ مَنْ وَضَع لفظ الكناية لمفهوم مخصوص لا يحتاج إلى دليل ، كمَنْ وضع لفظ الجدار للحائط لايحتاج إلى دليل .

ثم يقال له : لِمَ قلت : إنّه لابدّ من أنْ يتردّد لفظ الكناية بين محمَلىْ حقيقةٍ ومجاز ؟ ولم لا يتردّد بين مجازيْن ؟ وما استدللتَ به على ذلك لامعنى له . . .

أما أولاً ؛ فلأنّك أردت أن تقول : إمّا أنْ تكون للّفظَة الدالّة على المجازيْن شركة فى الدلالة على الحقيقة ، أولا يكون لها فى الدلالة على الحقيقة شركة ؛ لأنّ كلامك هكذا يقتضى ، ولا ينتظم إلا إذا قلت هكذا فلم تقله ، وقلت : إمّا أن يكون للحقيقة شركة فى

(١) سورة هود ٢٧ .

(٢) الفلك الدائر ١٧٠ وما بعدها ، مع اختلاف فى العبارة .

(٣) ا ، ج : « عن » .

اللفظ الدالّ على المجازين ؛ وهذا قلب للكلام الصحيح وعكس له .

وأمّا ثانيا فلِمَ قلتَ : إنه لا يكون للفظة الدالّة على المجازين شَرِكة فى الدلالة على الحقيقة التى هى أصل لها ؛ فأما قولك هذا فيقتضِى أن يكون الإنسان متكلّما بشىء وهو يريد شيئين غيره ؛ وأصلُ الوَضع أن يتكلم بشىء وهو يريد غيره ؛ فليس معنى قولهم : الكناية أن تتكلّم بشىء وأنت تريد غيره ؛ أنكَ تريد شيئا واحدا غيره ؛ كَلّا ليس هذا هو المقصود ، بل المقصود أنْ تتكلّم بشىء وأنت تريد ماهو مغاير له ؛ وإن أردت[1] شيئا واحدا[1] أو شيئين أو ثلاثة أشياء أو مازاد ؛ فقد أردت ماهو مغاير له ؛ لأنّ كلّ مغاير لما دلّ عليه ظاهر لفظك فليس فى لفظه غير ما يقتضى الوحدة والإفراد .

وأما ثالثا فلِمَ لا يجوز أن يكون للفظ الدال على المجازين شركة فى الدلالة على الحقيقة أصلا ، بل يدلّ على المجازين فقط ! فأمّا قولك إذا خرجت الحقيقة عن أن يكون لها فى ذلك شركة لم يكن الذى تكلّمت به دالًّا على ما تكلّمت به وهو محال ؛ ومرادك بهذا الكلام المقلوب أنه إذا خرجت اللفظة عن أن يكون لها شركة فى الدّلالة على الحقيقة التى هى موضوعة لها فى الأصل لم يكنْ ماتكلم به الإنسانُ دالاً على ماتكلّم به وهو حقيقة ؛ ولا دالا أيضاً على ماتكلّم به وهو مجاز ؛ لأنه إذا لم يدلّ على الحقيقة، وهى الأصل؛ لم يجز أن يدلّ على المجاز الذى هو الفرع ؛ لأنّ انتفاء الدلالة على الأصل ؛ يوجب انتفاء الدلالة على الفرع ؛ وهكذا يجب أن يُتأولّ استدلاله ؛ وإلّا لم يكن له معنى محصّل ؛ لأن اللفظ هو الدّال على مفهوماته ؛ وليس المفهوم دالًّا على اللفظ ، ولا له شركة فى الدلالة عليه ؛ ولا على مفهوم آخر يعترض اللفظ بتقدير انتقال اللفظ ؛ اللّهمّ إلا أنْ يكون دلالة عقلية ؛ وكلامُنا فى الألفاظ ودلالتها[2] .

(١ — ١) ساقط من ب ، وأثبته من ا ، ج .

(٢) ا : « وأدلتها » .

فإذا أصلحنا كلامه على ماينبغى ، قلنا له فى الاعتراض عليه : لم قلتَ إنه إذا خرج اللفظُ عن أن يكون له شركةٌ فى الدَّلالة على الحقيقة ؛ لم يكن ماتكلّم به الإنسان دالًّا على ماتكلم به ؟ ولم لا يجوزُ أن يكون للحقيقة مجازان قد كثر استعمالهما حتى نسيتْ تلك الحقيقة ؛ فإذا تكلّمَ الإنسان بذلك اللفظ كان دالًّا به على أحد ذَيْنِك المجازين ، ولا يكون له تعرُّضٌ مابتلك الحقيقة ، فلا يكون الذى تكلم به غير دالٍّ على ماتكلم به ؛ لأن حقيقة تلك اللفظة قد صارتْ ملغاة منسية ؛ فلا يكون عدمُ إرادتها موجبا أنْ يكون اللفظ الذى يتكلم به المتكلم غير دالٍّ على ماتكلم به ؛ لأنها قد خرجت بترك الاستعمال ؛ عن أنْ تكون هى ماتكلم به المتكلم .

ثم يقال : إنك منعت أن يكون قولنا: «زيد أسد» . كناية ، وقلت: لأنه لا يجوز أن يحمل أحد هذا اللفظ على أن « زيدا » هو السبع ذو الأنياب والمخالب ؛ ومنعت من قول القرّاء إن الجبال فى قوله : ﴿ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ كناية عن دعوة محمد صلى الله عليه وآله وشريعته؛ لأنَّ أحداً لا يعتقد ولا يتصوَّر أنَّ مكرَ البشر يزيل الجبال الحقيقية عن أماكنها ، ومنعتَ مِنْ قول مَنْ قال إن قول الشاعر :

* وَلَوْ سَكَتُوا أثْنَتْ عَلَيْكَ الحَقَائِبُ[1] *

من باب الكناية ، لأنَّ أحداً لا يتصوَّر أنَّ الحقائب — وهى جمادات — تُثنِى وتشكر .

وقلت : لا بدَّ أن يصحَّ حمل لفظ الكناية على محملَى الحقيقة والمجاز ، ثم قلت: إنَّ

---

(١) لنصيب ؛ من أبيات يمدح فيها سليمان بن عبد الملك وصدره :

* فعَاجُوا فَأَثْنَوا بِالَّذِى أَنْتَ أَهْلُهُ *

البيان والتبيين ١ : ٨٢ .

قول عبد الله بن سلَام لصاحب الثوب المصفَر : « لو أنك جعلتَ ثوبك فى تَنُّور أهلك » كناية ، وقول الرضىّ فى امرأة ماتت :

* إنْ لَمْ تَـكُنْ نَصْلًا فَغِمْدُ نُصُولِ *

كناية ، وإن كانت مستقبحة ، وقول النبىّ صلى الله عليه وآله : « يا أنجشة رفقا بالقوارير » ؛ وهو يحدو بالنساء كناية ؛ فهل يجيزُ عاقل قطّ أو يتصوّر فى الأذهان أنْ تكونَ المرأة غِمداً للسيف ! وهل « يحمِل(١) أحد » قطّ قوله للحادى « رفقا بالقوارير » على أنه يمكن أن يكون نهاه عن العُنْف بالزُّجاج ؛ أو يحمل أحدٌ قطّ قول ابن سلَام على أنه أراد إحراق الثوب بالنار ، أو يحمل قطّ أحدٌ قوله : « المِيل فى المكحلة » على حقيقتها ، أو يحمل قطّ أحـد قوله : « لا يحل لكَ فضّ الخاتم » على حقيقته ! وهل يشكّ عاقل قطّ فى أنّ هـذه الألفاظ ليست دائرة بين المحملين دَوَرَان اللمس والجماع والمصافحة ، وهذه مناقضة ظاهرة ، ولا جوابَ عنها إلّا بإخراج هذه المواضع من باب الـكناية ، أو بحذف ذلك الشرط الذى اشترطته فى حدّ الـكناية .

***

فأمّا ما ذكره حكايةً عن غيره فى حَدّ الـكناية بأنّها اللفظ الدالّ على الشىء بغير الوضع الحقيقىّ ؛ بوصف جامع بين الـكناية والمـكنىّ عنه ، وقوله : هـذا الحدّ هو حدّ التشبيه ؛ فلا يجوز أنْ يكونَ حدّ الـكناية .

فلقائل أن يقول : إذا قلنا : زيد أسد ، كان ذلك لفظاً دالًّا على غير الوضع الحقيقىّ ، وذلك المدلول هو بعينه الوصف المشترك بين المشبّه والمشبّه به ؛ ألا ترى أنّ المدلولَ هو الشجاعة ؛ وهى المشترك بين زيد والأسد ؛ وأصحاب الحدّ قالوا فى حَدّهم : الـكناية هى اللفظ الدالّ على الشىء بغـير الوضع الحقيقى ؛ باعتبار وصف جامع بينهما ؛ فجعلوا المدلولَ أمراً

(١) ب : « يحمل قط » .

والوصف الجامع أمراً آخر باعتباره وقت الدلالة ، ألّا ترى أنّ لفظ ﴿ لَامَسْتُمُ ﴾ يدلّ على الجماع الذى لم يوضع لفظ ﴿ لَامَسْتُمْ ﴾ له ، وإنما يدلّ عليه باعتبار أمر آخر ؛ هو كون الملامسة مقدّمة الجماع ومفضيةٍ إليه ! فقد تغاير إذن حدّ التشبيه[1] وحدُّ الكناية، ولم يكن أحدُهما هو الآخر .

* * *

فأما قوله : إن الكناية قد تكون بالمفردات والتعريض لا يكون بالمفردات ، فدعوى ؛ وذلك أنّ اللفظ المفرد لاينتظِمُ منه فائدة ، وإنما تفيد الجملة المركبة من مبتدأ وخبر ، أو من فعل وفاعل ؛ والكناية والتعريض فى هذا الباب سواء ؛ وأقلّ مايمكن أن يقيّد فى الكناية قولك : لامست هندا ، وكذلك أقلّ مايمكن أن يفيد فى التعريض : « أنا عزب » ، كاقد ذكره هو فى أمثلة التعريض . فإن قال : أردت أنه قد يقال : اللّمس يصلح أن يُكْنَى به عن الجماع ، واللمس لفظ مفرد ، قيل له : وقد يقال: التعزّب يصلح أن يعرّض به فى طلب النكاح .

* * *

فأمّا قوله : إن بيت نصر بن سيّار ، إذا نظر إليه لمفرده صَلَح أن يكون كنايةً، وإنّما يخرِجه عن كونه كناية ضمُّ الأبيات التى بعدَه إليه ، ويدخله فى باب الاستعارة ، فلزمه عليه أن يخرج قول عمر : « حوّلت رَحْلِي » عن باب الكناية بما انضمّ إليه من قوله : « هلكت » ؛ وبما أجابه رسول الله صلى الله عليه وآله من قوله : « أقبِلْ وأدبِرْ واتق الدُّبر والحَيْضة » ؛ وبقرينة الحال . وكان يجب ألّا تُذكر هذه اللفظة فى أمثلة الكنايات .

فأما بيت امرئ القيس فلا وجه لإسقاطه من باب الكناية وإدخاله فى باب

(١) ا ، ج « هو والكناية » .

التعريض ؛ إلا فيما اعتمد عليه ؛ من أنّ من شرط الكناية أن يتجاذبها جانبا حقيقة ومجاز . وقد بيّنّا بطلان اشتراط ذلك ؛ فبطل مايتفرّع عليه .

وأما قول بُدَيل بن ورقاء : « معها العُوذُ المَطَافيل » فإنه ليس بكناية عن النساء والأولاد كما زعم ؛ بل أراد به الإبل ونتاجها ؛ فإنّ كتب السِّيَر كلّها متّفقة على أن قُريشا لم يخرج معها فى سنة الحديبيَة نساؤها وأولادها ،ولم يحارب رسول الله صلى الله عليه وآله قوماً أحضروا معهم نساءهم وأولادهم ؛ إلا هَوازِن يوم حُنَين ، وإذا لم يكن لهذا الوجه حقيقة ولا وجود ؛ فقد بطل حمل اللفظ عليه .

فأما مازَرَى به على الرضىّ رحمه الله تعالى من قوله :

* إن لم تكنْ نَصْلًا فغِمْدُ نُصُولِ *

وقوله : هذا مما يسبق الوهم فيه إلى مايستقبَح واستحسانه شعرَ الفرزدق وقوله : إن الرضىّ أخذه منه فأساء الأخذ ، فالوَهْم الذى يسبق إلى بيت الرضىّ يسبق مثله إلى بيت الفرزدق ؛ لأنّه قد جعل هذه المرأة جَفْن السلاح ؛ فإن كان الوَهْمُ يسبق هناك إلى قبيح فهاهنا أيضا يسبق إلى مثله .

وأما الآية التى مثّل بها على التعريض ؛ فإنه قال : إن قوله تعالى : ﴿ مَانَرَاكَ إلَّا بَشَراً مِثْلَنَا ﴾ تعريض بأنّهم أحقّ بالنبوّة منه ، ولم يبين ذلك ؛ وإنما قال : فحوى الكلام أنّهم قالوا له : هب أنّك واحد من الملأ وموازيهم فى المنزلة ، فما جَعَلك أحقّ بالنبوة منهم؟ ألا ترى إلى قوله : ﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾! وهذا الكلام لايقتضى ماادّعاه أولا من التعريض ؛ لأنه ادّعى أن قوله : ﴿ مَانَرَاكَ إلَّا بَشَراً مِثْلَنَا ﴾ تعريض بأنّهم أحقّ بالنبوّة منه ؛ وما قرّره به يقتضى مساواته لهم ، ولا يقتضى كونَهُم أحقّ بالنبوة منه، فبطلَ دعوى الأحقيّة ، التى زعم أنّ التعريض إنما كان[1] بها .

***

(١) ا : « يكون » .

فأما قوله تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا ﴾، وقوله : إن هذا من باب الكناية وأنه تعالى كَنَى به عن العلم والضلال وقلوب البَشر، فبعيد، والحكيم سبحانه لا يجوز أن يُخاطب قوماً بلغتهم ؛ فيعمِّيَ عليهم ، وأن يصطلح هو نفسه على ألفاظ لا يفهمون المراد بها، وإنما يعلمها هو وحده ؛ ألا ترى أنه لا يجوز أن يحمل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾[1] على أنه أراد أنا زينّا رءوس البشر بالحواس الباطنة والظاهرة المجعولة فيها ؛ وجعلناها بالقوى الفِكْريّة والخيالية المركبة فى الدّماغ راجمة وطاردة للشُّبَه المضلّة ؛ وإنّ مَنْ حمل كلام الحكيم سبحانه على ذلك فقد نسبه إلى الإلغاز والتعمية ؛ وذلك يقدح فى حكمته تعالى. والمراد بالآية المقدم ذكرُها ظاهرُها ، والمتكلف لحملها على غيرها سخيفُ العقل؛ ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ﴾[2]؛ أفترى الحكيم سبحانه يقول : إن للذهب والفضة زبدا مثل الجهل والضلال! ويبين ذلك قوله: ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾[2]؛ فضرب سبحانه الماء الذى يبقى فى الأرض فينتفع[3] به الناس، والزّبد الذى يعلو فوقَ الماء فيذهب جفاء مثلاً للحق والباطل ، كما صرّح به سبحانه فقال : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾[2] ؛ ولو كانت هذه الآية من باب الكنايات ـ وقد كنى سبحانه بالأودية عن القلوب، وبالماء الذى أنزله من السماء عن العلم ، وبالزّبد عن الضلال ـ لمَا جعل تعالى هذه الألفاظ أمثالا ، فإن الكناية خارجة عن باب المثَل ، ولهذا لا تقول إن قوله تعالى: ﴿ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ من باب المثل ، ولهذا أفرد هذا الرجل فى كتابه باباً آخر غير باب الكناية ، سمّاه باب المثل ، وجعلهما قسمين متغايرين فى علم البيان، والأمر فى هذا

---

(١) سورة الملك ٥
(٢) سورة الرعد ١٧
(٣) ا : « لينفع » .

الموضع واضح ، ولـكنّ هذا الرجل كان يحبُّ هذه الترّهات ، ويُذهِب وقته فيها ، وقد استقصينا فى مناقضته والردّ عليه فى كتابنا الذى أشرنا إليه .

* * *

فأما قوله عليه السلام : « كُلَّمَا نَجَمَ منهم قَرْنٌ قطع » ، فاستعارة حسنة ، يريد : كُلَّما ظهر منهم قوم استؤصلوا ، فعبّر عن ذلك بلفظة « قَرْن » كما يقطع قَرْن الشّاة إذا نجم ؛ وقد صح إخبارُه عليه السلام عنهم أنّهم لم يهلـكوا بأجمعهم فى وقعة النّهروان ، وأنّها دعوة سيدعو إليها قوم لم يخلقوا بعد ، وهـكذا وقع وصحّ إخباره عليه السـلام أيضاً أنه سيـكون آخرهم لصوصاً سَلّابين ؛ فإن دعوة الخوارج اضمحلّت ، ورجالها فنيت ، حتى أفضى الأمرُ إلى أن صارَ خَلَفُهم قُطّاع طريق ، متظاهرين بالفسوق والفساد فى الأرض .

[مقتل الوليد بن طريف الخارجىّ ورثاء أخته له]

فمن انتهى أمره منهم إلى ذلك الوليد بن طريف الشيبانىّ[1] . فى أيام الرّشيد بن المهدىّ ، فأشخص إليه يزَيد بن مزيد الشيبانىّ فقتله ، وحمل رأسه إلى الرشيد ، وقالت أخته ترثيه ، وتذكر أنه كان من أهلِ التُّقى والدين ، على قاعدة شعراء الخوارج ، ولم يكن الوليد كما زعمت :

أَيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَالَكَ مُورِقاً ... كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفِ[2]

فَتًى لايحبّ الزادَ إلّا مِنَ التُّقَى ... ولا المالَ إلا مِنْ قناً وسيوفِ

---

(١) انظر ترجمة الوليد بن طريف فى ابن خلـكان ٢ : ١٧٩

(٢) هى الفارعة بنت الوليد ؛ من قصيدة طويلة ؛ نقلها ابن خلـكان فى ترجمةالوليد ، وقال : « وكان للوليد المذكور أخت تسمى الفارعة ــ وقيل فاطمة ــ تجيد الشعر وتسلك سبيل الخنساء فى مراثيها لأخيها صخر ، فرثت الفارعة أخاها بقصيدة أجادت فيها ؛ وهى قليلة الوجود ؛ ولم أجد فى مجاميع كتبالأدب إلا بعضها ؛ حتى إن أبا على القالى لم يذكر منها فى أماليه سوى أربعة أبيات ، فاتفق أنى ظفرت بها كاملة فأثبتها لغرابتها وحسنها؛ وهى هذه » . وأوردالقصيدة ومنها أبيات فىأمالى القالى ٢ : ٢٨٤، واللآلى ٩١٣ ، وشرح شواهد المغنى ٥٥ .

ولا الذُّخْرَ إلا كلّ جرداء شَطْبةٍ   وكلّ رقيق الشَّفْرَتَيْن خفيفِ (١)
فَقَدْناك فقدانَ الربيع وليتَنا   فَدَيْناك من سَادَاتِنــا بألوفِ

وقال مُسلم بن الوليد يمدح يزيد بن مزيد ، ويذكر قتله الوليد :

والمارقُ ابنُ طريفٍ قد دَلَفْتَ لَهُ   بعارضِ المنايا مُسْبِلٍ هَطِلِ (٢)
لو أن شيئاً بَــكَى مما أطاف به   فاز الوليد بِقِدْحِ النّاضِل الخَصِلِ (٣)
ما كان جمعُهُم لَمَّا لقيتَهُمُ   إلا كرَجْل جَرادٍ ريع مُنْجَفِلِ (٤)
فاسلم يزيدُ فما فى الملك من أَوَدٍ   إذا سلمت ، ولا فى الدين من خَلَلِ

***

[خروج ابن عمرو الخثعمىّ وأمره مع محمد بن يوسف الطائىّ]

ثم خرج فى أيام المتوكل ابنُ عمرو الخثعمىّ بالجزيرة فقطَع الطريق ، وأخاف السبيل وتسمّى بالخلافة ، فحاربه أبو سعيد محمد بن يوسف الطائىّ الثغرىّ الصامِتىّ ؛ فقتل كثيراً من أصحابه ، وأسرَ كثيراً منهم ونجا بنفسه هارباً ، فمدحه أبو عُبادة البحترىّ ، وذكر ذلك فقال :

كُنَّا نُكَفِّرُ من أميَّةَ عُصْبَةً   طَلَبُوا الخِلافَةَ فَجْرَةً وفُسُوقَا (٥)
وَنلومُ طلحــةَ والزبير كلَيْهِمَا   وَنُعَنِّفُ الصِّدِّيقَ وَالْفَارُوقَا
ونقول : تيم أقربت وعَدِيُّها   أمراً بعيداً حيثُ كانَ سَحِيقا
وهمُ قريشُ الأبطحونَ إذا انتموْا   طابُوا أُصُولًا فى العُلاَ وَعُرُوقا

(١) الجرداء : الفرس القصيرة الشعر . والشطبة : السبطة اللحم .
(٢) ديوانه ١٨ ، وفيه : « بعسكر للمنايا » .
(٣) الخصل : المصيب .
(٤) الديوان : « كمثل نعام » .
(٥) ديوانه ٢ : ١٤٥ ؛ من قصيدة أولها :

أأفاقَ صبٌّ مِن هوًى فَأُفِيقَا   أمْ خانَ عَهْدًا أمْ أطاعَ شَفِيقَا

حتّى غدَتْ جُشَمُ بن بكر تبتغِى ... إرْثَ النبىّ وتدَّعِيــه حُقُوقا
جاءوا براعيهمْ ليتّخــذوا به ... عَمْداً إلى قطع الطريق طريقـا
عَقَدُوا عمامَتَه برأس قنــاتِهِ ... ورأوْه برّاً فاستحــال عقُوقا
وأقامَ يُنفِذ فى الجزيرة حكمَه ... وبظنُّ وَعْدَ الكاذبين صدوقا
حتى إذا ما الحيَّةُ الذكرانكَفى ... من أرْزَنٍ حَرِبًا يمجُّ حَرِيقًا(١)
غضبان يلقى الشمس منه بهامةٍ ... يُعْشِى العيون تألُّقًا وبُرُوقا
أوْفَى عليه فظلَّ من دَهش يظن البرَّ بحراً والفَضاء مَضِيقـا
غــدرت أمانيه به وتمزَّقَتْ ... عَنــه غيابةُ سُكْرِه تمزيقًا
طلعتْ جيادُك من رُبا الجودِىّ قد ... حُمّلْنَ من دَفْع المنون وُسُوقا
فدعا فريقًا من سُيوفك حتفهمْ ... وشدَدْتَ فى عِقْدِ الحديد فريقا
ومضى ابن عَمْرٍو قد أساء بعمرِه ... ظنا يمزّق مهرَه تمزيقـا
فاجتاز دِجــلة خائضاً وكأنها ... قَعْبٌ على باب الكُحَيْل أريقا
لو خاضها عِمْليق أو عوج إذاً ... ماجوّزت عُوجاً ولا عمليقــا
لولا اضطرابُ الخوف فى أحشائه ... رسب العُباب به فمات غَرِيقا
لو نفّسته الخيــلُ لفتة ناظرٍ ... ملأ البـــلادَ زلازلا وفُتُوقا
لثَنَى صُدُورَ الخيل تكشف كُرْبَةً ... ولَوَى رماحَ الخطّ تفرج ضيقا(٢)
ولبـكرتْ بـكْرٌ وراحتْ تَغْلِبٌ ... فى نصر دَعْوته إليــه طُرُوقا
حتى يعودَ الذئب ليثاً ضيغماً ... والغصن ساقاً والقرارة نِيقا

---

(١) أرزن : موضع ، والحرب : الغضبان .
(٢) رواية الديوان :

لثَنَى صُدُورَ السُّمْرِ تــكْشِفُ كُرْبَةً ... ولَوَى رءوسَ الخَيْلِ تفرج ضيقا

هَيْهَاتَ مارسَ فيلقا متيقّظاً ... قَلِقاً إذا سكن البليد رَشيقا
مستسلفاً جعل الغَبُوق صَبُوحَه ... وَمُرَى صبوح غدٍ فكَانَ غَبُوقَا

وهذه القصيدة من ناصع شعر البحترىّ ومختاره .

***

[ذكر جماعة ممن كان يرى رأى الخوارج]

وقد خرج بعد هذين جماعة من الخوارج بأعمال كِرْمان وجماعة أخرى من أهل عُمان لا نباهة لهم، وقد ذكرهم أبو إسحق الصابى فى الكتاب " التاجى "[1] وكلهم بمعزل عن طرائق سلفهم؛ وإنما وَكْدُهم وقصدهم إخافة السبيل، والفساد فى الأرض، واكتساب الأموال من غير حِلِّها. ولا حاجة لنا إلى الإطالة بذكرهم. ومن المشهورين برأى الخوارج الذين تمّ بهم صدق قول أمير المؤمنين عليه السلام : إنّهم نُطَف فى أصلاب الرجال وقرارات النساء؛ عِكْرمة مولى ابن عباس، ومالك بن أنس الأصبحىّ الفقيه، يروى عنه أنه كان يذكر عليا عليه السلام وعثمان وطلحة والزبير، فيقول : والله مااقتتلوا إلّا على الثريد الأعْفر .

ومنهم المنذر بن الجارود العبدىّ ، ومنهم يزيد بن أبى مسلم مولى الحجاج .

وروى أنّ الحجاج أُتِىَ بامرأة من الخوارج وبحضرته مولاه يزيد بن أبى مسلم؛ وكان يستسرّ برأى الخوارج ، فكلّم الحجاج المرأة فأعرضت عنه ، فقال لها يزيد : الأمير –ويلك– يكلّمك ! فقالت : بل الويل لك أيها الفاسق الردىء! والردىء عند الخوارج هو الذى يعلم الحقّ من قولهم ويكتمه .

ومنهم صالح بن عبد الرحمن صاحب ديوان العراق .

وممن ينسب إلى هذا الرأى من السلف جابر بن زيد وعمرو بن دينار ومجاهد .

وممن ينسب إليه بعد هذه الطبقة أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمىّ ، يقال : إنه كان يرى رأى الصُّفْرية .

---

(١) كتاب التاجى فى أخبار دولة بنى بويه ، ذكره ابن النديم .

ومنهم اليمان بن رباب ، وكان على رأى البيهسيّة[1] ، وعبد الله بن يزيد ومحمد بن حرب ويحيى بن كامل ، وهؤلاء إباضيّة[2] .

وقد نسب إلى هـذا المذهب أيضاً من قبل أبو هارون العبدىّ ، وأبو الشعثاء ، وإسماعيل بن سميع ، وهبيرة بن بريم .

وزعم ابن قتيبة أن ابن هبيرة كان من غُلاة الشّيعة .

ونُسِب أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد إلى رأى الخوارج لإطنابه فى كتابه المعروف بـ " الـكامل " فى ذكرهم وظهور الميلِ منه إليهم .

(١) البيهسية : أصحاب أبى بيهس الهيصم بن جابر ؛ كان الحجاج طلبه فى أيام الوليد فهرب إلى المدينة ؛ فطلبه بها عثمان بن حيان ، فظفر به وحبسه ؛ وكان يسامره إلى أن ورد كتاب الوليد بأن يقطع يديه ورجليه ثم يقتله ؛ ففعل به ذلك . وبقية أخباره وأقواله فى الشهرستانى ١١٣ .

(٢) الإباضية : أصحاب عبدالله بن إباض ؛ خرج فى أيام مروان ؛ وانظر أخباره وأقواله فى الشهرستانى ١ : ١٢١ .

(٦٠)

الأصْلُ

وقال عليه السلام فى الخوارج :

لَا تُقَاتِلُوا ٱلْخَوَارِجَ بَعْدِى ؛ فَلَيْسَ مَنْ طَلَبَ ٱلْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ كَمَنْ طلبَ ٱلْبَاطِلَ فَأَدْرَكَهُ .

قال الرضىّ رحمه الله :

يَعْنى معاويةَ وأصحابه .

***

الشَّرْحُ :

مرادهُ أن الخوارج ضلّوا بشبهة دخلت عليهم ؛ وكانوا يطلبون الحقّ ؛ ولهم فى الجملة تمسُّك بالدين ، ومحاماة عن عقيدة اعتقدوها ، وإن أخطئوا فيها ؛ وأما معاوية فلم يكنْ يطلبُ الحقّ ؛ وإنما كان ذا باطل ، لا يحامى عن اعتقاد قد بناه على شبهة ، وأحواله كانت تدلّ على ذلك ؛ فإنه لم يكن من أرباب الدين ، ولا ظهر عنه نُسُك ؛ ولا صلاحُ حال ، وكان مترَفًا يُذهِب مالَ الفىء فى مآربه ؛ وتمهيد مُلكه ، ويصانع به عن سلطانه؛ وكانت أحوالهُ كلها مؤذنةً بانسلاخه عن العدالة ، وإصراره على الباطل ؛ وإذا كان كذلك لم يَجُزْ أن ينصُرَ المسلمون سلطانه ، وتحارَبُ الخوارج عليه وإن كانوا أهل ضلال ؛ لأنهمّ أحسن حالا منه ؛ فإنهم كانوا ينهوْن عن المنكر ، ويروْن الخروج على أئمة الجور واجبا .

وعند أصحابنا أنّ الخروجَ على أئمة الجور واجبٌ ، وعند أصحابنا أيضا أنّ الفاسق المتغلّب

بغير شبهة يعتمد عليها لا يجوز أن ينصر على مَنْ يخرج عليه ممن ينتمى إلى الدين ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ؛ بل يجب أن ينصر الخارجون عليه وإن كانوا ضالّين فى عقيدة اعتقدوها بشبهة دينية دخلتْ عليهم ، لأنهم أعدَلُ منه ، وأقربُ إلى الحقّ ، ولا ريب فى تلزّم الخوارج بالدين ، كما لا ريْبَ فى أنّ معاوية لم يظهر عنه مثل ذلك .

عود إلى أخبار الخوارج وذكر رجالهم وحروبهم (*)

ذكر أبو العباس المبرد فى الكتاب " الكامل " أنّ عُرْوة بن أدَيّة أحد بنى ربيعة بن حنظلة ـ ويقال إنه أول من حَكّم ـ حضر حرب النَّهْروان ، ونجا فيها فيمن نجا ، فلم يزل باقياً مدة من خلافة معاوية ، ثم أخِذَ فأتى به زياد ومعه مولى له ، فسأله عن أبى بكر وعمر ، فقال خيراً ، فقال له : فما تقول فى عثمان وفى أبى تراب ؛ فتولّى عثمان ست سنين من خلافته ، ثم شهد عليه بالكفر ، وفعلُ فى أمر علىّ عليه السلام مثلَ ذلك إلى أن حكّم ثم شهد عليه بالكفر . ثم سأله عن معاوية فسبّه سبًا قبيحا ، ثم سأله عن نفسه ، فقال : أوّلك لريبة ، وآخرك لِدَعوة ، وأنتَ بعدُ عاصٍ ربك . فأمر فضربت عنقه ، ثم دعا مولاه ، فقال : صف لى أمورَه ، فقال : أأطنِبُ أم أختصر ؟ قال : بل اختصر ، قال : ما أتيتهُ بطعام فى نهار قطّ ولا فرشتُ له فِراشاً فى ليل قطّ(1) .

***

قال : وحُدّثت أنّ واصلَ بن عطاء أبا حُذَيفة أقبل فى رُفقة ، فأحسّوا بالخوارج ، فقال واصل لأهل الرُّفقة : إنّ هذا ليس من شأنِكم فاعتزلوا ، ودَعونى وإيّاهم ـ وقد كانوا قد أشرفوا على العطب ـ فقالوا : شأنك ، فخرج إليهم ، فقالوا : ما(2) أنت وأصحابك ؟ فقال : قوم مُشركون مُسْتَجِيرون بكم ، ليسمَعُوا كلام الله ؛ ويفهموا حدوده ، فقالوا : قد أجَرْناكم قال : فعلِّمُونا ؛ فجعلوا يعلّمونهم أحكامهم ؛ وواصل يقول : قد قَبِلت أنا ومن معى ، قالوا : فامضوا مُصاحَبين فإنكم إخواننا ، فقال : ليس ذاك إليكم ؛ قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾(3) .

---

* انظر ماسلف من أخبارهم فى الجزء الرابع .

(1) الكامل ٣ : ١٨٠ ، ١٨١ .

(2) ا : « من » .

(3) سورة التوبة ٦ .

فأبلغونا مأمننا . فنظر بعضهم إلى بعض ، ثم قالوا: ذاك لكم ، فساروا معهم بجمعهم ، حتى أبلغوهم المأمن[١] .

***

وقال أبو العباس : أُتِيَ[٢] عبدُ الملك بن مرْوان برجل من الخوارج، فبحَثه فرأى منه ماشَاء[٣] فهما وعلما ، ثم بحثه [٤]فرأى منه ماشاء أدباً وذهناً[٤] ، فرغِب فيه ، فاستدعاه إلى الرجوع عن مذهبه ، فرآه مستبصرا محقِّقا ، فزاده في الاستدعاء ، فقال : تغنيك الأولى عن الثانية ، وقد قلتَ وسمعتُ ، فاسمع أقل ، قال : قل ، فجعل يبسُط من قول الخوارج ويزيِّن له من مذهبهم بلسان طلق ؛ وألفاظ بيِّنة ، ومعان قريبة . فقال عبد الملك بعد ذلك على معرفته[٥] وفضله : لقد كاد يوقَع في خاطري أنّ الجنة إنّما خلقت لهم ، وأنى أولى العباد بالجهاد معهم ؛ ثم رجعت إلى ماثبَّت الله عليَّ من الحجّة ، وقرّر في قلبي من الحقّ ، فقلت [له][٦] : الدنيا والآخرة لله ، وقد سلّطنا الله في الدنيا ، ومكّن لنا فيها ، وأراك لست تجيبنا إلى مانقول ؛ والله لأقتلنك إن لم تطع . فأنا في ذلك ؛ إذ دُخِل عليّ بابني مرْوان .

قال أبو العباس : وكان مرْوان أخا يزيد بن عبد الملك لأمّه ، [أمّهما][٦] عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، وكان أبيًّا عزيزَ النفس ، فدُخل به على أبيه في هذا الوقت باكيًا

---

(١) الكامل ٣ : ١٦٤ ، ١٦٥ .
(٢) ا ، ج : « أتى رجل » .
(٣) ب : « مما شاء » .
(٤ ـ ٤) ساقط من ب .
(٥) ا ، ج : « على معرفة وفضل » .
(٦) من الكامل .

لضرب المؤدِّب إياه، فشقّ ذلك على عبد الملك، فأقبل عليه الخارجيّ وقال: [له][1]: دَعْه يبكِ؛ فإنه أرحبُ لشدقه، وأصحّ لدِماغه، وأذهَبُ لصوته، وأحْرَى ألّا تأبى عليه عينُه إذا حضرته طاعة[2] واستدعى عَبْرَتَها.

فأعجب ذلك من قوله عبدَ الملك، وقال له متعجّبا: أما يشغَلُكَ ما أنت فيه ويعرضك عن هذا؟ فقال: ماينبغى أن يشغل المؤمنَ عن قول الحقّ شىء، فأمر بحبسه، وصفح عن قتله، وقال بَعْدُ معتذراً إليه: لولا أن تُفْسِدَ بألفاظك أكثَرَ رعيّتى ماحبستك، ثم قال عبد الملك: لقد شكّكنى ووهّمنى حتّى مالت بى عصمة الله؛ وغير بعيد أن يستهوِيَ مَنْ بَعْدى[3].

***

[مرداس بن حُدَير]

قال أبو العباس: وكان من المجتهدين[4] من الخوارج البلجاء، وهى امرأة من بنى حَرَام ابن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم.

وكان مرداس بن حُدَير أبو بلال، أحد بنى ربيعة بن حنظلة ناسكا، تعظّمه الخوارج، وكان كثيرَ الصواب فى لفظه مجتهدا، فلقيه غَيلان بن خَرَشَةَ الضبى، فقال: ياأبا بلال، إنّى سمعت الأمير البارحة -يعنى عبيد الله بن زياد- يذكر البلجاء، وأحسبها ستؤخذ، فمضى إليها أبو بلال فقال: إن الله قد وسّع على المؤمنين فى التقيّة[5] فاستترى؛ فإن هذا

---

(١) من الكامل

(٢) ب: « طاعة الله »

(٣) الكامل ٢: ٢٣١، ٢٣٢

(٤) الكامل: « المجتهدات »، وكلاهما صواب

(٥) التقية: حفظ النفس بما يستطاع من المكروه.

المُسرِفَ على نفسه الجبّار العنيد قد ذكركِ ، قالت : إنْ يأخذ نى فهو أشقى به ؛ فأمّا أنا فما أحبّ أن يعنَت إنسان بسببى[1] ؛ فوجّه إليها عبيد الله بن زياد ، فأُتِى بها فقطع يديْها ورجليها ، ورمى بها فى السوق ، فمرّ بها أبو بلال والناس مجتمعون ، فقال : ماهذا ؟قالوا: البلجاء ، فعرّج إليهـا فنظر ثم عضّ على لحيته ، وقال لنفسه : لهـذه أطيبُ نفسا من بقيّة الدنيا منك يامرداس .

قال : ثم إن عبيد الله أخذ مِرْدَاساً فحبسه ،[2]فرأى صاحب السجن منه شدّة اجتهاده، وحـلاوة منطقه ، فقال له : إنّى أرى لك مذهبا حسنا[2] ، وإنى لأحِبّ أن أولِيَكَ معروفا ، أفرأيتك إن تركتُك تنصرف ليلًا إلى بيتك أتدَلَّج[3] إلىّ ؟ قال : نعم ،فـكان يفعل ذلك به[2] .

ولجّ عبيـد الله فى حَبْس الخوارج وقتلهم ، وكُلّم فى بعضهم فأبَى وقال : أقمعُ[4] النفاق قبل أن ينجُم ؛ لـكلامُ هؤلاء أسرعُ إلى القلوب من النّار إلى اليراع[5] .

فلما كان ذاتَ يوم قَتَلَ رجل من الخوارج رجلًا من الشُّرْطة ، فقال ابن زياد : ماأدرِى ماأصنع بهؤلاء ! كلما أمرتُ رجلا بقتل رجل منهم فتكوا بقاتله ،لأقتلنّ مَنْ فى حبسِى منهم . وأخرج السّجان مرداسا إلى منزله كما كان يفعل ، فأُتى مرداسا الخبر ، فلمـا كان فى السَّحَر ، تهيّأ للرجوع إلى السجن ، فقال له أهله: اتق الله فى نفسِك ؛ فإنك إذارجعتَ قُتِلتَ ، فأبى وقال : والله ما كنتُ لألقى الله غادرا ؛ فرجع إلى السجان ، فقال : إنّى قد علمت ماعَزَم عليه صاحبُك ، قال : أعلمت ، ثم جئت[6] !

***

---

(١) ب : « ى » .

(٢ ـ ٢) ا ، ج : « فرأى منه الحباس مذهبا حسنا » .

(٣) تدلج : تسير أول الليل .

(٤) كذا فى الـكامل ؛ وفى الأصول كلمة غير واضحة .

(٥) اليراع : القصب ، واحدته يراعة .

(٦) الـكامل : « ورجعت » .

قال أبو العباس : ويروى أنّ مرداسا مرّ بأعرابيّ يهنأ[1] بعيرا له ، فهرج[2] البعير ، فسقط مرداس مغشيًّا عليه ، فظنّ الأعرابيّ أنه صُرِع ، فقرأ في أذنه ، فلما أفاق قال له الأعرابيّ : إني قرأت في أذنك ، فقال مِرْداس : ليس بي ماخفته عليّ ، ولكني رأيت بعيراً هَرِج من القَطِران ، فذكرت به قَطِران جهنم ، فأصابني مارأيت ، فقال الأعرابيّ : لاجَرَم ! والله لاأفارقك أبدا .

قال أبو العباس : وكان مِرْداس قد شَهِدَ مع عليّ عليه السلام صِفّين ، ثم أنكر التحكيم ، وشهد النَّهْروان ؛ ونجا فيمن نجا ؛ ثم حبسه ابنُ زياد ؛ كما ذكرناه ، وخرج مِنْ حبسه ، فرأى جِدَّ ابن زياد فى طلب الشُّراة ، فعزم على الخروج ؛ فقال لأصحابه : إنه والله مايسعُنا المقام مع هؤلاء الظالمين ، تجرى علينا أحكامُهم ، مجانِبين للعدل ، مفارقين للقصد[3] ؛ والله إنّ الصبر على هذا لعظيم ، وإنّ تجريد السيف وإخافة الناس لعظيم ، ولكنا ننتبذ عنهم ، ولا نجرّد سيفا ، ولا نقاتل إلا مَنْ قاتلنا . فاجتمع إليه أصحابُه زُهاء ثلاثين رَجُلا ، منهم حُرَيْث بن حَجَل وكَهْمس بن طَلْق الصَّرِيميّ ، وأرادوا أن يولّوا أمرَهم حُرَيثا فأبى ، فولّوا أمرَهم مِرْداسا ، فلما مضى بأصحابه لقيه عبد الله بن رباح الأنصاريّ ـ وكان له صديقا ـ فقال : ياأخى ، أين تريد ؟ قال : أريد أن أهربَ بدينى ودين أصحابى مِنْ أحكام هؤلاء الجَوَرة ، فقال : أعلِم بكم أحد ؟ قال : لا ، قال : فارجع ؛ قال : أوتخاف علىّ نُكْرا[4] ؟ قال : نعم ؛ وأن يؤتى بك . قال : لاتخف ؛ فإنى لاأجرّد سيفا ، ولا أخيف أحدا ، ولا أقاتل إلاّ مَنْ قاتلنى .

ثم مضى حتى نزل آسَك ، وهى مابين رامَهُرمز وأرّجان ، فمرّ به مالٌ يُحمل إلى ابن

(١) هنأ البعير ، طلاه بالهناء ، والهناء : القطران .
(٢) هرج : تحير وسدر من حرارة القطران .
(٣) الكامل : « للفصل » ؛ وهو قول الحق
(٤) ا ، ج : « نكيرا » ، وفى الكامل : « مكروها » .

زياد ، وقد قارَب أصحابه الأربعين ، فحطّ ذلك المال ، وأخذ منه عطاءه وعطاء أصحابه ، وردّ الباقى على الرُّسل ، وقال : قولوا لصاحبكم : إنا قبضنا أعطياتنا ، فقال بعض أصحابه: علام نَدَع الباقى ؟ فقال : إنهم يقيمون هـذا الفىء ؛ كما يقيمون الصلاة فلا نقاتلهم على الصلاة .

قال أبو العباس : ولأبى بلال مرداس فى الخروج أشعار ، اخترت منها قوله :

أبعـدَ ابنِ وَهْبٍ ذِى النَّزاهة والتُّقى ... ومَنْ خاضَ فى تلكَ الحرُوبِ المهالِـكا (١)
أحبّ بقاء أو أُرجّى سَـــــلامَةً ... وقد قتـلُوا زيدَ بن حِصْنٍ وَمالِـكا
فيارَبِّ سَلِّمْ نيَّتِى وَبَصِـــيرَتى ... وهبْ لِى التُّقى حتى ألاقِى أولائكا

***

قال أبو العباس : ثم إنّ عُبيد الله بن زياد ، نَدَب جيشاً إلى خُراسان ، فحكى بعضُ مَنْ كان فى ذلك الجيش ،قال : مررنا بآسَك ،فإذا نحن بهم ستة وثلاثين رَجُلاً ، فصاح بنا أبو بلال : أقاصدون لقتالنا أنتم ؟ قال : وكنتُ أنا وأخى قد دخلنا زَرْباً (٢) ، فوقف أخى ببابه ، فقال:السلام عليكم ، فقال مِرْداس : وعليكم السلام، ثم قال لأخى:أجئتم لقتالنا؟ قال : لا ، إنما نريد خُراسان ، قال : فأبلغوا مَنْ لقيتم أنا لم نخرج لنفسد فى الأرض ، ولا لنروِّع أحداً،ولكن هرباً من الظلم . ولسنا نقاتل إلا مَنْ يقاتلنا ، ولا نأخذ من الفىء إلا أعطياتنا، ثم قال : أنُدِب لنا (٣) أحد ؟ قلنا : نعم ، أسلم بن زُرْعة الكلابىّ ، قال:فتى ترونَه يصل إلينا ؟ قلنا : يوم كذا وكذا ، فقال أبو بلال : حَسْبنا الله ونعم الوكيل !

قال أبو العباس:وجَهّز عبيد الله بن زياد أسلم بنزُرْعة فى أسرع مدّة ، ووجّهه إليهم

---

(١) يريد عبيد الله بن وهب الراسبي ؛ أحد بنى راسب ؛ بطن من الأزد ؛ زعيم الخوارج فى مبدأ أمرهم .

(٢) الزرب : مكمن يحتفره الصائد يتوارى فيه ليختل الصيد .

(٣) الكامل : « إلينا » .

فى ألفين ، وقد تتامَّ أصحابُ مرداس أربعين رجلا ، فلما صار أسلم إليهم صاح به أبو بلال: اتق الله يا أسلم ، فإنا لا نُريد فساداً[1] فى الأرض ، ولا نحتجر فيئاً ، فما الذى تريد؟قال: أريد أن أردّكم إلى ابن زياد ، قال: إذن يقتلنا،قال : وإن قتلكم ! قال:تشركُ فى دمائنا، قال : إنى أدِين بأنّه محقٌّ وأنتم مبطلون ؛ فصاح به حُريث بن حَجْل : أهو محقٌّ ، وهو يطيع الفَجرة ، وهو أحدهم ؛ ويقتل بالظِّنّة ويخصُّ بالفئ ، ويجور فى الحكم ! أما علمت أنه قتل بابن سُعاد أربعة برآء ؛ وأنا أحد قتلته ، وقد وضعتُ فى بطنه دراهم كانت معه .

ثم حملوا على أسلم حملة رجل واحد ، فانهزم هو وأصحابه من غير قِتال ، وكاد يأسره مَعْبَد أحد الخوارج،فلما عاد إلى ابن زيادْ غَضِب عليه غضباً شديداً،وقال وَيلك ! أتمضى فى ألفين ، فتنهزم بهم من حملة أربعين ! فكان أسْلَمُ يقول : لأن يذمَّنى ابن زيادٍ وأنا حىٌّ ، أحبُّ إلى أن يمدحنى وأنا ميت .

وكان إذا خرج إلى السوق،أو مرّ بصبيان صاحوا به:أبو بلال وراءك!وربما صاحوا به : يامعبد خذه،حتى شكا إلى ابن زياد ، فأمر الشُّرَط أن يكفُّوا الناس عنه ، ففى ذلك يقول عيسى بن فاتك ، من بنى تيم اللات بن ثعلبة أحد الخوارج :

فلما أصبَحُوا صَلّوْا وقامُوا ... إلى الجُرْدِ العتاقِ مُسَوّمِيناً[2]
فَلَمّا استَجْمَعُوا حَمَلُوا عليهم ... فَظَلَّ ذوو الجَعائِلِ يُقتَلُونا[3]
بقِيّةَ يومِهِمْ حتى أتاهُمْ ... سوادُ الليل فيه يُراوِغونا
يقولُ بَصيرُهُمْ لَمّا أتاهُمْ ... فإنّ القومَ ولّوْا هارِبيناً
أألفاً مؤمنٍ فيكم زَعَمْتُمْ ... ويهزمُكم بآسك أربَعُونا!

---

(١) الكامل « لانريد قتالا » ، ب : « لانريد فساداً فى الأرض » .

(٢) الجرد : جمع أجرد ؛ وهو من الخيل القصير الشعر ، والعتاق : النجائب ؛الواحد عتيق . مسومين: معلمين بعلامة الحرب .

(٣) الجعائل : جمع جعيلة أو جعالة ؛ وهى ما يأخذه العامل من الأجرة .

كذبتم ليس ذاك كما زعمتمْ ولكنَّ الخوارجَ مؤمنُونا
هم الفئة القليلة غيرَ شكٍّ على الفِئة الكثيرة ينصرونا

***

قال أبو العباس : أما قول حُريث بن حَجَل : « أما علمت أنه قتل بابن سُعاد أربعة برآء وأنا أحد قتلته » ، فابن سعاد هو المثلَّم بن مسروح[1] الباهليّ ، وسعاد اسم أمّه؛ وكان من خبره أنه ذُكر لعبيد الله بن زياد رجل من سَدوس ، يقال له خالد بن عبّاد ، أو ابن عُبادة، وكان من نُساك الخوارج، فوجّهَ إليه فأخذه، فأتاه رجل من آل ثور[2] فكذَب عنه وقال: هو صهري وفى ضِمْنِي ، فخلَّى عنه ، فلم يزل الرجل يتفقّده حتى تغيّب ، فأتى ابنَ زياد فأخبره؛ فلم يزل يبعث إلى خالد بن عبّاد حتى ظفر به ، فأخذه ، فقال : أينَ كنت فى غيبتك هذه؟ قال : كنتُ عند قومٍ يذكرون الله ويسبِّحونَه ، ويذكرون أئمة الجوْر ، فيتبرءون منهم. قال : ادللنى عليهم، قال: إذن يَسْعَدُوا وتشقى؛ ولم أكنْ لأروِّعهم؛ قال :فما تقول فى أبى بكر وعمر ؟ فقال : خيراً ، قال :فما تقول فى عثمان وفى معاوية ، أتتولاهما ؟ فقال :إن كانا وليَّيْنِ لله فلست معاديهما ؛ فأراغه مراراً ليرجع عن قوله فلم يفعل ، فعزم على قتله ، فأمر بإخراجه إلى رَحْبة تعرف بِرَحْبة الرَّسى[3] وقتله بها ، فجعل الشُّرطة يتفادوْن مِن قتله ويروغون عنه توقِّيًا لأنه كان متقشِّفاً[4] عليه أثر العبادة ، حتى أتى المثلّم بن مسروح[1] الباهليّ، وكان من الشُّرطة ، فتقدم فقتله ، فائتمر به الخوارج أن يقتلوه ؛ وكان مغرَماً باللِّقاح[5] يتبعها ، فيشتريها من مظانّها ، وهم فى تفقّده ، فدسُّوا إليه رجلا فى هيئة الفِتْيان عليه رَدْعٌ[6]

(١) ب : « متمرح »
(٢) ثور : هو كندة .
(٣) الكامل : « الزينبي » .
(٤) الكامل : « شاسفا » والشاسف : الهزيل .
(٥) اللقاح : النوق ، واحدتها لقحة ؛ وهى الحلوب .
(٦) ردع الزعفران : اللطخ به .

زعفران ، فلقيه بالمِرْبد[1] وهو يسأل عن لِقْحة صفِيّ[2] ، فقال له الفتى : إن كنت تبتغِى[3] فعندى مايغنيك عن غيره ، فامض معى . فمضى المثلّم معه على فرسه ، يمشى الفتى أمامه حتى أتى به بنى سَعْد ، فدخل داراً ، وقال له : أدخل علىّ فرسَك ؛ فلما دخل وتوغّل فى الدار أغلَق الباب ، وثارت به الخوارج ، فاعتوره حُرَيث بن حَجْل وكَهْمس بن طَلْق الصَّرِيمىّ ، فقتلاه ، وجعلا دراهم كانت معه فى بَطْنه ، ودفناه فى ناحية الدار ، وحكّا آثار الدم وخَلّيا فرسه فى الليل ، فأصيب فى الغد فى المِرْبد وتجسّس عنه الباهليُّون ؛ فلم يروا له أثراً ، فاتهموا بنى سَدُوس به ، فاستعدوْا عليهم السّلطان ، وجعل السّدوسيّة يحلفون ؛ فتحامل ابن زياد مع الباهليين ، فأخذ من السّدوسيّين أربع ديات ، وقال : ماأدرى ماأصنع بهؤلاء الخوارج ! كلما أمرت بقتل رجل اغتالوا قاتله . فلم يعلم بمكان المثلّم حَتّى خرج مرادس وأصحابه ، فلما واقفهم ابن زُرْعة الكِلابىّ صاح بهم حُرَيث ، وقال : أهاهنا من باهلة أحد؟ قالوا : نعم ، قال : ياأعداء الله ، أخذتم للمثلم[4] من بنى سَدُوس أربع ديات؛ وأنا قتلتهُ ، وجعلت دراهم كانت معه فى بطنه ، وهو فى موضع كذا مدفون ، فلما انهزم ابن زُرْعة وأصحابُه صاروا إلى الدار ، فأصابوا أشلاءه[5] ؛ فنى ذلك يقول أبو الأسود :

وآليتُ لا أغدُو إلى رب لِقحةٍ ... أساوِمُه حتى يثوبَ المثلَّمُ[6]

---

(١) المربد : كل مكان حبست فيه الإبل ومنه مربد البصرة

(٢) الصفى : الغزيرة اللبن .

(٣) الكامل : « تبلغ » .

(٤) الكامل : « بالمثلم » .

(٥) الكامل ٣ : ٢٧٤ .

(٦) بعده كما فى رغبة الآمل :

وَقَالَ لَهُ كَوْمَاءُ حَمْرَاءُ جَلْدَةٌ ... وَقَارَبَهُ فِي السَّوْمِ وَالْقَتْلَ يَكْتُمُ

فَأَصْبَحَ قَدْ عُمِّيَ عَلَى النَّاسِ أَمْرُهُ ... وَقَدْ بَاتَ يَجْرِى فَوْقَ أَثْوَابِهِ الدَّمُ

وَقَدْ كَانَ فِيمَا كَانَ مِنْهُ بِمَعْزِلٍ ... وَلَكِنَّ حَيْنَ الْمَرْءِ لِلْمَرْءِ مُسْلِمُ

قال أبو العباس : فأما[1] ما كان من مِرْداس ، فإنّ عبيد الله بن زياد ندَب إليه الناس ، فاختار عَبّاد بن أخضر المازنىّ ـ وليس بابن أخضر ؛ بل هو عَبّاد بن علقمة المازنىّ وكان أخضر زوْج أمه ؛ وغلَب عليه ـ فوجّهه إلى مرداس وأصحابه فى أربعة آلاف فارس ، وكانت الخوارج قد تنحّتْ من موضعها ، بدر ابجراد من أرض فارس ؛ فصار إليهم عَبّاد ، فـكان التقاؤهم فى يوم جمعة ، فناداه أبو بلال : اخرج إلىّ يا عبّاد ، فإنى أريد أن أحاورَك ، فخرج إليه ، فقال : ما الذى تبغى ؟ قال : أنْ آخذ بأقفيتـكم فأردّكم إلى الأمير عبيد الله بن زياد ، قال : أو غير ذلك ؟ أن نرجع ؛ فإنا لا نخيفُ سبيلا ، ولا نَذْعَرُ مسلماً ، ولا نحارب إلا مَنْ يحاربنا ، ولا نجبى إلا ما حَمَيْنا . فقال عَبّاد : الأمر ماقلت لك ، فقال له حُريث بن حَجَل : أنحاول أنْ تردّ فئة من المسلمين إلى جبّار عنيد ضَالّ ! فقال لهم : أنتم أوْلَى بالضلال منه ، وما من ذاك من بدّ .

قال : وقدم القعقاع بن عطية الباهلىّ من خراسان ، يريد الحج ، فلما رأى الجمعْين قال : ما هذا ؟ قالوا : الشُّراة ؛ فحمل عليهم ونشِبَت الحرب بينهم ؛ فأخذت الخوارج القعقاع أسيراً ؛ فأتوْا به أبا بلال ، فقال له : مَنْ أنت ؟ قال : ما أنا من أعدائك ؛ إنما قدمت للحجّ ، فحملت وغُررْت ؛ فأطلقه ، فرجع إلى عباد وأصلح مِنْ شأنه ، وحمل على الخوارج ثانية ، وهو يقول :

أُقاتِلهُمْ وَلَيْسَ عَلَىَّ بَعثٌ ... نَشاطاً ليسَ هَذا بالنشاطِ
أكُرُّ على الحروريِّين مُهْرِى ... لأحملَهم على وَضَحِ الصِّراطِ

فحمل عليه حُرَيث بن حَجَل السدوسىّ وكَهْمَسُ بن طَلْق الصَّريمىّ ، فأسراه وقتلاه ، ولم يأتيا به أبا بلال . ولم يزل القوم يجتلِدُون حتى جاء وقت صلاة الجمعة ، فناداهم أبو بلال : يا قوم ، هذا وقتُ الصلاة ، فوادعونا حتى نصلّى وتصلوا ، قالوا : لك ذاك ، فرمى القوم

---

(١) الكامل ٣ : ٢٥٣ وما بعدها

أجمعون بأسلحتهم ، وعمدوا للصلاة ، فأسرع عباد ومَنْ معه وقَضَوْا صلاتهم ، والحرورية مبطئون ، فيهم ما بين راكع وساجد ، وقائم فى الصلاة وقاعد ، حتى مالَ عليهم عبّاد ومن معه ، فقتلوهم جميعاً ؛ وأُتِىَ برأس أبى بلال .

قال : ويرى الشُّراة أنّ مرداسا أبا بلال لما عقَد على أصحابه ، وعزم على الخروج رفع يديْه ، فقال : اللهم إن كان ما نحن فيه حقاً فأرنا آية ، فرجف البيت .

وقال آخرون : فارتفع السقف .

ويقال : إنّ رجلا من الخوارج ذكر ذلك لأبى العالية الرياحىّ ؛ يعجّبه من الآية ، ويرغّبه فى مذهب القوم ، فقال أبو العالية : كاد الخسف ينزِل بهم ، ثم أدركتهم نظرة من الله .

قال : فلما فرغ عَبادٌ من الجماعة أقبل بهم فصلب رءوسهم ، وفيهم داود بن شبيب ، وكان ناسكا ، وفيهم حبيبة البكرىّ من عَبدْ القيس ؛ وكان مجتهدا ؛ ويروى عنه أنه قال : لما عزمت على الخروج فكّرت فى بناتى ، فقلت ذات ليلة : لأمسكنّ عن نفقتهن حتى أنظر ؛ فلما كان فى جوف الليل استسقت بنيّةٌ لى ، فقالت : يا أبت اسقنى ، فلم أجبها ، وأعادت ، فقامت أختٌ لها فسقتها ، فعلمت أنّ الله عز وجلّ غير مضيّعهنّ ، فأتممت عزمى .

وكان فى القوم كَهْمس ، وكان من أبرّ الناس بأمّه ؛ فقال لها : يا أمه ؛ لولا مكانك لخرجتُ ، فقالت : يا بنىّ ، وهبتك لله

ففى مقتلهم يقول عيسى بن فاتك الخطىّ :

ألا فى الله لا فى النّاس سَالتْ ... بداوُدٍ وإخوته الجُذُوع

مَضَوْا قتْلاً وتمزيقاً وَصَلْباً ... تحُومُ عليهمُ طَيْرٌ وُقُوعُ

إذا ما الليلُ أظلم كابَدُوه ... فيسفرُ عنهمُ وهمُ ركوعُ

أطار الخوفُ نومَهمُ فقاموا ... وأهلُ الأرض فى الدنيا هُجُوع

وقال عمران بن حِطّان :

يا عين بَكّى لمرادسٍ ومصرعِه ... يارب مرادس اجعلنى كمرادسِ

تركتنى هائما أبكى لمرزئة[1] ... فى منزلٍ موحشٍ من بعد إيناسِ

أنكرتُ بَعْدَكَ مَن قد كنت أعرفه ... ما الناسُ بعدك يامرادسُ بالناسِ

إمّا شَرِبْت بكأسٍ دار أوّلُها ... على القُرون فذاقوا جَرْعةَ الكاسِ

فكلّ مَنْ لم يذُقْها شاربٌ عجِلاً ... يُسْقَى بأنفاسِ وِرْدٍ بعد أنفاسِ

وقال أيضاً :

لَقَدْ زادَ الحياة إلىَّ بغضاً ... وحُبّاً للخروج أبو بلالِ[2]

أحاذِر أن أموتَ على فراشى ... وأرجو الموت تحت ذُرا العَوالى[3]

فمن يكُ همُّه الدنيا فإنّى ... لها ـ والله ربِّ البيت ـ قالِ

***

[عمران بن حِطّان]

وقال أبو العباس : وعمران هذا ، أحدُ بنى عمرو بن يسار بن ذهل بن ثعلبة بن عُكابة ابن صَعْب بن علىّ بن بكر بن وائل ، وكان رأس القَعَد من الصُّفْرية وفقيههم وخطيبهم وشاعرهم ؛ وشعره هذا بخلاف شعر أبى خالد القَنانىّ وكان من قَعَد الخوارج أيضا . وقد كان كتب قطرىّ بن الفجاءة المازنىّ يلومه على القُعود :

---

(١) الكامل : « لمرزئتى » .

(٢) الأبيات فى الكامل ٣ : ١٦٨

(٣) فى الكامل بعده :

وَلَوْ أنّى عَلِمتُ بِأنّ حتْفِى ... كَحَتْفِ أبى بِلَالٍ لَمْ أبَالِ

أبا خالدٍ أيقنْ فلستَ بخـــالدٍ ... وما جَعَلَ الرحمنُ عـذْراً لقاعدِ
أتزعم أنّ الخارجىّ على الهُدَى ... وأنت مقيمٌ بين لصٍ وجاحدِ!

فكتب إليه أبو خالد :

لقـــدْ زادَ الحياةَ إلىّ حُبًّا ... بناتى إنّهنَّ من الضِّعـــافِ[١]
أحاذِرُ أن يرَيْنَ الفقرَ بعدى ... وأن يَشرَبْنَ رَنْقاً بعد صـــافِ
وأنْ يَعْرَيْنَ إن كُسِىَ الجوارى ... فتنبوُ العينُ عن كرمٍ عِجافِ
ولولا ذاكَ قد سوَّمْتُ مُهْرِى، ... وفى الرَّحمن للضعفـــاء كافِ

* * *

وقال أبو العباس : ومما حدثنى به[٢] العباس بن أبى الفرج الرياشىّ ، عن محمد بن سلام أنّ عمران بن حِطّان لما طَرَدَهُ الحجّاج ، جعل يتنقّل فى القبائل ، وكان إذا نزل بحىّ انتسب نسبا يقرب منهم ، ففى ذلك يقول :

نزلْنا فى بنى سعدِ بن زيدٍ ... وفى عكٍّ وعامر عَوْبثـــانِ[٣]
وفى لخم وفى أُدَدِ بن عمرو ... وفى بكْرٍ وحىٍّ بنى الغُدَانِ

ثم خرج حتى لقى رَوْح بن زِنْباع الجُذامىّ ، وكان رَوْح يَقْرِى الأضياف، وكان مسايراً لعبد الملك بن مروان ؛ أثيراً[٤] عنده . وقال ابن عبد الملك فيه : مَنْ أُعطِىَ مثل ما أُعطِىَ أبو زُرْعة ! أُعطِىَ فقه الحجاز ودهاء أهل العراق وطاعة أهل الشام .

وانتمى عمران إليه أنه من الأزد ، فكان رَوْح لا يسمع شعرا نادراً ، ولا حديثاً غريبا

---

(١) الكامل ٣ : ١٦٧ .
(٢) الكامل ٣ : ١٦٨ وما بعدها .
(٣) عوبثان بن زاهر بن مراد ؛ جد بداء بن عامر (القاموس)
(٤) أثيرا : مكرما ؛ من آثره : إذا أكرمه .

عند عبد الملك ، فيسأل عنه عمران إلاعرفه وزاد فيه . فقال رَوْح لعبد الملك : إنّ لى ضَيفاً ما أسمع من أمير المؤمنين خبراً ولاشِعْراً إلاعرفه وزاد فيه ؛ فقال : أخْبِرْنى ببعض أخباره، فأخبره وأنشده ؛ فقال : إنّ اللغة لغة عدنانية ، ولا أحسبه إلا عِمْران بن حِطّان ؛ حتى تذاكروا ليلةً البيتين اللذين أولهما : «ياضربة[1] . . . » .

فلم يدر عبد الملك لمن هما ، فرجع رَوْح فسأل عمران عنهما ، فقال : هذا الشعر لِعِمْران ابن حِطّان يمدح عبد الرحمن بن ملجم . فرجع رَوْح إليه فأخبره، فقال: ضيفك عمران بن حِطّان؛ فاذهب فجئنى به ؛ فرجع إليه فقال : أمير المؤمنين قد أحبّ أن يراك ، فقال له عمران : قد أردتُ أن أسألك ذاك فاستحييتُ منك، فاذهب فإنّى بالأثر؛ فرجع روح إلى عبد الملك فخبّره، فقال : أما إنك سترجع فلا تجده ، فرجع فوجد عمران قد احتمل ، وخلّف رقعة فيها :

يا رَوْحُ كَمْ من أخى مَثْوًى نزلتُ به ... قد ظَنّ ظنّكَ مِنْ لَخْمٍ وَغَسّانِ
حَتى ذا خفته زايلتُ منزِلهُ ... من بعْدِ ما قيل عِمْران بن حِطّانِ
قد كنتُ جارَكَ حولاً لا يروّعُنِي ... فيه طوارقُ مِنْ إنْسٍ ولا جانِ
حتى أرَدْتَ بىَ المظَنَى فأدركَنِي ... ما أدْرَكَ النّاسَ من خوف ابن مَرْوانِ
فاعذِرْ أخاك ابنَ زنباع فإنّ له ... فى الحادثاتِ هناتٍ ذَاتَ ألوانِ
يوماً يمانٍ إذا لاقيتُ ذايمَنٍ ... وإن لقيتُ مَعَدّيًا فَعَدْنانى

(١) البيتان كما أوردهما فى الكامل :

ياضَرْبَةً مِنْ تَقِيّ مَا أرَادَ بهَا ... إلاّ لِيَبْلُغَ مِنْ ذِى الْعَرْشِ رِضْوَانَا
إنّى لأذكره حيناً فأحسِبهُ ... أوفَى البرِيّةِ عندَ اللهِ ميزانا

وفى زيادات الكامل : « قلبه الفقيه الطبرى فقال :

يا ضَرْبَةً مِنْ شَقِيّ مَا أرَادَ بهَا ... إلاّ لِيَهْدِمَ مِنْ ذِى العَرْشِ بُنْيانا
إنّى لأذكُرُهُ يوْماً فألعَنُهُ ... إيها وَألْعَنُ عِمْرانَ بْنَ حطّانا =

لو كُنْتُ مُسْتَغْفِراً يوماً لِطَاغيةٍ … كُنْتَ الْمُقَدَّمَ في سِرِّى وإعْلاَنِى
لكِنْ أبَتْ ذاكَ آياتٌ مُطَهَّرَةٌ … عِنْدَ التِّلاوَةِ في طَهَ وعِمْرَانِ

ثم ارتحل؛ حتى نزل بزُفَر بن الحارث أحد بنى عَمْرو بن كلاب؛ فانتسب له أوزاعياً (١)، وكان عمران يطيل الصلاة؛ فكان غِلمان بنى عامر يضحكون منه، فأتاه رجل ممن كان عند رَوْح، فسلّم عليه، فدعاه زفر فقال له: مَنْ هذا؟ فقال: رجل من الأزد، رأيته ضيفاً لرَوْح بن زنباع؛ فقال له زفر: ياهذا، أزديًّا مرة وأوزاعيًّا أخرى! إن كنت خائفاً أمّنّاك، وإن كنت فقيراً جبَرْناك، فلما أمسى خلّف فى منزله رقعة، وهرب فوجدوا فيها:

إنّ التى أصْبَحَتْ يَعْيَا بها زُفَرٌ … أعْيَتْ عَياء على رَوْحِ بن زنْبَاعِ (٢)
مازالَ يسألُنِى حَوْلًا لأخبرَهُ … والنّاسُ ما بَيْنَ مَخْدُوعٍ وخَدّاعِ
حتى إذا انقطعتْ مِنِّى وسائلُهُ … كفَّ السؤالَ ولم يُولَعْ بإهلاعِ
فاكْفُفْ لسانَكَ عن لومِى ومَسْألَتِى … ماذا تريدُ إلى شَيْخٍ بلا راعِ! (٣)
فاكْفُفْ كما كفَّ عنّى إننى رجلٌ … إما صَمِيمٌ وإما فقعةُ القَاعِ

= وقال محمد بن أحمد الطيب يرد على عمران بن حطان:

يا ضَرْبَةً مِنْ غَدُورٍ صارَ ضارِبُهَا … أشْقَى البريّةِ عِنْدَ اللهِ إنسانَا
إذا تفكّرْتُ فيهِ ظَلْتُ ألعَنُهُ … وألعَنُ الكَلْبَ عِمْرانَ بنَ حِطّانَا

(١) أوزاعى: منسوب إلى أوزاع؛ أبى بطن من همدان.
(٢) فى الكامل: «قال أبو العباس: أنشدنيه الرياشى:

* أعْيَا عيَاهَا على رَوْحِ بنِ زِنْبَاعِ *

وأنكره كما أنكرناه؛ لأنه قصر الممدود؛ وذلك فى الشعر جائز؛ ولا يجوز مد المقصور.
(٣) فى الكامل: «إلى شيخ لأوزاع»؛ والبيت فى ترتيب الكامل ورد بعد تاليه.

أمّـا الصَّلاةُ فإنّي غـيرُ تارِكها ... كلُّ امرئٍ للذي يُعنَى بِهِ ساعِ

أكْرِمْ بروحِ بن زنبـاعٍ وأسرتِهِ ... قومٌ دعا أوّليهمْ للعُـلا داعِ

جاورتُهمْ سَنَةً مِمّـا أُسَرُّ به ... عِرْضِي صَحِيحٌ ونومِي غيرُ تهجاعِ

فاعمَلْ فإنّكَ مَنْعِيٌّ بواحـدةٍ ... حَسْبُ اللبيب بِهذا الشَّيبِ من دَاعِ(١)

ثم ارتحل حتى أتى عُمان ؛ فوجدهم يعظّمون أمر أبي بلال ، وبظهر(٢) فيهم ، فأظهر أمرَه فيهم ، فبلغ ذلك الحجاج ، فكتب فيه إلى أهل عُمان ؛ فهرب حتى أتى قوما من الأزْد فى سَواد الكوفة ، فنزل بهم ، فلم يزل عندهم حتى مات ، وفى نزوله فيهم يقول :

نَزَلْنَا بِحَمْـدِ اللهِ فِي خَـيْرِ منزلٍ ... نُسَرُّ بما فيـهِ من الإنْسِ والخفَرْ(٣)

نَزَلْنـا بقومٍ يجمعُ اللهُ شَمْلَهُمْ ... وليسَ لهم دَعْوَى سِوَى المجدِ يُعتَصَرْ

منَ الأزدِ إنّ الأزْدَ أكرمُ أُسوةٍ(٤) ... يمـانيـة طابُوا إذا انتسبَ البشرْ(٥)

فأصْبحْتُ فيهم آمنا لا كمعشرٍ ... أتونِى فقالوا : من ربيعةَ أو مُضَرْ

أم الحيِّ قحطانٍ فتلكم سفاهةٌ(٦) ... كما قال لى رَوْحٌ وصاحبُه زُفَرْ

ومامنهُما إلا يسرُّ بنسـبةٍ(٧) ... تقرِّبني منهُ وإن كان ذا نفرْ(٨)

فنحنُ عبادُ الله ، والله واحِدٌ ... وأولَى عبادِ الله بالله مَنْ شَكَرْ

***

---

(١) فى الأصول : « من داع » ، وما أثبته من الكامل .

(٢) الكامل : « ويظهرونه » .

(٣) الإنس ، بكسر الهمزة مصافاة المودة .

(٤) الكامل : « أكرم معشر » .

(٥) الكامل : « إذا نسب » .

(٦) الكامل . ب : « ولكن سفاهة »

(٧) بنسبة ؛ أي بانتساب.

(٨) ذو نفر ؛ أي من ذى العزة والمنعة .

قال أبو العباس : ومن الخوارج مَنْ مَشى فى الرمح وهو فى صدره خارجا من ظهره؛ حتى خالط طاعِنَهُ فضربه بالسيف فقتله ؛ وهو يقول : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾[١] .

ومنهم الذى سأل عليه عليه السلام يوم النَّهروان المبارزة فى قوله :

أطعنهم ولا أرى عليًّـــا ولو بدا أَوْجرتهُ الخطِّيـا[٢]

فخرجَ إليه علىّ فضربَه بالسيف فقتله ؛ فلما خالطه السيف قال : « ياحبذا الرَّوْحة إلى الجنة »[٣] .

ومنهم ابن ملجم ، وقطع الحسن بن علىّ يديه ورجليه وهو فى ذلك يذكر الله، ثم عمد إلى لسانه فقطعه فجزع ؛ فقيل له فى ذلك قال : أحببتُ ألّا يزال لسانى رَطْبا من ذكر الله .

ومنهم القوم الذين وثب رجل منهم على رُطْبة[٤] سقطت من نخلة، فوضعها فى فيه ، فلفظها تورعاً .

ومنهم أبو بلال مرداس ، الذى ينحِلُه من الفِرق لتقشّفه وتصرّمه وصحة عبادته ، وصلابة نيّته .

أما المعتزلة فتنتحله وتقول : إنه خرج منكِراً لجور السلطان ، داعيا إلى الحق ، وإنه من أهل العَدْل ، ويحتجون لذلك بقوله لزياد ، وقد كان قال فى خُطبته على المنبر : والله لآخذَنّ المحسن بالمسىء، والحاضرَ بالغائب ، والصحيح بالسقيم ؛ فقام إليه مرداس فقال : قد سَمِعْنا ماقلت أيها الإنسان ؛ وما هكذا قال الله تعالى لنبيه إبراهيم ؛ إذ يقول :

---

(١) سورة طه : ٨٤

(٢) أو جرته الخطيا ؛ أى طعنته بالرمح فى فيه ، او صدره .

(٣) الخبر بتفصيل أوسع فى الكامل ٥٤٣ (٤) الرطبة : نضيج البسر قبل أن يتمر .

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [١] ، ثم خرج عليه عَقِيب هذا اليوم .

وأما الشّيعة فتنتحله ؛ وتزعم أنّه كتب إلى الحسين بن علىّ : إنّى والله لستُ من الخوارج ؛ ولا أرى رأيهم ، وإنّى على دين أبيك إبراهيم .

***

[المستورِد السعدىّ]

ومنهم المستورِد ؛ أحد بنى سعد بن زيدبن مَناة ؛ كان ناسكاً مجتهداً ؛ وهو أحدُ من ترأّسَ على الخوارج فى أيام علىّ ،وله الخطبة المشهورة التى أولها : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أتانا بالعدْل تخفِق راياته ، وتلمَعُ معالِمُه ، فبلّغنا عن ربِّه ،ونصح لأمّته ؛ حتى قبضه الله تعالى مخيّراً مُختارا .

ونجا يوم النُّخَيْلة من سَيْف علىّ ؛ فخرج بعد مدّة على المُغيرة بن شعبة ـ وهو والى الكوفة ـ فبارزَه معقِل بن قيس الرِّياحىّ ، فاختلفا ضربْتين ، فخرّ كلّ واحدمنهما ميتا .

ومن كلام المستورد : لو ملكتُ الدنيا بحذافِيرها ، ثم دُعيت إلى أنْ أستفيدَ بها خطيئة ما فعلت .

ومن كلامه : إذا أفضيتُ بسرِّى إلى صديقى فأفشاه لم ألُمْه ؛ لأنّى كنت أوْلى بحفظه .

ومن كلامه : كن أحرصَ على حفظ سرّك منك على حَقْن دمك .

وكان يقول : أوّلُ ما يدلّ على عيب [٢] عائب الناس معرفته بالعيوب ، ولا يعيب إلا مَعِيب .

---

(١) سورة النجم ٣٧ ، ٣٨ .

(٢) الكامل : « عليه » .

وكان يقول : المالُ غير باقٍ عليك ، فاشترِ به من الحمد والأجر ما يبقى عليك (١) .

***

[حوثرة الأسدىّ]

قال أبو العباس (٢) : وخَرج من الخوارج على معاوية بعد قَتْل علىّ حوثرة الأسدىّ ، وحابس الطائىّ ، خرجا فى جَمْعهما ، فصارا إلى مواضع أصحاب النُّخَيْلة (٢) ، ومعاوية يومئذ بالكوفة قد دخلها فى عام الجماعة (٣) ، وقد نزل الحسن بن علىّ ، وخرج يريد المدينة ، فوجّه إليه معاويةُ ـ وقد تجاوز فى طريقه ـ يسأله أنْ يكونَ المتولّىَ لمحاربة الخوارج ؛ فكان جوابُ الحسن : والله لقد كَفَفْتُ عنكَ لحقنِ دماء المسلمين ؛ وما أحسب ذاك يَسَعُنِى ؛ أفأقاتل عنك قوماً أنت والله أوْلَى بالقتال منهم !

قلت : هذا موافق لقول أبيه : « لا تقاتِلوا الخوارجَ بعدى ، فليس مَنْ طلب الحقّ فأخطأه ، مثلَ مَنْ طلب الباطل فأدركه » ، وهو الحقّ الذى لا يُعْدَلُ عنه وبه يقول أصحابنا ؛ فإنّ الخوارج عندهم أعْذَرُ من معاوية ، وأقلُّ ضلالاً ، ومعاوية أوْلَى بأنْ يحارَب منهم .

قال أبو العباس : فلما رجع الجواب إلى معاوية أرسل إلى حوثرة الأسدىّ أباه ، وقال له : اذهب فا كفِنى أمرَ ابنك ، فصار إليه أبوه ، فدعاه إلى الرجوع فأبى ، فأراه (٤) فصمّم ، فقال : يا بنىّ ، أجيئكَ بابنِك ؛ فلعلّك تراه فتحنّ إليه ! فقال : يا أبت ؛ أنا والله إلى طعنة نافذة أتقلّب فيها على كُعوب الرمح ؛ أشوقُ منّى إلى ابنى !

---

(١) الكامل ٣ : ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

(٢ ـ ٢) الكامل : « فأول من خرج بعد قتل على عليه السلام حوثرة الأسدى ؛ فإنه كان متنحيا بالبندنيجين ؛ فكتب إلى حابس الطائى يسأله أن يتولى أمر الخوارج حتى يسير إليه بجمعه ، فيتماضدا على مجاهدة معاوية فأجابه ؛ فرجعا إلى موضع أصحاب النخيلة » .

(٣) الكامل : « بعد أن بايعه الحسن والحسين » .

(٤) الكامل : « فأداره » .

فرجع إلى معاوية فأخبره فقال: ياأبا حوثرة ، لقدعتا بحقٍّ هذا جدًّا . ثم وجه إليه جيشاً أكثرُه أهل الكوفة ، فلما نظر إليهم حوثرة ، قال لهم : ياأعداء الله ؛ أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدُّوا سلطانه، وأنتم اليوم تقاتلون معه لتشدّوا سلطانه افخرج إليه أبوه ، فدعاه إلى البراز ، فقال : ياأبتِ ؛ لك فى غيرى مندوحة ، ولى فى غيرك مذهب ، ثم حمل على القوم وهو يقول :

اكْرُرْ عَلَى هذِى الجموعِ حَوْثَرَهْ فمن قليـــلٍ ماتَنَالُ المغفرهْ

فحمل عليه رجل من طيِّئ فقتله ، فلما رأى أثر السجود قد لوّح جبهته ندم على قتله[١] .

[الرُّهَيْن المرادىّ]

وقال الرُّهَيْن المرادىّ أحد فقهاء الخوارج ونسّاكهم[٢] :

يانفسُ قَدْ طَالَ فى الدُّنيا مُرَاوغَتِى لاتأمَنَنَّ لصَرْفِ الدَّهْرِ تنغيصـــا
إنى لبـــائعُ مايَفْنَى لباقيـــةٍ إنْ لم يَعُقْنِى رَجاءُ العيش تربيصاً[٣]
وأســـألُ الله بيعَ النفس محتسِباً حتّى ألاقَىَ فى الفِرْدَوْسِ حُرقوصـــا
وابن المنيحِ ومِرْداساً وإخوتَه إذْ فارقوا هـــذه الدّنيا مخاميصـــا

***

قال أبو العباس : وأكثرُهم لم يكنْ يبالِى بالقتل ، وشيمتُهم استعذابُ الموت ، والاستهانة بالمنيّة .

ومنهم الهازِئُ بالأمراء ؛ وقد قُدِّم إلى السيف؛ ولّى زياد شيبانَ بن عبدالله الأشعرىّ - صاحب مقبُرة بنى شيبان - بابَ عثمان ومايليه بالبصرة ، فجدّ فى طلب الخوارج ، وأخافهم ، فلم

(١) الكامل ٣ : ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

(٢) فى الكامل : « وكان رجلا من مراد ؛ وكان لايرى القعود عن الحرب ، وكان فى الدهاء والمعرفة والشعر والفقه بقول الخوارج بمنزلة عمران بن حطان ، وكان عمران بن حطان فى وقته شاعر قعد الصفرية ورئيسهم وفقيههم » .

(٣) التربيص : الانتظار ؛ وهو تمييز محول عن الفاعل ؛ أى لم يعوقنى الأمل فى الحياة .

يَزَلْ على ذلك حتى أتاه ليلةً وهو متكِئٌ بباب داره رجلان من الخوارج، فضرباه بأسيافهما فقتلاه ، فأتِيَ زياد بعد ذلك برجل من الخوارج ، فقال: اذهبوا به فاقتلوه متكئاً كما قتل شيبان متكئاً ، فصاح به الخارجيّ : ياعدلاه ! يهزأ به[١].

***

[عبّاد بن أخضر المازنيّ]

قال : وأما عباد بن أخضر قاتل أبي بلال مرداس بن أُدَيَّة ـ وقد ذكرنا قصَّته ـ فإنه لم يزلْ بعد قتله مرداساً محموداً في المِصْر موصوفاً بما كان منه ؛ حتى ائتمر جماعة من الخوارج أن يقتلوه ، فذمَرَ[٢] بعضُهم بعضاً على ذلك ، فجلسوا له يوم جُمعة بعد أن أقبَلَ على بغلته، وابنُه رديفه ؛ فقام إليه رجلٌ منهم فقال له : أسألك [عن][٣] مسألة؟ قال :قل ، قال:رأيتَ رجلا قتَل رجلا بغير حقّ ، وللقاتل جاه وقَدْر وناحية من السلطان ؛ ولم يُعْدِ عليه السلطانَ لجوره ؛ أولِيّ ذلك المقتول أن يقتل[٤] القاتل إن قدر عليه ؟ فقال: بل يرفعُه إلى السلطان. قال : إنّ السلطان لا يُعدِي عليه لمكانه منه ، ولعظَم جاهه عنده ، قال :أخاف عليه إن فتك به [فتك به السلطان][٥] . قال : دعْ ماتخافه من السلطان ، أيلحقه تَبِعة[٦] فيما بينه وبين الله ؟ قال: لا؛ فحكّم هو وأصحابُه ثم خبَطوه[٧] بأسيافهم ، ورمى عبادٌ بابنه فنجا، وتنادى الناس: قُتِل عبّاد ، فاجتمعوا فأخذوا أفواه الطُّرق ـ وكان مقتل [عبّاد في سكّة][٧] بني مازن عند مَسْجِدِ بني كُلَيب بن يَرْبوع ، فجاء معبد بن أخضر، أخو عبادٍ ـ وهو معبد

(١) الكامل ٣ : ٢٦٣ .
(٢) الذمر : اللوم .
(٣) من الكامل .
(٤) الكامل : « أن يفتك » .
(٥) من الكامل .
(٦) التبعة : مايلحقه من الإثم .
(٧) الكامل : « وخبطوه » .

ابن علقمة؛ وأخضر زوج أمهما ـ فى جماعة من بنى مازن، وصاحوا بالناس : دعونا وثأرنا، فأحجم الناس، فتقدم المازنيّون، فحاربوا الخوارج حتى قتلوهم جميعاً، لم يفلتْ منهم أحد إلا عبيدة بن هلال، فإنه خرَق خُصًّا ونفذ فيه، ففى ذلك يقول الفرزدق :

لَقَدْ أدْرَكَ الأوتارَ غَيْرُ ذميمةٍ ... إذا ذُمَّ طُلَّابُ التِّراتِ الأخاضرُ

هُمُ جَرَّدُوا الأسيافَ يَوْمَ ابنِ أخضرٍ ... فنالُوا الَّتِى مافَوْقَها نَالَ ثَائِرُ

أقَادُوا به أُسْداً لَهَا فى اقتحامِها ... ـ إذَا بَرَزَتْ نحو الحُرُوب ـ بصائرُ (١)

ثم هجا كُليب بن يَرْبوع؛ رهط جرير بن الخطَفى، لأنه قُتل بحضْرة مسجدهم ولم ينصروه؛ فقال فى كلمته هذه :

كَفِعْلِ كُلَيْبٍ إذ أخَلَّتْ بجارِها ... ونصرُ اللئيم مُعْتِمٌ وهو حاضرُ

ومَا لِكليبٍ حين تُذكر أوّلٌ ... وما لِكُلَيْبٍ حين تَذْكرُ آخرُ

قال : وكان مقتل عبّاد بن أخضر وعُبيدالله بن زياد بالكوفة، وخليفته على البصرة عُبيد الله بن أبى بَكْرة، فكتب إليه يأمره ألّا يدع أحداً يُعرف بهذا الرأى إلا حبسه، فجدّ فى طلب مَنْ تغيّب عنه، وجعل يتبعهم ويأخذهم، فإذا شفع إليه أحد منهم كفله، إلى أن يقدَم به على ابن زياد، حتى أتوه بعُرْوة بن أُدَيّة فأطلقه، وقال : أنا كفيلك؛ فلما قدم ابن زياد أخذَ مَنْ فى الحبس، فقتلهم جميعاً، وطلب الكفلاء بمن كَفلوا به، فكلّ مَنْ جاء بصاحبه أطلقه وقتل الخارجىّ، ومن لم يأت بمن كَفل به منهم قتله.

ثم قال لابن أبى بَكْرة : هات عُروة بن أدَيّة، قال : لا أقدر عليه، قال : إذاً والله أقتلك؛ فإنك كفيله. فلم يزل يطلبُه حتى دُلّ عليه فى سَرَب (٢) العلاء بن سويّة المِنقرىّ، فكتب بذلك إلى عبيد الله بن زياد، فقرأ عليه كتابه (٣) فقال : إنّا قد أصبناه فى شرْب

(١) أقادوا به أسداً : قتلوهم به .
(٢) السرب : الطريق أو المسلك .
(٣) الكامل : « الكتاب »

العَلاء، فتهانف[(١)] به عبيدالله[(٢)] وقال: صحّفت ولؤمت، إنما هو «فى سَرَب العلاء»، ولوددت أنه كان ممّن شرب[(٣)] النبيذ . فلما أقيم عروة بين يديه، قال : لم جهّزتَ[(٤)] أخاك علىّ! يعنى أبا بلال، فقال : والله لقد كنتُ به ضنينا ، وكان لى عِزًّا ، ولقد أردت له ماأريد لنفسى، فعزم عزماً فمضى عليه، وما أحبّ لنفسى إلا المقام وترك الخروج. فقال له: أفأنت على رأيه؟ قال : كلّنا نعبد ربًّا واحداً، قال : أما والله لأمثّلنّ بك، قال : اختر لنفسك من القِصَاص ماشئت؛ فأمر به فقَطعوا يديه ورجليه؛ ثم قال له : كيف ترى؟ قال : أفسدْتَ علىّ دنياى، وأفسدتُ عليك آخرتك ؛ فأمر به فصُلِب على باب داره[(٥)] .

***

[أبو الوازع الراسىّ]

قال أبو العباس : وكان أبو الوازع الراسىّ من مجتهدى الخوارج ونُسّاكها ، وكان يذمّ نفسَه ويلُومها على القعود ، وكان شاعرا ، وكان يفعل ذلك بأصحابه ، فأتى نافعَ بن الأزرق وهو فى جماعة من أصحابه ، يصف لهم جَوْرَ السلطان وفساد العامة ، وكان نافع ذا لسان عَضْب واحتجاج وصَبْر على المنازعة ، فأتاه أبو الوازع ، فقال له : يانافع ، إنك

---

(١) قال المبرد : فتهانف ؛ حقيقته تضاحك به ضحك هزء وسخرية ؛ قال عمر بن ربيعة :

فتهانفنَ وقـــــدْ قُلْنَ لَهَا   حَسَنٌ فِي كُلِّ عَيْنٍ مَنْ تَوَدْ

(٢) فى الكامل بعدها: « وكان كثير المحاورة ، عاشقا للكلام الجيد ؛ مستحسنا للصواب منه ، لايزال يبحث عن عذره ؛ فإذاسمع الكلمة الجيدة عرج عليها . ويروى أنه قال فى عقب مقتل الحسين بن على عليه السلام لزينب بنت على رحمها الله ، وكانت أسن من حمل إليه منهن ، وقد كلمته فأفصحت وأبلغت ، وأخذت من الحجة حاجتها؛ فقال لها : إن تكونى بلغت من الحجة حاجتك فقد كان أبوك خطيباً شاعراً ؛ فقالت : ماللنساء والشعر ، وكان هذا ألكن يرتضح لغة فارسية ، وقال لرجل مرة واتهمه برأى الخوارج : أهرورى منذ اليوم » .

(٣) الكامل : « ممن يشرب النبيذ »

(٤) العبارة فى الكامل : « فلما أقيم عروة بن أدية بين يديه ؛ حاوره ، وقد اختلف الناس فى خبره ؛ وأصحه عندنا أنه قال له : جهزت أخاك على » .

(٥) الكامل ٣ : ٢٥٦ ـ ٢٥٩

أعطِيتَ لسانا صارما ، وقلبا كليلا ، فلوَدِدْت أنّ صرامةَ لسانك كانت لقلبك ، وكلالَ قلبك كان للسانك ؛ أتحضّ على الحقّ وتقعد عنه ! وتقبّح الباطل وتقيم عليه ! فقال نافع : يا أبا الوازع ؛ إنما ننتظر الفرص ؛ إلى أن تجمع من أصحابك من تَنْكِى به عدوّك ، فقال أبو الوازع :

لِسانُكَ لا تَنْكِى بهِ القومَ إنما تنالُ بكفّيْكَ النّجاةَ من الكَرْبِ

فجاهِدْ أناساً حاربُوا اللهَ واصطبِرْ عسَى اللهُ أن يَخزِى غوِىّ بنى حرب (١)

يعنى معاوية . ثم قال : والله لا ألومُكَ ونفسى ألوم ، ولأغدُوَنّ غدْوة لا أثنى بعدها أبدا . ثم مضى فاشترى سيفا ، وأتى صَيْقَلاً (٢) كان يذمّ الخوارج ، ويدلّ على عَوراتِهم ، فشاوره فى السيف ، فحمِده ، ثم [قال] (٣) : اشحذه ، فشحذه حتى إذا رضِيَه ، خَبَط به الصَّيْقَل فقتله ، وحمل على الناس فهربوا منه ، حتى أتى مقبرة بنى يشكر ، فدفع عليه رجل حائط سترهِ فشدَخه ، وأمر ابن زياد بصلبه (٤) .

***

[عمران بن الحارث الراسبىّ]

قال أبو العباس : ومن نُسّاكهم الذين قُتِلوا فى الحرب عمران بن الحارث الراسبىّ ، قُتِل يوم دُولاب ، التقى هو والحجاج بن باب الحميرىّ ـ وكان الأمير يومئذ على أهل البصرة ، وصاحب رايتهم ـ فاختلفا ضربتين فخرّا ميتين ، فقالت أمّ عمران ترثيه :

اللهُ أيّدَ عِمْـــــرانا وطَهّرهُ وكان عمرانُ يَدْعُو اللهَ فى السَّحَرِ

---

(١) فى الكامل : « يخزى » .

(٢) الصيقل : شحاذ السيوف وجلاؤها .

(٣) من الكامل

(٤) الكامل ٣ : ٢٧٦ ، ٢٧٧

يدعُوه سِرًّا وإعلانا ليرزُقَه ... شهادةً بيدىْ مِلحَادةٍ غُـدَرِ
وَلَّى صِحَابتهُ عن حرِّ مَلْحَمَةٍ ... وَشَدَّ عمرانُ كالضِّرغامةِ الذَّكَرِ [١]

***

قال : وممّن قتل من رؤسائهم يوم دولاب نافع بن الأزرق – وكان خليفتهم – خاطبوه بإمْرة المؤمنين ، فقال رجل منهم يرثيه :

شَمِتَ ابنُ بَدْرٍ والحوادِثُ جَمَّةٌ ... والجائرون بنافعِ بن الأزرقِ [٢]
والموتُ حَتْمٌ لا محالةَ وَاقِـعٌ ... مَنْ لا يصبحْهُ نهاراً يَطْرُقِ [٣]
فلَئِنْ أميرَ المؤمنين أصابَهُ ... رَيْبُ المَنُونِ فَمَنْ يُصِبْهُ يَغْلَقِ [٤]

وقال قَطَرِىّ بن الفُجاءة يذكر يوم دَوْلاب [٥] :

لَعَمْرُكَ إنِّى فى الحَياةِ لَزَاهِدٌ ... وَفِى العَيْشِ مَالمْ ألْقَ أمَّ حَكِيمِ [٦]
مِنَ الخَفِرَاتِ البيضِ لمْ يُرَ مِثْلُها ... شِفَاءٌ لِذِى بثٍّ وَلا لِسَقِيمِ

---

(١) الـكامل ٣ : ٢٩٦

(٢) الأغانى ٦ : ١٤٧ — (٣) طرقه يطرقه ، إذا أتاه ليلا .

(٤) يغلق : لاينجو ؛ وأصله من قولهم: غلق الرهن فى يد المرتهن ، إذا لم يقدر على فكاكه واستخلاصه.

(٥) دولاب ، بفتح أوله وآخره باء موحدة ، وأكثر المحدثين يروونه بالضم ، وقد روى بالفتح فى عدة مواضع ، ودولاب هنا : قرية بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ ، كانت بها وقعة بين أهل البصرة وأميرهم مسلم بن عنبس بن كريز ؛ قتل فيها نافع بن الأزرق (ياقوت) .

(٦) الأغانى ٦ : ١٤٨ (طبعة الدار) ، معجم البلدان ٤ : ١٠٤ وأم حكيم : امرأة من الخوارج ؛ وكانت من أشجع الناس ، كانت تحمل على الناس وترتجز :

أَحمِلُ رَأْساً قدْ سَئِمْتُ حَمْلَهُ ... وَقَدْ مَلِلْتُ دَهْنَهُ وَغَسْلَهُ

* أَلَا فَتًى يَحْمِلُ عَنِّى ثِقْلَهُ *

وكانوا يفدونها بالآباء والأمهات ، وكانت من أجمل النساء وجها ، وأحسنهم بدينهم تمسكا . (رغبة الآمل ٧ : ٢٤٧) .

لعمركُ إنّى يومَ ألطِم وجهها ... عَلَى نائبـاتِ الدَّهرِ جِدُّ لئيمِ (١)
فلو شهدتْنَا يومَ دُولابَ شاهَدتْ ... طِعانَ فَتًى فى الحربِ غيرِ ذَميمِ (٢)
غَدَاةَ طفَتْ عَلْماءِ بكرُ بن وائلٍ (٣) ... وَعُجْنَا صُدورَ الخيلِ نحوَ تميمِ (٤)
وكان بعَبْدِ القَيْسِ أوّلُ جدِّنا ... وَأحلافِها مِنْ يَحْصُبٍ وسَلِيمِ
وَظلّت شيوخُ الأزدِ فِى حَوْمَةِ الوَغَى ... تَعومُ فمن مستنزلٍ وهزيمِ (٥)
فلَمْ أرَ يوْماً كانَ أكْثرَ مُقعَصًا ... يمجُّ دماً من فائظٍ وكليمِ (٦)
وضاربةٍ خدًّا كريماً على فتًى ... أغرَّ نجيبِ الأمهاتِ كريمِ

---

(١) فى ياقوت بعد هذا البيت :

إذا قُلْتُ : يَصْبُو القلبُ أو يَنْتَهِى المُنَى ... أبَى الْقَلْبُ إلا حُبَّ أمِّ حَكيمِ
منَعَّمَةٌ صَفْرَاء حُلْوٌ دَلالُها ... أبِيتُ بِهَا بَعْدَ الْهُدُوِّ أهِيمُ
قَطُوفُ الْخُطَا مَخْطُوطَةُ الْمَتْنِ زَانَهَا ... مَعَ الْحُسْنِ خَلْقٌ فى الْجَمَالِ عَمِيمُ

(٢) قال المبرد : قوله : « ولو شهدتنا يوم دولاب » ، فلم ينصرف « دولاب » ؛ فإنما ذاك لأنه أراد البلدة ، ودولاب : أعجمى معرب » .

(٣) فى الأصول : « فى الماء » ؛ وصوابه من الكامل والأغانى وياقوت . قال المبرد : « وقوله : غداة طافت علماء بكر بن « وائل » ، وهو يريد : « على الماء » ؛ فإن العرب إذا التقت فى مثل هذا الموضع لامان استجازوا حذف إحداهما استثقالا للتضعيف ، لأن ما بقى دليل على ماحذف ؛ فيقولون : « علماء بنو فلان » ، كما قال الفرزدق :

وَمَا سُبِقَ الْقَيْسِىُّ مِنْ ضعفِ حِيلَةٍ ... وَلٰكِنْ طفَتْ عَلْمَاءِ قُلْفَةُ خَالِدِ

(٤) رواية هذا البيت وتاليه فى الأغانى :

غَدَاةَ طَفَتْ عَلْماءِ بكر بن وَائِلٍ ... وَألَّافُهَا من حِمْيَرٍ وَسَلِيمِ
ومالَ الحجازيّونَ نحوَ بلادِهِمْ ... وَعُجْنَا صُدُورَ الْخَيْلِ نَحْوَ تَميمِ

(٥) يقال : استنزل فلان ؛ إذا حط عن قدره . الشطر الثانى فى الكامل وياقوت :

* تَعُومُ وَظِلْنَا فى الجِلَادِ نَعُومُ *

(٦) مقعصا ، من أقعصه برمحه ؛ إذا طعنه فات مكانه ، وفائظ ، من فاظ يفوظ ويفيظ : مات .

أُصيبَ بدُولابٍ ولم تكُ مَوْطِناً ... له أرضُ دولَابٍ وأرضُ حَمِيمِ[1]
فلو شهدتْنا يوم ذاك وخَيلُنا ... تُبيح الكفّار كلَّ حَرِيمِ
رأتْ فتيةً باعوا الإلٰه نفوسَهُم ... بجنّات عَدْنٍ عنده ونعيمِ

* * *

[عبد الله بن يحيى طالب الحق]

ومن رؤساء الخوارج وكبارهم عبد الله بن يحيى الكنديّ الملقّب طالب الحق، وصاحبه المختار بن عوْف الأزديّ صاحب وقعة قُدَيد[2] ؛ ونحن نذكر ما ذكره أبو الفرج الأصفهانيّ من قصتهما فى كتاب " الأغانى "[3] مختصرا محذوفا منه مالا حاجة بنا فى هذا الموضع إليه .

قال أبو الفرج : كان عبد الله بن يحيى من حَضرَموت ، وكان مجتهدا عابدا ، وكان يقول قبل أن يخرج : لقينى رجلٌ فأطال النظرَ إلىّ وقال : ممّن أنت ؟ قلت : من كِنْدة، فقال : من أيّهم ؟ فقلت : من بنى شيطان ، فقال : والله لتملِكنّ وتبلُغَنّ وادِيَ[4] القُرَى ؛ وذلك بعد أنْ تَذْهب إحدى عينيك ؛ وقد ذهبت وأنا أتخوّف ما قال ، وأستخير الله .

فرأى باليمن جَوْرا ظاهرا ، وعَسْفا شديدا ، وسيرة فى الناس قبيحة ، فقال لأصحابه : إنه لا يحلّ لنا المقام على ما نرى ؛ ولا الصبرَ عليه . وكتب إلى جماعة من الإباضيّة بالبصرة وغيرها ، يشاورهم فى الخروج ، فكتبوا إليه : إن استطعت ألّا تقيم يوما واحدا فافعل ؛

---

(١) كذا فى الأصول ، وفى الكامل والأغانى وياقوت : « دير حيم » ، وهو موضع بالأهواز .
(٢) قديد : موضع قرب مكة .
(٣) الأغانى ٢٠ : ٩٧ وما بعدها ساسى ، و ٢٣ : ١١١ (بيروت) وما بعدها ملخصا متصرفا .
(٤) وادى القرى : بين المدينة والشام .

فإنّ المبادرة بالعمل الصالح أفضلُ ؛ ولستَ تدرِى متى يأتى أجلُك ؛ ولله بقيّة خيرٍ من عباده ؛ يبعثُهم إذا شاء بنصر دينه ، ويختصّ بالشهادة منهم مَنْ يشاء .

وشخص إليه أبو حمزة المختار بن عوف الأزدىّ وبلج بن عُقْبة المسعودىّ فى رجال من الإباضيّة ، فقدموا عليه حضرموت فحرّضوه على الخروج ، وأتوْه بكتب أصحابه يُوصونه ويُوصون أصحابَه : إذا خرجتم فلا تَغُلُّوا ، ولا تَغدِرُوا ، واقتدوا بسلفكم الصالحين ، وسيروا بسيرتهم ؛ فقد علمتم أنّ الذى أخرجهم على السلطان العيب لأعمالهم .

فدعا عبدُ الله أصحابه فبايعوه ، وقصدوا دار الإمارة ؛ وعلى حضرموت يومئذ إبراهيم ابن جَبَلة بن مخرمة الكندىّ فأخذه ، فحبسه يوما ثم أطلقه ، فأتى صنعاء ، وأقام عبدالله بحضرموت ، وكثر جمعه ، وسمّوْه « طالبَ الحق » .

وكتب إلى مَنْ كان من أصحابه بصنعاء : إنّى قادم عليكم ؛ ثم استخلَف على حَضْرموت عبدَالله بن سعيد الحضرمىّ ، وتوجّه إلى صنعاء — وذلك فى سنة تسع وعشرين[1] ومائة — فى ألفين ، والعامل على صنعاء يومئذ القاسم بن عمرو أخو يوسف بن عمرو الثقفىّ ؛ فجرَت بينه وبين عبدالله بن يحيى حروب ومناوشات ، كانت الدّولة فيها والنصرة لعبدالله بن يحيى ؛ فدخل إلى صنعاء ، وجَمَع ما فيها من الخزائن والأموال فأحرزها .

فلما استولى على بلاد اليمن خَطب ، فحمِد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله ، وذكّر وحذّر ؛ ثم قال : إنا ندعوكم أيها الناس إلى كتاب الله وسنة نبيّه ، وإجابة مَنْ دعا إليهما . الإسلام دينُنا ، ومحمد نبيُّنا ، والكعبة قبلتُنا ، والقرآن إمامنا . رضينا بالحلال حلالا لا نبتغى به بدلّا ، ولا نشترى به ثمنا ، وحرّمنا الحرام ، ونبذناه وراء ظُهورنا ؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وإلى الله المشتكَى ، وعليه المعوّل ؛ مَنْ زنَى فهو كافر ، ومن سرق فهو كافر ، ومن شرِب الخمر فهو كافر ؛ ومن شكّ فى أنه كافر فهو كافر . ندعوكم إلى فرائض بيّنات ؛ وآياتٍ محكمات ؛

(١) كذا فى الأغانى .

وآثار نقتدِى بها، ونشهد أن الله صادق فيما وعد، وعَدْل فيما حكم، وندعو إلى توحيد الرب واليقين بالوعْد والوعِيد، وأداء الفرائض، والأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، والولاية لأهل ولاية الله، والعداوة لأعداء الله. أيُّها الناس، إنّ مِنْ رحمة الله أن جعَل في كلّ فترة بقايا من أهل العلم، يدعُون مَنْ ضَلّ إلى الهدى، ويصبرون على الألم في جنب الله؛ ويُقتلون على الحقّ في سالف الأيام، شهداء فما نسيَهم ربُّهم؛ وما كان ربك نسيّاً. أوصيكم بتقوى الله وحُسْن القيام على ماوُكِّلتم بالقيام عليه؛ وقابلوا الله حُسْنا في أمره وزجره أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم.

قال: وأقام عبدُ الله بن يحيى بصنعاء أشهُرا، يحسِنُ السِّيرة في الناس، ويُلين جانبَه لهم، ويكفّ الأذَى عنهم؛ وكثر جمعُه؛ وأتته الشُّراة مِنْ كلّ جانب؛ فلمّا كان في وقت الحج وجّه أبا حمزة المختار بن عوف، وبلْج بن عُقْبة، وأبرهة بن الصَّباح إلى مكّة؛ والأمير عليهم أبو حمزة في ألفٍ؛ وأمره أن يقيمَ بمكّة إذا صدر الناس، ويوجِّه بَلْجًا إلى الشام، فأقبل المختار إلى مكة يوم التّروِية؛ وعليها وعلى المدينة عبد الواحد بن سليمان بن عبدالملك في خلافة مَرْوان بن محمد بن مروان، وأمّ عبدالواحد بنت عبدالله بن خالد بن أسِيد، فكره عبدُالواحد قتالَهم، وفزِع النّاس منهم حين رأوْهم، وقد طلعوا عليهم بعَرفة، ومعهم أعلام سُود في رءوس الرّماح؛ وقالوا لهم: مالكم وماحالكم؟ فأخبروهم بخلافهم مروان وآل مروان والتبرّئ منهم، فراسلهم عبدُالواحد في ألّا يعطّلوا على الناس حَجّهم. فقال أبو حمزة: نحن بحجّنا أضنّ، وعليه أشحّ؛ فصالحم على أنّهم جميعا آمنون بعضهم من بعض؛ حتى ينفِر النّاس النّفْر الأخير؛ وأصبحوا من الغد، ووقفوا[1] بحيال عبدالواحد بعرَفة، ودفع عبد الواحد بالنّاس؛ فلما كانُوا بمِنًى؛ قيل لعبدالواحد: قد أخطأت فيهم؛ ولو حملت عليهم الحاجّ ما كانوا إلّا أكلة رأس[2].

(١) الأغانى: «فوقفوا».

(٢) أكلة رأس، أى عددهم قليل يكفيهم رأس واحد.

وبعث عبد الواحد إلى أبي حمزة عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، ومحمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان ، وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر، وعبيد الله بن عمر بن حفص العُمَري ، وربيعة بن عبد الرحمن ؛ ورجالاً أمثالهم ؛ فلما قَرُبُوا من أبي حمزة أخذتْهم مَسالِحه(١) فأدخلوا على أبي حَمْزة ، فوجدوه جالسا ؛ وعليه إزار قَطَرِيّ(٢) قد ربطه بحوره في قفاه ، فلما دنوا ؛ تقدّم إليه عبد الله بن الحسن العلوي ، ومحمد بن عبد الله العثماني ؛ فنسبهما(٣) ، فلمّا انتسبا له عَبَس في وجوههما ،وأظهر الكراهِيَة لهما ، ثم تقدّم إليه بعدهما البَكري والعمري فنسبهما فانتسبا له ، فهش إليهما وتبسّم في وجوههما ، وقال : والله ما خرجْنا إلا لنسير سيرة أبويْكما ، فقال له عبد الله ابن حَسن : والله ما جئناك لتفاخر بين آبائنا ؛ ولكنّ الأميرَ بعثنا إليك برسالة ، وهذا ربيعة يخبركها ، فلما أخبره ربيعة ، قال له : إنّ الأمير يخاف نَقْضَ العهد ؛ قال : معاذ الله أن ننقض العهد ، أو نخيس(٤) به ! والله لا أفعل ولو قطعت رقبتي هذه ؛ ولكن إلى أن تنقضِيَ الهدنة بيننا وبينكم .

فخرجوا من عنده ، فأبلغوا عبد الواحد ، فلما كان النَّفْر الأخير ، نَفَرَ عبد الواحد وخلّى مكةَ لأبي حمزة ؛ فدخل بغير قتال ، فقال بعضُ الشعراء يهجو عبد الواحد(٥) :

زارَ الحجيجَ عصابةٌ قد خالَفُوا ... دينَ الإله ففرّ عبدُ الواحدِ
تركَ الإمــارة والمواسمَ هاربًا ... ومضى يخبِّط كالبعير الشاردِ
فلو أنَّ(٦) والده تخيّر أمّهُ ... لصفَت خلائقه بعرْق الوالد

---

(١) المسالح : جمع مسلحة ؛ وهي هنا : القوم يحملون السلاح .

(٢) في الأغاني : « قطواني » .

(٣) نسبهما : أي سألهما أن ينتسبا .

(٤) خاس بالعهد : أي غدر ونكث .

(٥) في الأغاني : « قال هارون : وأنشدني يعقوب بن طلحة الليثي أبياتا هجا بها عبد الواحد لشاعر لم يحفل باسمه » .

(٦) الأغاني : « لو كان والده »

ثم مضى عبدُ الواحد حتى دخل المدينة ودعا بالديوان ، فضَربَ على الناس البَعْث ، وزادهم فى العطاء عشرة عشرة ؛ واستعمل على الجيش عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو ابن عثمان بن عفان فخرجوا ، فلقيتْهم جُزُر منحورة ؛ فتشاءم الناس بها ؛ فلما كانوا بالعقيق[١] عَلِق لواء عبد العزيز بسَمُرة[٢] فانكسر الرمح ؛ فتشاءموا بذلك أيضا .

ثم ساروا حتى نزلوا قُدَيْداً ، فنزل بها قوم معتزلون ؛ ليسوا بأصحاب حرب ؛ وأكثرهم تجار أغمار ؛ قد خرجوا فى المصبّغات والثياب الناعمة واللهو ، لا يظنون أن للخوارج شوْكة ، ولا يشكّون فى أنهم فى أيديهم .

وقال رجل منهم من قريش : لو شاء أهلُ الطائف لكفوْنا أمرَ هؤلاء ؛ ولكنهم داهنوا فى دين الله ؛ والله لنظفرَنّ ولنسيرنّ إلى أهل الطائف فلنسبِيَنّهم ؛ ثم قال : مَنْ يشترى مِنّى من سَبْي أهلِ الطائف ؟

قال أبو الفرج : فكانَ هذا الرّجُل أوّلَ المنهزمين ؛ فلما وصل المدينة ؛ ودخل دارَه ؛ أراد أن يقول لجاريته : أغلِق الباب ؛ قال لها : « غاق باق » دهشا ، فلقّبه أهلُ المدينة بعد ذلك « غاق بَاق » ؛ ولم تفهم الجارية قوله ، حتى أومأ إليها بيده ، فأغلقت الباب .

قال : وكان عبد العزيز يعرِض الجيش بذى الحُلَيفة[٣] ، فمرّ به أمية بن عنبَسة بن سعيد بن العاص ، فرحّب به وضحك إليه ، ثم مرّ به عُمارة بن حمزة بن مصعب بن الزبير فلم يكلّمه ؛ ولم يلتفت إليه ، فقال له عمران بن عبد الله بن مطيع — وكان ابن خالته ، أمّاهما ابنتا عبد الله بن خالد بن أسيد — : سبحان الله ! مرّ بك شيخ من شيوخ قريش ؛ فلم تنظر

---

(١) عقيق المدينة ، قيل : هما عقيقان : الأكبر مما يلى الحرة إلى قصر المراجل ؛ والأصغر ماسفل عن قصر المراجل . (مراصد الاطلاع)

(٢) السمرة : شجرة العضاه .

(٣) ذو الحليفة : موضع من تهامة بين حاذاة وذات عرق

إليه ولم تكلّمْه ، ومرّ بك غلام من بنى أميّة فضحكتَ إليه ولاطفته ! أما والله لو التقى الجمعانِ لعلمت أيّهما أصبر !

قال : فكان أمية بن عتبة أوّلَ مَن انهزم وركب فرسَه ومضى ، وقال لغلامه : يامجيب ، أما والله لئن أحرزت(١) هذه الأكلب من بنى الشُّراة إنى لعاجز .

وأما عمارة بن حمزة بن مصعب بن الزبير فقاتل يومئذ حتى قتل ، وكان يحمِل ويتمثّل :

وإنى إذا ضَنَّ الأميرُ بإذنه ... على الإذنِ من نفسى ـ إذاشئتُ ـ قادرُ

والشعر للأغرّ بن حماد اليشكرىّ (٢) .

قال : فلما بلغ أبا حمزة إقبالُ أهل المدينة إليه ، استخلفَ على مكةَ أبرهة بن الصبّاح ، وشخص إليهم ، وعلى مقدمته بلج بن عُقْبة .

فلما كان فى الليلة التى وافاهم فى صبيحتها ، وأهل المدينة نزول بقُدَيْد ، قال لأصحابه : إنكم ملاقُو القوم غداً ، وأميرهم فيما بلغنى ابنُ عثمان ، أوّل مَنْ خالف سُنّة الخلفاء وبدّل سنة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد وضَح الصُّبح لذى عينين ، فأكثِروا ذكرَ الله وتلاوةَ القرآن ، ووطِّنُوا أنفسكم على الموت . وصبّحهم غداة الخميس لتسع خلوْن من صفر سنة ثلاثين ومائة .

قال أبو الفرج : وقال عبد العزيز لغلامه فى تلك الليلة : ابغنا عَلَفًا ، قال : هو غالٍ ، فقال : ويحك البواكى علينا غدا أغلى ، وأرسل أبو حمزة إليهم بلج بن عقبة ليدعوَهُمْ ، فأتاهم فى ثلاثين راكبا فذكّرهم الله ، وسألهم أن يكفّوا عنهم ، وقال لهم : خلّوا سبيلنا إلى الشام ، لنسير

---

(١) كذا فى ب ، وفى ج : « لواجتورت نفسى » ، وفى الأغانى : « أجزت نفسى » .
(٢) فى شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ٤٧٣ : الشعر ينسب إلى عبد الله بن سبرة الجرشى »

إلى مَنْ ظلمكم ، وجار فى الحكم عليكم ، ولا تجعلُوا حدّنا بكم ، فإنا لا نريد قتالكم، فشتمهم أهلُ المدينة، وقالوا : ياأعداء الله ،أنحن نخليكم ،ونترككم[1] تفسدون فى الأرض!

فقالت الخوارج : ياأعداء الله ، أنحن نفسد فى الأرض ! إنّما خرجنا لنكفّ الفساد، ونقاتل مَنْ قاتلنا منكم ، واستأثر بالفىء ! فانظروا لأنفسكم ، واخلعوا مَنْ لم يجعل الله له طاعة ، فإنه لاطاعةَ لمخلوق فى معصية الخالق ، فادْخُلوا فى السّلْم ، وعاونوا أهل الحقّ .

فناداه عبد العزيز :ماتقول فى عثمان ؟ قال : قد برئ منه المسلمون قَبْلى ، وأنامتّبع آثارهم ، ومقتدٍ بهم، قال : ارجع إلى أصحابك فليس بيننا وبينكم إلا السيف، فرجع إلى أبى حمزة فأخبره ، فقال : كُفُّوا عنهم ، ولا تقاتلوهم حتى يبدءوكم بالقتال ، فواقَفُوهم ولم يقاتلوهم ، فرمى رجلٌ مِنْ أهل المدينة بسَهْم فى عسكر أبى حمزة ، فجرح منهم رجلا ،فقال أبوحمزة : شأنكم الآن فقد حلّ قتالُهم ،فحملوا عليهم ،فثبتَ بعضُهم لبعض ،وراية قريش مع إبراهيم بن عبد الله بن مطيع ، ثم انكشف أهلُ المدينة ، فلم يتبعوهم ، وكان على عامّتهم صخر بن الجهم[2] بن حذيفة العدوىّ ، فكبّر وكبّر الناس معه ، فقاتلوا قليلا،ثم انهزموا فلم يُبعِدوا حتى كبّر ثانية ، فثبت معه ناس وقاتلوا ، ثم انهزموا هزيمة لم يَبْق بعدها منهم باقية . فقال علىّ بن الحصين لأبى حمزة : اتبع آثار القوم ، أودعْنى أتبعهم ، فأقتُل المدبر ، وأذَفِّف[3] على الجريح ، فإن هؤلاء شرٌّ علينا من أهل الشام ، ولو قد جاءك أهلُ الشام غداً لرأيتَ مِنْ هؤلاء ماتكره ، قال : لاأفعل ، ولا أخالف سيرة أسلافنا .

وأخذ جماعةً منهم أسرًا،وأراد إطلاقَهم ، فمنعه علىّ بن الحصين ، وقال : إنّ لكلّ

---

(١) الأغانى : « وندعكم » . (٢) الأغانى : « ضمير بن صخر » .
(٣) يذفف على الجريح : يقضى عليه .

زمان سيرة ، وهؤلاء لم يؤْمَروا وهم هراب ؛ وإنما أُسِروا وهم يقاتلون ؛ ولو قتلوا فى ذلك الوقت لم يحرُمْ قتلهم، فهكذا الآن(١ ؛ قتلهم حلال. ودَعَا بهم ١) ؛ فكان إذا رأى رجلاً من قريش قتله ؛ وإذا رأى رجلا من الأنصار أطلقه .

قال أبو الفرج: وذلك لأن قريشاً كانوا أكثرَ الجيش، وبهمْ كانت الشوكة. وأتى محمد بن عبد العزيز بن عمرو بن عثمان ، فنسبه ، فقال : أنا رجل من الأنصار ، فسأل الأنصار فأقرت بذلك ، فأطلقه؛ فلما ولّى قال : والله إنى لأعلم أنه قرشيّ ، ولكن قد أطلقته.

قال : وقد بلغت قتلَى قُدَيْد ألفين ومائتين وثلاثين رجلًا ؛ منهم من قريش أربعمائة وخمسون رجلا ، ومن الأنصار ثمانون رجلا ، ومن الموالى وسائر الناس ألف وسبعمائة رجل .

قال : وكان فى قتلَى قريش من بنى أسد بن عبد العزّى بن قصى أربعون رجلا .

قال : وقُتِل يومئذ أميّة بن عبد الله بن عمرو بن عثمان ، خرج مقنّعاً، فلم يكلّم أحداً ، وقاتل حتى قتِل ؛ ودخل بَلْج المدينة بغير حرب، فدخلوا فى طاعته، وكفّ عنهم، ورجع إلى مُلْكه ، وكان على شُرْطَته أبو بكر بن عبد الله بن عمر ، من آل سراقة ، فكان أهل المدينة ، يقولون : لعن الله السُّراقىّ ، ولعن الله بَلْجاً العراقىّ . وقالت نائحة أهل المدينة [تبكيهم](٢) :

مَا للزَّمانِ وما لِيَهْ ... أفنتْ قُدَيْدُ رجاليَهْ
فلأَبكيَنّ سريرةً ... ولأبكيَنّ علانِيَهْ
ولأبكينّ على قُدَيْـ ... ـدَ بسوء ما أولانِيَهْ(٣)
ولأعوِينّ إذا خلوْ ... تُ مع الكلاب العاوِيَهْ

***

(١ ـ ١) ساقط من ج
(٢) من الأغانى
(٣) فى الأغانى : « أبلانيه » .

[أبو حمزة الشارى]

قال أبو الفرج: ولما سار عبدُ الواحد بن سليمان بن عبد الملك إلى الشام، وخلّف المدينة لبلج، أقبلَ أبو حمزة من مكة حتى دخلها، فرقِيَ المنبر، فحمد الله وقال: يا أهلَ المدينة، سألناكم عن وُلاتكم هؤلاء فأسأتم لعمرى والله القولَ فيهم، وسألناكم: هلْ يَقتلُون بالظنّ؟ فقلتم: نعم، وسألناكم: هل يستحلُّون المال الحرام والفرج الحرام؟ فقلتم: نعم، فقلنا لكم: تعالوا نحن وأنتم، فانشدُوا الله وحدَه أن يَتنحَّوْا عنا وعنكم ليختار المسلمون لأنفسهم؛ فقلتم: لا نفعل، فقلنا لكم: تعالَوْا نحن وأنتم نلقاهم؛ فإن نظهر نحن وأنتم[1] يأت من يقيم لنا كتاب الله وسنة نبيّه، ويعدِل فى أحكامكم، ويحملكم على سنة نبيكم، فأبيتم وقاتلتمونا، فقاتلناكم وقتلناكم، فأبعدكم الله وأسحقكم يا أهلَ المدينة! مررتُ بكم فى زمن الأحول هشام بن عبد الملك، وقد أصابتكم عاهة فى ثمارِكم، فركبتم إليه تسألونه أن يضع خراجكم عنكم، فكتب بوضعه عن قوم من ذوى اليسار منكم، فزاد الغنىَّ غنًى، والفقير فقرا[2]. وقلتم: جزاه الله خيرا، فلا جزاه خيراً ولا جزاكم!

***

قال أبو الفرج. فأما خطبتا أبى حمزة المشهورتان اللتان خطب بهما فى المدينة؛ فإن أحداهما قوله:

تعلَمُون[3] يا أهلَ المدينة، أنا لم نخرج من ديارِنا وأموالنا أشَراً ولا بطراً، ولا عبثا ولا لهوا؛ ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه، ولا لثأر قديم نيلَ منا؛ ولكنّا لما رأينا مصابيح الحق قد أطفِئَتْ؛ ومعالم العدْل قد عُطِّلَتْ، وعُنِّفَ القائم[4] بالحق، وقتل القائم بالقسط، ضاقت علينا الأرضُ بما رحُبت، وسمعنا داعياً[5] يدعو إلى طاعة الرحمن، وحكم القرآن، فأجبنا داعى الله، ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[6].

---

(١) فى الأصول: «فإن يظهروا يأت»، وما أثبته من الأغانى ٩ : ١٠٧.

(٢) فى الأصول: «فرد الغنى غنياً، والفقير فقيراً»، وما أثبته من الأغانى.

(٣) الأغانى: «تعلموا».

(٤) الأغانى: «القائل».

(٥) يريد بالداعى عبد الله بن يحيى.

(٦) سورة الأحقاف ٣٢.

فأقبلنا من قبائلَ شتّى ، النفَرُ(١) منّا على البعير الواحد ، وعليه زادُهم ، يتعاورون لِحافاً واحداً ؛ قليلون مستضعفون فى الأرض ، فآوانا اللهُ وأيدّنا بنصره ، وأصبحنا ــ والله المحمود ــ من أهل فضله ونعمته(٢) . ثم لقِينا رجالَكم بقُدَيْد ؛ فدعوناهم إلى طاعة الرحمن ، وحكم القرآن ، فدعَوْنا إلى طاعة الشيطان ، وحُكم مَرْوان ؛ فشتَّان ــ لعمر الله ــ ما بين الغىّ والرشد ! ثم أقبلوا يزفّون(٣) ويُهرعون ؛ قد ضرب الشيطان فيهم بجِرَانه(٤) ، وصدّق عليهم إبليس ظنّه ، وأقبل أنصار الله عصائبَ وكتائب ؛ بكل مهنّدٍ ذى رَوْنق ، فدارت رحانا واستدارت رحاهم ، بضربٍ يرتاب منه المبطلون .

وايمُ الله يا أهلَ المدينة ؛ إن تنصروا مَرْوان وآلَ مروان فيسحِتَكم(٥) الله بعذابٍ من عنده أو بأيدينا ، ويَشْفِ صدور قومٍ مؤمنين .

يا أهل المدينة ، الناس منّا ونحن منهم ، إلا مشركاً عبّاد وثَن ، أو كافراً من أهل الكتاب ؛ أو إماماً جائرا .

يا أهل المدينة ؛ مَنْ يزعم أن الله تعالى كلّف نفساً فوق طاقتها ، وسألها عمّا لم يؤتها فهو لنا حَرْب .

يا أهل المدينة ، أخبرونى عن ثمانية أسهم فرضها الله فى كتابه على القوىّ والضعيف؛ فجاء تاسع ليس له منها سَهْم ، فأخذها جميعا لنفسه ؛ مكابرا محاربا لربه ، ماتقولون فيه ، وفيمن عاونه على فعله ؟

يا أهل المدينة ، بلغنى أنكم تنتقِصُون أصحابى ، قلتم : هم شبابٌ أحداث ، وأعراب جُفاة ، ويحكم يا أهل المدينة ! وهل كان أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلا شبابا

(١) النفر : جماعة الرجال ؛ من ثلاثة إلى عشرة .
(٢) الأغانى : « وأصبحنا ــ والله حميد ــ بنعمته إخواناً » .
(٣) يزفون : يسرعون ؛ وأصله فى الظليم .
(٤) جران البعير : مقدم عنقه .
(٥) يسحتكم : يستأصلكم .

أحداثا ! نعم والله إنّ أصحابي لَشباب مكتهلون[1] في شَبَابهم ؛ غضيضة عن الشرّ أعينُهم، ثقيلة عن الباطل أقدامُهم[2]؛ قد باعوا أنفساً تموت غداً بأنفس لاتموت أبداً ؛ قد خلطوا كَلَالهم بكلالهم ، وقيام ليلهم بصيام نهارهم، محنيّة أصلابُهم على أجزاء القرآن ؛ كلّما مرّوا بآية خوف شهِقوا خوفا من النار ، وكلّما مرُّوا بآية رجاء شَهِقوا شوْقاً إلى الجنة ، وإذا نظروا إلى السيوف وقد أُنتُضِيَتْ ، وإلى الرماح وقد أُشْرِعَتْ ، وإلى السهام وقد فُوِّقَت، وأرعِدت الكتيبة بصواعق الموت ـ استخفُّوا وعيدَها عند وعيد الله ، وانغمسوا فيها . فطوبى لهم وحسن مآب ! فكم من عينٍ في منقارِ طائر طالَما بكى بها صاحبُها من خَشْية الله ! وكَمْ من يدٍ قد أُبِينتْ عن ساعدها ، طالما اعتمد عليها صاحبها راكما وساجداً في طاعة الله ! أقول قولى هــذا وأستغفر الله ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

* * *

وأما الخطبة الثانية ، فقوله :

يا أهل المدينة، مالى رأيت رَسْمَ الدين فيكم عافياً، وآثاره دارسة! لاتقبلون [عليه][3] عظة، ولا تفقهون من أهله حُجّة ، قد بليت فيكم جِدّتُه ، وانطمسَتْ عنكم سُنّته ، ترون معروفه منكراً، والمنكرَ من غيره معروفا ، فإذا انكشفتْ لكم العِبَر، وأوضحت لكم النذُر، عَمِيَتْ عنها أبصاركم ، وصَمّت عنها آذانكم ، ساهين فى غمرة ، لاهين فى غَفْلة ، تنبسِط قلوبكم للباطل إذا نُشِر ، وتنقبض عن الحقّ إذا ذُكِر ، مستوحشة من العلم ، مستأنسة بالجهل ، كلّما وردت عليها موعظــة زادتها عن الحقّ نفوراً ، تحملون قلوباً فى صدوركم كالحجارة أوأشدّ قسوة من الحجارة ؛ فهى لاتلين بكتاب الله ؛ الذى لو أنزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدِّعاً من خشية الله !

---

(١) مكتهلون : أى قد أحرزوا رزانة الكهول .

(٢) ج : « أرجلهم » .

(٣) من الأغانى

يأهلَ المدينة ، إنه لا تُغنِي عنكم صحّةُ أبدانكم إذا سَقِمت قلوبكم ، قد جعل الله لكلّ شيء سببا غالبا عليه ؛ لينقاد إليه مطيع أمره ، فجعل القلوب غالبة على الأبدان ، فإذا مالت القلوبُ مَيْلاً كانت الأبدان لها تبَعا ، وإنّ القلوب لاتلينُ لأهلها إلا بصحتها ، ولا يصححها إلا المعرفة بالله ؛ وقوة النية ونفاذ البصيرة ؛ ولو استشعرت تقوى الله قلوبُكم ، لاستُعمِلت فى طاعة الله أبدانُكم .

يأهل المدينة ؛ داركم دارُ الهجرة ، ومثوى الرسول صلى الله عليه وسلّم ، لما نَبَتْ به دارُه ، وضاق به قراره ، وآذاه الأعداء وتجهّمت له ، فنقله الله إليكم ؛ بل إلى قومٍ لعمرى لم يكونوا أمثالكم ، متوازرين مع الحقّ على الباطل ، مختارين الآجل على العاجل ؛ يصبرُون للضّراء رجاءَ ثوابها ، فنصروا الله وجاهدوا فى سبيله ، وآزروا[(١)] رسوله صلى الله عليه وسلّم ، واتبعوا النّور الذى أنزل معه ؛ وآثروا الله على أنفسهم ؛ ولو كان بهم خصاصة ، فقال الله تعالى لهم ولأمثالهم ، ولمن اهتدى بهديهم : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾[(٢)] . وأنتم أبناؤهم ومَنْ بقى من خلفهم ، تتركون أن تقتدوا بهم ، أو تأخذوا بسنّتهم ، عُمْى القلوب صمّ الآذان . اتبعتم الهوى فأرداكم عن الهدَى ، وأسهاكم[(٣)] عن مواعظ القرآن ، لا تزجركم[(٣)] فتنزجِرُون ، ولا تعظكم فتتعظون ؛ ولا توقظكم فتستيقظون ، لبئس الخلَفُ أنتم من قوم مَضَوْا قبلكم ! ماسرتُم سيرتَهم ، ولا حفظتم وصيتَهم ، ولا احتذيتم مثالهم ؛ لو شُقّت عنهم قبورهم فعرضت عليهم أعمالكم لعجِبُوا كيف صُرِف العذاب عنكم ! ألا ترَوْن إلى خلافة الله وإمامة المسلمين كيف أضيعت ؛ حتى تداولها بنو مَرْوان ؛ أهل بيت اللعنة ، وطرداء رسول الله ، وقوم [من][(٤)] الطُّلَقاء ، ليسوا من المهاجرين ولا الأنصار ولا التابعين بإحسان ! فأكلوا مال الله أكلا ، وتلعّبوا بدين الله لعبا ؛ واتخذا عباد الله عبيداً ، يورّثُ الأكبرُ منهم ذلك الأصغر ؛ فيالها

---

(١) الأغانى : « وآووا » . (٢) سورة الحشر ٩ والتغابن ١٦ .
(٣ - ٣) الأغانى : « وأسهاكم ، فلا مواعظ القرآن تزجركم » .
(٤) من ج .

أمّة ما أضعفها وأضيعها ! ومضوا على ذلك مِنْ سيِّء أعمالهم واستخفافهم بكتاب الله ،قد نبذوه وراء ظهورهم ، فالعنوهم لعنهم الله لعنا ؛ [كما يستحقونه](1) .

ولقد ولىَ منهم عمر بن عبدالعزيز فاجتهد ولم يكَدْ ، وعجز عن الذى أظهر ، حتى مضى لسبيله . قال : ولم يذكره بخير ولا بشرّ . ثم قال : وولىَ بعده يزيد بن عبدالملك ، غلام سفيهٌ ضعيف ، غير مأمون على شىء من أمور المسلمين ، لم يبلغ أشدَّه ، ولم يؤنَسْ رشده ، وقد قال الله عز وجلّ : ﴿ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ (2) وأمرُ أمة محمد صلى الله عليه وأحكامها وفروجها ودماؤها أعظمُ عند الله من مال اليتيم ؛ وإن كان عند الله عظيما ، غلام مأبُونٌ فى فَرْجه وبطنه ، يأكل الحرام ، ويشرب الخمر ، ويلبس بُرْدَين قد حيكا من غير حلّهما ، وصرفت أثمانهما فى غير وجهها ، بعد أن ضُرِبت فيهما الأبشار (3) ، وحُلِقَتْ فيهما الأشعار ؛ استحلّ مالم يحلّه اللهُ لعبد صالح ، ولا لنبىّ مرسل ؛ فأجلس حَبابة عن يمينه ، وسلّامة عن يساره ، يغنّيانه بمزامير الشيطان ، ويشرب الخمر الصُّراح ، المحرّمة نصًّا بعينها ؛ حتى إذا أخذت منه مأخذها ، وخالطت روحَه ولحمه ودمه ؛ وغلبت سَوْرتها على عقله ، مزّق بُرْدَيه ، ثم التفت إليهما ، فقال : أتأذنان لى بأن أطير ! (4) نعم فطِرْ إلى النّار ، طِرْ إلى لعنة الله ، طِرْ إلى حيث لا يردك الله (4) .

ثم ذكر بنى أميّة وأعمالهم ، فقال : أصابوا إمْرة ضائعة ، وقوماً طَغاماً جهّالاً لا يقومُون لله بحق ، ولا يفرقون بين الضّلالة والهدى ؛ ويرون أنّ بنى أمية أربابٌ لهم ؛ فملكوا الأمر ، وتسلّطوا فيه تسلُّطَ ربوبية ، بطشهم بطش الجبابرة ، يحكمون بالهوى ، ويقتلون على الغضَب ويأخذون بالظّنّ ، ويعطّلون الحدود بالشفاعات ، ويؤمّنون الخوَنة ، ويعصُون ذوِى

---

(1) من ب . (2) سورة النساء ٦

(3) الأبشار : جمع بشر ؛ وهو جمع بشرة ؛ ظاهر الجلد ؛ أى ضرب الناس فى جباية الأموال .

(٤ — ٤) الأغانى : « نعم فطر إلى النار ، إلى لعنة الله وناره حيث لا يردك الله » .

الأمانة ، ويتناولون الصَّدقة من غير فرضها ؛ ويضعونها غير موضعها ؛ فتلك الفِرْقة الحاكمة بغير ما أنزل الله ، فالعنوهم لعنهم الله .

قال : ثم ذكر شيعة آل أبي طالب ، فقال : وأما إخواننا من الشِّيعة ـ وليسوا[١] بإخواننا في الدِّين ؛ لكني سمعت الله يقول : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾[٢] ـ فإنها فرقة تظاهرت بكتاب الله ، وآثرت الفرقة على الله ، لا يرجعون إلى نظر نافذ في القرآن ، ولا عقل بالغ في الفِقْه ، ولا تفتيش عن حقيقة الثواب ؛ قد قلدوا أمورَهم أهواءهم ، وجعلوا دينَهم العصبيّة لحزب لزموه وأطاعوه ، في جميع ما يقوله لهم : غيًّا كان أو رشداً ، ضلالةً كان أو هدى ؛ ينتظرون الدُّوَل في رَجْعة الموتى ، ويؤمنون بالبعث قبل الساعة ، ويدّعون علم الغيب لمخلوقين لا يعلم واحدهم ما في بيته[٣] ، بل لا يعلم ما ينطوي عليه ثوبه ، أو يحويه جسمه ؛ ينقِمون المعاصيَ على أهلها ، ويعمَلون بها ولا يعلمون المخرج منها ، جفاة في دينهم ، قليلة عقولهم ، قد قلّدوا أهل بيت من العرب دينَهم ؛ وزعموا أنّ موالاتهم لهم تُغْنيهم عن الأعمال الصالحة ، وتنجّيهم من عقاب الأعمال السيئة ، قاتلهم الله أنى يؤفكون !

فأيّ الفِرَق يا أهل المدينة تتبعون ؛ أم بأيّ مذاهبهم تَقْتَدُون ! ولقد بلغني مقالُكم في أصحابي وما عبتموه من حداثة أسنانهم ، ويحكم ! وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلا أحداثا ! نعم إنهم لشباب مكتهلون[٤] في شبابهم ، غضيضة عن الشرّ أعينهم ، ثقيلة في الباطل أرجلُهم ، أنضاء[٥] عبادة ، قد نظر الله إليهم في جوْف الليل ، محنيّة أصلابهم على أجزاء القرآن كلّما مرّ أحدُهم بآية فيها ذكرُ الجنة بكى شوقا ، وكلّما مرّ بآية فيها ذكر النار شَهِق خَوْفا ؛ كأنّ زفير جهنم بين أذُنيه ؛ قد أكلتِ الأرضُ جباهم ورُكَبهم ،

(١) كذا في ا ، ب ، وفي ج : « فليسوا » .

(٢) سورة الحجرات ١٣

(٣) وفي رواية الأغاني : « لا يعلم أحدهم ما في داخل بيته » .

(٤) ج : « يتكهلون » .

(٥) أنضاء : جمع نضو ؛ وهو المهزول .

ووصلوا كَلال ليلهم بكَلال نهارهم ؛ مصفرّة ألوانهم ، ناحلة أبدانهم ؛ من طول القيام ؛ وكثرة الصيام ، يُوفون بعهد الله ، منجِزون لوعد الله ، قد شرَوْا أنفسهم في طاعة الله؛ حتى إذا التقت الكتيبتان[1]؛ وأبرقت سيوفُهما ، وفوّقت[2] سهامهما ، وأشرعت[3] رماحهما ، لقوا شَبَا[4] الأسنة وزِجاج السهام[5] وظُبَى السيوف ، بنحورهم ، ووجوههم وصدورهم فمضى الشابُّ منهم قُدُما ، حتى اختلفتْ رجلاه على عُنق فرسه ؛ واختضبت محاسنُ وجهه بالدماء ، وعُفِّرَ[6] جبينه بالتراب والثرى ، وانحطّت عليه الطير من السماء ، ومزّقته سباع الأرض ؛ فكم من عينٍ في منقار طائر طالما بكى بها صاحبها في جوف الليل من خوف الله! وكم من وجهٍ رقيق ؛ وجبين عتيق[7] قد فلِق بعمَد الحديد .

ثم بكى فقال : آه ، آه ! على فراق الإخوان ، رحمة الله تعالى على تلك الأبدان ؛ اللهم أدخل أرواحها الجنان !

***

قال أبو الفرج : وسار أبو حمزة ، وخلّف بالمدينة المفضّل الأزديّ في جماعة من أصحابه ، وبعث مروان بن محمد عبدَ الملك بن عطية السعديّ في أربعة آلاف من أهل الشام ؛ فيهم فرسان عسكره ووجّهوهم لحرب أبي حمزة وعبد الله بن يحيى طالب الحق وأمر ابنَ عطية بالجدّ في المسير ، وأعطى كلّ رجل من الجيش مائة دينار ، وفرسا عربيا ، وبغلا لثقله ، فخرج ابن عطية حتى إذا كان بالمعلّى . فكان رجل من أهل وادي القرى ، يقال له العلاء

(١) ج : « الفئتان » .
(٢) فوق السهم : جعل له فوقاً ؛ وهو موضع الوتر من السهم ؛ أي أعدت للرمي .
(٣) أشرعت : سددت .
(٤) شبا : جمع شباة ؛ وهي حد كل شيء .
(٥) الزجاج : جمع زج ؛ وهو نصل السهم . ، وفي الأغاني : « وشائك السهام » .
(٦) عفر : أصابه العفر ؛ وهو التراب .
(٧) عتيق : كريم .

ابن أفلح أبي الغيث ؛ يقول : لقيَني فى ذلك اليوم وأنا غـلام رجـلٌ من أصحاب ابن عطية ؛ فقال لى : ما اسمُك ياغلام ؟ فقلت:العلاء ، فقال : ابنُ مَنْ ؟ قلت:ابن أفلح، قال : أعربىٌ أم مولى ؟ فقلت : مولى ، قال : مولى مَنْ ؟ قلت : مولى أبى الغيث ، قال: فأين نحن ؟ قلت : بالمعلّى ؛ قال : فأين نحن غداً ؟ قلت : بغالب[١] ؛ قال : فما كلمنى حتى أردفنى خَلْفه؛ومضى حتى أدخلنى على ابن عطية،وقال له: أيها الأمير ، سلِ الغلام مااسمه؟ فسأل وأنا أردّ عليه القول ؛ فسرّ بذلك ، ووهب لى دراهم .

قال أبو الفرج:وقدم أبو حمزة،وأمامه بَلْج بن عقبة فى ستمائة رجل ؛ ليقاتل عبدالملك ابن عطية ، فلقيَه بوادى القرى،لأيام خَلَت من جمادى الأولى سنة ثلاثين ومائة،فتواقفوا، ودعاهم بَلْج إلى الكتاب والسنة ، وذكر بنى أمية وظلمهم ، فشتمه أهلُ الشام،وقالوا : يا أعداء الله ، أنتم أحقُّ بهذا ممن ذكرتم.فحمل بَلْج وأصحابه عليهم ، وانكشفت طائفة من أهل الشام ، وثبت ابنُ عطية فى عُصْبة صبروا معه ، فناداهم : ياأهل الشام ؛ ياأهل الحفاظ ! ناضِلوا عن دينكم وأميرِكم ،[٢]واصبروا وقاتلوا قتالا شديداً[٢]،فقتل بلج وأكثرُ أصحابه ، وانحازت قطعة من أصحابه نحو المائة إلى جبل اعتصموا به ، فقاتلهم ابنُ عطية ثلاثة أيام ؛ فقتل منهم سبعين رجلا ، ونجا منهم ثلاثون .

فرجعوا إلى أبى حمزة وهو بالمدينة،وقد اغتمّوا وجزعوا من ذلك الخبر ، وقالوا : فررنا من الزّحف ، فقال لهم أبو حمزة : لا تجزعوا فإنا لكم فئة[٣] ، وإلىّ تحيزتم .

وخرج أبو حمزة إلى مكة،فدعا عمر بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب أهل المدينة إلى قتال المفضل ، خليفة أبى حمزة على المدينة ، فلم يجد أحداً[٤]، لأن القتل قد كان أسرع فى الناس،وخرج وجوه أهل البلد عنه[٥]،فاجتمع إلى عمر البربر والزّنوج وأهل السوق والعبيد،

(١) غالب : موضع بالحجاز .
(٢ ــ ٢) الأغانى : « فكروا وصبروا صبرا حسنا » .
(٣) الفئة : الجماعة المتظاهرة التى يرجع بعضها إلى بعض فى التعاضد .
(٤) الأغانى : « كثير أحد » .
(٥) كذا فى الأغانى ، وفى ب : « وجوه أهل البدعة » .

فقاتل بهم الشراة، فقتِل المفضّل وعامة أصحابه،وهرب الباقون ، فلم يبق منهم أحد،فقال في ذلك سُهيل مولى زينب بنت الحكم بن أبي العاص :

ليت مرْوان رآنا يوم الاثنين عشيّهْ
إذ غسلنا العارَ عنّا وانتضينا المشْرَفيّهْ

قال : فلما قدم ابن عطية أتاه عمر بن عبدالرحمن ، فقال له : أصلحك الله ! إنى جمعت قَضّى وقَضِيضى ، فقاتلتُ هؤلاء الشُّراة فلقّبه أهل المدينة : قَضّى وقَضِيضِى » .

قال أبو الفرج،وأقام ابن عطية بالمدينة شهرا ، وأبو حمزة مقيم بمكة ، ثم توجّه إليه، فقال علىّ بن الحصين العبدىّ لأبى حمزة : إنى كنتُ أشرت عليك يوم قُدَيد وقبله أن تقتُل الأسرى فلم تفعل ؛ حتى قتلوا المفضّل وأصحابنا المقيمين معه بالمدينة ، وأنا أشير عليك الآن أن تضع السيف فى أهل مكة ، فإنهم كَفَرة فَجَرة ، ولو قد قدِم ابن عطية لكانوا أشدّ عليك من أهل المدينة،فقال : لا أرى ذلك؛لأنهم قددخلوا فى الطاعة،وأقرّوا بالحكم، ووجب لهم حقّ الولاية .

فقال : إنهم سيغدرون ، فقال : ﴿ وَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ (١) .

وقدم ابن عطيّة مكة فصيّر أصحابه فرقتين ، ولقىَ الخوارج من وجهين ، فكان هو بإزاء أبى حمزة فى أسفل مكة ، وجعل طائفة أخرى بالأبطح بإزاء أبرهة بن الصباح،فقتل أبرهة ؛ كَمَنَ له ابن هبار وهو على خيل دمشق،فقتله عند بئر ميمون،والتقى ابن عطية بأبى حمزة ، فخرج أهلُ مكة بأجمعهم مع ابن عطية ، وتكاثر الناس على أبى حمزة ، فقتل على فم الشِّعب ، وقتلت معه امرأته وهى ترتجز :

أنا الجديعــاء وبنتُ الأعْلَمْ مَنْ سالَ عن اسْمِى فاسْمِى مَرْيَمْ (٢)

---

(١) سورة الفتح ١٠ .
(٢) الأغانى : « الجميداء » .

* بعثَ سِوارَىَّ بعضب مِخذَمْ ⁽¹⁾ *

وقتلت الخوارج قتلاً ذريعا ، وأُسِرَ منهم أربعمائة ؛ فقال لهم ابن عطية : وَيْلَكم ! ما دعاكم إلى الخروج مع هذا ؟ فقالوا : ضمن لنا « الكَنَّة » ، يريدون « الجنة »⁽٢⁾ ، فقتلهم كلهم ، وصلب أبا حمزة وأبرهة بن الصَّبّاح⁽٣⁾ على شِعْب الخَيْف ، ودخل عليّ بنُ الحصين داراً من دور قريش ، فأحدق أهل الشام بها فأحرقوها ، فرمى بنفسه عليهم وقاتل ؛ فأسِر وقُتِل وصلب مع أبى حمزة ، فلم يزالوا مصلوبين حتى أفضَى الأمرُ إلى بنى هاشم⁽٤⁾ ، فأنزلوا فى خلافة أبى العباس .

***

قال أبو الفرج : وذكر ابن الماجشون أنّ ابن عطيّة لما التَقَى بأبى حمزة ، قال أبو حمزة لأصحابه : لا تقاتلوهم حتى تختبرُوهم ، فصاحوا فقالوا : يا أهل الشام ، ماتقولون فى القرآن ؟ [والعمل به⁽٥⁾] ؟ فقال ابن عطية : نضعه فى جَوْف الجُوالق ، قالوا : فما تقولون فى اليتيم ؟ قالوا : نأكل ماله ونفجَر بأمّه ؛ فى أشياء بلغنى أنهم سئلوا عنها ؛ فلما سمعوا كلامَهم قاتلوهم حتى أمْسَوْا ، فصاحت الشُّراة : ويحك يابن عطية ! إنّ الله جلّ وعزّ قد جعل الليل سكنا فاسكن ونسكن ؛ فأبى وقاتلهم حتى أفناهم .

قال : ولما خرج أبو حمزة من المدينة خطَب ، فقال : يا أهلَ المدينة ؛ إنا خارجون لحرب مروان ، فإنْ نظهرْ عليه نعدِلْ فى أحكامكم ، ونحملْكم على سنَّة نبيكم ؛ وإن يكُنْ ما تمنيتم لنا ، فسيعلم الذين ظلموا أىَّ منقلب ينقلبون .

---

(١) مخذم : قاطع .

(٢) بعدها فى الأغانى : « وهى لغتهم » .

(٣) فى الأغانى : « ورجلين من أصحابهم » .

(٤) فى الأغانى : « إلى بنى العباس » .

(٥) من الأغانى .

قال : وقد كان اتبعه على رأيه قومٌ من أهل المدينة وبايعوه ، منهم بشكست[(١)] النحوىّ ، فلما جاءهم قتلُه وثب الناس على أصحابه فقتلوهم ؛ وكان ممن قتلوه بشكُسْت النحوىّ ، طلبوه فرقِىَ فى درجة دارٍ ؛ فلحقوه فأنزلوه ، وقتلوه وهو يصيح : ياعباد الله ، فيم تقتلوننى ! فقيل فيه :

لقد كان بشكُسْت عبدُ العزيزِ ... منَ أهلِ القراءة والمَسْجِدِ

فبعداً لبشكست عبد العزيز ... وأما القُرَانُ فـــلا تَبْعَدِ

***

قال أبو الفرج : وحدَّثنى بعضُ أصحابنا أنه رأى رجلاً واقفا على سَطْحٍ يرمى بالحجارة قوم أبى حمزة بمكة ، فقيل له : ويلك ! أتدرى من ترمى مع اختلاط الناس ؟ فقال : والله ما أبالى مَنْ رميت ، إنمـا يقع حَجَرى فى شامٍ أو شار[(٢)] ؛ والله ما أبالى أيهما قتلت .

***

قال أبو الفرج : وخرج ابنُ عطية إلى الطائف ، وأتى قتلُ أبى حمزة إلى عبد الله ابن يحيى طالب الحق ؛ وهو بصنعاء ، فأقبل فى أصحابه يريد حرب ابنِ عطية ، فشخص ابن عطية إليه ، والتقوا ، فقتل بين الفريقين جمعٌ كثير ؛ وترجّل عبدُ الله بن يحيى فى ألف رجل ، فقاتلوا حتى قُتِلوا كلُّهم ؛ وقتل عبد الله بن يحيى ؛ وبعثَ بنُ عطية رأسَه إلى مروان بن محمد ؛ وقال أبو صخر الهذلىّ ، يذكر ذلك :

قَتَلْنا عُبَيْدا والّذِى يكتنى الكُنَى ... أبا حَمْزة القارِى المصلّى اليمانيا[(٣)]

وأبرهة الكِندىّ خاضت رماحُنا ... وبَلْجاً منحناه السُّيوف المَوَاضِيا

(١) هو عبد العزيز القارىء الملقب بشكست المدنى النحوى الشاعر ؛ أخذ عن أهل المدينة ؛ وكان يذهب مذهب الشراة ، ويكتم ذلك ، فلما ظهر أبو حمزة خرج معه . إنباه الرواة ٢ : ١٨٣ .

(٢) الأغانى : « إنما هو شام أو شار » .

(٣) أوردها صاحب الأغانى ؛ وفيه : « قتلنا دعيسا . . . الغاوى المضل »

وما تركت أسيافُنا منذ جُرِّدَتْ لمرْوان جبّارا على الأرض عاصيا

وقال عمرو بن الحصين العنبرى ، يرثى أبا حمزة وغيره من الشُّراة ، وهذه القصيدة من مختار شعر العرب :

هَبّتْ قُبَيْلَ تبلُّجِ الفَجْرِ هِنْد تقـــولُ ودمعُها يَجْرِى [1]
إذْ أبصَرَتْ عَيْنِى وأدْمُعُهَا تنهلُّ واكفةً على النَّحْرِ :
أنّى اعتراكَ وَكُنْت عَهدِى لَا سَرِب الدُّموعِ وَكُنْتَ ذَا صَبْرِ !
أقذًى بعينِك لا يفاوقها أم عائرٌ ، أم مالها تَذْرِى !
أم ذِكْرُ إخوانٍ فُجِعْتَ بِهِمْ سَلَكُوا سَبِيلَهُمُ عَلَى قَدْرِ
فأجبتُها بلْ ذِكْرُ مَصْرَعِهِمْ لا غيره عبراتُها تَمْرِى
يارِبّ أسلِكْنِى سَبِيلَهُمُ ـ ذَاالعرش ـ واشدُدبالتقى أزْرِى
فى فتيةٍ صبروا نفُوسَهُمُ [2] للمشرفيّةِ والقَنا السُّمْرِ
تاللهِ مافى الدَّهرِ مِثلُهُمُ حَتّى أكونَ رَهِينَةَ القَبْرِ [3]
أوفَى بذمّتِهِمْ إذا عَقَـــدُوا وأعفَّ عِندَ العُسْرِ واليُسْرِ
متأهّبُونَ لـــكلِّ صالحةٍ نَاهُونَ مَنْ لَاقَوْا عن النُّكْرِ [4]
صُمْتٌ إذا حَضَرُوا مَجالِسَهُمْ من غـــير ماعِيٍّ بهم بُزْرِى [5]
إلّا تجيئُهُمُ فإنّهُمُ رُجُفُ القلوب بحضرة الذِّكْرِ [6]

---

(١) أبيات منها فى معجم الشعراء ٤٨

(٢) معجم الشعراء : « شرطوا » .

(٣) الأغانى : « تالله ألقى الدهرمثلهم » .

(٤) الأغانى : « متأهلين » .

(٥) الأغانى :

صُمْتٌ إذا احتضروا مجالِسَهُمْ وزنٌ لقـــولِ خطيبِهِمْ وَقُرُ

(٦) الأغانى : « إلا تجيئهم » .

متأوِّهُونَ كأنَّ جَمْرَ غضاً ... للموتِ بين ضُلُوعِهِمْ يَسْرِى (١)
فهمُ كأنَّ بهم جَرَى مرضٌ ... أوْ مَسَّهم طَرْفٌ من السِّحـر
لا ليلُهم ليلٌ فيلبسهم ... فيـه غواشى النَّوم بالسكْرِ
إلا كَرًى خَلْسًا وآونة ... حـذر العقاب فَهُمْ على ذُعْرِ
كَمْ مِنْ أخ لك قَدْ فُجِعْتَ بِه ... قوَّام ليلتِـهِ إلى الفَجْرِ
متأوِّهـاً يَتْلُو قَوارِعَ مِنْ ... آى الكتاب مُفَزَّع الصَّدْرِ (٢)
ظمـآن وَقْدَة كلِّ هاجِرةٍ ... تَرَّاكَ لَذَّته عَلَى قدْرِ
رَفَّاضَ ماتَهْوَى النُّفُوسُ إذا ... رُغَبُ النفوس دَعَتْ إلى المِزْرِ (٣)
وَمُبرَّأً مِنْ كُلِّ سَيِّئةٍ ... عفِّ الهوى ذَامِرَةٍ شَزْرِ (٤)
والمصطلى بالحرب يُوقدها ... بحسامـه فى فِتْيَةٍ زُهْرِ (٥)
يختاضها بأفلَّ ذى شُطَبٍ ... عَضْب المضارب ظاهر الأثْرِ (٦)
لا شيء يَلْقـاه أسرَّ له ... مِنْ طَعْنَة فى ثُغْرَةِ النَّحْرِ
منهـارة منـه تجيش بما ... كانَتْ عواصِمُ جَوْفِه تَجْرِى (٧)

---

(١) الأغانى : « للموت بين ضلوعهم » ، وبعده :

تَلْقَاهُمُ إلاَّ كأنَّهُمُ ... لخشوعِهِم صَدَرُوا عن الحشْرِ

(٢) فى الأصول : « مفرح » ؛ وما أثبته من الأغانى ؛ وفيه بعده :

نَصِبٌ تجيشُ بناتُ مُهجَتِهِ ... من خوف جيشِ مشاشةِ القِدْرِ

(٣) فى الأغانى : « تراك ماتهوى » ، والمزر : النبيذ من الشعير أو الحنطة .

(٤) هذا البيت لم يذكر فى الأغانى .

(٥) الأغانى :

والمصطلِى بالحرْبِ يُسْعِرُها ... بغبارِها وبفتية سمْرِ

(٦) الأثر : جوهر السيف ، وفى الأغانى : « يجتاحها ... قاطع البتر » .

(٧) الأغانى : « منهرة » .

لخليلك المختارُ أذكرِ به ... من مغتدٍ فى الله أو مُسرى !
خواضُ غَمْرَةِ كلِّ متلفةٍ ... فى اللهِ تحتَ العِثْيَرِ الكدرِ
نزال ذى النجَوات مختضباً ... بنجيعهِ بالطَّعْنَةِ الشَّزْرِ (١)
وابن الحصين وهَلْ لهُ شَبَهٌ ... فى العُرْفِ أنَّى كان والنُّكْرِ
بشهامةٍ لم تُحْنَ أضلعهُ (٢) ... لذوى أحِزَّتهِ على غَدْرِ
طلق اللسانِ بكلِّ محكَمةٍ ... رأب صدعِ العظمِ ذى الكَسْرِ
لم ينفككْ فى جوفه حَزَنٌ ... تَغْلِى حرارتُهُ وتَسْتَشْرِى
ترْقى وآونةً يخفِّضُها ... بتنفُّسِ الصُّعَداء والزَّفْرِ
ومخالطى بَلَجٌ وخالِصتى ... سَمُّ العدوِّ وجابر الكَسْرِ (٣)
نِكْلُ الخصوم إذا همُ شغبوا ... وسِدادُ ثُلْمَةِ عورة الثَّغْرِ (٤)
والخائضُ الغمرات يخطِرُ فى ... وَسَطِ الأعادى أيَّما خَطْرِ
بمشطَّبٍ أو غيرِ ذى شُطَبٍ ... هامَ العِدا بِذُبابِهِ يَفْرِى
وأخيك أبرهةَ الهجان أخى الـ ... حربِ العَوان ومُوقدِ الجَمْرِ
والضاربِ الأخدودَ وليس لها ... حدٌّ يُنَهْنِهُها عن السَّحْرِ (٥)
وولىِّ حُكْمِهمِ فُجِعْتُ به ... عمرو ، فوا كبدى على عَمْرو !
قوّال محكمةٍ وذو فَهَمٍ ... عفُّ الهوى متثبِّتُ الأمرِ
ومسيّبٍ فاذكر وصيتَهُ ... لا تنسَ إمّا كنتَ ذا ذُكْرِ

---

(١) النجوات : جمع نجوة ؛ وهو ما ارتفع عن الأرض .
(٢) الأغانى : « بسامة » .
(٣) الأغانى : « سم العدو » .
(٤) يقال : رجل نكل ، أى تنكل به أعداؤه .
(٥) كذا فى الأغانى : « والسحر : الرئة . والأخدود : الضربة التى خدت الجلد ، أى شقته » .

فكلاهما قد كان مختشما(١) ... لله ذا تقوى وذا برِّ
في مخبتين ولم أسمّهمُ ... كانوا ندًى وهمُ أولو نصرِ
وهمُ مساعرُ في الوغى رُجُحٌ ... وخيارُ مَنْ يمشي على العفْرِ(٢)
حتّى وَفَوْا لله حَيْثُ لَقُوا ... بعهود لا كذبٍ ولا غدْرِ
فتخالسوا مُهجاتِ أنفسِهم ... وعداتَهم بقواضبٍ بُتْرِ
وأسِنّةٍ أُثْبِتْنَ في لُدُنٍ ... خَطِّيّةٍ بأكفّهم زُهْرِ
تحت العَجاج وفوقهم خِرَقٌ ... يخفقْنَ من سُود ومِنْ حُمْرِ
فتوقّدت نيران حرْبِهِمُ ... ما بين أعلى البيت والحِجْرِ
وَتَصَرَّعت عَنْهُمْ فَوَارِسُهُمْ ... لم يغمضُوا عيناً على وِترِ
صَرْعى تَخَاوِيةٌ بيوتُهمُ ... وخوامعٌ بجسومهم تفْرِي(٣)

* * *

قال أبو الفرج : وأقام ابنُ عطيّة بحضرموت بعد ظَفَره بالخوارج حتى أتاه كتاب مَروان ، يأمرُه بالتَّعجيل إلى مكة ، فيحجّ بالناس ، فشخص إلى مكة متعجّلا مُخِفًّا في تسعة عشرَ فارسا ، وندم مَروَان على ما كتبه ، وقال : قتلت ابن عطية ؛ وسوف يخرج متعجّلا مخفًّا من اليمن ليلحق الحجّ فيقتله الخوارج ، فكان كما قال ؛ صادفه في طريقه جماعةُ متلففة ، فمن كان منهم إباضيا قال : ما تنتظر أن ندرِك ثأر إخواننا ، ومَنْ لم يكن منهم إباضياً ظنّ أنه إباضيٌّ منهزم من ابن عطية ، فصمد له سعيد وجُمانة ابنا الأخنس

(١) الأغاني : « عتبا »
(٢) مساعر : جمع مسعر ؛ وهو الشجاع موقد الحرب ؛ كأنه آلة في إيقادها . والعفر : التراب .
(٣) الخوامع : الضباع : وفي الأغاني : « لخاجلة تنوبهم » والخاجلة يراد بها الطير .

الكنديّان فى جماعة من قومهما، وكانوا على رأى الخوارج، فعطف ابنُ عطيّة على سعيد فضربه بالسيف، وطعنه جُمانة فصرّعه؛ فنزل إليه سعيد، فقعد على صدره، فقال له ابنُ عطيّة: هل لك فى أن تكون أكرَم العرب أسيراً؟ فقال سعيد: ياعدوّ الله، أتظنّ الله يمهلك! أوَتطمع فى الحياة؛ وقد قتلتَ طالب الحق وأبا حمزة وبَلْجا وأبرهة! فذبحه. وقتِل أصحابُه أجمعون.

فهذا يسير مما هو معلوم من حال هذه الطائفة فى خُشونتها فى الدّين، وتلزُّمها بناموسه؛ وإن كانتْ فى أصل العقيدة على ضلال؛ وهكذا قال النبى صلى الله عليه وآله عنهم: «تُستَحقَر صلاةُ أحدِكم فى جَنْب صلاتهم، وصيامُ أحدكم فى جنب صيامهم»؛ ومعلومٌ أنّ معاوية ومَنْ بعده من بنى أميّة لم تكن هذه الطريقة طريقتَهم؛ ولا هذه السنّة سنتهم؛ وأنهم كانوا أهلَ دنيا وأصحابَ لعب ولهو وانغماس فى اللذات، وقلة مبالاة بالدين؛ ومنهم مَنْ هو مرمىٌّ بالزندقة والإلحاد.

***

[أخبار متفرقة عن معاوية]

وقد طعَن كثير من أصحابنا فى دين معاوية، ولم يقتصروا على تفسيقِه، وقالوا عنه إنه كان ملحِداً لا يعتقد النبوّة، ونقلوا عنه فى فلتات كلامه وسقطات ألفاظه مايدلّ على ذلك.

وروى الزبير بن بكار فى "الموفقيات" — وهو غيرمتّهم على معاوية، ولا منسوب إلى اعتقاد الشيعة، لما هو معلوم من حاله من مجانَبة علىّ عليه السلام، والانحراف عنه —:

قال المطرّف بن المغيرة بن شعبة: دخلت مع أبى عَلَى معاوية، وكان أبى يأتيه، فيتحدّث معه، ثم ينصرف إلىّ فيذكر معاوية وعقلَه، ويعجَبُ بما يرى منه، إذ جاء ذاتَ ليلة، فأمسك عن العَشاء، ورأيته مغتمّاً فانتظرته ساعة، وظننت أنه لأمرٍ حدث

فيما، فقلت: مالى أراك مغتماً منذ الليلة؟ فقال: يا بُنىّ، جئت من عند أكفر الناس وأخبثهم، قلت: وماذاك؟ قال: قلت له وقد خلوتُ به: إنك قد بلغتَ سناً يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلا، وبسطت خيراً فإنك[1] قد كبرت؛ ولو نظرت إلى إخوتك من بنى هاشم، فوصلْتَ أرحامهم فوالله ماعندهم اليومَ شىء تخافه، وإنّ ذلك مما يَبْقى لك ذكره وثوابه؛ فقال: هيهات هيهات! أىّ ذِكْر أرجو بقاءه! مَلَكَ أخو تَيْم فعدَل، وفعل مافعل، فما عدا أن هَلَكَ حتى هلك ذكرُه؛ إلا أن يقول قائل: أبو بكر؛ ثم ملك أخو عدىّ، فاجتهد وشمّر عشر سنين؛ فما عدا أن هلك حتى هلَك ذكرُه؛ إلا أن يقول قائل: عمر؛ وإنّ ابنَ أبى كبشةَ ليُصاح به كلّ يوم خمس مرات: «أشهد أنّ محمداً رسول الله»، فأىّ عمل يبقى؟ وأىّ ذكر يدوم بعد هذا لا أبا لك! لا والله إلّا دَفْناً دفناً.

* * *

وأما أفعاله المجانِبة للعدالة الظاهرة من لُبْسه الحرير، وشربه فى آنية الذهب والفضة؛ حتى أنكر عليه ذلك أبو الدَّرْداء، فقال له: إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول: «إنّ الشارب فيهما ليُجرْجِر فى جوفه نار جهنم»، وقال معاوية: أمّا أنا فلا أرى بذلك بأساً، فقال أبو الدرداء: مَنْ عذيرى من معاوية! أنا أخبره عن الرسول صلى الله عليه وسلّم؛ وهو يخبرنى عن رأيه! لا أساكنك بأرضٍ أبداً.

نقل هذا الخبرَ المحدِّثون والفقهاء فى كتبهم فى باب الاحتجاج على أنّ خبر الواحد معمول به فى الشرع؛ وهذا الخبر يقدَح فى عدالته، كما يقدح أيضاً فى عقيدته، لأنّ مَنْ قال فى مقابلة خَبَرٍ قد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله: أمّا أنا فلا أرى بأساً فيما حرّمه رسول الله صلى الله عليه وآله، ليس بصحيح العقيدة ومن المعلوم أيضاً من حالة استئثاره بمال الفىء، وضربه مَنْ لاحدّ عليه، وإسقاط الحدّ عمّن يستحقّ إقامةَ الحدّ عليه، وحكمه

(١) ساقطة من ب، وهى فى ا، ج.

برأيه فى الرّعيّة وفى دين الله ، واستلحاقه زيادا ؛ وهو يعلم قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « الولَدُ للفراش وللعاهر الحجَر » ، وقتله حُجْر بنَ عدىّ وأصحابه ولم يجب عليهم القتل، ومهانته لأبى ذرّ الغِفارى وَجبْهُهُ وشتمه وإشخاصه إلى المدينة على قَتَب بعير وطاء لإنكاره عليه، ولعنه عليًّا وحسنا وحسينا وعبد الله بن عباس على منابر الإسلام، وعهده بالخلافة إلى ابنه يزيد ، مع ظهور فسقه وشُرْبِه المسكر جهاراً ،ولعبه بالنّرد ، ونومه بين القيان المغنّيات، واصطباحه معهنّ ، ولعبه بالطنبور بينهنّ ، وتطريقه بنِى أمية للوثوب على مقام رسول الله صلى الله عليه وآله وخلافته ، حتى أفضَتْ إلى يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد ، المفتضحين الفاسقين : صاحب حبَابة وسَلّامة ؛ والآخر رامى المصحف بالسّهام وصاحب الأشعار فى الزندقة والإلحاد .

ولا ريب أن الخوارج إنما برئ أهلُ الدين والحقّ منهم ، لأنهم فارقوا عليًّا وبرئوا منه ، وماعدا ذلك من عقائدهم ، نحو القول بتخليد الفاسق فى النار ، والقول بالخروج على أمراء الجوْر ؛ وغير ذلك من أقاويلهم ؛فإن أصحابنا يقولون بها ، ويذهبون إليها ،فلم يبق مايقتضى البراءة منهم إلا براءتهم من علىّ ؛ وقد كان معاوية يلعنهُ على رءوس الأشهاد وعلى المنابر فى الجمع والأعياد ،فى المدينة ومكة وفى سائر مدن الإسلام؛ فقد شارك الخوارج فى الأمر المكروه منهم ؛ وامتازوا عليه بإظهار الدين والتلزّم بقوانين الشريعة ، والاجتهاد فى العبادة ، وإنكار المنكَرات ، وكانوا أحقّ بأن ينُصَرُوا عليه مِنْ أن ينُصَرَ عليهم ، فوضح بذلك قولُ أمير المؤمنين : « لاتقاتلوا الخوارج بعدى » ، يعنى فى مُلْك معاوية .

ومما يؤكّد هذا المعنى أنّ عبد الله بن الزّبير استنصَر على يزيد بن معاوية بالخوارج، واستدعاهم إلى ملكه ، فقال فيه الشاعر :

يابنَ الزبير أتهوَى فتية قَتَلوا ... ظُلما أباك ولما تُنزع الشّكَكُ[(١)]
ضَحَّوْا بعثمان يوم النّحْر ضاحيةً ... ياطيبَ ذاك الدم الزاكى الذى سفكوا!

فقال ابن الزبير: لوشايعنى الترك والدَّيْلم على محاربة بنى أمية لشايعتهُم وانتصرتُ بهم .

(١) الشكك : جمع شكة ؛ وهى السلاح .

(٦١)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام لمّا خُوّف من الغِيلة :

وَإِنَّ عَلَيَّ مِنَ اللهِ جُنَّةً حَصِينَةً ، فَإِذَا جَاءَ يَوْمِي انْفَرَجَتْ عَنِّي وَأَسْلَمَتْنِي ؛ فَحِينَئِذٍ لَا يَطِيشُ السَّهْمُ ، وَلَا يَبْرَأُ الْكَلْمُ .

•••

الشّرْحُ :

الغِيلة : القتل على غير علم ولا شعور . والجُنّة : الدِّرع وما يُجَنّ به ؛ أى يستتر من تُرْس وغيره . وطاش السهم ؛ إذا صَدَف عن الغرض . والكَلْم : الجرح ؛ ويعنى بالجنة هاهنا الأجل ، وعلى هذا المعنى الشعر المنسوب إليه عليه السلام :

من أىّ يومىَّ مِنَ الموتِ أفِرّ … أيومَ لم يُقْدَرَ أم يوم قُدِرْ[1]

فيوم لا يقدَر لا أرْهَبُه … ويوم قد قُدِّر لا يغنى الحَذَرْ

ومنه قول صاحب الزَّنج :

وإذا تُنازعنى أقولُ لها قِرِى … موتٌ يُرِيحُكِ أو صعود المنبرِ

ماقد قضى سيكونُ فاصطَبِرى له … ولكِ الأمانُ من الذى لم يُقْدَرِ

ومثله :

قَدْ علم المستأخِرُون فى الوَهَلْ … أنّ الفرار لا يزيد فى الأجلْ

والأصل فى هذا كله قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾[2] .

---

(١) البيت فى اللسان ٦ : ٣٨٣ ، وانظر هناك توجيه نصب « يقدر » . ، وهو أيضا من أبيات فى أنساب الأشراف ١ : ١٣ ، نسبها إلى الحارث بن نمر التنوخى . (٢) سورة آل عمران ١٤٥

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (١) .

وقوله سبحانه : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ (٢) ، وفى القرآن العزيز كثيرٌ من ذلك .

• • •

[اختلاف الناس فى الآجال]

واختلف الناس فى الآجال ، فقالت الفلاسفة والأطباء : لا أجلَ مضروب لأحدٍ من الحيوان كلّه من البشر ولا من غيرهم . والموت عندهم على ضربين : قَسْرىّ وطبيعىّ :

فالقَسْرِىّ الموت بعارض ؛ إمّا من خارج الجسد كالمتردِّى والغريق والمقتول ؛ ونحو ذلك ، أو من داخل الجسدِ كما يعرض من الأمراض القاتلة ؛ مثل السُّلّ والاستسقاء والسِّرسام ، ونحو ذلك .

والموت الطبيعىّ مايكون بوقوف القوّة الغاذيَة التى تورِد على البدن عوَض مايتحلّل منه ؛ وهذه القوّة المستخدِمة للقوى الأربع : الجاذبة ، والدافعة ، والماسكة ؛ والهاضمة . والبدن لا يزال فى التحلّل دائماً من الحركات الخارجية ، ومن الأفكار والهموم وملاقاة الشمس والريح ، والعوارض الطارئة ، ومن الجوع والعطش . والقوة الغاذيَة تورِد على البدن عِوَض الأجزاء المتحلّلة ، فتصرفها فى الغذاء المتناول ، واستخدام القوى الأربع المذكورة .

ومنتهى بقاء هذه القوّة فى الأعمّ الأغلب للإنسان مائة وعشرون سنة ، وقد رأيت فى كتب بعض الحكماء أنّها تبقى مائة وستين سنة ؛ ولا يصدّق هؤلاء بما يروَى من بقاء المعمَّرين ؛ فأما أهل الملل فيصدّقون بذلك .

---

(١) سورة الأعراف ٣٤ .

(٢) سورة الأنعام ٦١ .

واختلف المتكلمون فى الآجال ؛ فقالت المعتزلة : ينبغى أولًا أن نحقق مفهوم قولنا : « أجل » ليكون البحث فى التصديق بعد تحقق التصور ؛ فالأجل عندنا هو الوقت الذى يعلم الله أن حياة ذلك الإنسان أو الحيوان تبطل فيه ، كما أن أجل الدَّين هو الوقت الذى يحل فيه ؛ فإذا سألنا سائل فقال : هل للناس آجالٌ مضروبة ؟ قلنا له : ماتعنى بذلك ؟ أتريد : هل يعلم الله تعالى الأوقات التى تبطل فيها حياة الناس ؟ أم تريد بذلك أنه : هل يراد بطلان حياة كل حى فى الوقت الذى بطلت حياته فيه ؟

فإن قال : عَنَيْتُ الأول ، قيل له : نعم للناس آجال مضروبة بمعنى معلومة ؛ فإن الله تعالى عالم بكل شىء .

وإن قال : عَنَيْتُ الثانى ؛ قيل : لا يجوز عندنا إطلاق القول بذلك ؛ لأنه قد تبطل حياة نبى أو ولى بقتل ظالم ؛ والبارئ تعالى لا يريدُ عندنا ذلك .

فإن قيل : فهل تقولون : إن كل حيوان يموت وتبطل حياتُه بأجله ؟ قيل : نعم ، لأن الله قد علم الوقت الذى تبطل حياتُه فيه ، فليس تبطل حياته إلا فى ذلك الوقت ، لا لأن العلم ساق إلى ذلك ، بل إنما تبطل حياته بالأمر الذى اقتضى بطلانه ، والبارئ تعالى يعلمُ الأشياء على ماهى عليه ؛ فإنْ بطلت حياته بقتل ظالم فذلك ظُلم وجَوْر ، وإن بطلتْ حياته من قِبَل الله تعالى فذلك حكمة وصواب . وقد يكون ذلك لطفا لبعض المكلَّفين .

واختلف الناسُ : لو لم يقتل القاتل المقتول ؛ هل كان يجوز أن يبقيَه الله تعالى؟ فقطع الشيخ أبو الهذيل على موته لو لم يقتله القاتل ؛ وإليه ذهب الكرامية ؛ قال محمد بن الهيصم : مذهبُنا أن الله تعالى قد أجل لكل نفس أجلا لن ينقضىَ عمره دون بلوغه ، ولا يتأخر عنه ؛ ومعنى الأجل هو الوقت الذى علم الله أن الإنسان يموت فيه ، وكتب ذلك فى اللوح المحفوظ ، وليس يجوز أن يكونَ الله تعالى قد أجَّل له أجَلًا ؛ ثم يقتل قبل بلوغه أو يخترم دونه ؛ ولا أن

يتأخر عما أُجِّلَ له؛ ليس على معنى أنّ القاتل مضطر إلى قتله[١]؛ حتى لا يمكنه الامتناع منه؛ بل هو قادر على أن يمتنع من قَتْله؛ ولكنه لا يمتنع منه، إذ كان المعلوم أنّه يقتله لأجله بعينه؛ وكتب ذلك عليه.

ولو توهّمنا فى التقدير، أنه يمتنع مِنْ قتله، لكان الإنسان يموتُ لأجل ذلك، لأنهما أمران مؤجّلان بأجلٍ واحد؛ فأحدهما قتل القاتل إياه، والثانى تصرّم مدة عمره وحلول الموت به؛ فلو قدرنا امتناعَ القاتل من قتله، لكان لا يجب بذلك ألّا يقع المؤجل الثانى الذى هو حلول الموت به، بل كان يجب أن يموت بأجله.

قال: وبيان ذلك من كتاب الله توبيخه المنافقين على قولهم: ﴿ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَامَاتُوا وَمَاقُتِلُوا[٢] ﴾، فقال تعالى لهم: ﴿ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[٣]، فدلّ على أنهم لو تجنّبوا مصارع القتل لم يكونوا ليدرءوا بذلك الموت عن أنفسهم.

وقالت الأشعرية والجَهمية والجبرية كافّة: إنها آجالٌ مضروبة محدودة، وإذا أُجِّل الأجل؛ وكان فى المعلوم أنّ بعض الناس يقتله، وجَب وقوع القتل منه لامحالة، وليس يقدر القاتل على الامتناع من قَتْله؛ وتقدير انتفاء القتل ليقال: كيف كانت تكون الحال، تقدير أمرٍ محال، كتقديرِ عَدَمِ القديم وإثبات الشريك، وتقدير الأمور المستحيلة لَغْو وخُلْف من القول.

وقال قومٌ من أصحابنا البَغداديّين رحمهم الله بالقطع على حياته لو لم يقتله القاتل؛ وهذا عكس مذهب أبى الهُذَيل ومن وافقه، وقالوا: لو كان المقتول يموتُ فى ذلك الوقت لو لم يقتله القاتل لما كان القاتل مسيئا إليه؛ إذ لم يفوّتْ عليه حياة لو لم يبطلها لبقيتْ، ولما استحقّ

---

(١) ب: «على قتله»، وما أثبته من ا، ج.

(٢) سورة آل عمران ١٥٦.

(٣) سورة آل عمران ١٦٨.

القَوَدَ ، ولكان ذابح الشاة بغير إذن مالكها قد أحسن إلى مالكها ؛ لأنه لو لم يذبحها لماتَتْ ؛ فلم يكن ينتفع بلحمها .

قالوا : والذى احتجّ به من كونهما مؤجّلين بأجل واحد فلو قدّرنا انتفاء أحد الأمرين فى ذلك الوقت لم يجب انتفاء الآخر ، ليس بشىء ، لأنّ أحدَهما علة الآخر ، فإذا قدّرنا انتفاء العلّة ؛ وجب أن ينتفىَ فى ذلك التقدير انتفاء المعلول ؛ فالعلة قتل القاتل ، والمعلول بطلان الحياة ، وإنما كان يستمرّ ويصلح ماذكروه ؛ لو لم يكن بين الأمرين عليّة العليّة والمعلوليّة .

قالوا : والآية التى تعلّقوا فيها لا تدلّ على قولهم ؛ لأنه تعالى لم ينكر ذلك القول إنكار حاكم بأنهم لو لم يقتلوا لماتوا ، بل قال : كلّ حىّ ميت ، أى لابد من الموت ، إما معجّلا وإمّا مؤجّلا .

قالوا : فإذا قال لنا قائل: إذا قلتم إنه يبقى لو لم يقتله القاتل؛ألستم تكونون قد قلتم: إن القاتل قد قطع عليه أجلَه ؟

قلنا له : إنما يكون قاطعاً عليه أجله لو قتله قبل الوقت الذى علم الله تعالى أنّ حياته تبطل فيه ، وليس الأمر كذلك ؛ لأن الوقت الذى علم الله تعالى أنّ حياته تبطُل فيه هو الوقت الذى قتله فيه القاتل ؛ ولم يقتله القاتل قبل ذلك ؛ فيكون قد قَطَع عليه أجله .

قالوا : فإذا قال لنا : فهل تقولون إنه قطع عليه عمره ؟

قلنا له : إنّ الزمان الذى كان يعيش فيه لو لم يقتله القاتل لايسمّى عمرا إلاعلى طريق المجاز ؛ باعتبار التقدير؛ولسنا نطلق ذلك إلامقيداً ؛ لئلا يوهم، وإنما قلنا : إنا نقطع على أنه لو لم يقتل لم يمت ، ولا نُطلق غير ذلك .

***

وقال قدماء الشيعة : الآجال تزيد وتنقص ، ومعنى الأجل ، الوقت الذى علم الله تعالى أنّ الإنسان يموت فيه إن لم يقتَل قبل ذلك ، أو لم يفعل فعلا يستحقّ به الزيادة والنقصان فى عمره .

قالوا : وربما يُقتَل الإنسان الذى ضُرِبَ[1] له من الأجل خمسون سنة . وهو ابن عشرين سنة ، وربما يفعل من الأفعال ما يستحقّ به الزيادة فيبلغ مائة سنة ، أو يستحقّ به النقيصة فيموت وهو ابن ثلاثين سنة .

قالوا : فمّا يقتضى الزيادة ؛ صلة الرحِم ، ومما يقتضى النقيصة الزنا وعقوق الوالدين ، وتعلّقوا بقوله تعالى : ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾[2] .

وربما قال قوم منهم : إنّ الله تعالى يضرِب الأجل لزيد خمسين سنة أو ما يشاء ، فيرجع عن ذلك فيا بعد ، ويجعله أربعين أو ثلاثين ، أو ما يشاء ، وبنوْه على قولهم فى البدَاء .

وقال أصحابنا : هذا يوجب أن يكونَ الله تعالى قد أجّل الآجال على التخمين دون التحقيق ؛ حيث أجّلَ لزيد خمسين ؛ فقتِل لعشرين ، وأفسدوا أن يعلم الله تعالى الشىء[3] بشرط ؛ وأن يبدوَ له فيا يقضيه ويقدره ؛ بما هو مشهور فى كتبهم .

وقالوا فى الآية : إنّ المرادَ بها أن ينقص سبحانه بعضَ الناس عن مقدار أجل المعمّر ؛ بأن يكون انتقصَ منه عمرا ، ليس أنه ينقص من عمر ذلك المعمّر .

فأما مشايخنا أبو علىّ وأبو هاشم فتوقفا فى هذه المسألة ، وشكّا فى حياة المقتول وموته ؛ وقالا : لا يجوز أن يبق لو لم يُقتل ، ويجوز أن يموت ، قالا : لأن حياته وموته مقدورَان لله عزّ وجلّ ، وليس فى العقل ما يدلّ على قبح واحد منهما ؛ ولا فى الشْرْع مايدل على حصول واحد منهما ، فوجب الشكّ فيهما ؛ إذ لا دليل يدلّ على واحد منهما .

---

(١) ب : « صرف » ، تحريف وصوابه من ج . (٢) سورة فاطر ١١
(٣) ساقطة من ب .

قالوا : فأما احتجاج القاطمين على موتِه ، فقد ظهر فسادُه بما حُكى من الجواب عنه .

قالوا : ومما يدلّ على بطلانه من الكتاب العزيز قولُه تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي ٱلْأَلْبَابِ ﴾(١) ، فحكم سبحانه بأنّ إثباته القصاص مما يزجر القاتل عن القتل ، فتدوم حياة المقتول ، فلو كان المقتول يموت لو لم يقتله القاتل ما كان فى إثبات القصاص حياة .

قالوا : وأما احتجاجُ البغداديين على القَطْع على حياته بما حُكى عنهم ، فلا حُجّة فيه ؛ أمّا إلزام القاتل القوَد والغرامة فلأنّا غير قاطمين على موت المقتول لو لم يقتل ، بل يجوز أن يبقى ويغلب ذلك على ظنوننا ؛ لأن الظاهرَ من حال الحيوان الصحيح ألّا يموت فى ساعته ، ولا بعد ساعته وساعات ، فنحن نلزم القاتل القوَد والغرامة ، لأنّ الظاهر أنه أبطل ما لو لم يبطله لبقى .

وأيضا فوت المقتول لو لم يقتله القاتل لا يخرج القاتل من كونه مسيئا ؛ لأنه هو الذى تولّى إبطال الحياة ؛ ألا ترى أنّ زيدا لو قتل عمرا لكان مسيئا إليه ؛ وإن كان المعلوم أنّه لو لم يقتله لقتله خالد فى ذلك الوقت !

وأيضا فلو لم يقتل القاتل المقتول ولم يذبح الشاة حتى ماتا ، لكان يستحقّ المقتول ومالك الشاة من الأعواض على البارئ سبحانه أكثر مما يستحقّانه على القاتل والذابح ، فقد أساء القاتل والذابح حيث فوّتا على المقتول ومالك الشاة زيادة الأعواض .

فأمّا شيخنا أبو الحسين فاختار الشكّ أيضا فى الأمرين إلا فى صورة واحدة ، فإنه قطع فيها على دوام الحياة ، وهى أنّ الظالم قد يَقتل فى الوقت الواحد الألوفَ الكثيرة فى المكان الواحد ، ولم تجر العادة بموت مثلهم فى حالة واحدة فى المكان الواحد ؛ واتفاق ذلك نقضُ العادة ، وذلك لا يجوز .

---

(١) سورة البقرة ١٧٩ .

قال[(١)] الشيخ : ليس يمتنع أن يقال فى مثل هؤلاء إنه يقطع على أن جميعهم ما كانوا يموتون فى ذلك المكان فى ذلك الوقت لو لم يقتلهم القاتل ، إن كان الوقت وقتا لا يجوز انتقاض العادات فيه ، ولكن يجوز أن يموت بعضهم دون بعض ، لأنه ليس فى موت الواحد والاثنين فى وقت واحد فى مكان واحد نقض عادة ، ولا يمتنع هذا الفرض من موتهم بأجمعهم فى زمان نبيّ من الأنبياء .

وقد ذكرت فى كتبى المبسوطة فى علم الكلام فى هذا الباب ماليس هذا الشرح موضوعاً لاستقصائه .

---

(١) ج : « وقال رحمه الله » .

(٦٢)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا دَارٌ لَا يُسْلَمُ مِنْهَا إِلَّا فِيهَا ، وَلَا يُنْجَى بِشَيْءٍ كَانَ لَهَا . ابْتُلِيَ النَّاسُ بِهَا فِتْنَةً فَمَا أَخَذُوهُ مِنْهَا لَهَا أُخْرِجُوا مِنْهُ وَحُوسِبُوا عَلَيْهِ ، وَمَا أَخَذُوهُ مِنْهَا لِغَيْرِهَا قَدِمُوا عَلَيْهِ ، وَأَقَامُوا فِيهِ ؛ فَإِنَّهَا عِنْدَ ذَوِي الْعُقُولِ كَفَيْءِ الظِّلِّ ، بَيْنَا تَرَاهُ سَابِغاً حَتَّى قَلَصَ ، وَزَائِداً حَتَّى نَقَصَ .

الشرح :

تقدير الكلام : أنّ الدُّنيا دارٌ لا يُسلَم من عقاب ذنوبها إلا فيها ؛ وهذا حقّ ؛ لأن العِقاب المستحقّ[1] ، إنما يَسْقُط بأحد أمرين : إما بثوابٍ على طاعاتٍ تفضُل على ذلك العقاب المستَحقّ ، أو بتوبةٍ كاملة الشروط .

وكلا الأمرين لا يصحُّ من المكلّفين إيقاعُه إلّا في الدنيا ؛ فإنّ الآخرة ليست دارَ تكليف ، ليصحّ من الإنسان فيها عمل الطاعة والتوبة عن المعصية السالفة ؛ فقد ثبت إذاً أن الدنيا دارٌ لا يسلم مِنْها إلا فيها .

إن قيل : بَيّنُوا أن الآخرةَ ليست بدار تكليف .

قيل : قد بَيّن الشيوخُ ذلك بوجهين :

أحدهما : الإجماعُ على المنع مِنْ تجويز استحقاق ثواب أو عقاب في الآخرة .

والثاني : أن الثوابَ يجب أن يكون خالصاً من المشاقّ ؛ والتكليف يستلزم المشقّة ؛ لأنها شرطٌ في صحته ؛ فبطل أن يجوز استحقاق ثواب في الآخرة للمكلّفين المُثابين في الآخرة

---

(١) ج : « لأن عقاب الذنوب ».

لأجلِ تكاليفهم فى الآخرة ؛ وأما المعاقَبون فلو كانوا مكلَّفين لجاز وقوع التوبة منهم ، وسقوط العقاب بها ؛ وهذا معلومٌ فساده ضرورةً من دين الرسول عليه السلام .

وهاهنا اعتراضان :

أحدُهما : أن يقال: فما قولكم فى قوله تعالى: ﴿ كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ ﴾[1] ؛ وهذا أمر وخطاب لأهل الجنة ، والأمر تكليف ؟

والثانى : أنّ الإجماع حاصل على أنّ أهل الجنة يشكرون الله تعالى، والشكر عبادة وذلك يستدعى استحقاق الثواب !

والجواب عن الأول أن قوله : ﴿ كُلُوا وَٱشْرَبُوا ﴾ عند شيخنا أبى علىّ رحمه الله تعالى ليس بأمرٍ على الحقيقة؛ وإن كانت له صورته ؛ كما فى قوله تعالى : ﴿ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾[2] .

وأما الشيخ أبو هاشم فعنده أن قوله : ﴿ كُلُوا وَٱشْرَبُوا ﴾ أمر، لكنه زائد فى سرور أهل الجنة؛ إذا علموا أن الله تعالى أرادَ منهم الأكل وأمرَهم به؛ ولكنه ليس بتكليف؛ لأنّ الأمرَ إنما يكون تكليفاً إذا انضمّت إليه المشقة .

وأما الجوابُ عن الثانى ؛ فإنّ الشكر الذى بالقلب رجوعه إلى الاعتقادات ؛ والله تعالى يفعل فى أهل الجنة المعارف كلَّها ، فلا وجوب إذاً عليهم ؛ وأما الشكر باللسان فيجوز أن يكون لهم فيه لذة ، فيكون بذلك غير منافٍ للثواب الحاصل لهم .

وبهذا الوجه نجيب عن قول من يقول : أليس زبانية النار يعالجون أهلَ العذاب فى جهنم، أعاذنا الله منها ؟ وهل هذا إلا محض تكليف ! لأنا نقول إنه يجوز أن يكونَ للزبانية فى ذلك لذّة عظيمة ، فلا يثبت التكليف معها ؛ كما لا يكون الإنسان مكلفًا فى الدنيا بما يخلص إليه شهوته ؛ ولا مشقة عليه فيه .

(١) سورة الحاقة ٢٤
(٢) سورة الإسراء ٥٠

إن قيل : هذا الجواب ينبنى على أنّ معارف أهلِ الآخرة ضرورية ؛ لأنكم أجبتم عن مسألة الشكر ، بأنّ الله تعالى يفعل المعارف فى أهل الجنة، فدلّوا على ذلك ؛ بل يجب عليكم أن تدللوا أولًا على أنّ أهلَ الآخرة يعرفون الله تعالى .

قيل : أمّا الدليل على أنّهم يعرفونه تعالى ؛ فإن المثاب لابدّ أن يعلَم وصولَ الثواب إليه على الوجه الذى استحقّه ، ولا يصحُ ذلك إلا مع المعرفة بالله تعالى ، ليعلم أن مافعله به هو الذى لمستحقه ، والقول فى المعاقب كالقول فى المثاب .

وأيضا فإنّ من شرط الثواب مقارنة التعظيم والتبجيل له من فاعل الثواب، لأن تعظيم غير فاعل الثواب لا يؤثّر ، والتعظيم لا يُعلم إلا مع العلم بالقصْد إلى التعظيم ؛ ويستحيل أن يعلموا قصْدَه تعالى؛ ولا يعلموه ؛ والقول فى العقاب وكون الاستحقاق والإهانة تقارنه تجرى هذا المجرى .

فأمّا بيان أنّ هذه المعرفة ضرورية، فلأنّها لو كانت من فعلهم ؛ لكانت إمّا أن تقع عن نظر يتحرّون فيه، أو يلجئون إليه، أو عن تذكّر نظر ، أو بأن يلجئوا إلى نفس المعرفة من غير تقدم نظر ؛ والأول باطل ، لأنّ ذلك تكليف وفيه مشقّة ، وقد بينا سقوط التكليف فى الآخرة . ولا يجوز أن يلجئوا إلى النظر لأنهم لو ألجئوا إلى النظر لكان ألجأم إلى المعرفة أولا ، وإلجاؤهم إلى المعرفة يمنع من إلجائهم إلى النظر ؛ ولا يجوز وقوعها عند تذكّر النظر ؛ لأنّ المتذكّر للنظر تَعرِض له الشّبه ، ويلزمه دفعها ؛ وفى ذلك عوْد الأمر إلى التكليف ؛ وليس معاينة الآيات بمانع عن وقوع الشبه ، كما لم تمنع معاينة المعجزات والإعلام عن وقوعها ؛ ولا يجوز أن يكونَ الإلجاء إلى المعرفة ؛ لأنّ الإلجاء إلى أفعال القلوب لا يصحّ إلا من الله تعالى ؛ فيجب أن يكونَ الملجأ إلى المعرفة عارفًا بهذه القضية ؛ وفى ذلك استغناؤه بتقدم هذه المعرفة على الإلجاء إليها .

إن قيل : إذا قلتم إنّهم مضطرون إلى المعارف ، فهل تقولون إنهم مضطرون إلى الأفعال ؟

قيل : لا ؛ لأنه تعالى قال : ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾[١] ؛ ولأنّ مَنْ تدبّر ترغيبات القرآن فى الجنة والثواب ، علم قطعا أنّ أهلَ الجنة غير مضطرين إلى أفعالهم ، كما يضطر المرتعش إلى الرعشة .

إن قيل : فإذا كانُوا غير مضطرين ، فلمَ يمنعُهم من وقوع القبيح منهم ؟

قيل : لأنّ الله تعالى قد خلَق فيهم علما بأنّهم متَى حاولوا القبيح منِعوا منه ؛ وهذا يمنع من الإقدام على القبيح بطريق الإلجاء .

ويمكن أيضاً أنْ يعلمهم استغناءهم بالحسَن عن القبيح ؛ مع ما فى القبيح من المضرّة ، فيكونون ملجئين إلى ألّا يفعلوا القبيح .

***

فأما قوله عليه السلام : « ولا يُنْجَى بشىء كانَ لها » فمعناه أنّ أفعال المكلّف التى يفعلها لأغراضه الدنيويّة ليست طريقا إلى النجاة فى الآخرة ، كمن ينفق ماله رئاء الناس؛ وليست طرقُ النجاة إلا بأفعال البرّ التى يقصد فيها وجه الله تعالى لا غير ، وقد أوضح عليه السلام ذلك بقوله : « فما أخذُوه منها لها أخرجوا منه ، وحوسبوا عليه ، وما أخذوه منها لغيرها قدموا عليه وأقاموا فيه » .

فمثال الأول من يكتسب الأموال ويدخرها للذّة ، ومثال الثانى من يكسبها لينفقها فى سبيل الخيرات والمعروف .

ثم قال عليه السلام : « وإنّها عند ذوى العقول كفىء الظلّ ... » إلى آخر الفصل ؛ وإنما قال : « كفىء الظلّ » لأن العرب تضيف الشىء إلى نفسه ، قال تأبّط شراً :

إذَا حَاصَ عَيْنَيْهِ كَرَى النوم لم يَزَلْ لَهُ كَالِئٌ مِنْ قَلْبِ شَيْحَانَ فَاتِكِ[٢]

(١) سورة الواقعة ٢٠

(٢) حماسة أبى تمام — بشرح التبريزى ١ : ٩٤ . حاص : خاط ؛ ويروى : « إذا خاط عينيه » . والكرى : النوم الخفيف . والشيحان : الحازم ؛ مثل الشائح والمشيح . والفاتك : الذى يفاجئ غيره بمكروه أو قتل .

ويمكن أن يقال : الظلّ أعمّ من الفيء ، لأنّ الفيء لا يكون إلا بعد الزوال ، وكلّ فيء ظلٌّ ، وليس كلّ ظلّ فيئاً ، فلما كان فيهما تغايرٌ معنويٌّ بهذا الاعتبار صحّت الإضافة .

والسابع : التامّ . وقَلَص ، أى انقبض .

وقوله عليه السلام : « بينا تراه » ، أصل « بينا » « بين » ، فأشبعت الفتحة ، فصارت « بينا » على وزن « فَعلى » ثم تقول « بينما » فتزيد « ما » ؛ والمعنى واحد ؛ تقول بينا نحن نرقبه أتانا ، أى بين أوقاتِ رقْبتنا إياه أتانا ، والجمل تضاف إليها أسماء الزمان ، كقولك : أتيتك زمنَ الحجاج أمير ؛ ثم حذفت المضاف الذى هو « أوقات » وولى الظرف الذى هو بين الجملة التى أقيمت مقام المضاف إليه ، كقوله ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ[1] ﴾ .

وكان الأصمعىّ يخفض بـ « بينا » إذا صلح فى موضعه « بين » ، وينشد بيت أبى ذؤيب ، بالجرّ :

بَيْنَا تعنُّقِهِ الكُماة ورَوغِهِ يوماً أُتيحَ له جَرِىءٌ سَلْفَعُ[2]

وغيره يرفع ما بعد « بينا » و « بينما » على الابتداء والخبر ، وينشد هذا البيت على الرفع .

وهذا المعنى متداول ، قال الشاعر :

ألا إنّما الدُّنيا كظلِّ غمامةٍ أظلّتْ يسيراً ثم خَفَّت فولّتِ

وقال آخر :

ظِلُّ الغَمام ، وأحلامُ المنام ، فما تدوم يوماً لمخلوقٍ على حالِ

---

(١) سورة يوسف ٨٢ .

(٢) ديوان الهذليين ١ : ١٨ . السلفع : الجرىء الصدر .

(٦٣)

الأصلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

فَاتَّقُوا[١] اللهَ عِبَادَ اللهِ، وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، وَابْتَاعُوا مَا يَبْقَى لَكُمْ بِمَا يَزُولُ عَنْكُمْ، وَتَرَحَّلُوا فَقَدْ جُدَّ بِكُمْ، وَاسْتَعِدُّوا لِلْمَوْتِ فَقَدْ أَظَلَّكُمْ، وَكُونُوا قَوْماً صِيحَ بِهِمْ فَانْتَبَهُوا، وَعَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لَهُمْ بِدَارٍ فَاسْتَبْدَلُوا ؛ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً ؛ وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدًى ، وَمَا بَيْنَ أَحَدِكُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ إِلَّا الْمَوْتُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ .

وَإِنَّ غَايَةً تَنْقُصُهَا اللَّحْظَةُ ، وَتَهْدِمُهَا السَّاعَةُ ، لَجَدِيرَةٌ بِقِصَرِ الْمُدَّةِ . وَإِنَّ غَائِباً يَحْدُوهُ الْجَدِيدَانِ ؛ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، لَحَرِيٌّ بِسُرْعَةِ الْأَوْبَةِ . وَإِنَّ قَادِماً يَقْدُمُ بِالْفَوْزِ أَوِ الشِّقْوَةِ لَمُسْتَحِقٌّ لِأَفْضَلِ الْعُدَّةِ .

فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا مَا تَحْرُزُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ غَداً ، فَاتَّقَى عَبْدٌ رَبَّهُ : نَصَحَ نَفْسَهُ ، وَقَدَّمَ تَوْبَتَهُ ، وَغَلَبَ شَهْوَتَهُ ، فَإِنَّ أَجَلَهُ مَسْتُورٌ عَنْهُ ، وَأَمَلَهُ خَادِعٌ لَهُ ، وَالشَّيْطَانَ مُوَكَّلٌ بِهِ ؛ يُزَيِّنُ لَهُ الْمَعْصِيَةَ لِيَرْكَبَهَا ، وَيُمَنِّيهِ التَّوْبَةَ لِيُسَوِّفَهَا ، إِذَا هَجَمَتْ مَنِيَّتُهُ عَلَيْهِ أَغْفَلَ مَا يَكُونُ عَنْهَا .

فَيَا لَهَا حَسْرَةً عَلَى ذِي غَفْلَةٍ أَنْ يَكُونَ عُمُرُهُ عَلَيْهِ حُجَّةً ، وَأَنْ تُؤَدِّيَهُ أَيَّامُهُ إِلَى الشِّقْوَةِ ! نَسْأَلُ اللهَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ لَا تُبْطِرُهُ نِعْمَةٌ ، وَلَا تُقَصِّرُ بِهِ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ غَايَةٌ ، وَلَا تَحُلُّ بِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ نَدَامَةٌ وَلَا كَآبَةٌ .

***

(١) ا : « واتقوا » .

الشَّرْحُ :

بادروا آجالكم بأعمالكم ، أى سابقوها وعاجِلوها . البِدار : العجلة ، وابتاعوا الآخرةَ الباقيةَ بالدنيا الفانية الزائلة .

وقوله : « فقد جُدَّ بكم » أى حثثتم على الرحيل ؛ يقال : جَدَّ الرحيل ، وقد جُدَّ بفلان ، إذا أزعج وحُثَّ على الرحيل .

واستعدُّوا للموت ، يمكن أن يكون بمعنى « أعدُّوا » ، فقد جاء « استفعل » بمعنى « أفعل » كقولهم : استجاب له ، أى أجابه .

ويمكن أن يكون بمعنى الطَّلَب ؛ كما تقول : استطعم ، أى طلب الطعام ، فيكون بالاعتبار الأول ، كأنّه قال : أعدُّوا للموت عُدّة ، وبمعنى الاعتبار الثانى كأنه قال : اطلبوا للموت عُدّة .

وأظلّكم : قربُ منكم ، كأنّه ألقى عليهم ظلّه ، وهذا من باب الاستعارة .

والعبَث : اللعب ، أو مالا غرض فيه ، أو مالا غرضَ صحيح فيه .

وقوله : « ولم يترككم سُدًى » ، أى مهمَلين .

وقوله : « أن ينزل به » موضعُه رفع لأنّه بدلٌ من « الموت » ، والغائب المشار إليه هو الموت . ويحدوه الجديدان : يسوقه الليل والنهار ، وقيل : الغائب هنا هو الإنسان يَسُوقه الجديدان إلى الدار التى هى داره الحقيقية ، وهى الآخرة ؛ وهو فى الدنيا غائب على الحقيقة عن داره التى خلق لها ؛ والأول أظهر .

وقوله : « فتزوّدوا فى الدنيا من الدنيا » كلامٌ فصيح ؛ لأنّ الأمر الذى به يتمكّن المكلّف من إحراز نفسه فى الآخرة ؛ إنما هو يكتسبه فى الدنيا منها ، وهو التقوى والإخلاص والإيمان .

والفاء فى قوله : « فاتّقَى عبد ربَّه » لبيان ماهيّة الأمر الذى يحرِزُ الإنسان به نفسه

ولتفصيل أقسامه وأنواعه ، كما تقول : فعل اليوم فلان أفعالاً جميلة ؛ فأعطى فلانا، وصفَح عن فلان ، وفعل كذا . وقد روى : « اتق عبد ربّه » بلا فاء ، بتقدير « هلّا » ، ومعناه التحضيض .

وقد روى : «ليسوّفها» بكسر الواو وفتحها ؛ والضمير فى الرواية الأولى يرجع إلى نفسه، وقد تقدم ذكرها قبلُ بكلمات يسيرة . ويجوز أن يعنى به : ليسوّف التوبة ، كأنه جعلها مخاطبة يقول لها : سوف أوقعك ؛ والتسويف أن يقول فى نفسه : سوف أفعل ؛ وأكثر مايستعمل الوعد الذى لا نجاز له . ومن روى بفتح الواو جعله فعلَ مالم يسمّ فاعله، وتقديره: ويمنّيه الشيطان التوبة ، أى يجعلها فى أمنيته ليكون مسوّفا إياها ؛ أى يعدّ من المسوّفين المخدوعين .

وقوله : «فيالَها حسرة » ، يجوز أن يكونَ نادى الحسرة، وفتحة اللام على أصل نداء المدعو ؛ كقولك : يالَلرجال؛ ويكون المعنى: هذا وقتك[1] أيتها الحسرة فاحضرى. ويجوز أن يكون المدعو غير الحسرة ، كأنه قال: ياللرجال لِلْحسْرةِ! فتكون لامها مكسورة نحو الأصل لأنها المدعو إليه[1]، إلا أنها لما كانت للضمير فتحت، أى أدعوكم أيها الرجال لتقضوا العجب من هذه الحسْرة .

***

[عظة للحسن البصرى]

وهذا الكلام من مواعظ أمير المؤمنين البالغة ؛ ونحوه من كلام الحسن البصرى ذكره شيخنا أبو عثمان فى " البيان والتبيين "[2] :

(١ – ١) ساقط من ا ، ب ، وأثبته من ج .

(٢) "البيان والتبيين ٣ : ١٣٢ ، ١٣٣

ابنَ آدم ؛ بعْ دنياك بآخرتك تربحهما جميعا ، ولا تبِعْ آخرتَك بدنياك فتخسرَهما جميعا، وإذا رأيت النّاس فى الخير فقاسِمْهم فيه ،[1] وإذا رأيتهم فى الشرّ فلا تغبِطْهم عليه. البقاء[2] ها هنا قليل ، والبقاء هناك طويل ، أمّتكم آخر الأمم وأنتم آخرُ أمتكم ، وقد أسرع بخياركم فما تنتظرون[3] المعاينة ! فكأنْ قدْ . هيهات هيهات،ذهبت الدنيا بحاليْها[4] وبقيت الأعمال قلائد فى الأعناق. فيالها موعظة لو وافقت من القلوب حياة ! ألا إنّه لا أمّة بعد أمتكم ، ولا نبيّ بعد نبيّكم ، ولا كتاب بعد كتابكم . أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم ، وإنما يُنتظَرُ بأوّلكم أن يلحق آخركم . مَنْ رأى محمداً صلوات الله وسلامه عليه ، فقد رآه غادياً رائحاً[5] ، لم يضع لَبِنَةً على لَبِنة ، ولا قَصَبة على قصبة ؛ رُفِع له عَلَم فسما إليه، فالوحَى الوحَى، النجاء النجاء ! على ماذا تعرّجون ! [6] ذهب أماثلكم وأنتم تَرْذُلون[7] كلّ يوم ، فما تنتظرون[6] !

إن الله بعث محمداً على عِلْم منه ، اختاره لنفسه ، وبعثه برسالته ، وأنزل إليه كتابَه ؛ وكان صَفْوتَه من خلقه ، ورسوله إلى عباده ، ثم وضعه من الدنيا موضعاً ينظرُ إليه أهلُ الأرض، فآتاه فيها قوتاً و بُلْغة، ثم قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[8]، فرَكَن أقوامٌ إلى غير عيشته ، وسخطُوا ما رضىَ له ربُّه ، فأبعدهم وأسحقهم .

يا بن آدَم ، طإ الأرض بقدمك ، فإنها عن قليل قبرُك ؛ واعلم أنّك لم تزَلْ فى هَدْم عمرك منذ سقطت من بطن أمّك ؛ رحم الله امرأ نظر فتفكّر ، وتفكر فاعتبر ، واعتبر

---

(١) البيان : « فنافسهم فيه » .
(٢) البيان : « الثواء » .
(٣) ب : « فلا تنتظرون المعاينة » ، وما أثبته من ج والبيان والتبيين .
(٤) بحاليها ؛ أى حالتى الخير والشر .
(٥) أى فى كسب الضرورى من العيش .
(٦ — ٦) البيان . « أنتم ورب الكعبة ؛ قد أسرع بخياركم ؛ وأنتم كل يوم ترذلون فماذا تنتظرون » .
(٧) ترذلون : تصيرون رذلاء .
(٨) سورة الأحزاب ٢١

فأبصر ، وأبصر فأقصر ؛ فقد أبصر أقوامٌ ولم يقصّروا ، ثم هلكوا فلم يُدرِكوا ماطلبُوا ، ولا رجعوا إلى مافارقوا .

يابن آدم، اذكر قوله عزّ وجلّ : ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُوراً * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ ، عدَل والله عليك مَنْ جعلك حسيبَ نفسك.

خذُوا صفوة الدنيا ، ودعوا كَدَرها ، ودَعُوا مايريبكم إلى مالا يريبكم ؛ ظهر الجفاء وقلّت العلماء ، وعفَت السّنة ، وشاعت البدعة . لقد صحبتُ أقواماً ما كانت صحبتهم إلا قرّة عين لكلّ مسلم ، وجِلَاء الصدور ؛ ولقد رأيت أقواماً كانوا من حَسناتهم أن تُردّ عليهم ، أشفقَ منكم من سيئاتكم أن تعذَّبوا عليها ، وكانوا مما أحلّ الله لهم من الدنيا أزهدَ منكم فيما حرّم عليكم منها .

مالى أسمع حِسِيساً ولا أرى أنيساً ! ذهبَ النّاس ، وبقى النَّسْناس (١) . لو تكاشفتم ماتدافنتم . تهاديتُم الأطباق، ولم تتهادَوْا النصائح . أعدّوا الجواب ؛ فإنكم مسئولون . إنّ المؤمن من لايأخذ دينه عن رأيه ؛ ولكن عن ربّه (٢) . ألا إنّ الحقّ قد أجهدَ أهله ، وحال بينهم وبين شهواتهم ، [وما يصبر عليه إلّا من عرف فضله ، ورجا عاقبته ،فمَن حمد الدنيا ذمّ الآخرة] (٣) ، ولا يكره لقاء الله إلا مقيم على مايسخطه . إن الإيمان ليس بالتمنّى ولا بالتشهِّى ، ولكن ماوقَر فى القلوب وصدّقته الأعمال .

وهذا كلام حسن وموعظة بالغة ؛إلا أنّه فى الجزالة والفصاحة دون كلام أمير المؤمنين عليه السلام بطبقات .

* * *

---

(١) النسناس : خلق على صورة الناس .

(٢) البيان : « أخذه من قبل ربه » .

(٣) من كتاب البيان والتبيين .

[من خطب عمر بن عبد العزيز]

ومن خطب عمر بن عبد العزيز :

إن لكلّ سفرٍ زاداً لا محالة ، فتزوّدوا لسفرِكم من الدّنيا إلى الآخرة ؛ فكونوا كمن عايَن ما أعدّ الله تعالى من ثوابه وعقابه ، فرغِبوا ورهبوا ، ولا يطولَنّ عليكم الأمر فتقسُو قلوبكم ، وتنقادُوا لعدوِّكم ، فإنه والله ما بُسِط أمَلُ مَنْ لا يَدْرِى لعلّه لا يصبِح بعد إمسائه ، ولا يمسى بعد إصباحه ، وربما كانت بين ذلك خَطَفات[١] المنايا . فكم رأينا وأنتم مَنْ كان بالدنيا مغترًّا فأصبح فى حبائل خطوبها ومناياها أسيراً ! وإنما تقرّ عين من وَثِق بالنّجاة من عذاب الله ، وإنما يفرح مَنْ أمِنَ من أهوال يوم القيامة ، فأما مَنْ لا يبرأ من كَلْمٍ إلا أصابه جارح من ناحية أخرى فكيف يفرح ! أعوذ بالله أنْ أخبِرَكم بما أنهَى عنه نفسى ؛ فتخيبَ صفقتى ، وتظهر عورتى ، وتبدوَ مسكنتى ، فى يوم يبدُو فيه الغنىّ والفقير ؛ والموازين منصوبة ، والجوارح ناطقة . لقد عنيتم بأمر لو عنيت به النّجوم لانكدرت ، ولو عنيت به الجبال لذابت ، أو الأرض لانفطرت ، أما تعلمون أنّه ليس بين الجنة والنار منزلة ، وأنكم صائرون إلى أحدهما ![٢]

ومن خطب عمر بن عبد العزيز :

أيها الناس : [إنكم][٣] لم تخلَقوا عبثا ، ولم تتركوا سدًى ، وإن لكم معاداً يبين[٤] الله لكم فيه الحكم والفصل بينكم ، فخاب وخسِر مَنْ خرج من رحمة الله التى وَسِعَتْ كلّ شىء ، وحُرِم الجنّة[٥] التى عَرْضها السموات والأرض .

---

(١) العقد : « خطرات »
(٢) العقد لابن عبد ربه ٤ : ٩٢
(٣) من البيان والتبيين والعقد .
(٤) البيان والعقد : « يحكم »
(٥) العقد : « جنة »

واعلموا أنّ الأمان لمن خاف الله ، وباع قليلا بكثير ، وفانيا [١] بباقٍ . ألا ترون أنكم فى أسلاب المالكين ، وسيُشْلَبها [٢] بعدكم الباقون ؛ حتى تردّ إلى خير الوارثين ؛ ثم إنكم فى كلّ يوم تشيّعون غاديا ورائحا إلى الله عزّ وجلّ ، قد قضى نحبَه ، وبلغ أجلَه ، تغيبونه فى صدْع من الأرض ثم تدَعونه غير ممهّد ولا موسّد ، قد صرم الأسباب [٣] ، وفارق الأحباب ، وواجَه الحساب ، وصار فى التراب ، غنيًّا عمّا ترك ، فقيرا إلى ما قدم [٤] .

***

[من خطب ابن نباتة]

ومن خطب ابن نباتة الجيّدة فى ذكر الموت :

أيّها الناس، ما أسلس قيادَ من كان الموت جريره ، وأبعد سداد من كان هواه أميرَه ! وأسرع فطام من كانت الدنيا ظِئره ، وأمنع جنَاب من أضحَت التقوى ظهيره ! فاتقوا الله عباد الله حقّ تقواه ، وراقبوه مراقبة مَنْ يعلم أنه يراه ، وتأهّبوا لوثبات المنون ؛ فإنّها كامنة فى الحركات والسكون ؛ بينما ترى المرء مسروراً بشبابه ، مغروراً بإعجابه ، مغموراً بسعة اكتسابه ؛ مستوراً عمّا خُلِق له لما يغرَى به ، إذ أسْعرَت فيه الأسقام شهابها ، وكدّرت له الأيام شرابَها ، وحوّمت عليه المنيّة عُقابها ، وأعلقَت فيه ظُفْرها ونابَها ، فسرَتْ فيه أوجاعُه ، وتنكّرت عليه طباعه ، وأظلّ رحيلُه ووداعه ؛ وقلّ عنه منعه ودفاعه ، فأصبح ذا بصرٍ حائر ، وقلب طائر ، ونَفَس غابر ، فى قطب هلاك دائر ؛ قد أيقن بمفارقة أهله ووطنه ، وأذعن بانتزاع رُوحه عن بدنه ؛ حتى إذا تحقق منه اليأس ؛ وحلّ به المحذور والبأس ، أومأ إلى خاصّ [٥] عوّاده ، موصياً لهم بأصاغر أولاده ؛ جزَعاً عليهم مِنْ ظفر أعدائه وحسّاده

---

(١) البيان : « وفانتا » .

(٢) العقد والبيان : « وسيخلفها » .

(٣) البيان والعقد : « قد خلع الأسباب » .

(٤) البيان والتبيين ٢ : ١٢٠ ، العقد لابن عبد ربه ٤ : ٩٥ .

(٥) ب : « حاضر » ، وما أثبته عن ا ، ج .

والنفس بالسِّياق تجذب، والموت بالفراق يقرب، والعيون لهول مصرعه تَسْكُب؛ والحامة عليه تعدِّد وتندب؛ حتى تجلّى له مَلَكُ الموت من حُجُبه، فقضى فيه قضاء أمر ربّه، ففاقه الجليس، وأوحش منه الأنيس، وزُوِّد من مالِه كفنا، وحصر فى الأرض بعمله مرتهنا؛ وحيداً على كثرة الجيران، بعيداً على قُرْب المكان، مقيما بين قوم كانوا فزالوا، وحوت عليهم الحادثات فحالوا؛ لا يخبرون بما إليه آلوا، ولو قدروا على المقال لقالوا، قد شربوا من الموت كأساً مُرّة، ولم يفقدوا من أعمالهم ذرّة، وآلى عليهم الدهر أليّةً برّة، ألا يجعل لهم الدنيا كرّة، كأنهم لم يكونوا للعيون قُرّة، ولم يُعَدُّوا فى الأحياء مرّة، أسكتهم الذى أنطقهم، وأبادهم الذى خلقهم وسيوجِدهم كما خلقهم، ويجمعهم كما فرّقهم، يوم يُعيد الله العالمين خَلقا جديدا، ويجعل الله الظالمين لنار جهنم وقودا: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ﴾ (١) .

---

(١) سورة آل عمران ٣٠

(٦٤)

الأصلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَسْبِقْ لَهُ حَالٌ حَالًا ، فَيَكُونَ أَوَّلًا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ آخِراً ، وَيَكُونَ ظَاهِراً قَبْلَ أَنْ يَكُونَ بَاطِناً ؛ كُلُّ مُسَمًّى بِالْوَحْدَةِ غَيْرَهُ قَلِيلٌ ، وَكُلُّ عَزِيزٍ غَيْرَهُ ذَلِيلٌ ، وَكُلُّ قَوِيٍّ غَيْرَهُ ضَعِيفٌ ، وَكُلُّ مَالِكٍ غَيْرَهُ مَمْلُوكٌ ، وَكُلُّ عَالِمٍ غَيْرَهُ مُتَعَلِّمٌ ، وَكُلُّ قَادِرٍ غَيْرَهُ يَقْدِرُ وَيَعْجِزُ ، وَكُلُّ سَمِيعٍ غَيْرَهُ يَصَمُّ عَنْ لَطِيفِ الْأَصْوَاتِ ؛ وَيُصِمُّهُ كَبِيرُهَا ، وَيَذْهَبُ عَنْهُ مَا بَعُدَ مِنْهَا ، وَكُلُّ بَصِيرٍ غَيْرَهُ يَعْمَى عَنْ خَفِيِّ الْأَلْوَانِ وَلَطِيفِ الْأَجْسَامِ ، وَكُلُّ ظَاهِرٍ غَيْرَهُ غَيْرُ بَاطِنٍ ، وَكُلُّ بَاطِنٍ غَيْرَهُ غَيْرُ ظَاهِرٍ .

لَمْ يَخْلُقْ مَا خَلَقَهُ لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ ، وَلَا تَخَوُّفٍ مِنْ عَوَاقِبِ زَمَانٍ ، وَلَا اسْتِعَانَةٍ عَلَى نِدٍّ مُثَاوِرٍ ، وَلَا شَرِيكٍ مُكَاثِرٍ ، وَلَا ضِدٍّ مُنَافِرٍ ، وَلَكِنْ خَلَائِقُ مَرْبُوبُونَ ، وَعِبَادٌ دَاخِرُونَ ، لَمْ يَحْلُلْ فِي الْأَشْيَاءِ فَيُقَالَ : هُوَ فِيهَا كَائِنٌ ، وَلَمْ يَنْأَ عَنْهَا فَيُقَالَ : هُوَ مِنْهَا بَائِنٌ .

لَمْ يَؤُدْهُ خَلْقُ مَا ابْتَدَأَ ، وَلَا تَدْبِيرُ مَا ذَرَأَ ، وَلَا وَقَفَ بِهِ عَجْزٌ عَمَّا خَلَقَ ، وَلَا وَلَجَتْ عَلَيْهِ شُبْهَةٌ فِيمَا قَضَى وَقَدَّرَ ، بَلْ قَضَاءٌ مُتْقَنٌ ، وَعِلْمٌ مُحْكَمٌ ، وَأَمْرٌ مُبْرَمٌ ، الْمَأْمُولُ مَعَ النِّقَمِ ، الْمَرْهُوبُ مَعَ النِّعَمِ .

● ● ●

الشرح :

يَصَمّ ، بفتح الصاد ، لأنّ الماضي « صَمِمْتَ » يا زيد ، والصَّمَم : فساد حاسّة السمع ، ويصِمه بكسرها ؛ يحدث الصَّمَم عنده ، وأصممت زيداً .

والنِّد : المِثل والنظير . والمثاور : المواثب . والشريك المكاثر : المفتخر بالكثرة . والضدّ المنافر : المحاكم فى الحسب ، نافرت زيدا فنفَرْته ، أى غلبته . ومربوبون : مملوكون وداخرون : ذليلون خاضعون .

ولم يَنْأ : لم يبعُد . ولم يؤده : لم يتعبه . وذرأ : خلَق ، وَوَلجت عليه الشبهة ، بفتح اللام ، أى دخلت . والمرهوب : المخوف .

فأما قوله : « الذى لم يسبق له حال حالا ، فيكون أوّلا قبل أن يكون آخرا » ، فيمكن تفسيرُه على وجهين :

أحدُهما : أنّ معنى كونه أولا أنه لم يزَلْ موجودا ، ولا شىء من الأشياء بموجود[١] أصلا ؛ ومعنى كونه آخرا أنه باقٍ لا يزال ، وكلّ شىء من الأشياء يُعدَم عدماً محْضاً حسب عدمه فيما مضى ، وذاته سبحانه ذاتٌ يجب لها اجتماعُ استحقاق هذين الاعتبارين معا فى كلّ حال ، فلا حال قطّ إلا ويصدق على ذاته أنه[٢] يجب كونها مستحقّة للأوليّة والآخرية بالاعتبار المذكور استحقاقا ذاتيا ضروريا ، وذلك الاستحقاق ليس على وجه وصف الترتيب ؛ بل مع خلاف غيره من الموجودات الجسمانية ؛ فإنّ غيره مما يبقى زمانَين فصاعدا إذا نسبناه إلى ما يبقى دون زمان بقائه لم يكن استحقاقه الأوليّة والأخريّة بالنسبة إليه على هذا الوصف ؛ بل إمّا يكون استحقاقاً بالكلية ؛ بأن يكون استحقاقا قريبا ، فيكون إنما يصدُق عليه أحدُهما ، لأنّ الآخر لم يصدق عليه ؛ أو يكونا معاً يصدقان عليه مجتمعين غير مرتّبين ؛ لكن ليس ذلك لذات الموصوف بالأوليّة والآخرية ، بل إنما ذلك الاستحقاق لأمرٍ خارج عن ذاته .

الوجه الثانى : أن يريدَ بهذا الكلام أنه تعالى لا يجوز أن يكون موردا للصفات المتعاقبة ؛ على مايذهب إليه قوم من أهل التوحيد ؛ قالوا : لأنه واجبٌ لذاته ، والواجب لذاته

(١) ا ، ب : « موجود » .

(٢) ساقطة من ب .

واجب من جميعِ جهاته ؛ إذْ لو فرضنا جواز اتصافه بأمرٍ جديد ثبوتيّ أو سلبي لقلنا : إن ذاته لا تكفِي فى تحقّقه ، ولو قلنا ذلك لقلنا إنّ حصول ذلك الأمر ، أو سلبه عنه ، يتوقّف على حصول أمرٍ خارجٍ عن ذاته ؛ أو على عدم أمر خارج عن ذاته ؛ فتكون ذاته لا محالةَ متوقّفة على حضور ذلك الحصول أو السلب ، والمتوقف على المتوقف على الغير متوقّف على الغير ، وكلّ متوقّف على الغير ممكن ، والواجب لا يكون ممكنا . فيكون معنىَ الكلام على هذا التفسير نفىَ كونه تعالى ذا صفة ، بكونه أولا وآخرا ، بل إنمّا المرجع بذلك إلى إضافات لا وجودَ لها فى الأعيان ، ولا يكون ذلك من أحوال ذاته الراجعة إليها كالعالمية ونحوها، لأنّ تلك أحوال ثابتة ، ونحن إنما ننفى عنه بهذه الحجة[1] الأحوالَ المتعاقبة .

وأما قوله : « أو يكون ظاهرا قبل أن يكون باطنا » ، فإنّ للباطن والظاهر تفسيرا على وجهين :

أحدها : أنه ظاهر بمعنى أنّ أدلة وجوده وأعلام ثبوته وإلهيته جليّة واضحة ، ومعنى كونه باطنا أنه غير مدرَك بالحواسّ الظاهرة ، بل بقوة أخرى باطنة ؛ وهى القوة العقلية .

وثانيهما : أنّا نعنى بالظاهر الغالب ؛ يقال : ظَهر فلانٌ على بنى[2] فلان ، أى غلَبَهم ، ومعنى الباطن العالم ، يقال : بطنْت سرّ فلان ، أى علِمتُه ، والقول فى نفيه عنه سبحانه أن يكون ظاهرا قبل كونه باطنا ، كالقول فيما تقدّم من نفيه عنه سبحانه كونه أوّلا قبل كونه آخرا .

وأما قوله : « كلّ مسمّى بالوحدة غيره قليل » ، فلأنّ الواحد أقلّ العدد ، ومعنى كونه واحداً يبُاينِ ذلك ، لأنّ معنى كونه واحدا إما نفى الثانى فى الإلٰهية ، أو كونه يستحيل عليها الانقسام ، وعلى كلا التفسيرين يُسلَب عنها مفهوم القلة .

هذا إذا فسرنا كلامه على التفسير الحقيقىّ ، وإن فسرناه على قاعدة البلاغة وصناعة

---

(١) ب : « بجحد » ، تحريف .

(٢) ج : « أبناء » .

الخطابة ، كان ظاهرا ، لأن الناس يستحقرون القليل لقلته ، ويستعظمون الكثير لكثرته، قال الشاعر .

تجمّعتمُ من كلّ أوبٍ ووجهةٍ   على واحدٍ لازلتمُ قِرْنَ واحدِ

وأما قوله: « وكلّ عزيز غيره ذليل » فهو حقّ ، لأن غيره من الملوك وإن كان عزيزا فهو ذليل فى قبضة القضاء والقدر ، وهذا هو تفسير قوله : « وكلّ قوى غيره ضعيف ، وكل مالك غيره مملوك » .

وأما قوله : « وكلّ عالم غيره متعلم » فهو حقّ ، لأنه سبحانه مفيضُ العلوم على النفوس، فهو المعلّم الأوّل ، جلّت قدرته .

وأما قوله: « وكلّ قادرٍ غيره يقدر ويعجز» فهو حقّ ، لأنه تعالى قادر لذاته ، ويستحيل عليه العجز ، وغيره قادر لأمر خارج عن ذاته ، إما لقدرة، كما قاله قوم ، أو لبنية وتركيب كما قاله قوم آخرون ، والعجز على مَنْ عداه غير ممتنع ، وعليه مستحيل .

وأما قوله عليه السلام : « وكلّ سميع غيره يَصَمّ عن لطيف الأصوات ، ويصمّه كبيرها ويذهب عنه مابعد منها » فحقّ ،لأن كلّ ذى سَمْع من الأجسام يضعُف سمعه عن إدراك خَفِىِّ الأصوات، ويتأثر من شديدها وقويها، لأنه يسمع[1] بآلة جسمانية ، والآلة الجسمانية ذات قوة متناهية واقفة عند حدّ محدود ، والبارى تعالى بخلاف ذلك .

***

واعلم أنّ أصحابنا اختلفوا فى كونه تعالى مدرِكاً للمسموعات والمبصرات ، فقال شيخنا أبو علىّ وأبو هاشم وأصحابهما: إنّ كونه مدركا صفة زائدة على كونه عالما ، وقالا: إنا نصف البارى تعالى ـ فيما لم يزل ـ بأنه سميع بصير ،ولا نِصفُه بأنه سامع مبصر ، ومعنى كونه سامعاً مبصراً أنه مدرِك للمسموعات والمبصرات .

---

(١) ب : « لا يسمع » ، تحريف .

وقال شيخنا أبو القاسم وأبو الحسين وأصحابهما: إنّ معنى كونه تعالى مُدْرِكاً، هو أنه عالم بالمدرَكات؛ ولا صفة له زائدة على صفته بكونه عالما؛ وهذا البحث مشروح فى كتبى الكلامية لتقرير الطريقين وفى " شرح الغرر[١] " وغيرهما.

والقول فى شرح قوله: « وكلّ بصير غيره يعمى عن خفىّ الألوان، ولطيف الأجسام »، كالقول فيما تقدّم فى إدراك السّمع.

وأما قوله: « وكلُّ ظاهرٍ غيره غير باطن، وكلّ باطن غيره غير ظاهر » فحقّ، لأن كلّ ظاهر غيره على التفسير الأول فليس بباطن كالشمس والقمر وغيرهما من الألوان الظاهرة، فإنّها ليست إنّما تدرَك بالقوة العقليّة؛ بل بالحواسّ الظاهرة، وأمّا هو سبحانه فإنّه أظهرُ وجوداً من الشمس، لكنّ ذلك الظهور لم يمكن إدراكه بالقُوى الحاسة الظاهرة، بل بأمرٍ آخر، إمّا خفىٌّ فى باطن هذا الجسد، أو مفارق ليس فى الجسد ولا فى جهة أخرى غير جهة الجسد.

وأما على التفسير الثانى؛ فلأنّ كلّ مَلِكٍ ظاهر على رعيّته أو على خصومه وقاهر لهم، ليس بعالم ببواطنهم، وليس مطّلعا على سرائرهم، والبارئُ تعالى بخلاف ذلك؛ وإذا فهمتَ شرح القضيّة الأولى، فهمت شرح الثانية، وهى قوله: « وكلّ باطن غيره غير ظاهر ».

***

[اختلاف الأقوال فى خلق العالم]

فأما قوله: « لم يخلق ماخلقه لتشديد سلطانه » إلى قوله: « عباد داخرون »، فاعلم أنّ

---

(١) هو شرح مشكلات الغرر لأبى الحسين البصرى.

الناس اختلفوا فى كمية خلقه تعالى للعالم ماهى ؟ على أقوال :

القول الأول : قول الفلاسفة :

قال محمد بن زكريا الرازىّ عن[1] أرسطاطاليس : إنه زعم أن العالم كان عن البارئ تعالى ، لأنّ جوهرَه وذاته جوهر وذات مسخرة للمعدوم أن يكون مسخرا موجودا .

قال : وزعم ابن قيس أنّ علة وجود العالم وجود البارئ .

قال : وعلى كلاَ القولين يكون العالم قديما ؛ أما على قول أرسطو فلأنّ جوهر ذات البارئ لما كان قديما لم يزَل،وجب أن يكون أثرها ومعلولها قديما.وأمّا على قول ابن قيس فلأنّ البارئ موجود لم يزل ؛ لأن وجوده من لوازم ذاته،فوجب أن يكون فيضُه وأثرُه أيضا لم يزل هكذا .

قال ابن زكريا: فأمّا الذى يقول أصحاب أرسطا طاليس الآن فى زماننا ، فهوأنّ العالم لم يجب عن الله سبحانه عن قصد ولا غرض ، لأنّ كلّ مَنْ فعل فعلا لغرض كان حصول ذلك الغرض له أولى من لا حصوله ، فيكون كاملا لحصول ذلك الغرض ، وواجب الوجود لا يجوز أن يكون كاملاً بأمر خارج عن ذاته ، لأنّ الكامل لامن ذاته ناقص من ذاته .

قالوا : لكن تمثُّل نظام العالم فى علم واجب الوجود ، يقتضى فيضَ ذلك النظام منه، قالوا : وهذا معنى قول الحكماء الأوائل : إنّ علمه تعالى فعلىّ لا انفعالى ؛ وإن العلم على قسمين :

أحدهما : مايكون المعلوم سبباً له ، والثانى مايكون هو سبب المعلوم ؛ مثالُ الأول أنْ نشاهد صورة فنعلَمها ، ومثال الثانى أن يتصوّر الصائغ أو النجار أو البنّاء كيفيّة العمل فيوقعه فى الخارج على حسب ماتصوّره .

---

(١) ب : « على » .

قالوا : وعلمه تعالى من القسم الثانى ، وهذا هو المعنى المعبّر عنه بالعناية ، وهو إحاطة علم الأول الحق سبحانه بالكل وبالواجب أن يكون عليه الكل ، حتى يكون على أحسن النظام ، وبأن ذلك واجب عن إحاطته فيكون الموجود وفق المعلوم من غير انبعاث قصد وطلب عن الأول الحق سبحانه ، فعلمهُ تعالى بكيفية الصواب فى ترتيب الكل هو المنبع لفيضان الوجود فى الكل .

القول الثانى : قولٌ حكاه أبو القاسم البلخى عن قدماء الفلاسفة ، وإليه كان يذهب محمد بن زكريا الرازى من المتأخرين .

وهو أن علة خلق البارئ للعالم تنبيه النفس على أن ماتراه من الهيولى وتريده غير ممكن لترفض محبّتها إياها وعشقها لها ، وتعود إلى عالمها الأول غير مشتاقة إلى هذا العالم .

واعلم أن هذا القول هو القول المحكى عن الحرنانية[1] أصحاب القدماء الخمسة ، وحقيقة مذهبهم إثبات قدماء خمسة : اثنان منهم حيّان فاعلان ؛ وهما البارئ تعالى والنفس ، ومرادهم بالنفس ذات هى مبدأ لسائر النفوس التى فى العالم كالأرواح البشرية ، والقوى النباتية والنفوس الفلكيّة ، ويسمّون هذه الذات النفس الكليّة . وواحد من الخمسة منفعل غير حى ؛ وهو الهيولى ، واثنان لا حيّان ولا فاعلان ولا منفعلان ، وهما الدهر والقضاء . قالوا : والبارئ تعالى هو مبدأ العلوم والمنفعلات ، وهو قائم العلم والحكمة ، كما أن النفس مبد الأرواح والنفوس ؛ فالعلوم والمنفعلات تفيض من البارئ سبحانه فيض النور عن قرص الشمس ، والنفوس والأرواح تفيض عن النفس الكليّة فيض النور عن القرص ، إلا أن النفوس جاهلة لا تعرف الأشياء إلا على أحد[2] وجهين : إمّا أن يفيض فيض البارئ تعالى عليها تعقّلاً وإدراكاً ، وإما أن تمارس غيرها وتمازجه ، فتعرف ماتعرف باعتبار الممارسة والمخالطة معرفة ناقصة ، وكان البارئ تعالى فى الأزل عالما بأن النفس تميل إلى التعلّق بالهيولى

---

(١) الحرنانية : جماعة من الصابئة قالوا : إن الصانع المعبود واحد وكثير . . . وانظر الملل والنحل للشهرستانى ٢ : ٥٨ .

(٢) ساقطة من ب .

وتعشقها ، وتطلب اللذة الجسمانية ، وتكره مفارقة الأجسام ، وتنسى نفسها ، ولما كان البارئ سبحانه قائمَ العلم والحكمة ، اقتضت حكمتُه تركّب الهيولى لما تعلّقت النفس بها ضروبا مختلفة من التراكيب ، فجعل منها أفلاكاً وعناصر وحيوانات ونباتات ، فأفاضَ على النفوس تعقّلا وشعوراً جعله سبباً لتذكُّرِها عالمها الأول ، ومعرفتها أنها ما دامت فى هذا العالم مخالطة للهيولى لم تنفكّ عن الآلام ، فيصير ذلك مقتضيا شوقها إلى عالمها الأوّل الذى لما فيه اللذات الخالية عن الآلام ، ورفضها هذا العالم الذى هو سبب أذاها ومضرّتها .

***

القول الثالث : قول المجوس : إنّ الغرَضَ من خلق العالم أن يتحصّن الخالق جلّ اسمُه من العدوّ ، وأنْ يجعلَ العالم شبكةً له ليوقع العدوّ فيه ، ويجعله فى ربُط ووِثاق ، والعدوّ عندهم هو الشيطان ، وبعضُهم يعتقِد قِدَمَه ، وبعضهم حدوثه .

قال قوم منهم : إن البارئ تعالى استوحش ، ففكّر فكرةً رديئة ، فتولّد منها الشيطان .

وقال آخرون : بل شكّ شكاً رديئاً ، فتولّد الشيطان من شَكّه .

وقال آخرون : بل تولّد من عفونة رديئة قديمة ، وزعموا أنّ الشيطان حارب البارئ سبحانه ، وكان فى الظلم لم يزل بمعزل عن سلطان البارئ سبحانه ، فلم يزل يزحفُ حتى رأى النور ، فوثب وثبةً عظيمة ، فصار فى سلطان الله تعالى فى النور ، وأدخل معه الآفات والبلايا والسرور ، فبنى الله سبحانه هذه الأفلاك والأرض والعناصر شبكةً له ، وهو فيها محبوس ، لا يمكنه الرجوع إلى سلطانه الأوّل ، وصار فى[1] الظُلمة ، فهو أبداً يضطرب ويرمى الآفات على خلق الله سبحانه ، فمن أحياه الله رماه الشيطان بالموت ، ومن أصحّه رماه الشيطان بالسّقم ، ومن سرّه رماه بالحزن والسكآبة ، فلا يزال كذلك ، وكلّ يوم ينتقص[2] سلطانه وقوّته ، لأن الله تعالى يحتالُ له كلّ يوم ، ويضعفه إلى أن تذهب قوّته كلها ،

(١) ج : « والظلمة » .

(٢) ج : « ينقص » .

وتجمُد وتصير جماداً لا حراك به ؛ فيضمه الله تعالى حينئذ فى الجوّ ، والجوّ عندهم هو الظُّلمة ؛ ولا منتهى له ؛ فيصير فى الجوّ جماداً جامداً هوائيًا ، ويجمع الله تعالى أهلَ الأديان فيعذّبهم بقدر مايطهّرهم ، ويصفّيهم من طاعة الشيطان ، ويغسلهم من الأدناس ، ثم يدخلهم الجنّة ؛ وهى جنة لا أ كلَ فيها ولا شرب ولا تمتع ، ولكنها موضع لذة وسرور .

***

القول الرابع : قول المانوِيّة :

وهو أن النّور لا نهاية له من جِهَة فوق ، وأمّا من جهة تحت فله نهاية ، والظلمة لانهاية لها من جهة أسفل ، وأما مِنْ جهة فوق فلها نهاية ، وكان النور والظلمة هكذا قبل خلْق العالم وبينهما فُرْجة ، وأنّ بعضَ أجزاء النور اقتحم تلك الفُرْجة لينظر إلى الظلمة ، فأسرَتْه[1] الظلمة ، فأقبل عالم كثير من النور ، فحارب الظلمة ليستخلص المأسورين من تلك الأجزاء ، وطالت الحرب ، واختلط كثير من أجزاء النور بكثير من أجزاء الظلمة ، فاقتضت حكمةُ نور الأنوار — وهو البارئ سبحانه عندهم — أن عمِل الأرضَ من لحوم القتلى ، والجبال من عظامهم ،والبحار من صديدهم ودمائهم ، والسماء من جُلودهم ، وخلق الشمس والقمر وسيّرهما ؛ لاستقصاء مافى هذا العالم من أجزاء النور المختلطة بأجزاء الظلمة ، وجعل حول هذا العالم خندقاً خارج الفَلَك الأعلى ، يطرح فيه الظلام المستقصَى ، فهو لا يزال يزيد ويتضاعف ويكثر فى هذا الخَنْدق ، وهو ظلام صِرْف قد استقصى نورَه . وأما النور المستخلص فيلحق بعد الاستقصاء بعالم الأنوار من فوق، فلا تزال الأفلاكُ متحركة ، والعالم مستمراً إلى أن يتمّ استقصاء النور الممتزج ؛ وحينئذ يبقى من النور الممتزج شىء يسير ، فينعقد بالظلمة ؛ لا تقدر النيران على استقصائه ، فعند ذلك تسقط الأجسام العالية — وهى الأفلاك — على الأجسام السافلة — وهى الأرضون — وتثور نار ، وتضطرم فى تلك الأسافل

(١) : ج « فأشرقت » تصحيف .

وهى المسّماة بجهنّم ، ويكون الاضطرام مقدار ألف وأربعمائة سنة ، فتحلّل بتلك النار تلك الأجزاء المنعقدة من النّور ، الممتزجة بأجزاء الظلمة التى عجز الشمس والقمر عن استقصائها ، فيرتفع إلى عالم الأنوار ، ويبطل العـالم حينئذ ؛ ويعود النور كلّه إلى حاله الأولى قبل الامتزاج ؛ فـكذلك الظلمة .

***

القول الخامس : قول متكلّمى الإسلام .

وهو على وجوه :

أوّلها قول جمهور أصحـابنا : إن الله تعالى إنما خلَق العالم للإحسان إليهم والإنعام على الحيوان ؛ لأن خلقه حيّاً نعمة عليه ، لأنّ حقيقة النعمة موجودة فيه ، وذلك أنّ النعمة هى المنفعة المفعولة للإحسان ، ووجود الجسم حيّاً منفعة مفعولة للإحسان ؛ أما بيانُ كون ذلك منفعة ؛ فلأنّ المنفعةَ هى اللذة والسرور ودفع المضارّ المخوّفة ؛ وما أدّى إلى ذلك وصحّحه ، ألا ترى أنّ مَنْ أشرَفَ على أن يهوِىَ من جبل ؛ فمنعه بعضُ الناس من ذلك ؛ فإنه يكون منعماً عليه ، ومَنْ سرّ غيره بأمر ، وأوصل إليه لذة ، يكون قد أنعم عليه ، ومَنْ دفع إلى غيره مالاً يكونُ قد أنعم عليه ، لأنه قد مكّنه بدفعه إليه من الانتفاع ، وصحّحه له . ولا ريب أنّ وجودَنا أحياء يصححّ لنا اللذات ، ويمكّننا منها ، لأنّا لو لم نـكن أحياء لم يصحّ ذلك فينا . قالوا : وإنما قُلنا إنّ هذه المنفعة مفعولة للإحسان ، لأنها إما أن تـكون مفعولة لا لغرض أو لغرض ، والأول باطل ، لأن ما يُفعل لا لغرض عبثٌ ، والبارىْ سبحانه لا يصحّ أن تـكون أفعاله عبثاً ، لأنه حكيم .

وأما الثانى ؛ فإمّا أن يكون ذلك الغرض عائداً عليه سبحانه بنفع أو دفع ضرر ، أو يعود على غيره . والأوّل باطل ؛ لأنه غنى لذاته ؛ يستحيل عليه المنافع والمضارّ ؛ ولا يجوز أن يفعله لمضرّة يوصّلها إلى غيره ؛ لأنّ القصدَ إلى الإضرار بالحيوان من غير استحقاق ولا منفعة يوصَل إليها بالمضرّة قبيح ، تعالى الله عنه ! فثبت أنّه سبحانه إنما خلق الحيوانَ

لنفعه ، وأما غيرُ الحيوان فلو لم يفعله لينفعَ به الحيوان ، لكان خَلْقه عبثا ، والبارئ تعالى لا يجوز عليه العبَث ؛ فإذاً جميعُ ما فى العالم إنما خلقه لينفعَ به الحيوان .

فهذا هو الكلامُ فى علّة خَلْق العالم عندهم ؛ وأما الكلام فى وجه حُسْن تكليف الإنسان ؛ فذاك مقام آخر لسنا الآن فى بيانه ولا الحاجة داعية إليه .

وثانيها : قول قوم من أصحابنا البغداديّين : إنه خلَق الخلْق ؛ ليُظهِرَ به لأربابِ العقول صفاتِه الحميدة ، وقدرتَه على كلّ ممكن ، وعلمَه بكلٍّ معلوم ؛ وما يستحقّه من الثناء والحمد . قالوا : وقد ورد الخبر أنه تعالى قال : « كنتُ كنزا لا أُعرَف ، فأحببت أن أُعرَف » ؛ وهذا القول ليس بعيدا .

وثالثها : للمجبِرة : إنه خلق الخلْق لا لغرض أصلا ؛ ولا يقال[1] : لم كان كلّ شىء لعلة ، ولا علة لفعله ؛ ومذهب الأشعرىّ وأصحابه أن إرادتَه القديمة تعلّقت بإيجاد العالم فى الحال التى وجد فيها لذاتها ؛ ولا لغرض ولا لداع ؛ وما كان يجوز ألا يوجد العالم حيث وُجد ، لأن الإرادة القديمة ، لا يجوز أنْ تتقلّب وتتغيّر حقيقتها ؛ وكذلك القول عندهم فى أجزاء العالم المجدّدة من الحركات والسكنات ، والأجسام وسائر الأعراض .

ورابعها : قولِ بعضِ المتكلّمين : إنّ البارئ تعالى إنما فعل العالم لأنه ملتذٌّ بأنْ يفعل ، وأجاز أربابُ هذا القول عليه اللّذة والسرور والابتهاج . قالوا : والبارئ ـ سبحانه ـ وإن كان قبل أن يخلق العالم ملتذًّا بكونه قادرا على خَلْق العالم ـ إلّا أن لذة الفعل أقوى من لذة القدرة على الفعل ؛ كأن يلتذّ بأنه قادر على أن يكتُبَ خطا مستحسنا ، أو يبنىَ بيتا محكما ، فإنه إذا أخرج تلك الصناعةَ من القوّة إلى الفعل ، كانت لذته أتمّ وأعظم . قالوا : ولم يثبت بالدليل العقلىّ استحالة اللّذة عليه ؛ وقد ورد فى الآثار النبوية أنّ الله تعالى يُسَرّ ؛ واتفقت الفلاسفة على أنه ملتذّ بذاته وكماله .

---

(١) كذا فى ج ، وفى ا : « قالوا » .

وعندى فى هذا القولِ نظر ؛ ولى فى اللذة والألم رسالة مفردة ؛ وأما قوله : «لم يحلُل فى الأشياء، فيقال : لا هو فيها كائن ولا منها مباين »، فينبغى أن يحمَل على أنه أراد أنه لم ينأ عن الأشياء نأياً مكانيا فيقال : هو بائن بالمكان ، هكذا ينبغِى أن يكون مراده ؛ لأنه لا يجوز إطلاقُ القول بأنّه ليس ببائن عن الأشياء ؛ وكيف والمجرّد بالضرورة بائن عن ذى الوضع ؛ ولكنها بينونة بالذات لا بالجهة ، والمسلمون كلُّهم متفقون على أنّه تعالى يستحيلُ أن يحُلّ فى شىء إلا مَن اعتزَى إلى الإسلام من الحلوليّة ، كالذين قالوا بحلوله فى علىّ وولده ، وكالذين قالوا بحلُوله فى أشخاص يعتقدون فيها إظهاره كالحلّاجيّة وغيرهم ؛ والدليلُ على استحالةِ حلُوله سبحانه فى الأجسام ؛ أنّه لو صح أن يحُلّ فيها لم يعقل منفردا بنفسه أبدا ؛ كما أنّ السواد لا يعقل كونه غير حالّ فى الجسم ؛ لأنه لو يعقل غير حالّ فى الجسم لم يكن سواداً ، ولا يجوز أن يكون الله تعالى حالًا أبدا ؛ ولا أن يلاقِىَ الجسم ؛ إذ ذلك يستلزم قدمَ الأجسام ؛ وقد ثبت أنها حادثة .

***

فأمّا قوله : « لم يؤدْهُ خَلق ما ابتدأ » إلى قوله : « عمّا خَلق » فهو حقّ ، لأنه تعالى قادر لِذاته ، والقادر لذاته لا يتعب ولا يعجز ؛ لأنه ليس بجسم ؛ ولا قادر بقدرة يقف مقدورها عند حَدّ وغاية ؛ بل إنما يقدر على شىء لأنه تعالى ذات مخصوصة ، يجب لها أن تقدر على الممكِنات ؛ فيكون كلّ ممكن داخلا تحت هذه القضيّة الكلية ؛ والذات التى تكون هكذا لا تعجَز ولا تقف مقدوراتها عند حَدّ وغاية أصلا ؛ ويستحيل عليها التعب ، لأنها ليستْ ذات أعضاء وأجزاء .

وأما قوله : « ولا وَلجتْ عليه شُبهَة » إلى قوله : « وأمر مُبْرَم » فحقّ ؛ لأنه تعالى عالم لذاته ؛ أى إنما عَلِم ماعلمه لا بمعنى أن يتعلّق بمعلوم دون معلوم ؛ بل إنما علم أىّ شىء أشرت إليه ، لأنه ذات مخصوصة ؛ ونسبة تلك الذات إلى غير ذلك الشىء المشار إليه ،

كنسبتها إلى المشار إليه ، فكانت عالمة بكلٍّ معلوم ؛ واستحال دخول الشبهة عليها فيما يقضيه ويقدّره .

وأما قوله : «المأمول مع النِّقم،المرهوب مع النعم» ؛فمعنى لطيف،وإليه وقعت الإشارة بقوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۞ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [1] ، وقوله سبحانه : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [2] ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۞ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [3] ، وقوله سبحانه : ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [4] وإليه نظر الشاعر فى قوله :

مَنْ عَاشَ لَاقَى مَايَسُو ... ءُ مِنَ الْأُمورِ وَمَا يَسُرْ
وَلَربَّ حتفٍ فوقَــه ... ذَهبٌ وياقوتٌ ودُرْ

وقال البحترى :

يَسُرُّكَ الشَّىءُ قَدْ يَسُوءُ وَكَمْ ... نَوَّهَ يَوماً بِخَامِــلٍ لَقَبُهْ
لَا يَيْئس المرءُ أن ينجّيَــهُ ... مَايَحْسِبُ النــاسُ أنه عطبُهْ

وقال آخر :

رُبَّ غَمٍّ يَدِبُّ تَحْتَ سُرُورِ ... وَسُرُورٍ يأْتِى مِنَ الْمَحْــذُورِ

وقال سعيد بن حُميد :

كم نعمـــةٍ مطويةٍ ... لكَ بَيْنَ أثنـاءِ النوائبْ [5]

---

(١) سورة الأعراف ٧٩ .
(٢) سورة الأعراف ١٨٢
(٣) سورة الشرح ٦٥ .
(٤) سورة النساء ١٩ .
(٥) شرح المختار من شعر بشار ص ٣١٤ ، من غير نسبة .

وَمَسَرَّةٍ قَدْ أَقْبَلَتْ مِنْ حَيْثُ تُنْتَظَرُ المصائبْ

وقال آخر :

أنتظِرُ الرَّوْحَ وأسبابَهُ أيئسَ ما كنتُ من الرَّوْحِ

وقال آخر :

رُبَّمَا تَجْزَعُ النُّفُوسُ مِنَ الأَمْـرِ لَهُ فَرْجَـةٌ كَحَلِّ العِقَالِ[(١)]

وقال آخر :

العسْرُ أَكْرِمُه ليسرٍ بعـدَهُ ولأجل عَيْنٍ أَلفُ عَيْنٍ تُـكْرَمُ
والمرء يكرهُ يومَهُ ولعـلَّه يأتيه فيـهِ سَعَادَةٌ لَا تَعْلَمُ

وقال الحلاج :

وَلَرُبَّمـا هَاجَ الـكبـيرَ من الأمور لك الصغيرُ
ولرُبَّ أمرٍ قـد تضيـقُ به الصُّدور ولا يصيرُ

وقال آخر :

ياراقِدَ الليـل مسروراً بأوّله إنّ الحوادث قَدْ يَطْرُقْنَ أسحارَا

وقال آخر :

كم مرّةٍ حُفَّت بك المكارِهْ خارَ لَكَ اللهُ وَأنتَ كارِهْ

ومن شعرى الذى أناجى به البارئَ سبحانه فى خلَواتى ، وهو فنّ أطويه وأكتمه عن النـاس ؛ وإنمـا ذكرتُ بعضَه فى هـذا الموضع ، لأن المعنى ساق إليـه ، والحديث ذو شجون :

يامَنْ جفَانِى فَوَجْدِى بَعْدَهُ عَدَمُ هَبْنِى أسأتُ فأينَ العفوُ والكَرَمُ !

---

(١) لأمية بن أبى الصلت ، اللسان ٣ : ١٦٦ .

أنا المرابطُ دونَ الناس فاجفُ وَصلْ — واقبلْ وَعاقِبْ وحاسِبْ لَسْتُ أنهزمُ
إنَّ المحبَّ إذا صَحَّتْ محبتُهُ — فما لوقعِ المواضِي عِنْدَهُ ألَمُ
وَحَقِّ فَضلِكَ ما استيأستُ مِن نِعَم — تسرِي إليَّ وإنْ حَلّتْ بِيَ النِّقَمُ
ولا أمِنتُ نَكالًا منك أرْهَبُهُ — وإنْ ترادفَتِ الآلاءُ والنِّعَمُ
حاشاكَ تُعرض عمَّنْ في حشاشَتِهِ — نارُ الحبِّ طُولَ الدَّهْرِ تضطرمُ
ألم تقل إنَّ مَنْ يدنو إليَّ قَدْرَ الذِ — راع أدنو له باعًا وأبتَسِم(١)
والله والله لو عاقبتَنِي حُقُبًا — بالنَّار تأكُلُنِي حطما وتلتهمُ
ما حُلْتُ عن حبِّك الباقي فليس على — حالٍ بمنصرمٍ، والدهر ينصرمُ

---

(١) كذا ورد البيت مضطرب الوزن فى الأصول.

(٦٥)

الأصْلُ

ومن كلام له عليه السلام كان يقوله لأصحابه في بعض أيام صفين:

مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ ! اسْتَشْعِرُوا الْخَشْيَةَ ، وَتَجَلْبَبُوا السَّكِينَةَ ، وَعَضُّوا عَلَى النَّوَاجِذِ، فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ . وَأَكْمِلُوا اللَّأْمَةَ ، وَقَلْقِلُوا السُّيُوفَ فِي أَغْمَادِهَا قَبْلَ سَلِّهَا . وَالْحَظُوا الْخَزْرَ ، وَاطْعُنُوا الشَّزْرَ ، وَنَافِحُوا بِالظُّبَا ، وَصِلُوا السُّيُوفَ بِالْخُطَا .

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ بِعَيْنِ اللهِ، وَمَعَ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللهِ . فَعَاوِدُوا الْكَرَّ ، وَاسْتَحْيُوا مِنَ الْفَرِّ ؛ فَإِنَّهُ عَارٌ فِي الْأَعْقَابِ ، وَنَارٌ يَوْمَ الْحِسَابِ . وَطِيبُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ نَفْساً، وَامْشُوا إِلَى الْمَوْتِ مَشْياً سُجُحاً ، وَعَلَيْكُمْ بِهٰذَا السَّوَادِ الْأَعْظَمِ ، وَالرِّوَاقِ الْمُطَنَّبِ ، فَاضْرِبُوا ثَبَجَهُ ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ كَامِنٌ فِي كِسْرِهِ ، وَقَدْ قَدَّمَ لِلْوَثْبَةِ يَداً ، وَأَخَّرَ لِلنُّكُوصِ رِجْلاً .

فَصَمْداً صَمْداً ! حَتَّى يَنْجَلِيَ لَكُمْ عَمُودُ الْحَقِّ؛ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ ، وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ .

الشَّرحُ :

قوله : « استشعروا الخشية » ، أي اجعلوا الخوفَ من الله تعالى من شعاركم ؛ والشِّعار من الثياب : مايكون دون الدِّثار ، وهو يلي الجلد ؛ وهو ألصق ثياب الجسد ؛ وهذه استعارة حسَنة ، والمراد بذلك أمرهم بملازمة الخشية والتقوى ، كما أنّ الجلد يلازم الشِّعار.

قوله : « وتجلببوا السكينة » أى اجعلوا السكينة والحلم والوقار جلبابا لكم ، والجلباب الثوب المشتمل على البدن .

قوله : « وعضوا على النواجذ » جمع ناجذ ، وهو أقصى الأضراس ، وللإنسان أربعة نواجذ فى كل شق ، والنواجذ بعد الأرحاء ، ويسمى الناجذ ضرس الحلم ، لأنه ينبت بعد البلوغ وكمال العقل ، ويقال : إن العاض على نواجذه ينبو السيف عن هامته نبوا ما ، وهذا مما يساعد التعليلُ الطبيعى عليه ، وذلك أنه إذا عض على نواجذه تصلبت الأعصاب والعضلات المتصلة بدماغه ، وزال عنها الاسترخاء ، فكانت على مقاومة السيف أقدر ، وكان تأثيرُ السيفِ فيها أقل .

وقوله : « فإنه أنبى » ، الضمير راجع إلى المصدر الذى دل الفعل عليه ، تقديره : فإن العض أنبى ؛ كقولهم : مَنْ فعل خيرا كان له خيرا ، أى كان فعله خيرا ، وأنبى « أفعل » ، من نبا السيفُ ، إذا لم يقطع .

قال الراوندى : هذا كلام ليس على حقيقته ، بل هو كناية عن الأمر بتسكين القلب وترك اضطرابه واستيلاء الرعدة عليه ، إلى أن قال : ذلك أشد إبعادا لسيف العدو عن هامتكم .

قوله : « وأكملوا اللأمة » ، اللأمة ، بالهمزة : الدرع ، والهمزة ساكنة على « فعلة » ، مثل النأمة للصوت ، وإكمالها أن يزاد عليها البيضة والسواعد ونحوها ؛ ويجوز أن يعبر باللأمة عن جميع أداة الحرب ، كالدرع والرمح والسيف ، يريد : أكملوا السلاحَ الذى تحاربون العدوَّ به .

قوله : « وقلقلوا السيوف فى أغمادها قبل سلها » ، يوم الحرب ؛ لئلا يدومَ مكثها فى الأجفان فتلحج [1] فيها فيستصعب [2] سلها وقت الحاجة إليها .

وقوله : « والحظوا الخزر » ، الخزر أن ينظرُ الإنسان بعينه ، وكأنه ينظر بمؤخرها وهى أمارة الغضب ، والذى أعرفه « الخزَر » بالتحريك ، قال الشاعر :

---

(١) لحج السيف لحجا : نشب فى الغمد ولم يخرج .

(٢) ج : « فيسهل » .

إذا تخازَرْتُ وَمَا بِى مِنْ خزَرْ ثُمّ كسرتُ الْعَيْنَ وما بى مِنْ عَوَرْ

ألفيتَنى ألوَى بعيد المستمرّ أحمِلُ ماحُمِّلْتُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرّ

فإن كان قد جاء مسكنًا فتسكينه جائز للسجعة الثانية ، وهى قوله . «واطعنوا الشَّزْر» .

والطعن شَزْراً ، هو الطَّعْن عن اليمين والشمال ، ولا يسمَّى الطعن تجاه الإنسان شَزْرا . وأكثر ماتستعمل لفظة « الشَّزْر » فى الطعن ، لما كان عن اليمين خاصة ، وكذلك إدارة الرحا . وخَزْرا وشزرا ، صفتان لمصدرين محذوفين ،تقديره :الحظوا لحظا خزْرا ،واطعُنوا طَعْنًا شزراً ، وعينُ « اطعُنوا » مضمومة ، يقال : طعنت بالرمح أطعُن ، بالضم ،وطعنت فى نسبه أطعَن ، بالفتح ، أى قدحت ، قال :

يُطَوِّفُ بى عَكبٌ فى مَعَدّ ويطعَنُ بالصُّمُلَّةِ فى قَفَيّا(١)

قوله : « نافحوا بالظبا » أى ضاربوا نَفْحة بالسيف، أى ضربة ، ونفحتِ الناقة برجلها ، أى ضربت . والظُّبا : جمع ظُبَة ، وهى طرَف السيف .

قوله : « وصلوا السيوف بالخطا » مثل قول الشاعر :

إذا قَصُرَتْ أسيافُنا كان وَصْلُهَا خُطانا إلى أعدائِنا فَنُضارِبِ(٢)

قالوا : بكسر « نضارب » لأنه معطوف على موضع جزاء الشرط ، الذى هو « إذا » .

وقال آخر :

نَصِلُ السيوفَ إذا قَصُرْنَ بخطونا يوماً ونلحقهـا إذا لَمْ تَلْحَقِ(٣)

وأنشدنِى شيخنا أبو القاسم الحسين بن عبد الله العُكْبَرِىّ ، ولم يسمّ قائله ،ووجدته بعدُ لنابغة بنى الحارث بن كعب :

إن تسألى عنّا سُمَىّ فإنه يسمُو إلى قُحَمِ العلا أدنانا(٤)

---

(١) هو المنخل اليشكرى ؛ وعكب اللخمى ، صاحب سجن النعمان بن المنذر . اللسان ٢ : ١١٨

(٢) الخزانة ٣ : ٢٤ ، ونسبه إلى الأخنس بن شهاب ، الأشباه والنظائر١ : ١٢٠، ونسبه إلى قيس ابن الخطيم .

(٣) الكامل للمبرد ١ : ١١٤ ، ونسبه إلى كعب بن مالك .

(٤) المختلف والمؤتلف للآمدى ١٩١

وتبيتُ جارتُنـا حَصاناً عَفَّةً ... تَرضى ويأخـذ حقَّه مولانا

ونقوم إنْ رَقَ المنون بسُحْرَةٍ ... لوصاة والدِنا الّذِى أوْصَانَا

أَلَّا نفرّ إذا الكتيبة أقبلت ... حَتى تدور رحاهُمُ ورحَانَا

وتَعِيشُ فى أحْلاَمِنا أشياخُنا ... مُرْداً وَمَا وَصَلَ الوجـوه لِحانا

وإذا السُّيوف قصرن طوّلها لنا ... حتّى تنـاول ماتريدُ خُطانا

وقال حُميد بن ثور الهلالىّ :

إلى أنْ نَزَلْنَا بالفضـاء وَمَالَنَا ... به مَعْقِـلٌ إلا الرِّماح الشّوَاجِرُ (١)

وَوَصْلُ الخطا بالسَّيف والسَّيفِ بالخطا ... إذا ظُنّ أنّ المرء ذَا السَّيف قاصِرُ (٢)

وهذه الأبيات من قطعة لحميد جيدة ، ومن جملتها :

قَضَى الله فى بعض المكاره لِلْفَتَى ... برشـدٍ وَفِي بَعْضِ الْهَوَى مايُحاذِرُ

أَلمْ تَعلَمِى أنّى إذا الإلْفُ قادَنِى ... إلى الجوْر لا أنقادُ ، والإلف جائرُ (٣)

وقد كنتُ فِي بَعْضِ الصَّبَاوة أتّقى ... أموراً وأخشَى أن تدُور الدّوَائرُ

وأعـلَمُ أنى إن تَغطَّيْتُ مَرّةً ... من الدّهر مكشوفٌ غِطائى فنَاظِرُ

ومن المعنى الذى نحن فى ذكره،ماروى أنّ رجلا من الأزد،رفع إلى المهلّب سَيْفاً له فقال : ياعمّ ، كيف ترى سيفى هذا ؟ فقال : إنه لجيد لولا أنه قصير ؛ قال : أطوّله ياعمّ بخطوتى؛فقال : والله يابن أخى، إن المَشى إلى الصِّين أو إلى أذرَبيجَان على أنياب الأفاعى أسهل من تلك الخُطوة ؛ ولم يقل المهلّب ذلك جبناً ، بل قال ماتوجبه الصورة إذ كانت

---

(١) ديوانه ٨٧ ـ ٨٩ ، من قصيدة مطلعها :

عفَا مِنْ سُلَيْمَى ذو سَدِيرٍ فَنَابِرُ ... فَحَرْسٌ فأعلامُ الدَّخولِ الصَّوَادِرِ

(٢) الديوان والخزانة ٣ : ٢٤ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٦ : « أن السيف ذو السيف » .

(٣) رواية الديوان :

* سِوَى القَصْدِ لا أنقاد ، والإلف جائر *

تلك الخطوة قريبة للموت ، قال أبو سعد [1] المخزومى فى هذا المعنى :

رُبَّ نارٍ رفعتها ودُجى اللّيـل على الأرضِ مُسْبِلُ الطّيْلسان
وأمُونٍ نحرتُهـا لضيوفٍ وألوف نقدتهُنّ لجـانى [2]
وحروبٍ شهدتها جامع القلـب فلم تنكر الكُماةُ مكانى
وإذا ما الحسام كان قصيراً طوّلته إلى العـدوّ بنانى

من الناس من يرويها فى ديوانه « لجانى » بالجيم ؛ أى حملت الحمالة عنه ، ومنهم من يرويها بالحاء ، يعنى الخمّار .

ومن المعنى المذكور أوّلاً قولُ بعض الشعراء ، يمدح صخر بن عمرو بن الشريد الأسلمىّ :

إنّ ابنَ عمرو بن الشّريـدِ له نخـارٌ لا يرامُ
وحِجاً إذا عُـدِمَ الحجا وندًى إذا بَخِلَ الغمامُ
يصـلُ الحسام بخطوهِ فى الرّوع إن قَصُرَ الحسامُ

ومثله قول الراجز :

يخطو إذا ماقصر العضب الذَّكَرْ خطواً ترى منـه المنايا تبتدرْ

ومثله :

وإنا لقومٌ ما نرى القتل سُبّةً إذا مارأته عامرٌ وسَـلُولُ [3]
يقصّر ذِكْرُ الموتِ آجالَنا لنا وتَـكْرَهُهُ آجالُهم فتطولُ

ومنها :

وإن قَصُرَتْ أسيافُنا كان وَصْلُها خُطانا إلى أعدائنـا فتطولُ

(١) فى الأصول : « أبو سعيد » ، والصواب ما أثبته ، وانظر المرشح ٣٤٧ ، واللآلى ٥٧٨ ، وطبقات الشعراء لابن المعتز ٢٩٥ .
(٢) الأمون : الناقة الموثقة الخلق .
(٣) للسموءل ؛ ديوان الحماسة ١ : ١١٢ — بشرح التبريزى .

ومثله قول وَدّاك بن ثميل المازنىّ :

مقاديمُ وَصّالون فى الرَّوْع خَطْوَهُمْ　　بكلّ رقيق الشَّفْرَتَين يمانِى[١]

إذا استُنْجِدُوا لم يسألوا مَنْ دَعاهُمُ　　لأيَّةِ حَرْبٍ أم بأىّ مكان

وقال آخر :

إذا الكُماةُ تنحَّوْا أن يصيبَهُمُ　　حَدّ السُّيوف وَصَلْناها بأيْدِينا[٢]

وقال آخر :

وَصَلْنا الرِّقاق المرهفاتِ بخطونا　　على الهَوْل حتى أمكنتنا المضاربُ[٣]

وقال بعض الرجاز :

الطَّاعِنُون فى النُّحورِ والكُلَى　　والواصِلُون للسيوف بالخُطا[٤]

قوله عليه السلام : « واعلموا أنكم بعين الله » أى يراكم ويعلم أعمالكم ، والباء ها هنا كالباء فى قوله : « أنت بمرأى منى ومسمع » .

قوله : « فعاودوا الكرّ » أى إذا كررتم على العدوّ كرّة فلا تقتصروا عليها ، بل كرّوا كرّة أخرى بعدها ، ثم قال لهم : « واستحيوا من الفرار ، فإنه عار فى الأعقاب » ، أى فى الأولاد ، فإنّ الأبناء يعيّرون بفرار الآباء . ويجوز أن يريد بالأعقاب جمع عَقِب ؛ وهو العاقبة وما يؤول إليه الأمر ، قال سبحانه : ﴿ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾[٥] ، أى خير عاقبة ، فيعنى على هذا الوجه أنّ الفرار عارٌ فى عاقبة أمركم ، وما يتحدّث به الناس فى مستقبل الزمان عنكم .

ثم قال : « ونار يوم الحساب » ، لأن الفِرار من الزحف ذنب عظيم ، وهو عند

---

(١) ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ١٢٤ ، الأشباه والنظائر ١ : ١٢٠ .

(٢) من أبيات فى الحماسة ١ : ١٠٠ ـ بشرح المرزوقى ، ونسبها لبشامة بن جزء النهشلى .

(٣) الخزانة ٣ : ٢٤ ، ونسبه لرجل من بنى نمير ، وكذلك فى البيان والتبيين ٣ : ٢٦ .

(٤) الخزانة ٣ : ٢٤ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٦ ؛ من غير نسبة .

(٥) سورة الكهف ٤٤

أصحابنا المعتزلة من الكبائر ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ﴾[1] ، والجهاد بين يدى الإمام ، كالجهاد بين يدى الرسول عليه السلام .

قوله عليه السلام : « وطِيبُوا عن أنفسكم نَفْساً » ، لمّا نصب « نفساً » على التمييز وحّده ، لأن التمييز لا يكون إلّا واحداً ، وإن كان فى معنى الجمع ، تقول : انعموا بالا ، ولا تضيقوا ذَرْعاً * وأبقى « الأنفس » على جمعها لمَا لم يكُنْ به حاجة إلى توحيدها ، يقول : وطّنُوا أنفسكم على الموت ولا تكرهوه ، وهوّنوه عليكم ، تقول : طِبْتُ عن مالى نَفْساً ، إذا هوّنت ذهابه .

وقوله : « وامشُوا إلى الموت مَشْياً سُجُحا » ؛ أى سهلا ، والسجاحة : السهولة ، يقال[2] : فى أخلاق فلان سَجاحة ، ومن رواه « سمحا » أراد سهلا أيضاً .

والسّواد الأعظم ، يعنى به جُمهور أهلِ الشام .

قوله : « والرّواق المطنّب » ، يريد به مضرِب معاوية ذا الأطناب ، وكان معاوية فى مضرب عليه قُبّة عالية ، وحوْلَه صناديد أهل الشام . وثبَجه : وَسطه ، وثبج الإنسان : ما بين كاهله إلى ظهره .

والكِسْر : جانب الخباء . وقوله : « فإنّ الشيطان كامنٌ فى كِسْره » ، يحتمل وجهين ؛ أحدُهما : أن يعنىَ به الشيطان الحقيقىّ ، وهو إبليس ، والثانى : أن يعنىَ به معاوية . والثانى هو الأظهر للقرينة التى تؤيده ، وهى قوله : « قد قدّم للوثبة يداً ، وأخر للنكوص رجلا » ، أى إن جبنتم وثب ، وإن شجعتم نكص ، أى تأخر وفرّ ؛ ومَن حمله على الوجه الأوّل جعله من باب المجاز ، أى أن إبليس كالإنسان الذى يعتوره دواعٍ مختلفة بحسب المتجدّدات ، فإن أنتم صدقتم عدوّكم القتال فرّ عنكم بفرار عدوكم ، وإن تخاذلتم وتواكلتم طمِع فيكم بطمعه ، وأقدم عليكم بإقدامه .

---

(١) سورة الأنفال ٨ (٢) ب : « تقول » .

وقوله عليه السلام : « فصَمْداً صمْداً » أى اصمدوا صمداً ، صمداً ، صمدت لفلان أى قصدت له .

وقوله : « حتى ينجليَ لكم عمودُ الحق » ، أى يسطع نورُه وضوءه ،وهذا من باب الاستعارة . والواو فى قوله : « وأنتم الأعلوْن » واو الحال .

ولن يَتِرَكم أعمالكم ، أى لن ينقصكم ، وهاهنا مضافٌ محذوف تقديره : جزاء أعمالكم ، وهو من كلام الله تعالى رَصّع به خطبتَه ، عليه السلام .

وهذا الكلام خَطَب به أميرُ المؤمنين عليه السلام فى اليوم الذى كانت عشيّته ليلة الهرير فى كثير من الروايات .

وفى رواية نصر[1] بن مزاحم أنّه خَطَب به فى أوّل أيام اللقاء والحرب بصِفّين،وذلك فى صفر من سنة سبع وثلاثين .

* * *

[من أخبار يوم صفين]

قال نصر: كان علىّ عليه السلام يركب بغلةً له يستلذّها[2] ،قبل أن يلتقى الفئتان بصِفّين، فلما حضرت الحرب وبات تلك الليلة يعبّى الكتائب حتى أصبح قال : ائتونى بفرس ، فأتِىَ بفرس له ذَنوب[3] أدهم ، يقاد بشطَنَين[4] ، يبحث الأرض بيديه جميعاً ، له حمحمة

---

(١) فى كتاب وقعة صفين ص ٢٥٨ وما بعدها .

(٢) وقعة صفين : « بغلا له يستلذه » .

(٣) الذنوب : الوافر الذنب .

(٤) فى اللسان ١٧ : ١٠٣ : « الشطن : الحبل ، وقيل : الحبل الطويل الشديدالفتل يستقى به وتشد به الخيل . . . وفى حديث البراء : وعنده فرس مربوطة بشطنين . . . وإنما شده بشطنين لقوته وشدته » .

وصهيل، فركبه ، وقال: ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ ، لاحولَ ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شمر ، عن جابر الجعفىّ ، قال : كان على عليه السلام إذا سار إلى قتال ، ذكر اسم الله قبل[1] أن يركب ، كان يقول : الحمدُ لله على نِعَمِه علينا وفضله : ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾[2] ثم يستقبل القبلة ، ويرفع يديه إلى السماء ويقول : اللهم إليك نُقلت الأقدام ، وأُتعبتِ الأبدان ، وأفضتِ القلوب ، ورُفعت الأيدى ، وشَخَصت الأبصار : ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَاتِحِينَ ﴾[3] ، ثم يقول: سيروا على بركة الله ، ثم يقول: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله ، الله أكبر ،يالله يا أحد ياصمد ،يارب محمد ، اكفف عنا بأس[4] الظالمين : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ بسم الله الرحمن الرحيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

قال : وكانت هذه الكلمات شعاره بصفِّين .

***

قال : وروى سعد بن طريف ، عن الأصبغ بن نُباتة ، قال : ما كان علىّ عليه السلام فى قتال إلا نادى : يا كهيعص .

قال نصر : وحدّثنا قيس بن الربيع ، عن عبد الواحد بن حسّان العِجْلىّ ، عمّن حدّثه أنه سمع عليا عليه السلام يقول يوم لقائه أهل الشّام بصفين : اللهمّ إليك رُفعت الأبصار ، وبُسطت الأيدى ، ونقِلت الأقدام ، ودعت الألسن ، وأفضت القلوب ، وتُحُوكم إليك فى الأعمال ، فاحكم بيننا وبينهم بالحقّ ، وأنتَ خير الفاتحين . اللّهم إنا نشكو إليك غَيْبة

(١) ج . « حين »

(٢) سورة الزخرف ١٣ ، ١٤

(٣) سورة الأعراف ٨٩

(٤) ج : « شر » .

نبينا ، وقِلّة عددنا ، وكثرة عدوّنا ، وتشتّت أهوائنا ، وشدّة الزمان ، وظهور الفِتن ، فأعنّا على ذلك بفتح منك تعجله ، ونصر تعزّ به سلطان الحق وتظهره[(١)] .

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن سلّام بن سويد ، عن علىّ عليه السلام فى قوله : « وألزَمَهم كلمة التقوى » ، قال : هى لا إله إلا الله ، وفى قوله : « الله أكبر » قال : هى آية النصر .

قال سلّام : كانت شعارَه عليه السلام يقولها فى الحرب ، ثم يحمِل فيوردُ — والله — مَن اتّبعه ومن حادّه حياض الموت .

قال نصر : وحدّثنا[(١)] عمر بن سعد ، عن عبد الرحمن بن جُندب ، عن أبيه قال : لما كان غداة الخميس لسبع خَلَوْن من صفَر من سنة سبع وثلاثين ، صلى علىٌّ عليه السلام الغداة فَغلّس ، ما رأيتُ عليًّا غلّس بالغَداة أشدّ من تغليسه يومئذ . وخرج بالناس إلى أهل الشام ، فزحف نحوَهم ، وكان هو يبدؤهم فيسير إليهم ، فإذا رأوْه قد زَحَف استقبلوه بزحوفهم .

قال نصر : فحدثنى[(١)] عمر بن سعد ، عن مالك بن أعين ، عن زيد بن وهب ، قال : لما خرجَ علىٌّ عليه السلام إليهم غداة ذلك اليوم فاستقبلوه ، رفع يديه إلى السماء ، وقال : « اللهم ربّ هذا السقف المحفوظ المكفوف ، الذى جعلته مُحيطا بالليل والنهار ، وجعلت فيه مجرى الشمس والقمر ، ومنازل الكواكب والنجوم ، وجعلت سكانَه [سِبْطًا][(٢)] من الملائكة لا يسأمون العبادة ؛ وربّ هذه الأرض التى جعلتَها قرارا للأنام والهوامّ والأنعام ، ومالا يحصى مما يُرَى ومما لا يُرَى ؛ من خَلْقك العظيم ؛ وربّ الفُلْك التى تجرى فى البحر المحيط[(٣)] بما ينفع الناسَ ؛ وربّ السحاب المسخَّرِ بين السماء والأرض ؛ وربّ البحر

(١) صفين ٢٥٩ — ٢٦٢ . (٢) تكملة من صفين ، والسبط : الأمة
(٣) ساقطة من ج .

المسجور، المحيط بالعالمين ؛ وربَّ الجبال الرواسى التى جعلتها للأرض أوتادا ،وللخلق متاعاً؛ إن أظهرتَنا على عدوِّنا ، فجنِّبنا البغى ، وسدِّدنا للحق . وإن أظهرتهم علينافارزقُنا الشهادة، واعصِم بقيّة أصحابى من الفتنة .

قال : فلما رأوه قد أقبل تقدّموا إليه بزحوفهم [١] ، وكان على ميمنته يومئذ عبد الله ابن بُدَيل بن وَرْقاء الخُزاعىّ ، وعلى ميسرته عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وقرّاء العراق مع ثلاثة نفر : عمار بن ياسر ، وقيس بن سعد بن عُبادة ، وعبد الله بن بُدَيل ؛ والناس على راياتهم ومراكزهم ، وعلىّ عليه السلام فى القلْب فى أهل المدينة ، جمهُورهم الأنصار ، ومعه من خُزاعة ومن كنانة عدد حسن .

قال نصر: وكان علىّ عليه السلام رجلا [٢] رَبْعة ، أدْعَج العينين ؛ كأن وجهه القمر ليلة البدر حسنا ، ضخم البطن، عريض المسْرُبة [٣] ، شَثْن الكفين ، ضخم الكُسور [٤] ،كأنّ عنقه إبريقُ فِضة ؛ أصلع [٥] من خلفه شعر خفيف [٥] ، لمنكبه مُشاش [٦] كمشاش الأسد الضارى، إذا مشى تكفّأ [٧] ومارَ به جسدُه ،ولظهره سنام كسنام الثور، لا يبين عَضدُه [٨] من ساعده قد أُدْمِجَت إدماجا ، لم يمسك بذِراع رجل قطّ إلا أمسك بنفسه فلم يستطع أن يتنفس ؛ [٩] ولونه إلى سمرة مّا ، وهو أذلف الأنف [٩] ، إذا مشى إلى الحرب هَرْوَل ، قد أيّده الله تعالى فى حُروبه بالنصر والظفر .

---

(١) صفين : « خرجوا إليه بزحوفهم » .
(٢) فى صفين : « دحداحا » ؛ والدحداح : القصير .
(٣) المسربة : الشعر وسط الصدر إلى البطن .
(٤) شثن : غليظ ، والكسور : الأعضاء .
(٥ ـ ٥) صفين : « أصلع ، ليس فى شعره إلا خفاف من خلفه » ، والخفاف ، بالضم : الخفيف .
(٦) المشاش بالضم : رؤوس العظام ؛ مثل المنكبين والمرفقين والركبتين .
(٧) تكفأ : تمايل . والمور : التحرك والمجىء والذهاب .
(٨) العضد : مابين المرفق فى الكتف ؛ يذكر ويؤنث .
(٩ ـ ٩) صفين : « وهو إلى السمرة ، أذلف الأنف » ، والذلف : قصر الأنف وصغره .

قال نصر : ورفع معاوية قبَّة عظيمة ، وألقى عليها الكرابيس[١] ، وجلس تحتها .

***

قال نصر[٢] : وقد كان لهم قبل هذا اليوم أيام ثلاثة ، وهى الرابع من صفر هذا ، واليوم الخامس ، واليوم السادس ، كانت فيها مناوشات وقتال ، ليس بذلك الكثير ، فأما اليوم الرابع ، فإنّ محمد بن الحنفيّة عليه السلام ، خرج فى جمْع من أهل العراق ، فأخرج إليه معاويةُ عبيدَ الله بن عمر بن الخطاب فى جَمْع من أهل الشام ، فاقتتلوا . ثم إن عبيد الله بن عمر أرسلَ إلى محمد بن الحنفيّة : أن اخرجُ إلىّ أبارزْك ، فقال : نعم ، ثم خرج إليه ، فبصُر بهما علىّ عليه السلام ، فقال : مَنْ هذان المتبارزان ؟ قيل : محمد بن الحنفيّة وعبيد الله بن عمر ، فحرّك دابته ، ثم دعا محمدا إليه ، فجاءه فقال : أمسِك دابتى ، فأمسكها ، فمشى راجلا بيده سيفهُ نحو عبيد الله ، وقال له : أنا أبارزُك ، فهلم إلىّ ، فقال عبيد الله : لا حاجةَ بى[٣] إلى مبارزتك ، قال : بلى ، فهلم إلىّ ، قال : لا أبارزُك ، ثم رجع إلى صَفّه ، فرجع علىٌّ عليه السلام ، فقال ابنُ الحنفيّة : يا أبتِ لم منعتَنى من مبارزته ؟ فو الله لو تركتنى لرجوتُ أن أقتله ! قال : يا بنىّ ، لو بارزته أنا لقتلتهُ ، ولو بارزته أنت لرجوتُ لك أن تقتله ، وما كنتُ آمنُ أن يقتلك ، فقال : يا أبتِ أتبرز بنفسك إلى هذا الفاسق اللئيم عدوّ الله ! والله لو أبوه يسألك المبارزة لرغبتُ بك عنه ، فقال : يا بنىّ لا تذكر أباه ، ولا تقلْ فيه إلا خيرا ، رحِمَ الله أباه !

***

قال نصر[٤] : وأما اليوم الخامس ، فإنه خرج فيه عبدُ الله بن العباس ، فخرج إليه الوليد بن عُقبة ، فأكثر منْ سبّ بنى عبد المطلب[٥] ، وقال : يا بن عباس : قطعتم

(١) الكرابيس : ضرب من الثياب ؛ فارسى معرب .

(٢) وقعة صفين ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

(٣) ج : « لى » .

(٤) وقعة صفين ٢٤٩ .

(٥) صفين : « فأخذ الوليد يسب بنى عبد المطلب »

أرحامَكم ، وقتلتم إمامكم ، فكيف رأيتم صُنْع الله بكم ! لم تُعطَوْا ما طلبتم ؛ ولم تدرِكوا ما أمّلتم ، والله ُ– إن شاء – مُهلِكُكم ، وناصرنا عليكم . فأرسل إليه عبد الله ابن العباس : أنِ ابرُزْ إليّ ، فأبى أن يفعل ؛ وقاتل ابنُ عباس ذلك اليوم قتالا شديدا ، ثم انصرفوا وكلٌّ غير غالب .

***

قال نصر : وخرج[١] في ذلك اليوم شَمِر بن أبرهة بن الصباح الحميرىّ ، فلحق بعلىّ عليه السلام في ناس من قراء أهل الشام ، ففتّ ذلك في عَضُد معاوية وعمرو بن العاص ، وقال عمرو : يا معاوية ، إنك تريد أن تقاتل بأهل الشام رَجُلاً له من محمد صلى الله عليه وسلم قرابة قريبة ، ورحِم ماسة ، وقدمٌ في الإسلام لا يعتدّ أحد بمثله ، وحدّة في الحرب لم تكنْ لأحد من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنه قد سار إليك بأصحاب محمد المعدودين وفرسانهم وقرّائهم وأشرافهم وقدمائهم في الإسلام ؛ ولهم في النفوس مهابة ، فبادر بأهل الشام مخاشن الأوعار ، ومضايق الغِياض ، واحمِلْهم على الجَهْد ، وائتهم من باب الطمع قبل أن ترفّههم فيحدث عندهم طولُ المقام مللاً ، فتظهر فيهم كآبة الخِذلان . ومهما نسيتَ فلا تنسَ أنك على باطل ؛ وأن عليًّا على حقّ ، فبادر الأمر قبل اضطرابه عليك . فقام معاوية في أهل الشام خطيبا ، فقال :

أيها الناس : أعيرونا جماجمكم وأنفسكم ، لا تفتتلوا[٢] ولا تتجادلوا ؛ فإن اليومَ يوم خِطَارٍ ، ويوم حقيقة وحفاظ ، إنكم لعلى حق ، وبأيديكم حُجّة ، إنما تقاتلون مَنْ نكث البيعة ، وسَفَك الدم الحرام ؛ فليس له في السماء عاذِر[٣] .

قدّموا أصحاب السلاح المستلئمة ، وأخِّروا الحاسر ، واحملوا بأجمعكم ، فقد بلغ الحقُّ مقطعه[٤] ، وإنما هو ظالم ومظلوم .

(١) صفين : ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

(٢) صفين : « لاتفشلوا ولا تخاذلوا » .

(٣) في صفين بعد هذا الكلام : « ثم صعد عمرو بن العاص مرقاتين من المنبر ؛ فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ؛ قدموا المستلئمة . . . . » ؛ فكأنهما خطبتان ؛ الأولى لمعاوية ، والثانية لعمرو .

(٤) ج : « مبلغه » .

قال نصر : وخطب علي عليه السلام أصحابه فيما حدثنا به عمر بن سعد ، عن أبي يحيى ، عن محمد بن طلحة ، عن أبي سنان ، عن أبيه قال : كأنّي أنظرُ إليه متوكئاً على قوسه ، وقد جمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله عنده ، فهم يلونه ، كأنه أحبّ أن يعلم الناس أنّ الصحابة متوافرون معه ، فحمِد الله وأثنى عليه ، وقال :

أمّا[(1] بعدُ ، فإن الخيلاء من التجبّر[1)] ، وإن النَّخْوة من التكبر ، وإنّ الشيطان عدوٌّ حاضر ، يعدُكم الباطل ؛ ألا إنّ المسلم أخو المسلم ، فلاتنابذُوا ولاتخاذلوا . ألا إنّ شرائع الدين واحدة ، وسبله قاصدة ، مَنْ أخذ بها لَحِق ، ومن فارقها مُحِق ، ومَنْ تركها مَرَق . ليس المسلم بالخائن إذا ائتمِن ، ولا بالمخلِف إذا وعد ، ولا بالكذاب إذا نطق . نحن أهل بيت الرحمة ، وقولنا الصدق ، وفعلنا القَصْد[2] ، ومِنّا خاتم النبيين ، وفينا قادة الإسلام ، وفينا حملة الكتاب . ألا إنّا ندعوكم إلى الله وإلى رسوله ، وإلى جهاد عدوّه والشدة في أمره ، وابتغاء مرضاته ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحجّ البيت ، وصِيَام شهر رمضان ، وتوفير الفيء على أهله[3] ألا وإنّ مِنْ أعجب العجائب أنّ معاوية بن أبي سفيان الأمويّ وعمرو بن العاص السهميّ ، أصبحا يحرّضان الناس على طلب الدِّين بزعمهما ، ولقد علمتم أني لم أخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم قطّ ، ولم أعصه في أمر ، أقيه بنفسي في المواطن التي ينكص فيها الأبطال ، وتُرْعَد فيها الفَرائص ، بنجدةٍ[4] أكرمني الله سبحانه بها ، وله الحمدُ . ولقد قُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنّ رأسه لفي حِجْري ، ولقد وَلِيتُ غسله بيدي وحدي ، تقلّبه الملائكة المقربون معي . وايمُ الله مااختلفت أمّةٌ قطّ بعد نبيّها إلاّ ظهر أهلُ باطلها على أهلِ حقها ، إلا ما شاء الله .

(١ ـ ١) صفين : « أيها الناس ، اسمعوا مقالتي ، وعوا كلامي ، فإن الخيلاء من التجبر » .
(٢) كذا في ا ، ح وصفين : وفي ب : « الفضل » .
(٣) صفين : « لأهله » .
(٤) صفين : « نجدة » .

قال أبو سنان الأسلمىّ : فأشهد لقد سمعت عمّار بن ياسر، يقول للناس: أمّا أمير المؤمنين فقد أعلمكم أنّ الأمة لم تستقم عليه أولا ، وأنها لن تستقيم عليه آخرا .

قال : ثم تفرّق الناس ، وقد نفذت أبصارهم فى قتال عدوهم ، فتأهبوا واستعدّوا[١] .

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن مالك بن أعين ، عن زيد بن وهب[٢] أنّ عليا عليه السلام، قال فى هذه الليلة : حتى متى لا نناهض القوم بأجمعنا ! ثم قام فى الناس فقال: الحمدُ لله الذى لا يبرَم ما نقض ، ولا ينقَض ما أبرم ، ولو شاء ما اختلف اثنان من هذه الأمة ولا من خلقه ، ولا تنازع[٣] البشر فى شىء من أمره ، ولا جحَد المفضول ذا الفضل فضلَه . وقد ساقتنا وهؤلاء القوم الأقدار ، حتى لفّت بيننا فى هذا الموضع ، ونحن مِنْ ربّنا بمرأى ومسمع ، ولو شاء لعجّل النقمة، ولكان منه النصر ، حتى يكذّب الله الظالم، ويعلم الحقُّ أين مصيره . ولكنه جعَل الدنيا دار الأعمال ، والآخرة دار الجزاء والقرار ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾[٤] . ألا إنكم لاقو العدوّ غدا إن شاء الله ، فأطيلوا الليلة القيام ، وأكثروا تلاوة القرآن ، واسألوا الله الصّبْر والنصر ، والقوهم بالجِدّ والحزم ، وكونوا صادقين .

قال : فوثب الناس إلى رماحهم وسيوفهم ونبالهم يصلحونها ، وخرج عليه السلام فعبّى الناس ليلته تلك كلها حتى أصبح ، وعقد الألوية، وأمّر الأمراء ، وكتّب الكتائب، وبعث إلى أهل الشام مناديا نادى[٥] فيهم : اغدُوا على مصافّكم. فضجّ أهلُ الشام فى معسكرهم، واجتمعوا إلى معاوية فعبّى خيله ، وعقد ألويته، وأمّر أمراءه ، وكتّب كتائبه ، وأحاط به أهل حِمص فى راياتهم، وعليهم أبو الأعور السُّلَمىّ، وأهل الأردنّ فى راياتهم، عليهم عمرو بن العاص، وأهل قِنّسرين وعليهم زُفر بن الحارث الكلابىّ ، وأهل دمشق ــ وهم القلب ــ

(١) صفين ص ٢٥١ ، ٢٥٢
(٢) صفين : « يزيد بن وهب »
(٣) صفين : « ولا تنازعت الأمة » .
(٤) سورة النجم ٣١ .
(٥) ج : « ينادى » .

وعليهم الضحاك بن قيس الفِهْرىّ ، فأطافوا كلهم بمعاوية ، وكان أهل الشام أكثر من أهل العراق بالضِّعف ، وسار أبو الأعور وعمرو بن العاص ومَنْ معهما ؛ حتى وقفا بحيال أهل العراق ، فنظرا إليهم ، واستقلّا جمعهم ، وطمِعا فيهم ، ونُصب لمعاوية منبر ؛ فقعد عليه فى قبّة ضربها ، ألقى عليها الثياب والأرائك ، وأحاط به أهلُ يَمنٍ ، وقال : لا يقربنّ هذا المنبر أحد لا تعرفونه إلا قتلتموه كائنا مَنْ كان[1] .

قال نصر : وأرسل عمرو إلى معاوية : قد عرفت ما بيننا من العهد والعَقْد : فاعصِبْ برأسى هذا الأمر ، وأرسِل إلى أبى الأعور فنحّه عنى ، ودعنى والقوم ؛ فأرسل معاوية إلى أبى الأعور أنّ لأبى عبد الله رأيا وتجرِبة ليست لى ولا لك ، وقد ولّيته أعنّة الخيل ، فسِرْ أنت حتى تقف بخيلك على تلّ كذا ودعه والقوم .

فسار أبو الأعور ، وبقى عمرو بن العاص فيمنْ معه واقفا بإزاء عسكر العراق ، فنادى عمرو ابنيه : عبد الله ومحمدا ، فقال لهما : قدّما هؤلاء الدُّرّع ، وأخّرا هؤلاء الحُسّر ؛ وأقيما الصّفّ قصّ الشارب ؛ فإن هؤلاء قد جاءوا بخطة قد بلغت السماء .

فمشيا برايتهما ، فعدّلا الصفوف ، وسار بينهما عمرو فأحسن الصفّ ثانية ، ثم حمل قيسا وكليبا وكنانة على الخيول ، ورجّل سائر الناس[2] .

***

قال نصر : وبات[3] كعب بن جعيل التغلبى ، شاعر أهل الشام تلك الليلة يرتجز وينشد :

أصبحتِ الأمّــةُ فى أمرٍ عَجَبْ ... والمُلْكُ مجموعٌ غــدًا لمن غَلَبْ[1]
أقولُ قَوْلًا صادقا غَيْرَ كَذِبْ ... إنّ غــدا يهلِكُ أعلامُ العَرَبْ
غـداً نُلاقِى رَبّنـا فنحتسِبْ ... غـداً يصيرون رماداً قدْ ذَهَبْ

---

(١) صفين : ٢٥٢ ، ٢٥٣ .
(٢) صفين ٢٥٤ .
(٣) صفين ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

بعد الجمال والحياء والحسبْ يارب لا تُشمِتْ بنا ولا تُصِبْ

* مَنْ خلع الأنداد طُرًّا والصُّلُبْ *

***

قال نصر : وقال[1] معاوية : مَنْ فى ميسرة أهل العراق ؟ فقيل : ربيعة ، فلم يجد فى الشام ربيعة ، فجاء بحمير ، فجعلها بإزاء ربيعة على قرعة أقرعها بين حِمير وعَكّ ، فقال ذو الكلاع الحميرىّ : باستك مِنْ سَهْمٍ [لم تبغِ الضِّراب][2] ! كأنه أنِف عن أن تكون حمير بإزاء ربيعة ، فبلغ ذلك جُحدرا[3] الحنفىّ ، فحلف بالله إن عاينه ليقتلنّه أو ليموتَنّ دونه ، فجاءت حمير حتى وقفت بإزاء ربيعة ، وجعل السّكاسك والسّكون بإزاء كندة ، وعليهما الأشعث بن قيس ، وجعل بإزاء هَمْدَان العراق الأزد ، وبإزاء مذحِج العراق عَكًّا.

وقال راجز من أهل الشام :

ويل لأمّ مَذْحِج مِنْ عَكّ وأمهم قائمة تُبَكِّى

نَصُكّهم بالسيف أىّ صكّ فلا رجالَ كرجالِ عكّ

قال : وطرحت عكٌّ حَجَرا بين أيديهم ، وقالوا : لا نفرّ حتى يفرّ هذا الحَكَّر (بالكاف) — وعَكّ تقلب الجيم كافا — وصفّ القلب خمسة صفوف ، وفعل أهل العراق أيضا مثل ذلك ، ونادى عمرو بن العاص بأعلى صوته :

يأيها الجند الصليبُ الإيمانْ[4] قوموا قيامًا واستعينوا الرّحمٰنْ

إنى أتانِى خبرٌ ذو ألوانْ[5] أنّ عليا قتل ابنَ عفّانْ

* رُدّوا علينا شيخَنا كما كان *

---

(١) صفين ص ٢٥٥ — ٢٥٨

(٢) من صفين

(٣) صفين : « المخدف الحنفى » .

(٤) ج : « العظيم الإيمان » .

(٥) صفين « خبر فأشجان » .

فردّ عليه أهل العراق وقالوا :

أبتْ سيوف مذحِج وهَمْدَانْ ... بأنْ تردّ نَعْثَــلًا كمَا كَانْ[١]

خَلقا جديداً مثلَ خَلقِ الرّحمٰن ... ذلك شأنٌ قد مَضى وذا شـأنْ

ثم نادى عمرو بن العاص ثانية برفع صوته[٢] :

ردّوا علينا شيْخَنَا ثم بَجَلْ[٣] ... أو لا تـكونُوا جَزَراً من الأسَل[٤]

فردّ عليه أهل العراق :

كيف نردّ نعثلًا وقد قَحَلْ[٥] ! ... نحن ضربنـا رأسَـه حتى انجفَل[٦]

وأبدلَ الله به خـيرَ بَدَلْ ... أعلمَ بالدّين وأزكى بالعَمــل[٧]

وقال إبراهيم بن أوس بن عبيدة من أهل الشام :

لله درّ كتائب جاءتـكمُ ... تبكى فوارسُها عَلى عثمانِ

تسعون ألفا ليس فيهم قاسطٌ[٨] ... يتلُون كلّ مفصّلٍ ومثانِ

يَسلُون حقّ الله لا يعدُونه ... ويجيبكم للملك والسّلطانِ

فأتوا ببيّنة عَلَى ماجئتمُ ... أو لا نحسبكمْ من العُــدْوَانِ

وأتوا بما يمحو قصاص خليفةٍ[٩] ... لله ، ليس بكاذب خوّانِ

---

(١) نعثل : رجل من أهل مصر ، كان طويل اللحية وكان عثمان إذا نيل منه وعيب ؛ شبه بهذا الرجل المصرى لطول لحيته . اللسان ١٤ : ٦٣١

(٢) صفين : « وصاح رجل من أهل الشام » .

(٣) بجل ، بمعنى حسب .

(٤) الجزر : قطع اللحم تأكله السباع .

(٥) قحل ؛ أى مات وجف جلده .

(٦) انجفل : سقط وانقلب .

(٧) صفين :

• أقدم للحرب وأنكى البطلْ •

(٨) صفين : « سبعون ألفا » . ج : « ليس منهم » .

(٩) صفين : « فأتوا »

قال نصر : وبات علىٌّ عليه السلام ليلتَه يعبّى الناس حتى إذا أصبح زحف بهم ، وخرج إليه معاوية فى أهل الشام فجعل يقول : مَنْ هذه القبيلة ؟ ومَنْ هذه القبيلة ؟ يعنى قبائل أهل الشام ، فيسمُّوْن له حتى إذا عرفهم ، وعَرَف مراكزهم[١] قال للأزد : اكفونى الأزد ، وقال لخثعم : اكفونى خثعما ، وأمر كلَّ قبيلة من العراق أن تكفيَه أختها من أهل الشام ، إلا قبيلة ليس منهم بالعراق إلا القليل مثل بَجِيلة ، فإن لخماً كانت بإزائها . ثم تناهضَ القوم يوم الأربعاء سادس صفر واقتتلوا إلى آخر نهارهم ، وانصرفوا عند المساء ، وكلٌّ غير غالب .

قال نصر : فأمّا اليوم السابع فكان القتال فيه شديدا ، والخطْب عظيما ؛ وكان عبدالله ابن بُدَيل الخزاعىّ على ميمنة العراق ، فزحف نحو حبيب بن مسلمة ، وهو على ميسرة أهل الشام ؛ فلم يزل يَحُوزُه ويكشف خيله حتى اضطرّهم إلى قُبّة معاوية وقت الظهر .

***

قال نصر : فحدّثنا[٢] عمر بن سعد ، قال : حدّثنا مالك بن أعين ، عن زيد بن وهب ، أنّ عبد الله بن بُدَيل قام فى أصحابه فخطبهم فقال : ألا إنّ معاوية ادّعى ما ليس له ، ونازع الأمر أهلَه ومن ليس مثله ؛ وجادل بالباطل ليُدحِض به الحقّ ، وصال عليكم بالأعراب والأحزاب ، وزيّن لهم الضّلالة ، وزرَع فى قلوبهم حُبّ الفتنة ، ولبّس عليهم الأمور ، وزادهم رِجْساً إلى رجسهم ، وأنتم ـ والله ـ على نور وبرهان [مبين][٣] قاتلوا الطغاة[٤] الجفاة ، قاتلوهم ولا تخشوهم ، وكيف تخشونهم ، وفى أيديكم كتاب من ربكم ظاهر مبين[٥] : ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ

(١) ج : « سوادهم » .
(٢) وقعة صفين ٢٦٣ .
(٣) من صفين .
(٤) صفين « الطغام » .
(٥) صفين : «ظاهر مبرور» .

وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١) ، لقد قاتلتهم مع النبى صلى الله عليه وسلم ؛ والله (٢) ماهُمْ فى هذه بأزكى، ولاأتقى، ولا أبرّ ؛ انهضوا (٣) إلى عدوّ الله وعدُوّكم (٤) .

***

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد، قال : حدّثنِي عبدالرحمن ، عن أبى عمرو، عن أبيه، أنّ عليا عليه السلام خطب فى ليلة هذا اليوم ، فقال: معاشرَ المسلمين ؛ استشعِرُوا الخشية، وتجلببُوا السكينة، وعَضّوا على النواجذ، فإنه أنبَى للسيوف عن الهام ... »، الفصل بطوله إلى آخره ؛ وهو المذكور فى الكتاب .

وروى نصر أيضا بالإسناد المذكور أنّ عليا عليه السلام خطب ذلك اليوم ، وقال : أيها الناس ؛ إنّ الله تعالى ذِكْره ، قد دلّكم على تجارة تُنجيكم من العذاب ، وتُشفى بكم على الخير : إيمانٌ بالله ورسوله ، وجهاد فى سبيله؛ وجعلَ ثوابه مغفرة الذنوب ، ومساكن طيبة فى جناتِ عدن ورضوانٌ من الله أكبر ؛ وأخبركم بالّذى يحبّ فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ (٥) ؛ فسوّوا صفوفكم كالبنيان المرصوص ، وقدّموا الدارع ، وأخّروا الحاسر، وَعَضّوا على الأضراس ؛ فإنه أنبى للسيوف عن الهام ، وأربط للجأش؛ وأسكن للقلوب . وأميتوا الأصوات ؛ فإنه أطرد للفشل، وأولى بالوقار، والتوُوا فى أطراف الرماح، فإنه أمْوَرُ (٦) للأسنّة، ورايتكم فلاتميلوها ولا تزيلوها، ولا تجعلوها إلّا بأيدِى شجعانكم المانعى الذّمار ، والصُّبُر عند نزول الحقائق، أهلِ الحفاظ،

---

(١) سورة التوبة ٣ ، ٤

(٢) صفين : « وقد قاتلتهم مع النبى صلى الله عليه وسلم مرة ، وهذه ثانية » .

(٣) صفين : « قوموا » .

(٤) صفين ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

(٥) سورة الصف ٤

(٦) أمور ؛ من المور وهو الاضطراب ؛ وفى الطبرى : « أصول للأسنة »

الذين يحفّون براياتكم ويكتنفونها[١]، يضربون خلفها وأمامها، ولا تضيّعوها. أجزأ كلّ امرئٍ [وَقَذَ[٢]] قِرْنه، وواسى أخاه بنفسه، ولم يَكِلْ قِرْنَه إلى أخيه، فيجمع عليه قِرْنه وقِرْن أخيه، فيكسب بذلك من الإثم[٣]، ويأتي به دناءة، أنَّى هذا، وكيف يكون هكذا![٤] هذا يقاتل اثنين، وهذا ممسك يده، قد خلّى قِرْنه إلى أخيه، هارباً منه، أو قائماً ينظر إليه! من يفعل هذا يمقته الله، فلا تعرّضوا لِمَقْت الله، فإنما مردّكم إلى الله، قال الله تعالى لقوم عابهم: ﴿لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٥]؛ وايمُ الله لئن فررتم من سيفِ العاجلة لا تسلمون من سيف الآخرة، استعينوا بالصّدق والصبر؛ فإنه بعد الصبر ينزل النصر[٦].

***

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شَمِر، عن جابر، عن الشعبيّ، عن مالك بن قُدامة الأرحبيّ، قال: قام سعيد بن قيس يخطب أصحابه بقُناصِرين فقال: الحمد لله الذى هدَانا لدينه، وأورثَنا كتابه، وامتنّ علينا بنبيه، فجعلَه رحمةً للعالمين، وسيداً للمرسلين، وقائداً للمؤمنين، وخاتَماً للنبيين؛ وحُجّة الله العظيم على الماضين والغابرين؛ ثم كان فيما قضى الله وقدّره — وله الحمدُ على ماأحببنا وكرهنا — أن ضمّنا وعدوّنا بقُناصرين، فلايحمل بنا اليوم الحياص[٧] وليس هذا بأوانِ انصراف، ولاتَ حين مناص؛ وقد خصّنا الله منه برحمة لانستطيع أداء شكرها، ولانقدر قدرها؛ إن أصحاب محمد المصطفَيْن الأخيار معنا،

---

(١) صفين: «يكنفونها».
(٢) تكملة من صفين.
(٣) صفين: «اللائمة».
(٤) صفين. «وأنى لا يكون هذا هكذا».
(٥) سورة الأحزاب ١٦.
(٦) صفين ٢٦٤، ٢٦٥.
(٧) صفين: «فلا يحمد بنا اليوم الحياص»، والحياص: الفرار والهرب.

وفى حَيِّز ، فو الله الذى هو بالعباد بصير ؛ أن لو كان قائدُنا رجلا مجدَّعاً ، إلّا أنّ معنا من البدريّين سبعين رجلا لـكان ينبغى لنا أن تحسن بصـائرنا ، وتطيب أنفسنا ؛ فـكيف وإنما رئيسنا ابن عمّ نبيّنا ، بدرىٌّ صِدْق ، صلّى صغيرا ، وجاهد مع نبيـكم كثيرا ، ومعاوية طَلِيق من وِثاق الإسار [وابن طليق](١) . ألا إنه أغوَى جفاة فأوردهم النار ، وأوردهم العار ، والله مُحِلّ بهم الذلّ والصَّغار . ألا إنـكم ستلقون عدوّكم غدا ، فعليـكم بتقوى الله ؛ من الجدّ والحزم ، والصِّدق والصبر ؛ فإن الله مع الصابرين . ألا إنـكم تفوزون بقتلهم ، ويشقَوْن بقتلـكم ؛ والله لا يَقتلُ رجلٌ منـكم رجلًا منهم إلا أدخل الله القاتل جنات عدنٍ ، وأدخل المقتول نارا تَلَظّى ﴿ لا يُفَتَّرُ عنهم وهم فيـه مبلِسون ﴾(٢) عصمنا الله وإياكم بما عصم به أولياءه ؛ وجعلنا وإياكم ممن أطاعه واتقاه ؛ وأستغفرِ الله العظيم لى ولـكم وللمؤمنين .

ثم قال الشعبىّ : ولقد صدّق فعلُه ما قال فى خطبته(٣) .

***

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، عن أبى جعفر وزيد بن الحسن ، قالا : طلب معاويةُ إلى عمرو بن العاص أن يسوِّى صفوفَ أهل الشام ، فقال له عمرو : عَلَى أنّ لى حُـكْمى إن قَتَل الله ابن أبى طالب ، واستوثقت لكَ البلاد ! فقال : أليس حُـكمك فى مصر ! قال : وهل مصر تـكون عِوَضاً عن الجنّة ، وقتل ابن أبى طالب ثمناً لعذاب النار الذى ﴿ لَا يُفَـتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ(٢) ﴾ ! فقال معاوية : إنّ لك حكمَك أبا عبد الله إن قتِـلَ ابن أبى طالب . رُويداً لا يسمع أهل الشام كلامك . فقام عمرو

---

(١) من صفين

(٢) سورة الزخرف ٧٥ .

(٣) صفين ٢٦٦ ، ٢٦٧

فقال : معاشرَ أهل الشام ؛ سوُّوا صفوفكم قصَّ الشارب ، وأعيرونا[1] جماجمكم ساعة ، فقد بلغ الحقُّ مقطعه ، فلم يبق إلا ظالم أو مظلوم .

***

قال نصر : وأقبل أبو الهيثم بن التيهان وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله بدريًا نقيبا عقبيًا ؛ يسوِّى صفوف أهل العراق ، ويقول : يا معشرَ أهل العراق[2] ، إنه ليس بينكم وبين الفتح فى العاجل ، والجنة فى الآجل إلاَّ ساعة من النهار ؛ فأرْسُوا أقدامَكم ، وسوُّوا صفوفكم ، وأعيروا ربكم جماجمكم ، استعينوا بالله إلهكم ؛ وجاهدوا عدوَّ الله وعدوكم ، واقتلُوهم قتلهم الله وأبادهم ! واصبروا فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين[3] .

***

قال نصر : وحدثنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، عن الفضل بن أدهم ، عن أبيه أنَّ الأشتر قام يخطب الناس بقُناصرين ، وهو يومئذ على فرَسٍ أدهم ، مثل حَلَك الغراب ، فقال :

الحمد لله الذى خلق السموات العُلى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾[4] ، أحمده على حُسن البلاء ، وتظاهر النعماء حَمْداً كثيراً ، بُكرةً وأصيلا ، مَنْ هداه الله فقد اهتدى ، ومن يُضلِلْ فقد غوَى ، أرسل محمد بالصواب والهدى ؛ فأظهره على الدِّين كله ولو كره المشركون ، صلى الله عليه وسلم . ثم قد كان مما قضى الله سبحانه وقدّر أن ساقتنا المقادير إلى أهل هذه البلدة من الأرض ، فلفَّت بيننا وبين عدوّ الله وعدوّنا ، فنحن بحمد الله ونعمه ، ومنّه وفضله ، قريرةٌ أعيننا ، طيِّبة أنفسنا ، نرجو بقتالهم حسنَ الثواب ، والأمنَ من العقاب ؛ معنا ابن عمِّ نبينا ، وسيفٌ من سيوف الله علىّ بن أبى طالب ؛ صلّى مع رسول الله ، لم يسبقه إلى الصلاة

---

(١) صفين : « وأعيروا ربكم جماجمكم » . (٢) ج : « يامعشر المسلمين » .
(٣) صفين ٢٦٧ . (٤) سورة طه ٥ ، ٦ .

ذَكَرٍ حتى كان شيخا ، لم تكن له صبوة ولا نبوة ولا هفوة ولا سقطة ؛ فقيه فى دين الله تعالى ، عالم بحدود الله ، ذو رأى أصيل ، وصبر جميل ، وعَفاف قديم ؛ فاتّقوا الله وعليكم بالحزم والجدّ ، واعلموا أنكم على الحقّ ، وأنّ القوم على الباطل؛إنما تقاتلون معاوية وأنتم مع البَدْرِيِّين،قريب من مائة بدرىّ،سوى مَنْ حولكم من أصحاب محمد،أكثر ما معكم[(١)] رايات قد كانت مع رسول الله ، ومع معاوية رايات قد كانت مع المشركين على رسول الله، فما[(٢)] يشكّ فى قتال هؤلاء إلا ميّت القلب ؛ أنتم على إحدى الحسنيَيْن ؛ إمّا الفتح وإمّا الشهادة ، عَصَمنا الله وإياكم بما عَصَم به من أطاعه واتقاه ؛ وألهمنا وإياكم طاعته وتقواه ؛ وأستغفر الله لى ولكم[(٣)] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شمر،عن جابر ، عن الشعبىّ، عن صعصعة بن صُوحان، عن زامل بن عمرٍو الجُذَامىّ ؛ قال : طلب معاوية إلى ذى الكَلاع أن يخطب الناس ويحرّضهم على قتال علىٍّ عليه السلام ومَنْ معه من أهل العراق ، فعقَد فرسه ؛ وكان من أعظم أصحاب معاوية خطرا ، وخطب الناس ، فقال :

الحمد لله حمدا كثيرا،ناميا واضحاً منيرا ، بكرة وأصيلا، أحمده وأستعينه،وأومن به، وأتوكّل عليه،وكفى بالله وكيلا ؛ وأشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله ؛ أرسله بالفرقان إماما،وبالهدى ودين الحقّ ، حين ظهرت المعاصى، ودَرَست الطاعة ، وامتلأت الأرضُ جَوْراً وضلالة ؛ واضطرمت الدنيا نيرانا وفتنة ، ووَرَك[(٤)] عدوّ الله إبليس ، على أن يكون قد عبد فى أكنافها ، واستولَى على جميع أهلها؛ فكان محمد صلى الله عليه وسلم هو الذى أطفأ الله به نيرانَها،ونزع به أوتادها ؛ وأوْهَن به

---

(١) ج : « يعلم » .
(٢) فى الأصول : « من » وصوابه من صفين .
(٣) صفين ٢٦٧ ، ٢٦٨ .
(٤) ورك : أقام .

قوى إبليس وآيسه مما كان قد طمع فيه من ظفره بهم، وأظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، ثم كان من قضاء الله أن ضمّ بيننا وبين أهل ديننا بصفّين ؛ وإنّا لنعلم أنّ فيهم قوماً قد كانت لهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقة ذات شأن وخطر عظيم ؛ ولكنى ضربت الأمر ظهراً وبطنا ، فلم أر يسعُني أن يُهدَرَ دمُ عثمان صهر نبيّنا صلى الله عليه وسلم ، الذى جهّز جيش العُسْرة ، وألحقَ فى مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم بيتا،وبنى سقاية ؛ بايع له نبيّ الله بيده ليمنى على اليسرى؛واختصّه بكريمتيه:أم كلثوم ورقية : فإن كان قد أذنب ذنبا فقد أذنبَ مَنْ هو خير منه ، قال الله سبحانه لنبيه : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾[1]؛وقتل موسى نفسا ، ثم استغفر الله فغفر له ؛ وقد أذنب نوح ، ثم استغفر الله فغفر له ، وقد أذنب أبوكم آدم ، ثم استغفر الله فغفر له،ولم يعرَ أحدُكم من الذنوب؛وإنا لنعلم أنه قد كانت لابن أبى طالب سابقة حَسَنة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن لم يكن مالأعلى قتل عثمان فلقد خذَله،وإنّه لأخُوه فى دينه وابنُ عمه وسِلْفُه وابن عمّته.ثم قد أقبلوا من عراقهم حتى نزلوا شامَكُم ،وبلادكم وبيضتكم ؛ وإنّما عامّتهم بين قاتل وخاذل،فاستعينوا بالله واصبروا ، فلقد ابتليتم ــ أيّتها الأمة ــ ولقد رأيت فى منامى فى ليلتى هذه،لكأنّا وأهل العراق اعتورْنامصحفا نضربه بسيوفنا ؛ ونحن فى ذلك جميعا ننادى : ويحكم الله ! ومع أنّا والله لانفارقُ العَرْصةَ حتى نموت؛فعليكم بتقوى الله؛ولتكن النيّات لله ، فإنى سمعتُ عمر بن الخطاب يقول:سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما يُبعث المقتتلون على النّيّات » ؛ أفرغ الله علينا وعليكم الصبر ؛ وأعزّ لنا ولكم النصر ؛ وكان لنا ولكم فى كلّ أمر ، وأستغفر الله لى ولكم[2] .

***

(١) سورة الفتح ٢

(٢) صفين ٢٦٩ ، ٢٧٠

قال نصر : وحدثنا عمرو بن شمر ، عن ابن عامر[١] ، عن صَعْصعة العبدىّ ، عن أبرهة ابن الصباح ، قال : قام يزيد بن أسد البَجلىّ فى أهل الشام يخطُب الناس بصِفِّين ، وعليه قَباء من خزّ ، وعمامة سَوْداء ، آخذا بقائم سيفه ، واضعاً نَصْل[٢] السَّيف فى الأرض ، متوكّئاً عليه . قال صعصعة : فذكَر لى أبرهة أنّه كان يومئذ من أجمل العرب وأكرمها وأبلغها ، فقال :

الحمدُ لله الواحدِ الفرْد ؛ ذى الطَّوْل والجلال ، العزيز الجبّار ، الحكيم الغفار ، الكبير المتعال ؛ ذى العطاء والفعال ، والسّخاء والنوال ، والبهاء والجمال ، والمنّ[٣] والإفضال ، مالك اليوم الذى لا بَيْع فيه ولا خِلال ؛ أحمَدُه على حُسْن البلاء ؛ وتظاهُرِ النعماء ، وفى كلّ حالٍ من شدة أو رخاء . أحمدُه على نِعمَه التؤام ، وآلائه العِظام ، حَمْداً يستنير[٤] بالليل والنهار . وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له ، كلمة النَّجاة فى الحياة ؛ وعند الوفاة ؛ وفيها الخَلاص يوم القِصاص ؛ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، النبىّ المصطفى ، وإمامُ الهدى ؛ صلى الله عليه وسلم . ثم كان من قضاء[٥] الله أنْ جَمَعنا وأهلَ ديننا فى هذه الرُّقعة من الأرض ، والله يعلم أنى كنتُ كارهاً لذلك ولكنهم لم يبلعونا ريقَنا ، ولم يتركونا نرتادُ لأنفسنا ، وننظرُ لمعادنا ؛ حتى نزلوا بين أظهرنا ، وفى حَريمنا وبَيْضتنا . وقد علمنا أن فى القوم أحلاماً وطَغَاماً ، ولسنا نأمَنُ من طَغَامهم على ذرارينا ونسائنا ؛ ولقد كنّا نحبُّ ألّا نقاتل أهلَ ديننا ، فأخرجُونا حتى صارت الأمور إلى أنْ قاتلناهم غداً حَمِيّة[٦] فإنا لله وإنا إليه راجعون ، والحمد لله رب العالمين !

(١) هو عامر بن شراحيل الشعبى .
(٢) صفين : « نعل السيف » .
(٣) ح : « والمن » .
(٤) صفين : « قد استنار » .
(٥) صفين : « مما قضى » .
(٦) صفين : « كراهية » .

أما والذى بعثَ محمداً بالرسالة ، لوددْتُ أنى مِتّ منذ سنة ؛ ولكنّ الله إذا أرادَ أمراً لم يستطع العبادُ ردَّه ، فنستعين بالله العظيم ، وأستغفر الله لى ولكم[١] .

***

قال نصر : وحدّثنا عمرو ، عن أبي رَوْق الهمْدانيّ أن يزيد بن قيس الارحبيّ ، حرّض أهلَ العراق بصِفّين يومئذ ، فقال . إن المسلم [السليم][٢] مَنْ سَلِم دينُه ورأيه ، وإنّ هؤلاء القوم ـ والله ـ ما إنْ يقاتلوننا على إقامة دين رأوْنا ضيّعناه ، ولا على إحياء حق رأوْنا أمتْناه ؛ ولا يقاتلوننا إلا على هذه الدنيا ، ليكونوا فيها جبابرةً وملوكا ؛ ولو ظهرُوا عليكم ـ لا أراهم الله ظهوراً ولا سروراً ـ إذاً لو ليَكم[٣] مثلُ سعيد والوليد وعبد الله[٤] بن عامر السفيه ، يحدِّث أحدُهم فى مجلسه بذَيْت وذَيْت[٥] ، ويأخذُ مال الله ويقول : لا إثم علىّ فيه ؛ كأنما أعطِى تُراثَه من أبيه ، كيفَ ! إنما هو مالُ الله ، أفاءه علينا بأسيافِنا ورماحنا ؛ قاتلوا عبادَ الله القومَ الظالمين ، الحاكمين بغير ما أنزل الله ، ولا تأخذكم فيهم[٦] لومَة لائم ، إنهم إن يظهروا عليكم يفسدوا عليكم دينَكم ودنياكم ؛ وهمْ مَنْ قد عرفتم وجرّبتم ؛ والله ما أرادوا باجتماعهم عليكم إلا شرًّا ؛ وأستغفر الله العظيم لى ولكم[٧] .

***

قال نصر : وارتجز عمْرو بن العاص ؛ وأرسل بها إلى علىّ :

---

(١) صفين ٢٧١ ـ ٢٧٣ .

(٢) من صفين .

(٣) صفين : « ألزموكم » .

(٤) سعيد بن العاص والى عثمان على الكوفة بعد الوليد بن عقبة ؛ ووالى معاوية على المدينة . والوليد ابن عقبة ، أخو عثمان لأمه ؛ ولاه عثمان على الكوفة ثم عزله عنها لشربه الخمر . وعبد الله بن عامر بن كريز ابن خال عثمان ، والى عثمان ومعاوية على البصرة .

(٥) ذيت وذيت ؛ كناية عن الحديث ؛ مثل : « كيت وكيت » .

(٦) صفين : « فى جهادهم » . وفى ج : « فيه » .

(٧) صفين ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

لا تأمَنَنّا بعدها أبا حسَنْ ... إنا نُمِرّ الأمرَ إمرارَ الرَّسَنْ(١)

ويروى : * خُذْها إليك واعلمنْ أبا حسَنْ *

لتصبحنّ مثلها أم لُبُنْ(٢) ... طاحِنَةً تدقُكُمْ دَقّ الحُفَنْ(٣)

قال : فأجابه شاعر من شعراء أهل العراق :

ألا احذرُوا فى حربكم أبا حسَنْ ... ليثاً أبا شِبْلَيْن محذُور فطِنْ

يدقُكُمْ دَقّ المهارِسِ الطُّحُنْ(٤) ... لتُغْبَنَنّ ياجاهلا أىّ غبَنْ

* حتى تعَضّ الكفّ أو تقْرَع سِنّ(٥) *

***

قال نصر : فحدّثنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، عن الشعبىّ أن أوّل فارسين التقيافى هذا اليوم – وهو اليوم السابع من صَفَر ، وكان من الأيام العظيمة فى صِفِّين ، ذا أهوال شديدة – حُجْر الخير وحُجْر الشرّ ؛ أما حُجْر الخير فهو حُجْر بن عدىّ ، صاحب أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وأما حُجْر الشرّ فابن عمّه ؛ كلاهما من كِنْدة ، وكان من أصحاب(٦) معاوية ، فاطّعنا برمحيهما ، وخرج رجلٌ من بنى أسَد ؛ يقال له خزيمة ، من عَسْكر معاوية ، فضرب حُجْر بن عدىّ ضربةً برمحه ، فحمَل أصحابُ علىّ عليه السلام فقتلوا خزيمة الأسدىّ ، ونجا حُجْر الشرّ هاربا ، فالتحق بصفّ معاوية . ثم برز حُجْر الشرّ

---

(١) إمرار الرسن : إحكام فتله ، وفى صفين : « نمر الحرب » .
(٢) اللبن : جمع لبون ؛ وهى ذات اللبن من الإبل .
(٣) الحفن : جمع حفنة ؛ وهى ملء الكفين من الشىء اليابس .
(٤) المهاريس : جمع مهراس ؛ وهو حجر مستطيل منقور يهرس به الحب .
(٥) بعده فى صفين ٢٧٤ :

* ندامةً أن فاتكُمْ عدُّ السُّنَنْ *

(٦) صفين : « وكان مع معاوية » .

ثانية ، فبرز إليه الحكَم بن أزهر من أهل العراق ؛ فقتله حُجْر الشرّ ؛ فخرج إليه رفاعة ابن ظالم الحميرىّ ، من صفّ العراق فقتله ، وعاد إلى أصحابه يقول : الحمد لله الذى قُتل حُجْر الشرّ بالحكَم بن أزهر .

ثم إن عليا عليه السلام دَعا أصحابه إلى أنْ يذهب واحد منهم بمصحَفٍ كان فى يده إلى أهل الشام، فقال : مَنْ يذهب إليهم ، فيدعوهم إلى مافى هذا المصحف ؟فسكت الناس؛ وأقبل فتًى اسمه سعيد ؛ فقال : أنا صاحبُه ؛ فأعادالقول ثانية ، فسكت الناس ،وتقدم الفتى، فقال : أنا صاحبه ، فسلّمه إليه فقبضه بيده ؛ ثم أتاهم فأنشدهم[١] الله ، ودعاهم إلى مافيه فقتلوه ؛ فقال علىّ عليه السلام لعبد الله بن بُدَيل بن ورقاء الخزاعىّ : احمِلْ عليهم الآن .

فحمَل عليهم بمن معه من أهل الميمنة ، وعليه يومئذ سَيْفان ودرعان ؛ فجعل يضرب بسيفه قُدُما ، ويقول :

لَمْ يَبْقَ غَيرُ الصَّبْرِ والتوَكُّلْ ... والتُّرس والرمح وسيفٌ مِقْصَلْ[٢]

ثم التمشّى فى الرَّعيل الأوَّلْ ... مَشْىَ الجمالِ فى حياض المنهل[٣]

فلم يزل يحمل حتى انتهى إلى معاوية ؛ والذين بايعوه إلى الموت ، فأمرهم أن يصمُدوا لعبد الله بن بُدَيل ، وبعث إلى حبيب بن مسلمة الفِهْرِىّ وهو فى الميسرة ، أن يحملَ عليه بجميع مَنْ معه ، واختلط النَّاس ، واضطرم الفَيْلَقان ؛ ميمنة أهل العراق وميسرة أهل الشام ؛ وأقبل عبدُ الله بن بُدَيْل يضرِب الناس بسَيْفه قُدُماً ؛ حتى أزال معاوية عن مَوْقفه وجعل ينادى : ياثَاراتِ عثمان ! وإنما يعنى أخاً له قد قتل ؛ وظن معاوية وأصحابُه أنه يعنى عثمان بن عفان ؛ وتراجع معاوية عن مكانه القَهْقَرَى كثيراً وأشفق على نفسه ؛ وأرسل إلى حبيب بن مسلمة مرة ثانية ، وثالثة ، يستنجده ويستصرخه ، ويحمل حبيب حمْلةً

---

(١) ج : « ناشدهم » .

(٢) فى الأصول : « مصقل » وما أثبته من صفين .

(٣) بعده فى صفين :

* واللهُ يَقْضِى مايشا وَيفعَلْ *

شديدة بميسرة معاوية على ميمنة العراق ، فكشفها حتى لم يبق مع ابن بُديل إلا نحو مائة إنسان من القرّاء ، فاستند بعضهم إلى بعض ، يحمون أنفسهم ، ولجج ابن بديل فى النّاس وصمم على قتل معاوية ، وجعل يطلب موقفه ، ويصمد نحوه ؛ حتى انتهى إليه ؛ ومع معاوية عبد الله بن عامر واقفاً، فنادى معاوية فى الناس[1] : وَيْلَكُم ! الصخر والحجارة إذا عجزتم عن السلاح . فرضخه الناس بالصّخر والحجارة ، حتى أثخنوه فسقط ، فأقبلوا عليه بسيوفهم، فقتلوه .

وجاء معاوية وعبد الله بن عامر حتى وقفا عليه ؛ فأمّا عبد الله بن عامر فألقى عمامته على وجهه ، وترحّم عليه ؛ وكان له أخا صديقا من قبلُ ، فقال معاوية : اكشف عن وجهه فقال : لا والله لا يمثّل به وفىّ روح ! فقال معاوية : اكشف عن وجهه فإنا لا نمثّل به ؛ قد وهبناه لك . فكشف ابن عامر عن وجهه ، فقال معاوية : هذا كبش القوم وربّ الكعبة ، اللهم أظفِرْنى بالأشتر النخعى والأشعث الكندىّ ! والله ما مثل هذا إلا كما قال الشاعر[2] :

أخو الحرْب إن عَضّت به الحربُ عَضّها ... وإن شمّرَتْ عن سَاقِها الحربُ شمّرا
ويحمِى إذا ما الموتُ كان لقـاؤه ... قِدَى الشّبْر يحمى الأنفَ أن يتأخّرا[3]
كليثٍ هِـزَبْرٍ كان يحمى ذِمارَهُ ... رمَتْه المنـايا قَصْدَها فتقطّرا[4]

ثم قال : إنّ نساء خُزاعة لو قدرت على أنْ تقاتلنى فَضْلا عن رجالها ، لفعلت[5] .

* * *

قال نصر : حدّثنا عمرو[6] ، عن أبى رَوْق ، قال : استعلى أهلُ الشام عند قتل ابن بُديل على أهل العراق يومئذ ، وانكشف أهلُ العراق من قِبَل الميمنة ، وأجفلوا إجفالا[7]

(١) ا ، ب ، صفين : « بالناس » ، وما أثبته من ج .
(٢) هو حاتم الطائى ، ديوانه ١٢١ .
(٣) قدى الشبر : قدره .
(٤) تقطر : خر صريعاً .
(٥) صفين ٢٧٧ ، ٢٧٨ . (٦) هو عمرو بن شمر .
(٧) صفين : « وانجفل الناس عليهم » .

شديداً ، فأمر عليٌّ عليه السلام سَهل بن حُنَيف ، فاستقدم مَنْ كان معه ، ليرفُد الميمنة ويُعَضِّدها ،فاستقبلهم جموعُ أهل الشام فى خَيْلٍ عظيمة ، فحملتْ عليهم ، فألحقتهم بالميمنة، وكانت ميمنةُ أهْلِ العراق متصلةً بموقف عليّ عليه السلام فى القَلْب فى أهل اليمن، فلما انكشفوا انتهت الهزيمة إلى عليّ عليه السلام ، فانصرف يمشى نحو الميسرة ، فانكشف مُضَر عن الميسرة أيضاً ، فلم يبق مع عليّ عليه السلام من أهل العراق إلا ربيعة وحدها فى الميسرة(١) .

* * *

قال نصر : فحدثنا عمرو ، قال: حدثنا مالك بن أعين، عن زيد بن وهب ،قال :لقد مَرّ عليّ عليه السلام يومئذ ومعه بنوه نحو الميسرة، ومعه ربيعة وحدها، وإنّى لأرى النَّبل يمرّ بين عاتقه ومَنْكِبيه ، وما من بنيه إلا مَنْ يقيه بنفسه ،فيكره عليّ عليه السلام ذلك. فيتقدّم عليه ، ويحول بينه وبين أهل الشام ويأخذه بيده إذا فعل ذلك ، فيلقيه من ورائه، ويبصر به أحمر مولى بنى أمية ، وكان شجاعاً ، وقال عليّ عليه السلام : وربِّ الكعبة ، قتلنى الله إن لم أقتلك ! فأقبل نحوه ، فخرج إليه كَيْسان مولى عليّ عليه السلام ، فاختلفا ضربتيْن ، فقتله أحمر ، وخالط عليًّا ليضربَه بالسيف ؛ وينتهزه عليّ ، فتقع يده فى جَيْب دِرْعه ، فجذبه عن فرسه ، فحمله على عاتقه؛ فوالله لكأنّى أنظرُ إلى رِجلىْ أحمر تختلفان على عُنق عليّ ، ثم ضرب به الأرض ،فكسر مَنْكِبه وعَضُدَيْه ، وشدّ ابنا عليّ :حسين ومحمد فضرباه بأسيافهما حتى بَرَد ، فكأنى أنظر إلى عليّ قائماً ، وشبلاه يضربان الرَّجُل حتى إذا أتيا عليه ، أقبلا على أبيهما ، والحسن قائم معه ، فقال له عليّ : يابنيّ ؛ مامنعك أن تفعل كما فعل أخواك ؟ فقال : كَفَيانى ياأمير المؤمنين .

---

(١) صفين ٢٨٠ .

قال : ثم إنّ أهل الشام دَنَوْا منه يريدونه ؛ والله ما يزيدُه قربهم منه ودنوّهم إليه سرعة فى مشيته ؛ فقال له الحسن : ما ضرّك لو أسرعت حتى تنتهىَ إلى الذين صبروا لعدوك من أصحابك ؟ قال : يعنى ربيعة الميسرة — فقال علىّ : يا بنىّ إنّ لأبيك يوماً لن يعدُوَه ولا يبطئْ به عند السعْى ، ولا يقرّبه إليه الوقوف ؛ إن أباك لا يبالى[1] ؛ إن وقع على الموت أو وقع الموت عليه[2] .

***

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شمِر ، عن جابر ، عن أبى إسحاق قال : خرج علىّ عليه السلام يوماً من أيام صِفّين ، وفى يده عَنَزة[3] ، فمرّ على سعيد بن قيس الهمْدانىّ ، فقال له سعد : أما تخشَى يا أمير المؤمنين أنْ يغتالك أحدٌ وأنت قُرْب عدوّك ؟ فقال علىّ عليه السلام : إنّه ليس من أحد إلا وعليه من الله حَفَظَة يحفظونه من أن يتردّى فى قَلِيب[4] ، أو يخرّ عليه حائط ، أو تصيبه آفة ؛ فإذا جاء القَدَر خَلّوا بينه وبينه[5] .

قال نصر : وحدثنا عمرو ، عن فُضَيل بن خَدِيج ، قال : لما انهزمتْ ميمنةُ العراق يومئذ أقبَـلَ علىّ عليه السلام نحو الميسرة يركض ؛ يستثيب[6] الناس ويستوقفهم ، ويأمرُهم بالرجوع نحو الفزَع ، فمرّ بالأشتر ، فقال : يامالك ، قال : لبيك يا أمير المؤمنين ! قال : ائت هؤلاء القَوم ، فقل لهم : أين فِراركم من الموت الذى لن تُعجزوه ، إلى الحياة التى لاتَبقَى لكم ! فمضى الأشتر ، فاستقبل الناس منهزِمين ، فقال لهم الكلمات ، وناداهم : إلىّ أيها الناس ، أنا مالك بن الحارث ، يكرّرها ، فلم يَلوِ أحدٌ منهم عليه ، وظنّ أنّ

---

(١) صفين : « ما يبالى وقع عليه الموت » .
(٢) صفين ٢٨١ ، ٢٨٢ .
(٣) العنزة : رمح صغير فى أسفله زج .
(٤) القليب : البئر العادية القديمة .
(٥) صفين ٢٨٢ .
(٦) يستثيب الناس : يسترجعهم .

« الأشتَر » أعرفُ فى الناس من « مالك بن الحارث » ، فجعل ينادى : ألا أيها الناس ، فأنا الأشتر ؛ فانقلبَ نحوه طائفةٌ ، وذهبت عنه طائفة ؛ فقال : عَضَضْتُمْ بِهَنِ أبيكم ! ما أقبح والله ما فعلتم[1] اليوم ! أيها الناس ، غُضُّوا الأبصار ، وعَضُّوا على النواجذ ، واستقبلوا القوم بهامِكم وشدُّوا عليهم شدّةَ قوم موتورين بآبائهم وأبنائهم وإخوانهم ، حَنَقاً على عدوّهم . قد وطّنُوا على الموت أنفسَهم كى لا يُسبقوا بثأر . إنّ هؤلاء القوم والله لن يقاتلوكم إلا عن دينكم ، ليطفئوا السُّنّة ، ويحيُوا البِدْعة ، ويُدخلوكم فى أمرٍ[2] قد أخرجكم الله منه بحسن البصيرة ، فطِيبوا عبادَ الله نفساً بدمائكم دون دينكم ؛ فإنّ الفِرار فيه سَلْبُ العِزّ والغَلَبة على الفىء ، وذلّ المحيا والممات ، وعارُ الدنيا والآخرة ، وسَخَط الله وأليم عقابه .

ثم قال : أيها الناس ، أخلصوا إلىّ مذحِجاً ، فاجتمعت[3] إليه مذحِج فقال لهم : عَضَضْتُمْ بِصُمّ الجندل ! والله ما أرضيتم اليوم ربَّكم ، ولا نصحتم له فى عَدُوّه ، وكيف ذلك وأنتم أبناء الحرب ، وأصحاب الغارات ، وفِتيان الصباح ، وفرسان الطِّراد ، وحُتوف الأقران ، ومذحِج الطِّعان ؛ الذين لم يكونوا سُبِقوا بثأرهم ، ولم تُطلّ دماؤهم ، ولم يعرفوا فى موطنٍ من المواطن بخسْفٍ ! وأنتم سادة مِصْرِكم[4] ، وأعزّ حىّ فى قومكم ؛ وما تفعلوا فى هذا اليوم فهو مأثورٌ بعد اليوم ؛ فاتقوا مأثُور الحديث فى غدٍ ، واصدقوا عدوّكم اللقاء ؛ فإنّ الله مع الصابرين ؛ والذى نفس مالكٍ بيده ما من هؤلاء — وأشارَ بيده إلى أهلِ الشام — رجلٌ على مثل جَناح البعوضة من دين الله ، لله أنتم ! ما أحسنتم اليوم القِراع ، احبِسوا سوادَ وجهى يرجعْ فيه دمى ، عليكم هذا السواد الأعظم ، فإن الله لو قد فَضّه تَبِعه من بجانبيه كما يتبع السيل مقدّمه .

---

(١) صفين : « ما قاتلتم اليوم » وفى الطبرى : « ما قاتلتم منذ اليوم » .

(٢) ج : « دين » . (٣) الطبرى : « فأقبلت إليه مذحج » .

(٤) صفين : « وأنتم أحد أهل مصركم » .

فقالوا : خذ بنا حيث أحببتَ ، فصمَد بهم نحو عُظْمهم واستقبله أشباهُهم من همْدان ؛ وهم نحو ثمانمائة مقاتل قد انهزموا آخرَ الناس ، وكانوا قد صبروا فى ميمنة علىّ عليه السلام ؛ حتى قُتِل منهم مائة وثمانون رجلا ، وأصيب منهم أحدَ عشر رئيسا ، كلما قتِل منهم رئيس أخذ الراية آخر ، وهم بنو شُرَيح الهمْدانيون وغيرهم من رؤساء العشيرة ، فأوّل مَنْ أصيب منهم كُريب بن شريح ، وشرحبيل بن شريح ، ومرثد بن شريح ، وهبيرة بن شريح ، وهريم[1] بن شريح ، وشهر بن شُريح ، وشمر بن شريح ، قتل هؤلاء الإخوة الستّة فى وقت واحد .

ثم أخذ الراية سفيان بن زيد ، ثم كرب بن زيد ، ثم عبد[2] بن زيد ، فقُتِل هؤلاء الإخوة الثلاثة أيضا ، ثم أخذ الراية عمير بن بشر ، ثم أخوه الحارث بن بشر ، فقتلا جميعا ، ثم أخذ الراية أبو القلوص وهب بن كُريب ، فقال له رجل من قومه : انصرف يرحمك الله بهذه الراية ، ترَحها الله فقد قُتِل الناس حَوْلها ، فلا تقتل نَفْسك ، ولا مَنْ بقى معك . فانصرفوا وهم يقولون : ليت لنا عديداً من العرب يحالفوننا على الموت ، ثم نستقدم نحن وهم فلا ننصرف حتى نظفر أو نقتل ، فمرّوا بالأشتر وهم يقولون هذا القول فقال لهم الأشتر : أنا أحالفكم وأعاقدكم على ألّا نرجع أبدا ؛ حتى نظفَر أو نهلِك ، فوقفوا معه على هذه النيّة والعزيمة ، فهذا معنى قول كَعْب بن جُعَيل :

* وهمدان زُرْقٌ تبتغِى مَنْ تحالفُ *

قال : وزحف الأشترُ نحو الميمنة ، وثاب إليه أناس تراجَعُوا من أهل الصبر[3] والوفاء

(١) الطبرى : « يريم » .
(٢) كذا فى صفين وتاريخ الطبرى .
(٣) صفين : « من أهل البصيرة » .

والحياء ، فأخذ لا يصمدُ لـكتيبة إلا كشفها ، ولا لجمع إلا حازه ورده ، [1] فإنه لـكذلك إذا مرّ بزياد بن النضر مستلحِما ، فقال الأشتر : هذا والله الصبر الجميل ، هذا والله الفعل الـكريم إلىّ ، وقد كان هو وأصحابه فى ميمنة العراق ، فتقدم فرفع رايتَه لهم ، فصبروا وقاتل حتى صُرِع [1] ، ثم لم يلبث الأشتر إلا يسيرا كَلَا شىء حتى مرّ بهم [2] يزيد بن قيس الأرحبىّ [3] مستلحِما أيضاً محمولا ، فقال الأشتر : مَنْ هذا ؟ قالوا : يزيد بن قيس ، لما صُرِع زياد بن النضر دَفَع رايتَه لأهل الميمنة ، فقاتل تحتها حتى صُرِع ، فقال الأشتر : هذا والله الصبر الجميل ، هذا والله الفعل الـكريم ، ألا يستحيي الرجلُ أن ينصرف لا يَقتُل [ولم يُقتَل] [3] ولم يُشفَ به على القتل [4] !

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو عن الحارث بن الصبّاح [5] ، قال : كان بيدِ الأشتر يومئذ صفيحة له يمانية ، إذا طأطأها خِلت فيها ماء ينصبّ ، وإذا رفعها يكاد يُغشِي البصرَ شُعاعها ؛ ومرّ يضرب الناس بها قُدُما ، ويقول :

* الغَمَرَاتُ ثُمَّ يَنْجَلِينا [6] *

(١ ـ ١) اصفين : « فإنه لـكذلك إذ مر بزياد بن النضر يحمل إلى العسكر ، فقال : من هذا ؟ قيل : زياد بن النضر ، استلحم هو وأصحابه فى الميمنة ، فتقدم زياد ؛ فرفع لأهل الميمنة رايته ؛ فقاتل حتى صرع » .

(٢) صفين : « حتى مروا بيزيد بن قيس محمولا » .

(٣) من صفين ، وفى الطبرى : « لا يقتل ولا يقتل ، ولا يشفى به على القتل » .

(٤) صفين ٢٨٢ ـ ٢٨٦ ، والطبرى ٥ : ١٩ ـ ٢٢ .

(٥) صفين والطبرى : « الحر بن الصباح » .

(٦) هو مثل ؛ رواه العسكرى فى الأمثال ١٥٠ ، وقال : الغمرات : الشدائد ؛ يقول : اصبر فى الشدائد فإنها تنجلى وتذهب ، ويبقى حسن أثرك فى الصبر عليها ؛ وهو قول الراجز :

الغمرات ثم ينجَلِينْ عنّا وَينزِلْن بآخرينْ

* شدائدُ يتبعهنّ لِينْ *

وفى مجمع الأمثال للميدانى ٢ : ٥٨ : المثل للأغلب العجلى ، ورواه : « الغمرات ثم ينجلين »

قال : فبصر به الحارث بن جُمْهان الجُعفىّ ، والأشتر مقنّع فى الحديد فلم يعرفه ، فدنا منه ، وقال له : جزاك الله منذ اليوم عن أميرِ المؤمنين وعن جماعة المسلمين خيرا. فعرفه الأشتر فقال : يابن جُمهان ، أمثلك يتخلّف اليوم عن مِثْل موطنى هذا ! فتأمله ابن جُمْهان فعرَفه — وكان الأشترُ من أعظمِ الرجال وأطولهم ؛ إلا أن فى لحمه خِفّة قليلة — فقال له : جعلت فداك ! لا والله ما علمتُ مكانَك حتى الساعة ، ولا والله لا أفارقك حتى أموتَ .

قال نصر : وحدثنا عمرو ، عن الحارث بن الصبّاح ، قال : رأى الأشترُ يومئذ مُنقذا وحميرا ابنى قَيس اليقظيان[1] فقال منقذ لحمير : مافى العرب رجلٌ مثل هذا ؛ إن كان ما أرى من قتاله على نية[2] ! فقال له حِمير : وهل النيّة إلا ما ترى ! قال : إنى أخافُ أن يكون يحاول مُلْكا[3] .

***

قال نصر : وحدّثنا عمرو ، عن فُضَيل بن خَديج ، عن مولى الأشتر قال : لما اجتمع مع الأشتر عُظْمُ من كان انهزم من الميمنه ، حرّضهم ، فقال لهم :

عَضّوا[4] على النَّواجِذ من الأضراس ، واستقبلوا القوم بهامِكم ؛ فإن الفِرارَ من الزَّحْف [فيه] ذهابُ العزّ ، والغلبة على الفىْء ، وذلّ المحيا والممات ؛ وعار الدنيا والآخرة[5] .

---

(١) الطبرى : « الناعطيان » .

(٢) صفين . « على نيته » .

(٣) صفين ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، الطبرى ٦ : ٢٢ .

(٤) من صفين .

(٥ — ٥) الخطبة كما وردت فى تاريخ الطبرى : « عضوا على النواجذ من الأضراس ، واستقبلوا القوم بهامكم ، وشدوا شدة قوم موتورين ، ثأراً بآبائهم وإخوانهم حناقاً على عدوهم ، قد وطنوا على الموت أنفسهم ؛ كيلا يسبقوا بواتر ، ولا يلحقوا فى الدنيا عاراً ؛ وايم الله ما وتر قوم قط بشىء أشد عليهم من أن يوتروا دينهم ؛ وإن هؤلاء القوم لا يقاتلونكم إلا عن دينكم ليميتوا السنة ، ويحيوا البدعة ، ويعيدوكم فى ضلالة ، قد أخرجكم الله عز وجل منها بحسن البصيرة ، فطيبوا عباد الله أنفساً بدمائكم ، دون دينكم ؛ فإن ثوابكم على الله ، والله عنده جنات النعيم ؛ وإن الفرار من الزحف فيه السلب للعز والغلبة على الفىء ، وذل المحيا والممات ، وعار الدنيا والآخرة » .

ثم حمل على صفوف أهل الشام حتى كشفهم، فألحقهم بمضارب معاوية ؛ وذلك بين العصر والمغرب .

قال نصر : وحدثنا عمرو ، عن مالك بن أعين ، عن زيد بن وهب ، أنّ عليا عليه السلام لمّا رأى ميمنته قد عادت إلى موقفها ومصافّها، وكشفت مَنْ بإزائها حتى ضاربُوهم في مواقفهم ومراكزهم ، أقبل حتى انتهى إليهم ، فقال :

إني قد رأيت جوْلتكم وانحيازَكم من صُفوفكم ، يحُوزكم[١] الجفاة الطغاة[٢] ، وأعراب أهل الشام ، وأنتم لهاميم العرب ، والسَّنام الأعظم ، وعُمّار الليل بتلاوة القرآن؛ وأهلَ دعوة الحقَ إذ ضلّ الخاطئون. فلولا إقبالكم بعد إدباركم وكرّكم بعد انحيازكم، وجب عليكم ما وجَب على المولّي يوم الزّحف دُبُره ، وكنتم فيما أرى من الهالكين؛ ولقد هوّن علىّ بعضَ وجدِي ، وشَفى بعضَ لاعج[٣] نفسى ، أنى رأيتكم بأخَرَة ، حُزتموهم كما حازوكم ، وأزلتموهم عن مصافّهم كما أزالوكم ، تحشونهم[٤] بالسيوف ، يركب أولهم آخرَهم ، كالإبل المطرودة الهِيم[٥] ، فالآن فاصبروا ، نزلت عليكم السكينة وثبّتكم الله باليقين ؛ وليعلم المنهزم أنه يُسخط ربّه ، ويوبق نفسَه ؛ وفى الفرار موجدَة الله عليه ، والذلّ اللازم له ، وفساد العيش . وإن الفارّ لا يزيد الفِرارُ فى عُمره ، ولا يرضِى ربَّه ، فموت الرجل محقًّا قبل إتيان هذه الخِصال ، خير من الرضا بالتلبّس بها ، والإصرار عليها .

***

قال نصر : وحدثنا عمرو ، قال : حدثنا أبو علقمة الخثعمىّ ، أن عبدالله بن حنش الخثعمىّ ، رأس خثعم الشام ، أرسل إلى أبى كعب الخثعمىّ رأس خثعم العراق : إن شئت تواقفنا فلم نقتتل ، فإن ظهر صاحبُكم كنّا معكم ، وإن ظهر صاحبنا كنتم معنا، ولا يقتل

(١) يحوزكم : ينحيكم عن مراكزكم .
(٢) صفين : « الطغام » .
(٣) صفين : « أحاح نفسى » ، والأحاح . اشتداد الحزن والغيظ .
(٤) صفين : « تحوزونهم » .
(٥) الهيم : العطاش .

بعضُنا بعضا ، فأبى أبو كعب ذلك . فلما التقتْ خثعم وخثعم ، وزحف الناس بعضهم إلى بعض ،قال عبدالله بن حنش لقومه: يامعشر خَثْعم ؛ إنا قد عرضنا على قومنامن أهل العراق الموادَعة ؛ صِلَةً لأرحامها ، وحفظا لحقها ، فأبوا إلا قتالَنا ، وقد بدأونا بالقطيعة، فكُفُّوا أيديَكم عنهم حِفظاً لحقهم أبدا ما كَفُّوا عنكم؛فإن قاتلوكم فقاتِلُوهم. فخرج رجل من أصحابه فقال : إنّهم قد ردّوا عليك رأيك،وأقبلوا إليك يقاتلونك ، ثم برز. فنادى رجل : ياأهل العراق . فغضب عبد الله بن حنش،قال : اللهم قَيِّض له وهبَ بن مسعود – يعني رجلا من خثعم الكوفة ، كان شجاعا يعرفونه في الجاهلية ، لم يبارزه رجل قطّ إلا قتله – فخرج إليه وهب بن مسعود فقتله، ثم اضطربوا ساعة،واقتتلوا أشدّ قتال؛ فجعل أبو كعب يقول لأصحابه؛يامعشرَ خثعم:خَدِّموا،أي اضرِبوا موضع الخَدَمة؛وهي الخلخال؛يعني اضربوهم في سُوقهم ؛ فناداه عبد الله بن حنش : ياأبا كعب ، الكُلُّ قومك فأنصف ، قال : إي والله وأعظِم . واشتدّ قتالهم ، فحمل شمر بن عبد الله الخثعميّ ، من خثعم الشام، على أبي كعب ، فطعَنه فقتله ، ثم انصرف يبكي ، ويقول : يرحمك الله أبا كعب ! لقد قتلتُك في طاعة قومٍ أنت أمسُّ بي رحِماً منهم ، وأحبُّ إليّ منهم نفساً ؛ ولكني والله لا أدري ما أقول ؛ ولاأرى الشيطان إلاقد فَتَننا ، ولاأرى قريشا إلاوقد لَعِبت بنا ! قال :ووثبَ كعب بن أبي كعب إلى راية أبيه ، فأخذها ففقئت عينه وصرع ؛ ثم أخذها شريح بن مالك الخثعميّ ، فقاتل القوم تحتها حتى صرع منهم حول رايتهم نحو ثمانين رجلا ،وأصيب من خَثْعم الشام مثلُهم ، ثم ردّها شريح بن مالك بعد ذلك إلى كعب بن أبي كعب (1)

***

قال نصر : وحدثنا عمرو ، قال : حدثنا عبد السلام بن عبدالله بن جابر ، أن رايةَ بَجِيلة في صِفّين مع أهل العراق كانت في أحمس مع أبي شداد ، قيس بن المكشوح بن

---

(1) صفين ٢٩١ .

هلال بن الحارث بن عمرو بن عوف(١) بن عامر بن علىّ بن أسلم بن أحمس بن الغوث بن أنمار . قالت له بَجيلة : خذ رايتنا ، فقال : غيرى خيرٌ لكم منِّى ، قالوا : لا نريدُ غيرك ، قال : فوالله لئن أعطيتُمونيها لا أنتهى بكم دونَ صاحب الترس المذهَّب ، قالوا : وكان على رأس معاوية رجلٌ قائم معه تُرْسٌ مُذهَّب ، يستره من الشمس ، فقالوا : اصنع ماشئت ، فأخَذَها ثم زَحَف بها(٢) ، وهم حوله يضربون الناس ، حتى انتهى إلى صاحب التُّرس المذهب ، وهُو فى خَيْلٍ عظيمة من أصحاب معاوية ، وكان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، فاقتتل الناسُ هناك قتالا شديدا ، وشدّ أبو شدّاد بسيفه نحو صاحب التُّرس ، فتعرّض له رومىّ من دونه لمعاوية ، فضرب قدم أبى شَدّاد فقطعها ، وضرب أبو شداد ذلك الرومىّ فقتله ، وأسرعت إليه الأسنّة ، فقتِل فأخذ الراية بعده عبد الله بن قَلَع الأحمسىّ ، وارتجز وقال :

لا يُبعِد الله أبا شدادِ حيث أجابَ دَعْوة المنادِى
وشدّ بالسيف على الأعادِى نِعْمَ الفتى كان لَدَى الطِّرادِ

* وفى طعان الخيل والجلادِ *

ثم قاتل حتى قتل ، فأخذها بعده أخوه عبد الرحمن بن قَلَع ، فقاتل حتى قتل ، ثم أخذها عفيف بن إياس الأحمسىّ ، فلم تزل بيده حتى تحاجز الناس(٣) .

***

---

(١) صفين : « عمرو بن عاص » ، الطبرى : « عمرو بن جابر » .

(٢) فى صفين : ثم زحف وهو يقول :

إنّ عليًّا ذو أناة صارمُ جَلْدٌ إذا ما حَضَر العزائمْ
لما رأى ماتفعَل الأشائمُ قامَ له الذِّرْوَة والأكارِمُ

* الأشيبان : مالكٌ وهاشم *

(٣) صفين ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، الطبرى ٥ : ٢٥ ، ٢٦ .

قال نصر : وحدّثنا عمرو ، قال : حدّثنا عبد السلام ، قال : قُتِل يومئذ من بنى أَحْمَس حازم بن أبى حازم ، أخو قيس بن أبى حازم ، ونعيم بن شهيد بن التَّغْلَبيّة (١) ، فأتى حَمِيمُه ، ابن عمه نعيم بن الحارث بن التغلبيّة (١) معاوية — وكان من أصحابه — فقال : إن هذا القتيل ابنُ عمى ؛ فهبه لى أدفنه ، فقال : لا تدفنوهم ؛ فليسوا لذلك بأهل ، والله ماقدرنا على دَفْن عثمان بينهم إلا سرًّا ، قال (٢) : والله لتأذَنَنّ لى فى دفنه أو لألحقَنّ بهم ولأدعنّك، قال : ويحك ! ترى أشياخ العرب لانواريهم ، وأنت تسألنى فى دَفْن ابن عمك ! ادفنه إن شئت ، أودعه (٣) . فأتاه فدفنه (٤) .

***

قال نصر : وحدثنا عَمرو ، قال : حدثنا أبو زهير العبسىّ ، عن النضر بن صالح ، أنّ راية غطفان العراق كانت مع عَيّاش بن شريك بن حارثة بن جُندَب بن زيد بن خلَف ابن رواحة ، فخرج رجلٌ من آل ذى الكَلاع ، فسأل المبارزة ، فبرز إليه قائد بن بكير العبسىّ ، فبارزه فشدّ عليه الكَلاعىّ ، فأوْهَطه (٥) ، فقال أبو سُلَيم عَيّاش بن شريك لقومه (٦) : إنى مبارزٌ هذا الرجل ، فإن أُصِبْت فرأسكم الأسود بن حبيب بن جُمانة ابن قيس بن زهير ، فإن أُصيب فرأسكم هَرِم بن شتير بن عمرو بن جُندَب ، فإن أُصيب فرأسكم عبدالله بن ضرار ؛ من بنى حنظلة بن رواحة . ثم مشى نحو الكَلاعىّ ، فلحقه هرم بن شتير فأخذ بظهره ، وقال : ليَمسّك رحم ؛ لاتبرزْ إلى هذا الطُّوال ؛ فقال : هبلتْك الهَبول (٧) ! وهل هو إلا الموت ! قال : وهل الفرار إلا منه ! قال : وهل منه بدّ ! والله لأقتلنّه ؛ أو ليُلحِقَنّى

(١) صفين والطبرى : « ابن العلية » .

(٢) ج : « فقال » .

(٣) الطبرى : « أودع » .

(٤) صفين ٢٩٣ ، الطبرى ٥ : ٢٦ .

(٥) أوهطه : صرعه .

(٦) صفين : « فخرج إليه عباس بن شريك أبو سليم فقال لقومه » .

(٧) الهبول ، بفتح الهاء : التى لا يبقى لها ولد .

بقائد بن بكير . فبرز له ومعه حَجَفة من جُلود الإبل فدنا منه ؛ فإذا الحديد مُفرَغ على[1] الكَلاعىّ لا يبين من نحره إلا مثل شِراك النعل من عنقه بين بَيْضته ودرعه ، فضربه الكَلاعىّ ، فقطع جحفتَهُ إلا نحواً من شِبْر ، فضرَبه عيّاش على ذلك الموضع ؛ فقطع نخاعه ، فقتله ، وخرج ابنُ الكَلاعىّ ثائرا بأبيه ، فقتله بُكَير بن وائل[2] .

***

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شَمِر ؛ عن الصَّلْت بن زُهير النهدىّ أنّ راية بنى نَهْد بالعراق أخذها مسروق بن الهيثم بن سلمة فقتل ، ثم أخذها صخر بن سمىّ فارتُثّ[3] ، ثم أخذها على بن عمير ، فقاتل حتى ارتُثّ . ثم أخذها عبد الله بن كعب فقتِل ، ثم أخذها سلمة بن خُذَيم بن جُرثومة ، فارتُثّ وصرع ، ثم أخذها عبد الله بن عمرو بن كبشة ، فارتُثّ ، ثم أخذها أبو مُسبِّح بن عمرو فقتل ، ثم أخذها عبد الله بن النزّال فقتِل ، ثم أخذها ابن أخيه عبد الرحمن بن زهير ، فقتِل ، ثم أخذها مولاه مخارق فقتل ؛ حتى صارت إلى عبد الرحمن بن مِخْنف الأزدىّ[4] .

***

قال نصر : فحدثنا عمرو : قال : حدثنا الصَّلت بن زهير ، قال : حدثنى عبد الرحمن بن مِخنف ، قال : صرع يزيد بن المغفّل إلى جنبى ، فقتلتُ قاتلَه وقمت على رأسه ، ثم صُرِع أبو زينب بن عروة ، فقتلتُ قاتلَه ، وقمت على رأسه وجاءنى سفيان بن عوف ، فقال : أقتلتم يزيد بن المغفل ؟ فقلت : إى والله

---

(١) صفين : « فنظر عياش بن شريك ؛ فإذا الحديد عليه مفرغ لا يرى منه عورة » .

(٢) صفين ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

(٣) ارتث ، بالبناء للمجهول : حمل من الحرب جريحاً ولم يقتل .

(٤) صفين ٢٩٥ .

إنه لَهذا الذى ترانى قائماً على رأسه ، قال : ومَنْ أنت حيّاك الله ! قلت : أنا عبد الرحمن ابن مِخنف ، فقال : الشريف الكريم ! حيّاك الله ومرحبا بك يابن عمّ ! أفلا تدفعه الىّ ، فأنا عمّه سفيان بن عوف بن المغفل ! فقلت : مرحبا بك ، أما الآن فنحن أحقُّ به منك ، ولسنا بدافعيه إليك ؛ وأمّا ما عدا ذلك فلَعَمْرِى أنت عمّه ووارثه[1] .

***

قال نصر : حدثنا عمرو ، قال : حدّثنا الحارث بن حصَين ، عن أشياخ الأزْد ، أنّ مِخنف بن سُليم ، خطب لما نُدِبَتْ أزْدُ العراق إلى قتال أزْد الشام ، فقال :

الحمد لله ، والصلاة على محمد رسوله ، ثم قال : إنّ من الخطب الجليل ، والبلاء العظيم ، أنّا صُرِفنا إلى قومنا ، وصُرِفوا إلينا ؛ والله ما هى إلا أيدينا نقطعها بأيدينا ، وما هى إلا أجنحتنا نحذفُها بأسيافنا ، فإن نحن لم نفعل لم نُنَاصِح صاحبَنا ، ولم نواس جماعتَنا ، وإن نحن فعلنا ، فعزّنا آلمنا[2] ، ونارَنا أخمدنا .

وقال جُندَب بن زهير الأزدىّ : والله لو كنا آباءهم وَلَدْناهم ، أو كانوا آباءنا وَلدُونا ، ثم خرجوا عن جماعتنا ، وطَعَنُوا على إمامنا ، ووازروا الظالمين الحاكمين بغير الحقّ على أهل مِلّتنا[3] ودِيننا ـ ما افترقنا بعد أن اجتمعنا ، حتى يرجعوا عمّا هم عليه ، ويدخلوا فيما ندعوهم إليه ، أو تكثر القتلى بيننا وبينهم .

فقال مخنف : [أعزَّ بك الله فى التيه !][4] ؛ والله ما علمتك صغيراً ولا إلا كبيراً مشئوماً ، والله ما ميّلنا[5] فى الرأى بين أمرين قط أيّهما نأتى وأيّهما ندع فى جاهلية ولا إسلام

---

(١) صفين ٢٩٥ ، ٢٩٦ .
(٢) صفين : « أبجنا » .
(٣) صفين : « وذمتنا » .
(٤) من صفين .
(٥) التمييل : الترجيح .

إلا اخترتَ أعسرهما وأنكدهما . اللهمَّ أن تعافينا أحبُّ إلىّ من أنْ تبتلينا ، اللهم أعط كلَّ رجل منا ما سألك .

فتقدم جُندب بن زهير ، فبارز أزديا من أزد الشام ، فقتله الشامى[١] .

***

قال نصر : وحدثنا عمرو ، عن الحارث بن حُصين ، عن أشياخ الحىّ ، أن عتبة بن جويرية[٢] قال يوم صفّين لأهله وأصحابه : ألا إنّ مرعَى الدنيا قد أصبح هَشِيما ، وأصبح شجرها حَصِيدا ، وجديدها سَمَلًا ، وحلوها مُرًّا . ألا وإنّى أنبئكم نبأ امرئٍ صادق ، أنى قد سئمت الدنيا ، وعزفتْ نفسى عنها ، ولقد كنت أتمنّى الشهادة ، وأتعرض لها فى كلِّ حين ، فأبى الله إلا أنْ يُبَلِّغَنى هذا اليوم ؛ ألا وإنّى متعرِّض ساعتى هذه لها ، وقد طمعتُ ألا أحرَمَها ، فما تنتظرون عباد الله من جهاد أعداء الله ؟ أخوفَ الموت القادم عليكم ، الذاهب بنفوسكم ! أو من ضَرْبة كَفٍّ أو جبين بالسيف ! أتستبدلون الدنيا بالنظر إلى وجه الله ومرافقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فى دار القرار ! ما هذا بالرأى السديد .

ثم قال : يا إخوتاه ، إنى قد بعتُ هذه الدار بالدار التى أمامها ، وهذا وجهى إليها ، لا يبرحِ الله وجوهَكم ، ولا يقطِّع أرحامكم .

فتبعه أخواه عبد الله وعوف ، فقالا : لا نطلب ورقَ[٣] العيش دونك ، قبح الله الدنيا بعدك ! اللهم إنّا نحتَسِبُ أنفسنا عندك .

فاستقدَموا جميعا ، وقاتلوا حتى قتلوا[٤] .

***

(١) صفين ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، الطبرى ٥ : ٢٦ ، ٢٧

(٢) كذا فى ج ، وفى ا ، ب : « جوبر » ، وفى صفين : « جويرية » ، وفى الطبرى : « عقبة بن حديد النمرى »

(٣) صفين والطبرى : « رزق الدنيا » .

(٤) صفين ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، الطبرى ٥ : ٢٧ ، ٢٨ .

قال نصر : وحدثنا عمرو ، قال : حدثنى رجل من آل الصَّلت بن خارجة ، أن تميما لما ذهبت لتُهزَم ذلك اليوم ، ناداهم مالك بن حَرِىّ النهشلىّ : ضاع الضِّراب اليوم ، والذى أنا له عبدٌ[1] يابنى تميم ؛ فقالوا : ألا ترَى الناس قد انهزموا ! فقال : ويحكم ! أفرارا واعتذارا ! ثم نادى بالأحساب ، فجعل يكررها ، فقال له قوم منهم : أتنادى بنداء الجاهلية ! إنّ هذا لايحِلّ ، فقال : الفرار وَيلَكم أقبح ، إنْ لم تقاتلوا على الدين واليقين فقاتلوا على الأحساب . ثم جعل يقاتل ويرتجز ، فيقول :

إنّ تميما أخلَفَتْ عنك ابن مُرّ وقد أراهم وهمُ الحىّ الصُّبُرْ

* فإن يفرّوا أو يخيموا الأفرّ[2] *

فقتل مالك ذلك اليوم . وقال أخوه نهشل بن حرّىّ التميمى يرثيه :

تطاولَ هذا اللّيلُ ما كادَ ينجَلِي كَلَيلِ التّمامِ مايريدُ انصِرَاما
وبتّ بذكرَى مالكٍ بكآبةٍ أؤرَّق من بعدِ العشاء نِياما
أبىَ جَزِعى فى مالكٍ غيرَ ذكره فلا تعذلينى إن جزِعْتُ أماما
فأبكى أخى مادام صوتُ حمامةٍ يُؤرِّق من وادى البِطاح حَماما
وأبعث أنواحاً عليه بسُحْرة وتذرِفُ عيناىَ الدُّموع سِجَاما
وأدعو سَرَاةَ الحىّ تبكى لمالكٍ وأبعث نَوْحاً يلتدِمْنَ قيَاما
يقلن : ثوَى ربُّ السماحة والحجا وذو عِزّةٍ يأبَى بها أن يُضَاما
وفارسُ خيل لاتنازَلُ خيلُه إذا اضطرمت نار العدوّ ضِراما
وأحيا عن الفحشاء من ذات كِلّة يرى مايهاب الصالحون حَراما

(١) ا ، ج : « عبده » .
(٢) خام : فر ونكص .

وأجرأ من ليث بخفّان مخـدرٍ   وأمضى إذا رام الرجال صداما(١)

وقال أيضا يرثيه :

بـكّى الفتى الأبيضَ البهلول سُنّتُهُ   عندَ النداء ، فلا نِكْساً ولا وَرَعا(٢)

بـكّى على مالكِ الأضياف إذْ نزَلُوا   حينَ الشتاء وَعزّ الرِّسْلُ فانقطعا(٣)

ولم يجدْ لِقرامٍ غَــيْرَ مُرْبِعَةٍ   مِنَ الشـارِ تُزَجِّى تحتها رُبَعا(٤)

أهوَى لها السيفَ صَلْتاً وَهْى رَاتِمَةٌ   فأوهن السيفُ عظمَ الساق فانجذعا

فجاءهمْ بعـدَ رِفْدِ الناس أطيبُها   وأشبعتْ منهمُ من نام واضطجعا(٥)

يافارسَ الرّوْع يوم الرّوْع قد عَلِمُوا   وصاحبَ العزم لانِكْسا ولا طَبِعا(٦)

ومدرِكَ التَّبْلِ فى الأعـداء يطلبُه   وإن طلبت بقَبْلٍ عنـده مَنَعا(٧)

قالوا : أخُوكَ أتى الناعى بمصرعِـهِ   فانشقّ قلبى غـداةَ القول فانصَدَعا

ثم ارعوَى القلبُ شيئاً بعد طَرْبَتِهِ   والنفس تَعلم أنْ قد أثبتَتْ وَجَعا(٨)

***

قال نصر : وحدثنا عمرو ، قال : حدثنى يونس بن أبى إسحاق ،قال : قال لنا أدهم

---

(١) وبعده فى صفين :

فلا تَرْجُوَنْ ذا أمّةٍ بَعْدَ مالكٍ   ولا جازراً للمنشـآتِ غُلَاما

وقل لهم لايرحلوا الأُدْمَ بعده   ولا يرفعوا نحو الجيـاد لجاما

(٢) السنة : الوجه . والورع : الجبان ، وفى صفين « أبكى » ، فى هذا البيت وتاليه .

(٣) الرسل بالكسر : اللبن.

(٤) تزجى : تسوق . والربع ، بضم ففتح : ما ولد من الإبل فى الربيع .

(٥) صفين : «وقد كفى منهم من غاب واضطجعا » .

(٦) النكس : المقصر عن النجدة .

(٧) التبل : الثأر والذحل ، والطبع : الدنىء الخلق .

(٨) الطربة : المرة من الطرب ؛ وهو هنا الحزن ؛ ويطلق أيضاً على السرور . والخبر والشعر فى صفين ٢٩٩ ــ ٣٠٢

ابن محرز الباهلىّ ، ونحن معه بأذْرُحَ[١] : هل رأى أحدٌ منكم شمِرَ بن ذى الجوْشَن ؟ فقال عبد الله بن كُبار النهدىّ وسعيد بن حازم البَلوِىّ[٢] : نحن رأيناه ، قال : فهل رأيتما ضربةً بوجهه ؟ قالا : نعم ، قال : أنا والله ضربته تلك الضربةَ بصِفّين[٣] .

قال نصر : وحدثنا عمرو ، قال : قد كان خرج أدهم بن محرِز من أصحاب معاوية إلى شمِرْ بن ذِى الجوشَن فى هذا اليوم ، فاختلفا ضربتَيْن ، فضربه أدهم على جبينه ، فأسرع فيه السيفُ حتى خالط العظم ، وضربه شمِر ، فلم يصنع شيئا ، فرجع إلى عسكره ، فشرب ماء وأخذ رُمحاً ، ثم أقبل وهو يقول :

إنّى زعيمٌ لأخى باهِـــلَهْ بطعنةٍ إن لم أمتْ عاجِلَهْ[٤]
وضربةٍ تحت الوَغَى فاصِلَهْ[٥] شبيهةٍ بالقتـــل أو قاتِلَهْ

ثم حمل على أدهم وهو يعرِف وجهه ـ وأدهم ثابت له لم ينصرف ـ فطعنه ، فوقع عن فرسه ، وحال أصحابُه دونه ، فانصرف شَمِر وقال : هذه بتلك[٦] :

قال نصر : وخرج سُويد بن قيس بن يزيد الأرحبىّ من عسكر معاوية يسأل المبارزة ، فخرج إليه من عسكر العراق أبو العمرّطة قيس بن عمرو بن عمير بن يزيد ؛ وهو ابن عمّ سويد ، وكان كلٌّ منهما لا يعرف صاحبَه ، فلما تقاربا تعارفا ، وتواقفا وتساءلا ؛ ودعا كلٌّ واحد منهما صاحبَه إلى دينه[٧] ؛ فقال أبو العمرّطة : أمّا أنا فوالله الذى لا إله إلا هو ؛ لئن استطعت لأضربنْ بسيفى هذه القبة البيضاء ـ يعنى القبّة التى كان فيها معاوية ـ ثم انصرف كلّ واحد منهما إلى أصحابه[٨] .

---

(١) أذرح : بلد فى أطراف الشام .
(٢) صفين : « السلولى » . (٣) صفين ٣٠٣ .
(٤) الطبرى : « إن لم أصب » .
(٥) الطبرى : « أو ضربة تحت القنا والوغى » .
(٦) صفين ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، الطبرى ٦ : ٢٨
(٧) صفين : « إلى ما هو عليه » .
(٨) صفين ٣٠٤

قال نصر : ثم خرج رجل من عسكر الشام من أزْد شنوءة ، يسأل المبارزة ، فخرج إليه رجل من أهل العراق ، فقتله الأزدىّ ، فخرج إليه الأشتر ؛ فما ألبثه أن قتَـله ، فقال قائل : كان هذا ريحاً فصارت إعصارا .

قال نصر : وقال رجل من أصحاب علىّ عليه السلام : أما والله لأحملنّ على معاوية حتى أقتله ، فركب فرساً ، ثم ضربه حتى قام على سنابكه ؛ ثم دفعه فلم ينهنهه شىء عن الوقوف على رأس معاوية ، فهرب معاوية ، ودخل خِباء ، فنزل الرجلُ عن فرسه ودخل عليه ، فخرج معاوية مِنْ جانب الخباء الآخر ، فخرج الرجلُ فى أثره ، فاستصرخ معاوية بالناس ، فأحاطوا به وحالوا بينهما ؛ فقال معاوية : ويحـكم ! إنّ السيوف لم يؤذَنْ لها فى هذا ، ولولا ذلك لم يصِلْ إليـكم ، فعليـكم بالحجارة ، فرضخُوه بالحجارة حتى همد . فعاد معاوية إلى مجلسه .

قال نصر : وحمل رجلٌ من أصحاب علىّ عليه السلام يدعى أبا أيوب — وليس بأبى أيوب الأنصارى — على صفّ أهل الشام ، ثم رجع فوافق رجلاً من أهل الشام صادرا ، قد حمل على صفّ أهل العراق ، ثم رجع فاختلفا ضربتين ، فنفحه أبو أيوب بالسيف ، فأبانَ عنقه ، فثبت رأسُه على جسده كما هو ؛ وكذّب الناس أن يكون هو ضربه ، فأرابهم ذلك ؛ حتى إذا أدخلته فرسه فى صفّ أهل الشام نَدَر رأسه ، ووقع ميتا ، فقال على عليه السلام : والله لأنا من ثبات رأس الرجل أشدُّ تعجبا من الضربة ؛ وإن كان إليها ينتهى وصفُ الواصفين[1] .

وجاء أبو أيوب فوقف بين يدى علىّ عليه السلام ، فقال له : أنت والله كما قال الشاعر :

وَعَلَّمَنا الضربَ آباؤنا ... ونحن نعلِّمُ أيضا بَنِينا

قال نصر : فلما انقضى هذا اليوم بما فيه ، أصبحوا فى اليوم الثامن من صفّين[2] ، والفيلقان متقابلان ؛ فخرج رجلٌ من أهل الشام فسأل المبارزة ، فخرج إليه رجل من أهل العراق ،

(١) ج : « الواصف » ، وصفين : « وصف الضارب » .
(٢) كذا فى ا ، ج ، وفى ب : « صفر » .

فاقتتلا بين الصفّين قتالا شديدا . ثم إن العراقىّ اعتنقه فوقعا جميعا ، وغار الفرسان . ثم إن العراقىّ قهره ، فجلس على صدره ، وكشف المِغفر عنه ؛ يريد ذبحه ؛ فإذا هو أخوه لأبيه وأمّه ، فصاح به أصحاب علىّ عليه السلام : ويحك أجهِزْ عليه ! قال : إنه أخى ، قالوا : فاتركه ، قال : لا والله حتى يأذَن أمير المؤمنين ؛ فأخبِرَ علىٌّ عليه السلام بذلك ، فأرسل إليه أن دَعْه ، فتركه ، فقام فعاد إلى صفّ معاوية[1] .

***

قال نصر : وحدّثنا محمد بن عبيد الله ، عن الجرجانىّ ، قال : كان فارسَ معاوية الذى يُعِدّه لكلّ مبارز ولكلّ عظيم ، حُريث مولاه ، وكان يلبَس سلاح معاوية متشبّها به فإذا قاتل قال الناس : ذاك معاوية . وإنّ معاوية دعاه ، فقال له : ياحُريث ، اتق عليا وضَعْ رمحك حيث شئت . فأتاه عمرو بن العاص ، فقال : ياحريث ، إنك والله لو كنتَ قرشيا لأحبّ لك معاويه أن تقتلَ عليا ، ولكن كَره أن يكون لك حظُّها ؛ فإن رأيتَ فرصة فاقتحِمْ . قال : وخرج علىّ عليه السلام فى هذا اليوم أمام الخيل . فحمل عليه حُرَيث[2] .

***

قال نصر : فحدّثنى عمرو بن شَمِر ، عن جابر ، قال : برز حُريث مولى معاوية هذا اليوم ؛ وكان شديداً أيِّداً[3] ذا بأس لا يرام ؛ فصاح : ياعلىّ ، هل لك فى المبارزة ؟ فأقدِم أبا حسن إن شئت ، فأقبل علىٌّ عليه السلام ، وهو يقول :

أنا علىٌّ وابنُ عبد المطَّلِبْ نحنُ لعمرُ الله أوْلَى بالكُتُبْ

---

(١) صفين ٣٠٧ ، ٣٠٨

(٢) صفين ٣٠٨ ، ٣٠٩

(٣) ساقطة من ا ، ب .

مِنّا النبيُّ المصطفى غَيْرَ كَذِبْ   أهلُ اللواء والمقام والحجُبْ

* نحن نصرْناه على كلّ العَرب[١] *

ثم خالطه فما أمهله أن ضربه ضربة واحدة ، فقطعه نصفين[٢].

* * *

قال نصر : فحدثنا محمد بن عبيد الله ، قال : حدثنى الجرجانىّ ، قال : جزع معاوية على حُريث جزَعاً شديدا ، وعاتب عمرا فى إغرائه إياه بعلىّ عليه السلام ، وقال فى ذلك شعرا :

حُرَيثُ ألم تعلَمْ وجهلُكَ ضائرٌ   بأنّ عليًّا للفوارس قاهرُ

وأنّ عليا لم يبارزه فارسٌ   من الناس إلا أقصدَتْه الأظافرُ

أمرتُك أمراً حازما فعصيتَنى   فجَدُّك إذ لم تقبل النُّصْحَ عاثِرُ

وَدَلّاكَ عمرو والحوادِثُ جَمَّةٌ   غُروراً ، وما جرَت عليك المقادرُ

وظَنّ حريثٌ أن عمرا نصيحُه   وقد يُهلِكُ الإنسانَ من لا يحاذر[٣]

قال نصر : فلما قتل حُريث برز عمرو بن الحصين السَّكْسَكِى ، فنادى : يا أبا حسن ، هَلُمّ إلى المبارزة ، فأومأ عليه السلام إلى سعيد بن قيس الهَمْدانىّ ، فبارزه فضربه بالسيف فقتله[٤].

---

(١) بعده فى صفين :

يَأيها العبدُ الغريرُ المنتدِبْ   اثبتْ لنا يأيُّها الـكَلبُ الـكَلِبْ

(٢) صفين ٣٠٩

(٣) بعده فى صفين ٣١٠ :

أيركبُ عمْرٌو رأسَهُ خوفَ سيفهِ   وَيُصْلِى حُرَيْثاً ؛ إنَّهُ لَفُرَافِرُ

والفرافر : الأحمق .

(٤) صفين ٣٠٩ ، ٣١٠

وقال نصر : وكان لهمْدَان بلاء عظيم في نصرة عليّ عليه السلام في صِفِّين ، ومن الشعر الذي لا يشكّ أن قائله عليّ عليه السلام لكثرة الرواة له :

دعوتُ فلبّاني من القوم عصبةٌ … فوارسُ من هَمْدان غيرُ لئام (١)
فوارسُ مِن هَمْدَان ليسُوا بعُزَّلٍ … غَدَاة الوَغَى من شاكرٍ وشِبَام (٢)
بكلّ رُدينيّ وعَضْبٍ تخاله … إذا اختلف الأقوام شَعْلَ ضِرَام
لهمْدان أخلاقٌ كرام تزينهمْ … وبأس إذا لاقَوْا وحَدٌّ خصام (٣)
وجدٌّ وصدقٌ في الحروب ونجدةٌ … وقول إذا قالُوا بغير أثام
مَتَى تأتهمْ في دارِهِمْ تستضيفهمْ … تَبِتْ ناعماً في خِدْمةٍ وطعامِ
جَزَى الله هَمْدَان الجنانَ فإنها … سِمام العِدَا في كلّ يوم زحامِ
فلو كنتُ بوّاباً على باب جنّة … لقلتُ لهمْدَان ادخلوا بسلام

* * *

قال نصر : فحدثني عمرو بن شمر ، قال : ثم قام عليّ عليه السلام بين الصّفّين ، ونادى . يامعاوية ، يكررها ؛ فقال معاوية : سَلُوه ماشأنه ؟ قال : أحِبّ أن يظهر لي فأُكلّمَه كلمةً واحدة . فبرز معاوية ومعه عمرو بن العاص ، فلما قارباه ، لم يلتفت إلى عمرو ، وقال لمعاوية: ويحك ! علام يقتتل (٤) الناس بيني وبينك ، ويضرب بعضهم بعضا ! ابرز إليّ ، فأيّنا قتلَ صاحبَه فالأمر له . فالتفت معاوية إلى عمرو ، فقال : ماترى ياأبا عبد الله ؟ قال : قد أنصفك الرجل ، واعلم أنك إن نَكَلْتَ عنه لم يزل سُبَّةً عليك وعلى عَقِبك مابقيَ على ظهر الأرض عربيّ . فقال معاوية : يابنَ العاص ؛ ليس مثلي يُخْدَعُ عن نفسه ، والله مابارز ابنَ أبي طالب شجاع قطّ إلا وسقى الأرض من دمه ؛ ثم انصرف معاوية راجعا حتى انتهى إلى

(١) صفين ٣٠١ .
(٢) شاكر وشبام : بطنان في همدان .
(٣) صفين : « أخلاق ودين يزينهم » ، والحد : الحدة .
(٤) ب : « يقتل » .

آخر الصفوف وعمرو معه ، فلما رأى علىٌّ عليه السلام ذلك ضحك ، وعاد إلى موقفه.

قال نصر : وفى حديث الجرجانى أنَّ معاويةَ قال لعمرو : ويحك! ما أحمقك! تدعونى إلى مبارزته ، ودونى عكّ وجُذام والأشعرون[1] !

* * *

قال نصر : قال : وحقدَها معاوية على عَمْرٍو باطنا ، وقال له ظاهرا : ما أظنُّك قلت ماقلتَه يا أبا عبد الله إلا مازحا ! فلما جلس معاوية مجلسه ، أقبل عمرو يمشى حتى جلس إلى جانبه ، فقال معاوية :

يا عمرُو إنك قد قشَرْتَ لِىَ العصاَ ... برضاك لى وَسْطَ العجاج برازِى
يا عمرو إنّكَ قد أشرْتَ بظنَّـةٍ ... حَسْبُ المبارز خطفة من بازى[2]
ولقد ظننتك قلتَ مزحةَ مازحٍ[3] ... والهزل يحمله مقــالُ الهازِى
فإذا الذى مَنَّتْكَ نفسُك حاكيا ... قتلِى ، جزَاكَ بما نويت الجازِى
ولقد كشفتَ قناعها مذمومـةً ... ولقد لبستَ بهـا ثياب الخازِى

فقال عمرو : أيها الرجل ، أتجبن عن خَصْمِك ، وتتّهم نصيحك ! وقال مجيبا له :

معاوىَ إنْ نَكَلْتَ عن البِرازِ ... وخِفْتَ فإنّها أمّ المخــازِى[4]
معاوىَ ما اجترمتُ إليك ذنباً ... ولا أنا فى الّذِى حَدَّثْتُ خازِى[5]

---

(١) صفين ٣١١ ، ٣١٢

(٢) فى صفين ٣١٣ :

يا عمرو إنّكَ قد أشرْتَ بِظنَّةٍ ... إنّ المبارزَ كالجَدْىِ النّازِى
ما للملوكِ وللبرازِ وإنمـــا ... حَتْفُ المبـارزِ خَطْفَةٌ لِلْبَازِى !

(٣) صفين :

* ولقد أعدتَ فقلتَ مزحةُ مازحٍ *

(٤) صفين :

* لكَ الوَيلاتُ فانظرْ فِى المخازِى *

(٥) صفين « فى التى حدثت بخازى » ، بتخفيف الدال فى « حدثت »

وما ذنبي بأنْ نادى عَلِيٌّ وَكَبْشُ الْقَوْمِ يُدْعَى للبرازِ !
ولو بارزتَه بارزتَ ليثاً حديدَ النّاب يخطف كلَّ بازى
وَتَزْعُمُ أننى أضمرْتُ غِشاً جَزانِى بالَّذِى أضمَرْتُ جازى

* * *

وروى ابن قتيبة فى كتابه المسمى "عيون الأخبار"[1] قال: قال أبو الأغرّ التميمىّ: بينا أنا واقف بصِفّين، مَرّ بى العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، مكفّرا بالسّلاح، وعيناه تبصّان من تحت المِغفر، كأنهما عينا أرقم، وبيده صفيحة يمانية يقلّبها، وهو على فرَس له صَعْب؛ فبينا هو يمغثه[2]، ويليّن من عريكته؛ هتف به هاتف من أهلِ الشام؛ يعرَف بعرار بن أدهم: ياعباس، هلّم إلى البراز! قال العباس: فالنزول إذاً فإنه إياسٌ من القفول؛ فنزل الشامىّ، وهو يقول:

إن تركَبُوا فرُكوبُ الخيلِ عادتُنَا أو تنزلون فإنا مَعْشَرٌ نُزُلُ[3]

وثنى العباس رجلَه، وهو يقول:

ويصدّ عنك مَخيلَةَ الرّجُل الـعرِّيض موضِحة عن العظمِ
بحُسام سيفك أو لسانِك، والـكَلِمُ الأصيل كأرْغَبِ الكلم

ثم عَصَبَ فَضَلاتِ دِرْعه فى حُجْزَته[4]، ودفع فرسه[5] إلى غلام له أسود؛ يقال له أسلم،

---

(١) عيون الأخبار، بروايته عن أبى سوقة التميمى، عن أبيه، عن جده، عن أبى الأغر.
(٢) المغث: الضرب الخفيف، وفى عيون الأخبار: «يمغنه».
(٣) لأعشى قيس؛ ديوانه ٤٨، والرواية هناك:

* قالوا الركوبُ فقلنا تلكَ عادتُنَا *

(٤) الحجزة: معقد الإزار.
(٥) عيون الأخبار: «قوسه».

كأنى والله أنظر إلى فلافل شعره ، ثم دَلَف كلّ واحد منهما إلى صاحبه ، فذكرت قول أبى ذؤيب :

فتنازَلا وتواقفتْ خَيْلاهُمَا ... وكِلاهما بطل اللّقاء مُخَدَّعُ[1]

وكفت الناس أعنّةَ خيولهم ينظرون ما يكون من الرجلين ؛ فتكافحا بسيفيهما مَلِيًّا من نهارهما ؛ لا يصل واحدٌ منهما إلى صاحبه لكمال لأمته ؛ إلى أن لحظ العباس وَهْنًا فى درع الشامىّ ؛ فأهوى إليه بيده ، فهتكه إلى ثُنْدُوَته[2] ، ثم عاد لمجاولته ، وقد أصحر له[3] مفتّق الدرع ، فضربه العباس ضَرْبَةً انتظم بها جوانحَ صدره ، فخرّ الشامىّ لوجهه ؛ وكبّر الناسُ تكبيرة ارتجت لها الأرض من تحتهم ، وسما[4] العباس فى الناس ؛ فإذا قائل يقول : من ورائى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾[5] ، فالتفتُّ فإذا أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال لى : يا أبا الأغرّ ، مَن المنازِل لعدوّنا ؟ قلت : هذا ابن أخيكم ، هذا العباس بن ربيعة ، فقال : وإنه لهو ! ياعباس ألم أنهك ، وابن عباس ، أن تُخِلّا بمراكزكما ؛ وأن تباشرا حربا ! قال : إنّ ذلك كان ؛ قال : فما عدا مما بدا ! قال : يا أمير المؤمنين ، أفأُدعَى إلى البراز فلا أجيب ! قال : نعم طاعة إمامك أولى من إجابة عدوّك ؛ ثم تغيّظ واستطار حتى قلت : الساعة الساعة . ثم سكن وتطامن ؛ ورفع يديه مبتهلا ، فقال : اللّهمّ اشكر للعباس مَقامه ، واغفر ذنبه ؛ إنى قد غفرتُ له ، فاغفر له . قال : ولَهِف معاوية على عرار ، وقال : متى ينتطح فحل لمثله أيُطَلّ دمه ! لاها الله إذاً ! ألا رجلٌ يشرِى نفسه لله ؛ يطلُب بدم عرار ! فانتدَب له رجلان من لَخْم ،

(١) ديوان الهذليين ١ : ١٨ ، ومخدع : مجرب ؛ أى قد خدع مرة بعد أخرى حتى فهم وحذر .
(٢) الثندوة للرجل ، بمثل الثدى للمرأة .
(٣) أصحر له : برز له فى العراء ؛ وأصله الخروج إلى الصحراء .
(٤) العيون : « الشام » . (٥) سورة التوبة ١٤ ، ١٥

فقال لهما : اذهبا، فأيكما قتل العباس بِرازًا فله كذا ، فأتياه ، فدعواه للبراز ؛ فقال: إن لى سيدا أريد أن أؤامره . فأتى عليا عليه السلام ، فأخبره الخبر ، فقال علىّ عليه السلام ، والله لودّ معاوية أنه ما بقِيَ من بنى هاشم نافخ ضَرمة إلا طُعِن فى بطنه ، إطفاء لنور الله : ﴿ وَيأْبَى اللهُ إلَّا أنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (١) ؛ أما والله ليملكنهم مِنا رجال ورجال يسومونهم الخسفَ ؛ حتى يحتفروا الآبار ؛ ويتكففوا الناسَ ؛ ويتوكلوا على المساحى ؛ ثم قال : يا عباس ؛ ناقِلْنِي سلاحَك بسلاحى ، فناقله ، ووثب على فَرس العباس ، وقصد اللخميّين ؛ فما شكّا أنه هو ، فقالا : أذن لك صاحبك ، فحرِج أن يقول : نعم ، فقال: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (٢)، فبرز إليه أحدهما ؛ فكأنما اختطفه ، ثم برز له الآخر فألحقه بالأول، ثم أقبل وهو يقول : ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ (٣) ثم قال : يا عباس ، خُذْ سلاحَك وهات سلاحى ، فإن عاد لك أحد فعدْ إلىّ .

قال: فَنُمِيَ الخبرُ إلى معاوية ؛ فقال: قَبح الله اللَّجاج ! إنه لقعود ما ركبتُه قطّ إلا خذلت.

فقال عمرو بن العاص: المخذول والله اللّخميّان لا أنت ! فقال : اسكتْ أيها الرجل ؛ وليست هذه من ساعاتك ، قال : وإن لم يكن فرحم الله اللخميّين وما أراه يفعل ! قال : فإنّ ذاك والله أخسرُ لصفقتك ، وأضيق لحجرتك .

قال : قد علمت ذاك ؛ ولولا مصر لركبتُ المنجاة منها ، قال : هى أعمتْك ، ولولاها ألفِيت بصيراً (٤) .

***

(١) سورة التوبة ٣٣
(٢) سورة الحج ٣٩
(٣) سورة البقرة ١٩٤
(٤) عيون الأخبار ١ : ١٧٩ — ١٨١

قال نصر بن مزاحم : وحدثنا عمرو ، قال : حدثنى فضيل بن خَديج ، قال : خرج رجلٌ من أهل الشام يدعُو إلى المبارزة ، فخرج إليه عبد الرحمن بن محرز الكندىّ [ثم الطُّمحىّ] (١) ، فتجاولا ساعة . ثم إنّ عبد الرحمن حَمَل على الشامىّ ، فطعنه فى نُقْرَةِ (٢) نحره فصرَعه ؛ ثم نزل إليه فسلبه دِرْعه وسلاحه ؛ فإذا هو عبدٌ أسود ؛ فقال : إنا لله ! أخطرت نفسى بعبد أسود ! قال : وخرج رَجُلٌ من عَكّ ، فسأل البراز ، فخرج إليه قيس بن فهران (٣) الكندىّ ، فما لبثه أن طعنه فقتله ، وقال :

لقد علمتْ عَكٌّ بصِفّين أننا ... إذا ما تلاقَى الخيلُ نطعنُها شَزْرَا (٤)

ونحمــــل رايات القتال بحقِّها ... فنوردها بيضاً ونُصْدِرُها حُمْرَا

قال : وحمل عبدالله بن الطفيل البكائىّ على صفوف أهل الشام ، فلما انصرف حَمَل عليه رجل من بنى تميم يقال له قيس بن فهد الحنظلىّ اليربوعىّ (٥) ، فوضع الرمحَ بين كتفىْ عبدالله ، فاعترضه يزيد بن معاوية البكائىّ ، ابن عم عبدالله بن الطفيل ، فوضع الرمحَ بين كتفى التميمىّ ، وقال : والله لئن طعنته لأطعننّك ، فقال : عليك عهدُ الله لئن رفعتَ السنان عن ظهر صاحبك لترفعنّه عن ظهرى ! قال : نعم ، لك العهد والميثاق بذلك . فرفع السنان عن ظَهْر عبد الله ، فرفع يزيد السنان عن التميمىّ ، فوقف التميمى ، وقال ليزيد : ممن أنت ؟ قال : من بنى عامر ، قال : جعلنى الله فداكم ! أينما لقيناكم كراما . أما والله إنى لآخرُ أحد عشر رجلا من بنى تميم قتلتموهم اليوم (٦) .

قال نصر : فبعد ذلك بدهْرٍ عتب يزيد على عبدالله بن الطفيل ، فأذكره ما صنع معه يوم صفين ، فقال :

---

(١) تكملة من صفين .

(٢) الطبرى : « ثغرة نحره » ، وهما بمعنى .

(٣) فى الطبرى : « ابن فهد » .

(٤) صفين ٣٠٤ ، الطبرى ٥ : ٣٠

(٥) صفين : « ابن نهد » ، والطبرى : « ابن قرة » .

(٦) تاريخ الطبرى ٥ : ٢٩

ألم ترنى حاميتُ عنك مُناصحاً بصِفِّين إذ خَلَّاكَ كلُّ حميمِ
ونهنهتُ عنك الحنظلىّ وقد أتى على سابحٍ ذى مَيْعَة وهزيمِ (١)

قال نصر : وخرج ابن مقيّدة الحمار الأسدىّ — وكان ذا بأس وشجاعة، وهو من فُرسان الشام — فطلب البراز ، فقام المقطع العامرىّ ، وكان شيخاً كبيراً ، فقال على عليه السلام له : اقعد ، فقال : ياأمير المؤمنين لاتردّنى ، إمّا أن تَقْتُلَنى فأتعجلَ الجنة وأستريح من الحياة الدنيا فى الكِبَر والهرم ، أو أقتله فأريحك منه .

وقال له عليه السلام : مااسمك ؟ فقال : المقطَّع ، قال : مامعنى ذلك ؟ قال : كنت أُدعى هشيما، فأصابتنى جِراحة منكرة ، فدعيت المقطع منها ؛ فقال له عليه السلام : اخرج إليه ، وأقدم عليه ؛ اللهم انصر المقطّع على ابن مقيدة الحمار ؛ فحمل على ابن مقيدة الحمار ، فأدهشه لشدّة الحملة ، فهرب وهو يتبعه ، حتى مرّ بمضرب (٢) معاوية حيث يراه والمقطع على أثره ؛ فجاوزا معاوية بكثير ؛ فلما رجع المقطّع ورجع ابن مقيدة الحمار ، ناداه معاوية : لقد شَمَّص (٣) بِكَ العراقىّ ، قال : أما إنه قد فعل أيها الأمير ؛ ثم عاد المقطع ، فوقف فى موقفه .

قال نصر : فلما كان عامُ الجماعة ، وبايع الناس معاوية ، سأل عن المقطع العامرىّ ؛ حتى أدخل عليه ؛ وهو شيخ كبير ، فلما رآه قال : آه ؛ لولا أنك على مثل هذه الحال لما أفلتّ منى ؛ قال : نشدتك الله إلّا قتلتَنى وأرحتَنى من بؤس الحياة ؛ وأدنيتنى إلى لقاء الله ، قال : إنى لا أقتلك ؛ وإنّ بى إليك لحاجة، قال : ماهى ؟ قال : أحبّ أن تواخيَنى ، قال : إنّا وإياكم ، افترقنا فى الله ، فلا نجتمع حتى يحكُمَ الله بيننا فى الآخرة .

---

(١) ميعة الفرس : نشاطه ؛ يقال : « الفرس فى ميعة جريه » . والهزيم هنا : صوت جرى الفرس .
(٢) المضرب : الفسطاط العظيم .
(٣) شمص : عجل .

قال : فزوِّجْنى ابنتك،قال : قد منعتُك ماهو أهون علىّ من ذلك ، قال : فاقبلْ مِنّى صلة ، قال : لا حاجة لى فيما قِبَلك .

قال : فخرج من عنده ولم يقبل منه شيئا (١) .

قال نصر : ثم التقى الناس،فاقتتلوا قتالا شديدا، وحاربت طَيِّئٌ مع أمير المؤمنين عليه السلام حربا عظيما ، وتداعَتْ وارتجزت، فقتل منها أبطال كثيرون، وفقئت عينُ بشر بن العوس الطائىّ ـ وكان من رجال طيئٌ وفرسانها ـ فكان يذكر بعد ذلك أيام صِفِّين ، فيقول : وددت أنّى كنت قُتِلت يومئذ ، ووددت أن عينى هذه الصحيحة فقئت أيضا ، وقال :

ألَا لَيْتَ عَيْنِى هَذِهِ مثلُ هذِهِ ... ولم أمش بَيْنَ النـاس إلا بقائِدِ
وياليتَ رِجْلِى ثم ّطَنَّتْ بنصفِها (٢) ... وياليتَ كَفِّى ثمّ طاحتْ بساعِدِى
وياليتنِى لم أبقَ بعـد مطرِّفٍ ... وسعد وبعـد المستنير بنِ خالدِ
فوارسُ لم تَغْذُ الحواضن مثلَهمْ ... إذا هى أبدت عن خِدَام الخرائد (٣)

***

قال نصر : وأبلتْ محارب يومئذ مع أميرِالمؤمنين عليه السلام بلاء حسناً،وكان عنتر ابن عبيد بن خالد بن المحاربىّ أشجعَ الناس يومئذ ، فلما رأى أصحابَه متفرقين ، ناداهم : يامعشرَ قيس ، أطاعة الشيطان أبرّ عندكم من طاعة الرحمن ! ألا إنّ الفرار فيه معصية الله وسخطه ، وإن الصبر فيه طاعة الله ورضوانه،أفتختارون سخط الله على رضوانه،ومعصيته على طاعته ! ألا إنما الراحةُ بعد الموت لمن مات محتسباً لنفسه ، ثم يرتجز فيقول :

لا وَأَلَتْ نفسُ امرئٌ ولّى الدُّبُرْ ... أنا الذى لا أنثنِى ولا أفِرّ

(١) صفين ٣١٥ ـ ٣١٧

(٢) طنت : قطعت وسقطت .

(٣) الخدام : السيقان ؛ واحده خدمة ، والحواضن : الأمهات . والشعر والخبر فى صفين ٣١٧ .

* وَلَا يُرَى مع المازبل الْغُدُرْ *

وقاتل حتى ارتُثَّ .

قال نصر : وقاتلت النَّخَع مع علىّ عليه السلام ذلك اليوم قتالًا شديداً ، وقطعت رجلُ علقمة بن قيس النَّخَعىّ ، وقتِل أخوه أبىّ بن قيس ، فكان علقمة يقول بعد: ما أحِبّ أن رجلى أصحُّ ما كانت؛ لما أرجو بها من حسن الثواب . وكان يقول : لقد كنتُ أحِبّ أن أبصِر أخى فى نومى ؛ فرأيته ، فقلت له : يا أخى ، ما الذى قدِمتم عليه ؟ فقال لى: التقينا نحن وأهل الشام بين يدى الله سبحانه ، فاحتججنا عنده ، فحجَجْناهُم . فما سررت بشىء منذ عقَلْت سرورى بتلك الرؤيا [1] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شمر ، عن سويد بن حبّة البصرى [2] ، عن الحُضَين بن المنذر الرّقاشىّ ، قال : إنّ ناسا أتوا عليا عليه السلام قبل الوقْعة فى هذا اليوم ؛ فقالوا له : إنّا لا نرى خالد بن المعمر السّدوسىّ إلا قد كاتب معاوية ، وقد خشينا أنْ يلتحق به وبايعه ؛ فبعث إليه علىٌّ عليه السلام وإلى رجال من أشراف ربيعة ؛ فجمعهم ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : يامعشرَ ربيعة ، أنتم أنصارى ومجيبُو دعوتى ؛ ومِنْ أوثَق أحياء العرب فى نفسى ؛ وقد بلَغنى أنّ معاويةَ قد كاتب صاحبَكم هذا ؛ وهو خالد بن المعمّر ، وقد أتيتُ به وجمعتكم لأشهدَكم عليه ، وتسمعُوا منّى ومنه .

ثم أقبل عليه فقال : ياخالد بن المعمّر ، إن كان مابلَغنى عنك حقًّا ؛ فإنى أُشهِدُ مَنْ حضَرَنى من المسلمين أنك آمن ؛ حتى تلحق بالعراق ، أو بالحجاز ، أو بأرض لاسلطان لمعاوية فيها ، وإن كنتَ مكذوبا عليك ، فأبرِ صدورَنا بأيْمانٍ نطمئنّ إليها ؛ فحلف له

(١) صفين ٣٢٢ ، الطبرى : ٦ : ٣٢

(٢) صفين « النضرى » .

خالد بالله مافعلَ ، وقال رجال منّا كثير : والله ياأمير المؤمنين لو نعلم أنه فعل لقتلناه .

وقال شقيق بن ثور [السدوسىّ]: ماوفق الله خالد بن المعمّر حين ينصر معاوية وأهلَ الشام على علىّ وأهل العراق وربيعة . فقال له زياد بن خَصَفة : ياأمير المؤمنين، استوثِقْ من ابن المعمّر بالأَيْمان ، لا يغدِرْ بك ؛ فاستوثق منه . ثم انصرفوا .

فلما تصافّ الناس فى هذا اليوم ، وحمل بعضُهم على بعض ، تضعضعت ميمنةُ أهلِ العراق ، فجاءنا علىّ عليه السلام ومعه بنُوه ؛حتى انتهى إلينا ، فنادى بصوت عال جهير : لمن هذه الرايات ؟ فقلنا : رايات ربيعة، فقال : بل هى راياتُ الله عَصم الله أهلها،وصبّرهم وثبّت أقدامهم ؛ ثم قال لى وأنا حامل رايةَ ربيعة يومئذ : يافتى ، ألا تُدنِى رايتَك هذه ذراعاً ؟ فقلت : بلى ، والله وعشرة أذرع ، ثم ملت بها هكذا ، فأدنيتُها ، فقال لى:حسبك مكانك(١) .

***

قال نصر : وحدّثنا عمرو ، قال : حدثنى يزيد بن أبى الصلت التيمىّ ، قال : سمعت أشياخَ الحىّ من بنى تيم بن ثعلبة يقولون : كانت راية ربيعة كلّها : كوفيتِها وبصريتها ، مع خالد بن المعمّر ،السدوسىّ من ربيعة البصرة ، ثم نافسه فى الراية شقيق بن ثور؛ من بكر ابن وائل من أهل الكوفة،فاصطلحا على أن يولّيا الراية حُضَين بن المنذر الرقاشىّ، وهو من أهل البصرة أيضاً ، وقالوا : هذا فتى له حَسَبٌ ، نُعطيه الراية إلى أن نرى رأينا؛ وكان الحُضَين يومئذ شاباً حَدَث السنّ .

قال نصر : وحدثنا عمرو بن شمر ، قال : أقبل الحضَين بن المنذر يومئذ وهو غلام يزحف براية ربيعة ، وكانت حمراء ، فأعجب عليا عليه السلام زحفه وثباته ، فقال :

---

(١) صفين ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، وتاريخ الطبرى ٥ : ٣٢ .

لِمَنْ رايةٌ حمراء يخفقُ ظِلُّهـا … إذا قيلَ قَدِّمها حُضَيْنُ تقدَّما
ويدنو بها فى الصَّفِّ حتى يُزيرَها[1] … حِمامَ المنايا تقطرُ الموتَ والدما[2]
تَراهُ إذا ما كان يومُ عظيمةٍ … أبَى فيه إلا عِزَّةً وتكرُّما
جزَى الله قوماً صابرُوا فى لقائِهمْ … لدَى الناس حرًّا ما أعفَّ وأكرما!
وأحزمَ صَبْرًا يوم يُدْعى إلى الوغَى … إذا كان أصواتُ الكماة تغمغُما
ربيعةَ أعنِى ، إنهم أهل نجدةٍ … وبأس إذا لاقوْا خَميساً عَرَمْرَما[3]
وقد صبرت عكٌّ ولخمٌ وحِميَرٌ … لمذحِجَ حَتَّى لم يفارقْ دمٌ دماً
ونادت جُذامٌ: يالَ مذحِجَ ويحكم[4]! … جَزَى الله شرًّا أيّنا كانَ أظلما
أما تتقون الله فى حُرُماتِكُمْ … وما قرّب الرحمنُ منها[5] وعَظَّماً!
أذقنا ابن حرْب طعننا وضِرَابنا … بأسيافِنا حَتَّى تولَّى وأحجَماَ
وفرّ ينادى الزِّبرقَان وظالماً … ونادى كَلاعاً والكُريبَ وأنعما
وعمرا وسُفيانا وجَهْماً ومالكا … وحَوْشَبَ والغاوى شُرَيحاً وأظلماَ
وكرز بن تَيْهانٍ وعمرو بن جَحْدَرٍ … وصَبَّاحا القينىَّ يدعو وأسلما[6]

قلت : هكذا روى نَصر بن مزاحم ، وسائر الرواة رَوَوْا له عليه السلام الأبيات الستة الأولى ، ورووا باقى الأبيات ، من قوله : « وقد صبرتْ عكٌّ » للحضَين بن المنذر صاحب الراية[7].

قال نصر : وأقبل ذو الكَلاع فى حمير ومن لفّ لفّها ، ومعهم عبيد الله بن عمر

(١) صفين : « حتى يديرها » .
(٢) الطبرى : « حياض المنايا » .
(٣) الخميس : الجيش .
(٤) صفين : « وبلكم » .
(٥) ب : « فيها » .
(٦) صفين : « وكرز بن نبهان » .
(٧) صفين ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، وتاريخ الطبرى ٥ : ٣٧ ، ٣٨ .

ابن الخطاب فى أربعة آلاف من قُرّاء أهل الشام، وذو الكَلاع فى حِمْير فى الميمنة، وعبيدالله فى القرّاء فى الميسرة ، فحملوا على ربيعة — وهم فى مَيْسرة أهل العراق؛ وفيهم عبيدالله بن العباس — حملة شديدة ، فتضعضعت رايات ربيعة .

ثم إنّ أهلَ الشام انصرفوا فلم يمكثوا[(١)] إلا قليلا ؛ حتى كرّوا ثانية وعبيد الله بن عمر فى أوائلهم ؛ يقول : ياأهل الشام ، هذا الحىّ من العراق قتلة عثمان بن عفان وأنصار علىّ ابن أبى طالب ؛ ولئن هزمتم هـذه القبيلة أدركتم ثأركم من عثمان ، وهَلَكَ علىّ وأهل العراق . فشدُّوا على الناس شَدّةً عظيمة ، فثبتت لهم ربيعة ، وصبرت صبراً حسناً ، إلاقليلا من الضعفاء .

فأما أهل الراياتِ وذَوُو البصائر منهم والحفّاظ، فثبتوا وقاتلوا قتالا شديداً . وأما خالد ابن المعمّر ؛ فإنّه لما رأى بعض أصحابه قد انصرفوا انصرف معهم ، فلما رأى أهلَ الرايات ثابتين صابرين رجع إليهم وصاح بمن انهزم ؛ وأمرهم بالرجوع ؛ فكان من يتّهمه من قومه ، يقول: إنه فرّ، فلما رآنا قد ثبتْنا رجع إلينا ؛ وقال هو : لمّا رأيتُ رجالا مِنّا قد انهزمُوا، رأيتُ أنْ أستقبلَهم ثم أردَّهم إلى الحرب ؛ فجاء بأمر مشتبه[(٢)] .

قال نصر : وكان فى جملة ربيعة من عَنَزة وحدها أربعة آلاف مُجَفَّف[(٣)] .

قلت : لاريب عند علماء السيرة أن خالد بن المعمّر كان له باطن سوء مع معاوية، وأنه انهزم هذا اليوم ليكسر الميسرة على علىّ عليه السلام ؛ ذكر ذلك الكلبي[(٤)] والواقدىّ وغيرهما . ويدلّ على باطنه هذا أنّه لما استظهرت ربيعةُ على معاوية وعلى صفوف أهل الشام فى اليوم الثانى من هذا أرسل معاوية إلى خالد بن المعمّر : أنْ كُفَّ عنى ولك إمارة خراسان

(١) ج : « لم يلبثوا » .
(٢) صفين ٣٢٧ ، ٣٢٨ .
(٣) المجفف : من يلبس التجفاف ؛ وهو ماجلل به الفرس من سلاح وآلة تقيه السهام .
(٤) ج : « ابن الكلبى » .

ما بقيت . فكفّ عنه ، فرجع بربيعة ، وقد شارفوا أخذه من مضربه ، وسيأتى ذكر ذلك .

***

قال نصر : فلما رجع خالد بن المعمّر واستوت صفوف ربيعة كما كانت ، خطبهم فقال :

يا معشرَ ربيعة : إنّ الله تعالى قد أتى بكلٍّ رجل منكم من منبِته ومسقط رأسه ، فجمعكم فى هذا المكان جَمعاً لم تجتمِعوا مثلَه قطّ منذ أفرشكم الله الأرض ؛ وإنكم إن تمسِكوا أيديَكم ، وتنكلوا عن عدوّكم وتحولوا عن مصافّكم ، لا يرضى الربّ فعلَكم ولا تعدموا معيّرًا يقول : فضحت ربيعة الذّمار ، وخاموا(١) عن القتال ، وأُتِيَت من قبلهم العرب ؛ فإياكم أن يتشاءم بكم اليوم المسلمون . وإنكم إن تمضوا مقدمين وتصبروا محتسبين ؛ فإنّ الإقدام منكم عادة ، والصبر منكم سجيّة ، فاصبروا ونيّتكم صادقة تؤجروا ، فإنّ ثوابَ مَنْ نوى ما عند الله شرفُ الدنيا وكرامة الآخرة ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

فقام إليه رجل من ربيعة ، وقال : قد ضاعَ والله أمرُ ربيعة حين جعلتْ أمرَها إليك ؛ تأمرنا ألّا نحول ولا نزول ؛ حتى نقتل أنفسنا ، ونسفك دماءنا !

فقام إليه رجال من قومه ، فتناولوه بقسيّهم ، ولكزُوه بأيديهم ؛ وقالوا لخالد بن المعمّر : أخرجوا هذا من بينكم ، فإنّ هذا إن بَقِيَ فيكم ضرّكم ، وإن خرج منكم لم ينقصْكم عدداً ؛ هذا الذى لا ينقص العددَ ، ولا يملأ البَلَد . ترّحك(٢) الله من خطيب قوم ! لقد جنّبك الخير . قبح الله ما جئت به !

---

(١) خاموا : جبنوا .
(٢) صفين : « برحك » .

قال نصر : واشتدّ القتال بين ربيعة وحمير وعبيد الله بن عمر حتى كثرت القتلى، وجعل عبيد الله يحمل ويقول : أنا الطيب ابن الطيب ؛ فتقول له ربيعة : بل أنت الخبيث ابن الطيب .

ثم خرج نحو خمسمائة فارس أو أكثر من أصحاب علىّ عليه السلام على رءوسهم البَيض ؛ وهم غائصون فى الحديد ، لا يُرَى منهم إلا الحدَق ؛ وخرج إليهم من أهل الشام نحوهم فى العدّة ، فاقتتلوا بين الصفّين ، والناس وقوف تحت راياتهم ؛ فلم يرجع مِنْ هؤلاء ولا من هؤلاء مخبر ؛ لا عراقىّ ولا شامىّ ، قتلوا جميعا بين الصفين[1] .

***

قال نصر : وحدثنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، عن تميم ، قال : نادى منادى[2] أهل الشام : ألا إن معنا الطيب ابن الطيب ، عبيد الله بن عمر ، فنادى منادى أهل العراق بل هو الخبيث ابن الطيب ؛ ونادى منادى أهل العراق : ألا إن معنا الطيب ابن الطيب محمد بن أبى بكر ، فنادى منادى أهل الشام : بل الخبيث ابن الطيب .

قال نصر : وكان بصِفّين تَلٌّ تلقى عليه جماجمُ الرِّجال ، فكان يدعى تلّ الجماجم، فقال عقْبة بن مسلم الرُّقاشى من أهل الشام :

وَلَمْ أرَ فُرسانًا أشدَّ حفيظة[3] ... وأمنعَ مِنَّا يومَ تَلِّ الجماجِمِ
غداة غدا أهلُ العراق كأنهمْ ... نعامٌ تلَاقَى فى فِجاجِ المخارِمِ
إذا قلتُ قدْ وَلَّوْا تثوب كتيبةٌ[4] ... مُلَمْلَمةٌ فى البيض تُمْطُ المقادِمِ[5]
وقالوا لنا : هــذا علىٌّ فبايعوا ... فقلنا : صه بلْ بالسُّيوف الصوارِمِ[6]

---

(١) صفين ٣٢٩ ، ٣٣٠
(٢) ساقطة من ب .
(٣) صفين : « أشد بديهة » .
(٤) صفين : « أنابت كتيبة » .
(٥) ململمة : مجتمعة .
(٦) صفين : « فقلنا ألا لا » .

وقال شبث بن ربعى التميمى :

وقفنا لديهم يوم صفين بالقنا ... لدن غدوة حتى هوت لغروب
وولى ابن حرب والرماح تنوشه ... وقد أرضت الأسياف كل غضوب
نجالدهم طوراً وطوراً نشلهم ... على كل محبوك السراة شبوب(١)
فلم أر فرساناً أشد حفيظة ... إذا غشى الآفاق رهج جنوب(٢)
أكر وأحمى بالمطاريف والقنا ... وكل حديد الشفرتين قضوب(٣)

قال نصر : ثم ذهب هذا اليوم بما فيه ، فأصبحوا فى اليوم التاسع من صفر ، وقد خطب معاوية أهل الشام وحرضهم ، فقال :

إنه قد نزل بكم من الأمر ما ترون ، وحضركم ما حضركم ، فإذا نهدتم إليهم إن شاء الله ، فقدموا الدارع ، وأخروا الحاسر ، وصفوا الخيل وأجنبوها ، وكونوا كقص الشارب ، وأعيرونا جماجمكم ساعة ؛ فإنما هو ظالم أو مظلوم ؛ وقد بلغ الحق مقطعه(٤) .

* * *

قال نصر : وروى الشعبى ، قال : قام معاوية فخطب الناس بصفين فى هذا اليوم ؛ فقال :

الحمد لله الذى دنا فى علوه ؛ وعلا فى دنوه ، وظهر وبطن ؛ وارتفع فوق كل ذى

---

(١) نشلهم : نطردهم ؛ وفى صفين : « نصدهم » . والسراة : الظهر . ومحبوك السراة : مدمجها . وبعده فى صفين :

بكل أسيل كالقراط إذا بدت ... لوائحها بين الكماة ، لعوب
نجالد غساناً وتشقى بحربنا ... جذام ووتر العبد غير طلوب

(٢) كذا فى ب ، وفى صفين : « نفح جنوب » ، والرهج : الغبار .

(٣) ب : « عضوب » .

(٤) صفين ٣٣٢ ، ٣٣٣

منظر ؛ هو الأوّل والآخر، والظاهر والباطن[١]، يقضى فيفصِل، ويقدِّر فيغفر، ويفعل مايشاء؛ إذا أراد أمراً أمضاه، وإذا عزم عَلَى شيء قضاه؛ لا يؤامر أحداً فيما يملك؛ ولا يُسْأَلُ عَمَّا يفعل وهم يُسْأَلون؛ والحمدُ لله ربّ العالمين؛ على ماأحببنا وكرِهنا. وقدكان فيما قضاه الله أنْ ساقتْنا المقادير إلى هذه البُقْعة من الأرض، ولفّ بيننا وبين أهل العراق، فنحن من الله بمنظرَ؛ وقد قال الله سبحانه : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَااقْتَتَلُوا وَلَـكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَايُرِيدُ ﴾[٢] .

انظروا ياأهلَ الشام، إنكم غداً[٣] تلقوْن أهلَ العراق؛ فكونوا على إحدى ثلاث خصال : إمّا أن تكونوا قوماً طلبتم ماعند الله فى قتال قوم بَغَوْا عليكم، فأقبلوا من بلادهم حتى نزلوا فى بَيْضتكم؛ وإمّا أن تكونوا قوماً تطلبون بدم خليفتكم وصهر نبيّكم؛ وإمّا أن تكونوا قوما تذُبّون عن نسائكم وأبنائكم. فعليكم بتقوى الله والصبر الجميل؛ أسأل الله لنا ولكم النصْر؛ وأنْ يفتح بيننا وبين قومنا بالحقّ؛ وهو خير الفاتحين .

فقام ذو الكَلاع، فقال :

يامعاوية، إنا نحنُ الصُّبُر الكِرام، لا نَنْثَنِى عِنْد الخِصام، بنو الملوكِ العِظَام، ذوى النُّهى والأحلام، لا يقربون لآثام .

فقال معاوية : صدقت[٤] .

* * *

---

(١) صفين : « وارتفع فوق كل منظر أولا وآخرا، وظاهرا وباطنا » .
(٢) سورة البقرة ٢٥٣
(٣) صفين : « إنما تلقون » .
(٤) صفين ٢٣٣، ٢٣٤

قال نصر : وكانت التعبية فى هذا اليوم كالتعبية فى الذى قَبْله ، وحمل عبيدُ الله بن عمر فى قرّاء أهلِ الشام ، ومعه ذو الكَلاع فى حِمْير على ربيعة ، وهى فى ميسرة علىّ عليه السلام ، فقاتلوا قتالا شديدا ، فأتى زياد بن خَصَفة إلى عَبْد القيس ، فقال لهم : لا بَكْر بن وائلٍ بعد اليوم ! إن ذا الكَلاع وعُبيد الله أبادَا رَبِيعة ، فانهضوا لهم وإلا هلكوا . فركبت عبدُ القيس ، وجاءت كأنها غمامة سوداء فشدّتْ أزْرَ الميسرة ، فعظم القتال ، فقتل ذو الكَلاع الحِميرىّ ، قتله رجل من بكْر بن وائل ، اسمه خِنْدف ، وتضعضعت أركان حمير ، وثبتت بعد قتل ذى الكَلاع تحارب مع عبيد الله بن عمر ؛ وأرسل عبيد الله إلى الحسن بن علىّ عليه السلام : إنّ لى إليك حاجةً فالقنى ، فلقيه الحسن عليه السلام ، فقال له عبيد الله : إنّ أباك قد وَتَرَ قريشا أولا وآخرا ، وقد شنِئه الناسُ ، فهل لك فى خَلْعه ، وأنّ تتولى أنت هذا الأمر ! فقال : كلاّ والله ؛ لا يكون ذلك . ثم قال : يابن الخطاب ، والله لكأنى أنظرُ إليك مقتولا فى يومك أو غدك . أما إن الشيطان قد زَيّن لك وخَدَعك ؛ حتى أخرجك مخلقا بالخَلُوق ، ترى نساء أهلِ الشام موقفك ، وسيصرَعُك الله ، ويبطحك لوجهك قتيلا !

قال نصر : فو الله ما كانَ إلا بياضُ ذلك اليوم حتى قُتل عبيد الله ؛ وهو فى كتيبة رَقْطاء ، وكانت تدعى الخضريّة ؛ كانوا أربعة آلاف ؛ عليهم ثياب خُضْر ، فمرّ الحسن عليه السلام ؛ فإذا رجلٌ متوسّد برجل قتيل ؛ قد ركز رمحَه فى عينه ، وربط فرسَه برجله ؛ فقال الحسن عليه السلام لمن معه : انظرُوا مَنْ هذا ؟ فإذا رجلٌ من هَمْدان ، وإذا القتيل عبيد الله بن عمر بن الخطاب ، قد قتله الهمدانىّ فى أوّل الليل ؛ وبات عليه حتى أصبح .

قال نصر : وقد اختلف الرواة فى قاتل عُبيد الله ؛ فقالت هَمْدان : نحن قتلناه ؛ قتله هانىءُ بن الخطاب الهمْدانىّ ، وركز رمحه فى عينه ... وذكر الحديث . وقالت حضرموت : نحن قتلناه ، قتله مالك بن عمرو الحضرمىّ . وقالت بكر بن وائل : نحن قتلناه ، قتله محرز

ابن الصَّحصح من بنى تيم اللات بن ثعلبة ، وأخذ سيفه الوشاح .

فلما كان عامُ الجماعة طلب معاوية السيف من ربيعة الكوفة ، فقالوا : إنما قتله رجلٌ من ربيعة البصرة يقال له محرز بن الصَّحصح ، فبعث إليهِ معاوية ، فأخذ السيف منه[1] .

قال نصر : وقد روى أن قاتله حُريث بن جابر الحنفىّ ، وكان رئيس بنى حَنيفة يوم صِفّين مع علىّ عليه السلام ، حمل عبيد الله بن عمر على صَفّ بنى حنيفة ، وهو يقول :

أنا عُبيد الله ينميني عُمَرْ ... خَيْرُ قريش مَنْ مَضَى ومَنْ غَبَرْ
إلا رسول الله والشيخ الأغَرْ ... قد أبطأت عن نصر عثمانٍ مُضَرْ
والربعيّون فلا أُسْقُوا المطَرْ ... وسارَعَ الحىّ اليمانون الغُرَرْ
* والخير فى النّاس قديماً يُبتدَرْ *

فحمل عليه حُرَيث بن جابر الحنفىّ ، وقال :

قَدْ سارَعَتْ فى نَصْرِها رَبيعَهْ ... فى الحقِّ والحقُّ لها شَريعَهْ
فاكْفُفْ فلستَ تارِكَ الوقيعَهْ ... فى العُصبة السامعة المطيعَهْ
* حتى تذوقَ كأسَها الفَظيعَهْ *

وطعنه فصرعه .

قال نصر : فقال كعب بن جُعَيل التغلبىّ يرثى عبيد الله ، وكان كعبٌ شاعر أهل الشام :

ألا إنما تبكى العيونُ لفارسٍ ... بصِفّين أجلَتْ خَيلُه وهو واقفُ
تبدَّلَ مِنْ أسماء أسيافَ وائلٍ ... وأىّ فتىً لو أخطأتْهُ المتالفُ !

---

(١) صفين : ٣٣٥ ـ ٣٣٧

تركتم عبيد الله فى القاع مُسْلَماً ... يمجّ دماء ، والعرُوق نوازِف (١)
ينوء وتَغْشَاهُ شآبيبُ من دمٍ ... كما لاحَ فى جَيْبِ القميصِ الكفائفُ
دعاهنّ فاستَسْمَعْنَ من أينَ صوته ... فأقبلن شتّى والعيونُ ذوارِفُ
يُحَلِّلْنَ عنه زرّ دِرْعٍ حصينة ... ويُنكَرُ منه بعد ذاك مَعارِفُ (٢)
وقرّت تميم سعدها ورِبابُها ... وخالفت الخضراء فيمن يخالف
وقد صبرت حولَ ابن عمّ محمد ... لدى الموت شهباء المناكب شارِفُ
بمرْجٍ ترى الرايات فيه كأنّها ... إذا اجنحت للطّعن طيرٌ عواكفُ (٣)
فما برِحُوا حتى رأى الله صبرهم ... وحتّى أسرّت بالأكفّ المصاحفُ
جزى الله قتلانا بصِفّين خَيْر ما ... أثيب عباد غادرتها المواقف (٤)

قلت : هذا الشعر نظمه كعب بن جُعَيل بعد رفع المصاحف وتحكيم الحكمين يذكر فيه مامضى لهم من الحرب على عادة شعراء العرب ، والضمير فى قوله :

* دعاهنّ فاستسمعن من أين صوته *

يرجع إلى نساء عبيد الله، وكانت تحته أسماء بنت عطارد بن حاجب بن زرارة التميمىّ وبحرية بنت هانئ بن قبيصة الشيبانىّ ، وكان عبيد الله قد أخرجهما معه إلى الحرب ذلك اليوم لينظرا إلى قتاله، فوقفتا راجلتين؛ وإلى أسماء بنت عطارد ، أشار كعب بن جُعَيل بقوله:

* تبدّل من أسماء أسيافَ وائل *

والشعر يدلّ على أن ربيعة قتلته ، لا همدان ولا حضرموت .

ويدلّ أيضا على ذلك مارواه إبراهيم بن ديزيل الهمدانىّ فى كتاب صفين: قال شدّت

(١) ب : « تركن عبيد الله » . وفى ج : « العروق » .
(٢) هذا البيت وتاليه لم يذكرا فى صفين
(٣) صفين : « اجتنحت » ، أى مالت
(٤) صفين : ٣٣٥ ، ٣٣٦ .

ربيعة الكوفة ، وعليها زياد بن خَصَفَة على عبيد الله بن عمر ذلك اليوم؛ وكان معاوية قد أقْرَع بين الناس ، فخرج سهم عبيد الله بن عمر على رَبيعة فقتلته ، فلما ضُرِب فُسطاط زياد بن خَصَفَة بقى طُنُب من الأطناب لم يجدوا له وَتِداً ، فشدّوه برِجْل عبيدالله بن عمر، وكان ناحية فجرّوه ، حتى ربطوا الطُّنب برجله ، وأقبلت امرأتاه حتى وقَفَتا عليه، فبكتا عليه وصاحتا ، فخرج زياد بن خَصَفَة، فقيل له : هذه بحرية ابنة هانئ بن قبيصة الشيبانيّ ابنة عمك ، فقال لها : ما حاجتُكِ يابنة أخي ؟ قالت : تدفع زوجي إليّ ، فقال : نعم خذيه، فجيء ببغل فحملته عليه ، فذكروا أن يديه ورجليه خطّتا بالأرض عَنْ ظهر البغل .

***

قال نصر : ومما رثى به كعبُ بن جُعيل عُبيدَ الله بن عمر قولُه :

يقولُ عبيدُ الله لما بدَتْ له ... سَحابةُ موتٍ تقطُر الحَتْفَ والدّما

ألا يالقومى فاصبرُوا إنّ صبركُمْ ... أعفُّ وأحجى عِفّةً وتكرُّما

فلما تدانى القوم خرّ مُجدّلًا ... صريعا تلاقى التربَ كفّيه والفَما

وَخَلَّف أطفالًا يتامى أذلّةً ... وعِرْساً عليه تسكُب الدمعَ أيّما (1)

حَلالا لها الخطّاب لا يمنعنّهم ... وقد كان يحمِى غيرةً أن تُكلّما

وقال الصَّلَتان العبديّ يذكر مقتل عبيد الله ، وأنّ حريث بن جابر الحنفيّ قتله :

ألا ياعُبيدَ الله مازلْتَ مُولَعاً ... ببكرٍ لها تُهْدِى القرى والتّهددا (2)

وَكُنتَ سَفيهاً قَدْ تعوّدْتَ عادَةً ... وكلُّ أمرئٍ جارٍ عَلَى ماتعوّدا

فأصبحتَ مسلوبا على شرّ آلة ... صريعَ القنا تحت العجاجة مُفْرداً

---

(1) صفين : « وخلف عرساً » .

(2) صفين : « تهدى الخنا » ؛ والخنا : الباطل . وبعده :

كأنّ حماة الحيّ من بكرِ بن وائلٍ ... بذى الرِّمث أُسْدٌ قد تبوّأنَ غرقدا

تشقّ عليك جيبها ابنة هانئٍ ... مُسَلّبة تبدى الشجا والتلدّدا[1]

وكانت ترى ذا الأمر قبل عِيانه ... ولكنّ حكم الله أهدى لك الرّدَى

وقالت عبيدَ الله لا تأتِ وائلاً ... فَقُلت لها لا تعجلى وانظرى غدا

فقد جاء ماقــد مسَّها فتسلّبت ... عليك ، وأمسى الجيبُ منها مقدّدا

حباك أخو الهيجا حُريث بن جابر ... بجياشةٍ تحكى بها النهر مزبدا[2]

كأنّ حماة الحىّ بكر بن وائل ... بذى الرّمث أسدٌ قد تبوّأن غرقدا

قال نصر : فأما ذو الكَلاع فقد ذكرنا مقتله ، وأنّ قاتله خندف البكرى[3] .

***

وحدّثنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، قال : لما حَمل ذو الكَلاع ذلك اليوم بالفَيْلق العظيم من حِمْير على صفوف أهل العراق ، ناداهم أبو شجاع الحميرىّ ـ وكان من ذوى البصائر مع علىّ عليه السلام ـ فقال : يامعشر حِمْير ، تبّت أيديكم ! أترَوْن معاوية خيرا من علىّ عليه السلام ! أضلّ الله سعيَكم . ثم أنت ياذا الكَلاع قد كنّا نرى أن لك نيّةً فى الدين ، فقال ذو الكَلاع : إيهاً يا أبا شجاع ! والله إنى لأعلم مامعاوية بأفضلَ من علىّ عليه السلام ولكنى أقاتلُ على دم عثمان ، قال : فأصيب ذو الكَلاع حينئذ ، قتله خِنْدف بن بكر البكرىّ فى المعركة[4] .

***

قال نصر : فحدّثنا عمرو ، قال : حدّثنا الحارث بن حصيرة أن ابن ذى الكَلاع ،

---

(١) صفين : « تشق عليك الجيب » . والتلدد : التلفت حيرة وأسفا

(٢) صفين :

* بجياشة تحكِى المدير المندّدا *

(٣) صفين ٣٣٧ ، ٣٣٨

(٤) صفين ٣٤٠

أرسل إلى الأشعث بن قيس رسولا يسأله أن يسلم إليه جثة أبيه ، فقال الأشعث : إنى أخاف أن يتهمنى أميرُ المؤمنين فى أمره ، فاطلبه من سعيد بن قيس فهو فى الميمنة ، فذهب إلى معاوية فاستأذنه أن يدخل إلى عسكر علىّ عليه السلام ، يطلُب أباه بين القتلى ، فقال له : إنّ عليا قد منع أن يدخل أحدٌ منا إلى معسكره ، يخاف أن يُفسِد عليه جنده ، فخرج ابن ذى الكلاع ، فأرسل إلى سعيد بن قيس الهمدانىّ يستأذِنه فى ذلك ، فقال سعيد : إنّا لا نمنعك من دخول العسكر ؛ إنّ أمير المؤمنين لا يبالى مَنْ دخل منكم إلى معسكره ؛ فادخل ، فدخل من قبل الميمنة ، فطاف فلم يجدْه ، ثم أتى الميسرة فطاف فلم يجدْه ، ثم وجده وقد ربطت رجله بطُنُب من أطناب بعض فساطيط العسكر ؛ فجاء فوقف على باب الفسطاط ، فقال : السّلام عليكم يا أهل البيت ؛ فقيل له : وعليك السلام ؛ فقال : أتأذنون لنا فى طُنُب من أطناب فُسْطاطِكم ؟ ومعه عبد أسودُ لم يكن معه غيره . فقالوا : قد أذنّا لكم ، وقالوا له : معذرة إلى الله وإليكم ؛ أما إنه لولا بغيُه علينا [(١)] ماصنعنا به ماترون ؛ فنزل ابنهُ إليه ، فوجده قد انتفخ — وكان من أعظم الناس خَلْقا — فلم يطق احتماله ، فقال : هل من فتى معوان ؟ فخرج إليه خِندف البكرىّ ؛ فقال : تنحَّوْا عنه ؛ فقال ابنه : ومَنْ الذى يحمله إذا تنحينا عنه ؟ قال : يحمِلُه قاتله . فاحتمله خِندف حتى رمى به على ظهر بغل ، ثم شدّه بالحبال ، فانطلقا به [(٢)] .

قال نصر : وقال معاوية لما قتِل ذو الكلاع : لأنا أشدُّ فرَحاً بقتل ذى الكلاع منّى بفتح مصر لو فتحتُها . قال : لأن ذا الكلاع كان يحجُر على معاوية فى أشياء كان يأمرُ بها .

قال نصر : فلما قتل ذو الكلاع ، اشتدّت الحرب وشدّت عكّ ولَخْمٌ وجُذام ، والأشعريون من أهل الشام على مذحِج من أهل العراق ، جعلهم معاوية بإزائهم ، ونادى منادى عكّ :

---

(١) ب : « على على » .   (٢) صفين : « فانطلقوا »

وبلٌ لأمّ مَذْحِجٍ مِنْ عَكٍّ   لَنترُكَنْ أمّهم تبكّى

نقتلهم بالطَّعْنِ ثم الصَّكِّ   بكل قِرْنٍ باسلٍ مِصَكِّ

* فَلا رجالَ كرجالِ عكٍّ(١) *

فنادى منادى مَذْحج ؛ يالَمَذْحِج ! خَدِّموا — أى اضربوا السُّوقَ مواضع الخَدَمة ، وهى الخلاخيل — فاعترضت مذحِج سوقَ القوم ، فكان فيه بوار عامّتهم ؛ ونادى منادى جذام حين طحنت رحا القوم ؛ وخاضت الخيل والرجال فى الدماء .

الله الله فى جذام ، ألا تذكرون الأرْحَام ، أفنيتم لخمًا الكرام ، والأشعرين وآل ذى حمام ! أين النُّهى والأحلام ! هذى النساء تبكى الأعلام .

ونادى منادى عكّ :

يا عكّ أين المفرّ ، اليوم تعلم ما الخبر ، لأنكم قومٌ صُبُر ، كونوا كمجتمع المدَر ، لا تشمتن بكم مُضَر ، حتى يحولَ ذا الخبر .

ونادى منادى الأشعريين :

يا مذحِج ، مَنْ للنساء غدا إذا أفنا كم الرَّدَى ؛ الله الله فى الحرمات ؛ أما تذكرون نساءكم والبنات ؛ أما تذكرون فارس والروم والأتراك ؛ لقد أذن الله فيكم بالهلاك(٢) !

قال : والقومُ ينحرُ بعضُهم بعضاً ويتكادَمون بالأفواه .

* * *

قال نصر : وحدثنى عمرو بن الزبير : لقد سمعت الحُصَين بن المنذر ، يقول : أعطانى

---

(١) صفين ٣٤٠

(٢) صفين ٣٤٠

علىّ عليه السلام ذلك اليوم رايةَ ربيعة ، وقال : باسم الله سِرْ ياحضَين ، واعلم أنه لاتخفق على رأسك رايةٌ مثلها أبداً ، هذه راية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فجاء أبو عرفاء جبلة بن عطية الذهلىّ إلى الحضين ، وقال : هل لك أن تعطينى الراية أحملها لك ، فيكون لك ذكرُها ، ويكون لى أجرُها ! فقال الحُضين : وماغناى ياعمّ عن أجرها مع ذِكرها ! قال : إنه لا غنى بك عن ذلك ، ولكن أعِرْهَا عمّك ساعة ، فما أسرع ما ترجع إليك ! قال الحضَين : فقلت : إنه قد استقتل ، وإنه يريد أن يموت مجاهداً ، فقلت له : خذها فأخذها ، ثم قال لأصحابه : إن عملَ الجنة كُرْه كله وثقيل ، وإن عمل النار خِفٌّ كله وخبيث ، إنّ الجنةَ لايدخلها إلا الصابرون الذين صبروا أنفسهم على فرائض الله وأمره ، وليس شىء مما افترض الله على العباد أشدّ من الجهاد ، هو أفضلُ الأعمال ثواباً عند الله ، فإذا رأيتمونى قد شددتُ فشِدّوا ، ويحكم ! أما تشتاقون إلى الجنة ! أما تحبّون أن يغفرِ الله لكم ! فشدّ وشدوا معه ، فقاتلوا قتالًا شديداً ، فقتل أبو عرفاء رحمه الله تعالى ، وشدت ربيعة بعده شدّة عظيمة على صفوف أهل الشام فنقضتها . وقال مجزأة ابن ثور :

أضربُهمْ ولا أرى معاويهْ الأبرجَ العين العظيم الحاويهْ[1]
هوتْ به فى النّار أمّ هاويهْ جاوره فيها كلابٌ عاويهْ
أغوى طغَاماً لاهدته هاديهْ

قال نصر : وكان حُريث بن جابر يومئذ نازلاً بين الصّفّين فى قبّة له حمراء ، يسق أهلَ العراق اللبن والماء والسّويق ، ويطعمهم اللحم والثريد ، فمن شاء أكل ، ومن شاء شرب ، ففى ذلك يقول شاعرهم :

فلو كانَ بالدَّهْنا حُريث بن جابر لأصبح بحراً بالمفــازة جارياً

---

(١) البرج بفتحتين : سعة العين ؛ والحاوية : المعى .

قلت : هذا حُرَيث بن جابر ؛ هو الذى كتب معاوية إلى زياد فى أمره بعد عام الجماعة ـ وحريث عامل لزياد على همْدان ـ أما بعد ؛ فاعزِلْ حريث بن جابر عن عَمَله ؛ فما ذكرت مواقفه بصفِّين إلا كانت حزازةٌ فى صدرى . فكتب إليه زياد : خَفِّض عليك يا أمير المؤمنين ، فإن حريثا قد بلغ من الشّرف مبلغا لاتزيده الولاية ، ولا ينقصه العزل .

قال نصر : فاضطربَ النّاسُ يومئذ بالسيوف حتى تقطّعت وتكسرت ؛ وصارت كالمناجل؛ وتطاعنوا بالرّماح حتى تقصّفت[1] وتناثرت أسنتُها، ثم جَثَوْا على الركب فتحاثَوا بالتراب ، يحثُو بعضهم التراب فى وجه بعض؛ ثم تعانقوا وتكادَموا بالأفواه ، ثم تَرامَوْا بالصخر والحجارة . ثم تحاجزُوا ، فكان الرّجلُ من أهل العراق يمرّ على أهل الشام ، فيقول : كيف آخذ إلى رايات بنى فلان ؟ فيقولون: ها هنا لا هداك الله ، ويمرّ الرجل من أهل الشام على أهل العراق، فيقول: كيف آخذ إلى راية بنى فلان؟ فيقولون :هاهنا لا حفظك الله ولا عافاك[2] .

قال نصر : وقال معاوية لعمرو بن العاص : أما ترَى يا أبا عبدالله إلى ما قدْ دفعنا ؛ كيف ترى أهل العراق غدا صانعين ! إنا لبِمعرض خطر عظيم . فقال له : إن أصبحتْ غدا ربيعة وهم متعطّفون حَوْل علىّ عليه السلام تعطُّف الإبل حول فحلها ، لقيت منهم جِلاداً صادقا ، وبأسا شديدا ، وكانت التى لا يُتعزّى[3] لها . فقال معاوية : أيجوز أنك تخوفنا يا أبا عبدالله ! قال: إنك سألتنى فأجبتك. فلما أصبحوا فى اليوم العاشر أصبحوا وربيعة محدِقة بعلىّ عليه السلام إحداقَ بياض العين بسوادها[4] .

***

(١) ا ، ج : « تقصدت » ، وفى صفين : « تكسرت » .

(٢) صفين ٣٤٢ ، ٣٤٣

(٣) ا : « يعرض » .

(٤) صفين ٣٤٤ .

قال نصر : فحدّثنى عمرو ، قال : لما أصبح علىّ عليه السلام هذا اليوم ، جاء فوقف بين رايات ربيعة ، فقال عتاب بن لقيط البكرىّ ، من بنى قيس بن ثعلبة : يا معشرَ ربيعة ، حاموا عن علىّ منذ اليوم؛ فإنْ أصيبَ فيكم افتضحتُم ، ألا ترونَه قائما تحت راياتكم؟ وقال لهم شقيق بن ثور : يا معشرَ ربيعة ، ليس لكم عُذْر عند العرب إن وُصل إلى علىّ وفيكم رجل حىّ ؛ فامنعوه اليوم ، واصدقوا عدوّكم اللقاء ؛ فإنه حمد الحياة تكسبونه . فتعاهدت ربيعة وتحالفتْ بالأيمان العظيمة منها ؛ تبايعَ سبعة آلاف ، على ألّا ينظر رجلٌ منهم خلفه حتى يردوا سُرادق معاوية ، فقاتلوا ذلك اليوم قتالا شديدا لم يكنْ قبله مثله ، وأقبلوا نحو سرادق معاوية ، فلما نظر إليهم قد أقبلوا قال :

إذا قلتُ قد ولَّتْ ربيعة أقبلَتْ ... كتائبُ منها كالجبالِ تجالدُ

ثم قال لعمرو : يا عمرو ، ما ترى ! قال : أرى ألّا تحنَث أخوالى اليوم . فقام معاوية وخلَّى لهم سرادقه ورحْلَه وخرج فارًّا عنه ؛ لائذا ببعض مضارب العسكر (١) فى أخريات الناس فدخله ، وانتهبت ربيعة سرادقه ورَحْله؛ وبعث إلى خالد بن المعمَّر : إنّكَ قد ظفرت؛ ولك إمرة خراسان إن لم تُتمّ . فقطع خالد القتال ولم يتمّه ، وقال لربيعة : قد برّت أيمانكم فحسبكم ؛ فلمّا كان عام الجماعة ، وبايع النّاسُ معاوية ، أمّره معاوية على خُراسان ، وبعثه إليها ، فمات قبل أن يبلغَها (٢) .

***

قال نصر فى حديث عمرو بن سَعْد : إنّ عليا عليه السلام صلّى بهم هذا اليوم صلاةَ الغداة ، ثم زحف بهم ؛ فلما أبصروه قد خرج استقبلُوه بزُحوفهم ، فاقتتلوا قتالا شديدا . ثم إنّ خيل أهلِ الشام حملت على خيل أهل العراق ، فاقتطعُوا من أصحاب علىّ عليه السلام ألفَ رجل أو أكثر ، فأحاطوا بهم ، وحالوا بينهم وبين أصحابهم فلم يروهم ، فنادى

(١) ب : « أهل الشام » ، وما أثبته من ا ، ب ، صفين

(٢) صفين ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، وهناك : « فمات قبل أن يصل إليها » .

علىّ عليه السلام يومئذ : ألا رجلٌ يشرى نفسَه لله ويبيع دنياه بآخرته ! فأتاه رجلٌ من جُعْف يقال له عبد العزيز بن الحارث، على فَرَس أدهم، كأنه غراب مقنّع فى الحديد، لا يُرى منه إلا عيناه ، فقال : ياأمير المؤمنين ، مُرْنى بأمرك ، فوالله لاتأمرنى بشىء إلا صنعته ، فقال علىٌّ عليه السلام :

سمحتَ بأمرٍ لايطاق حفيظةً وصدقا وإخوانُ الوفاء قليلُ
جزَاكَ إلهُ النَّاسِ خيراً فإنه لعمرُكَ فضلٌ ماهناكَ جزيلُ(١)

ياأبا الحارث ، شدَّ الله ركنك ، احمل على أهل الشام ، حتى تأتىَ أصحابَك فتقولَ لهم : إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السَّلام ؛ ويقول لكم : هلّلوا وكبّروا من ناحيتكم، ونهلّل نحن ونكبّر من هاهنا، واحملوا من جانبكم ، ونحمل نحن من جانبنا على أهل الشام. فضرب الجعفىّ فرسه ؛ حتى إذا أقامه على أطراف سَنَابكه، حمل على أهل الشام المحيطين بأصحاب علىّ عليه السلام، فطاعَنَهم ساعة ، وقاتلهم . فأفرَجُوا له حتى خَلَص إلى أصحابه ؛ فلما رأوْه استبشَرُوا به وفرِحُوا ، وقالوا : مافعل أمير المؤمنين ؟ قال : صالح ، يقرئكم السلام ويقول لكم : هلّلوا وكبروا واحملوا حملة شديدة من جانبكم ، ونهلّل نحن ونكبّر ونحمل من جانبنا . ففعلوا ماأمرهم به ، وهلّلوا وكبّروا ، وهلّل علىٌّ عليه السلام وكبّر هو وأصحابه، وحَمَل على أهل الشام وحملوا هُمْ من وَسَط أهل الشام ، فانفرج القومُ عنهم وخرجوا ؛ وما أصيب منهم رجلٌ واحد ؛ ولقد قُتِل من فُرْسان الشام يومئذ زهاء سبعمائة إنسان.

قال علىّ عليه السلام : مَنْ أعظمُ الناس اليوم غناء ؟ فقالوا : أنتَ ياأمير المؤمنين ، فقال : كلّا ، ولكنه الجعفىّ .

---

(١) صفين :

* يداكَ بفضلٍ ماهناكَ جزيلِ *

وعلى هذه الرواية يكون فى البيت إقواء .

قال نصر : وكان عليٌّ عليه السلام لا يعدِل بربيعة أحدًا من النَّاس ، فشقَّ ذلك على مُضَر ، وأظهروا لهم القبيح، وأبدَوْا ذات أنفسهم ، فقال الحُضَيْن بن المنذر الرقاشي شعراً أغضبهم به ، من جملته[1] :

أرَى مُضَرًا صارتْ ربيعةُ دونَها شِعارَ أميرِ المؤمنين ، وذا الفضلُ
فأبدَوْا لنا مما تجنّ صدورهمْ هو السوء والبغضاء والحِقْد والغِلّ[2]
فأبلُوا بلانا أو أقِرّوا بفضلِنَا ولن تلحقونا الدَّهْرَ ما حنّت الإبْلُ

فقام أبو الطفيل عامر بن واثلة الكنانيّ ، وعمير بن عطارد بن حاجب بن زرارة التميميّ ، وقبيصة بن جابر الأسدي ،وعبد الله بن الطّفيل العامريّ ؛ في وجوه قبائلهم ،فأتوا عليا عليه السلام ؛فتكلم أبو الطفَيل ، فقال: إنا والله يا أميرَ المؤمنين ما نحسُدُ[3] قوماً خصّهم الله منك بخير ؛ وإنّ هذا الحيّ من ربيعة قد ظنّوا أنّهم أوْلَى بك مِنّا ، فأعفهم عن القتال أياماً ، واجعل لكلّ امرئٍ منّا يوماً يقاتل فيه ؛ فإنا إذا اجتمعنا اشتبه عليك بلاؤنا . فقال عليّ عليه السلام : نعم أعطيكم ما طلبتم ، وأمر ربيعة أن تكفّ عن القتال ،وكانت بإزاء اليمن من صُفوف أهل الشام ، فغدا أبو الطفيل عامر بن واثلة في قومه من كنانة ، وهم جماعةٌ عظيمة ، فتقدّم أمام الخيل ، ويقول : طاعِنوا وضاربوا . ثم حمل ، وارتجز فقال :

قَدْ ضَارَبَتْ فِي حَرْبِهَا كِنَانَهْ[4] والله يجزيها بِهِ جِنَانَهْ
من أفْرِغَ الصَّبْرُ عليه زانَهْ أو غلب الجُبْنُ عليه شانَهْ
أو كفَرَ اللهَ فقد أهانَهْ غداً يعضّ مَنْ عَصى بنانَهْ

---

(١) صفين : « فيه »

(٢) الرواية في صفين :

فأبدَوْا إلينا ماتجنُّ صُدورهُمْ عَلَيْنَا من البُغضا وذاك له أصلُ

(٣) ب : « نجد » ، تصحيف ، وصوابه في ج وصفين .

(٤) صفين : « فقد صابرت » .

فاقتتلوا قتالا شديداً : ثم انصرف أبو الطُّفيل إلى علىّ عليه السلام ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنّك أنبأتنا أنّ أشرفَ القتل الشهادة ، وأحظَى الأمر الصبر ، وقد والله صبرنا حتى أُصِبنا ، فقتيلُنا شهيد، وحيُّنا سعيد[1] ، فليطلُب مَنْ بقى ثأر مَن مضى ؛ فإنا وإن كنّا قد ذهب صَفوُنا ، وبقى كدَرُنا ، فإن لنا ديناً لا يميل به الهوى ، ويقيناً لا تزحمه الشبهة . فأثنى علىّ عليه السلام عليه خيرا .

ثم غدَا فى اليوم الثانى عمير بن عطارد بجماعة من بنى تميم — وهو يومئذ سيّد مُضَر الكوفة — فقال ياقوم ، إنى أتبع آثار أبى الطفيل ، فاتبعوا آثار كنانة ، ثم قدّم رايته وارتجز فقال :

قَدْ ضَارَبَتْ فِي حَرْبِهَا تَمِيمُ ... إنّ تميماً خطبُها عَظِيمُ[2]

لها حديثٌ ولها قديمٌ ... إنّ الكريمَ نَسْلُه كَرِيمُ

دين قويم وهوًى سليم ... إن لم تَرِدْهم رايتى فلوموا[3]

ثم طعن برايته حتى خضبها، وقاتل أصحابه قتالاً شديداً حتى أمسَوْا ، وانصرف عمير إلى علىّ عليه السلام ، وعليه سلاحه ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، قد كان ظَنّى بالناس حسنا ، وقد رأيتُ منهم فوقَ ظَنّى بهم ؛ قاتلوا من كلّ جهة ، وبلغوا من عدوّهم جَهْدَ عدوّهم ، وهم لهم إن شاء الله .

ثم غدا فى اليوم الثالث قَبيصة بن جابر الأسَدىّ فى بنى أسد ، وقال لأصحابه : يابنى أسد ، أمّا أنا فلا أقصِّر دون صاحبىّ ، وأمّا أنتم فذاك إليكم ، ثم تقدّم برايته ، وقال :

قَدْ حَافَظَتْ فى حربها بنو أَسَدْ ... ما مثلُها تحتَ العَجَاج من أحَدْ

---

(١) صفين : « ثائر » .

(٢) ب : « حظها » ؛ وما أثبته من ا ، ج ، وصفين .

(٣) صفين : « إن لم تزرهم » .

أقربُ منْ يُمْنٍ وأ نأى من نَـكَدْ　　كأننا ركنا ثَبِيرٍ أو أُحُــــدْ
لسنا بأوباشٍ ولا بيضِ البــلد　　لكننا المحة منْ ولد معــد[1]

فقاتل القوم إلى أن دخل الليلُ ، ثم انصرفوا .

ثم غدا فى اليوم الرابع عبدالله بن الطُّفيل العامرى فى جماعة هوازن ، فحاربهم حتّى الليل ثم انصرفوا .

قال نصر : فانتصفوا المضرية من الربعيّة ، وظهر أثرها وعرف بلاؤها ، وقال أبو الطُّفيل :

وحَامَتْ كِنانة فى حَرْبِهـــا　　وحامت تميم وحَامَتْ أســـدْ
وَحَامَتْ هَوَازِنُ يَوْمَ اللِّقـا　　فَمَا خامَ مِنَّا وَمِنْهُمْ أَحَـــدْ
لقينـا الفوارس يوم الخميـــس والعيدِ والسَّبت ثم الأحَـدْ
لقينـاَ قبــائل أنسابهمْ　　إلى حَضْرَموت وأهــل الجَنَدْ[2]
فأمدادُهم خَلْف آذانِهِمْ　　وليس لنـا من سوانا مَدَدْ
فلـما تنادوْا بآبائِهِمْ　　دَعَوْنـاَ مَعَدّاً ونعم المَعَدْ
فظلنـا نُفَلِّق هاماتِهِمْ　　ولم نكُ فيهـا ببيض البَلَدْ
وَنعْمَ الفوارسُ يومَ اللقـا　　فقلْ فى عديدٍ ، وقُلْ فى عَدَدْ
وقل فى طِعـانٍ كفَرْغ الدلاء　　وَضَرْبٍ عظيم كنارِ الوَقَدْ[3]
ولـكن عَصَفْنـاَ بهم عَصْفَةً　　وفى الحرب يُمْنٌ وفيهـا نَـكَدْ
طَحَنَّا الفوارسَ وَسْطَ العَجاجِ　　وَسُقْنـا الزعانِفَ سَوْق النَّقَدْ[4]

(١) المحة : الشيء الخالص ، وبعده فى صفين .

كنتَ ترانا فى العجاج كالأسَدْ　　ياليتَ رُوحِى قد نأى عن الجسَدْ

(٢) الجند : إحدى الولايات بأرض اليمن .
(٣) الفرغ : جمع فراغ ؛ وهو مصب الدلو ؛ وسكنت الراء لضرورة الشعر .
(٤) الزعانف : الجماعات ؛ والنقد هنا : الغنم

وقلنا عليٌّ لنا والدٌ ونحنُ له طاعــــةٌ كالولدْ [1]

***

قال نصر : وحدّثنا عمرو ، عن الأشعث بن سُوَيد ، عن كَرْدوس ، قال : كتب عُقْبة بن مسعود عاملُ عليّ على الكوفة إلى سليمان بن صُرَد الخزاعيّ ؛ وهو مع عليّ بصِفِّين :

أما بعد ؛ فإنهم ﴿ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً ﴾ [2] ؛ فعليكَ بالجهاد والصَّبْر مع أمير المؤمنين . والسلام [3] .

***

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن سعد وعمرو بن شَمِر ، عن جابر عن أبي جعفر ؛ قال : قام عليّ عليه السلام فخطب الناس بصِفّين ، فقال :

الحمدُ لله على نِعَمِه الفاضلة على جميع مَنْ خلَق ؛ من البَرّ والفاجر ، وعلى حُجَجه البالغة على خَلْقِه مَنْ أطاعه فيهم ومَنْ عصاه ؛ إن يرحَمْ [4] فبفضله ومَنّه ، وإن عذّب فبما كسبت أيديهم ؛ وإن الله ليسَ بظلّامٍ للعبيد .

أحمَدُه على حُسْن البلاء ، وتظاهر النَّعماء ؛ وأستعينه على مانابنا من أمرِ الدنيا والآخرة ؛ وأتوكّل عليه وكفى بالله وكيلا . ثم إني أشهد [5] أن لا إله إلا الله وحدَه لاشريك له ، وأشهدُ أنّ محمداً عبده ورسوله ؛ أرسلَه بالهدى ودين الحقّ ؛ ارتضاه لذلك ، وكان أهله ؛ واصطفاه لتبليغ رسالته ، وجعلَه رحمةً منه على خَلْقِه ؛ فكان علمُه [6] فيه رءوفاً

(١) صفين ٣٥٢ ، ٣٥٤

(٢) سورة الكهف ٢٠

(٣) صفين ٣٥٤ : « والسلام عليك » .

(٤) صفين : « رحم » .

(٥) صفين : « وأشهد » .

(٦) صفين : « كعلمه »

رحماً ، أكرم خلق الله حسباً ، وأجلهم[1] منظراً ، وأسخاهم نفساً، وأبرّهم لوالد، وأوصلهم لرحم؛ وأفضلهم علما ، وأثقلهم حِلْما، وأوفاهم لعهد ، وآمنهم على عَقْد ؛ لم يتعلق عليه مسلم ولا كافر بمظلمة قطّ ، بل كان يظلم فيغفر ، ويقدِر فيصفح ؛ حتى مضى صلى الله عليه وسلّم مطيعا لله ، صابراً على ما أصابه ، مجاهداً فى الله حقّ جهاده ؛ حتى أتاه اليقين ، صلى الله عليه وسلّم ، فكان ذهابُه أعظمَ المصيبة على أهل الأرض: البرّ والفاجر ؛ ثم ترك فيكم كتابَ الله يأمركم بطاعة الله ، وينهاكم عن معصيته؛ وقد عهِد إلىّ رسولُ الله عهداً فلستُ أحيدُ عنه؛ وقد حضَرْتم عَدُوّكم ، وعلمْتُم أنّ[2] رئيسهم منافق ، يدعوهم إلى النار ؛ وابن عمّ نبيكم معكم ؛ وبين أظهركم ؛ يدعوكم إلى الجنّة وإلى طاعة ربّكم ، والعملِ بسنّة نبيكم ؛ ولا سواء مَنْ صلّى قبلَ كلّ ذَكَر ؛ لم يسبقنى بصلاةٍ مع رسول الله أحدٌ ، وأنا من أهل بدر ، ومعاوية طليق [وابن طليق][3]. والله إنّا على الحقّ وإنهم على الباطل ؛ فلا[4] يجتمعُنّ على باطلهم وتتفرقوا عن حقّكم[4] حتى يغلِبَ باطلُهم حقّكم ؛ ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾[5] ، فإن لم تفعلوا يعذّبهم بأيدى غيرِكم .

فقام[6] أصحابُه ، فقالوا : ياأميرَ المؤمنين ؛ انهَضْ بنا إلى عَدُوّنا وعدوّك إذا شئت ؛ فوالله ما نريدُ بك بدلًا ؛ بل نموت معَك ، ونحيا معك . فقال لهم : والذى نفسى بيده ، لنظَرَ إلىّ النبى صلى الله وسلّم، أضربُ بين[7] يديه بسيفِى هذا، فقال: « لا سيف إلا ذُو الفقار ولا فتى إلا علىّ » ، وقال لى: « ياعلىّ ، أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبىّ بعدى،

(١) صفين : « وأجله » ، وكذلك سائر الضمائر إلى : « وآمنهم على عقد » .
(٢) صفين : « من رئيسهم » .
٣) من صفين
(٤ — ٤) صفين : « فلا يكونن القوم على باطلهم اجتمعوا عليه ، وتفرقون عن حقكم » .
(٥) سورة التوبة ١٤
٦) صفين : « فأجابه أصحابه » .
(٧) صفين : « قدامه » .

وموتك وحياتك يا علىّ معى » ؛ والله ما كَذَب ولا كُذِبْتُ ، ولا ضلّ ولا ضللت، ولا ضلّ بى ، ولا نسِيت ما عهِدَ إلىّ ، وإنّى على بيّنة من ربى وعلى الطريق الواضح؛ ألقطه لقْطًا.

ثم نهض إلى القوم ؛ فاقتتلوا مِنْ حين طلعتِ الشمس حتى غاب الشفق الأحمر ، وما كانت صلاة القوم فى ذلك اليوم إلا تكبيراً[1] .

***

قال : وحدّثنا عمرو بن شمِر ، عن جابر ، عن الشعبىّ ، عن صعصعة بن صُوحان ، قال : برزَ فى بعض أيام صفّين رجل من حِمْيَر ، من آل ذِى يَزَن ، اسمه كُرَيب[2] بن الصباح ، ليس فى الشام يومئذ رجلٌ أشهر بالبأس والنّجْدة منه ، فنادى : مَنْ يبارز ؟ فخرج إليه المرتفع بن الوضّاح الزبيدىّ ، فقتله ، ثم نادى : مَنْ يُبارز ؟ فخرج إليه الحارث ابن الجلاح ، فقتله ، ثم نادى : مَنْ يبارز؟ فخرج إليه عابد[3] بن مسروق الهمْدانىّ فقتله ، ثم رمى بأجسادهم بعضها فوق بعض ؛ وقام عليها بغياً واعتداء ، ونادى : مَنْ يبارز ؟ فخرج إليه علىّ ، وناداه : ويحك يا كُرَيب ! إنى أحذِّرك الله وبأسه ونِقْمته ، وأدعوك إلى سنّة الله وسنّة رسوله ، ويحك ! لا يُدخِلنّك معاوية النّار ؛ فكان جوابُه له أن قال : ما أكثرَ ما قد سمعت مِنْك هذه المقالة ! ولا حاجة لنا فيها ، أقدِمْ إذا شئت ؛ مَنْ يشترى سيفى وهذا أثره ؟ فقال علىّ : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم مشى إليه فلم يمهله أن ضربه ضَرْبَةً خرّ منها قتيلا يُشحَط[4] فى دمه ، ثم نادى : مَنْ يبرز ؟ فبرز إليه الحارث ابن وداعة الحميرىّ ، فقتله ، ثم نادى : مَنْ يبرُز ؟ فبرز إليه المطاع بن مطّلب العنسىّ[5] ،

---

(١) صفين ٣٥٥ ، ٣٥٦

(٢) فى الأصول : « كريث » ، وما أثبته من صفين .

(٣) صفين : « عائذ »

(٤) يشحط ، بالبناء للمجهول : يتضرج بالدم ؛ وفى صفين : « يتشحط » .

(٥) صفين : « القينى » .

فقتله ، ثم نادى : مَنْ يبرز ! فلم يبرز إليه أحدٌ ، فنادى : [يا معشر المسلمين][1] ، ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾[2] ، ويحك يا معاوية ! هلمّ إلىّ فبارزنى ؛ ولا يقتلَنّ الناسُ فيما بيننا . فقال عمرو بن العاص : اغتنِمْه منتهزا ؛ قد قتَل ثلاثة من[3] أبطال العرب وإنى أطمعُ أن يُظفِرَك الله به ، فقال معاوية : والله لَن تريد إلا أن أُقتَلَ فتصيبَ الخلافة بعدى ؛ اذهب ، إليك عنّى ، فليس مثلى يُخدَع[4] .

***

قال نصر : وحدّثنا عمرو ، قال : حدّثنا خالد بن عبد الواحد الجريرى[5] قال : حدّثنى مَنْ سمع عمرو بن العاص قبل الوقْعة العظمى بصِفّين ، وهو يحرّض أهل الشام ؛ وقد كان منحنياً على قوس ، فقال :

الحمدُ لله العظيم فى شأنِه ؛ القوىّ فى سلطانه ، العلِيّ فى مكانه ، الواضح فى بُرْهانه ، أحمَده على حُسْن البلاء ، وتظاهر النعماء ؛ فى كلّ رزيةٍ[6] من بلاء ، أو شِدّةٍ أو رخاء ؛ وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لاشريك له ، وأنّ محمداً عبده ورسوله ؛ ثم إنّا نحتسِب عندَ الله ربّ العالمين ما أصبحَ فى أمة محمدصلى الله عليه وسلم من اشتعال نيرانها ، واضطراب حَبْلها ، ووقوع بأسها بينها ، فإنالله وإنا إليه راجعون ؛ والحمد لله ربّ العالمين ! أوَ لَا تعلمون أنّ صلاتَنا وصلاتَهم ، وصيامَنا وصيامَهم ، وحجّنا وحجّهم ، وقتلنا وقتلاهم ،

---

(١) من صفين .
(٢) سورة البقرة ١٩٤
(٣) ساقطة من ب
٤ صفين ٢٥٦ – ٢٥٨
خين : « الجزرى » ، وفى ج : « الحريرى » .
(٦) صفين : « لزبة » .

وديننا ودينهم واحد؛ ولكنّ الأهواء مختلفة[1]؛ اللهم أصلِحْ هذه الأمة بما أصلحتَ به أوّلها، واحفظْ[2] فيما بينها؛ مع أن القوم قد وَطئوا بلادكم، وبغَوْا عليكم، فجِدّوا في قتالِ عَدُوّكم، واستعينوا بالله ربِّكم؛ وحافظوا على حُرماتكم. ثم جلس.

قال نصر: وخطب عبدالله بن العباس أهلَ العراق، يومئذ فقال:

الحمدُ لله ربّ العالمين؛ الذى دَحا تحتنا سَبعا، وسَمَكَ[3] فوقنا سَبعا، وخلَق فيما بينهنّ خَلقاً؛ وأنزل لنا مِنهُنّ رزقاً، ثم جعل كلّ شيء قدراً يبلى ويفنى غير وجهه الحىّ القيوم، الذى يحيا ويبقى. إن الله تعالى بعث أنبياء ورُسُلا؛ فجعلهم حججاً على عباده، عُذْراً أو نُذرا، لا يطاع إلا بعلمه وإذنه، يمنّ بالطاعة على مَنْ يشاء من عباده، ثم يُثيب عليها، ويُعصَى بعلم منه، فيعفو ويغفر بحلمه، لا يقدَرُ قدرُه، ولا يَبْلُغ شيء مكانه، أحصى كلّ شيء عددا، وأحاط بكلّ شيء علما. وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وأشهدُ أنّ محمدا عبده ورسوله، إمامُ الهدى، والنبيّ المصطفى؛ وقد ساقنا قَدَرُ الله إلى ما ترون، حتى كان مما اضطرب من حَبْلِ هذه الأمة، وانتشر من أمرِها، أنّ معاوية بن أبى سفيان[4]، وَجَدَ مِنْ طغام الناس أعوانا، على علىّ ابن عم رسول الله وصهره، وأول ذَكَرٍ صلّى معه، بَدْرِىّ، قد شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كلّ مشاهده التى فيها الفضلُ [5 ومعاوية مشركٌ، كان يعبد الأصنام، والذى مَلكَ المُلكَ وحدَه، وبان به وكان أهله 5]، لقد قاتَلَ علىّ بن أبى طالب مع رسول الله، وهو يقول: صدَق الله ورسوله، ومعاوية يقول: كذب الله ورسوله، فعليكم بتقوَى الله، والجِدّ والحزْم والصبر، والله إنّا لنعلمُ

---

(١) صفين: « متشتتة »

(٢) صفين: « واحفظ فيها بنيها ».

(٣) سمك: رفع.

(٤) صفين: « ابن آكلة الأكباد ».

(٥ــ٥) صفين: « ومعاوية وأبو سفيان مشركان يعبدان الأصنام، واعلموا والله الذى ملك الملك وحده، فبان به وكان أهله ».

إنكم لَعَلَى حقّ ، وإنّ القومَ لَعَلَى باطل ، فلا يكونُنّ أوْلَى بالجدّ على باطلهم منكم في حقّكم، وإنّا لنعلمُ أنّ الله سيعذّبُهم بأيديكم أو بأيدى غيركم ، اللهم أعِنّا ولا تخذُلنا ؛ وانصرنا على عَدُوّنا ، ولا تحل [1] عنّا ؛ وافتح بيننا وبين قومنا بالحقّ ، وأنت خير الفاتحين [2] .

***

قال نصر : وحدّثنا عمرو ؛ قال : حدّثنا عبد الرحمن بن جُندب ، عن جندب بن عبدالله ، قال : قام عمّار يوم صفين ، فقال : انهضُوا [3] مَعِى عبادَ الله ، إلى قوم يزعمون أنهم يطلبُون بدم ظالم ؛ إنما قتله الصالحون المنكِرون للعُدْوان ، الآمرون بالإحسان، فقال هؤلاء الذين لا يبالون إذا سلمت لهم دنياهم ولو دَرَس هذا الدين : لِمَ قتلتموه ؟ فقلنا : لإحداثه ، فقالوا إنه لم يُحدِث شيئا؛ وذلك لأنه مكّنهم من الدنيا ، فهم يأكلونَها ويَرْعَونها ، ولا يبالون لو انهدمت [4] الجبال . والله ماأظنّهم يطلبُون بدم [5] ، ولكنّ القوم ذاقوا الدنيا فاستحلّوها [6] ،واستمرءوها ، وعلِموا أنّ صاحبَ الحق لو وليَهم لحال بينهم وبين ماياً كلون ويرعوْن منها .

إنّ القوم لم يكنْ لهم سابقة في الإسلام يستحقّون بها الطاعة والولاية، فخدعوا أتباعهم بأن قالوا: قُتِل إمامُنا مظلوما : ليكونوا بذلك جبابرةً وملوكا ؛ تلك مكيدة قد بلغوا بها ماترون ، ولولاها مابايعهم من النّاس رجل [7] ؛ اللهم إن تنصرنا فطالما نصرت، وإن تجعل

---

(١) صفين : « ولا تخل عنا » .
(٢) صفين ٣٥٩ ، ٣٦٠
(٣) صفين : « امضوا » .
(٤) صفين : « لو انهدت » .
(٥) صفين : « بدمه » .
(٦) صفين : « فاستحلوها » .
(٧) صفين : « رجلان » .

لهم الأمر فادّخر لهم بما أحدثوا لعبادك العذاب الأليم .

ثم مضى ، ومضى معه أصحابُه، فدنا من عمرو بن العاص، فقال : ياعمرو ، بعت دينَك بمصر ، فتبًّا لك ! وطالما بَغَيْتَ للإسلام عِوَجا (١) .

ثم قال : اللهم إنك تعلم أنى لو أعلم أنّ رضاك فى أنْ أقذِف بنفسى فى هذا البحْر لفعلت . اللهم إنك تعلم أنّى لو أعلمُ أنّ رضاك أنْ أضع ظُبَة سيفى فى بطْنى ثم أنحنِى عليه حتى يخرج من ظَهْرى لفعلت ؛ اللهم إنّى أعلم مما علّمتنى أنّى لا أعمل عملًا صالحاً هذا اليوم ، هو أرضى من جهاد هؤلاء الفاسقين ، ولو أعلم اليوم عملا هو أرضى لك منه لفعلته (٢) .

* * *

قال نصر : وحدّثنى عمرو بن سعيد ، عن الشعبىّ، قال : نادى عمّار عبدَالله بن عمرو ابن العاص ، فقال له : بعتَ دينك بالدنيا من عدوّ الله ، وعدوّ الإسلام معاوية ، وطلبت هوَى أبيكَ الفاسق ، فقال : لا ، ولكنّى أطلبُ بدم عثمان الشهيد المظلوم، قال : كلّا ، أشهد على علمى فيك أنّك أصبحتَ لا تطلبُ بشىء من فعلك وجهَ الله، وأنك إن لم تُقتل

---

(١) فى صفين بعدها : ثم حمل عمار وهو يقول :

صَدَقَ اللهُ وَهوَ لِلصِّدْقِ أهلٌ ... وتعالى رَبِّى وكانَ جليلا
رَبِّ عَجِّلْ شهادَةً لى بقتلٍ ... فى الذى قد أحبّ قتلًا جميلا
مقبلًا غير مدبرٍ إنّ لِلقَتْلِ عَلَى كلِّ ميتَةٍ تفضيلا
إنّهمْ عِندَ رَبهمْ فى جنانٍ ... يَشْرَبُون الرّحيق والسَّلْسَبيلا
مِنْ شرابِ الأبرار خالطه المسكُ وكأساً مزاجُها زنجبيلا

(٢) صفين ٣٦١ — ٣٦٣

اليوم فستموت غدا ، فانظر إذا أعطى الله العباد على نيّاتهم ، ما نيّتك !

***

وروى ابن ديزيل فى كتاب صِفّين، عن صيف الضّبىّ ، قال: سمعت الصّعب بن حكيم ابن شريك بن نملة المحاربىّ يروى عن أبيه عن جدّه شريك، قال : كان النّاس من أهلِ العراق وأهل الشام يقتتلون أيام صِفّين، ويتزايلون ، فلا يستطيع الرجلُ أن يرجعَ إلى مكانه حتى يُسْفِر الغبار عنه ، فاقتتلوا يوماً ، وتزايلوا وأسْفَر الغبار ، فإذا علىٌّ تحت رايتِنا — يعنى بنى محارب — فقال : هل من ماء ؟ فأتيتُه بإداوة فخنثتُها له ليشرب، فقال : لا إنّا نُهينا أن نشربَ من أفواه الأسقية . ثم علّق سيفه وإنه لمخضّب بالدم من ظُبته إلى قائمه ، فصببت له على يديه فغسلهما حتى أنقاهما ، ثم شرب بيديه حتى إذا رَوِى رفع رأسه ، ثم قال : أين مضر ؟ فقلت : أنت فيهم يا أمير المؤمنين ، فقال : مَنْ أنتم بارك الله فيكم؟ فقلنا: نحن بنو محارب ، فعرفَ موقفَه ، ثم رجع إلى موضعه .

قلت : خنثتُ الإداوة، إذا ثنيتَ فاها إلى خارج ، وإنما نهى رسول الله صلى الله عليه وآله عن اختِناث الأسقية، لأنّ رجلا اختنثَ سِقاء فشرِب ، فدخل إلى جوفه حيّة كانت فى السقاء .

قال ابن ديزيل : وروى إسماعيل بن أبى أويس ، قال : حدّثنى عبدالملك بن قُدامة ابن إبراهيم بن حاطب الجمحىّ، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه ، عن جدّه عبدالله بن عمرو ابن العاص ، قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف بك يا عبد الله إذا بقيتَ فى حُثالة من الناس، قد مَرِجت عهودهم ومواثيقهم ، وكانوا هكذا ؟ وخالف بين أصابعه — فقلت : تأمرنى بأمرك يارسول الله ، قال : تأخذُ مما تعرف، وتدع ماتنكر، وتعمل بخاصّة نفسك ، وتدع الناس وهوامّ أمرهم .

قال: فلما كان يوم صفين، قال له أبوه عمرو بن العاص: يا عبدالله ، اخرُج فقاتل، فقال:

ياأبتاه ، أتأمرنى أنْ أخرج فأقاتل ، وقد سمعت ما سمعت يوم عهد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعهد ! فقال : أنشدُكَ الله ياعبد الله ، ألم يكن آخر ما عهد إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أخذ بيدك ، فوضعها فى يدى ، فقال : أطع أباك ! فقال : اللهمّ بلى ؛ قال : فإنى أعزِم عليك أن تخرُج فتقاتل ؛ فخرج عبد الله بن عمرو فقاتل يومئذ متقلّدًا سيفين . قال : وإن من شعر عبد الله بن عمرو بعد ذلك يذكر عليا بصفين :

فلوشهدتْ جُملٌ مقامِى ومشهدِى ... بصفّين يوماً شابَ منها الذوائبُ
عَشِيَّةَ جا أهلُ العراق كأنهُمْ ... سحابُ ربيعٍ رفّعته الجنائبُ
إذاقلت قدولّت سِرَاعاً بدتْ لنا ... كتائبُ منهم وارجحنّتْ كتائبُ
وجئناهمُ فرادَى كأنّ صفوفنا ... من البحر مدٌّ موجه متراكب[1]
فدارتْ رَحَانا واستدارَتْ رحاهُمُ ... سَرَاة النهار ماتولّى المناكبُ
فقالوا لنا : إنّا نرى أن تُبايعوا ... فقلنا بلى إنا نرى أن تضاربوا

***

وروى ابن ديزيل ، عن يحيى بن سليمان الجعفىّ ، قال : حدثنا مسهر بن عبد الملك ابن سلع الهمدانىّ ، قال : حدثنى أبى عن عبد خير الهمدانىّ ، قال : كنت أنا وعبدُ خير فى سفَر ، قلت : ياأبا عمارة ، حدّثنى عن بعض ما كنتم فيه بصِفّين ، فقال لى : يابن أخى ، وماسؤالك؟ فقلت : أحببتُ أن أسمعَ منك شيئاً ، فقال : يابن أخى ؛ إنا كنا لنصلّى الفجر ، فنصفّ ويصفّ أهل الشام ، ونُشرع الرماح إليهم ويشرعون بها نحونا ، أما لو دخلتَ تحتها لأظلّتك ؛ والله يابن أخى ، إنا كنا لنقف ويقفون فى الحرب لانفتر ولا يفترون ، حتى نصلّىَ

---

(١) كذا ورد هذا البيت وما بعده فى الأصول .

العشاء الآخرة؛ مايعرف الرجلُ منا طولَ ذلك اليوم مَن عن يمينه ولا مَن عن يساره، من شدّة الظلمة والنقْع إلا بقَرْع الحديد بعضه على بعض، فيبرزُ منه شُعاع كشعاع الشمس، فيعرف الرجلُ مَنْ عن يمينه ومَنْ عن يساره؛ حتى إذا صلينا العشاء الآخرة جرَرنا قتلانا إلينا فتوسّدْناهُمْ حتى نصبح، وجرّوا قتلاهم فتوسّدوهم حتى يُصبحوا. قال: قلت له ياأبا عمارة، هذا والله الصّبر.

***

وروى ابن ديزيل، قال: كان عمرو بن العاص إذا مرّ عليه رجلٌ من أصحاب علىّ فسأل عنه، فأخبر به، فقال: يرى علىّ ومعاوية أنهما بريئان من دم هذا.

قال ابن ديزيل: وروى ابنُ وهب، عن مالك بن أنس، قال: جلس عمرو ابن العاص بصِفِّين فى رواق ــ وكان أهلُ العراق يدفنون قتلاهم، وأهل الشام يحملون قتلاهم فى العَباء والأكسية يحملونهم فيها إلى مدافنهم ــ فكلّما مُرّ عليه برجل، قال: مَنْ هذا؟ فيقال: فلان، فقال عمرو: كم مِنْ رجل أحسنَ فى الله، عظيم الحال لم ينجُ من قتله فلان وفلان! قال: يعنى عليا ومعاوية.

قلت: ليت شعرى! لِمَ برّأ نفسه، وكان رأساً فى الفتنة! بل لولاه لم تكن؛ ولكن الله تعالى أنطقَه بهذا الكلام وأشباهه؛ ليظهر بذلك شكّه، وأنه لم يكن على بصيرة من أمره.

***

وروى نصر بن مزاحم، قال: حدثنى يحيى بن يعلى، قال: حدثنى صباح المُزنىّ، عن الحارث بن حصن، عن زيد بن أبى رجاء، عن أسماء بن حكيم الفزارىّ، قال: كنا بصِفّين مع علىّ، تحت راية عمّار بن ياسر، ارتفاع الضحى، وقد استظلَلْنا برداء أحمر؛ إذ أقبلَ رجل يستقرِى الصفّ حتى انتهى إلينا، فقال: أيكم عمار بن ياسر؟ فقال عمار: أنا عمّار، قال: أبو اليقظان؟ قال: نعم، قال: إنّ لى إليك حاجةً أفأنطقُ بها

سرا أو علانية ؟ قال : اخترْ لنفسك ، أيّهما شئت ، قال : لا بل علانية ، قال : فانطق ، قال : إنّى خرجتُ من أهلى مستبصراً فى الحقّ الذى نحن عليه ؛ لاأشكُّ فى ضلالة هؤلاء القوم ، وأنّهم على الباطل ، فلم أزلْ على ذلك مستبصرا ، حتى ليلتى هذه ، فإنى رأيتُ فى منامى منادياً تقدّم ، فأذّن وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونادى[1] بالصّلاة ، ونادى مناديهم مثل ذلك ، ثم أقيمت الصلاة ؛ فصلّينا صلاةً واحدةً ، وتلونا كتاباً واحدا ، ودعونا دعوةً واحدة ، فأدركنى الشكّ فى ليلتى هذه ، فبتّ بليلة لايعلمها إلا الله تعالى ، حتى أصبحتُ ، فأتيتُ أميرَ المؤمنين ، فذكرت ذلك له فقال : هل لقيت عمار بن ياسر ؟ قلت : لا ، فالقه ، فانظر ماذا يقول لك عمار فاتّبعه ، فجئتك لذلك ؛ فقال عمار : تعرف صاحبَ الراية السوداء المقابلة[2] لى ! فإنها راية عمرو ابن العاص ، قاتلتُها مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم ثلاث مرات ، وهذه الرابعة فما هِىَ بخيرهن ، ولا أبرّهن ؛ بل هى شرّهن وأفجرهُنّ . أشهدتَ بدرا وأحداً ويوم[3] حُنين ، أو شهدها أب لك فيخبرك عنها ؟ قال : لا ، قال : فإن مراكزنا اليوم على مراكز رايات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر ويوم أحد ويوم حنين ، وإنّ مراكز رايات هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب ، فهل ترى هذا العسكر ومَنْ فيه! والله لوددت أن جميعَ مَنْ فيه ممن أقبل مع معاوية يريد قتالنا ، مفارقا للذى نحن عليه كانوا خَلْقاً واحدا ، فقطّعته وذبحته . والله لدماؤهم جميعاً أحلُّ مِنْ دم عصفور ، أفترى دم عصفور حراما ؟ قال : لا بل حلال ؛ قال : فإنهم حلال كذلك ، أترانى بيّنت لك ؟ قال : قد بيّنتَ لى ، قال : فاختر أىّ ذلك أحببت .

---

(١) صفين : « فنادى » .

(٢) صفين : « المقابلتى » .

(٣) صفين : « وخيلنا » .

فانصرف الرجلُ، فدعاه عمّار ثم قال : أما إنهم سيضربونكم بأسيافهم [١] حتى يرتابَ المبطلون منكم ، فيقولوا : لو لم يكونوا على حقّ ما أظهروا علينا ؛ والله ماهم من الحقّ على مايقذى عين ذباب ؛ والله لو ضربونا بأسيافهم حتى يبلغونا سَعَفات هَجر [٢] لعلمنا أنا على حقّ ، وأنهم على باطل [٣] .

***

قال نصر : وحدّثنا يحيى بن يعلَى، عن الأصبغ بن نباتة ، قال : جاء رجلٌ إلى علىّ، فقال : ياأمير المؤمنين ، هؤلاء القوم الذين نقاتلهم ؛ الدعوة واحدة ، والرسول واحد ، والصلاة واحدة ، والحجّ واحد فماذا نسميهم ؟ قال : سَمّهم بما سماهم الله فى كتابه ، قال : ما كلّ مافى الكتاب أعلمه ، قال : أما سمعت الله تعالى يقول : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ﴾ [٤] ! فلما وقع الاختلاف ، كنّا نحن أولى بالله وبالكتاب وبالنبى وبالحقّ ، فنحن الذين آمنوا وهم الذين كفروا ، وشاء الله قتالهم ؛ فقاتلهم بمشيئته وإرادته .

***

هذا آخر الجزء الخامس من شرح نهج البلاغة والحمد لله وحده [٥]

---

(١) صفين : « أما إنهم سيضربوننا بأسيافهم » .

(٢) إنما خص هجر ؛ لتباعده فى المسافة ؛ ولأنها موصوفة بكثرة النخيل . انظر اللسان ١١ : ٥٢

(٣) صفين ٣٦٣ ، ٣٦٤ . وبقية حديث عمار هناك : « وايم الله لايكون سلماً سالماً أبداً ؛ حتى يبوء أحد الفريقين على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين ؛ وحتى يشهدوا على الفريق الآخر بأنهم على الحق ؛ وأن قتلاهم فى الجنة وموتاهم ولاينصرم أيام الدنيا حتى يشهدوا بأن موتاهم وقتلاهم فى الجنة ؛ وأن موتى أعدائهم وقتلاهم فى النار ؛ وكان أحياؤهم على الباطل » .

(٤) سورة البقرة ٢٥٣

(٥) هذه خاتمة الجزء كما فى ا ، وفى ب : « وهذا آخر الجزء الخامس من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد المعتزلى ، ويتلوه الجزء السادس إن شاء الله تعالى وتقدس » . وفى ج : « وهذا آخر الجزء الخامس من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ، ويتلوه الجزء السادس إن شاء الله تعالى » .

فهرس الموضوعات [1]

	صفحة
قد عبروا جسر النهروان	٣
بدء ظهور الغلاة	٥ـ٩
طرق الإخبار بالمغيبات	٩ـ١٣
الكناية والرموز والتعريض وذكر مُثل منها	١٥ـ٥٨
الفرق بين الكناية والتعريض	٥٩ـ٧٣
مقتل الوليد بن طريف الخارجيّ ورثاء أخته له	٧٣ـ٧٤
خروج ابن عمرو الخثعميّ وأمره مع محمد بن يوسف الطائى	٧٤ـ٧٦
ذكر جماعة ممن كان يرى رأى الخوارج	٧٦ـ٧٧
عود إلى أخبار الخوارج وذكر رجالهم وحروبهم [2]	٨٠ـ١٢٩
مرداس بن حدير	٨٢ـ٩٠
عمران بن حطان	٩١ـ٩٧
المستورد السعدىّ	٩٧ـ٩٨
حوثرة الأسدىّ	٩٨ـ١٠٢
أبو الوازع الراسبى	١٠٢ـ١٠٣
عمران بن الحارث الراسبى	١٠٣ـ١٠٦
عبد الله بن يحيى والمختار بن عوف	١٠٦ـ١٢٩

(١) وهى الموضوعات التى وردت أثناء شرح نهج البلاغة .
(٢) انظر ماسلف من أخبارهم فى الجزء الرابع .

	صفحة
خطب أبى حمزة الشارى	١١٤ـ١٢٠
أخبار متفرقة عن معاوية	١٢٩ـ١٣١
اختلاف الناس فى الآجال	١٣٣ـ١٣٩
عظة للحسن البصرى	١٤٧ـ١٤٩
من خطب عمر بن عبد العزيز	١٥٠ـ١٥١
من خطب ابن نباتة	١٥١ـ١٥٢
اختلاف الأقوال فى خلق العالم	١٥٧ـ١٦٤
من أخبار يوم صفين	١٧٥ـ٢٥٨

فهرس الخطب*

٥٨ ـ من كلامه عليه السلام لما عزم على حرب الخوارج وقيل له إن القوم قد عبروا جسر النهروان	٣
٥٩ ـ من كلامه لماقتل الخوارج فقيل له :ياأمير المؤمنين هلك القوم بأجمعهم	٤
٦٠ ـ من كلام له عليه السلام فى الخوارج	٦٠
٦١ ـ من كلام له لمّا خوف من الغيلة	١٣٢
٦٢ ـ من كلام له فى وصف الدنيا	١٤٠
٦٣ ـ من كلام له فى الحض على الزهد والاستعداد لما بعد الموت	١٥٣
٦٤ ـ من خطبة له فى تنزيه الله سبحانه وتقديسه	١٤٥
٦٥ ـ من كلام له كان يقوله لأصحابه فى بعض أيام صفين	١٦٨

(*) وهى الخطب التى وردت فى كتاب نهج البلاغة .

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء السادس

دار إحياء الكتب العربية

عيسى البابي الحلبي وشركاه

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي
قم - ایران ۱۴۰۴ هـ ق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الطاهرين .

(٦٦)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام فى معنى الأنصار :

قالوا : لما انتهت إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنباء السقيفة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال عليه السلام :ماقالت الأنصار ؟ قالوا : قالت : منّا أمير ومنكم أمير ؛ قال عليه السلام :

فَهلاَّ أحْتَجَجْتُمْ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ رَسُولَ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَّى بِأَنْ يُحْسَنَ إلى مُحْسِنِهِمْ ، وَيُتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ !

قَالُوا : وَما فى هذَا مِنَ ٱلْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ؟

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام : لَوْ كَانَت الإمَامَةُ فِيهِمْ لَمْ تَكُنِ الْوَصِيَّةُ بِهِمْ . ثُمّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَام:

فَماذَا[1] قَالَتْ قُرَيْشٌ ؟

قَالُوا : أحْتَجَّتْ بِأَنَّهاشَجَرَةُ الرَّسُولِ صَلّىٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ .

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

---

(١) مخطوطة النهج : « وماذا » .

أُحْتَجُّوا بِالشجرَةِ ، وَأَضَاعُوا الثَّمَرَةَ !

***

الشرح :

قد ذكرنا فيما تقدّم طرفاً من أخبار السقيفة ؛ فأمّا هذا الخبر الوارد فى الوصية بالأنصار ؛ فهو خبر صحيح، أخرجه الشيخان محمد بن إسماعيل البخارىّ ومسلم بن الحجاج القُشَيْرِىّ فى مسنديهما ، عن أنس بن مالك ، قال : مرّ أبو بكر والعباس رضى الله تعالى عنهما بمجلسٍ من الأنصار ، فى مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يبكون ، فقالا : مايبكيكم ؟ قالوا : ذكرنا محاسنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم . فدخلا على النبىّ صلى الله عليه وسلم وأخبراه بذلك ؛ فخرج صلى الله عليه وسلم وقد عَصَب على رأسه حاشية بُرْدَة[1] ، فصعد المِنبر ـ ولم يصعده بعد ذلك اليوم ـ فحمِدَ الله وأثنى عليه ، ثم قال: « أوصيكم بالأنصار ، فإنّهم كَرِشِى وَعَيْبَتِى ، وقد قضوا الذى عليهم ؛ وبقىَ الذى لهم ، فاقبلوا من محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم »[2] .

فأما كيفية الاحتجاج على الأنصار ، فقد ذكرها علىّ عليه السلام ؛ وهى أنه لو كان ـ صلواتُ الله وسلامه عليه ـ ممن يجعل الإمامة فيهم ؛ لأوصى إليهم ، ولم يوصِ بهم .

وإلى هذا نَظر عمرو بن سعيد بن العاص ، وهو المسمى بالأشْدَق ؛ فإنّ أباه لما مات خَلّفه غلاماً ، فدخل إلى معاوية فقال : إلى مَنْ أوْصى بك أبوك ؟ فقال : إنّ أبى أوصَى إلىّ ولم يوصِ بى ؛ فاستحسن معاوية منه ذلك ؛ فقال : إنّ هذا الغلام لأشدَق ، فسمّى الأشدق[3] .

فأما قول أمير المؤمنين: « احتجّوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة » ؛ فكلام قد تكرّر منه

(١) البخارى : « برد » .
(٢) صحيح البخارى ٢ : ٣١٢ ، صحيح مسلم ١٩٤٩ (٣) الأشدق : البليغ .

عليه السلام أمثاله ؛ نحو قوله: « إذا احتجّ عليهم المهاجرون بالقُرْب من رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت الحجة لنا على المهاجرين بذلك قائمة ؛ فإن فَلَجَتْ حُجّتهم كانت لَنَا دونهم ؛ وإلّا فالأنصار على دعوتهم » .

ونحو هذا المعنى قول العباس لأبي بكر: « وأما قولك: نحن شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنكم جيرانها ؛ ونحن أغصانها » :

***

[يوم السقيفة]

ونحن نذكر خبر السّقِيفة[1]؛ روَى أبو بكر أحمد بن عبدالعزيز الجوهريّ في كتاب '' السقيفة '' قال :

أخبرني أحمد بن إسحاق ، قال : حدّثنا أحمد بن سيّار ، قال : حدّثنا سعيد بن كَثِير ابن عُفَير الأنصاريّ أن النبيّ صلى الله عليه وآله لما قُبِض، اجتمعتْ الأنصار في سَقِيفة بني ساعدة ، فقالوا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبض ، فقال سعد بن عبادة لابنه قيس ـ أو لبعض بنيه: إنّي لا أستطيعُ أن أُسْمِـعَ الناسَ كلامي لمرضِي؛ ولكن تلقّ منّي قولِي فأسْمِعهم . فكان سعد يتكلّم ،ويستمع ابنه ويرفع به صوته ليُسمِع قومَه ؛ فكان من قوله بعد حمد الله والثناء عليه أنْ قال :

إنّ لكم سابقةً إلى الدين ، وفضيلةً في الإسلام ليستْ لقبيلة من العرب . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبثَ في قومه بضعَ عشرةَ سنة ، يدعوهم إلى عبادة الرحمن ، وخلع الأوثان ؛ فما آمن به من قومه إلا قليل ، والله ما كانوا يقدرون أن يمنعوا رسول الله ،

---

(١) انظر أخبار السقيفة أيضاً في الجزء الأول ٢١ ـ ٦١ .

ولا يُعزّوا دينَه ، ولا يدفعوا عنه عِداه ؛ حتى أراد الله بكم خيرَ الفضيلة ، وساق إليكم الكرامة ، وخصّكم بدينه ، ورزقكم الإيمان به وبرسوله ، والإعزازَ لدينه ، والجهادَ لأعدائه ؛ فكنتم أشدَّ الناس على مَنْ تخلّف عنه منكم ، وأثقله على عَدُوِّه من غيركم ؛ حتى استقاموا لأمر الله طوعاً وكرها ، وأعطَى البعيدُ المقَادَةَ صاغراً داخراً[1] ، حتى أنجز الله لنبيّكم الوعد ، ودانت لأسيافكم العربُ. ثم توفّاه الله تعالى وهو عنكم راضٍ ؛ وبكم قريرُ عَين ؛ فشُدّوا يديكم بهذا الأمر ، فإنّكم أحقُّ الناس وأولاهم به .

فأجابوا جميعا : أنْ وُفِّقْت فى الرأى ، وأصبت فى القول ، ولن نعدُوَ ماأمرت . نولّيك هذا الأمر ، فأنت لنا مقنَع ، ولصالح المؤمنين رضاً .

ثم إنهم ترادُّوا الكلام بينهم ، فقالوا : إن أبتْ مُهاجِرة قريش فقالوا : نحن المهاجرون ، وأصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم الأوّلون ؛ ونحن عشيرته وأولياؤه ، فعلامَ تُنازعوننا هذا الأمر من بعده ! فقالت طائفة منهم : إذاً نقول : مِنّا أمير ومنكم أمير ، لن نَرْضى بدون هذا منهم أبدا ، لنا فى الإيواء والنصرة مالهم فى الهجرة ، ولنا فى كتاب الله مالهم ، فليسوا يعدُّون شيئاً إلا ونعدّ مثله ، وليس مِنْ رأينا الاستئثارُ عليهم ، فمنّا أمير ومنهم أمير .

فقال سعد بن عبادة : هذا أول الوَهَن !

وأتى الخبرُ عمرَ ، فأتى منزلَ رسول الله صلى الله عليه وآله ، فوجَد أبا بكرٍ فى الدار وعليّاً فى جِهاز رسول الله صلى الله عليه وآله ـ وكان الذى أتاه بالخبر مَعْن بن عدىّ ـ فأخذ بيد عمر ، وقال : قم ، فقال عمر : إنّى عنك مشغول ، فقال : إنه لابدّ من قيام ، فقام معه ، فقال له : إنّ هذا الحىّ من الأنصار قد اجتمعُوا فى سَقِيفة بنى ساعدة ، معهم سعد بن عُبادة ، يدورون حَوْله ، ويقولون : أنت المرجّى ، ونجلك المرجّى . وثَمّ أناسٌ من

(١) كذا فى ج ، والداخر : « الذليل » ، وفى ب : « داحضا » .

أشرافهم ، وقد خُشِيت الفتنة ، فانظر ياعمر ماذا ترى ! واذكر لإخوتك من المهاجرين ، واختاروا لأنفسكم ، فإنى أنظر إلى باب فتنة قد فتِح الساعة إلّا أن يُغلقَهُ الله . ففزع عمر أشدّ الفزَع ، حتى أتى أبا بكر ، فأخذ بيده ، فقال : قم ، فقال أبو بكر : إنّى عنك مشغول . فقال عمر : لا بدّ من قيام ؛ وسنرجع إن شاء الله .

فقام أبو بكر مع عمر ، فحدّثه الحديث ، ففزِع أبو بكر أشدّ الفزع ، وخرجا مسرعيْن إلى سقيفة بنى ساعدة ؛ وفيها رجالٌ من أشراف الأنصار ؛ ومعهم سعد بن عبادة وهو مرِيض بين أظهرهم ، فأراد عمر أن يتكلّم ويمهِّدَ لأبى بكر ؛ وقال : خشِيتُ أن يقصر أبو بكر عن بعض الكلام ؛ فلما نبَس[1] عمر ، كفّه أبو بكر وقال : عَلَى رِسْلك ؛ فتلقّ الكلامَ ثم تكلّمْ بعد كلامى بما بدا لك . فتشهد أبو بكر ، ثم قال :

إنّ الله جل ثناؤه بعثَ محمدا بالهدى ودين الحق ، فدعا إلى الإسلام ، فأخذ الله بقلوبنا ونواصينا إلى مادعانا إليه ، وكنّا ـ معاشرَ المسلمين المهاجرين ـ أوّلَ الناس إسلاما ، والنّاس لنا فى ذلك تبَع ؛ ونحن عشيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأوسطُ العرب أنسابًا ، ليس من قبائل العرب إلا ولقريش فيها ولادة ؛ وأنتم أنصار الله ، وأنتم نصرتُم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أنتم وزراء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإخواننا فى كتاب الله وشركاؤنا فى الدين ؛ وفيما كنّا فيه من خير ؛ فأنتم أحبُّ الناس إلينا ، وأكرمُهم علينا ، وأحقّ الناس بالرضا بقضاء الله ، والتسليم لما ساق الله إلى إخوانكم من المهاجرين ، وأحقّ الناس ألّا تحسدوهم ، فأنتم المؤثرون على أنفسهم حين الخصاصة ، وأحقُّ الناس ألّا يكون انتقاض هذا الدين واختلاطه على أيديكم ، وأنا أدعوكم إلى أبى عبيدة وعمر ؛ فكلاهما قد رضِيتُ لهذا الأمر ، وكلاهما أراه له أهلا .

---

(١) نبس : أى تكلم .

فقال عمر وأبو عبيدة : ماينبغى لأحدٍ من الناس أن يكونَ فوقك ، أنت صاحبُ الغار ، ثانى اثنين ، وأمرَكَ رسول الله بالصلاة ، فأنت أحقُّ الناس بهذا الأمر .

فقال الأنصار :

والله ما نحسدكم على خيرٍ ساقه الله إليكم ، ولا أحدَ أحبَّ إلينا ولا أرضى عِندنا منكم ، ولكِنّا نشفِق فيما بعد هذا اليوم ، ونحذر أن يغلبَ على هذا الأمر مَنْ ليس مِنّا ولا منكم ؛ فلو جعلتم اليوم رجُلًا منكم بايعنا ورضينا — على أنّه إذا هلك اخترنا واحداً من الأنصار ؛ فإذا هَلَكَ كان آخر من المهاجرين أبداً مابقيت هذه الأمة — كان ذلك أجدر أن تَعْدِل[1] فى أمّة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيشفِق الأنصارىّ أن يزيغ فيقبض عليه القرشىّ ، ويشفق القرشىّ أن يزيغَ فيقبض عليه الأنصارىّ .

فقام أبو بكر فقال : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم لما بُعث عظم على العرب أن يتركوا دينَ آبائهم ، فخالفوه وشاقّوه ، وخصّ الله المهاجرين الأولين من قومِه بتصديقه والإيمان به والمواساة له ، والصَّبْر معه على شِدّة أذى قومه ، ولم يستوحشوا لكثرة عدوّهم ؛ فهمْ أول مَنْ عَبَد الله فى الأرض ، وهم أولُ مَنْ آمن برسول الله ، وهم أولياؤه وعِترته ، وأحقّ الناس بالأمر بعده ، لاينازعهم فيه إلا ظالم ؛ وليس أحدٌ بعد المهاجرين فضلاً وقدَماً فى الإسلام مثلكم ؛ فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا نمتاز دونَكم بمشورة ، ولا نقضى دونكم الأمور .

فقام الُحباب بن المنذر بن الجموح ، فقال :

يامعشر الأنصار ؛ امْلِكُوا عليكم أيديَكم ؛ إنما الناس فى فيئكم وظلّكم ؛ ولن يجترئ مجترئٌ على خِلافكم ، ولا يصدر الناس إلّا عن أمركم ، أنتم أهل الإيواء والنُّصْرة ، وإليكم كانت الهجرة ، وأنتم أصحاب الدّار والإيمان ؛ والله ماعبِد اللهُ علانيةً إلا عندكم وفى بلادكم ،

---

(١) كذا فى ج ، وفى ب : « العدل » .

ولا جمعت الصلاة إلا فى مساجدكم ، ولا عُرِف الإيمان إلا من أسيافكم ، فاملِكُوا عليكم أمرَكم ، فإن أبى هؤلاء فمنّا أميرٌ ومنهم أمير .

فقال عمر : هيهات ! لا يجتمع سَيْفان فى غِمْد ؛ إنّ العرب لا ترضى أن تؤمِّرَكم ونبيُّها من غيركم ، وليس تمتنع العرب أن تولّىَ أمرَها مَنْ كانت النبوّة فيهم ؛ وأولو الأمر منهم ، لنا بذلك الحجة الظاهرة على مَنْ خالفنا ، والسلطان المبين على مَنْ نازعنا ، مَنْ ذا يخاصِمُنا فى سلطان محمد وميراثه ؛ ونحن أولياؤه وعشيرته ، إلاّ مُدْلٍ بباطل ، أو متجانفٌ لإثم ، أو متورّط فى هَلَكة !

فقامَ الُحباب ، وقال :

يا معشر الأنصار ، لا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه ، فيذهبوا بنصيبكم من الأمر ، فإن أبوْا عليكم ما أعطيتموهم فأجلُوهم عن بلادكم ، وتوَلّوْا هذا الأمر عليهم ، فأنتم أوْلَى الناس بهذا الأمر ، إنه دانَ لهذا الأمر بأسيافكم مَنْ لم يكن يدين له . أنا جُذَيْلُها المحكَّك ، وعُذَيقُها المرجَّب[1] ، إن شئتم لنعيدنَّها جَذعة[2] ، والله لا يردّ أحدٌ علىّ ما أقول إلا حطّمتُ أنفه بالسَّيف .

قال : فلما رأى بشير بن سعد الخزرجىّ ما اجتمعت عليه الأنصار من تأمِير سعد بن عبادة — وكان حاسداً له ، وكان من سادة الخزرج — قام فقال :

أيها الأنصار ، إنّا وإنْ كنّا ذوِى سابقة ، فإنّا لم نُرِدْ بجهادنا وإسلامِنا إلا رضا رَبِّنا وطاعة نبينا ، ولا ينبغى لنا أن نستطِيل بذلك على الناس ، ولا نبتغِى به عِوَضاً

(١) قال الزمخشرى فى الفائق ١ : ١٨١ : « الجذل : عود ينصب للابل الجربى تحتك به فتستشفى . والمحكك : الذى كثر به الاحتكاك حتى صار مملساً . والعذق ؛ بالفتح : النخلة . والمرجب : المدعوم بالرجبة ؛ وهى خشبة ذات شعبتين ؛ وذلك إذا طال وكثر حمله . والمعنى : إنى ذو رأى يشفى بالاستضاءة به كثيراً فى مثل هذه الحادثة ، وأنا فى كثرة التجارب والعلم بموارد الأحوال فيها ، وفى أمثالها ومصادرها ، كالنخلة الكثيرة الحمل . ثم رمى بالرأى الصائب عنده ، فقال : منا أمير ومنكم أمير » .

(٢) قال فى اللسان : « إن شئتم أعدناها جذعة ، أى أول ما يبتدأ فيها » .

من الدّنيا ، إن محمدا صلى الله عليه وسلم رجلٌ من قريش ؛ وقومه أحقُّ بميراثِ أمره ، وايمُ الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر ؛ فاتّقوا اللهَ ولا تنازعوهم ولا تخالفوهم .

فقام أبو بكر ، وقال : هذا عمر وأبو عُبيدة ، بايعوا أيّهما شئتم ؛ فقالا : والله لا نتولّى هذا الأمر عليك ؛ وأنت أفضلُ المهاجرين ، وثانى اثنين ، وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصلاة ؛ والصّلاةُ أفضلُ الدّين . ابسُط يدَك نبايعْك .

فلما بسَط يدَه ، وذهبا يبايعانه ، سبقهما بشير بن سعد ، فبايَعه ، فناداه الحُباب ابن المنذر : يا بشير ، عَقّتك عَقَاقِ[1] ؛ والله ما اضطرك إلى هـذا الأمر إلّا الحسدُ لابنِ عَمّك .

ولمـا رأت الأوس أنّ رئيساً من رؤساء الخزرج قد بايع ، قام أُسَيد بن حُضَير — وهو رئيس الأوس — فبايَع حسدا لسعد أيضا ، ومنافَسةً له أن يلىَ الأمرَ ، فبايعت الأوس كلّها لمّـا بايع أُسَيد ، وحُمِل سعد بن عبادة وهو مريض ، فأُدخِل إلى منزله ، فامتنع من البَيعة فى ذلك اليوم وفيما بعده ، وأراد عمر أن يُكرِهه عليها ، فأشير عليه ألّا يفعل ، وأنه لا يبايع حتى يُقتل ، وأنه لا يُقتَل حتى يقتَـل أهلُه ، ولا يقتَل أهلُه حتى يقتَلَ الخزرج ؛ وإن حوربت الخزرج كانت الأوس معها .

وفسد الأمر فتركوه ، فـكانَ لا يصلّى بصلاتِهم ، ولا يجمّع بجماعتهم ، ولا يقضِى بقضائهم ؛ ولو وجد أعوانا لضارَبهم ، فلم يزلْ كذلك حتى مات أبو بكر ، ثم لقِىَ عمرَ فى خلافته ؛ وهو على فرس ، وعمر على بعير ، فقال له عمر : هيهات ياسعد ! فقال سعد : هيهات يا عمر ! فقال : أنت صاحب مَنْ أنت صاحبه ؟ قال : نعم أنا ذاك ؛ ثم قال لعمر : والله ما جاوَرنى أحدٌ هو أبغضُ إلىّ جواراً منك ، قال عمر : فإنه مَنْ كَرِه جوار رجل انتقل عنه ؛ فقال سعد : إنى لأرجو أن أخلّيها لك عاجلا إلى جوار مَنْ هو أحبُّ إلىّ

(١) ج : « ياعقاق » .

جواراً منك ومن أصحابك ؛ فلم يلبث سعدٌ بعد ذلك إلا قليلا حتى خرج إلى الشام، فمات بحُوران ولم يبايع لأحدٍ ؛ لا لأبى بكر ولا لعمر ولا لغيرهما .

قال : وكثر الناسُ على أبى بكر ، فبايعه معظمُ المسلمين فى ذلك اليوم ؛ واجتمعت بنو هاشم إلى بيت علىّ بن أبى طالب ، ومعهم الزبير ، وكان يعدّ نفسه رجلا من بنى هاشم ؛ كان علىّ يقول : مازال الزُّبير مِنّا أهلَ البيت ؛ حتى نشأ بنُوه ، فصرفُوه عنّا .

واجتمعتْ بنو أميّة إلى عثمان بن عفّان ، واجتمعت بنو زُهْرة إلى سعد وعبد الرحمن ؛ فأقبل عمر إليهم وأبو عبيدة ، فقال : مالى أراكم ملتاثِين ؟ قوموا فبايعوا أبا بكر ؛ فقد بايع له الناس ، وبايعه الأنصار . فقام عثمان ومن معه ، وقام سعد وعبد الرحمن ومَنْ معهما، فبايعوا أبا بكر .

وذهب عمر ومعه عِصابة إلى بيت فاطمة ، منهم أسيد بن حُضير وسلمةَ بن أسلم ، فقال لهم : انطلقوا فبايِعوا، فأبوْا عليه ؛ وخرج إليهم الزُّبَير بسيفِه ، فقال عمر : عليكم الكلْب ؛ فوثب عليه سلمةَ بن أسلم ، فأخذَ السيفَ من يدِه فضرب به الجِدار ، ثم انطلقوا به وبعليّ ومعها بنو هاشم ، وعلىّ يقول : أنا عبدُ الله وأخو رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ حتى انتهوْا به إلى أبى بكر ، فقيل له : بايعْ ، فقال : أنا أحقُّ بهذا الأمر منكم ، لا أبايعكم وأنتم أوْلى بالبيعةِ لى، أخذتم هذا الأمر من الأنصار ، واحْتَجَجْتُمْ عليهم بالقرابة من رسول الله ، فأعطوكم المقادَة ، وسلّموا إليكم الإمارة ، وأنا أحتجُّ عليكم بمثل ما احتججتُم به على الأنصار . فأنصفونا إن كنتم تخافُون الله من أنفسِكم ، واعرِفوا لنَا من الأمر مثل ماعرفت الأنصار لكم ، وإلّا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون .

فقال عمر : إنّك لستَ متروكا حتى تبايع . فقال له علىّ : احلب ياعمر حلباً لك شطرُه ! اشدُدْ[1] له اليوم أمرَه ليردّ عليك غداً ! ألا والله لا أقبل قولَك ولا أبايعه . فقال له أبو بكر :

(١) ب : « شدّ » .

فإن لم تبايعنى لم أكرِهك ، فقال له أبو عبيدة: ياأبا الحسن ، إنك حديثُ السنّ ، وهؤلاء مَشْيَخة قريش قومك ، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور ، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك ، وأشدّ احتمالًا له ؛ واضطلاعاً به ، فسلِّم له هذا الأمر وارْضَ به ، فإنك إن تعش وَيَطُلْ عمرك فأنت لهذا الأمر خليق وبه حقيق ؛ فى فضلِك وقرابتِك ، وسابقتِك وجهادِك .

فقال علىّ : يامعشرَ المهاجرين ، اللهَ اللهَ ! لاتُخرِجوا سلطانَ محمد عن داره وبيته إلى بيوتكم ودوركم ، ولا تدفعوا أهلَه عن مقامه فى الناس وحقّه ، فوالله يامعشرَ المهاجرين ، لَنَحْنُ - أهلَ البيت - أحقُّ بهذا الأمر منكم. أما كان منا القارئُ لكتابِ الله ، الفقيه فى دين الله ، العالم بالسنّة ، المضطلع بأمر الرعية ! والله إنه لفينا ، فلاتتبعوا الهوى ، فتزدادوا من الحقّ بعدا .

فقال بشير بن سعد : لو كان هذا الكلامُ سمعتْهُ منك الأنصار ياعلىّ قبل بيعتِهم لأبى بكر ، مااختلف عليك اثنان ، ولكنهم قد بايعوا .

وانصرف علىّ إلى منزله ، ولم يبايع ، ولزم بيتَه حتى ماتت فاطمة فبايَع .

* * *

قلت : هذا الحديثُ يدلُّ على بُطلان مايُدَّعَى من النصّ على أمير المؤمنين وغيره ، لأنه لوكان هناك نصٌّ صريح لاحتجّ به ولم يجرِ للنصّ ذكر ، وإنما كان الاحتجاج منه ومن أبى بكر ومن الأنصار بالسوابق والفضائل والقرب ، فلوكان هناك نصٌّ على أمير المؤمنين أو على أبى بكر ، لاحتجّ به أبو بكر أيضاً على الأنصار ، ولاحتجّ به أميرُ المؤمنين على أبى بكر ، فإنّ هذا الخبر وغيره من الأخبار المستفيضة ، يدلّ على أنه قد كان كاشفهم وهتك القِناع بينه وبينهم ، ألا تراه كيف نسبهم إلى التعدّى عليه وظلمِه ، وتمنّع من طاعتهم ،

وأسمعهم من الكلام أشدّه وأغلظه ! فلو كان هناك نصٌّ لذكره، أو ذكره بعض مَنْ كان من شيعته وحِزْبه ؛ لأنه لا عِطْر بعد عَرُوس .

وهذا أيضاً يدلّ على أنّ الخبرَ المرويّ فى أبى بكر فى صحيحِى البخارى ومسلم غيرُ صحيح ؛ وهو ماروى من قوله عليه السلام لعائشة فى مرضه : « ادعِى لى أباك ، حتى أكتب لأبى بكر كتاباً ؛ فإنى أخافُ أن يقول قائل ، أو يتمنى متمَنٍّ ، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر » .

وهذا هو نص مذهب المعتزلة .

***

وقال أحمد بن عبد العزيز الجوهرىّ أيضاً : حدّثنا أحمد وقال : حدثنا ابن عُفير ، قال: حدّثنا أبو عوف عبد الله بن عبد الرحمن ، عن أبى جعفر محمد بن علىّ رضى الله عنهما ، أنّ عليّا حَمَل فاطمة على حمار ، وسار بها ليلاً إلى بيوت الأنصار ؛ يسألهم النصرة ، وتسألهم فاطمة الانتصار له ، فكانوا يقولون : يابنتَ رسول الله ، قدمضت بيعتُنا لهذا الرجل؛ لو كان ابنُ عمّك سبق إلينا أبا بكر ما عَدَلْنا به ؛ فقال علىّ : أكنت أتركُ رسولَ الله ميّتاً فى بيته لا أجهّزه ، وأخرجُ إلى الناس أنازعهم فى سلطانه !

وقالت فاطمة : ماصنع أبو حسن إلا ما كان ينبغى له ، وصنعوا ماالله حسْبُهم عليه .

وقال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز : وحدثنا أحمد ، قال : حدثنى سعيد بن كَثير ، قال : حدثنى ابن لَهِيعة ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمامات وأبو ذَرّ غائب ، وقدم وقد وُلِّىَ أبو بكر ، فقال : أصبتم قِناعه ، وتركتم قرابه ؛ لوجعلتم هذا الأمر فى أهلِ بيت نبيّكم لما اختلف عليكم اثنان .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبّة ، قال : حدثنا أبو قبيصة محمد بن حرب ، قال : لما توفّيَ النبيّ صلى الله عليه وآله ، وجرى فى السقيفة ما جرى تمثل علىّ :

وأصبح أقوام يقولونَ ما اشتهوْا ... ويطغون لمّا غالَ زيداً غوائلُهْ

[قصيدة أبى القاسم المغربىّ وتعصبه للأنصار على قريش]

وحدثنى أبو جعفر يحيى بن محمد بن زيد العلَوِىّ نقيب البصرة ؛ قال : لما قدم أبو القاسم علىّ بن الحسين المغربىّ من مصر إلى بغـداد ، استكتبه شرفُ الدولة أبو علىّ بن بويه ، وهو يومئذ سلطان الحضرة ، وأمير الأمراء بها ، والقادر خليفة ، ففسدت الحالُ بينه وبين القادر ؛ واتفق لأبى القاسم المغربى أعداء سوء أوحشوا القادر منه ، وأوهموه أنّه مع شرف الدولة فى القبض عليه وخلعه من الخلافة ، فأطلق لسانَه فى ذكره بالقبيح . وأوْصلَ القول فيه ، والشكوى منه ، ونسبه إلَى الرفض وسبّ السلف ، وإلى كفران النعمة ، وأنه هرب من يد الحاكم صاحب مصر بعد إحسانه إليه .

قال النقيب أبو جعفر رحمه الله تعالى : فأما الرفض فنعم ؛ وأما إحسان الحاكم إليه فلا كان الحاكم ! قتَـل أباه وعمّه وأخامن إخوته ، وأفلت منه أبو القاسم بخديمة الدين ، ولو ظفر به لألحقه بهم .

قال أبو جعفر : وكان أبو القاسم المغربىّ ، ينسب فى الأزد ، ويتعصّب لقَحْطان على عدنان ، وللأنصار على قريش ، وكان غاليا فى ذلك مع تشيّمه ، وكان أديباً فاضلا شاعراً مترسّلا ، وكثير الفنون عالما ، وانحدر مع شرف الدولة إلى واسط ، فاتّفق أن حصل بيد القادر كتاب بخطّه شبه مجموع ؛ قد جمعه من خَطّه وشعره وكلامه مسود ، أتحفه به بعض مَنْ كان يشنأ أبا القاسم ، ويريد كيده ، فوجد القادر فى ذلك المجموع قصيدة من شعره ، فيها تعصّب شديد للأنصار على المهاجرين ، حتى خرج إلى نوع من الإلحاد والزندقة ؛ لإفراط غُلُوّه

وفيها تصريح بالرّفض مع ذلك ، فوجدها القادر تمْرَة[1] الغراب ، وأبرزها إلى ديوان الخلافة ، فقرئ المجموع والقصيدة بمحضرٍ من أعيان الناس من الأشراف والقضاة والمعدّلين والفقهاء ، ويشهد أكثرهم أنه خَطّه ، وأنهم يعرفونه كما يعرفون وجهه ، وأمر بمكاتبة شرف الدولة بذلك ، فإلى أن وصل الكتاب إلى شرف الدولة بما جَرى ، اتصل الخبر بأبى القاسم قبل وصول الكتاب إلى شرف الدولة ، فهرب ليلًا ، ومعه بعضُ غلمانه ، وجارية كان يهواها ويتحظاها ، ومضى إلى البَطِيحة ، ثم منها إلى الموصل ، ثم إلى الشام ، ومات فى طريقه ، فأوصى أن تُحمَلَ جثته إلى مشهد علىّ ، فحملت فى تابوت ، ومعها خفراء العرب حتى دفن [٢] بالمشهد بالقرب منه عليه السلام [٢] .

وكنت برهةً أسأل النقيبَ أبا جعفر عن القصيدة ، وهو يدافعنى بها ، حتى أملاها علىّ بعد حين ، وقد أوردت هاهنا بعضها ؛ لأنى لم أستجزْ ولم أستحلّ إيرادها على وجهها ، فمن جملتها — وهو يذكر فى أولها رسول الله صلى الله عليه وآله ، ويقول : إنه لولا الأنصار لم تستقرّ لدعوته دعامة ، ولا أرست له قاعدة ، فى أبيات فاحشة كرهنا ذكرها :

نحنُ الّذِين بنا استجارَ فلم يَضِــعْ ... فينا ، وأصبحَ فى أعزّ جِوارِ
بسيوفنـا أمست سخينةُ برّكا ... فى بَذْرِها كنحائرِ الجزّارِ [٣]
ونحنُ فى أُحُـدٍ سَمَحْنا دونه ... بنفوسنا للموت خوفَ العارِ
فنجـا بمهجتِه ، فلولا ذَبُّنا ... عنـه تنشّب فى مخالب ضارِ
وحمِيّة السّعْدين بل بحماية الـ ... ـدّين يوم الجحفلِ الجرّارِ
فى الخندق المشهور إذ ألقى بها ... بيدٍ ، ورام دفاعها بِثمارِ
قالا : معاذ الله إن هضيمةً ... لم نعطِهـا فى سالف الأعصارِ

---

(١) يقال إذا أصاب الرجل عند صاحبه أفضل مايريد من الخير والمنصب : وجد تمرة الغراب ، وذلك لأن الغراب إنما يجتنى من التمر أجوده . ثمار القلوب ٣٦٦

(٢—٢) ج « بالغرى » .

(٣) سخينة : لقب قريش ، وفى ا ، ج : « تركا » .

ماعندنا إلا السيوف ، وأقبلا نحو الحتوف بها بَدَارِ بَدَارِ
ولنا بيوم حنينَ آثارٌ متى تذكرْ فهنّ كرائمُ الآثارِ
لما تصدع جمعُه فغدًا بنا مستصرخًا بعقيرةٍ وجُؤارِ
عطفت عليه كاتُنا ، فتحصّنت منّا جموعُ هوازنٍ بفِرارِ
وفدَته من أبناء قَيلةَ عُصْبَةٌ شَرْوَى النقيرِ وجنّةَ البقّارِ
أفنحنُ أولى بالخلافة بعدَهُ أم عبد تيم حاملُو الأوزارِ !
ماالأمر إلا أمرُنا وبسعدِنا زُفّتْ عَرُوسُ الملك غير نوارِ !
لكنما حسدُ النفوس وشحُّها وتذكّرَ الأذحالِ والأوتارِ
أفضى إلى هَرْجٍ وَمَرْجٍ فانبرَتْ عشواء خابطةً بغير نَهارِ
وتداولتْها أربعٌ لولا أبو حَسَنٍ لقلتُ لؤمت من إسْبَارِ(١)
من عاجزٍ ضَرِعٍ ، ومن ذى غِلْظَةٍ جافٍ ، ومن ذى لوثة خوّارِ(٢)
ثم ارتدى المحرومُ فضلَ رِدَائها فغلت مراجل إِحْنَةٍ ونِفارِ
فتأكّلت تلك الجُذَى ، وتلمّظَتْ تلك الظُّبا ، ورقا أجيج النارِ
تالله لو ألقوْا إليه زمامَها لمشى بهم سُجُحًا بغير عِثارِ(٣)
ولو انّها حلّت بساحةِ مجده بادِى بدًا سكنت بدارِ قَرارِ
هو كالنبى فضيلةً ، لكنَّ ذا من حَظّه كاسٍ ، وهذا عارِ
والفضلُ ليس بنافعٍ أربابَه إلا بمسعدة من الأقدارِ
ثم امتطاها عبدُ شمس فاغتدَتْ هزؤا ، وَبُدِّلَ رِبْحُها بخَسارِ
وتنقّلت فى عصبةٍ أمويّةٍ ليسوا بأطهارٍ ولا أبرارِ

---

(١) الإسبار ، بالكسر : أربعة فى العدد .
(٢) الضرع : الضعيف .
(٣) ج : « تبار » .

مابين مأفونٍ إلى مُتزَندِقٍ ومُداهِنٍ ومضاعفٍ وحِمَارِ

فهذه الأبيات، هى نظيفُ القصيدة، التقطناها وحذفنا الفاحش ،وفى الملتقط المذكور أيضا مالا يَجُوز ، وهو قوله : « نحن الذين بنا استجار » ، وقوله : « ألقى بها بيدِ » ، وقوله : « فنجا بمهجته . . . » البيت . وقوله عن أبى بكر : « عبد تيم » ، وقوله : « لولا علىّ لقلت فى الأربعة إنهم إستار لؤم » ، وذكره الثلاثة رضى الله عنهم بما ذكرهم ونسبهم إليه . وقوله : « إن عليا كالنبى فى الفضيلة » ، وقوله : « إنّ النبوّة حظّ أعطيه وحُرِمه علىّ عليه السلام » .

فأما قوله فى بنى أمية: « مابين مأفون . . . » البيت ، فمأخوذ من قول عَبْد الملك بن مرْوان ، وقد خطب فذكر الخلفاء من بنى أميّة قبله ، فقال : إنّى والله لستُ بالخليفة المستضعَف ،ولا بالخليفة المداهِن، ولا بالخليفة المأفون؛ عَنَى بالمستضعَف عثمان ، وبالمداهن معاويةَ ، وبالمأفون يزيدَ بن معاوية ، فزاد هذا الشاعر فيهم اثنين : وهما المتزندِق ، وهو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، والحِمار وهو مرْوان بن محمد بن مروان .

* * *

[أمر المهاجرين والأنصار بعد بيعة أبى بكر]

وروى الزبير بن بكار فى "الموفقيَّات" قال : لما بايع بشير بن سعد أبا بكر ، وازدحَم الناس على أبى بكر فبايعوه ، مَرّ أبو سفيان بن حرب بالبيت الذى فيه علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، فوقف وأنشَد :

بَنِى هاشمٍ لاتطمِعُوا النَّاس فيكمُ ولا سيَّما تَيم بن مرّة أو عَدِىّ

فما الأمرُ إلا فيكمُ وإليكمُ وليس لها إلّا أبو حسنٍ علىّ

أبا حَسَنٍ فاشدُدْ بها كفَّ حازمٍ   فإنّك بالأمر الذى يُرْتجَى ملىّ
وأىّ امرئٍ يرمى قصيًّا ورأيها   منيعُ الحِمى والناس من غالبٍ قصىّ!

فقال علىّ لأبى سفيان : إنّك تريدُ أمراً لسْنَا من أصحابه ، وقد عهد إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عهدا فأنا عليه ؛ فتركه أبو سفيان وعَدَل إلى العبّاس بن عبد المطلب فى منزله ، فقال : ياأبا الفضل(١) ، أنت أحقّ بميراث ابن أخيك ، امدد يدك لأبايعك ، فلا يختلف عليك الناس بعد بيعتى إياك . فضحِك العباس ، وقال : ياأبا سفيان ، يدفعها علىّ ويطلبُها العباس ! فرجع أبو سفيان خائبا .

قال الزبير : وذكر محمد بن إسحاق أنّ الأوس تزعم أنّ أوّل مَنْ بايع أبا بكر بشير ابن سعد ، وتزعم الخزرج أن أول مَنْ بايع أُسَيد بن حُضير .

قلت : بشير بن سعد خزرجىّ وأسيد بن حضير أوْسِىّ ، وإنما تدافَع الفريقان الرّوايتين تفادياً عن سعد بن عبادة ، وكراهية كلّ حىّ منهما أن يكونَ نِقضُ أمره جاء من جهة صاحبه ؛ فالخزرج هُمْ أهله وقرابته ، لايقرّون أن بشير بن سعد هو أول مَنْ بايع أبا بكر وأبطل أمرَ سعد بن عبادة ، ويُحيلون بذلك على أسيد بن حضير ؛ لأنه من الأوْس أعداء الخزرج . وأمّا الأوس فتكره أيضاً أن يُنسَب أسيد إلى أنه أول مَنْ نَقَضَ أمر سعد بن عبادة ، كى لا يرمُوه بالحسَد للخزرج ؛ لأن سعد بن عُبادة خَزْرجىٌّ ، فيحيلون بانتقاض أمره على قبيلته — وهم الخزرج — ويقولون : إنّ أول مَنْ بايع أبا بكر ونَقَض دعوة سَعد بن عِبادة بشيرُ بن سعد . وكان بشيرٌ أعْوَر .

والذى ثبت عندى أنّ أوّلَ مَنْ بايعه عمر ، ثم بشير بن سعد ، ثم أُسَيد بن حُضَير ، ثم أبو عبيدة بن الجرّاح ، ثم سالم مولى أبى حُذَيفة .

---

(١) كذا فى ب ، ج ، وفى ا : « أنت لها » .

قال الزبير : وقد كان مالأ أبا بكر وعمر على نقض أمر سعد وإفساد حاله رجلان من الأنصار ممّن شهد بدرا ، وهما عُوَيم بن ساعدة ومعن بن عدىّ .

قلت : كان هذان الرجلان ذوَىْ حُبّ لأبى بكر فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله واتفق مع ذلك بغض وشحناء ؛ كانت[1] بينهما وبين سعد بن عبادة ، ولها سبب مذكور فى كِتَاب " القبائل " لأبى عبيدة معمر بن المثنىّ ، فليُطلب من هناك .

وعُوَيم بن ساعدة ، هو القائل لمّا نصب الأنصار سعدا : يامعشرَ الخزرج ؛ إن كان هذا الأمر فيكم دونَ قريش فعرّفونا ذلك وبرهِنُوا حتى نبايعَكم عليه ؛ وإن كان لهم دونَكم ، فسلّموا إليهم ؛ فو الله ما هلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عرّفنا أنّ أبا بكر خليفة حين أمرَه أن يصلّىَ بالناس ؛ فشتَمه الأنصار وأخرجوه ؛ فانطلق مسرعا حتى التحقَ بأبى بكر ، فشحَذَ عزمه على طلب الخلافة .

ذكر هذا بعينه الزبير بن بكار فى " الموفقيات " .

وذكر المدائنىّ والواقدىّ أنّ معن بن عدىّ اتفق هو وعُوَيم بن ساعدة على تحريض أبى بكر وعمر على طلب الأمر وصَرْفه عن الأنصار . قالا : وكان معن بن عدىّ يشخصهما إشخاصا ، ويسوقهما سَوْقًا عنيفا إلى السقيفة ، مبادرةً إلى الأمر قبل فواته .

***

قال الزبير بن بكار : فلمّا بُويع أبو بكر ، أقبلت الجماعة التى بايعته تزفّه زفًّا إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما كان آخرُ النهار ، افترقوا إلى منازلهم ، فاجتمع قومٌ من الأنصار وقوم من المهاجرين ، فتعاتبوا فيما بينهم ، فقال عبد الرحمن بن عوف : يامعشرَ الأنصار ، إنكم وإن كنتمْ أولِى فضلٍ ونصرٍ وسابقة ؛ ولكن ليس فيكم مثل أبى بكر ولا عمر ولا علىّ ولا أبى عبيدة . فقال زيد بن أرقم : إنا لا ننكر فضلَ مَنْ ذَكرتَ

(١) ج : « كانا » .

يا عبد الرحمن ؛ وإنّ مِنّا لسيّد الأنصار سعد بن عبادة ، ومَنْ أمر الله رسوله أن يقرئه السلام ، وأن يأخذ عنه القرآن أُبَىّ بن كعب ، ومَنْ يجىء يوم القيامة إمام العلماء مُعاذ بن جبل ، ومن أمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين خُزيمة ابن ثابت ؛ وإنّا لنعلم أنّ ممّن سمّيتَ من قريش مَنْ لو طلب هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد ؛ علىّ بن أبى طالب .

قال الزّبير : فلما كان من الغد قام أبو بكر فخطب الناس وقال :

أيّها الناس ؛ إنى وليت أمرَكم ولستُ بخيركم ، فإذا أحسنت فأعينونى ؛ وإن أسأت فقوّمونى ؛ إنّ لى شيطاناً يعترينى ؛ فإيّاكم وإيّاى إذا غضبت ؛ لا أوثر فى أشعاركم وأبشاركم . الصّدْق أمانة ، والكذب خيانة ، والضّعيف منكم قوىّ حتى أردّ إليه حقّه ، والقوىّ ضعيف حتى آخذ الحق منه . إنّه لا يدَع قومٌ الجهادَ إلا ضربهم الله بالذلّ ، ولا تشِيع فى قوم الفاحشة إلا عمّهم البلاء ؛ أطِيعونى ما أطعتُ الله ، فإذا عصيت فلا طاعة لى عليكم . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله .

قال ابن أبى عبرة القرشىّ :

شكراً لمن هو بالثناء حقيقُ	ذهب اللَّجاجُ وبُويع الصِّدّيقُ
مِنْ بعد ما زَلّتْ بسعدٍ نعلُه	ورجا رجاءً دونَهُ العيُّوقُ
حفّتْ به الأنصارُ عاصبَ رأسِه	فأتاهمُ الصِّدّيقُ والفاروقُ
وأبو عبيدةَ والذين إليهمُ	نفس المؤمّل للقاء تتوقُ[1]
كنّا نقول : لها علىٌّ والرضا	عُمَرٌ وأولاهمْ بذاك عتيقُ
فدعتْ قريش باسمه فأجابها	إنّ المنوّه باسمه الموثوقُ

(١) ب : « تسوق » .

قل للالى طلبوا الخلافة زَلّةً　　لم يَخْطُ مثل خطاهُمُ مخلوقُ
إنّ الخلافة فى قريش مالكم　　فيها - وربِّ محمد - معْرُوقُ

***

وروى الزبير بن بكار ، قال : روى محمد بن إسحاق أنّ أبا بكر لما بُويع افتخرت تَيم بن مرة - قال : وكان عامة المهاجرين وجلّ الأنصار لا يشكُّون أنّ عليا هو صاحب الأمر بعد رسول الله ، صلى الله عليه وآله - فقال الفضل بن العباس : يامعشرَ قريش ، وخصوصا يابنى تَيْم ، إنّكم إنما أخذتم الخلافة بالنبوّة ، ونحن أهلُها دونَكم ، ولو طلبنا هذا الأمرَ الذى نحنُ أهلهُ لـكانت كراهةُ الناس لنا أعظم من كراهتهم لغيرنا؛ حسداً منهم لنا ، وحِقْداً علينا ، وإنّا لنعلم أنّ عند صاحبنا عَهْداً هو ينتهى إليه .

وقال بعض ولد أبى لهب بن عبد المطلب بن هاشم شعرا :

ما كنتُ أحسِبُ أنّ الأمر منصرفٌ　　عن هاشمٍ ثمّ منهـا عن أبى حَسَنِ
أليس أوّلَ مَنْ صلّى لقبلتكمْ　　وأعلمَ الناس بالقرآن والسّننِ
وأقربَ الناس عهداً بالنبىّ ومَنْ　　جبريلُ عَوْنٌ له فى الغسْلِ والـكَفَنِ
مافيه مافيهمُ لا يمترونَ به　　وليسَ فى القوم مافيه من الحسن
ماذا الذى رَدّهُمْ عنه فنعلمَه　　ها إنّ ذَا غَبْنُنَا من أعظم الغبَنِ !

قال الزُّبير . فبعث إليه علىّ فنهاه وأمرَه ألّا يعود ، وقال : سلامة الدّين أحبّ إلينا من غيره .

قال الزبير : وكان خالدُ بن الوليد شيعةً لأبى بكر ، ومن المنحرفين عن علىّ ، فقام خطيباً ، فقال : أيها الناس ، إنّا رُمينا فى بدء هذا الدين بأمر ثَقُل علينا ـ والله ـ محمله ، وصَعُب علينا مُرتقاه ؛ وكنّا كأنّا فيه على أوتار ؛ ثم والله مالبثنا أن خفّ علينا ثقله، وذلّ لنا صَعْبه ، وعجِبْنا ممن شكّ فيه بعد عَجَبنا ممن آمن به ؛ حتى أمِرنا بما كنا نَنْهَى عنه ، ونُهينا عمّا كنا نأمُر به ؛ ولا والله ماسُبقنا إليه بالعقول ؛ ولكنه التوفيق . ألا وإنّ الوحى لم ينقطع حتى أحكم ؛ ولم يذهب النبيّ صلى الله عليه وسلم فنستبدل بعده نبياً ؛ ولا بعد الوحى وحياً ؛ ونحن اليوم أكثر مِنّا أمسِ ، ونحن أمسِ خيرٌ منّا اليوم ؛ مَن دَخَلَ فى هذا الدين كان ثوابه على حَسَب عمله ، ومَنْ تركه رددناه إليه ، وإنه والله ماصاحب الأمر ـ يعنى أبا بكر ـ بالمسئول عنه ، ولا المختَلَف فيه ، ولا الخفىّ الشخص ، ولا المغموز القَناة .

فعجب الناس من كلامه . ومدحه حَزْن بن أبى وهب المخزومىّ ؛ وهو الذى سمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله « سَهلاً » ، وهو جدّ سعيد بن المسيّب الفقيه ، وقال :

وَقَامَتْ رِجَالٌ مِن قُرَيْشٍ كثيرةٌ ... فلم يَكُ منهم فى الرِّجَالِ كخالدِ
ترقّى فلم يزلَقْ به صدرُ نعله ... وكفّ فلم يعرض لتلك الأوابدِ
فجاء بها غرّاء كالبدرِ ضوءها ... فسمّيتُها فى الحسن أم القلائدِ
أخالد لا تعدم لؤىُّ بن غالبٍ ... قيامك فيها عند قَذْفِ الجلامدِ
كساكَ الوليدُ بن المغيرة مجدَه ... وَعلّمك الأشياخُ ضَرْبَ القَماحِدِ [1]
تقارع فى الإسلام عن صُلْبِ دينه ... وفى الشركِ عن أحْسابِ جَدٍّ ووالدِ

---

(١) القماحد : جمع قمحودة ؛ وهى الهنة الناشزة فوق القفا .

وكنتَ لمخزوم بن يقظة جُنَّةً يعدّك فيها ماجداً وابنَ ماجدِ
إذا ماسماً فى حَرْبِها ألفُ فارسٍ عَدَلْت بألفٍ عند تلك الشدائدِ
ومن يكُ فى الحرب المثيرة واحداً فما أنت فى الحربِ العَوَانِ بواحدِ
إذا ناب أمرٌ فى قريشٍ مخلَّجٌ تشيب له رُؤْسُ العذارى النواهدِ (١)
توَلَّيتَ منه ما يُخافُ وإن تَغِبْ يقولوا جميعاً : حَظّنا غير شاهدِ

قال الزّبير : وحدّثنا محمد بن موسى الأنصاريّ المعروف بابن مَخرمة ، قال : حدّثنى إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عَوْف الزهرىّ ، قال : لما بُويع أبو بكر واستقرّ أمرُهُ ، نَدِم قوم كثير من الأنصار على بيْعته ، ولام بعضُهم بعضاً، وذكروا علىّ ابن أبى طالب ، وهتفوا باسمه ؛ وإنّه فى داره لم يخرجْ إليهم ، وجزع لذلك المهاجرون ، وكثُر فى ذلك الكلام .

وكان أشدّ قريش على الأنصار نفرٌ فيهم ؛ وهم سهيل بن عمرو ؛ أحد بنى عامر ابن لؤىّ ، والحارث بن هشام ، وعِكْرمة بن أبى جهل المخزوميّان ؛ وهؤلاء أشراف قريش الذين حاربوا النبىّ صلى الله عليه وآله ، ثم دخلوا فى الإسلام ، وكلُّهم موتورٌ قد وَتَرَهُ الأنصار . أما سهيل بن عمرو فأسره مالك بن الدخشم يوم بدْر ،وأمّا الحارث ابن هشام ، فضربه عروة بن عمرو ، فجرحه يوم بَدْر ؛ وهو فارٌّ عن أخيه . وأمّا عِكْرِمة ابن أبى جهل ، فقتل أباه ابنا عَفْراء ، وسلبه دِرْعه يوم بدر زيادُ بن لبيد ، وفى أنفسهم ذلك .

فلما اعتزلت الأنصار تجمّع هؤلاء ، فقام سهيل بن عمرو فقال : يامعشرَ قريش ؛ إنّ هؤلاء القوم قد سمّاهم الله الأنصار ، وأثنى عليهم فى القرآن ؛ فلهم بذلك حَظٌّ عظيم ؛ وشأن غالب ؛ وقد دَعَوْا إلى أنفسهم وإلى علىّ بن أبى طالب ؛ وعلىّ

(١) رؤس : جمع رأس ، مثل رءوس .

فى بيته لو شاء لردّهم ؛ فادعوهم إلى صاحبكم وإلى تجديد بيعته ؛ فإنْ أجابوكم وإلا قاتلوهم ؛ فوالله إنى لأرجُو الله أن ينصرَكم عليهم كما نُصِرْتم بهم.

ثم قام الحارث بن هشام، فقال : إن تكن الأنصارُ تبوأتِ الدار والإيمان مِنْ قبل، ونقلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دورهم من دورنا، فآووْا ونصروا، ثم مارَضُوا حتى قاسمونا الأموال[1]، وكفَوْنا العمل؛ فإنّهم قد لَهِجُوا بأمرٍ إن ثبتوا عليه، فإنّهم قد خرجوا مما وُسِموا به؛ وليس بيننا وبينهم معاتبة إلا السّيف؛ وإن نزعوا عنه فقد فعلوا الأوْلَى بهم والمظنون معهم.

ثم قام عِكْرمة بن أبى جهل، فقال : والله لولا قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الأئمة من قريش » ، ما أنكرْنا إمْرة الأنصار، ولكانوا لها أهلًا ، ولكنه قولٌ لاشكّ فيه ولاخيار ، وقد عجِلتِ الأنصار علينا، والله ماقبضناعليهم الأمرَ ولا أخرجناهم من الشورى؛ وإنّ الذى هم فيه من فلَتاتِ الأمور ونَزَغاتِ الشيطان ، ومالا يبلغه المُنى ، ولا يحمِلُه الأملُ. أعذِروا إلى القوم ، فإنْ أبوْا فقاتلوهم ؛ فوالله لو لم يبقَ من قريش كلّها إلا رجل واحد لصيّر الله هذا الأمر فيه.

قال : وحضر أبو سفيان بن حرب ، فقال :

يامعشرَ قريش ، إنه ليس للأنصار أن يتفضّلوا على الناس حتى يُقِرّوا بفضلنا عليهم، فإن تفضّلوا فحَسْبنا حيث انتهى بها، وإلا فحَسْبُهم حيث انتهى بهم. وايمُ الله لئن بطِروا المعيشة ، وكفَروا النعمة ، لنضربنّهم على الإسلام كما ضربوا عليه ، فأما علىّ بن أبى طالب فأهل والله أن يسوّد على قريش ، وتطيعه الأنصار.

فلما بلغ الأنصار قول هؤلاء الرهط قام خطيبهم ثابت بن قيس بن شماس فقال :

يامعشرَ الأنصار ، إنّما يكبرُ عليكم هذا القول لو قاله أهلُ الدين من قريش؛ فأمّا إذا كان من أهل الدنيا ، لاسيما من أقوام كلّهم موتور ؛ فلا يكبُرَنّ عليكم ؛ إنما الرأى

---

(١) كذا فى ج ، وفى ا ، ب : « الأور » .

والقول مع الأخيار المهاجرين ؛ فإن تكلمت رجال قريش ؛ والذين هم أهل الآخرة مثل كلام هؤلاء ؛ فعند ذلك قولوا ما أحببتم وإلا فأمسكوا .

وقال حسان بن ثابت يذكر ذلك :

تَنَادَى سُهَيْلٌ وابنُ حَرْبٍ وحَارِثٌ ... وعِكْرِمةُ الشَّانِى لَنا ابن أبى جَهْلِ
قتلنا أباهُ وانتزعْنَا سِلاَحَهُ ... فأصْبَحَ بالبطْحاَ أذلَّ مِنَ النَّعْلِ
فأمّا سهيلٌ فاحتواهُ ابن دخشم ... أسيراً ذليلاً لا يُمِرُّ ولا يُحْلِى
وصخر بن حرب قد قتلنا رجالَه ... غَداةَ لِوَا بَدْرٍ فمِرْجَلُه يَغْلِى
وراكَضنا تحتَ العجاجة حارثٌ ... على ظهرِ جَرْداء كباسِقةِ النَّخْلِ
يقبّلها طَوْراً وطورا يَحُثُّها ... ويعدلها بالنَّفْس والمالِ والأهْلِ
أولئك رهطٌ من قريش تَبَايَعُوا ... على خُطَّةٍ ليست من الخطط الفُضْلِ
وأعجبُ منهم قابِلو ذاكَ منهمُ ... كأنا اشتملْنا من قُرَيْشٍ على ذَحْلِ
وكلّهمُ ثانٍ عن الحقّ عِطفَه ... يقول اقتلوا الأنصار، يابئس مِنْ فِعْل!
نصرنا وآوينا النبيَّ ولم نخف ... صروفَ الليالى والبلاء عَلَى رَجُلِ
بذلنا لهمْ أنصاف مال أكفِّنا ... كقسمة أيسارِ الجَزُورِ من الفَضْلِ
ومن بعد ذاك المال أنصاف دُورنا ... وكنَّا أناساً لا نعيَّرُ بالبُخْلِ
ونحمِى ذمار الحىِّ فهر بن مالك ... ونوقد نارَ الحرْبِ بالحطَب الجَزْلِ
فكان جزاء الفضلِ منَّا عليهمُ ... جهالتهم حمقاً وما ذاك بالعدْلِ

فبلغ شعرُ حسان قريشاً ، فغضبوا وأمروا ابن أبى عَزّة شاعرهم أن يجيبه ، فقال :

معشرَ الأنصارِ خافوا ربّكمْ ... واستجيروا الله من شرِّ الفِتَنْ
إنّنى أرهب حَرْباً لاقحاً ... يَشرَق المُرضَعُ فيها باللَّبَنْ
جَرّهَا سعد وسعدٌ فِتْنَةٌ ... ليت سعدَ بن عبادٍ لم يكُنْ
خلف برهوتٍ خفيا شخصُه[1] ... بين بُصرى ذى رُعينٍ وَجَدَنْ

---

(١) برهوت : واد باليمن .

ليس ماقدّر ســـعد كائناً ماجرى البحر وما دام حَضَنْ(١)

ليس بالقاطع مِنّـــا شعرة كيف يُرجى خير أمرٍ لم يَحِنْ!

ليس بالمدرِكِ منهـــا أبداً غـــير أضغاثِ أمانىِّ الوسَنْ

***

قال الزُّبير: لمّا اجتمع جمهور الناس لأبى بكر أكرمت قريش معن بن عدىّ وعويم ابن ساعدة؛ وكان لهما فضلٌ قديم فى الإسلام؛ فاجتمعت الأنصار لهما فى مجلس ودعوْهما، فلما أحضرا أقبلت الأنصار عليهما فعيّروهما بانطلاقهما إلى المهاجرين، وأكبروا فعلهما فى ذلك؛ فتكلم معن، فقال:

يامعشرَ الأنصار. إنّ الذى أراد الله بكم خيرٌ مما أردتم بأنفسكم، وقد كان منكم أمرٌ عظيم البلاء، وصغّرته العاقبة؛ فلوْ كان لـكم على قريش مالقريش عليكم، ثم أردتموهم لِمَا أرادوكم به لم آمَنْ عليهم منكم مثل ما آمن عليكم منهم؛ فإن تعرفوا الخطأ فقد خرجتم منه وإلا فأنتم فيه.

قلت. قوله: «وقد كان منكم أمر عظيم البلاء، وصغرته العاقبة» يعنى عاقبة الكفّ والإمساك؛ يقول: قد كان منكم أمر عظيم؛ وهو دعوَى الخلافة لأنفسكم؛ وإنما جعل البلاء معظّما له، لأنه لو لم يتعقّبه الإمساك؛ لأحدث فتنة عظيمة؛ وإنما صغّره سكونُهم ورجوعهم إلى بيعة المهاجرين.

وقوله: «وكان لـكم على قريش ...» إلى آخر الـكلام، معناه: لو كان لـكم الفضل على قريش كفضل قريش عليـكم، وادّعت قريش الخلافة لها، ثم أردتم منهم الرجوع عن دعواهم، وجرت بينكم وبينهم من المنازعة مثلُ هذه المنازعة التى جرت الآن بينكم لم آمن عليهم منكم أن تقتلوهم؛ وتُقْدِموا على سفك دمائهم؛ ولم يحصل لى من سكون النفس إلى

(١) حضن: جبل بأعلى نجد.

حلمكم عنهم وصبركم عليهم مثل ما أنا آمن عليكم منهم ، فإنهم صبروا وحلُموا ، ولم يقدموا على استباحة حربكم والدخول فى دمائكم .

***

قال الزبير : ثم تكلم عُويم بن ساعدة ، فقال : يا معشر الأنصار ؛ إنّ من نعم الله عليكم أنه تعالى لم يُرِدْ بكم ما أردتم بأنفسكم ، فاحمدوا الله على حسن البلاء ، وطول العافية ، وصرف هذه البليّة عنكم ، وقد نظرت فى أول فتنتكم وآخرها فوجدتها جاءت من الأمانىّ والحسد ؛ واحذروا النِّقَم ؛ فوددت أنّ الله صيّر إليكم هذا الأمر بحقه فكنا نعيش فيه .

فوثبت عليهما الأنصار ؛ فأغلظوا لهما ، وفحشوا عليهما ، وانبرى لهما فروة بن عمرو ، فقال : أنسيتما قولكما لقريش : « إنا قد خلّفنا وراءنا قوماً قد حلّت دماؤهم بفتنتهم » ! هذا والله ما لا يغفر ولا ينسى ؛ قد تُصرَفُ الحيّة عن وَجْهها وسُمّها فى[1] نابها . فقال معن فى ذلك :

وقالَتْ لِىَ الأنصارُ إنّك لم تُصِبْ ... فقلت : أمالِى فى الكلامِ نَصيبُ !
فقالوا : بلَى قل ما بدا لك راشداً ... فقلت ومثلى بالجوابِ طبيبُ
تركتُكمُ والله لمّا رأيتُكمْ ... تُيوساً لها بالحَرّتين نَبيب[2]
تنادُون بالأمر الذى النجم دُونَه ... ألا كلّ شىء ما سواهُ قَريبُ
فقلتُ لكمْ قولَ الشفيق عليكمُ ... وللقلبِ من خَوْف البلاء وَجيبُ
دعُوا الرَّكْضَ واثنوا من أعنة بَغْيِكم ... ودبُّوا فسيْرُ القاصدين دَبيبُ
وخلُّوا قريشا والأمورَ وبايعوا ... لمن بايعوه تَرْشُدُوا وتُصِيبُوا

---

(١) ج : « فيها » .

(٢) النبيب : صياح التيس عند الهياج ؛ ومنه قول عمر لوفد أهل الكوفة حين شكوا سعداً إليه : « ليكلمنى بعضكم ولا تنبوا عندى نبيب التيوس » .

أراكم أخذتم حقكم بأكفكم ... وما الناس إلا مخطئ ومصيب
فلما أبيتم زلت عنكم إليهم ... وكنت كأنى يوم ذاك غريب
فإن كان هذا الأمر ذنبى إليكم ... فلى فيكم بعد الذنوب ذنوب
فلا تبعثوا منى الكلام فإننى ... إذا شئت يوماً شاعر وخطيب
وإنى لحلو تعترينى مرارة ... وملح أجاج تارة وشروب[(١)]
لكل امرئ عندى الذى هو أهله ... أفانين شتى والرجال ضروب

وقال عُوَيم بن ساعدة فى ذلك :

وقالت لِىَ الأنصار أضعاف قولِهم ... لمعنٍ ، وذاك القولُ جهلٌ من الجهلِ
فقلت : دَعُونى لا أبا لأبيكم ... فإنى أخوكم صاحب الخطر الفصلِ[(٢)]
أنا صاحب القولِ الذى تعرفونه ... أقطع أنفاس الرجال على مَهْلِ
فإنْ تسكتوا أسكتْ وفى الصمتِ راحة ... وإن تنطِقوا أصْمِتْ مقالتكم تَبلى
وما لُمْتُ نفسى فى الخلاف عليكمُ ... وإن كنتمُ مُستجمعين على عَذْلِى
أريدُ بذاك الله لا شىء غيرهُ ... وما عند ربّ الناس من دَرَجِ الفضلِ
وما لىَ رِحْمٌ فى قريش قريبةٌ ... ولا دارها دارِى ولا أصلُها أصلِى
ولكنّهمُ قومٌ علينا أئمةٌ ... أدينُ لهم ما أنفذت قدَمِى نعلِى
وكانَ أحقَّ الناس أن تقنعُوا به ... ويحتمِلوا مَنْ جاء فى قوله مِثْلِى
لأنى أخفُّ الناس فيما يسرّكمْ ... وفيما يَسُوءُ لا أمِرّ ولا أُحْلِى

قال فَرْوة بن عمر — وكان ممّن تخلّف عن بَيْعة أبى بكر ، وكان ممّن جاهد مع

---

(١) الأجاج : الماء الملح شديد الملوحة . والشروب : الماء دون العذب يصلح للشرب مع بعض كراهة .
(٢) ب : « الخطة الفصل » .

رسول الله، وقاد فرسين في سبيل الله؛ وكان يتصدق من نخله بألف وسق في كل عام؛ وكان سيداً؛ وهو من أصحاب علي؛ وممن شهد معه يوم الجمل. قال: فذكر معناً وعويماً، وعاتبهما على قولهما: «خلفنا وراءنا قوما قد حلت دماؤهم بفتنتهم»:

ألا قل لمن إذا جئته ... وذاك الذي شيخه ساعده
بأن المقال الذي قلتما ... خفيف علينا سوى واحده
مقالكم: إن من خلفنا ... مراض قلوبهم فاسده
حلال الدماء على فتنة ... فيابئسما ربت الوالده!
فلم تأخذا قدر أثمانها ... ولم تستفيدا بها فائده
لقد كذب الله ماقلتما ... وقد يكذب الرائد الواعده [1]

***

قال الزبير: ثم إن الأنصار أصلحوا بين هذين الرجلين وبين أصحابهما؛ ثم اجتمعت جماعة من قريش يوما وفيهم ناس من الأنصار وأخلاط [2] من المهاجرين؛ وذلك بعد انصراف الأنصار عن رأيها وسكون الفتنة؛ فاتفق ذلك عند قدوم عمرو بن العاص من سفر كان فيه، فجاء إليهم، فأفاضوا في ذكر يوم السقيفة وسعد ودعواه الأمر، فقال عمرو بن العاص: والله لقد دفع الله عنا من الأنصار عظيمة، ولما دفع الله عنهم أعظم، كادوا والله أن يحلوا حبل الإسلام كما قاتلوا عليه، ويخرجوا منه من أدخلوا فيه، والله لئن كانوا سمعوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الأئمة من قريش»، ثم ادعوها لقد هلكوا وأهلكوا، وإن كانوا لم يسمعوها فما هم كالمهاجرين، ولا ـ كأبي بكر، ولا المدينة

---

(١) يقال: سحاب واعد؛ أي الذي يعد بالمطر؛ ومؤنثه «واعدة».
(٢) الأخلاط: القوم المختلطون.

كة، ولقد قاتلونا أمس فغلبونا على البدء ، ولو قاتلناهم اليوم لغلبناهم على العاقبة ؛ فلم يجبه أحد ، وانصرف إلى منزله وقد ظفر ، فقال :

أَلَا قُلْ لأوسٍ إذا جئتَها　　وقلْ كُلَّما جئتَ للخزرجِ
تمنيتمُ الملكَ في يثربٍ　　فأنزلتِ القِدْرَ لم تنضجِ
وأخدَجتمُ الأمرَ قبل التمام　　وأعجِبْ بذا المعجَل المخدَجِ [1]
تريدون نَتْجَ الحِيال العشا　　رَ ولم تلقحوه فلم يُنتَجِ
عَجِبْتُ لسعدٍ وأصحابِهِ　　ولو لم يهيجوه لم يَهْتَجِ
رجا الخزرجيّ رجاءَ السَّرابِ　　وقد يخلف المرءَ ما يرتجي
فكان كمُنْحٍ على كفّهِ　　بكفٍّ يقطِّعها أهوجِ

فلما بلغ الأنصارَ مقالته وشعره ، بعثوا إليه لسانهم وشاعرهم النعمان بن العجلان — وكان رجلًا أحمر قصيرا، تزدريه العيون ، وكان سيّدا نخما — فأتى عمرا وهو في جماعة من قريش ، فقال : والله ياعمرو ما كرهتُم من حربنا إلا ما كرهنا من حربكم ، وما كان الله ليخرجَكم من الإسلام بمنْ أدخلكم فيه؛إنْ كان النبيّ صلى الله عليه وسلّم قال : « الأئمة من قريش » ، فقد قال : « لو سلكَ النّاس شِعْبا،وسلك الأنصار شِعْبا، لسلكتُ شِعب الأنصار »،والله ما أخرجناكم من الأمر إذ قلنا : منّا أمير ومنكم أمير،وأمّا مَنْ ذكرت، فأبو بكر لَعَمْرى خير من سَعْد ، لكنّ سعدا في الأنصار أطوعُ من أبي بكر في قريش ، فأمّا المهاجرُون والأنصار ، فلا فرقَ بينهم أبدا ، ولكنك يابن العاص ، وترْتَ بنى عبد مناف بمسيرك إلى الحبشة لقتل جعفر وأصحابه ، ووترتَ بنى مخزوم بإهلاك عُمارة ابن الوليد . ثم انصرف فقال :

---

(١) يقال : أخدج الأمر ؛ إذا لم يحكمه ، والمخدج : الناقص .

فقُلْ لقريش نحنُ أصحابُ مكّةٍ ... وَيَوْمَ حنين والفوارسُ فى بَدْر
وأصحاب أُحْدٍ والنّضير وَخَيْبرٍ ... ونحن رجعنا من قُرَيْظة بالذِّكْر
ويوم بأرض الشام أدخِل جعفر ... وزيد وعبد الله فى عَلَقٍ يَجْرِى (١)
وفى كلِّ يوم ينكر الكلبُ أهله ... نطاعنُ فيه بالمثقّفة السُّمْرِ
ونضربُ فى نَقْع العجاجة أرؤساً ... ببيض كأمثال البروق إذا تَسْرِى
نَصَرْنا وآوينا النبيَّ ولم نخفْ ... صروفَ الليالى والعظيمَ من الأمْرِ
وقلنا لقوم هاجروا قَبلُ: مَرْحَباً ... وأهلاً وسهلا، قد أمنتمْ من الفقْرِ
نقاسمكمْ أموالَنا وبيوتَنا ... كقسمة أيسار الجزورِ على الشَّطْرِ
ونكفيكمُ الأمرَ الذى تكرهونَهُ ... وكنَّا أناساً نُذْهِبُ العسر باليُسْرِ
وقلتم: حرامٌ نصب سعدو نصبكمْ ... عتيقَ بن عثمان ـ حلالٌ ـ أبابكرِ
وأهلٌ أبو بكر لها خير قائمٍ ... وإن عليًّا كان أخْلَقَ بالأمْرِ
وكان هوانا فى علىٍّ وإنه ... لأهلٌ لها يا عمرو من حيثُ لا تدرى
فذاك بعون الله يدعو إلى الهدى ... وينهى عن الفحشاء والبَغْى والنُّكْرِ
وصىُّ النبىِّ المصطَفى وابنُ عمّهِ ... وقاتِلُ فرسان الضَّلالة والكُفْرِ
وهذا بحمدِ الله يَهدِى من العَمَى ... ويفتح آذانا ثَقُلْنَ من الوَقْرِ
نَجِىُّ رسول الله فى الغار وحدَه ... وصاحبُه الصِّدِّيقُ فى سالِفِ الدَّهْرِ
فلولا اتّقاء الله لم تَذهبوا بها ... ولكن هذا الخير أجمع للصَّبْرِ
ولم نَرْضَ إلّا بالرِّضَا ولربما ... ضربنا بأيدينا إلى أسفل القِدْرِ

فلما انتهى شعر النعمان وكلامُه إلى قريش، غضب كثير منها، وألفى ذلك قدومُ خالد ابن سعيد بن العاص من اليمن وكان رسول الله استعمله عليها، وكان له ولأخيه أثر قديم

---

(١) العلق: الدم، وفى ا، ب: «فى طلق» وما أثبته من ج والاستيعاب.

عظيم فى الإسلام ؛ وهما مِنْ أوّل من أسلم من قريش ؛ ولهما عبادة وفضل. فغضب للأنصار، وشتمَ عمرو بن العاص ، وقال : يامعشرَ قريش ؛ إنّ عمراً دخل فى الإسلام حين لم يجدْ بدًّا من الدخول فيه ، فلما لم يستطِعْ أن يكيدَه بيده كاده بلسانه ، وإنّ مِنْ كيده الإسلام تفريقَه وقطعه بين المهاجرين والأنصار . والله ما حاربْناهم للدِّين ولا للدنيا ؛ لقد بذلوا دماءهم لله تعالى فينا ؛ وما بذلنا دماءنا لله فيهم ؛ وقاسمونا ديارَهم وأموالهم ، ومافعلنا مثل ذلك بهم ، وآثرونا على الفقْر ، وحرمناهم على الغنى ، ولقد وصّى رسولُ الله بهم ، وعزّاهم عن جَفْوة السلطان ؛ فأعوذ بالله أن أكونَ وإياكم الخلَف المضيّع ، والسلطان الجانى !

قلت : هذا خالد بن سعيد بن العاص ؛ هو الذى امتنع من بيعة أبى بكر ، وقال : لا أبايع إلا عليًّا ، وقد ذكرنا خبره فيما تقدم .

وأما قوله فى الأنصار : « وعزّاهم عن جَفْوة السُّلْطان » فإشارة إلى قول النبىّ صلى الله عليه وآله : « ستَلْقَوْن بعدى أثَرَةً ، فاصبروا حتى تقدَمُوا علىّ الحوض » ؛ وهذا الخبر هو الذى يكفِّر كثير من أصحابنا معاوية بالاستهزاء به ، وذلك أنّ النعمان بن بشير الأنصارىّ جاء فى جماعة من الأنصار إلى معاوية ، فشكَوْا إليه فقرَهم ، وقالوا : لقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قولِه لنا : « ستلقوْن بعدى أثرةً » ، فقد لقيناها . قال معاوية : فماذا قال لكم ؟ قالوا : قال لنا : « فاصْبِروا حتى تردوا علىّ الحوض » ، قال : فافعلوا ماأمركم به عساكم تلاقُونه غدا عند الحوض كما أخبركم ؛ وحرمهم ولم يعطهمْ شيئا .

قال الزّبير : وقال خالد بن سعيد بن العاص فى ذلك :

تفوّه عمرو بالذى لا نُريدُه ... وصرّح للأنصار عن شَنْأة البُغْضِ
فإن تكُن الأنصار زَلّتْ فإننا ... نُقِيلُ ولا نجزيهمُ بالقَرْضِ

فلا تقطعنْ ياعمرو ما كانَ بيننا ولا تحملنْ ياعمرو بعضاً على بعضِ
أتنسى لهم ياعمرو ما كان منهمُ ليالىَ جئناهم من النّفل والفَرْضِ
وقسْمَتنا الأموال كاللّحم بالمُدَى وقسمتَنا الأوطان كلٌّ به يقضى
ليالىَ كُلُّ الناس بالكفر جَهْرة ثِقالٌ علينا ، مجمعونَ على البُغْضِ
فساوَوْا وآوَوا وانتهيْنَا إلَى المُنَى وقرّ قرَارَانا من الأمن والخفضِ [١]

***

قال الزُّبير: ثم إنّ رجالًا من سفهاء قريش ومثيرِى الفِتَن منهم ،اجتمعوا إلى عمرو بن العاص ، فقالوا له : إنّك لسانُ قريش ورجُلها فى الجاهليّة والإسلام ، فلا تدَع الأنصار وما قالت ؛ وأكثروا عليه من ذلك ، فراح إلى المسجد ، وفيه ناس من قريش وغيرهم ، فتكلم وقال: إنّ الأنصار ترَى لنفسها ماليس لها ، وايمُ الله لوددت أنّ الله خلّى عنّا وعنهم ، وقضى فيهم وفينابما أحبّ ، ولنحنُ الذين أفسدْنا على أنفسنا أحرزناهم عن كلّ مكروه ، وقدّمناهم إلى كلّ محبوب؛ حتى أمنوا المخوف؛ فلما جاز لهم ذلك صَغَّروا حقنا ، ولم يراعُوا ماأعظمنا من حقوقهم .

ثم التفت فرأى الفضلَ بن العباس بن عبدالمطلب ، وندِم على قوله ، للخئولة التى بين ولَد عبد المطلب وبين الأنصار ، ولأنّ الأنصار كانت تُعظِّم عليًا ، وتهتِف باسمه حينئذ ، فقال الفضل : ياعمرو، إنّه ليس لنا أن نكتُم ماسمعنامنك ، وليس لنا أن نجيبَك ؛وأبو الحسن شاهد بالمدينة ؛ إلا أن يأمرنا فنفعل .

ثم رجع الفضلُ إلى علىّ لحدّثه . فغضب وشتم عمْرا . وقال : آذى الله ورسوله ؛ ثم قام فأتى المسجد ، فاجتمع إليه كثير من قريش وتكلّم مغضَبا ، فقال :

يامعشرَ قريش ، إن حبّ الأنصار إيمان ، وبغضَهم نفاق ، وقد قضَوْا ماعليهم ،

---

(١) كذا فى ج ، وفى ا ، ب : « ووفر أمرانا » .

وبقى ماعليكم ؛ واذكروا أنّ الله رغب لنبيكم عن مكّة ، فنقله إلى المدينة . وكره له قريشا؛ فنقله إلى الأنصار ، ثم قدِمْنا عليهم دارَهم ، فقاسمونا الأموال ، وكفَوْنا العمل ، فصرْنا منهم بَيْن بذل الغنيّ وإيثار الفقير ، ثم حاربَنا الناس فوقونا بأنفسهم ؛ وقد أنزل الله تعالى فيهم آيةً من القرآن، جمع لهم فيها بين خمس نِعَم، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(١)، ألَا وإنّ عمرو بن العاص قد قام مقاما آذى فيه الميّت والحيّ، ساء به الواتر وسرّ به الموتور؛ فاستحقّ من المستمع الجواب ، ومن الغائب المقت ؛ وإنه مَنْ أحبّ الله ورسوله أحبّ الأنصار ، فليكفُف عمرو عنّا نفسَه .

قال الزبير : فمشت قريش عند ذلك إلى عمرو بن العاص ، فقالوا : أيها الرجل ؛ أمّا إذا غضب عليّ فاكففْ .

وقال خُزيمة بن ثابت الأنصاريّ يخاطب قريشا :

أيالَ قُرَيْش أصلِحُوا ذات بيننا ... وبينكُمُ قد طالَ حَبْلُ التماحكِ(٢)

فلاَ خَيْرَ فيكُمْ بعدَنا فارفقوا بنا ... ولا خيرَ فينا بعد فِهر بن مالكِ

كِلانا على الأعداء كفٌّ طويلة ... إذا كان يومٌ فيه جَبٌّ الحوَاركِ(٣)

فلا تذكرُوا ما كان مِنّا ومنكمُ ... ففى ذِكْرِ ماقد كان مَشْىُ التَّساوُكِ(٤)

قال الزّبير : وقال عليّ للفضل : يافضل ، انصر الأنصار بلسانك ويدك، فإنهم منك وإنك منهم ، فقال الفضل :

قلتَ ياعمرُو مقالاً فاحشا ... إن تَعُد ياعمرو والله فلكْ

(١) سورة الحشر ٩

(٢) التماحك : اللجاج.

(٣) كناية عن الشدة ؛ والحارك : عظم على الظهر .

(٤) التساوك : المشى الضعيف .

إنما الأنصار سيفٌ قاطعٌ مَنْ تُصِبْه ظُبَةُ السيفِ هَلَكْ[(١)]
وسيوفٌ قاطع مَضْرَبُها وسهام الله فى يوم الحَلَكْ
نصرُوا الدين وآوَوْا أهلَه منزل رَحْبٌ ورِزْقٌ مُشْتَرَكْ
وإذا الحرب تلظَّتْ نارُها بركوا فيها إذا الموت بَرَكْ

ودخل الفضل على علىّ فأسمعه شعره ، ففرح به ، وقال وَرِيَتْ بك زنادى يافَضْل ؛ أنت شاعر قريش وفتاها ، فأظهر شِعْرَك وابعث به إلى الأنصار ؛ فلما بلغ ذلك الأنصار، قالت : لا أحد يجيبُ إلّا حسّان الحسام ؛ فبعثوا إلى حسان بن ثابت ، فعرضوا عليه شعر الفضل ، فقال : كيف أصنع بجوابه ! إنْ لم أتحرّ قوافيَه فضحنى ، فرويدا حتى أقفوَ أثره فى القوافى ؛ فقال له خُزَيمة بن ثابت : اذكر عليا وآله يكفِك عن كلّ شىء ، فقال :

جزى الله عنّا والجزاء بكفّه أبا حسنٍ عنّا ومَنْ كأبى حَسَنْ
سبقتَ قريشا بالذى أنت أهلُه فصدرُك مشروح ، وقلبك ممتحَنْ
تمنَّتْ رجالٌ من قريش أعِزّةٌ مكانَك،هيهات الهزال من السِّمَنْ!
وأنتَ من الإسلام فى كلّ موطن بمنزلة الدَّلْوِ البَطِينِ من الرَّسَنْ
غضبتَ لنا إذ قامَ عمرٌو بخطبة أمات بها التقوى وأحيا بها الإحَنْ
فكنتَ المرجّى من لؤىّ بن غالب لما كان منهم ، والذى كان لم يكُنْ
حفظتَ رسول الله فينا وعهدَه إليك ومَنْ أولى به منك مَنْ ومَنْ!
ألستَ أخاه فى الهدى ووصيَّهُ وأعلمَ منهم بالكتابِ وبالسُّنَنْ
فحقّك مادامت بنجدٍ وشيجةٌ عظيم علينا ثم بعدُ على اليمنْ

قال الزّبير : وبعثت الأنصار بهذا الشعر إلى علىّ بن أبى طالب ، فخرج إلى المسجد،

---

(١) ظبة السيف : حده

وقال لمن به من قريش وغيرهم . يامعشرَ قريش ، إن الله جعلَ الأنصار أنصارا ، فأثنى عليهم فى الكتاب ، فلا خيرَ فيكم بعدهم ؛ إنه لا يزال سفيه من سفهاء قريش وَتَره الإسلام ، ودفعه عن الحقّ ، وأطفأ شرفه وفضّل غيره عليه ؛ يقوم مقاما فاحشا فيذكر الأنصار ؛ فاتقوا الله وارعَوْا حقّهم ،فوالله لو زالوا لزلتُ معهم ؛ لأنّ رسول الله قال لهم : « أزولُ معكم حيثما زُلتم » ؛ فقال المسلمون جميعا : رحمك الله يا أبا الحسن ! قلت قولا صادقا .

قال الزبير : وترك عمرو بن العاص المدينة ، وخرج عنها حتى رضىَ عنه علىّ والمهاجرون . قال الزبير : ثم إنّ الوليد بن عقبة بن أبى مُعَيْط – وكان يبغض الأنصار ، لأنهم أسرُوا أباه يوم بَدْر ، وَضربوا عنقه بين يدىْ رسول الله – قام يشتم الأنصار ، وذكرهم بالهُجْر ، فقال : إن الأنصار لَترى لها من الحقّ علينا مالا نراه ، والله لئن كانوا آوَوا لقد عزُّوا بنا ، ولئن كانوا آسوا لقد مَنُّوا علينا ، والله مانستطيع مودّتَهم ؛ لأنه لا يزال قائل منهم يذكر ذلّنا بمكة ، وعزّنا بالمدينة ، ولا ينفكّون يعيّرون موتانا ، ويغيظون أحياءنا ، فإن أجبناهم قالوا : غضبت قريش على غاربها ، ولكن قد هوّن علىّ ذلك منهم حرْصُهم على الدين أمس ، واعتذارهم من الذنب اليوم ، ثم قال :

تباذَختِ الأنصار فِى الناس باسْمِها[(١)] ... ونسبتُها فى الأَزْد عَمرو بن عامرِ
وقالوا : لَنا حقٌّ عظيم ومِنّةٌ ... على كلّ بادٍ من مَعَدٍّ وحاضرِ
فإنْ يكُ للأنصار فضلٌ فلم تنلْ ... بحرمته الأنصار فضلَ المهاجرِ
وإن تكن الأنصار آوتْ وقاسمَتْ ... معايشها مَنْ جاء قسمةَ جازرِ
فقد أفسدت ما كان منها بمنّها ... وما ذاك فعلُ الأكرمين الأكابرِ
إذا قال حسانٌ وكعب قصيدةً ... بشتمِ قريش غُنّيتْ فى المعاشرِ
وسارَ بها الرُّكبان فى كلّ وجهةٍ ... وأعملَ فيها كلُّ خُفٍّ وحافرِ

(١) ج : « تفاخرت الأنصار » .

فهذا لنا من كلِّ صاحب خطبة ... يقومُ بها منكم ومِنْ كلِّ شاعرِ
وأهلٌ بأن يُهجَوْا بكلِّ قصيدةٍ ... وأهلٌ بأن يُرْمَوْا بنبل فواقرِ

قال : ففشا شعره في الناس ، فغضبت الأنصار ، وغضب لها من قريش قومٌ ، منهم ضرار بن الخطاب الفهريّ ، وزيد بن الخطاب ، ويزيد بن أبي سفيان ، فبعثوا إلى الوليد فجاء .

فتكلّم زيد بن الخطاب ، فقال : يابن عُقبة بن أبي معَيط ، أما والله لو كنت من الفقراء المهاجرين الذين أخرِجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا ، لأحببتَ الأنصار ، ولكنّك من الجُفاة في الإسلام البطاء عنه ، الذين دخلوا فيه بعد أنْ ظهر أمرُ الله وهم كارهون؛ إنّا نعلم أنّا أتيناهم ونحن فقراء ، فأغنونا ، ثم أصبنا الغنى فكفّوا عنا . ولم يرزءونا شيئًا . فأما ذكرهم ذلّة قريش بمكّة وعزها بالمدينة ، فكذلك كنا ، وكذلك قال الله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ ﴾ (١) ، فنصرنا الله تعالى بهم ، وآوانا إلى مدينتهم .

وأما غضبك لقريش فإنا لا ننصر كافرًا ، ولا نوادّ مُلحِدًا ولا فاسقًا؛ ولقد قلت وقالوا ، فقطعك الخطيب ، وألجمكَ الشاعر .

وأما ذكرك الذي كان بالأمس ، فدَعِ المهاجرين والأنصار ؛ فإنّك لستَ من ألسنتهم في الرّضا ، ولا نحن من أيديهم في الغضب .

وتكلّم يزيد بن أبي سفيان ، فقال : يابن عُقْبة ، الأنصار أحقُّ بالغضب لقتلى أحُد ، فاكفف لسانك ، فإنّ مَنْ قتله الحقّ لا يغضب له

وتكلّم ضرار بن الخطاب ، فقال : أما والله لولا أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(١) سورة الأنفال ٢٦ .

« الأئمة من قريش » لقلنا : الأئمة من الأنصار ، ولكن جاء أمر غلب الرأى ، فاقمع شرّتك أيها الرجل ؛ ولا تكن امرأ سَوْء ، فإن الله لم يفرّق بين الأنصار والمهاجرين فى الدنيا، وكذلك الله لا يفرّق بينهم فى الآخرة .

وأقبل حسان بن ثابت مغضباً من كلام الوليد بن عُقْبة وشعره ، فدخل المسجد وفيه قوم من قريش ، فقال : يامعشرَ قريش ، إن أعظم ذنبنا إليكم قتلُنا كفارَكم ، وحمايتُنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وإن كنتم تنقمون مِنّا مِنّةً كانت بالأمس ؛ فقد كفى الله شرّها ، فما لنا وما لكم ؛ والله ما يمنعنا من قتالكم الجبنُ ، ولا من جوابكم العِيّ . إنا لحىّ فَعال ومقال ؛ ولكنا قلنا : إنها حرب ؛ أولها عار وآخرها ذلّ ؛ فأغضينا عليها عيوننا، وسحبنا ذيولَنا ، حتى نَرَى وتَرَوْا ، فإن قلتم قلنا ، وإن سكتّم سكتنا .

فلم يجبْه أحدٌ من قريش ، ثم سكت كلٌّ من الفريقين عن صاحبه ، ورضِيَ القوم أجمعون ، وقطعوا الخلاف والعصبية .

انتهى ماذكره الزبير بن بكار فى " الموفّقيات " ونعود الآن إلى ذكر ما أورده أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهرى فى كتاب " السقيفة " .

* * *

قال أبو بكر : حدّثنى أبو يوسف يعقوب بن شيبة ، عن بحر بن آدم عن رجاله، عن سالم بن عبيد ، قال : لما تُوفِّىَ رَسول الله وقالت الأنصار : مِنّا أميرٌ ومنكم أميرٌ ؛ أخذ عمر بيد أبى بكر ، وقال سَيْفان فى غِمْد واحد ! إذاً لا يصلحان . ثم قال : مَنْ له هذه الثلاثُ : ﴿ ثانِيَ اثنَيْنِ إذْ هُمَا فى الغارِ ﴾ مَنْ هما ؟ ﴿ إذْ يقولُ لِصاحِبِه لا تَحْزَنْ ﴾ ، مَنْ صاحبه ؟ ﴿ إنّ الله مَعَنا ﴾[1] مع مَنْ ؟ ثم بسط يده إلى أبى بكر فبايعه ، فبايعه الناس أحسَنَ بيعة ، وأجملها .

---

(١) سورة التوبة ٤٠ .

قال أبو بكر : حدّثنا أحمد بن عبد الجبار العُطاردىّ ، عن أبى بكر بن عيّاش ، عن زيد بن عبد الله ، قال : إنّ الله تعالى نظر فى قلوب العباد ، فوجدَ قَلْبَ محمد عليه الصلاة والسلام خَيْرَ قلوب العباد ، فاصطفاه لنفسه ، وابتعثه برسالته ، ثم نظر فى قلوب الأمم بعدَ قلبه ، فوجد قلوبَ أصحابه خير قلوب العباد ، فجعلهم وزراء نبيه ، يقاتلون عن دينه ، فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رأى المسلمون سيئاً فهو عند الله سيّئ .

قال أبو بكر بن عياش : وقد رأى المسلمون أن يولّوا أبا بكر بعد النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فكانت ولايته حسنة .

قال أبو بكر : وحدثنا يعقوب بن شيبة ، قال : لما قُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الأنصار : « مِنّا أميرٌ ومنكم أميرٌ » ، قال عمر : أيّها الناس ، أيّكم يطيب نفساً أن يتقدم قدمين قَدَّمهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصَّلاة ! رضيك الله لديننا أفلا نرضاك لدنيانا !

***

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبّة ، قال : حدثنى زيد بن يحيى الأنماطىّ ، قال : حدثنا صخر بن جُويرية ، عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن أبيه ، قال : أخذ أبو بكر بيد عمر ويد رَجل من المهاجرين — يرَوْنه أبا عبيدة — حتى انطلقوا إلى الأنصار ، وقد اجتمعوا عند سَعْد فى سقيفة بنى ساعدة ، فقال عمر : قلت لأبى بكر : دعنى أتكلّم ، وخشيت جِدّ أبى بكر — وكان ذَا جِدّ — فقال أبو بكر لا ، بل أنا أتكلّم ، فما هو والله إلا أن انتهينا إليهم ، فما كان فى نفسى شىء أريد أن أقوله إلا أتى أبو بكر عليه ، فقال لهم :

يا معشرَ الأنصار ، ما ينكِرُ حقّكم مسلم ؛ إنا والله ما أصبنا خيراً قطّ إلا شَرِكتمونا

فيه ، لقد آويتم ونصرتم ، وآزرتم وواسيتم ؛ ولكن قد علمتم أنّ العرب لا تقرّ ولا تطيع إلا لامرئ من قريش ، هم رهط النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أوسطُ العرب وشيجةَ رحِم ، وأوسط الناس داراً ، وأعربُ الناس ألسنا ، وأصبحُ الناس أوجها ؛ وقد عرفتم بلاء ابن الخطاب فى الإسلام وقدمه ، هلمّ فلنبايعه .

قال عمر : بل إياك نبايع ، قال عمر : فكنتُ أوّل الناس مدّ يده إلى أبى بكر فبايعه ، إلّا رجلا من الأنصار أدخل يده بين يدى ويد أبى بكر فبايعه قبلى . ووطئ الناس فراش سعد ، فقيل : قتلتم سعداً . فقال عمر : قتل الله سعداً ! فوثب رجل من الأنصار ، فقال : أنا جُذَيْلُها المحكَّك وعذَيقُها المرجَّب . فأخِذ ووطئ فى بطنِه ودسّوا فى فيه[1] التراب .

***

قال أبو بكر : وحدّثنى يعقوب ، عن محمد بن جعفر ، عن محمد بن إسماعيل ، عن مختار التمار ؛ عن عيسى بن زيد ، قال : لما بويع أبو بكر جاء أبو سفيان إلى علىّ ، فقال : أغلبكم على هذا الأمر أذلّ بيت من قريش وأقلّها ! أما والله لئن شئت لأملأنّها على أبى فَصِيل خيلا ورجلا ؛ ولأسدّنّها عليه من أقطارها ، فقال علىّ : يا أبا سفيان ، طالما كدْتَ الإسلام وأهلَه ، فما ضرّهم شيئاً ؛ أمسك عليك؛ فإنا رأينا أبا بكر لها أهلاً .

قال أبو بكر : وحدّثنا يعقوب ، عن رجاله ، قال : لمّا بُويع أبو بكر تخلّف علىّ فلم يبايع ، فقيل لأبى بكر : إنه كره إمارتك[2] ، فبعث إليه : أ كرِهت إمارتى ؟ قال : لا ، ولكن القرآن خشيت أن يُزاد فيه ، فحلفتُ ألا أرتدىَ رِداء حتى أجمعه ؛ اللهمّ إلا إلى صلاة الجمعة .

---

(١) ج : « فمه » .

(٢) ج : « إمرتك » .

فقال أبو بكر : لقد أحسنت ، قال : فكتبه عليه الصلاة والسلام كما أنزل ، بناسخة ومنسوخه .

***

قال أبو بكر : حدثنا يعقوب ، عن أبي النضر ، عن محمد بن راشد ، عن مكحول ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل خالد بن سعيد بن العاص على عمل ، فقدم بعد ما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بايع الناس أبا بكر ، فدعاه إلى البيعة ، فأبى ، فقال عمر : دَعْني وإياه ، فمنعه أبو بكر حتى مضت عليه سنة ، ثم مرّ به أبو بكر وهو جالس على بابه فناداه خالد . يا أبا بكر ؛ هل لك في البيعة ؟ قال : نعم ، قال : فادْنُ ، فدنا منه ، فبايعه خالد وهو قاعد على بابه .

قال أبو بكر : وحدّثنا أبو يوسف يعقوب بن شيبة ، عن خالد بن مخلد ، عن يحيى ابن عمر ، قال . حدثني أبو جعفر الباقر ، قال جاء أعرابيٌّ إلى أبي بكر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال له : أوصني ، فقال: لا تَأمَّرْ على اثنين . ثم إن الأعرابيّ شخص إلى الرَّبَذَةِ ، فبلغه بعد ذلك وفاةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأل عن أمر الناس : مَنْ وليَه ؟ فقيل : أبو بكر ؛ فقدِم الأعرابيّ إلى المدينة ، فقال لأبي بكر : ألستَ أمرتَني ألا أتأمّر على اثنين ؟ قال : بلىَ ، قال : فما بالُك ؟ فقال أبو بكر : لم أجد لها أحداً غيري أحقَّ منِّي .

قال : ثم رفع أبو جعفر الباقرُ يدَيه وخفّضهما ، فقال : صدق ، صدق .

قال أبو بكر : وقد رُوي هذا الخبر برواية أتمّ من هذه الرواية : حدثنا يعقوب بن شيبة ، قال : حدّثنا يحيى بن حمّاد ، قال : حدثنا أبو عوانة ، عن سليمانَ الأعمش ، عن سُلَيمان بن ميسرة ، عن طارق بن شهاب ، عن رافع بن أبي رافع الطائيّ ، قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشاً ، فأمّر عليهم عمرو بن العاص، وفيهم أبو بكر وعمر ، وأمرهم

أن يستغفرُوا مَنْ مرّوا به ، فمرُّوا علينا فاستغفرونا ، فنفرنا معهم في غزاةِ ذات السلاسل — وهى التى تفخر بها أهل الشام ، فيقولون : استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو ابن العاص على جيش فيه أبو بكر وعمر — قال : فقلت ؛ والله لأختارنّ فى هذه الغزاة لنفسى رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أستهديه ، فإنى لستُ أستطيع إتيانَ المدينة ؛ فاخترتُ أبا بكر ولم آل ؛ وكان له كِساء فَدَكىّ يُخِلّه(١) عليه إذا رَكِب ، ويلبسه إذا نزل ؛ وهو الذى عيّرته به هوزان بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، وقالوا لانبايعْ ذا الخِلال ، قال : فلما قضينا غزاتنا ، قلت له : يا أبا بكر . إنى قد صحبتكُ وإنّ لى عليك حقا ، فعلِّمْنى شيئا أنتفع به ؛ فقال : قد كنت أريد ذلك لو لم تقل لى : تعبدُ الله لاتشركُ به شيئا ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتحجُّ البيت ، وتصوم شهرَ رمضانَ ، ولا تتأمّر على رجلين ، فقلت : أما العبادات فقد عرفتها ؛ أرأيت نهيك لى عن الإمارة ! وهل يصيب الناسَ الخير والشر إلا بالإمارة ! فقال : إنك استجهدتنى فجهدت لك ، إنّ الناس دخلوا فى الإسلام طوعا وكرها فأجارهم الله من الظلم ، فهم جيران الله وعواد الله وفى ذمة الله ، فَمَنْ يظلم منكم إنما يحقِر ربه ، والله إنّ أحدكم ليأخذ شويهة جاره أو بعيره ، فيظلُّ عملُه بأساً بجاره ، واللهُ منْ وراء جاره ، قال : فلم يلبث إلا قليلا حتى أتتنا وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألتُ : من استخلف بعده ؟ قيل : أبو بكر ، قلت أصاحبي الذى كان ينهانى عن الإمارة ! فشددتُ على راحلتى ، فأتيت المدينة ، فجعلت أطلب خَلْوَتَه ، حتى قدرت عليها ، فقلت أتعرفنى ؟ أنا فلان ابن فلان ، أتعرف وصية أوصيتَنى بها ؟ قال : نعم إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قُبِض والناس حديثو عهد بالجاهلية ، فخشيتُ أن يفتتنوا ، وإنّ أصحابى حمّلونيها ، فما زال يعتذر إلىّ حتى عذرته ، وصار من أمرى بعد أن صرت عريفا .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبّة ، عن رجاله ، عن الشعبىّ ، قال : قام الحسن ابن علىّ عليه السلام إلى أبى بكر وهو يخطُب على المنبر فقال له : انزل عن منبر أبى ، فقال ؛

(١) يخله عليه ، أى يجمع بين طرفى الكساء بخلال من عود أو حديد .

أبو بكر : صدقت ؛ والله إنه لمنبر أبيك لا منبر أبي ، فبعث عليّ إلى أبي بكر ؛ إنه غلام حدَثٌ ، وإنا لم نأمره ، فقال أبو بكر : صدقت ، إنا لم نتهمك .

قال أبو بكر : وروى أبو زيد، عن حباب بن يزيد، عن جرير، عن المغيرة أنّ سلْمان والزبير وبعضَ الأنصار كان هواهم أن يبايعوا عليا بعد النبيّ صلى الله عليه وآله ، فلما بويع أبو بكر، قال سلْمانُ للصحابة: أصبتم الخير؛ ولكن أخطأتم المعدِن. قال : وفى رواية أخرى : أصبتم ذا السنّ منكم، ولكنكم أخطأتم أهلَ بيت نبيّكم. أما لو جعلتموها فيهم ما اختلف منكم اثنان ولأكلتموها رَغَداً .

قلت : هذا الخبر هو الذى رواه المتكلمون فى باب الإمامة عن سلْمان أنه قال : « كرديد ونكرديد »، تفسره الشيعة ، فتقول : أراد أسلمتم وما أسلمتم ، ويفسره أصحابنا فيقولون معناه : أخطأتم وأصبتم .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد ، قال : حدثنا محمد بن يحيى ، قال : حدثنا غسّان ابن عبد الحميد ، قال : لما أكثر فى تخلف عليّ عن البيعة، واشتدّ أبو بكر وعمر فى ذلك، خرجت أم مِسْطح بن أثاثة، فوقفت عند قبر النبي صلى الله عليه وآله ونادته : يارسول الله !

قَدْ كان بعدك أنباء وهَيْنَمةٌ لو كنتَ شاهِدَها لم تكثر الخطَبُ[(١)]
إنا فقدناك فَقْدَ الأرض وابلها فاختلّ قومك، فاشهدهم ولا تَغِبِ

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز : وسمعت أبا زيد عمر بن شبّة يحدِّث رجلا بحديث لم أحفظ إسنادَه ، قال : مرّ المغيرة بن شعبة بأبي بكر وعمر ، وهما جالسان على باب النّبي حين قُبِض، فقال : مايقعدكما ؟ قالا : ننتظر هذا الرجل يخرج فنبايعه ـ يعنيان عليا ـ فقال : أتريدون أن تنظروا حبَل الحَبَلة[(٢)] من أهل هذا البيت ! وسِّعُوها فى قريش تتسع .

---

(١) الهينمة : الصوت الخفى . وفى اللسان ـ ونسب البيتين إلى فاطمة . « وهنبثة » والهنبثة : الاختلاط فى القول .

(٢) الحبلة فى الأصل : الكرْمة ؛ قيل : معناه حمل الكرْمة قبل أن تبلغ ؛ ولعله كناية عن صغر سن عليّ .

قال : فقاما إلى سَقِيفة بنى ساعدة ، أو كلاما هذا معناه .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو جعفر محمد بن عبدالملك الواسطىّ، عن يزيد بن هارون، عن سفيان بن حسين، عن الزهرىّ، عن أنس بن مالك ، قال: لما مرض رسول الله مرضه الذى مات فيه أتاه بلال يؤذنه بالصلاة، فقال بعد مرتين : يابلال، قد أبلغتَ ؛ فمن شاء فليصلّ بالناس ، ومن شاء فليدعْ .

قال : ورُفعت الستور عن رسول الله، فنظرنا إليه كأنّه ورقة بيضاء، وعليه خَمِيصة(١) له ، فرجع إليه بلال فقال : مُرُوا أبا بكر فليصلّ بالناس ، قال : فما رأيناه بعد ذلك عليه السلام .

وقال أبو بكر : وحدّثنى أبو الحسن علىّ بن سليمان النوفلىّ ، قال : سمعتُ أبيًا يقول : ذكر سعد بن عبادة يوماعليابعد يوم السقيفة، فذكر أمراًمن أمره نسيَه أبو الحسن، يوجب ولايتَه ، فقال له ابنه قيس بن سعد : أنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا الكلام فى علىّ بن أبى طالب، ثم تطلب الخلافة ، ويقول أصحابُك : منّا أمير ومنكم أمير ! لا كلمتك والله من رأسى بعد هذا كلمة أبدا .

قال أبو بكر : وحدّثنى أبو الحسن على بن سليمان النوفلىّ ، قال : حدثنى أبى، قال : حدّثنى شريك بن عبد الله ، عن إسماعيل بن خالد ، عن زيد بن علىّ بن الحسين ، عن أبيه، عن جدّه ، قال: قال علىّ : كنت مع الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة له فى المحبوب والمكروه، فلما عزّ الإسلام، وكثُر أهله ، قال: ياعلىّ ؛ زد فيها: «على أن تمنعوا رسولَ الله وأهلَ بيته مما تمنعون منه أنفسكم وذراريكم » ، قال: فحملها على ظهور القوم ، فوفَى بها مَنْ وَفَى ، وهلك مَنْ هَلَكَ .

قلت : هذا يطابق مارواهُ أبو الفرج الأصفهانىّ فى كتاب ''مقاتل الطالبيين '' أن

---

(١) الخميصة : كساء أسود مربع ؛ له علمان .

جعفر بن محمد عليه السلام وقف مستترا فى خِفية ، يشاهد المحامل التى حُمِل عليها عبد الله ابن الحسن وأهلُه فى القيود والحديد من المدينة إلى العراق ، فلما مرُّوا به بكى ، وقال : ماوفت الأنصار ولا أبناء الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وآله ، بايَعهم على أن يمنعوا محمدا وأبناءه وأهله وذريتَه مما يمنعون منه أنفسهم وأبناءهم وأهلهم وذراريّهم ، فلم يفوا . اللهمّ اشدد وطأتك على الأنصار .

قال أبو بكر : وحدّثنا أبو سعيد عبد الرحمن بن محمد ، قال : حدثنا أحمد بن الحكم ، قال : حدثنا عبد الله بن وهب ، عن ليث بن سعد ، قال : تخلّف علىّ عن بيعة أبى بكر ، فأخرِج مُلَبَّباً[1] يُمْضَى به رَكْضاً ؛ وهو يقول : معاشرَ المسلمين ، علامَ تُضرب عنق رجل من المسلمين ، لم يتخلّفْ لخلاف ، وإنما تخلّف لحاجة ! فما مرّ بمجلس من المجالس إلا يقال له : انطلق فبايع .

قال أبو بكر : وحدّثنا علىّ بن جرير الطائىّ ، قال : حدثنا ابنُ فضل ، عن الأجلح ، عن حبيب بن ثعلبة بن يزيد ، قال : سمعت عليًا يقول : أما وربّ السماء والأرض ، ثلاثا ؛ إنه لعهد النبىّ الأمى إلىّ : « لتغدرَنّ بك الأمّة من بعدى » .

قال أبو بكر : وحدّثنا أبو زيد عمر بن شبّة بإسناد رفعه إلى ابن عباس ، قال : إنّى لأماشى عمر فى سكّة من سكك المدينـة ، يده فى يدى ، فقال : يابن عباس ، ماأظنّ صاحبَك إلا مظلوما ، فقلت فى نفسى : والله لايسبقُنى بها ، فقلت : ياأمير المؤمنين ، فارددْ إليه ظلامتَه . فانتزع يدَه من يدى ، ثم مرّ يهمهم ساعة ثم وقف . فلحقته فقال لى : يابن عباس ؛ ماأظنّ القوم منعهم من صاحبك إلا أنّهم استصغروه ؛ فقلت فى نفسى : هـذه شرّ من الأولى ؛ فقلت : والله مااستصغره الله حين أمرَه أن يأخذ سورة براءة من أبى بكر .

***

---

(١) يقال : لبب فلان فلاناً : أخذ بتلبيبه ، أى جمع ثيابه عند صدره ونحره ثم جره .

[ذكر أمر فاطمة مع أبي بكر]

فأما مارواه البخاري ومسلم في الصحيحين[١] من كيفية المبايعة لأبي بكر بهذا اللفظ الذي أورده عليك؛ و بإسناد إلى عائشة: أن فاطمة والعباس أتيا أبا بكر ،التمسان ميراثهما من النبي صلى الله عليه وآله ، وهما حينئذ يطلبان أرضه من فدك ، وسهمه من خيبر ، فقال لهما أبو بكر : إني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « إنا معشر الأنبياء لا نورث؛ ما تركناه صدقة ، إنما يأكل آل محمد من هذا المال » ؛ وإني والله لا أدع أمرًا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنعه إلا صنعته. فهجرته فاطمةُ ولم تكلمه في ذلك حتى ماتت. فدفنها علي ليلا ، ولم يؤذن بها أبا بكر . وكان لعلي وجه[٢] من الناس في حياة فاطمة . فلما توفيت فاطمة انصرفت وجوهُ الناس عن علي[٣]، فمكثت فاطمة ستة أشهر ثم توفيت — فقال رجل للزهري وهو الراوي لهذا الخبر عن عائشة : فلم يبايعه علي ستة أشهر ؟ قال: ولا أحد من بني هاشم حتى بايعه علي . فلما رأى ذلك ضرع إلى مبايعة أبي بكر ، فأرسل إلى أبي بكر أن ائتنا ، ولا يأت[٤] معك أحد ، وكره أن يأتيه عمر لما عرف من شدته ، فقال عمر: لا تأتهم وحدك ، فقال أبو بكر : والله لآتينهم وحدي ، وما عسى أن يصنعوا بي ! فانطلق أبو بكر حتى دخل عَلَى علي ، وقد جمعَ بني هاشم عنده ؛ فقام علي . فحمِد الله وأثنى عليه بما هو أهلهُ ، ثم قال : أمّا بعد ، فإنه لم يمنعنا أنْ نبايعَك يا أبا بكر إنكارٌ لفضلك ، ولا منافسةٌ لخيرٍ ساقه الله إليك ، ولكنا كنا نرى أنّ لنا في هذا الأمر حقا ، فاستبدد تم به علينا . وذكر قرابته من رسول الله صلى الله عليه وآله وحقه ، فلم يزل عليّ يذكر ذلك حتى بكى أبو بكر ، فلما صمَت عليّ تشهّد أبو بكر، فحمِد الله وأثنى عليه بما هو أهلهُ . ثم قال: أما بعد

(١) صحيح البخاري ٢ : ١٨٦ ، ومسلم ٣ : ١٣٨٠ مع اختلاف في لفظ الحديث .

(٢) مسلم : « وجهة » .

(٣) مسلم : « استنكر علي وجوه الناس » .

(٤) مسلم : « ولا يأتنا » .

فوالله لقرابة رسول الله صلى الله عليه وآله أحبُّ إليَّ أنْ أصلها من قرابتى، وإنى والله ما آلوكم من هذه الأموال التى كانت بينى وبينكم إلا الخير ؛ ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «لا نورَث ما تركناه صدقة ؛ وإنما يأكل آل محمد فى هذا المال»، وإنى والله لا أترك أمراً صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا صنعتهُ إن شاء الله ، قال على : موعدك العشيّة للبيعة ، ، فلما صلّى أبو بكر الظهر ، أقبل على الناس ثم عذَرَ علياً[1] ببعض ما اعتذر به ، ثم قام علىّ فعظم من حقّ أبى بكر ، وذكر فضلهَ وسابقته، ثم مضى إلى أبى بكر فبايعه، فأقبل الناس إلى علىّ ، فقالوا : أصبتَ وأحسنت ،وكان علىّ قريباً إلى الناس حين قارب الأمر بالمعروف .

***

وروى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز ، قال : حدثنى أبو زيد عمر بن شبّة ، قال : حدثنى إبراهيم بن المنذر ، قال : حدثنا ابن وهب ، عن ابن لَهيعة ؛ عن أبى الأسود ؛ قال : غضب رجال من المهاجرين فى بَيْعة أبى بكر بغير مشورة ، وغضب علىّ والزبير ، فدخلا بيتَ فاطمة ، معهما السلاح ، فجاء عمر فى عِصابة ، فيهم أُسَيد بن حُضير ، وسلمة بن سلامة بن قُرَيش ؛ وهما من بنى عَبْد الأشهل ، فاقتحما الدارَ ، فصاحت فاطمة وناشدتْهما الله ، فأخذوا سيفيْهما ، فضربوا بهما الحجر حتى كسروهما ، فأخرَجهما عمر يسوقُهما حتى بايعا .

ثم قام أبو بكر، فخطب الناسَ ، ، فاعتذر إليهم ، وقال : إنّ بيعتى كانت فَلْتة وقَى الله شَرّها ، وخشِيت الفتنة ، وايمُ الله ما حرصت عليها يوماً قطّ ، ولا سألتها الله فى سرّ ولا علانية قطّ ، ولقد قُلّدتُ أمراً عظيما مالى به طاقة ، ولا يَدان ، ولقد وددت أنّ أقوى الناس عليه مكانى .

---

(١) مسلم : « وذكر شأن على وتخلفه عن البيعة ، وعذره الذى اعتذر إليه » .

فقبِل المهاجرون ، وقال علىّ والزبير : ما غضِبْنا إلا فى المشورة ، وإنّا لنرى أبا بكر أحقّ الناس بها ، إنه لصاحبُ الغار ، وثانى اثنين ، وإنا لنعرفُ له سِنه ، ولقد أمره رسول الله صلى الله عليه وآله بالصّلاة وهو حىّ .

قال أبو بكر : وذكر ابنُ شهاب بن ثابت أن قيس بن شماس أخا بنى الحارث من الخزرج ، كان مع الجماعة الذين دخلوا بيت فاطمة .

قال : وروى سعد بن إبراهيم أنّ عبد الرحمن بن عوف كان مع عمر ذلك اليوم ، وأنّ محمد بن مسلمة كان معهم ، وأنّه هو الذى كسر سيفَ الزبير .

قال أبو بكر : وحدّثنى أبو زيد عمر بن شبّة ، عن رجاله ، قال : جاء عمر إلى بيت فاطمة فى رجال من الأنصار ونفر قليل من المهاجرين ، فقال : والّذِى نفسى بيده لتخرجَنّ إلى البيعة أولأحرِقنّ البيت عليكم . فخرج إليه الزبير مصلتا بالسيف ، فاعتنقه زياد بن لَبيد الأنصارىّ ورجل آخر ، فنَدَرَ[1] السيفُ من يده ، فضرب به عمر الحجر فكسره ، ثم أخرجَهُم بتلابيبهم يساقون سَوْقاً عنيفا ؛ حتى بايعوا أبا بكر .

قال أبو زيد : وروى النضر بن شُمَيْل ، قال : حُمِل سيف الزبير لما نَدَر من يده إلى أبى بكر وهو على المنبر يخطب ، فقال : اضربوا به الحجر ، قال أبو عمرو بن حماس : ولقد رأيت الحجَر وفيه تلك الضربة ، والناس يقولون : هذا أثر ضربة سيف الزبير .

قال أبو بكر : وأخبرنى أبو بكر الباهلىّ ، عن إسماعيل بن مجالد ، عن الشعبىّ ، قال: قال أبو بكر : ياعمر ، أين خالد بن الوليد ؟ قال : هو هذا ، فقال: انطلقا إليهما ـ يعنى عليا والزبير ـ فأْتيانى بهما ، فانطلقا ، فدخل عمر ووقف خالد على الباب من خارج ، فقال عمر للزبير : ما هذا السيف؟ قال : أعددته لأبايع علياً، قال : وكان فى البيت ناس كثير ؛ منهم المقداد بن الأسود وجمهور الهاشميين ، فاخترط عمر السيف فضرب به صخرة فى البيت

(١) ندر : سقط .

فكسره ، ثم أخذ بيد الزبير ، فأقامه ثم دفعه فأخرجه ، وقال : ياخالد ، دونك هذا ، فأمسكه خالد — وكان خارجَ[1] البيت مع خالد جَمعٌ كثير من الناس، أرسلهم أبو بكر رِدْءا لهما — ثم دخل عمر فقال لعليّ : قم فبايع ، فتلكأ واحتبس[2] ، فأخذ بيده، وقال: قم، فأبى أن يقومَ ، فحمله ودفعه كما دفع الزبير ، ثم أمسكهما خالد ، وساقهما عمر ومَن معه سَوْقاً عنيفاً ، واجتمع الناس ينظرون ، وامتلأت شوارع المدينة بالرجال ، ورأت فاطمة ماصنع عمر ، فصرخت وولولت ، واجتمع معها نساء كثير من الهاشميّات وغيرهنّ ؛ فخرجت إلى باب حجرتها ، ونادت : ياأبا بكر ، ما أسرع ماأغرتُم على أهل بيت رسول الله ! والله لا أكلّم عمر حتى ألقى الله .

قال : فلما بايع عليّ والزبير ؛ وهدأت تلك الفَوْرة ، مشى إليها أبو بكر بعد ذلك فشفع لعمر ، وطلب إليها فرضيَت عنه .

قال أبو بكر : وحدّثنى المؤمل بن جعفر ، قال : حدثنى محمد بن ميمون ، قال: حدثنى داود بن المبارك ، قال : أتينا عبد الله بن موسى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب عليه السلام ونحن راجعون من الحجّ فى جماعة ، فسألناه عن مسائلَ ، وكنت أحدَ مَنْ سأله ، فسألته عن أبى بكر وعمر ، فقال : أجيبك بما أجاب به جَدّى عبد الله ابن الحسن ، فإنه سئل عنهما ، فقال : كانت أمّنا صِدّيقة ، ابنة نبيّ مرسل ، وماتت وهى غضبى على قوم ، فنحن غِضاب لغضبها .

قلت : قد أخذ هذا المعنى بعض شعراء الطالبيِّين من أهل الحجاز ؛ أنشدنيه النقيب جلال الدين عبد الحميد بن محمد بن عبد الحميد العَلَويّ قال : أنشدنى هذا الشاعر لنفسه — وذهب عنى أنا اسمه — قال :

يا أبا حفص الهوَيْنَى وما كنـ ـت مليًّا بذاك لولا الحِمَامُ

---

(١) ب : « فى خارج البيت » . (٢) احتبس : توقف .

أتموتُ البتولُ غضْبَى ونَرضى ما كذا يصنعُ البنون الكرامُ !

يخاطب عمر ويقول له: مهلا ورُوَيدا[1] ياعمر ، أى ارفق واتَّئِدْ ولا تعنُف بنا. وما كنت مليًّا، أى وما كنت أهلا لأن تخاطَب بهذا وتستعطف ، ولا كنتَ قادرا على ولوج دار[2] فاطمة على ذلك الوجه الذى ولجتها عليه ، لولا أنّ أباها الذى كان بيتها يحترم ويصان لأجله مات فطمع فيها من لم يكن يطمع . ثم قال : أتموت أمّنا وهى غضبى ونرضى نحن ! إذاً لسنا بكرام ، فإنّ الولد الكريم يرضى لرضا أبيه وأمه ويغضب لغضبهما .

والصحيح عندى أنّها ماتت وهى واجِدة على أبى بكر وعمرَ ، وأنها أوصتْ ألّا يصلّيا عليها ؛ وذلك عند أصحابنا من الأمور المغفورة لهما ، وكان الأولى بهما إكرامَها واحترامَ منزلها لكنّهما خافا الفرقة ، وأشفقا من الفتنة، ففعلا ماهو الأصلحُ بحسب ظنّهما ؛ وكانا من الدين وقوة اليقين بمكان مكين ، لا شكّ فى ذلك ، والأمور الماضية يتعذّر الوقوف على عِلَلها وأسبابها ، ولا يَعلَم حقائقَها إلا مَنْ قد شاهدها ولابسها ، بل لعلّ الحاضرين المشاهدين لها يعلمون باطن الأمر ؛ فلا يجوز العدولُ عن حسن الاعتقاد فيهما بما جرى ؛ والله ولىّ المغفِرة والعفو ؛ فإنّ هذا لو ثبت أنّه خطأ لم يكن كبيرة ، بل كان من باب الصغائر التى لا تقتضى التبرُّؤ ، ولا توجب زوال التولِّى .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبّة ، قال : حدّثنا محمد بن حاتم ، عن رجاله، عن ابن عباس ، قال : مرّ عمر بعلىّ ، وأنا معه بفِناء داره فسلّم عليه ، فقال له علىّ : أين تريد ؟ قال : البقيع ، قال : أفلا[3] تصل صاحبك، ويقوم معك[3] ؟ قال : بلى، فقال لى علىّ : قم معه ، فقمت فمشيتُ إلى جانبه ، فشبك أصابعه فى أصابعى ، ومشينا قليلا ، حتى إذا خلّفنا البقيع قال لى : يابن عباس ، أما والله إنّ صاحبَك هذا لأَوْلَى الناس بالأمر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلّا أنّا خفناه على اثنين؛ قال ابن عباس : فجاء بكلام لم أجد بدًّا من

(١) ب : « رويدا » . (٢) ج : « بيت » .
(٣-٣) ب : « تصل جناحك وتقوم معك » .

مسألته عنه ، فقلت : ما هما يا أميرَ المؤمنين ؟ قال : خِفْناه على حداثة سنّه ، وحبّه بنى عبد المطلب .

قال أبو بكر : وحدّثنى أبو زيد ، قال : حدّثنى محمد بن عباد ، قال : حدّثنى أخى سعيد بن عباد ، عن الليث بن سعد ، عن رجاله ، عن أبى بكر الصديق أنّه قال : ليتنى لم أكشفْ بيتَ فاطمة ، ولو اعلن علىّ الحرب !

قال أبو بكر : وحدّثنا الحسن بن الربيع ، عن عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهرىّ ، عن علىّ بن عبد الله بن العباس عن أبيه ، قال : لما حضرتْ رسولَ الله صلى الله عليه وآله الوفاة ، وفى البيت رجالٌ فيهم عمر بن الخطاب ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ائتونى بدواةٍ وصحيفة ، أكتب لكم كتاباً لا تضلّون بعدى ، فقال عمر كلمة معناها أنّ الوَجَع قد غلَب على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم قال : عندنا القرآن حسبُنا كتاب الله ؛ فاختلف مَنْ فى البيت واختصموا ، فمِن قائل يقول : القول ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومِنْ قائل يقول : القول ما قال عمر ، فلما أكثرُوا اللغط واللغو والاختلاف ، غضِب رسول الله ، فقال : « قوموا ؛ إنه لا ينبغى لنبىّ أن يختلف عنده هكذا » ، فقاموا ، فمات رسول الله صلى الله عليه وآله فى ذلك اليوم ؛ فكان ابن عباس يقول : إنّ الرزيّة كلّ الرزيّة ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله — يعنى الاختلاف واللغط .

قلت : هذا الحديث قد خرّجه الشيخان محمد بن إسماعيل البخارىّ ، ومسلم بن الحجاج القشيرىّ فى صحيحيهما[1] ، واتفق المحدّثون كافة[2] على روايته .

* * *

قال أبو بكر : وحدّثنا أبو زيد ، عن رجاله ، عن جابر بن عبدالله ، قال : قال رسول الله

---

(١) صحيح مسلم : ١٢٥٩ (٢) ب : « جميعا » .

صلى الله عليه وآله : إنْ تولَّوها أبا بكر تجدُوه ضعيفا فى بَدَنه ، قويًا فى أمر الله ، وإن تولَّوها عمر تجدوه قويًّا فى بدنه قويا فى أمر الله ، وإن تولَّوها عليا ـ وما أراكم فاعلين ـ تجدوه هاديا مهديًّا ، يحملكم على المحجّة البيضاء ، والصراط المستقيم .

قال أبو بكر : وحدثنا أحمد بن إسحاق بن صالح ، عن أحمد بن سيّار ، عن سعيد بن كثير الأنصاريّ ، عن رجاله ، عن عبد الله بن عبد الرحمن ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله فى مرض موتِه أمّر أسامة بن زيد بن حارثة على جيش فيه جِلّةُ المهاجرين والأنصار ؛ منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير ، وأمَرَه أن يُغير على مؤتة حيث قتل أبوه زيد ، وأن يغزو وادِيَ فلسطين . فتثاقل أسامةُ وتثاقل الجيش بتثاقُلِه ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله فى مرضه يثقُل ويخِفّ ، ويؤكد القول فى تنفيذ ذلك البعث ؛ حتى قال له أسامة : بأبى أنت وأمى ! أتأذن لى أن أمكُث أياما حتى يَشفِيَكَ الله تعالى ! فقال : اخرج وسرْ على بركة الله ، فقال : يارسول الله ، إن أنا خرجت وأنت على هذه الحال خرجت وفى قلبى قَرْحة منك ، فقال : سر على النصر والعافية ، فقال : يارسول الله ، إنى أكره أنْ أسأل عنك الركبان ، فقال : انفُذ[1] لما أمرتُك به ، ثم أغمى على رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقام أسامة فتجهّز للخروج ، فلما أفاق رسول الله صلى الله عليه وآله سأل عن أسامة والبعث ، فأخبِر أنهم يتجهّزون ، فجعل يقول : « أنفذوا بعث أسامة ، لعن الله مَنْ تخلّف عنه » ، وكرر[2] ذلك ، فخرج أسامة واللواء على رأسه والصحابة بين يديه ، حتى إذا كان بالجُرف نزل ومعه أبو بكر وعمر وأكثر المهاجرين ؛ ومن الأنصار أُسَيد بن حُضَير وبشير بن سعد وغيرهم من الوجوه ، فجاءه رسولُ أمّ أيمن ، يقول له : ادخل فإنّ رسول الله يموت ، فقام من فوره ، فدخلَ المدينة واللواء معه ، فجاء به حتى ركزه بباب رسول الله ، ورسول الله قد مات فى تلك الساعة .

قال : فما كان أبو بكر وعمر يخاطبان أسامة إلى أن ماتا إلا بالأمير .

---

(١) انفذ : أى امض لوجهك .   (٢) ج : « وتكرر » .

(٦٧)

الأصْلُ:

ومن كلام له عليه السلام لما قلد محمد بن أبى بكر مصر فملكت عليه وقتل:

وَقَدْ أَرَدْتُ تَوْلِيَةَ مِصْرَ هَاشِمَ بْنَ عُتْبَةَ؛ وَلَوْ وَلَّيْتُهُ إِيَّاهَا لَمَا خَلَّى لَهُمُ الْعَرْصَةَ، وَلَا أَنْهَزَهُمُ الْفُرْصَةَ، بِلَا ذَمٍّ لِمُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، فَلَقَدْ كَانَ إِلَيَّ حَبِيباً، وَكَانَ لِي رَبِيباً.

***

[ذكر محمد بن أبى بكر وذكر ولده]

الشَّرْحُ:

أمّ محمد بن أبى بكر أسماء بنت عُمَيس بن النعمان بن كعب بن مالك بن قحافة بن خَثْعم؛ كانت تحتَ جعفر بن أبى طالب، وهاجرتْ معه إلى الحبشة، فولدت له هناك عبد الله ابن جعفر الجواد، ثم قتل عنها يوم مُؤْتة، فخلَف عليها أبو بكر الصدِّيق، فأولدها محمداً، ثم مات عنها، فخلَف عليها علىّ بن أبى طالب؛ وكان محمد ربيبه وخِرّيجَه، وجارياً عنده مَجْرَى أولادِه، رضَع الولاء والتشيُّع مذ زمن الصِّبا، فنشأ عليه؛ فلم يكن يعرف له أباً غير علىّ، ولا يعتقد لأحدٍ فضيلة غيره؛ حتى قال علىّ عليه السلام: محمد ابنى من صلب أبى بكر؛ وكان يكْنَى أبا القاسم فى قول ابن قتيبة (١). وقال غيرُه: بل كان يكْنَى أبا عبد الرحمن.

---

(١) فى المعارف ص ١٧٥.

وكان محمد من نُسَّاك قريش ؛ وكان ممن أعان على عثمان فى يوم الدَّار ؛ واختلِف : هل باشر قتلَ عثمان أم لا ! ومن ولد محمد: القاسم بن محمد بن أبى بكر فقيه الحجاز وفاضلُها؛ ومن ولد القاسم : عبد الرحمن بن القاسم بن محمد ؛ كان من فضلاء قريش ويكنَى أبا محمد؛ ومن ولد القاسم أيضاً أم فَرْوَة ، تزوجها الباقر أبو جعفر محمد بن علىّ ، فأولدها الصادق أبا عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام ؛ وإلى أم فَرْوة أشار الرضىّ أبو الحسن بقوله :

يفاخِرُنا قَوْمٌ بمَنْ لم نلدهمُ ... بتيمٍ إذا عُدَّ السوابق أوْ عَدِى (١)
وَيَنْسَوْنَ مَنْ لو قدَّمُوه لقَدَّمُوا ... عِذارَ جوادٍ فى الجيادِ مُقَـلَّدِ
فَتَى هاشمٍ بعـد النبىّ وباعُهَا ... لمَرْمى عُلًا أو نيلِ مجد وسودَدَ
ولولا علىّ ماعلَوْا سَرَوَاتِهـا ... ولا جَعْجَمُوا فيها بمرعًى وَمَوْرِدِ
أخـذنا عليكم بالنبىّ وفاطمٍ ... طلاعَ المساعى مِنْ مَقَامٍ وَمَقْعَدِ
وَطُلْنَا بِسِبطَىْ أحمـدٍ ووصيِّه ... رقابَ الورى مِنْ مُتْهِمِينَ ومُنجِدِ
وحُزْنا عتِيقاً وهو غايةُ فَخرِكُمْ ... بمولِد بنت القاسم بن محمـدِ
فَجَدٌّ نَبِىٌّ ثم جَـدٌّ خليفة ... فأكرم بجدَّينا : عتيقٍ وأحمدِ
وَمَا افتخَرَتْ بعدَ النبىّ بغيرِه ... يدٌ صَفَقَتْ يَوْمَ البِياع على يَدِ

قوله :

* ولولا علىّ ماعَلَوْا سَرَوَاتِها . . . * البيت

ينظر فيه إلى قول المأمون فى أبيات يمدح فيها عليًّا ، أولها :

ألامُ على حُبِّى الوصىّ أبا الحسنْ ... وذلك عندى من أعاجيبِ ذا الزَّمَنْ

والبيت المنظور إليه منها قوله :

---

(١) ديوانه لوحة ٩١ .

وَلَوْلَا ماعُدَّتْ لهاشم إمْرَةٌ ... وكان مدى الأيام يمضى ويُمْتَهَنْ

***

[هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ونسبه]

وأما هاشم بن عتبة بن أبى وقّاص مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زُهرة ابن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤى بن غالب ، فعمّه سعد بن أبى وقاص ، أحدُ العشرة ، وأبوه عُتْبة بن أبى وقّاص ، الذى كسر رَبَاعيَةَ[1] رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحُد ، وكلَمَ شفتيه وشجّ وجهه ، فجعل يمسح الدمَ عن وجهه ، ويقول : « كيف يُفلِح قوم خضبوا وجهَ نبيِّهم بالدم ، وهو يدعوهم إلى ربهم ! » ، فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾[2] .

وقال حسان بن ثابت فى ذلك اليوم :

إذا الله حَيَّا معشراً بفعالِهِمْ ... ونصرهِمُ الرحمنَ ربُّ المشارقِ[3]
فهدّكَ ربِّى ياعتيبَ بن مالك ... ولقّاكَ قبل الموت إحدَى الصواعِقِ[4]
بَسَطْتَ يميناً للنبىّ محمد[5] ... فدمّيت فاه قُطِّعَتْ بالبوارقِ[6]
فهلّا ذكرتَ الله والمنزل الّذِى[7] ... تصير إليه عند إحدَى الصفائقِ
فَمَنْ عاذِرِى من عبد عُذْرَةَ بعدما ... هَوَى فى دَجُوجِىٍّ شديدِ المضايق ![8]

---

(١) الرباعية : السن التى بين الثنية والناب .
(٢) سورة آل عمران ١٢٨ .
(٣) ديوانه ٢٩١ .
(٤) الديوان : « فأخزاك ربى » .
(٥) الديوان : « للنبى برمية » .
(٦) البوارق : السيوف .
(٧) الديوان : « فهلا خشيت الله » .
(٨) لم يذكر فى الديوان .

وأورثَ عارا فى الحياة لأهــــلِهِ ... وفى النار يوم البعث أمّ البَوائق[1]

وإنما قال ، « عبد عُذْرَة » لأنّ عتبة بن أبى وقاص وإخوتَه وأقاربَه فى نسبهم كلام، ذكر قوم من أهل النسب أنهم من عُذْرة ، وأنهم أدعياء فى قريش ؛ ولهم خبر معروف ، وقصة مذكورة فى كتب النسب .

وتنازَع عبدُ الله بن مسعود وسعد بن أبى وقّاص فى أيام عثمان فى أمرٍ فاختصما ، فقال سعد لعبد الله : اسكُت ياعبدَ هذيل ، فقال له عبدُ الله : اسكُتْ ياعبد عُذْرة .

وهاشم بن عتبة هو المِرْقال ، سمى المرقال ، لأنه كان يُرْقِل فى الحرب إرقالا؛ وهومن شِيعة علىّ ، وسنفصّل[2] مقتلَه ، إذا انتهينا إلى فصل من كلامه يتضمّن ذكر صِفّين .

***

فأما قوله : « لما خَلَى لهم العَرْصة » فيعنى عَرْصة مصر ؛ وقد كان محمــد رحمه الله تعالى : لما ضاق عليه الأمر ، ترك لهم مصر وظنّ أنه بالفِرار ينجو بنفسه ، فلم ينجُ وأخِذ وقُتِل .

وقوله : « ولا أنهزَهم الفُرصَة » ، أى ولا جعلهم للفرصة منتهزين . والهمزة للتعدية، يقال : أنهزت الفرصة ، إذا أنهزتُها غيرى .

***

ونحن نذكر فى هذا الموضع ابتداء أمرِ الذين ولّاهم علىّ عليه السلام مصر ، إلى أن ننتهى إلى كيفية ملك معاوية لها وقتل محمد بن أبى بكر ؛ وننقل ذلك من كتاب إبراهيم ابن سعد بن هلال الثقفى ، وهو كتاب " الغارات " .

---

(١) رواية الديوان :

لقَدْ كانَ حَرْباً فى الحَياةِ لِقَوْمِهِ ... وفى البَعْثِ بعدَ الموْتِ إحْدَى العَوائقِ

(٢) ا : « وسنذكر » .

[ولاية قيس بن سعد على مصر ثم عزله]

قال إبراهيم : حدَّثنا محمد بن عبد الله بن عثمان الثقفيّ ، قال : حدَّثني عليّ بن محمد بن أبي سيف ، عن الكلبيّ ، أنّ محمد بن أبي حُذيفة بن عُتْبة بن ربيعة بن عبد شمس ، هو الذي حرّض المصريين على قتل عثمان وندَبهم إليه ، وكان حينئذ بمصر ، فلما ساروا إلى عثمان وحصَرُوه ، وثَب هو بمصر على عامل عثمان عليها ، وهو عبد الله بن سعد بن أبي سرْح ، أحد بني عامر بن لؤيّ ، فطرده عنها ، وصلّى بالناس ؛ فخرج ابنُ أبي سَرْح من مصر ، ونزل على تخوم أرضها مما يَلي فِلسطين ، وانتظر مايكون من أمر عثمان ، فطلَع عليه راكب ، فقال له : ياعبد الله ، ماوراءك ؟ ماخبرُ الناس بالمدينة ؟ قال : قتل المسلمون عثمان ، فقال ابنُ أبي سَرْح : إنّا لله وإنا إليه راجعون ! ثم صنعوا ماذا ياعبد الله ؟ قال : بايعوا ابن عمّ رسول الله عليّ بن أبي طالب ، فقال ثانية : إنا لله وإنا إليه راجعون ! فقال الرجل : أرَى أنّ ولايةَ عليّ عدلَتْ عندك قتل عثمان ! قال : أجلْ ، فنظر إليه متأمّلا له فعرفه ، فقال أظنّك عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح ، أمير مصر ! قال : أجل ، قال : إن كانتْ لك في الحياة حاجة فالنّجاء النّجاء ؛ فإنّ رأيَ عليّ فيك وفي أصحابك إن ظفر بكم قتلكم أو نفاكم عن بلاد المسلمين ؛ وهذا أمير تقدّم بعدي عليكم . قال : ومَن الأمير ؟ قال : قيس بن سعد بن عبادة . فقال ابنُ أبي سَرْح : [1] أبعَدَ الله [1] ابن أبي حذيفة ! فإنّه بَغَى على ابن عمّه ، وسعى عليه ، وقد كان كفَلَه وربّاه ، وأحسن إليه ، وأمِنَ جواره ؛ فجهّز الرجال إليه حتى قُتِل ، ووثب على عامله .

وخرج ابن أبي سَرْح حتى قدِم على معاوية بدمشق .

قال إبراهيم : وكان قيس بن سعد بن عبادة من شيعة عليّ ومناصحيه [2] ؛ فلما ولِيَ الخلافة ، قال له : سِرْ إلى مصر فقد ولّيتُكها ، واخرج إلى ظاهر المدينة ، واجمعْ ثقاتك ومَنْ

(١ — ١) ساقط من ب .

(٢) ج : « وناصحيه » .

أحبيت أن يصحبك حتى تأتىَ مصر ومعك جند ، فإنّ ذلك أرعب لعدوك ، وأعز لوليك.
فإذا أنت قدمتها إن شاء الله ، فأحسِن إلى المحسِن ، واشتدّ[1] على المريب ، وارفُقْ بالعامة والخاصة فالرفق يُمْن .

فقال قيس : رحمك الله يا أمير المؤمنين ! قد فهمتُ ماذكرتَ ، فأمّا الجندُ فإنى أدعه لك ، فإذا احتجتَ إليهم كانوا قريباً منك ، وإن أردت بعثهم إلى وجهٍ من وجوهك كان لك عُدّة ، ولكنّى أسير إلى مصر بنفسى وأهل بيتى ؛ وأمّا ما أوصيتنى به من الرفق والإحسان فالله تعالى هو المستعانُ على ذلك .

قال : فخرج قيسٌ فى سبعة نفر من أهله حتى دخل مصر ، فصعِد المنبر ، وأمر بكتاب معه يُقْرأ على الناس ، فيه :

من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى مَنْ بلغه كتابى هذا من المسلمين . سلام عليكم ؛ فإنى أحمد الله إليكم الذى لا إله إلا هو .

أما بعد ؛ فإنّ الله بحسنِ صنعه وقدَرِه وتدبيره ، اختارَ الإسلام ديناً لنفسه وملائكته ورسله ، وبعث به أنبياءه إلى عباده ؛ فكان مما أكرم الله عزّ وجلّ به هذه الأمة وخصّهم به من الفضل أن بعث محمدا صلى الله عليه وسلم إليهم ، فعلّمهم الكتاب والحكمة والسّنة والفرائض وأدّبهم لكيما يهتدوا ، وجمعهم لكيلا يتفرّقوا ، وزكّاهم لكيما يتطهّروا ؛ فلما قضى من ذلك ماعليه ، قبضه الله إليه ، فعليه صلوات الله وسلامه ورحمته ورضوانه . ثم إن المسلمين من بعده استخلفوا أميرين منهم صالحَيْن ، فعملا بالكتاب والسّنة وأحييا السِّيرة ؛ ولم يعدُوَا السنة . ثم تُوُفّيَا رحمهما الله ، فولّى بعدهما والٍ أحدَث أحداثاً ، فوجدت الأمة عليه مقالا فقالوا ، ثمّ نقَموا فغيّروا ثم جاءونى فبايعونى ، وأنا أستهدِى الله الهدَى ، وأستعينه على التقوَى . ألا وإنّ لكم علينا العملَ بكتاب الله وسنة رسوله والقيام بحقه ، والنصح لكم بالغيب ، والله المستعان على ماتصفون ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(١) ب : « واشدد » .

وقد بعثتُ لكم قيسَ بن سعد الأنصارى أميراً ، فوازِروه وأعِينوه على الحقّ ، وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم ، والشدّة على مُرِيبكم ، والرّفق بعوامّكم وخواصّكم ؛ وهو ممّن أرضَى هَدْيَه ، وأرجو صلاحَه ونصحه . نسأل الله لنا ولكم عملا زاكيا ، وثوابا جزيلا ورحمة واسعة ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وكتبه عبدالله بن أبى رافع فى صفر سنة ست وثلاثين .

قال إبراهيم : فلما فرغ من قراءة الكتاب ، قام قيس خطيباً فحمِد الله وأثنى عليه ، وقال : الحمدُ لله الذى جاء بالحقّ ، وأمات الباطل ، وكَبَت الظالمين . أيّها الناس ؛ إنّا بايَعْنا خَيْرَ من نعلم من بعد نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله ؛ فقوموا فبايعوا على كتاب الله وسنة رسوله ، فإن نحن لم نعمل بكتاب الله وسنة رسوله فلا بيعة لنا عليكم .

فقام الناس فبايعوا ، واستقامت مصر وأعمالها لقيس ، وبعث عليها عماله ؛ إلاّ أنّ قريةً منها قد أعظمَ أهلُها قتل عثمان ، وبها رجل من بنى كنانة يقال له يزيد بن الحارث ، فبعث إلى قيس : إنّا لا نأتيك فابعث عُمّالك ، فالأرض أرضُك ؛ ولكن أقِرّنا على حالنا حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس .

ووثب محمد بن مسلمَة بن مخلَّد بن صامت الأنصارىّ فنعَى عثمان ، ودعا إلى الطلب بدمه ؛ فأرسل إليه قيس : ويحك ! أعلىّ تَثِب ! والله ما أحبّ أن لى ملك الشام ومصر وأنّى قتلتك ! فاحقِنْ دمك . فأرسل إليه مسلَمَة : إنى كافٌّ عنك مادمتَ أنتَ والى مصر .

وكان قيس بن سعد ذا رأيٍ وحَزْم ، فبعث إلى الذين اعتزلوا : إنى لا أُكرِهكم على البيْعة ، ولكنى أدَعُكم وأكفّ عنكم . فهادنهم وهادَن مسلمة بن مخلَّد ، وجبَى الخراج ؛ وليس أحد ينازعه .

***

قال إبراهيم : وخرج عليّ عليه السلام إلى الجمل ؛ وقيس على مصر ، ورجع من البصرة إلى الكوفة ، وهو بمكانه ، فكان أثقلَ خلق الله على معاوية لقرب مصر وأعمالها من الشام ، ومخافةَ أن يقبِلَ عليّ بأهل العراق ، ويقبِلَ إليه قيس بأهل مصر ؛ فيقع بينهما. فكتب معاوية إلى قيس ، وعليّ يومئذ بالكوفة قبل أن يسيرَ إلى صِفّين :

من معاوية بن أبي سُفيان إلى قيس بن سعد . سلام عليك ، فإني أحمدُ إليك الله الذى لا إله إلا هو .

أما بعد؛ فإنكم إن كنتم نقِمتم على عثمان فى أثَرَةٍ رأيتموها ، أو ضربة سوط ضربَها ، أو فى شتمه رجلا ، أو تعييره واحداً ، أو فى استعماله الفتيانَ من أهله ــ فإنكم قد علمتم إن كنتم تعلمون ، أنّ دمه لم يحلّ لكم بذلك ؛ فقد ركبتمْ عظيماً من الأمر ، وجئتم شيئا إدًّا ، فتب ياقيس إلى ربك ، إن كنت من المجلبين على عثمان ؛ إن كانت التوبة قبل الموت تغنى شيئا . وأما صاحبُكَ فقد استيقنا أنه أغرى الناس بقتله ، وحملهم على قتله حتى قتلوه ، وأنه لم يسلَم من دمِه عُظم قومك ، فإن استطعتَ ياقيس أن تكونَ مِمّن يطلب بدم عثمان فافعل ، وتابِعْنا علىَ علىّ فى أمرنا . هذا ولك سلطان العِراقين إنْ أنا ظفرتُ مابقيت ؛ ولمن أحببت من أهل بيتك سلطان الحجاز مادام لى سلطان ، وسَلْنى عن غير هذا مما تحبّ ، فإنك لاتسألُنى شيئا إلّا أتيتهُ ؛ واكتب إلىّ رأيك فيما كتبتُ إليك .

فلما جاء إليه كتابُ معاوية أحبّ أن يدافعه ، ولا يبدى له أمرَه ، ولا يعجّل له حربه ، فكتب إليه :

أما بعدُ؛ فقد وصل إلىّ كتابُك ، وفهمتُ الذى ذكرتَ من أمر عثمان ؛ وذلك أمرٌ لم أقاربه . وذكرتَ أنّ صاحبي هو الذى أغرَى الناسَ بعثمان ودسّهم إليه حتى قتلوه ؛ وهذا أمرٌ لم أطّلع عليه . وذكرت لى أنّ عُظم عشيرتى لم تسلَم منْ دم عثمان ؛ فلعمرى إنّ أولى

الناس كان فى أمره عشيرتى ، وأمّا ماسألتنى من مبايعتك على الطلب بدمه ، وما عرضته علىّ فقد فهمته ، وهذا أمرٌ لى نظر فيه وفِكْر ، وليس هذا مما يُعجَل إلى مثله ، وأنا كافٌّ عنك؛ وليس يأتيك من قِبَلِى شىء تكرهُه ؛ حتى ترى ونرى ، إن شاء الله تعالى . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قال إبراهيم : فلما قرأ معاوية كتابه لم يرهُ إلا مقاربا مباعدا ، ولم يأمن أن يكونَ له فى ذلك مخادعا مكايداً ، فكتب إليه :

أمّا بعد ، فقد قرأتُ كتابك ؛ فلم أرك تدنو فأعُدَّك سِلْما . ولم أركَ تتباعد فأعُدّك حربا ، أراك كحبل الجَرُور ؛ وليس مثلى يصانَع بالخداع ، ولا يُخدَع بالمكايد ، ومعه عدد الرجال وأعِنّة الخيل ، فإن قبلتَ الذى عرضتَ عليك فلك ما أعطيتُك ؛ وإنْ أنت لم تفعل ملأتُ مصر عليك خَيْلًا ورَجْلا . والسلام .

فلما قرأ قيس كتابه ، وعلم أنه لا يقبل منه المدافعة والمطاولة ، أظهر له ما فى نفسه ، فكتب إليه :

من قيس بن سعد ؛ إلى معاوية بن أبى سفيان :

أما بعد ، فالعجبُ من استسقاطك رأيى ، والطمع فى أنْ تسومنى ـ لا أبا لغيرك ـ الخروجَ من طاعة أوْلى الناس بالأمر ؛ وأقولهم بالحقّ ، وأهداهم سبيلا ، وأقربِهمْ من رسول الله وسيلةً . وتأمرُنى بالدخول فى طاعتك وطاعة أبعد الناس من هذا الأمر ؛ وأقولِهم بالزّور . وأضلِّهم سبيلا ، وأدناهم من رسول الله وسيلة ؛ ولديك قوم ضالّون مضلُّون . طواغيت من طواغيت إبليس . وأمّا قولُك إنك تملأ علىّ مصرَ خَيْلا ورَجْلا ؛ فلئن لم أشغلْك عن ذلك حتى يكون منك ، إنك لذو جِدّ . والسلام .

فلما أتى معاوية كتابُ قيس ؛ أيسَ وثقُل مكانه عليه ؛ وكان [1] أن يكون مكانه غيره أحبَّ إليه ، لما يعلم من قوته وتأبّيه [2] ونجدته ، واشتداد أمره على معاوية ؛ فأظهرَ للناس أنّ

(١) ج : « ورأى » .
(٢) ج : « وبأسه » .

قيساً قد بايعكم ، فادعوا الله له . وقرأ عليهم كتابه الذى لان فيه وقاربه ، واختلق كتابا نسبه إلى قيس فقرأه على أهل الشام :

للأمير معاوية بن أبى سفيان من قيس بن سعد :

أما بعد ؛ إنّ قَتْلَ عثمان كان حدَثاً فى الإسلام عظيما ؛ وقد نظرتُ لنفسى ودينى ، فلم أر يسعُنى مظاهرة قوم قتلوا إمامهم مسلما محرِماً برّاً تقياً ، فنستغفر الله سبحانه لذنوبنا ، ونسأله العصمةَ لديننا . ألا وإنّى قد ألقيت إليكم بالسّلام ، وأجبتُك إلى قتال قَتَلَة إمام الهدى المظلوم ؛ فاطلب مِنّى ما أحببتَ من الأموال والرجال أعجّله إليك إن شاء الله. والسلام على الأمير ورحمة الله وبركاته .

قال : فشاع فى الشام كلّها أنّ قيساً صالح معاوية ، وأتت عيونُ علىّ بن أبى طالب إليه بذلك ، فأعظمه وأكبره وتعجّب له ، ودعا ابنيه حسناً وحسيناً وابنه محمدا وعبد الله ابن جعفر ، فأعلمهم بذلك ، وقال : مارأيكم ؟ فقال عبد الله بن جعفر : ياأمير المؤمنين ، دَعْ ما يَريبُك إلى ما لا يريبُك . اعزلْ قيسا عن مصر . قال علىّ : والله إنى غيرُ مصدّق بهذا على قيس . فقال عبد الله : اعزِله يا أمير المؤمنين ، فإن كان ما قد قيل حقا فلا يعتزلْ لك أن عزلتَه ؛ قال : وإنهم لكذلك إذ جاءهم كتاب من قيس بن سعد ، فيه :

أمّا بعد ، فإنى أخبرُ يا أمير المؤمنين — أكرمك الله وأعزّك — إنّ قِبَلى رجالا معتزلين سألونى أن أكفّ عنهم وأدَعَهم على حالهم حتى يستقيمَ أمرُ الناس فنرى ويرون ، وقد رأيتُ أن أكفَّ عنهم ولا أعجّل بحربهم ، وأنْ أتألفهم فيما بين ذلك ؛ لعلّ الله أن يقبل بقلوبهم ، ويفرّقهم عن ضلالتهم إن شاء الله . والسلام

فقال عبد الله بن جعفر : يا أمير المؤمنين ، إنك إن أطعتَه فى تركهم واعتزالهم استشرى الأمرُ وتفاقمت الفتنة ، وقعدَ عن بيعتك كثير ممن تريده على الدخول فيها ، ولكن مُرْه بقتالهم . فكتب إليه :

أما بعد ؛ فسِرْ إلى القوم الذين ذكرت ، فإنْ دخلوا فيما دخل فيه المسلمون وإلا فناجزْهم ، والسلام .

قال : فلما أتى هذا الكتاب قيساً فقرأه لم يتمالك أن كتبَ إلى علىّ :

أما بعدُ ياأمير المؤمنين ، تأمُرنى بقتال قوم كافّين عنك ، ولم يمدُّوا يداً للفتنة ، ولا أرصدوا لها ، فأطعْنى ياأمير المؤمنين ، وكُفّ عنهم ، فإنّ الرأىَ تركهم ، والسلام .

فلمّا أتاه هذا الكتاب ، قال عبدُ الله بن جعفر : ياأميرَ المؤمنين ، ابعث محمد بن أبى بكر إلى مصر يكفِكَ أمرها ، واعزِل قيساً ؛ فوالله لبلغنى أن قيسا يقول : إنّ سلطانا لايتمّ إلا بقتل مسلمة بن مخلّد لسلطان سوء ؛ والله ماأحبّ أنّ لى سلطان الشام مع سلطان مصر ، وأننى قتلت ابنَ مخلّد . وكان عبدالله بن جعفر أخا محمد بن أبى بكر لأمه ؛ وكان يحبّ أن يكونَ له إمْرَة وسلطان ؛ فاستعمل علىّ عليه السلام محمّد بن أبى بكر على مصر ، لمحبّتِه له ولهوى عبد الله بن جعفر أخيه فيه ؛ وكتب معه كتابا إلى أهل مصر ، فسار حتى قَدِمها ، فقال له قيس : مابالُ أمير المؤمنين ! ماغيّره ! أدخَلَ أحدٌ بينى وبينه ! قال : لا وهذا السلطان سلطانك . — وكان بينهمانسب ، كان تحت قيس قُرَيبة بنت أبى قحافة أخت أبى بكر الصديق ، فكان قيس زوجَ عمته — فقال قيس : لا والله لا أقيم معك ساعة واحدة ، وغضب حين عزله علىّ عنها ، وخرج منها مقبلاً إلى المدينة ولم يمض إلى علىّ بالكوفة .

قال إبراهيم : وكان قيسٌ مع شجاعته ونجدَتِه جواداً مفضالا ؛ فحدثنى علىّ بن محمد ابن أبى سيف ، عن هاشم ، عن عروة ، عن أبيه ، قال : لما خرج قيس بن سعد من مصر ، فمرّ بأهلِ بيت من بَلْقَيْن ، فنزل بمائهم ، فنحرَ له صاحبُ المنزل جزورا وأتاه بها ، فلما كان الغد نحر له أخرى ، ثم حبستْهم السماء اليوم الثالث ، فنحر لهم ثالثة ، ثم إنّ السماء أقلعَتْ

فلما أراد قيسٌ أن يرتحِل ، وضع عشرين ثوبا من ثياب مصر ، وأربعة آلاف درهم عند امرأة الرجل ؛ وقال لها : إذا جاء صاحبك ، فادفعى هذه إليه ، ثم رحل ؛ فما أتَتْ عليه إلا ساعةحتى لَحِقه الرجل صاحب المنزل على فَرَس، ومعه رمح، والثياب والدراهم بين يديه، فقال : ياهؤلاء خذوا ثيابَكم ودراهمكم فقال قيس : انصرف أيها الرجل ، فإنّا لم نكنْ لنأخذها ؛ قال : والله لتأخذنّها ، فقال قيس : لله أبوكَ ! ألم تـكرِمْنا وتحسنْ ضيافتنا فـكافأناك ! فليس بهـذا بأس ؛ فقال الرجل : إنّا لا نأخذ لِقِرَى الأضياف ثمنا ؛ والله لا آخذها أبدا . فقال قيس : أمّا إذ أبى ألّا يأخذَها نخذوها[1] ؛ فوالله مافضلنى رجل من العرب غيره .

قال إبراهيم: وقال أبو المنذر: مَرّ قيس فى طريقه برجل من بَلِيّ، يقال له: الأسود ابن فلان، فأكرمه، فلما أراد قيس أن يرتحِل وضع عند امرأته ثيابا ودراهم، فلما جاء الرجل دفعتْه إليه ، فلحقه فقال: ما أنا بائع ضيافتى ؛ والله لتأخُذَنّ هذا أو لأنفِذَنّ الرمحَ بين جنبيك! فقال قيس : ويحكم خذوه !

قال إبراهيم : ثم أقبلَ قيس حتى قدِم المدينة ، فجاءه حَسّانُ بن ثابت شامتاً به ـ وكان عثمانيا ـ فقال له : نَزَعك علىّ بن أبى طالب ، وقد قتلت عثمان ، فبقى عليك الإثم، ولم يحسِنْ لك الشكر ! فزجره قيس وقال : ياأعمَى القلب ، ياأعمى البصر ، والله لولا ألقى بين رهطى ورهطك حَرْبًا لضربت عنقك . ثم أخرجه من عنده .

قال إبراهيم : ثم إنّ قيساً وسهل بن حُنيف ، خرجا حتى قدِما على علىّ الـكوفة ، فخبّره قيس الخـبر وما كان بمصر فصدّقه . وشهد مع علىّ صِفين هو وسهل بن حنيف

قال إبراهيم : وكان قيس طُوالا أطول الناس وأمدّهم قامة ، وكان[2] سِناطا أصلع شيخا شجاعا مجرّبا مناصحا لعلىّ ولولده ، ولم يزل على ذلك إلى أن مات .

---

(١) ساقطة من ب .

(٢) السناط : الذى لا لحية له .

قال إبراهيم : حدّثنى أبو غسّان ، قال : أخبرنى علىّ بن أبى سيف ، قال : كان قيس بن سعد مع أبى بكر وعمر فى سفَر فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فكان ينفِق عليهما وعلى غيرهما ويُفضِل . فقال له أبو بكر : إنّ هذا لا يقوم به مالُ أبيك فأمسِك يدك . فلمّا قدموا من سفرهم قال سعد بن عبادة لأبى بكر : أردت أن تبخّل ابنى ! إنا لقومٌ لا نستطيع البخل .

قال : وكان قيس بن سعد يقول فى دعائه : اللهم ارزقنى حَمْداً ومجداً وشكراً ، فإنه لاحَمْدَ إلا بفَعال ، ولا مجد إلا بمال . اللهمّ وسّع علىّ فإنّ القليل لايسعنى ولا أسعه .

***

[ولاية محمد بن أبى بكر على مصر وأخبار مقتله]

قال إبراهيم : وكان عهد علىّ إلى محمد بن أبى بكر الذى قرئ بمصر :

هذا ما عَهِد عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى محمّد بن أبى بكر حين ولّاه مصر ؛ أمرَه بتقوى الله فِى السرّ والعلانية ، وخوف الله تعالى فى المَغيب والمشهد ، وأمرَه باللِّين على المسلم ، والغِلظ على الفاجر ، وبالعدلِ على أهل الذمّة ، وبالإنصاف للمظلوم ، وبالشدّة على الظالم ، وبالعفو عن الناس وبالإحسان ما استطاع ؛ والله يجزى المحسنين . وأمره أنْ يدعُوَ مَنْ قِبَلَه إلى الطاعة والجماعة ؛ فإنّ لهم فى ذلك من العاقبة وعظم المثوبة ما لا يُقْدَر قدرُه ولا يعرَف كنهُه . وأمره أن يجبىَ خَراج الأرض على ما كانت تُجبَى عليه من قبلُ ، ولا ينتقِص ولا يبتدع ، ثم يقسمه بين أهله كما كانوا يقسمونه عليه من قبل ؛ وإن تكُن لهم حاجة بواسِ بينهم فى مجلسه ووجهه ؛ ليكون القريب والبعيد عنده عَلَى سواء . وأمره أن يحكم بين الناس بالحقّ ، وأن يقوم بالقِسْط ، ولايتبع الهوى ، ولا يخاف [فى الله][1] لومة لائم ؛ فإن الله مع مَنِ اتقاه وآثر طاعته على مَنْ سواه .

(١) من ا ، ج .

وكتبه عبد الله بن أبي رافع مولى رسول الله لغُرّةِ شهر رمضان سنة ست وثلاثين .

قال إبراهيم : ثم قام محمد بن أبي بكر خطيباً ، فحمِد الله وأثنى عليه ، وقال : أما بعدُ فالحمد لله الذى هدانا وإياكم لما اختُلِف فيه من الحقّ ، وبصّرنا وإياكم كثيراً مما عَمِيَ عنه الجاهلون . ألا وإنّ أمير المؤمنين ولّانى أموركم ، وعَهِد إلىّ بما سمعتم ، وأوصانى بكثير منه مشافهة ، ولنْ آلوكم خيراً ما استطعت ؛ وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . فإن يكن ما ترون من آثارى وأعمالى طاعة لله وتقوى ، فاحمَدوا الله على ما كان من ذلك ؛ فإنه هو الهادى إليه ؛ فإن رأيتم من ذلك عملا بغير الحقّ ، فارفعوه إلىّ ، وعاتبونى عليه ، فإنى بذلك أسعد وأنتم بذلك جديرون . وفقنا الله وإياكم لصالح العمل .

قال إبراهيم : وحدّثنى يحيى بن صالح ، عن مالك بن خالد الأسدىّ ، عن الحسن بن إبراهيم ، عن عبد الله بن الحسن بن الحسن ، قال : كتب علىّ عليه السلام إلى أهل مصر لما بعث محمد بن أبي بكر إليهم كتابا يخاطبهم به[1] ، ويخاطب محمدا أيضا فيه :

أما بعد ، فإنى أوصيكم بتقوى الله فى سرّ أمركم وعلانيته ؛ وعلى أىّ حالٍ كنتم عليها ؛ وليعلم المرء منكم أنّ الدنيا دارُ بلاء وفناء ، والآخرة دار جزاء وبقاء ؛ فمن استطاع أن يؤثِرَ مايبقى على مايفنى فليفعل ؛ فإنّ الآخرة تبقى ، والدنيا تفنى . رزقنا الله وإياكم بَصَراً لما بصرنا وفهْما لما فهمنا ؛ حتى لا نقصر عما أمرَنا ، ولا نتعدّى إلى ما نهانا . واعلم يا محمد أنك وإن كنت محتاجا إلى نصيبك من الدنيا إلاّ أنك إلى نصيبك من الآخرة أحوج ، فإن عرَض لك أمران : أحدُهما للآخرة والآخر للدنيا ، فابدأ بأمر الآخرة ، ولتعظُم رغبتُك فى الخير ، ولتحسُن فيه نيتك ، فإنّ الله عزّ وجلّ يعطى العبد على قَدْرِ نيّته ؛ وإذا أحبّ الخير وأهله ولم يعمله كان إن شاء الله كمن عمله ، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين رجع من تَبُوك : إنّ بالمدينة لأقواماً ماسِرتُم من مسير ، ولاهبطتم من وادٍ إلا

---

(١) ب : « فيه » ، وما أثبته عن ا ، ج .

كانوا معكم؛ما حبَسهم إلّا المرض ـ يقول : كانت لهم نيّة ـ ثم اعلم يامحمد أني قد ولّيتُك أعظم أجنادى أهل مصر ، وولّيتك ما ولّيتك من أمر الناس ، فأنت محقوق أنْ تخافَ فيه على نفسك ، وتحذَر فيه على دينك ؛ ولو كان ساعة من نهارٍ . فإن استطعت ألا تُسخِط ربك لرضا أحدٍ من خلقه فافعل،فإنّ فى الله خَلَفاً من غيره ، وليس فى شىء خلفٌ منه،فاشتدّ على الظالم ، ولِنْ لأهل الخير ، وقرّبْهم إليك ، واجعلهم بطانتَك وإخوانك . والسلام .

قال إبراهيم : حدّثنى يحيى بن صالح ، عن مالك بن خالد ، عن الحسن بن إبراهيم ، عن عبد الله بن الحسن بن الحسن ، قال : كتب علىّ إلى محمد بن أبى بكر وأهل مصر :

أما بعد،فإنّى أوصيكم بتقوى الله والعمل بما أنتم عنه مسؤولون ، فأنتم به رهن،وإليه صائرون ، فإنّ الله عزّ وجلّ يقول : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [(١)] . وقال : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ ﴾ [(٢)] . وقال : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [(٣)] .

فاعلموا عباد الله أن الله سائلكم عن الصّغير من أعمالكم والكبير ؛ فإن يعذّب فنحن الظالمون ، وإنْ يغفر ويرحم فهو أرحم الراحمين . واعلموا أنّ أقربَ ما يكون العبد إلى الرّحمة والمغفرة حينما يعمل بطاعة الله ومناصحته فى التوبة ، فعليكم بتقوى الله عزّ وجلّ؛ فإنها تجمع من الخير مالا يجمع غيرها،ويُدْرَكُ بها من الخير مالا يدرَك بغيرها خير الدنيا وخير الآخرة ؛ يقول الله سبحانه: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ [(٤)] .

واعلموا عبادَ الله أنّ المؤمنين المتقين قد ذهبُوا بعاجل الخير وآجلِه ، شرَكُوا أهلَ الدنيا فى دنياهم

---

(١) سورة المدثر ٣٨ .

(٢) سورة آل عمران ٢٨ .

(٣) سورة الحجر ٩٢ ، ٩٣ .

(٤) سورة النحل ٣٠ .

ولم يشاركهم أهلُ الدنيا فى آخرتهم ؛ يقول الله عز وجلّ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾(١)؛سكنوا الدنيا بأفضل ماسكنت،وأكلوها بأفضل ما أكلت، شاركوا أهل الدنيا فى دنياهم،فأكلوا من أفضل ما يأكلون،وشربوا من أفضل مايشربون،ويلبسون من أفضل مايلبسون ، ويسكنون من أفضل مايسكنون ، أصابوا لذّة أهل الدنيا مع أهل الدنيا مع أنّهم غداً من جيران الله عزّ وجلّ،يتمنّون عليه،لا يردّ لَهُم دعوة،ولا ينقص لهم لذة . أمافى هذا مايشتاق إليه مَنْ كان له عقل !

واعلموا ـ عباد الله ـ أنّكم إذا اتقيتُم ربّكم،وحفظتم نبيّكم فى أهل بيته،فقد عبدتموه بأفضلِ ماعُبِد،وذكرتموه بأفضل ماذكر،وشكرتموه بأفضل ماشُكر،وأخذتم بأفضل الصبر، وجاهدتم بأفضَلِ الجهاد ؛ وإنْ كان غيرُكم أطولَ صلاة منكم ، وأكثر صياماً، إذا كنتم أتقى لله وأنصحَ لأولياء الله من آل محمد صلى الله عليه وآله وأخشع. واحذَرُوا عبادَ الله الموت ونزوله ، وخذولَهُ ، فإنه يدخل بأمر عظيم ؛ خيرٍ لا يكون معه شرّ أبدا، أو شرّ لا يكون معه خير أبدا. وليس أحد من الناس يفارق روحُه جسده، حتى يعلم إلى أىّ المنزلتين يصير ؛ إلى الجنّة أم إلى النار ! أعدوّ هو لله أم ولىّ له ! فإنْ كان وليا فُتِحت له أبواب الجنة، وشرع له طريقها ، ونظر إلى ماأعدّ الله عزّ وجل لأوليائه فيها ؛ فرغ من كلّ شغل ، ووضع عنه كل ثِقْل ؛ وإن كان عدوّا فتحت له أبوابُ النار ، وسهل له طريقها ، ونظر إلى ما أعدّ الله فيها لأهلها. واستقبل كل مكروه، وفارق كلّ سرور، قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾(٢) .

واعلموا عبادَ الله أنّ الموت ليس منه فوْت ، فاحـذروه وأعِدّوا له عُدّته ، فإنكم

---

(١) سورة الأعراف ٣٢ .

(٢) سورة النحل ٢٨ ، ٢٩ .

طُرَداء للموت ؛ إن قمتم أخذكم ، وإن هربتم أدرككم ؛ وهو ألزم لكم من ظِلّكم ، معقودٌ بنواصيكم ، والدُّنيا تطوَى من خَلْفِكم ؛ فأكثروا ذكرَ الموتِ عند ما تنازِعكم إليه أنفسكم من الشهوات ، فإنه كَفَى بالموت واعظا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكثِرُوا ذكرَ الموت فإنه هاذم اللذات[1] » .

واعلموا عبادَ الله أنّ ما بعد الموت أشدّ من الموت ؛ لمن لم يغفر الله له ويرحمه . واحذروا القَبْرَ وضمَّته وضيقه وظلمته ؛ فإنه الذى يتكلّم كلّ يوم : أنا بيت التراب ، وأنا بيت الغربة ، وأنا بيت الدود . والقبر روضة من رياض الجنة . أو حفرة من حفر النار . إنّ المسلم إذا مات قالت له الأرض مرحبا وأهلا ؛ قد كنت ممّن أحبّ أن تمشيَ على ظهرى ، فإذْ وليتك فستعلم كيف صنعى بك ! فيتّسع له مدّ بصره . وإذا دُفِن الكافر قالت له الأرض : لا مرحبا ولا أهلا ؛ قد كنت ممن أُبغِضُ أن تمشيَ على ظهرى ، فإذ وليتك فستعلم كيفَ صنعى بك ! فتنضمّ عليه حتى تلتقيَ أضلاعه .

واعلموا أن المعيشة الضَّنْك التى قال سبحانه : ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[2] هى عذابُ القبر ، فإنه يسلط على الكافر فى قبره حياتٍ عظام تنهش لحمه حتى يبعث ، لو أن تنيِّناً منها نفخ الأرض ما أنبت الزرع أبدا .

اعلموا عبادَ الله أنّ أنفسكم وأجسادَكم الرقيقة الناعمة التى يكفيها اليسير من العقاب ضعيفة عن هذا ، فإن استطعتم أن ترحموا أنفسكم وأجسادكم ممّا لا طاقة لكم به ، ولا صبْرَ لكم عليه ؛ فتعملوا بما أحبّ الله سبحانه وتتركوا ما كَرِهَ ؛ فافعلوا ؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله !

واعلموا — عباد الله — أنّ مابعد القبر أشدُّ من القبر ؛ يومٌ يشيب فيه الصغير ، ويسكر فيه

---

(١) هاذم : قاطع ، وبقية الحديث : « فإنه لا يكون فى كثير إلا قلله ، ولا فى قليل إلا أجزله » ، نقله فى الجامع الصغير ١ : ٩٠ .

(٢) سورة طه ١٢٤ .

الكبير ؛ وتذهل كلّ مرضعة عما أرضعت . واحذروا يوماً عبوسا قطريرا ، كان شرّه مستطيرا . أما إنّ شرّ ذلك اليوم وفزعه استطار حتى فزعت منه الملائكة الذين ليست لهم ذنوب ، والسبع الشداد ، والجبال الأوتاد ، والأرضون المهاد . وانشقت السماء فهى يومئذ واهية ، وتغيّرت فكانت وَرْدَةً كالدّهان ، وكانت الجبال سرابا ، بعد ما كانت صُمّا صلابا ؛ يقول الله سبحانه : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾[1] . فكيف بمن يعصيه بالسّمع والبصر ، واللسان واليد ، والفرج والبطن ؛ إن لم يغفر الله ويرحم !

واعلموا ـ عباد الله ـ أنّ مابعد ذلك اليوم أشدّ وأدهى ؛ نارٌ قعرُها بعيد ، وحرّها شديد ، وعذابها جديد ، ومقامِعُها حديد ، وشرابها صديد ، لا يفتر عذابها ، ولا يموت ساكِنها ؛ دارٌ ليست لله سبحانه فيها رحمة ، ولا يُسْمَع فيها دعوة ؛ ومع هذا رحمة الله التى وَسِعَتْ كلّ شىء ، لا تعجز عن العباد ، وجنّة عَرْضها كعَرْض السماء والأرض ، خير لا يكون بعده شرّ أبدا ، وشهوة لا تنفد أبدا ، ولذة لا تفنى أبدا ، ومجمع لا يتفرّق أبدا . قومٌ قد جاوَرُوا الرحمن ، وقام بين أيديهم الغِلمان ، بصحافٍ من ذهب فيها الفاكهة والريحان . وإنّ أهل الجنة يزورون الجبّار سبحانه فى كلّ جمعة ، فيكون أقربُهم منه على منابرَ من نور ، والذين يلُونهم على منابر من ياقوت ؛ والذين يلونهم على منابر من مِسْك ، فبيناهم كذلك ينظرون الله جلّ جلاله ، وينظر الله فى وجوههم ؛ إذ أقبلت سحابة تغشاهم فتمطِرُ عليهم من النعمة واللذة والسرور والبهجة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه ومع هذا ما هو أفضل منه ، رضوان الله الأكبر .

أما إنّا لو لم نخوّف إلا ببعض ماخوّفنا به لكنا محقوقين أنْ يشتدّ خوفُنا مما لاطاقة

---

(١) سورة الزمر ٦٨ .

لنا به ، ولا صبرَ لقوتنا عليه ؛ وأن يشتدّ شوقنا إلى ما لا غنى لنا عنه ولا بدّ لنا منه ؛ فإن استطعتم عباد الله أن يشتدّ خوفُكم من ربكم فافعلوا ؛ فإنّ العبد إنما تكون طاعته على قَدْرِ خوفه ؛ وإنّ أحسنَ الناس لله طاعة ، أشدُّهم له خوفا .

وانظر يا محمد صلاتك كيف تصليها ؛ فإنما أنت إمامٌ ينبغى لك أن تتمها وأن تخففها وأن تصليها لوقتها ، فإنه ليس من إمام يصلى بقوم فيكون فى صلاته وصلاتهم نقص إلا كان إثمُ ذلك عليه ، ولا ينقص من صلاتهم شيئاً .

واعلم أنّ كلّ شىء من عملك يتبع صلاتك ، فمَنْ ضيّع الصلاة فهو لغيرها أشدُّ تضييعا . ووضوءك من تمام الصلاة ، فأْت به على وجهه ؛ فالوضوء نصف الإيمان . أسأل الله الذى يَرَى ولا يُرَى وهو بالمنظر الأعلى ، أن يجعلنا وإياك من المتقين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

فإن استطعتم يا أهلَ مصر ، أن تصدّق أقوالُكم أفعالَكم ، وأن يتوافق سِرُّكم وعلانيتكم ، ولا تخالف ألسنتكم قلوبَكم فافعلوا . عصمنا الله وإياكم بالهدى ، وسلك بنا وبكم المحجّة الوسطى . وإياكم ودعوة الكذّاب ابن هند . وتأملوا واعلموا أنه لا سوى إمام الهدى وإمام الردى ، ووصىّ النبىّ وعدوّ النبىّ ؛ جعلنا الله وإياكم ممن يحب ويرضى . ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنى لا أخاف على أمتى مؤمنا ولا مشركا ؛ أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه ، وأمّا المشرك فيخزيه الله بشِرْكه ؛ ولكنّى أخاف عليهم كلّ منافق اللسان ؛ يقول ما تعرفون ، ويفعل ما تنكرون » .

واعلم يا محمد أنّ أفضلَ الفقه الورع فى دين الله ، والعمل بطاعته ، فعليك بالتقوى فى سِرّ أمرك وعلانيته ، أوصيك بسبعٍ هنّ جوامع الإسلام : اخشَ الله ولا تخشَ الناس فى الله ؛ وخيرُ القولِ ما صدّقه العمل ؛ ولا تقضِ فى أمر واحد بقضاءين مختلفين فيتناقضَ

أمرُك وتزيغَ عن الحق . وأحبَّ لعامة رعيَّتك ماتحبّه لنفسك ، واكره لهم ماتكره لنفسك. وأصلِحْ أحوال رعيّتك ، وخض الغمراتِ إلى الحق ، ولا تخف لَوْمَةَ لائم . وانصح لمن استشارَك ، واجعل نفسَك أسوة لقريب المسلمين وبعيدهم . جعل الله خلتنا وودنا خلّة المتقين وود المخلصين ، وجمع بيننا وبينكم فى دار الرضوان إخوانا على سرر متقابلين. إن شاء الله.

قال إبراهيم بن سعد الثقفيّ : فحدثنى عبد الله بن محمد بن عثمان ، عن علىّ بن محمد بن أبى سيف ، عن أصحابه ، أنّ عليًا لما كتب إلى محمد بن أبى بكر هذا الكتاب ، كان ينظر فيه ويتأدّب بأدبه ، فلما ظهر عليه عمرو بن العاص وقتله ، أخذ كتبه أجمع ، فبعث بها إلى معاوية ، فكان معاوية ينظر فى هذا الكتاب ويتعجّب منه ، فقال الوليد بن عُقْبة ،وهو عند معاوية ، وقد رأى إعجابه به: مُرْ بهذه الأحاديث أن تحرق ، فقال معاوية : مه ؛ لا رأىَ لك ! فقال الوليد : أفمِنَ الرأى أن يعلم الناس أنّ أحاديث أبى تراب عندك تتعلّمَ[1] منها! قال معاوية : ويحك ! أتأمرنى أن أحرِق علماً مثل هذا ! والله ما سمعت بعلم هو أجمع منه ولا أحكَم . فقال الوليد : إنْ كنتَ تعجب من علمه وقضائه فعلام تقاتله ! فقال : لولا أن أبا تراب قتل عثمان ثم أفتانا لأخذنا عنه . ثم سكت هُنَيهة ، ثم نظر إلى جلسائه فقال: إنّا لانقول: إن هذه من كتب علىّ بن أبى طالب ؛ ولكن نقول : هذه من كتب أبى بكر الصديق كانت عند ابنه محمد ، فنحن ننظر فيها ، ونأخذ منها .

قال : فلم تزلْ تلك الكتب فى خزائن بنى أميّة ؛ حتى ولىَ[2] عمر بن عبد العزيز ، فهو الذى أظهر أنّها من أحاديث علىّ بن أبى طالب عليه السلام .

***

قلت : الأليق أن يكون الكتاب الذى كان معاوية ينظرُ فيه ويعجب منه ،

---

(١) ج : « تعلم » .
(٢) ج : « تولى » .

ويفتى به ويقضى بقضاياه وأحكامه هو عهد علىّ عليه السلام إلى الأشتر، فإنه نسيج وحده، ومنه تعلّم الناس الآداب والقضايا والأحكام والسياسة ؛ وهذا العهد صار إلى معاوية لما سمّ الأشترَ ومات قبل وصوله إلى مصر ؛ فكان ينظر فيه ويعجب منه، وحقيق من مثله أن يقتنى فى خزائن الملوك.

قال إبراهيم : فلمّا بلغ عليًا عليه السلام أنّ ذلك الكتاب صارَ إلى معاوية، اشتدّ عليه حُزنا.

وحدثنى بكر بن بكار، عن قيس بن الربيع، عن ميسرة بن حبيب، عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن سلَمة، قال : صلّى بنا علىّ عليه السلام، فلما انصرف قال :

لَقَدْ عـثرتُ عَثْرَةً لاأعتِذرْ   سَوْفَ أكيسُ بعدها وأسْتَمِرْ[1]

* وأجمعُ الأمر الشَّتِيتَ المنتشرْ[2] *

فقلنا : مابالك ياأمير المؤمنين ؟ فقال : إنى استعملتُ محمد بن أبى بكر على مصر ؛ فكتب إلىّ أنه لاعلم لى بالسنّة، فكتبت إليه كتابا فيه أدب وسنّة، فقتل وأخذ الكتاب.

قال إبراهيم : فحدّثنى عبد الله محمد ؛ عن ابن أبى سيف المدائنىّ، قال : فلم يلبث محمد ابن أبى بكر شهرا كاملًا حتى بعث إلى أولئك المعتزلين الذين كان قيس بن سعد موادعًا لهم، فقال : ياهؤلاء، إما أن تدخلوُا فى طاعتنا، وإمّا أن تخرجوا من بلادنا. فبعثوا إليه: إنا لانفعل، فدعْنا حتى ننظر إلى مايصير إليه أمرُ الناس، فلا تَعجل علينا. فأبى عليهم، فامتنعوا منه وأخذوا حذرَهم. ثم كانت وقعة صِفين ؛ وهم لمحمد هائبون ؛ فلما أتاهم خبرُ معاوية وأهل الشام، ثمّ صار الأمر إلى الحكومة، وأنّ عليا وأهل العراق قد قفلوا عن معاوية والشام إلى عراقهم، اجترءوا على محمد بن أبى بكر، وأظهروا المنابذة له. فلما رأى محمدٌ ذلك بعثَ إليهم ابن جمْهان البلوىّ ومعه يزيد بن الحارث الكنانى فقاتلاهم،

(١) كاس يكيس وأكيس، من الكيس ؛ وهو ضد الحمق. واستمر، أى أقوى واشتد.
(٢) المنتشر : المتفرق.

فقتلوهما . ثم بعث إليهم رجلامن كَلْب فقتلوه أيضا .وخرج معاوية بن حُدَيْج من السكاسك يدعو إلى الطلب بدم عثمان ، فأجابه القوم وناس كثير آخرون ، وفسدت مصر على محمد ابن أبى بكر ؛ فبلغ عليا توثّبُهم عليه ، فقال ماأرى لمصر إلا أحد الرجلين : صاحبنا الذى عزلنا بالأمس - يعنى قيس بن سعد بن عبادة - أو مالك بن الحارث الأشتر . وكان علىّ حين رجع عن صفين ، ردّ الأشتر إلى عمله بالجزيرة ، وقال لقيس بن سعد : أقم أنتَ معى على شُرْطَتى حتى نفرُغ من أمر هذه الحكومة، ثم اخرج إلى أذر بيجان ، فكان قيس مقيما على شُرْطته، فلما أن انقضى أمر الحكومة كتب علىّ إلى الأشتر، وهو يومئذ بنصيبين:

أمّا بعد، فإنّك ممّن أستظهر به على إقامة الدين ، وأقمعُ به نَخْوة الأثيم، وأسُدُّ به الثّغرِ المَخُوف . وقد كنت ولّيتُ محمد بن أبى بكر مصرَ ، فخرجَتْ عليه خوارجُ ، وهو غلام حدَثُ السنّ ، ليس بذى تجرِبَةٍ للحروب، فاقدم[1] علىّ لننظر فيما ينبغى . واستخلِفْ على عملك أهلَ الثقة والنصيحة من أصحابك . والسلام .

فأقبل الأشتر إلى علىّ ، واستخلَف على عمله شبيب بن عامر الأزدىّ - وهو جدّ الكِرْمانىّ الذى كان بخُراسان صاحب نصر بن سيّار - فلما دخل الأشتر على علىّ حدّثه حديثَ مصر وخبّره خبرَ أهلها ، وقال له : ليس لها غيرُك ، فاخرج إليها رحمك الله ، فإنّى لاأوصيك اكتفاء برأيك ؛ واستعِنْ بالله على ماأهمّك ، واخلِط الشدّة باللين ، وارفُق ما كان الرِّفق أبلغَ ، واعتزِم على الشدّة حين لايُغنى عنك إلا الشدّة .

فخرج الأشترُ من عنده ،فأتى برحلِهِ،وأتت معاويةَ عيونُه فأخبروه بولاية الأشترمصر، فعظُم ذلك عليه ، وقد كان طمع فى مصر ، فعلم أنّ الأشتر إن قدم عليها كان أشدّ عليه من محمد بن أبى بكر ، فبعث إلى رجل من أهل الخراج يثق به ، وقال له إنّ الأشترَ قد ولِىَ مصر ، فإن كفيتنيه لم آخذْ منك خراجا مابقيتُ وبقيتَ ؛ فاحتلْ فى هلا كه ماقدرتَ عليه .

---

(١) يقال : قدم الرجل البلد يقدمه ، من باب تعب

فخرج الأشتر حتى انتهى إلى القُلْزُم[1] حيث تركَبُ السفن من مصر إلى الحجاز ، فأقام به ، فقال له ذلك الرجل ، وكان ذلك المكان مكانه : أيها الأمير ؛ هذا منزل فيه طعام وعَلَف ، وأنا رجلٌ من أهل الخراج ، فأقم واسترِحْ ، وأتاه بالطعام حتى إذ طَعِم سقاه شَرْبة عسل ؛ قد جعل فيها سُمًّا ، فلمّا شربها مات .

قال إبراهيم : وقد كان أميرُ المؤمنين كتبَ على يد الأشتر كتاباً إلى أهل مصر ؛ روى ذلك الشعبيّ عن صَعْصعة بن صُوحان :

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى مَنْ بمصر من المسلمين :

سلامُ الله عليكم ، فإنّى أحمد الله إليكم ، الذى لا إله إلا هو ؛ أما بعد فإنّى قد بعثت إليكم عبداً من عباد الله ، لا ينام أيّام الخوف ، ولا ينكِلُ عن الأعداء حِذارَ الدّوائر . لا نا كِلٌ من قدَم ، ولا واهٍ فى عزم ، من أشدّ عباد الله بأساً ، وأكرمهم حَسَباً ، أضرّ على الفُجّار من حريق النار ، وأبعدُ الناس من دَنَسٍ أو عارٍ ، وهو مالك بن الحارث الأشتر ، حسام صارمٌ ، لا نابِى الضّريبةِ ، ولا كليلُ الحدّ ، حليم فى السِّلْم ، رَزِينٌ فى الحرب ، ذو رأى أصيل ، وصبر جميل . فاسمعوا له وأطيعوا أمرَه ، فإنْ أمرَكم بالنَّفْر فانفِروا ، وإنْ أمرَكم أن تقيموا فأقيموا ، فإنه لا يُقدِمُ ولا يحجِمُ إلّا بأمرى . وقد آثرتُكم به على نفسى ؛ نصيحةً لكم ، وشدّةَ شكيمة[2] على عدوّكم . عصمكم الله بالهدى ، وثبّتكم بالتقوى ، ووفّقنا وإياكم لما يحب ويرضى . والسلام عليكم ورحمة الله .

قال إبراهيم : وروى جابر عن الشعبيّ قال : هلك الأشتر حين أتى عَقَبة أَفِيق[3] .

قال إبراهيم : وحدثنا وطبة بن العَلَاء بن المنهال الغنوىّ ، عن أبيه ، عن عاصم

---

(١) القلزم : مدينة بمصر على رأس الخليج المضاف إليها ، وأطلالها الآن قرب مدينة السويس .
(٢) الشكيمة : الأنفة والانتصار من الظلم .
(٣) أفيق ، بالفتح ثم الكسر : قرية من حوران .

ابن كُليب ، عن أبيه ، أن عليًا لما بعث الأشتر إلى مصر واليًا عليها ، وبلغ معاويةَ خبرُه ، بعث رسولًا يتبعُ الأشتر إلى مصر ، وأمره باغتياله ؛ فحمل معه مِزْوَدَيْن فيهما شراب ، وصحب الأشتر ، فاستسقى الأشترُ يومًا فسقاه من أحدهما ، ثم استسقى يومًا آخر منه فسقاه من الآخر وفيه سمٌ فشربه ، فمالت عنقه . وطُلِب الرجل ففاتهم .

قال إبراهيم : وحدّثنا محرز بن هشام ، عن جرير بن عبد الحميد ، عن مغيرة الضّبى ؛ أنّ معاوية دسّ للأشتر مولًى لآل عمر ، فلم يزل المولى يذكر للأشتر فضل علىّ وبنى هاشم ؛ حتى اطمأنّ إليه ، واستأنس به ، فقدِم الأشتر يومًا ثَقَلَه[1] أو تقدّم ثَقَلَه ، فاستسقى ماء ، فقال له مولى آل عمر[2] : وهل لك فى شربة سَويق ؟ فسقاه شربة سويق فيها سمّ فمات. وقد كان معاوية قال لأهل الشام لما دسّ إليه مولى آل عمر : ادعُوا على الأشتر ، فدَعَوْا عليه ؛ فلما بلغه موتُه قال : ألا ترَوْن كيف استُجيب لكم !

قال إبراهيم : قد رُوِى من بعض الوجوه أنّ الأشتر قُتِل بمصر بعد قتال شديد . والصحيح أنه سُقِى سمًا فمات قبل أن يبلغ مِصْر .

قال إبراهيم : وحدثنا محمد بن عبد الله بن عثمان ، عن علىّ بن محمد بن أبى سيف المدائنىّ ، أنّ معاوية أقبل يقول لأهل الشام : أيها الناس ، إنّ عليًا قد وجّه الأشتر إلى مصر ، فادعُوا الله أن يكفِيكموه ؛ فكانوا يدعُون عليه فى دُبُر كلّ صلاة ، وأقبل الذى سقاه السمّ إلى معاوية ، فأخبره بهلاك الأشتر ، فقام معاوية فى الناس خطيبًا ، فقال :

أمّا بعدُ ، فإنه كان لعلىّ بن أبى طالب يدان يمينان ، فقُطِعَتْ إحداهما يوم صِفِّين وهو عمّار بن ياسر ، وقد قُطِعت الأخرى اليوم ؛ وهو مالك الأشتر .

---

(١) الثقل : زاد المسافر .

(٢) ب : « مولى عمر »

قال إبراهيم : فلما بلغ علياً موتُ الأشتر ، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون ! والحمد لله رب العالمين! اللهمّ إنّى أحتسبه عندك ؛ فإنّ موته من مصائب الدهر. ثم قال: رحم الله مالكا؛ فلقد وفّى بعهده ؛ وقضى نحبَه ، ولقِيَ ربّه ؛ مع أنا قد وطّنا أنفسنا أن نصبِرَ على كلّ مصيبة بعد مصابنا برسول الله صلى الله عليه وسلم فإنها من أعظم المصيبات .

قال إبراهيم : وحدثنا محمد بن هشام المرادىّ ، عن جرير بن عبد الحميد ، عن مغيرة الضبي ، قال : لم يزلْ أمرُ علىّ شديداً حتى مات الأشتر ، وكان الأشتر بالكوفة أسودَ من الأحنف بالبصرة .

قال إبراهيم : وحدثنا محمد بن عبدالله ، عن ابن أبى سيف المدائنىّ ، عن جماعة من أشياخ النَّخَع ، قالوا : دخلنا على أمير المؤمنين حين بلغه موتُ الأشتر ، فوجدناه يتلهّف ويتأسف عليه ، ثم قال : لله دَرّ مالك ! وما مالك ! لو كان من جبل لكان فِنْدًا[1] ، ولو كان من حَجَرٍ لكان صَلْدًا ، أما والله ليهدّنّ موتك عالَماً، وليفرحنّ عالَماً ، على مثل مالكٍ فلتبكِ البواكى ! وهل مرجُوٌّ كمالك ! وهل موجود كمالك !

قال علقمة بن قيس النَّخَعىّ : فما زال علىّ يتلهّف ويتأسفُ ؛ حتى ظننا أنه المصاب به دوننا ، وعُرِف ذلك فى وجهه أياماً .

قال إبراهيم : وحدثنا محمد بن عبد الله، عن المدائنىّ، قال :حدثنا مولًى للأشتر،قال: لما هلك الأشتر أصيبَ[2] فى ثقله رسالةُ علىّ إلى أهل مصر :

من عبدالله أمير المؤمنين إلى النفر من المسلمين الذين غضبوا لله إذْ عُصِىَ فى الأرض ، وضرَب الجوْرُ برواقه على البرّ والفاجر ، فلا حقٌّ يُستراح إليه ، ولا منكرٌ يُتناهى عنه . سلام عليكم ؛ فإنى أحمَدُ إليكم الله الذى لا إله إلا هو .

---

(١) الفند : الجبل العظيم .
(٢) أصيب : أى وجد .

أمّا بعد، فقد وجّهتُ إليكم عبداً من عباد الله لا ينام فى الخوف، ولا ينكلُ من الأعداء حِذارَ الدوائر، أشدّ على الكافرين من حريق النار، وهو مالك بن الحارث الأشتر أخو مَذْحِج، فاسمعوا له وأطيعوا، فإنه سيف من سيوف الله، لا نابى الضريبة[1]، ولا كليلُ الحدّ؛ فإن أمركم أن تقيموا فأقيموا، وإن أمركم أن تنفِروا فانفروا، وإن أمركم أن تُحجِمُوا فأحجموا؛ فإنه لا يقدِم ولا يحجم إلا بأمرى، وقد آثرتكم به على نفسى، لنصيحته وشدة شكيمته على عدوّه، عصمكم الله بالحق، وثبّتكم بالتقوى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قال إبراهيم : وحدثنا محمد بن عبدالله، عن المدائنىّ، عن رجاله، أن محمد بن أبى بكر لما بلغه أن عليا قد وجّه الأشتر إلى مصر، شقّ عليه، فكتب عليه السلام إليه عند مَهلِك الأشتر :

أما بعد، فقد بلغنى موجِدتُك من تسريح الأشتر إلى عملك، ولم أفعلْ ذلك استبطاء لك عن الجهاد، ولا استزادة[2] لك منى فى الجدّ، ولو نزعت ما حوت يداك من سلطانك لوليتك ما هو أيسرُ مؤنة عليك، وأعجب ولاية إليك؛ إلا أن الرجل الذى ولّيتُه مصر، كان رجلاً لنا مناصحاً؛ وهو على عدوّنا شديد، فرحمة الله عليه، فقد استكمل أيامه، ولاقى حِمَامه؛ ونحن عنه راضون؛ فرضىَ الله عنه، وضاعفَ له الثّواب، وأحسنَ له المآب. فأصحِر[3] لعدوّك وشمّر للحرب، وادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة؛ وأكثر ذكرَ الله والاستعانة به، والخوفَ منه، يكفِكَ ما أهمّك، ويُعنْك على ما ولاك. أعاننا الله وإياك على ما لا ينال إلا برحمته؛ والسلام.

قال : فكتب محمد بن أبى بكر إليه جوابه :

---

(١) الضريبة : السيف وحده .
(٢) ج : « استرادة » ، بالراء ، أى رغبة .
(٣) أصحر لعدوك ؛ أى ابرز له فى العراء .

إلى عبد الله أمير المؤمنين من محمد بن أبى بكر :

سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ؛ أمّا بعدفقد انتهى إلىّ كتابُ أمير المؤمنين وفهمته ؛ وعرفتُ مافيه، وليس أحدٌ من الناس أشدَّ على عدوّ أمير المؤمنين، ولا أرأفَ وأرقّ لوليّه منّى . وقد خرجتُ فعسكرت، وأمّنتُ الناسَ ؛ إلّا مَنْ نَصبَ لنا حرْبا ، وأظهر لنا خِلافًا ، وأنا أتبع أمرَ أمير المؤمنين ، وحافظ ولاجىء إليه وقائم به ، والله المستعان على كلّ حالٍ ، والسّلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

قال إبراهيم : فحدّث محمد بن عبدالله بن عثمان، عن ابن سيف المدائنىّ، عن أبى جَهْضم الأزدىّ أنّ أهلَ الشام لما انصرفوا عن صِفّين ، كانوا ينتظرون مايأتى به الحكمان، فلمّا انصرفا وتفرّقا ، وبايع أهلُ الشام معاوية بالخلافة لم يزدد معاوية إلّا قوّة ؛ واختلف أهلُ العراق على علىّ بن أبى طالب فلم يكن همّ معاوية إلا مِصْر ؛ وقد كان لأهلها هائبًا لقربهم منه، وشدّتهم على مَنْ كان عَلَى رأىِ عثمان ، وقد كان علم أن بها قوماً قد ساءهم قتلُ عثمان ، وخالفوا عليًّا ؛ مع أنّه كان يرجو أن يكون له فيها معاونة إذا ظهر عليها على حرب علىّ، لوفور خَراجها ، فدعا علىّ مَنْ كان معه من قريش؛ وهم عمرو بن العاص السهمىّ، وحبيب ابن مَسلمة الفهرىّ وبُسْر بن أبى أرطاة العامرىّ، والضّحاك بن قَيس الفِهرىّ، وعبدالرحمن ابن خالدبن الوليد المخزومىّ . ودعامن غير قريش نحو شُرَحْبيل بن السِّمط الحميرىّ، وأبى الأعور السُّلَمىّ، وحمزة بن مالك الهمْدانىّ، فقال : أتدرون لماذا دعوتكم ؟ قالوا : لا ، قال : فإنّى دعوتكم لأمر هُوَ لى مُهِمّ ؛ وأرجو أن يكون الله عزّ وجلّ قد أعانَ عليه، فقال له القوم ــ أو من قال له منهم ــ : إنّ الله لم يُطْلعْ على غيبه أحدا، ولسنا ندرى ماتريد ! فقال عمرو بن العاص : أرى والله أن أمرَ هذه البلاد المصرية لكثرة خراجها وعدد أهلها قد أهمّك[1]،

---

(١) ج : « همك » .

هدعوتنا تسألنا عن رأينا فى ذلك، فإنْ كنتَ لذلك دعوتنا، وله جمعتنا، فاعزِم واصرِم، ونعم الرأى ما رأيت؛ إنّ فى افتتاحها عزّك وعزّ أصحابك، وذلّ عدوّك، وكَبْتَ أهلِ الخلاف عليك.

ـ قال معاوية: أهمّك ما أهمّك يابن العاص! وذلك أنّ عمراً كان بايع معاوية على قتال علىّ، وأن مصر له طُعْمة ما بقى ـ فأقبل معاوية على أصحابه، وقال: إنّ هذا ـ يعنى ابن العاص ـ قد ظنّ وحقّق ظنّه، قالوا: ولكنّا لا ندرى، ولعلّ أبا عبد الله قد أصاب؛ فقال عمرو: وأنا أبو عبد الله، إنّ أفضل الظنّون ما شابَه اليقينَ.

ثم إن معاوية حمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد؛ فقد رأيتم كيف صنعَ الله لكم فى حربكم هذه على عدوّكم! ولقد جاءوكم وهم لا يشكّون أنّهمُ يستأصِلُون بيضتَكم ويحوزون بلادكم، ما كانوا يرون إلّا أنّكم فى أيديهم، فردّهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال، وكفاكم مؤنتهم. وحاكمتموهم إلى الله فحكَمَ لكم عليهم. ثم جمَع كلمتنا، وأصلَح ذات بيننا، وجعلَهم أعداء متفرّقين؛ يشهدُ بعضهم على بعض بالكفر، ويسفِكُ بعضُهم دَم بعض؛ والله إنّى لأرجو أن يُتمّ الله لنا هذا الأمر؛ وقد رأيت أن أحاوِل حرب مصر، فماذا ترون؟

فقال عمرو بن العاص: قد أخبرتُك عمّا سألت، وأشرتُ عليك بما سمعت.

فقال معاوية: ماترون؟ فقالوا: نرى ما رأى عمرو بن العاص. فقال معاوية: إنّ عمراً قد عزم وصرم بما قال، ولم يفسّر كيف ينبغِى أن نصنع!

قال عمرو: فإنى مشير عليك بما تصنع، أرى أن تبعث جيشاً كثيفاً، عليهم رجلٌ صارم، تأمنُه وتثق به؛ فيأتىَ مصر فيدخلَها فإنه سيأتينا مَنْ كان على مِثْلِ رأينا من أهلها، فنظاهره على منْ كان من عدوّنا، فإن اجتمع بها جندك ومَنْ كان بها من شيعتك على مَنْ بها من أهل حربك، رجوتُ الله أن يُعزّ نصرَك، ويظهر فَلَجَك.

فقال معاوية : هل عندك شىء غير هـذا نعمله فيما بيننا وبينهم قبل هـذا ؟

قال : ما أعلمه .

قال معاوية : فإنّ رأيى غيرُ هذا ؛ أرى أن نكاتب مَنْ كان بها من شيعتنا ، ومَنْ كان بها من عدوّنا : فأما شيعتنا فنأمرُهم بالثبات على أمرِهم ونُمَنِّيهم قدومَنا عليهم ؛ وأمّا مَنْ كان بها من عدوّنا فندعوهم إلى صلحنا ، ونمنّيهم شكرَنا ، ونخوّفهم حربنا ، فإن صلَح لنا ماقبَلهم من غير حرب ولاقتال ، فذلك ما أحببنا ، وإلا حربُهم من وراء ذلك . إنك يابنَ العاص لَامْرُؤٌ(١) بورك لك فى العَجلة ، وبورك لِى فى التؤده .

قال عمرو : فاعمل بما أراك الله ، فوالله ما أرى أمرك وأمرهم يصيرُ إلّا إلى الحرب .

قال : فكتب معاوية عند ذلك إلى مسلمة بن مخلّد الأنصارىّ ، وإلى معاوية بن حُدَيج السكندىّ ، وكانا قد خالفا عليا :

أما بعد ؛ فإن الله عزّ وجلّ قد ابتعثكما لأمرٍ عظيم ؛ أعظمَ به أجرَكما ورفع درجتكما ومرتبتكما فى المسلمين . طلبتما بدم الخليفة المظلوم ، وغضبتما لله ، إذ تُرِك حكم الكتاب ، وجاهدتما أهلَ الظلم والعدوان ، فأبشرا برضوان الله ، وعاجلا نصرة أولياء الله ؛ والمواساة لكما فى دار الدنيا وسلطاننا ؛ حتى ينتهىَ ذلك إلى مايرضيكما ، ويؤدّى(٢) به حقكما . فالزما أمركما ، وجاهدا عدوّكما ، وادعوا المدبرين منكما إلى هداكما ؛ فكأنَّ الجيش قد أظلّ عليكما ، فاندفع كلُّ ماتكرهان ، ودام كلُّ ماتهويان ؛ والسلام عليكما ورحمة الله .

وبعث بالكتاب مع مولى له يقال له سُبَيع ، فخرج بكتابه حتى قدم به عليهما بمصر ،

---

(١) ساقطة من ا ، ب .

(٢) ا ، ج : « ويوفى » .

ومحمد بن أبى بكر يومئذ أميرُها قد ناصبه هؤلاء النفَر الحرب ؛ وهم هائبون الإقدام عليه؛ فدفع الكتاب إلى مسلمة بن مخلّد ، فقرأه فقال : القَ به معاوية بن حُديج ، ثم القنى به حتى أجيبَ عنّى وعنه . فانطلق الرسول بكتاب معاوية فأقرأه إيّاه ، ثم قال له إنّ مسلمة قد أمرنى أن أردّ الكتاب إليه لكى يجيبَ عنك وعنه . قال :قل له فليفعل ؛فأتى مسلمة بالكتاب . فكتب الجواب عنه وعن معاوية بن حُديج : أما بعدُ ، فإن هذا الأمر الذى قد ندبْنا له أنفسنا ، وابتغيا الله به على عدوّنا ، أمرٌ نرجو به ثواب ربّنا ،والنصرَ على مَنْ خالفنا ، وتعجيل النقمة على مَنْ سعى على إمامنا ، وطأطأ الرّكض فى مهادنا ،ونحن بهذه الأرض قد نفينا مَن كان بها من أهل البَغْى ، وأنهضنا مَنْ كان بها من أهل القسط والعدل وقد ذكرت موازرتَك فى سلطانك وذات يدك ؛ وبالله إنه لا من أجْلِ مالٍ نهضْنا،ولا إياه أردنا ، فإن يجمعَ الله لنا ما نريد ونطلب أو يرينا ماتمنّينا ، فإنّ الدنيا والآخرة لله رب العالمين ، وقد يثوبهما الله جميعاً عالماً من خَلْقه ، كما قال فى كتابه : ﴿ فَـآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ ﴾ .[1] عجّل لنا بخيلك ورَجْلك؛ فإن عدوّنا قد كان علينا جريئاً [2] ، وكنّا فيهم قليلا ، وقد أصبحوا لنا هائبين ، وأصبحنا لهم منابذين ، فإنْ يأتنا مددٌ من قِبَلك بفتح الله عليك ؛ ولا قوة إلا بالله ؛ وهو حسبنا ونعم الوكيل .

قال : فجاء هذا الكتاب معاويةَ وهو يومئذ بفلسطين ، فدعا النفر الذين سمّيناهم من قريش وغيرهم ، وأقرأهم الكتاب ، وقال لهم : ماذا ترون؟ قالوا: نرى أن تبعثَ إليهم جيشاً من قِبَلِك فأنت مفتتحها إن شاء الله ، بإذن الله .

قال معاوية : فتجهّزْ إليها يا أبا عبد الله ــ يعنى عمرو بن العاص ــ فبعثه فى ستة آلاف

---

(١) سورة آل عمران ١٤٨ .

(٢) كذا فى ج ، وفى ا ، ب : « حربا » .

فخرج يسير ، وخرج معه معاوية يودّعه ، فقال له معاوية عند وَدَاعه إياه : أوصيك بتقوى الله ياعمرو ، وبالرفق فإنه يُمْنٌ ، وبالتؤدة فإنّ العجلة من الشيطان ، وبأن تقبلَ من أقبل ، وتعفوَ عمّن أدبر ، أنظِرْه فإن تاب وأناب قبلتَ منه ، وإن أبى فإنّ السطوة بعد المعرفة أبلغُ فى الحجة ، وأحسن فى العاقبة . وادع الناسَ إلى الصلح والجماعة ، فإنْ أنت ظَفِرت فليكن أنصارُك أبرّ الناس عندك ، وكلّ الناس فأولِ حُسْناً .

قال : فسار عمرو فى الجيش حتى دنا من مصر ، فاجتمعت إليه العثمانية ، فأقام وكتب إلى محمد بن أبى بكر :

أما بعد ، فتنحّ عنى بدمك يابنَ أبى بكر ، فإنى لا أحبُّ أن يصيبَك منى ظُفر ، وإنّ الناسَ بهذه البلاد قد اجتمعُوا على خلافك ورفض أمرك ، وندِمُوا على اتباعك ، وهم مسلموك لو قد التقت حَلْقتَا البِطان ، فاخرج منها فإنى لك من الناصحين . والسلام .

قال : وبعث عمرو إلى محمد مع هذا الكتاب كتابَ معاوية إليه ؛ وهو :

أما بعد ؛ فإنّ غبّ(١) الظلم والبغى عظيم الوبال ، وإنّ سفكَ الدم الحرام لا يسلم صاحبه من النِّقمة فى الدنيا والتَّبِعة الموبقة فى الآخرة ، وما نعلم أحداً كان أعظمَ على عثمان بغياً ، ولا أسوأ له عيباً ، ولا أشدّ عليه خلافاً منك ؛ سعيتَ عليه فى الساعين ، وساعدت عليه مع المساعدين ، وسفكت دمَه مع السافكين ، ثم تظنّ أنى نائم عنك ، فتأتى بلدة فتأمن فيها وجلّ أهلها أنصارى ؛ يرون رأيى ، ويرفضون قولك ، ويستصرخوننى عليك . وقد بعثت إليك قوماً حِناقاً عليك ، يسفِكون دمك ، ويتقرّبون إلى الله عزّ وجلّ بجهادك ؛ وقد أعطوا الله عهداً ليقتُلنّك ؛ ولو لم يكن منهم إليك ماقالوا لقتلك الله بأيديهم أو بأيدى غيرهم من أوليائه ؛ وأنا أحذّرك وأنذرك ؛ فإنّ الله مُقِيد منك ، ومقتصٌّ لوليه وخليفته بظلمك له ، وبعيك عليه

---

(١) غبّ الظلم : عاقبته .

ووقيعتك فيه ، وعداوتك يوم الدار عليه ، تطعن بمشاقصك[1] فيما بين أحشائه وأوداجه؛ ومع هذا فإني أكره قتلك ، ولا أحب أن أتولى ذلك منك ؛ ولن يسلمك الله من النقمة أين كنت أبداً ، فتنح وانج بنفسك . والسلام .

قال : فطوى محمد بن أبي بكر كتابيهما ، وبعث بهما إلى علي عليه السلام ، وكتب إليه :

أما بعد يا أمير المؤمنين ؛ فإن العاصي ابن العاص ، قد نزل أداني مصر ، واجتمع إليه من أهل البلد من كان يرى رأيهم ؛ وهو في جيش جرار ، وقد رأيت ممن قبلي بعض الفشل ، فإن كان لك في أرض مصر حاجة فامددني بالأموال والرجال ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قال : فكتب إليه علي :

أما بعد ، فقد أتاني رسولك بكتابك ؛ تذكر أن ابن العاص قد نزل في جيش جرار ، وأن من كان على مثل رأيه قد خرج إليه . وخروج من كان يرى رأيه خير لك من إقامته عندك . وذكرت أنك قد رأيت ممن قبلك فشلا ، فلا تفشل وإن فشلوا؛ حصن قريتك ، واضمم إليك شيعتك ، وأذك الحرس في عسكرك ، واندب إلى القوم كنانة ابن بشر ، المعروف بالنصيحة والتجربة والبأس ، وأنا نادب إليك الناس على الصعب والذلول . فاصبر لعدوك وامض على بصيرتك ، وقاتلهم على نيتك ، وجاهدهم محتسباً لله سبحانه ؛ وإن كانت فئتك أقل الفئتين ؛ فإن الله تعالى يعين القليل ويخذل الكثير . وقد قرأت كتابي الفاجرين المتحابين على المعصية ، والمتلائمين على الضلالة ، والمرتشيين على الحكومة ، والمتكبرين على أهل الدين ؛ الذين استمتعوا بخلاقهم ؛ كما استمتع الذين من

---

(١) المشاقص : جمع مشقص ؛ وهو النصل العريض .

قبلهم بخلاقهم ، فلا يضرّنّك إرداعها وإبراقهما ، وأجبْهما إن كنت لم تجبهما بماهما أهله، فإنك تجد مقالا ماشئت . والسلام .

قال : فكتب محمد بن أبى بكر إلى معاوية جواب كتابه :

أما بعد ؛ فقد أتانى كتابُك تذكر من أمرِ عثمان أمراً لاأعتذر إليك منه ، وتأمرنى بالتنحّى عنك كأنك لى ناصح ، وتخوّفنى بالحرْب كأنك علىّ شفيق ؛ وأنا أرجو أن تكونَ الدائرة عليكم ، وأنْ يُهلِككم الله فى الوقعة، وأن ينزل بكم الذلّ ، وأن تولّوا الدُّبُر ؛فإن يكن لكم الأمر فى الدنيا فكم وكم لَعمْرِى من ظالم قدنصرتم وكمْ من مؤمن قد قتلتم ومثّلتم به ! وإلى الله المصير ، وإليه تردّ الأمور ؛ وهو أرحم الراحمين ؛ والله المستعانُ على ما تصفون .

قال : وكتب محمد بن أبى بكر إلى عمرو بن العاص جوابَ كتابه :

أما بعد ،فهمت كتابَك، وعلمت ماذكرت؛زعمت أنك تكرهأن يصيبَنى منك ظُفر، فأشهدبالله إنك لمن المبطلين .وزعمت أنك ناصحلى ، وأقسمإنك عندى ظنِين. وقدزعمت أن أهلَ البلد قدرفضونى ، وندِمُوا على اتباعى ؛فأولئك حزبك وحزب الشيطان الرجيم؛ وحسبنا الله رب العالمين ونعم الوكيل،وتوكلتِ على الله العزيزالرحيم، ربّ العرش العظيم.

***

قال إبراهيم : فحدثنا محمد بن عبدالله ، عن المدائنىّ ، قال: فأقبل عمرو بن العاص بقصد قَصْد مصر ، فقام محمد بن أبى بكر فى الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد ؛ يامعاشرَ المؤمنين ،فإنّ القوم الذين كانوا ينتهكون الحرْمة ، ويغشَوْن (١) الضلالة ، ويستطيلون بالجبرّية ، قد نصبوا لكم العداوة ، وساروا إليكم بالجنود ، فمن أراد الجنّة والمغفرة فليخرُجْ إلى هؤلاء القوم فليجاهدْهم فى الله . انتدِبوا(٢) رحمكم الله مع

(١) ب : « أرض الضلالة » .

(٢) انتدبوا : أى خفوا .

كنانة بن بشر . ثم ندب معه نحو ألفى رجل ، وتخلف محمد فى ألفين ، واستقبل عمرو بن العاص كنانة وهو على مقدّمة محمد ، فلما دنا عمرو من كنانة سرّح إليه الكتائب ؛ كتيبة بعد كتيبة ، فلم تأته من كتائب الشام كتيبة إلا شدّ عليها بمن معه فيضربها حتى يُلحقها بعمرو ، ففعل ذلك مرارا . فلما رأى عمرو ذلك بعث إلى معاوية بن حُدَيج الكندىّ ، فأتاه فى مثل الدَّهْم [١] . فلما رأى كنانة ذلك الجيش ، نزل عن فرسه ؛ ونزل معه أصحابه فضاربهم بسيفه ، وهو يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ﴾ [٢] . فلم يزل يضاربهم بالسيف حتى استُشهد رحمه الله .

قال إبراهيم : حدثنا محمد بن عبد الله ، عن المدائنىّ ، عن محمد بن يوسف ، أنّ عمرو ابن العاص لما قتَل كنانة أقبل نحو محمد بن أبى بكر ، وقد تفرّقَ عنه أصحابه ؛ فخرج محمد متمهّلا ، فمضى فى طريقه حتى انتهى إلى خَرِبة [٣] ، فأوى إليها ، وجاء عمرو بن العاص حتى دخل الفُسطاط ، وخرج معاويه بن حُدَيج فى طلب محمد ، حتى انتهى إلى عُلُوج [٤] على قارعة الطريق ، فسألهم : هل مرّ بهم أحد ينكرونه ؟ قالوا : لا ، قال أحدهم : إنى دخلت تلك الخَرِبة ، فإذا أنا برجل جالس . قال ابن حُدَيج : هو هو وربِّ الكعبة ، فانطلقوا يركضون ، حتى دخلوا على محمد ، فاستخرجوه وقد كاد يموت عطشا ، فأقبلوا به نحو الفُسْطاط .

قال : ووثب أخُوه عبد الرحمن بن أبى بكر إلى عمرو بن العاص ، وكان فى جُنْدِه ، فقال : لا والله لا يُقتَلُ أخى صبرا ، ابعث إلى معاوية بن حُدَيج فانْهَهُ ، فأرسل عمرو ابن العاص : أن ائتنى بمحمد ، فقال معاوية : أقتلتم كنانة بن بشر ، ابن عمى ، وأخلّى عن محمد!

---

(١) الدهم : العدد الكثير .
(٢) سورة آل عمران ١٤٥ .
(٣) الخربة : موضع الخراب .
(٤) علوج : جمع علج ؛ وهو الرجل من كفار العجم .

هيهات ! ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ [١] . فقال محمد: اسقونى قطرة من الماء، فقال له معاوية بن حُدَيج: لاسقانى الله إن سقيتُك قطرة أبدا؛ إنكم منعتمُ عثمان أن يشرب الماء حتى قتلتموه صائما محرِما ، فسقاه الله منَ الرَّحيق المختوم؛ والله لأقتلنك يابن أبى بكر وأنت ظمآن ، ويسقيك الله من الحميم والغِسْلين ، فقال له محمد : يابن اليهودية النَّساجة ؛ ليس ذلك اليوم إليك ولا إلى عثمان ، إنما ذلك إلى الله يسقى أولياءه ويظمِئُ أعداءه ؛ وهم أنت وقرناؤك ومَنْ تولَّاك وتولَّيته؛ والله لو كان سَيْفى فى يدى ما بلغتم منى ما بلغتم . فقال له معاوية بن حُدَيج : أتدرى ما أصنع بك ؟ أدخلك جَوْفَ هذا الحمار الميت ثم أحرقه عليك بالنار . قال : إن فعلتم ذاك بى فطالما فعلتم ذاك بأولياء الله ، وايمُ الله إنّى لأرجُو أن يجعل الله هذه النار التى تخوِّفنى بها برداً وسلاما ، كما جعلها الله على إبراهيم خليله، وأن يجعلها عليك وعلى أوليائك، كما جعلها على نمرود وأوليائه، وإنى لأرجو أن يُحْرِقَكَ الله وإمامك معاوية ، وهذا ـ وأشار إلى عمرو بن العاص ـ بنارٍ تلظّى ، كلّما خَبَتْ زادها الله عليكم سعيرا .فقال له معاوية بن حديج : إنى لا أقتلك ظلْماً ، إنما أقتلك بعثمان بن عفان، قال محمد : وما أنت وعثمان! رجل عَمل بالجوْر ، وبدّل حكم الله والقرآن ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [٢] ، ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [٣] ، ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [٤] ؛ فنقِمنا [٥] عليه أشياء عمِلها ، فأردنا أن يُخلع من الخلافة عَلناً ، فلم يفعل ، فقتله مَنْ قتله من الناس .

---

(١) سورة القمر ٤٣ .

(٢) سورة المائدة ٤٤ .

(٣) سورة المائدة ٤٥ .

(٤) سورة المائدة ٤٧ .

(٥) نقم عليه ، بكسر القاف : أنكر أمره .

فغضب معاوية بن حُدَيج ، فقدّمه فضرب عنقـه ، ثم ألقاه فى جَوْف حمار وأحرقه بالنار .

فلما بلغَ ذلك عائشة جَزِعت عليه جزعا شديدا ، وقنتَتْ فى دُبُر كلّ صلاة تدعو على معاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص ومعاوية بن حُديج ، وقبضت عيالَ محمد أخيها وولده إليها ، فـكان القاسم بن محمد من عيالها .

قال : وكان ابن حُدَيج ملعونا خبيثا يسبّ علىّ بن أبى طالب عليه السلام .

قال إبراهيم : وحدثنى عمرو بن حماد بن طلحة القنّاد ، عن علىّ بن هاشم ، عن أبيه ، عن داود بن أبى عوف ، قال : دخلَ معاوية بن حُدَيج على الحسن بن علىّ فى مسجد المدينة ، فقال له الحسن : ويلك يامعاوية ! أنت الذِى تسب أميرَ المؤمنين عليا عليه السلام ! أما والله لئن رأيتَه يوم القيامة ــ وما أظنك تراه ــ لترينّه كاشفا عن ساق ، يضرب وجوه أمثالك عن الحوض ضَرْبَ غرائب الإبل .

قال إبراهيم : وحدثنى محمد بن عبدالله بن عثمان ، عن المدائنىّ ، عن عبدالملك بن عُمير ، عن عبدالله بن شدّاد ، قال : حلفتْ عائشة لاتأكل شواء[(١)] أبدا بعد قَتْل محمد ، فلم تأكُلْ شِواء حتى لحقت بالله ، وماعثرت قطّ إلا قالت : تعِسَ معاوية بن أبى سفيان[(٢)] وعمرو بن العاص ، ومعاوية بن حُديج !

قال إبراهيم : وقد روى هاشم أن أسماء بنت عُمَيْس ، لما جاءها نعىُ[(٢)] محمد ابنها وما صُنِع به ، قامت إلى مسجدها ، وكَظَمت غيظها حتى تشخّبت[(٣)] دما .

قال إبراهيم : وروى ابن عائشة التيمىّ عن رجاله عن كثير النوّاء ، أن أبا بكر خرَج

---

(١) الشواء ، بالكسر والضم : ما شوى من اللحم وغيره .
(٢) نعاه له : أخبره بموته .
(٣) يقال : تشخب دماً : أى انفجر عرقه بالدم .

فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله فى غَزاة ، فرأت أسماء بنت عُمَيس وهى تحته ؛ كأنّ أبا بكر مخضَّبٌ بالحناء رأسَه ولحيته ، وعليه ثياب بيض ، فجاءت إلى عائشة فأخبرتْها ، فقالت : إنْ صدقت رؤياكِ فقد قُتِل أبو بكر ، إن خضابه الدم ، وإن ثيابه أكفانه ، ثم بكت ، فدخل النبىّ صلى الله عليه وآله وهى كذلك ، فقال : ما أبكاها ؟ فقالوا : يارسولَ الله ، ما أبكاها أحد ، ولكنّ أسماء ذكرتْ رؤيا رأتْها لأبى بكر ، فأخبِر النبىّ صلى الله عليه وآله ، فقال : «ليس كما عبّرت عائشة؛ ولكن يرجع أبو بكر صالحاً، فيلقى أسماء ، فتحمل منه بغلام ، فتسمّيه محمدا ، يجعله الله غيظاً على الكافرين والمنافقين » .

قال : فكان كما أخبر صلى الله عليه وسلم .

قال إبراهيم : حدّثنا محمد بن عبدالله ، عن المدائنىّ ، قال : فكتب عمرو بن العاص إلى معاوية بن أبى سفيان عند قتل محمد بن أبى بكر وكنانة بن بشر : أما بعد ، فإنا لقينا محمد بن أبى بكر وكنانة بن بشر فى جموع من أهلِ مصر ، فدعوناهم إلى الكتاب والسنّة ، فعصوا الحق ، فتهوّكوا[1] فى الضلال ، فجاهدناهم ، واستنصرنا الله جلّ وعزّ عليهم ، فضرب الله وجوههم وأدبارهم ، ومنَحَنا[2] أكتافهم ؛ فقتِل محمد بن أبى بكر وكنانة بن بِشر ، والحمد لله رب العالمين .

قال إبراهيم : وحدّثنى محمد بن عبد الله ، عن المدائنىّ ، عن الحارث بن كعب بن عبد الله بن قعين ، عن حبيب بن عبد الله ، قال : والله إنّى لعند علىّ جالسٌ إذ جاءه عبد الله بن معين وكعب بن عبدالله مِنْ قِبَل محمد بن أبى بكر يستصرِخانه قبل الوقعة؛ فقام علىٌّ فنادى فى الناس : الصلاة جامعة[3] ؛ فاجتمع الناس فصعِد المنبر ، فحمِد الله وأثنى

---

(١) المتهوك : المتحير ، وفى ب : « فهولوا » .

(٢) ج : « وأثخنا أكتافهم » .

(٣) ساقطة من ج .

عليه؛ وذكر رسول الله صلى الله عليه وآله، فصلّى عليه، ثم قال: أما بعدُ، فهذا صريخُ[1] محمد بن أبى بكر وإخوانكم من أهل مصر، قد سار إليهم ابنُ النابغة عدوّ الله وعدوّ مَنْ والاه، وولىّ مَنْ عادى الله، فلا يكونَنّ أهلُ الضلال إلى باطلهم، والركون إلى سبيل الطاغوت أشدّ اجتماعا على باطلهم وضلالتهم منكم على حقكم. فكأنكم بهم وقد بدءوكم وإخوانكم بالغزو، فاعجلوا إليهم بالمواساة والنصر عبادَ الله؛ إنّ مصر أعظم من الشام وخيرٌ أهلا، فلا تُغلَبوا على مصر؛ فإنّ بقاء مصر فى أيديكم عِزٌّ لكم، وكبتٌ لعدوّكم، اخرجوا إلى الجرَعة — قال: والجرَعة[2] بين الحيرة والكوفة — لنتوافى هناك كلّنا غدا إن شاء الله.

قال: فلما كان الغد، خرج يمشى، فنزلها بُكرة، فأقام بها حتى انتصف النهارُ، فلم يوافِه مائة رجل، فرجع. فلمّا كان العشىّ بعث إلى الأشراف فجمعهم، فدخلوا عليه القصر، وهو كئيب حزين، فقال: الحمدُ لله على ما قضَى مِنْ أمرٍ، وقدّر من فعل، وابتلانى بكم أيّتها الفرقة التى لا تطيع إذا أمرتُها، ولا تجيب إذا دعوتُها. لا أبا لغيركم! ماذا تنتظرون بنصركم، والجهاد على حقكم! الموت خيرٌ من الذلّ فى هذه الدنيا لغير الحقّ؛ والله إن جاءنى الموت — وليأتينى — لتجدُنَّنى لصحبتكم جِدَّ قالٍ.

ألا دين يجمعُكم! ألا حميّة تغضبكم! ألا تسمعون بعدوّكم ينتقص بلادَكم، ويشنّ الغارة عليكم! أو ليس عجباً أنّ معاوية يدعو الجُفاة الطَّغام الظلمة، فيتبعونه على غير عطاء ولا معونة، ويجيبونه فى السنة المرة والمرتين والثلاث، إلى أىّ وجه شاء، ثم أنا أدعوكم — وأنتم أولو النُّهى وبقيّة الناس — تختلفون وتفترقون عنّى، وتعصوننى وتخالفون علىّ!

---

(١) الصريخ هنا: المستغيث.

(٢) فى الأصول: «الجزعة» تصحيف.

فقام إليه مالك بن كعب الأرحبيّ ، فقال يا أميرَ المؤمنين ، اندب الناس مَعِي ؛ فإنه لا عِطْرَ بعد عَروس [1] ، وإن الأجر لا يأتى إلا بالكُرْه . ثم التفت إلى الناس وقال : اتقوا الله ، وأجيبوا دعوةَ إمامكم ، وانصروا دعوتَه ، وقاتلوا عدوَّكم ، إنا نسير إليهم يا أمير المؤمنين .

فأمر علىٌّ سعداً مولاه أن ينادِيَ : ألاَ سيرُوا مع مالك بن كعب إلى مصر ، وكان وجهاً مكروها ، فلم يجتمعوا إليه شهرا ، فلما اجتمَع له منهم ما اجتمع خرج بهم مالك ابن كعب ، فعسكرَ بظاهر الكوفة ، وخرج معه علىّ ، فنظر فإذا جميع مَنْ خرج نحو من ألفين ، فقال علىّ : سيرُوا ، والله ما أنتم ! ما إخالكم تدرِكون القوم حتى ينقضىَ أمرُهم !

فخرج مالك بهم وسار خمس ليال ، وقدم الحجاج بن غُزيّة الأنصارىّ على علىّ ، وقدِم عليه عبد الرحمن بن المسيّب الفَزارىّ من الشام ؛ فأمّا الفَزارىّ ، فكان عيناً لعلىّ عليه السلام ، لاينام ، وأما الأنصارىّ فكان مع محمد بن أبى بكر ؛ فحدثه الأنصارى بماعاين وشاهد ، وأخبره بهلاك محمد ، وأخبره الفزارىّ أنه لم يخرج من الشام حتى قَدِمت البشرى من قِبَل عمرو بن العاص ، يتبع بعضُها بعضاً بفتح مصر ، وقتل محمد ابن أبى بكر ، وحتى أذَّن معاوية بقتله على المنبر وقال : يا أميرَ المؤمنين ، مارأيتُ يوماًقطُّ سروراً مثل سرور رأيته بالشام حين أتاهم قَتْلُ محمد بن أبى بكر ، فقال علىّ : أما إنّ حزننا على قتله ، على قدر سرورهم به ؛ لا بل يزيدُ أضعافا .

قال : فسرّح علىٌّ عبد الرحمن بن شريح إلى مالك بن كعب ، فردّه [2] من الطريق

قال : وحزن علىّ على محمد بن أبى بكر حتى رُئِى ذلك فيه ، وتبيَّن فى وجهه ، وقام فى الناس خطيبا ، فحمد الله . وأثنى عليه ، ثم قال : ألا وإنّ مصر قد افتتحها الفَجَرة

---

(١) لا عطر بعد عروس ، مثل يضرب فى ذم ادخار الشىء وقت الحاجة ، وانظر مورد المثل فى الميدانى ٢ : ٢١١ ، ٢١٢ .

(٢) ب : « فطرده » .

أولياء الجوْر والظلم ، الذين صدّوا عن سبيل الله ، وبغَوا الإسلام عِوَجاً . ألا وإنّ محمد ابن أبى بكر قد استُشهِدَ رحمة الله عليه ، وعندالله نحتسبه . أما والله لَقدْ كان ـ ماعلمت ـ ينتظر القضاء ، ويعمل للجزاء ، ويبغض شكل الفاجر ، ويحبُّ سَمْت المؤمن ؛ إنى والله لا ألومُ نفسى على تقصير ولا عجز ؛ وإنّى بمقاساة الحرب لجِدُّ بَصير ، إنّى لَأُقدِمُ على الحرب ، وأعرِف وَجْه الحزم ، وأقوم بالرأى المصيب ، فأستصرخُكم معلنا ، وأناديكم مستغيثاً ؛ فلا تسمعون لى قولا ، ولا تُطيعون لى أمرا ؛ حتى تصيرَ الأمور إلى عواقب المساءة . وأنتم القومُ لا يدرَكُ بكم الثأرُ ؛ ولا تنقضُ بكم الأوتار ؛ دعوتُكم إلى غياث إخوانكم منذُ بضع وخمسين ليلة ؛ فجرجرتُمْ [1] علىَ جَرْجرة الجمل الأسرّ [2] ، وتثاقلتم إلى الأرض تثاقُلَ من لا نيّة له فى الجهاد ، ولا رأىَ له فى الاكتساب للأجر ، ثم خرج إلىّ منكم جُنيْد متذائب ضعيف ، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . فأفّ لكم !

ثم نزل فدخل رَحْله .

قال إبراهيم : فحدّثنا محمد بن عبد الله ؛ عن المدائنىّ ؛ قال : كتب علىّ إلى عبد الله ابن عباس وهو على البصرة :

من عبد الله علىّ أمير المؤمنين عليه السلام ، إلى عبد الله بن عباس : سلام عليك ورحمة الله وبركاته :

أما بعد ؛ فإن مصر قد افتتحت ، وقد استُشهد محمد بن أبى بكر ، فعندالله عزّ وجلّ نحتسبه [3] . وقد كنت كتبتُ إلى الناس ، وتقدّمت إليهم فى بدء الأمر ، وأمرتُهم بإغاثته

---

(١) ب : « خرجتم » صوابه فى ج . والجرجرة : تردد هدير الفحل .

(٢) الجمل الأسر ؛ السرر : وجع يأخذ البعير فى كركرته .

(٣) ج : « احتسابه » .

قبل الوقعة ، ودعوتُهم سرا وجهرا ، وعوْداً وبدءا ، فمنهم الآتى كارها ، ومنهم المتعلل كاذبا ، ومنهم القاعد خاذلا . أسأل الله أن يجعلَ لى منهم فرَجاً، وأن يرُيحنى منهم عاجلا ؛ فوالله لولا طمعِى عند لقاء عدوّى فى الشهادة ، وتوطينى نفسى عند ذلك، لأحببت ألّا أبقى مع هؤلاء يوما واحدا . عزم الله لنا ولك على تقواه وهداه ، إنه على كل شىء قدير . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قال : فكتب إليه عبدالله بن عباس :

لعبد الله على أمير المؤمنين من عبدالله بن عباس . سلام على أمير المؤمنين ، ورحمة الله وبركاته :

أما بعد ؛ فقد بلغنى كتابُكَ تذكر فيه افتتاحَ مصر وهلاكَ محمد بن أبى بكر ، وأنك سألتَ الله ربك أن يجعل لك من رعيتك التى ابتُلِيت بها فرجا ومخرجا ، وأنا أسأل الله أن يُعلِيَ كلمتك ، وأن يغشّيك بالملائكة عاجلا . واعلم أن الله صانع لك ، ومعزٌّ دعوتك ، وكابتٌ عدوك . وأخبرُكَ يا أمير المؤمنينَ أن الناسَ ربما تباطئوا ثم نشِطوا ؛ فارفق بهم يا أمير المؤمنين ودارهم ومَنّهِم ، واستعنْ بالله عليهم . كفاك الله الهمّ ! والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قال إبراهيم : وروى عن المدائنىّ : أن عبدالله بن عباس قَدِمَ من البصرة على علىّ ، فعزّاه عن محمد بن أبى بكر .

وروى المدائنىّ أنّ عليا قال : رحِم الله محمدا كان غلاما حَدَثا ، لقد كنت أردت أن أوَلّىَ المِرْقال(١) هاشم بن عتبة مصر ، فإنه والله لو وليَهَا لما خلّى لابن العاص وأعوانه العَرْصة ، ولا قُتِل إلا وسيفه فى يده ، بلا ذمّ لمحمد ، فلقد اجهد نفسه فقضى ما عليه .

---

(١) المرقال : لقب هاشم بن عتبة الزهرى ؛ لأن علياً عليه السلام دفع إليه الراية يوم صفين ؛ فكان يرقل بها إرقالا ، والإرقال : ضرب من العدو .

قال المدائنى : وقيل لعلىّ عليه السلام : لقد جزعتَ على محمد بن أبى بكر يا أميرَ المؤمنين . فقال : وما يمنعنى ! إنه كان لى ربيبا ، وكان لِبَنِىَّ أخا ، وكنت له والدا . أعدّه ولدا .

* * *

[خطبة للامام علىّ بعد مقتل محمد بن أبى بكر]

وروى إبراهيم ، عن رجاله ، عن عبد الرحمن بن جندَب ، عن أبيه ، قال : خطب علىّ عليه السلام بعد فتح مصر ، وقتل محمد بن أبى بكر ، فقال :

أما بعْد ، فإنّ الله بعَثَ محمداً نذيراً للعالمين ، وأميناً على التنزيل ، وشهيداً عَلَى هذهِ الأمّة ؛ وأنتمْ معاشرَ العرب يومئذ على شرّ دِين ، وفى شرّ دارٍ ، مُنيخونَ على حجارةٍ خُشْنٍ ، وحيّات صُمّ ، وشَوْكٍ مَبثُوث فى البلاد ، تَشرَبُونَ الماءَ الخبيث ، وتأكلونَ الطعَامَ الخبيثَ ؛ تسفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ، وتقتلُونَ أولادَكُمْ ، وتُقْطَعُونَ أرْحامَكُمْ ؛ وَتأكلُونَ أموالَكُمْ بَيْنَكُم بالباطِلِ . سُبُلكُم خائفة ، والأصنام فيكم مَنصُوبة ، ولا يؤمنُ أكثرُهُمْ باللهِ إلّا وهمْ مُشرِكُونَ .

فمنّ اللهُ – عزّ وجلّ – عليكم بمحمد ، فَبعَثَهُ إليكُمْ رَسُولاً مِنْ أنفُسِكُمْ ، فَعلّمَكُم الكِتابَ وَالحِكمَةَ ، وَالفرائِضَ وَالسُّنَنَ ، وأمرَكُمْ بِصِلةِ أرحامِكمْ وَحَقْنِ دِمائِكُمْ وصلاحِ ذَاتِ البَيْنِ ، وأنْ تؤدُّوا الأَمَانَاتِ إلى أهْلِهَا ، وَأنْ تُوفُوا بالعَهْدِ ؛ وَلَا تنقضُوا الأيمَانَ بعْدَ توكِيدِهَا ، وأنْ تَعاطَفوا وتبارّوا وترَاحَمُوا . ونهاكُمْ عنِ التَّناهُبِ والتَّظالُمِ وَالتَّحاسُدِ والتَّباغِي والتَّقاذُفِ ، وعن شُرْبِ الخمرِ وبَخْسِ المِكْيالِ ، وَنَقصِ المِيزانِ . وتقدَّم إليكم فيما يُتلَى عليكم : ألاّ تزْنُوا ولا ترْبُوا ، ولا تأكُلوا أموالَ

اليتامى ظلماً ، وأن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، وكل خير يدنى إلى الجنة ، ويباعد عن النار أمركم به ، وكل شر يدنى إلى النار ويباعد عن الجنة نهاكم عنه .

فلما استكمل مدته ، توفاه الله إليه سعيداً حميداً ، فيالها مصيبة خصت الأقربين ، وعمت المسلمين ! ما أصيبوا قبلها بمثلها ، ولن يعاينوا بعدها أختها . فلما مضى لسبيله صلى الله عليه وسلم ، تنازع المسلمون الأمر بعده ، فوالله ما كان يلقى فى روعى ، ولا يخطر على بالى أن العرب تعدل هذا الأمر بعد محمد عن أهل بيته ، ولا أنهم منحوه عنى من بعده . فما راعنى إلا انثيال الناس على أبى بكر ، وإجفالهم (١) إليه ليبايعوه ، فأمسكت يدى ، ورأيت أنى أحق بمقام محمد صلى الله عليه وسلم فى الناس ممن تولى الأمر من بعده ، فلبثت بذاك ماشاء الله حتى رأيت راجعة من الناس رجعت عن الإسلام ، يدعون إلى محق دين الله وملة محمد صلى الله عليه ، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً وهدماً يكون المصاب بهما على أعظم من فوات ولاية أموركم ، التى إنما هى متاع أيام قلائل ، ثم يزول ما كان منها كما يزول السراب ، وكما يتقشع السحاب ، فمشيت عند ذلك إلى أبى بكر فبايعته ؛ ونهضت فى تلك الأحداث ، حتى زاغ الباطل وزهق ، وكانت كلمة الله هى العليا ، ولو كره الكافرون .

فتولى أبو بكر تلك الأمور ، فيسر وسدد ، وقارب واقتصد ، وصحبته مناصحاً ، وأطعته فيما أطاع الله فيه جاهداً ، وما طمعت ــ أن لو حدث به حادث وأنا حى ــ أن يرد إلى الأمر الذى نازعته فيه ــ طمع مستيقن ، ولا يئست منه يأس من لا يرجوه ، ولولا خاصة ما كان بينه وبين عمر ، لظننت أنه لا يدفعها عنى ؛ فلما احتضر بعث إلى عمر فولاه فسمعنا وأطعنا وناصحنا .

---

(١) أجفل الناس وانجفلوا : أى ذهبوا مسرعين .

وتولّى عُمر الأمرَ ، فكانَ مرضيَّ السيرة ، ميمونَ النقيبة ؛ حتى إذا احتُضِر ، فقلت في نفسي : لن يَعدِلَها عنّي ؛ ليس يدافعها عنّي (١) ، فجعلَني سادسَ ستة ؛ فما كانوا لولاية أحدٍ منهم أشدَّ كراهة لولايتي عليهم ؛ كانوا يَسْمعونَ عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لِجاج أبي بكر ، وأقول : يامعشرَ قريش ، إنا ـ أهلَ البيت ـ أحقُّ بهذا الأمر منكم ما كانَ فينا مَنْ يقرأ القرآن ، ويعرفُ السُّنَّة ، ويدين بدين الحقّ . فخشِيَ القوم ـ إن أنا وَليتُ عليهم ـ ألاّ يكون لهم من الأمر نصيب ما بَقُوا ، فأجمعوا إجماعاً واحدا ، فصرفُوا الولاية إلى عثمان ، وأخرجوني منها ؛ رجاء أنْ ينالُوها ، ويتداولُوها إذ يئسوا أن ينالُوا بها مِنْ قِبَلي ؛ ثم قالوا : هلمّ فبايعْ وإلا جاهدناك ؛ فبايعت مستكرَهاً ، وصبرت محتَسِباً ، فقال قائلُهم : يابنَ أبي طالب ، إنّك على هذا الأمر لحريصٌ ؛ فقلت أنتُم أحرصُ مني وأبعد ؛ أيّنا أحرَصُ ؟ أنا الذي طلبتُ ميراثي وحَقّي الذي جعلني الله ورسوله أوْلَى به ، أم أنتم إذ تضرِبُون وَجْهي دُونه ، وتحولون بيني وبينه ! فبهتوا ، والله لا يهدِي القوم الظالمين.

اللهم إني أستعديك على قُريش ، فإنّهم قطعوا رَحِمي ، وأضاعوا إيايَ ، وصغّروا عظيم منزلتي ، وأجمعوا على منازعَتي حقّاً كنت أوْلَى به منهم ، فسلبونيه ثم قالوا : ألا إنّ في الحقّ أن تأخذه ، وفي الحق أن تمنعه ؛ فاصبر كمدا ، أو مت أسِفا حَنِقاً .

فنظرتُ فإذا ليسَ معي رافد ولاذابٌّ ولا ناصِر ولا ساعد إلا أهلُ بيتي ، فضنَنْت بهم عن المنية ، وأغضيتُ على القذى ، وتجرّعت ريقي على الشَّجَى ؛ وصَبَرْتُ مِنْ كظمِ الغيظ على أمرّ من العلقم ، وآلم للقلب مِنْ حَزِّ الشِّفَار ، حتى إذا نقِمتم على عثمان أتيتموه فقتلتموه ؛ ثم جئتموني لتبايعوني ، فأبيتُ عليكم ، وأمسكت يدِي فنازعتموني ودافعتموني ، وبسطتم يدِي فكففتُها ، ومددتموها فقبضتُها ، وازدحمتم عليَّ حتى ظننت أنّ بعضكم قاتل بعضِكم أو أنكم قاتِليَّ . فقلتم : بايِعنا لا نجدُ غيرَك ، ولا نرضى إلا بك ، بايِعنا

(١) ب : « ليس بدافعي عنها » .

لا نفترق ولا نختلف كلمتُنا. فبايعتُكم ودعوتُ الناسَ إلى بيعتى ، فمن بايع طوعاً قبلته ؛ ومن أبَى لم أُكْرِهْهُ وتركته .

فبايَعنى فيمَن بايعنى طلحةُ والزبير ؛ ولو أبيَا ما أكرهتُهما ، كما لم أُكرِهْ غيرَهما ؛ فما لبثا إلا يسيراً حتى بلغنى أنهما خرجا مِنْ مَكَّةَ متوجهَيْن إلى البصرة ؛ فى جيش ما منهم رجلٌ إلّا قد أعطانى الطاعة ، وسمح لى بالبيعة؛ فقدما على عاملى وخُزّان بيت مالى وعلى أهل مصرى الذين كلهم على بيعتى وفى طاعتى ، فشتّتوا كلمتَهم ، وأفسدوا جماعتَهم ، ثم وثبوا على شِيعتِى من المسلمين ، فقتلُوا طائفةً منهم غدراً ، وطائفةً صَبْرًا [(١)] . ومنهم طائفة غضِبوا لله ولِى ، فشَهَرُوا سيوفَهم وضربوا بها ؛ حتى لَقُوا الله عزّ وجلّ صادقين ؛ فوالله لو لم يصيبُوا منهم إلّا رجلًا واحداً متعمِّدين لقتله لحلّ لى به قتلُ ذلك الجيش بأسره ، فدَعْ ما أنهم قد قَتَلُوا من المسلمين أكثرَ من العدّة التى دخلُوا بها عليهم؛ وقد أدالَ اللهُ منهم ، فبعداً للقوم الظالمين !

ثم إنى نظرتُ فى أمر أهل الشام ، فإذا أعرابٌ أحزاب وأهلُ طمع جفاة طغاة ، يجتمعُون من كلّ أوْب ؛ من كان ينبغى أن يؤدَّب وأنْ يولّى عليه ، ويؤخذ على يده ؛ ليسوا من الأنصار ولا المهاجرين ولا التّابعين بإحسان . فسِرْتُ إليهم ، فدعوتُهم إلى الطاعة والجماعة ، فأبوْا إلّا شقاقاً وفراقاً ، ونهضوا فى وجوه المسلمين ينضَحُونهم بالنّبْل ، ويشْجُرونهم [(٢)] بالرماح ؛ فهناك نهدْتُ [(٣)] إليهم بالمسلمين فقاتلتهم ، فلما عضّهم السلاح . ووجَدُوا ألم الجراح ، رفعوا المصاحف يدعونَكم إلى مافيها ؛ فأنبأتكم أنّهُمْ ليسوا بأهل دين ولا قرآن ، وأنهم رفعوها مكيدةً وخديعة ووهْناً وضعفا ، فامضوا على حقّكم وقتالكم . فأبيتم علىّ وقلتم : اقبَلْ منهم ؛ فإنْ أجابوا إلى ما فى الكتاب جامعونا على ما نحن عليه من

(١) صبرا ، أى حبسا .

(٢) يشجرونهم بالرمح : يطعنونهم .

(٣) نهد للقتال : نهض .

الحقَّ، وإنْ أبَوْا كان أعظمَ لحجّتنا عليهم. فقبلتُ منهم، وكففتُ عنهم؛ إذْ وَنيتم وأبيتم؛ فكان الصُّلح بينكم وبينهم على رجلين، يُحْييان ما أحيا القرآن، ويُميتان ما أمات القرآن؛ فاختلف رأيُهما، وتفرّق حكمهما، ونبَذا ما فى القرآن، وخالفا ما فى الكتاب؛ فجنّبهما الله السّداد، ودلّاهما فى الضّلالة، فانحرفتْ فِرْقةٌ منا فتركناهم ما تركونا؛ حتى إذا عثَوْا[1] فى الأرض يقتلون ويفسدون، أتيناهم فقلنا: ادفَعُوا إلينا قتَلةَ إخوانِنا، ثم كتابُ الله بيننا وبينكم. قالوا: كلُّنا قتَلهم؛ وكلُّنا استحلّ دماءهم. وشدّتْ علينا خيلُهم ورجالُهم، فصرَعَهم الله مصارعَ الظالمين.

فلما كان ذلك من شأنِهم أمرتُكم أن تمضُوا من فَوْرِكم ذلك إلى عدوّكم، فقلتم: كلّتْ سيوفُنا، وَنفِدتْ نبالُنا، ونَصَلت أسنّة رماحنا، وعاد أكثرُها قِصَدًا[2]، فارجع بنا إلى مصرنا لنستعدّ بأحسن عُدّتنا، فإذا رجعتَ زدتَ فى مقاتلتنا عدّةَ مَنْ هلَكَ منّا وفارقنا؛ فإنّ ذلك أقوى لنا على عدوّنا. فأقبلتُ بكم، حتى إذا أطللْتُم على الكوفة أمرتُكم أن تنزلوا بالنُّخَيلة، وأن تلزَمُوا معسكركم، وأن تَضمُّوا قَوَاصِيَكم، وأن توطِّنوا على الجهاد أنفسَكم، ولا تكثِرُوا زيارة أبنائكم ونسائكم، فإن أهلَ الحربِ المصابرُوها، وأهلَ التشمير فيها الذين لا ينقادُون من سَهر لياليهم ولا ظَمَإِ نهارهم، ولا خَمص بطونهم، ولا نصَب أبدانهم، فنزلت طائفةٌ منكم معى معذِرَة، ودخلت طائفة منكم المِصْرَ عاصية؛ فلا مَنْ بقِيَ منكم صَبَرَ وثبَتَ، ولا مَنْ دخل المِصْرَ عاد ورَجَعَ؛ فنظرتُ إلى معسكرى، وليس فيه خمسون رجلا؛ فلما رأيتُ ما أتيتم، دخلت إليكم فلم أقدِرْ على أن تخرجوا معى إلى يومنا هذا، فما تنتظرون! أما ترَوْن أطرافَكم قد انتقِصَتْ، وإلى مصر قد فتِحت، وإلى شيعتى بها قد قتلت؛ وإلى مسالحكم تُعرَى، وإلى بلادكم تُغزَى! وأنتم ذوُو عدد كثير،

---

(١) عثى: أفسد، مثل عاث.

(٢) القصد: جمع قصدة؛ وهى القطعة المتكسرة.

وشَوْكة وبأس شديد ؛ فما بالكم ! لله أنتم من أين تؤتون ! وما لكم تؤفكون ! وأنّى تُسْحَرُون !

ولو أنكم عزَمْتم وأجمعتم لم تراموا ؛ إلا أنّ القوم تراجعوا وتناشبوا وتناصحوا، وأنتم قد وَنَيْتم وتغاششتم وافترقتم، ما إن أنتم إن ألممتم عندى على هذا بسُعَداء[1] ؛ فانتهوا بأجمعكم، وأجمِعوا على حقكم، وتجرّدوا لحرب عدوّكم ؛ وقد أبدت الرّغوةُ عن الصّريح، وبيّن الصُّبحُ لذي عينين ؛ إنما تقاتلون الطُّلقاء، وأبناء الطُّلقاء وأولى الجفاء، ومَنْ أسلم كرها ؛ وكان لرسول الله صلى الله عليه أنفَ[2] الإسلام كلّه حربا ؛ أعداء الله والسنّة والقرآن، وأهل البدَع والأحداث ؛ ومن كان بوائقه تُتّقى، وكان عن الإسلام منحرفا، أكَلة الرّشا، وعَبَدة الدنيا ؛ لقد أنهِيَ إلىَّ أنّ ابنَ النابغة لم يبايعْ معاويةَ حتى أعطاه، وشرط له أن يؤتيَه ما هى أعظم مما فى يده من سلطانه. ألا صَفِرَتْ يدُ هذا البائع دينَه بالدنيا، وخزيَتْ أمانة هذا المشترى نُصْرةَ فاسِق غادر بأموالِ المسلمين ؛ وإنّ فيهم مَنْ قد شربَ فيكم الخمرَ وجُلِد الحدّ ؛ يُعْرَف بالفساد فى الدين، والفعل السّيء ؛ وإنّ فيهم مَنْ لم يُسلم حتى رُضِخ له رَضِيخة[3].

فهؤلاء قادة القوم ؛ ومَنْ تركتُ ذكر مساوئه مِنْ قادتهم مِثْلُ من ذكرت منهم ؛ بل هو شرّ، ويودُّ هؤلاء الذين ذكرت لو وُلُّوا عليكم فأظهروا فيكم الكُفْر والفساد والفجور والتسلُّط بجبرية ؛ واتبعوا الهوَى وحكَموا بغير الحقّ. ولأنتم — عَلَى ما كانَ فيكم مِنْ تواكُل وتخاذُل — خيرٌ منهم وأهدى سبيلا ؛ فيكم العلماء والفقهاء، والنُّجباء والحكماء، وحَمَلة الكتاب والمتهجّدُون بالأسحار، وعُمّار المساجد بتلاوة القرآن ؛ أفلا تسخطُون وتهتمون أن ينازعكم الولاية عليكم سفهاؤكم، والأشرار الأراذل منكم !

(١) كذا فى ب، وهى ساقطة من ا، ج
(٢) أنف كل شيء : أوله .
(٣) الرضيخة : العطية القليلة .

فاسمَعُوا قولِي ، وأطيعوا أمرى ؛ فوالله لئِنْ أطعتُمونى لا تغوُون ، وإن عصيتمونى لا ترشُدُون ؛ خُذُوا للحرْبِ أهْبَتها وأعِدُّوا لها عُدّتها ؛ فقد شبّتْ نارُها ، وعلا سنانها وتجرّدَ لكم فيها الفاسقون ، كى يعذّبوا عباد الله ، ويطفِئوا نور الله.ألا إنه ليس أولياء الشيطان مِنْ أهل الطمع والمكر والجفاء بأوْلَى فى الجدّ فى غيّهم وضلالتهم من أهل البرّ والزهادة والإخبات فى حقّهم وطاعة ربّهم؛ إنّى والله لو لقيتُهم فرداً وهم ملء الأرض؛ ماباليت ولا استوحشت ؛ وإنى مِنْ ضلالتهم التّى هم فيها ، والهُدى الذى نحن عليه ، لعَلَى ثقة وبيِّنة ، ويقين وبصيرة ؛ وإنى إلى لقاء ربِّى لمشتاق ، ولحسنِ ثوابه لمنتظر ؛ ولكنّ أسفاً يعتريني ، وحزنا يخامِرُنى ، أن يلىَ أمرَ هذه الأمة سفهاؤها وفجّارها ، فيتخذوا مال الله دُوَلًا ، وعباده خوَلًا ، والفاسقين حِزْباً . وايمُ الله لولا ذلك لما أكثرتُ تأنيبكم وتحريضكم،ولتركتُكم إذ ونيتم وأبيتم حتى ألقاهم بنفسِى؛متَى حُمّ لى لقاؤهم.فوالله إنى لعَلَى الحقّ ، وإنّى للشهادة لمحِبّ، فانفِروا خِفافا وثِقالا،وجاهدوا بأموالكم وأنفسِكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . ولا تثاقلُوا إلى الأرض فتقرُّوا بالخسف، وتبوءوا بالذلّ ، ويكنْ نصيبُكم الخسران . [إنّ](١) أخا الحرب اليقظان،ومَنْ ضعف أودى ، ومن ترك الجهاد كان كالمغبون المهين .

اللهم اجْمَعْنَا وإياهم على الهُدى ، وزهِّدْنا وإياهم فى الدنيا ، واجعل الآخرة خيرا لنا ولهم من الأولى .

***

[خبر مقتل محمد بن أبى حذيفة]

قال إبراهيم : وحدثنى محمد بن عبد الله بن عثمان ، عن المدائنىّ ، أنّ محمد بن أبى حُذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، أُصيبَ لما فتح عمرو بن العاص مصر ، فبعثَ به

---

(١) تكملة يقتضيها السياق .

إلى معاوية بن أبي سفيان وهو يومئذ بفلسطين ، فحبسه معاوية فى سجن له ، فمكث فيه غير كثير ، ثم هرب ــ وكان ابن خال معاوية ــ فأرى معاويةُ الناس أنه كره انفلاتَه من السجن؛ وكان يحبّ أن ينجوَ ، فقال لأهل الشام: مَنْ يطلبه ؟ فقال رجل من خثعم ــ يقال له عبيد الله ابن عمرو بن ظلام، وكان شجاعا وكان عثمانيا: أنا أطلبه ، فخرج فى خيل فلحقه بحُوّارين[1] ، وقد دخل بغارٍ هناك، فجاءت حُمُرٌ فدخلته ، فلما رأت الرجل فى الغار فزِعت ونفَرت؛ فقال حمّارون كانوا قريبا من الغار : إنّ لهذه الحُمُر لشأنا ، ما نفرّها من هذا الغار إلا أمر !فذهبوا ينظرون ؛فإذا هم به ؛ فخرجوا به؛ فوافاهم عبد الله بن عمرو بن ظلام؛ فسألهم ووصفَه لهم فقالوا: ها هو هذا ؛ فجاء حتى استخرجه، وكره أن يصيرَ به إلى معاوية فيخلِيَ سبيله ، فضرب عنقه. رحمه الله تعالى .

---

(١) حوارين ، من قرى حلب ، أو حصن بناحية حمص (مراصد الاطلاع) .

(٦٨)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام فى ذم أصحابه :

كَمْ أُدارِيكُمْ كما تُدَارَى ٱلْبِكَارُ العَمِدَةُ ، وَالثِّيَابُ الْمُتَدَاعِيَةُ ! كلما حِيصَتْ مِن جانِبٍ تَهَتَّكَتْ مِنْ آخر ، كُلَّمَا أَطَلَّ عَلَيْكُمْ مِنْسَرٌ مِنْ مَنَاسِرِ أَهْلِ الشَّامِ أَغْلَقَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بَابَهُ ، وَٱنْجَحَرَ ٱنْجِحَارَ الضَّبَّةِ فِى جُحْرِهَا ، وَالضَّبُعِ فِى وِجَارِهَا .

الذَّلِيلُ وَٱللهِ مَنْ نَصَرْتُمُوهُ ، وَمَنْ رُمِىَ بِكُمْ فَقَدْ رُمِىَ بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ .

إِنَّكُمْ وَٱللهِ لَكَثِيرٌ فِى ٱلْبَاحَاتِ ، قَلِيلٌ تَحْتَ الرَّايَاتِ ، وَإِنِّى لَعَالِمٌ بِمَا يُصْلِحُكُمْ ، وَيُقِيمُ أَوَدَكُمْ ، وَلَكِنِّى وَٱللهِ لَا أَرَى إِصْلَاحَكُمْ بِإِفْسَادِ نَفْسِى .

أَضْرَعَ ٱللهُ خُدُودَكُمْ ، وَأَتْعَسَ جُدُودَكُمْ ! لَا تَعْرِفُونَ الْحَقَّ كَمَعْرِفَتِكُم ٱلْبَاطِلَ ، وَلَا تُبْطِلُونَ ٱلْبَاطِلَ كَإِبْطَالِكُم الْحَقَّ .

***

الشرحُ :

البِكَار : جمع بَكْر ، وهو الفتِىُّ من الإبل . والعَمِدَة : التى قد انشدَخَتْ أَسْنِمتها من داخل وظاهرها صحيح ؛ وذلك لكثرة ركوبها .

والثياب المتداعية: الأسمال التى قد أخلقت ؛ وإنما سُمِّيت متداعِية ،لأن بعضها يتخرق فيدعو بعضها إلى مثل حاله .

وحِيصت : خيطت ، والحوْص : الخياطة . وتهتّكت : تخرّقت .

وأطلّ عليكم ، أى أشرف ، وروى : « أظلّ » بالظاء المعجمة ، والمعنى واحد .

ومنَسر : قطعة من الجيش تمرّ قدام الجيش الكثير ، والأفصحُ « مِنْسر » بكسر الميم وفتح السين ، ويجوز « مَنْسِر » بفتح الميم وكسر السين .

وانجحر : استتر فى بيته ، أجحرتُ الضبّ ، إذا ألجأته إلى جُحْره فانجحر .

والضبّة : أنثى الضِّباب ، وإنما أوقع التشبيه على الضبّة مبالغة فى وصفهم بالجبن والفرار ؛ لأن الأنثى أجبنُ وأذل من الذكر . والوِجار : بيت الضبع .

والسهم الأفوق : الناصل المكسور الفُوق ، المنزوع النّصل ، والفُوق : موضع الوَتَر من السهم ؛ يقال نَصَل السّهم إذا خرج منه النَّصْل فهو ناصل ؛ وهذا مثل يضرب لمن استنجد بمن لا ينجده .

والباحات : جمع باحة ، وهى ساحة الدار . والأَوَد : العوج ، أوِد الشىء بكسر الواو يأوَد أوَدا ؛ أى اعوجّ ، وتأوّد ، أى تعوج . وأضرع الله خدودكم : أذلّ وجوهكم . ضَرَع الرجل ذلّ وأضرعه غيره ، ومنه المثل : « الحمّى أضرعته لك »[1] .

وأتعس جدودكم ، أى أحال حظوظكم وسعودكم وأهلكها فجعلها إدباراً ونحسا . والتّعس : الهلاك . وأصله الكبّ ؛ وهو ضد الانتعاش . تَعَس الرجل ، بفتح العين يتعَس تَعسا . يقول : كم أداريكم كما يدارِى راكب البعير بعيرَه المنفضخ السنام ، وكما يدارى لابس الثوب السَّمَل ثوبَهُ المتداعِي ، الذى كلّما خيط منه جانب تمزّق جانب .

ثم ذكر خُبْثَهم وذلّهم ، وقلّة انتصار مَنْ ينتصِر بهم ، وأنهم كثير فى الصورة ، قليل فى المعنى . ثم قال : إنى عالم بما يصلحكم ؛ يقول : إنما يصلحكم فى السياسة السيفُ ؛ وَصَدَق ! فإن كثيراً لا يصلُح إلا عليه . كما فعل الحجّاج بالجيش الذى تقاعد بالمهلّب ،

(١) الميدانى ١ : ٢٠٥ ، يضرب فى الذل عند الحاجة تنزل .

فإنه نادى منادِيَه : مَنْ وجدناه بعد ثالثة لم يلتحق بالمهلّب فقد حلّ لنا دمه ؛ ثم قتَل عُمير بن ضابئ وغيره ؛ فخرج الناس يُهْرَعون إلى المهلّب .

وأميرُ المؤمنين لم يكُنْ ليستحلّ من دماء أصحابه ما يستحلّه مَنْ يريد الدنيا وسياسة الملك وانتظام الدولة ، قال عليه السلام : « لكنى لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسى » ، أى بإفساد دينى عند الله تعالى .

فإن قلت : أليستْ نُصرة الإمام واجبةً عليهم ؟ فلِمَ لا يقتلهم إذْ أخلُّوا بهذا الواجب ؟

قلت : ليس كلّ إخلال بواجب يكون عقوبته القتل ، كمن أخَلّ بالحج . وأيضا فإنه كان يعلم أن عاقبةَ القتل فسادهم عليه واضطرابهم ؛ فلو أسرع فى قَتلهم لشَغَبُوا عليه شغبا يُفضِى إلى أن يقتلوه ويقتلوا أولادَه ، أو يسلموه ويسلموهم إلى معاوية ؛ ومتى علم هذا أو غلب على ظنه لم يَجُزْ له أن يسوسَهم بالقتل الذى يُفضِى إلى هذه المفسدة ، فلو ساسَهم بالقتل والحال هذه ؛ لكان آثماً عند الله تعالى ، ومواقعا للقبيح ؛ وفى ذلك إفساد دينه كما قال : « لا تعرفون الحق كمعرفتكم الباطل ... » إلى آخر الفصل ؛ فكأنه قال : لا تعتقدون الصواب والحقّ كما تعتقدون الخطأ والباطل ؛ أى اعتقادكم الحقّ قليل ، واعتقادكم الباطل كثير ؛ فعبّر عن الاعتقاد العام بالمعرفة الخاصة ؛ وهى نوع تحت جنسه مجازا .

ثم قال : ولا تسرعون فى نقض الباطل سرعتكم فى نقض الحقّ وهدمه .

***

[طائفة من الأشعار الواردة فى ذمّ الجبن]

واعلم أن الهجاء بالجبن والذل الفرَق كثير جدا ، ونظير قوله : « إنكم لكثير فى الباحات ، قليل تحت الرايات » قول معدان الطائىّ :

فأمّا الّذِى يُحْصِيهِمُ فمُكَثِّرٌ ... وَأمّا الّذى يُطْرِيهِمُ فمُقَلِّلُ[1]

(١) ديوان الحماسة — بشرح المرزوقى ٣ : ١٤٦٣

ونحو قول قراد بن حَنَش ، وهو من شعر الحماسة (١) :

وأنتم سماء يُعْجِبُ النّاسَ رِزُّها ... بآبدةٍ تُنْحِي شَدِيدٍ وَئِيدُها (٢)

تُقَطِّع أطنابَ البيوتِ بحاصبٍ ... وأكذبُ شيء بَرْقُهَا ورُعُودُها (٣)

فَوَيْلُمِّهَا خيلاً بهاءٍ وشارةً ... إذا لاقت الأعداء لولا صدُودُها !

ومن شعر الحماسة فى هذا المعنى :

لَقَدْ كَانَ فيكُم لَوْ وفيتمْ بجارِكُمْ ... لِحًى وَرِقَابٌ عِزْدَةٌ وَمَنَاخِرُ (٤)

من الصُّهْبِ أثناء وجُذْعاً كأنّها ... عذارَى عليها شارةٌ وَمَعَاجِر (٥)

ومن الهجاء بالجبن والفرار ، قولُ بعض بني طيٍ يهجو حاتماً ، وهو من شعر الحماسة أيضاً (٦) :

لعمرى وَمَا عَمْرى علَىَّ بهيِّنٍ ... لَبِئْسَ الفتى المدعُوّ بالليل حاتِمُ

غَدَاة أتى كالثورِ أُحْرِج فاتَّقى ... بجبهته أقتالَه وهو قائمُ (٧)

كأنّ بصحراء المُرَيْط نعامةً ... تبادرُها جنحَ الظلام نعائمُ

أعارتْكَ رِجْلَيْهَا وهَافِىَ لُبِّهَا ... وقد جُرِّدَتْ بيضُ المُتُونِ صوارمُ

---

(١) ديوان الحماسة ــ بشرح المرزوقى ٣ : ١٤٣١ ؛ من أبيات أربعة أولها :

لَقَوْمِىَ أَرْعَى لِلْعُلَا مِنْ عِصَابَةٍ ... من الناسِ ياحارِ بْنَ عَمْرٍو تَسودُها

(٢) رزها : صوتها ، أى صوت رعدها . والآبدة : الغريبة . وتنحى : تعتمد .

(٣) الحاصب : الريح تجىء بالحصباء .

(٤) من أبيات لمنصور بن مسجاح الضبي ؛ حماسة أبي تمام ــ بشرح التبريزى ٤ : ٢٥ . عردة : غلاظ .

(٥) يريد من الإبل الصهب ، والصهبة : حمرة يعلوها بياض . وأثناء : جمع ثنى ؛ وهو من الإبل مايلقى ثنيته ؛ وذلك فى السنة الثالثة والجذع : جمع جذع ؛ وهو ما قبل الثنى . والمعجر : ثوب أصغر من الرداء تلبسه المرأة . وفى التبريزى : « ومعاصر »

(٦) ليزيد بن قنافة . ديوان الحماسة ــ بشرح المرزوقى ٣ : ١٤٦٤

(٧) غداة أتى كالثور ؛ يعنى حاتما ، وأحرج : ضيق عليه وأخرج من عادته ، والأقتال : الأقران والأعداء ، واحده قتل .

ونظير المعنى الأول أيضاً قول بعضهم من شعر الحماسة :

كأثِرْ بسعدٍ إن سعداً كثيرةٌ ... ولا ترجُ من سعدٍ وفاء ولا نَصْرا (١)

يروعك من سعدِ بن عمرٍو جُسُومُها ... وتزهد فيها حين تقتلها خُبْرا

ومنه قول عُوَيف القوافى :

وما أُمُّكم تحت الخوافق والقنا ... بثَكْلَى ولا زهراء من نسوة زُهْرِ (٢)

ألستمْ أقلّ الناس عند لوائهمْ ... وأكْثَرَهُمْ عند الذّبيحة والقِدْرِ

وممّن حسّن الجبن والفرار بعضُ الشعراء فى قوله :

أضحتْ تشجّعُنى هندٌ وقد علمتْ ... أنّ الشجاعة مقرونٌ بها العَطَب (٣)

لا والذى حجّت الأنصارُ كعبتَه ... ما يشتهى الموتَ عندى من له أرَبُ

للحرب قومٌ أضلّ الله سعيَهُمُ ... إذا دعتهمْ إلى حوماتها وثَبُوا

ولستُ منهم ولا أهوَى فعالَهُمُ ... لا القتلُ يعجبنى منها ولا السَّلَبُ

ومن هذا قول أيمن بن خُرَيم الأسدىّ :

إنّ للفتنة مَيطاً بيِّنا ... ووريد المَيْطِ منها يَعتَدِلْ (٤)

فإذا كان عطاءٌ فابتدِرْ ... وإذا كان قتالٌ فاعتزلْ

إنما يُسْعِرُها جُهّالُها ... حطب النار فدَعْها تشتعلْ

ومن عرف بالجبن أميّة بن عبد الله بن خالد بن أسِيد ، عيّره عبد الملك بن مرْوان فقال :

---

(١) ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ٤ : ٩١ ، من غير نسبة ، وبعده :

ولا تدعُ سعداً للقراعِ وخَلّها ... إذا أمنت ونعتها البلد القَفْرا

(٢) ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ٤ : ٩٩

(٣) عيون الأخبار ٤ : ١٦٤ ، من غير نسبة ، العقد ١ : ١٦٦

(٤) عيون الأخبار ١ : ١٦٤ ، العقد ١ : ١٦٧ . والميط : الصخب والشدة .

إذا صَوَّتَ العصفورُ طار فؤادُه ... وليثٌ حديد النابِ عند الثرائدِ(١)

وقال آخر :

يطيرُ فؤادُه مِنْ نَبْحِ كَلْبٍ ... ويكفيهِ من الزَّجر الصفيرُ

وقال آخر :

ولو انها عصفورة لحسبتُها ... مُسَوَّمَةً تدعو عَبيدا وأزْنَمَا(٢)

***

[أخبار الجبناء وذكر نوادرهم]

ومن أخبار الجبناء مارواه ابن قتيبة فى كتاب " عيون الأخبار " قال : رأى عمرَ ابن العاص معاوية يوماً فَضحِك ،وقال: مِمَّ تضحكُ ياأمير المؤمنين ، أضحكَ الله سنّك ! قال: أضحكمن حُضُور ذهنك عندإبدائك سوءتك يوم ابن أبى طالب ؛ والله لقد وجدته مَنّاناً [كريماً](٣) ولو شاء أن يقتلكَ لقتلكَ ! فقال عمرو : ياأميرَ المؤمنين ، أماوالله إنّى لعن يمينك حين دعاك إلى البزار فاحولّتْ عيناكَ ،وانتفخ سَحْرُكَ ، وبدا منك ما أكرهذكرُه لك ؛ فمن نفسك فاضحك أو فدَعْ(٤) .

***

قال ابن قتيبة : وقدم الحجاجُ على الوليد بن عبد الملك ، وعليه دِرْعٌ وعمامة سوداء وقوسٌ عربية وكنانة ، فبعثت أمّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان إلى الوليد ــ وهى تحته يومئذ : مَنْ هـذا الأعرابىّ المستلئم فى السلاح عنـدك على خلوة ، وأنت فى غُلالة ؟

---

(١) عيون الأخبار ١ : ١٦٦ ، العقد ١ : ١٦٨/

(٢) هو العوام بن شوذب الشيبانى ، عيون الأخبار ١ : ١٦٦ والبيت من شواهد المغنى ٢ : ١٩٦

(٣) من عيون الأخبار .

(٤) عيون الأخبار ٤ : ١٦٩

فأرسَلَ إليها الوليد : إنه الحجّاج ، فأعادت عليه الرسول : والله لأن يخلوَ بك مَلَكُ الموت أحبُّ إلىّ من أن يخلوَ بك الحجاج ! فضحك وأخبر الحجاج بقولها وهو يمازحه ، فقال الحجاج : ياأمير المؤمنين ، دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول ، فإنما المرأة رَيْحانة وليست بقَهْرمانة ؛ فلا تطلِعها على سرّك ، ومكايدة عدوّك .

فلما انصرف الحجاج ودخل الوليد على امرأته أخبرها بمقالة الحجاج ، فقالت : ياأميرَ المؤمنين ، حاجتى إليك اليوم أن تأمرَه غدا أن يأتينى مستلِمًا، ففعل ذلك ، وأتاها الحجاج فحجَبَتْه ثم أدخلته ، ولم تأذن له فى القُعود ، فلم يزل قائما ، ثم قالت : إيهٍ ياحجاجُ ! أنت الممتنّ على أمير المؤمنين بقتلك ابنَ الزبير وابن الأشعث ! أما والله لولا أنّ الله علِم أنك شرُّ خلقه ما ابتلاك برمى الكعبة الحرام ، ولا بقتل ابن ذات النِّطاقين أوّل مولود فى الإسلام ؛ وأما نهيك أميرَ المؤمنين عن مفاكهة النساء وبلوغ لذّاته وأوطاره ؛ فإنْ كنّ ينفرجن عن مثلك فما أحقّه بالقبول منك ! وإن كنّ ينفرجْنَ عن مثله ، فهو غير قابل لقولك . أما والله لو نفضَ نساءُ أمير المؤمنين الطيبَ من غدائرهنّ فبعنَه فى أعطية أهل الشام حين كنت فى أضيَق من القرن ، قد أظلتك الرّماح ، وأثخنك الكفاح ؛ وحين كان أمير المؤمنين أحبَّ إليهم من آبائهم وأبنائهم ؛ فأنجاك الله من عدوّ أمير المؤمنين بحبّهم إياه ؛ قاتل الله القائل حين ينظر إليك وسِنان غزالة [1] بين كتفيك :

أسَدٌ علىّ وفى الحرُوب نعامةٌ ... رَبْداء تنفِر من صَفيرِ الصّافرِ
هلا برزتَ إلى غزالة فى الوغى ... أم كان قلبك فى جَناحَىْ طائرِ !

ثم قالت لجواريها : أخرجْنَه ، فأخرج [2] :

***

(١) غزالة : امرأة شبيب الخارجى
(٢) عيون الأخبار ١ : ١٦٩ ، ١٧٠

ومن طريف حكايات الجبناء ماذكره ابن قتيبة أيضاً في الكتاب المذكور ؛ قال كان بالبصرة شيخٌ من بني نهشل بن دارم ، يقال له عروة بن مرثَد ، ويكنى أبا الأعزّ ، ينزل في بني أخت له من الأزْد في سكّة بني مازن ، فخرج رجالهم إلى ضياعهم في شهر رمضان ، وخرج النساء يصلِّين في مسجدهم ، ولم يبق في الدار إلا إماء ، فدخل كلب يتعسّس ، فرأى بيتاً مفتوحاً فدخله ، وانصفق الباب عليه ، فسمع بعضُ الإماء الحركة ، فظنوا أنه لصّ دخل الدار ، فذهبت إحداهنّ إلى أبي الأعزّ ، فأخبرته ، فقال أبو الأعزّ : إلام يبتغي اللصّ عندنا ! وأخذ عصاه ، وجاء حتى وقف بباب البيت ، وقال : إيه يافلان ! أما والله إنّي بك لعارف ، فهل أنت من لصوص بني مازن ! شربت حامضاً خَبيثاً ، حتى إذا دارت في رأسكَ منّتكَ نفسُكَ الأمانيّ ، وقلت : أطرُق دور بني عمرو ، والرجال خلُوف ، والنساء يصلِّين في مسجدهنّ ، فأسرقهم . سوءةً لك ! والله مايفعل هذا ولد الأحرار ! وايمُ الله لتخرجنّ أو لأهتفنّ هتفة مشئومة يلتقي فيها الحيّان : عمرو وحنظلة ، وتجيء سعد عدد الحصى ، وتَسيل عليك الرجال ، من هنا وهنا ، ولئن فعلتُ لتكوننّ أشأمَ مولود !

فلما رأى أنه لا يجيبهُ ، أخذه باللين ، فقال : اخرج ـ بأبي أنت ـ مستورا ، والله ماأراك تعرِفُني . ولو عرفتَني لقنعت بقولي ، واطمأننت إلى ابن أختي البارّ الوَصول ، أنا ـ فديتك ـ أبو الأعزّ النهشلي ! وأنا خال القوم ، وجِلْدة بين أعينهم ؛ لا يعصونني ، ولا تضارّا الليلة وأنت في ذمتي ، وعندي قوْصَرّتان[١] ، أهداهما إليّ ابنُ أختي البارّ الوصول ، فخذ إحداهما ، فانبذها حلالاً من الله ورسوله .

وكان الكلب إذا سمع الكلام أطرق ، وإذا سكت أبو الأعزّ وثب يريد المخرَج ، فتهانف[٢] أبو الأعزّ ، ثم تضاحك ، وقال : ياألأم الناس وأوضعهم ! ألا أراني لك منذ الليلة

(١) القوصرة ، مخفف ومثقل : وعاء يرفع فيه التمر من البواري . (٢) التهانف : الضحك والاستهزاء

فى وادٍ وأنت لى فى واد آخر ، أقبلت السوداء والبيضاء ، فتصيح وتطرق ؛ فإذا سكتُّ عنك وثبتَ تريد الخروج ! والله لتخرجنّ أو لأَلِجنّ عليك البيت .

فلما طال وقوفه جاءت إحدى الإماء فقالت : أعرابىٌّ مجنون والله ، ما أرى فى البيت شيئاً ، فدفعت الباب فخرج الكلب شاردا ، وحاد عنه أبو الأغرّ ساقطا على قفاه ، شائلة رجلاه ؛ وقال : تالله ما رأيت كالليلة هذه ! ما أراه إلا كلبا ، ولو علمت بحاله لولجت عليه[١]

ونظير هذه الحكاية حكاية أبى حيّة النميرىّ ، وكان جبانا ، قيل : كان لأبى حيّة سيفٌ ليس بينه وبين الخشب فرق ، كان يسميه لُعاب المنيّة ، فحكَى عنه بعضُ جيرانه أنه قال : أشرفتُ عليه ليلة ، وقد انتضاه وهو واقفٌ بباب بيت فى داره ، وقد سمع فيه حِسًّا ، وهو يقول : أيها المغترّ بنا ، المجترئ علينا ، بئس والله ما اخترتَ لنفسك ! خيرٌ قليلٌ وسيف صقيل ؛ لعاب المنيّة الذى سمعتَ به ، مشهورة صولته ، ولا تخاف نبوته . اخرج بالعفو عنك ؛ لا أدخل بالعقوبة عليك ؛ إنى والله إن أدعُ قيسا تملأ الفضاء عليك خيلا ورجلا . سبحان الله ! ما أكثرها وأطيبها ! والله ما أنت ببعيد من تابعها ، والرسوب فى تيار لجتها !

قال : وهبت ريحٌ ففتحتِ الباب ؛ فخرج كلب يشتدّ ، فلبط بأبى حية واربدّ ، وشغر برجليه ، وتبادرت إليه نساء الحى ، فقلن : ياأبا حيّة ، لتفرخ روعتُك ؛ إنما هو كلب ؛ فجلس وهو : يقول الحمد لله الذى مسخك كلبا ، وكفانى حربا[٢] !

* * *

وخرج مغيرة بن سعيد العِجْلىّ فى ثلاثين رجلا بظهر الكوفة ، فطمطموا[٣] ، وخالد بن عبد الله القسرىّ أمير العراق ، يخطب على المنبر فعرِق ، واضطرب وتحيّر ، وجعل يقول : اطعِمُونى ماء ، فهجاه ابن نوفل فقال :

(١) عيون الأخبار ١ : ١٦٨ ، ١٦٩

(٢) عيون الأخبار ١ : ١٦٨

(٣) الطمطمة : تتابع الأصوات واختلافها .

أخالدُ لاجزاكَ اللهُ خيراً وأيرى فى حِرامِّك من أميرِ [١]
تروم الفخر فى أعرابِ قَسْرٍ كأنك من سَراة بنى جَريرِ
جريرٍ من ذوى يمنٍ أصيلٌ كريم الأصل ذُو خَطَرٍ كبيرِ
وأمّك عِلْجَةٌ وأبوك وغْدٌ وما الأذناب عَدْلٌ للصدور !
وكنت لدَى المغيرة عبْدَ سَوْء تبولُ من المخافة للزئيرِ
لأعلاجٍ ثمانيةٍ وشَيْخٍ كبير السنّ ليس بذى ضَريرِ [٢]
صرخت من المخافة : أطعِمُونى شراباً ثمّ بُلْتَ على السريرِ

وقال آخر يعيره بذلك :

بَلّ المنابرَ من خوف ومن دَهَشٍ واستطعم الماء لما جدّ فى الهرَبِ [٣]

ومن كلام ابن المقفع فى ذم الجبن : الجبن مقتلة ، والحرص محرَمة ؛ فانظر فيما رأيت وسمعت : مَنْ قُتل فى الحرب مقبِلاً أكثر أم مَنْ قتل مدبرا ! وانظر مَنْ يطلب إليك بالإجمال والتكرّم أحقّ أن تَسخوَ نفسُك له بالعطيّة ، أم من يطلب ذلك بالشَرَهِ والحِرص !

---

(١) من أبيات وردت متفرقة فى البيان والتبيين ٣ : ٢٦٧/٤ : ٢٠٥ ، والحيوان ٢ : ٢٦٧/٤ : ٣٢٢ / ٧ : ٢٠

(٢) أورد المرزبانى هذا البيت فى الموشح ٢٣٥ ، وعده شاهداً على ماق الشعر من التناقض ، قال : فلفظة « ضرير » إنما تستعمل — وهى تصريف من الضر — فى الأكثر للذى لا بصر له ، وقول هذا الشاعر فى هذا الشيخ: إنه ذو بصر وأنه ضرير تناقض من جهة القنية والعدم؛ وذلك أنه كأنه يقول: إن له بصراً ولا بصر له ؛ فهو بصير أعمى .

(٣) البيت أيضاً ليحي بن نوفل ، ذكره الجاحظ فى البيان ١ : ١٢٢ ، وأورد بعده :

وَأَلْحَنُ النّاسِ كلِّ النّاسِ قاطبةً وكانَ يُولَعُ بالتَشْدِيقِ فى الخُطَبِ

(٦٩)

الأصل :

وقال عليه السلام فى سحرة اليوم الذى ضرب فيه :

مَلَكَتْنِي عَيْنِي وَأَنَا جَالِسٌ ، فَسَنَحَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ، فَقُلْتُ : يَارَسُولَ اللهِ ! مَاذَا لَقِيتُ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الْأَوَدِ وَاللَّدَدِ ! فَقَالَ : ادْعُ عَلَيْهِمْ ، فَقُلْتُ : أَبْدَلَنِي اللهُ بِهِمْ خَيْرًا مِنْهُمْ ، وَأَبْدَلَهُمْ بِي شَرًّا لَهُمْ مِنِّي .

قال الرضىّ رحمه الله :

يَعْنِي بالأَوَد الاعوجاج ، وباللَّدَد الخِصام ، وهذا من أفصَح الكلام .

***

الشرح :

قوله : « ملكتنى عينى » من فصيح الكلام ، يريد غَلَبَنِي النوم .

قوله : « فسنحلى رسول الله صلى الله عليه وآله » ، يريد مرّ بى كما تسنحُ الظِّباء والطير يمرّ بك ، ويعترض لك .

وذا هاهنا بمعنى « الذى » كقوله تعالى : ﴿ مَاذَا تَرَى ﴾[1] ؛ أى ماالذى ترى ، يقول: قلت له: ماالذى لقيتُ من أمتك؟ وما هاهنا استفهامية كأىّ ، ويقال ذلك فيما يستعظم أمره ، كقولهسبحانه : ﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ ﴾[2] . و « شرّا » هاهنا لايدلّ على أنّ فيه شرّا ، كقوله : ﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ ﴾[3] لايدلّ على أنّ فى النار خيراً .

---

(١) سورة الصافات ١٠٢ . (٢) سورة القارعة ١ ، ٢ (٣) سورة الفرقان ١٥ .

[خبر مقتل الإمام علىّ كرم الله وجهه]

ويجب أن نذكر فى هذا الموضع مقتله عليه السلام؛ وأصحّ ماورد فى ذلك ماذكره أبو الفرج على بن الحسين الأصفهانىّ فى كتاب "مقاتل الطالبيين"[١].

قال أبو الفرج علىّ بن الحسين - بعدَ أسانيد ذكرها مختلفة متفرّقة، تجتمع على معنى واحد نحن ذاكروه : إنّ نفراً من الخوارج اجتمعوا بمكّة فتذاكروا أمرَ المسلمين، فعابوهم وعابوا أعمالهم عليهم، وذكروا أهل النّهروان، فترحّموا عليهم، وقال بعضهم لبعض : لو أنا شَرَيْنا أنفسنا لله عزّ وجلّ فأتينا أئمةَ الضّلال، وطلبنا غِرّتَهم، وأرحْنَا منهم العباد والبلاد، وثأرنا بإخواننا الشُّهداء بالنهروان !

فتعاقدوا عند انقضاء الحجّ، فقال عبد الرحمن بن ملجَم : أنا أكفيكُمْ عليًّا، وقال واحد: أنا أكفيكم معاوية، وقال الثالث: أنا أكفيكم عَمْرو بن العاص، فتعاقدوا وتواثقوا على الوفاء، وألّا ينكِل أحد منهم عن صاحبه الذى يتوجّه إليه ولا عن قتله، واتّعدوا لشهرِ رمضان، فى الليلة التى قتَل فيها ابنُ ملجم عليًّا.

قال أبو الفرج : قال أبو مخنف: قال أبو زهير العبسىّ: الرجلان الآخران البُرَك بن عبدالله التميمىّ؛ وهو صاحب معاوية، وعمرو بن بكر التميمىّ، وهو صاحب عمرو بن العاص.

قال : فأما صاحبُ معاوية فإنّه قصده، فلما وقعت عينهُ عليه ضربه، فوقعت ضربته على أليته، وأُخِذ فجاء الطبيب إليه؛ فنظر إلى الضربة فقال: إنّ السيفَ مسموم؛ فاخترْ إمّا أن أحْمِىَ لك حديدةً فأجعلَها فى الضربة [فتبرأ][٢]، وإما أن أسقيَك دواء فتبرأ وينقطع نسلُك. فقال: أمّا النار فلا أطيقُها، وأما النسل ففى يزيد وعبدالله ماتقرّ عينى، وحسبى بهما. فسقاه الدواء فعوفى وعالج جُرحَه حتى التأم، ولم يولَد له بعد ذلك.

---

(١) مقاتل الطالبيين ص ٢٩ وما بعدها.
(٢) من مقاتل الطالبيين.

وقال له البُرَك بن عبدالله : إنّ لك عندي بشارةً ؛ قال : وماهي ؟ فأخبره خبرَ صاحبه؛ وقال له: إنّ عليا قُتل في هذه الليلة فاحتبسْني عندك، فإن قتِل فأنت وليّ ماتراه في أمري، وإن لم يقتَل أعطيتك العهود والمواثيق أنْ أمضِيَ إليه فأقتلَه ، ثم أعود إليك فأضع يدي في يدك ، حتى تحكم فيّ بما ترى. فحبسه عنده ، فلما أتى الخبرُ أنّ عليا قُتِل في تلك الليلة خلّى سبيله .

هذه رواية إسماعيل بن راشد . وقال غيره من الرواة : بل قتله من وقته .

وأما صاحبُ عمرو بن العاص ، فإنه وافاه في تلك الليلة ، وقد وجد علّةً فأخذ دواء، واستخلَف رجلاً يصلّي بالناس، يقال له خارجة بن أبي حبيبة، أحد بني عامر بن لؤيّ ، فخرج للصلاة، فشدّ عمرو بن بكر فضربه بالسيف فأثبته[1] ؛ وأخِذَ الرجل، فأُتِيَ به عمرو بن العاص فقتله ، ودخل من غد إلى خارجة وهو يجودُ بنفسه؛ فقال: أما والله ياأبا عبدالله ما أراد غيرَك. قال عمرو : ولكنّ الله أراد خارجة .

وأما ابن مُلْجَم فإنه قتَل علياً تلك الليلة .

قال أبو الفرج : وحدثني محمد بن الحسن الأشنانداني وغيره، قال : أخبرني عليّ بن المنذر الطريقي ، قال: حدثنا ابنُ فُضيل، قال : حدثنا فِطر[2] ، عن أبي الطُّفَيل، قال : جمع عليّ عليه السلام الناسَ للبيْعة ، فجاء عبدالرحمن بن ملجَم فردّه عليّ مرتين أو ثلاثا ، ثم مد يدَه فبايعه، فقال له عليّ: مايحبس أشقاها ! فوالذي نفسي بيده لتَخضِبَنّ هذه من هذه، ثم أنشد :

اشْدُدْ حيازيمك للمو ت فإنّ الموت لاقيكا
ولا تجزع من المو ت إذا حلّ بواديكا

قال أبو الفرج :

---

(١) أثبته : أي جرحه .

(٢) في الأصول : « قطن » ، تصحيف ، صوابه من مقاتل الطالبيين ؛ وهو فطر بن خليفة المخزومي، ذكره صاحب التهذيب فيمن روى عن أبي الطفيل عامر بن واثلة .

وقد روى لنا من طرق غير هذه، أن علياً أعطى الناس، فلما بلغ ابنَ ملجم أعطاه، وقال له:

أريـــدُ حياتَه ويُريدُ قتْلى عذيرَك من خليلك من مُرادِ(١)

قال أبو الفرج: وحدّثنى أحمد بن عيسى العِجْلىّ بإسناد ذكره فى الكتاب، إلى أبى زهير العبسىّ، قال: كان ابن ملجَم من مُراد وعداده فى كِندة، فأقبلَ حتى قدم الكوفة، فلقى بها أصحابه وكتمهم أمره، وطوى عنهم ما تعاقد هو وأصحابه عليه بمكة مِنْ قتل أمراء المسلمين مخافة أن ينتشر، وزار رجلاً من أصحابه ذات يوم من بنى تيم الرّباب، فصادف عنده قَطام بنت الأخضر، من بنى تيم الرّباب—وكان علىّ قتل أخاها وأباها بالنهروان، وكانت من أجمل نساء أهل زمانها— فلما رآها شُغِف بها، واشتدّ إعجابه فخطبها، فقالت له: ما الذى تُسَمّى لى من الصداق؟ فقال: احتكمِى مابدَا لك، فقالت: أحتكم عليك ثلاثة آلاف درهم ووصيفا وخادما، وأن تقتلَ علىّ بن أبى طالب. فقال لها: لك جميعُ ما سألتِ، وأما قتلُ علىّ فأنى لى بذلك! قالت: تلتمس غِرّته، فإن أنت قتلتَه شفيتَ نفسى؛ وهنأك العيش معى؛ وإن قُتِلْتَ فما عند الله خير لك من الدنيا، فقال لها: أما والله ما أقدمنى هذا المصرَ، وقد كنت هاربا منه لآمن أهلَه، إلا ما سألتِنى من قتْل علىّ.

قالت له: فأنا طالبة لك بعض مَنْ يساعدك على هذا ويقوّيك، ثم بعثت إلى وردان ابن مجالد، أحد بنى تَيم الرّباب، فخبّرته الخبر، وسألته معاونة ابن مُلجَم، فتحمّل لها ذلك، وخرج ابن مُلجَم، فأتى رجلاً من أشجع، يقال له شَبِيب بن بَجَرة، وقال له: ياشبيب؛ هل لك فى شرف الدنيا والآخرة؟ قال: وما ذاك؟ قال: تساعِدُنى على قتل علىّ—وكان شبيبٌ على رأى الخوارج— فقال له: هبِلَتك الهَبُول(٢)! لقد جئتَ شيئا إدًّا! وكيف تقدِر ويحك على ذلك! قال ابن ملجم: نكمن له فى المسجِد الأعظم؟

---

(١) البيت لعمرو بن معديكرب، اللآلى ١٣٨، وروايته هناك: «أريد حباءه».

(٢) الهبل: الثكل، والهبول: المرأة الثكول.

فإذا خرج لصلاة الفجر فتكنا به ، وشفينا أنفسنا منه ، وأدركنا ثأرنا . فلم يزل به حتى أجابه .

فأقبل به حتى دخلا على قطامِ ، وهى معتكفة فى المسجد الأعظم ، قد ضُرِبت لها قبّة ، فقالا لها : قد أجمع رأينا على قتلِ هذا الرجل ، قالت لهما : فإذا أردتما ذلك فالقيانى فى هذا الموضع . فانصرفا من عندها ، فلبثا أياماً ثم أتياها ، ومعهما وردان بن مجالد ، الذى كلّفَتْه مساعدةَ ابن مُلجَم ؛ وذلك فى ليلة الجمعة لتسع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة أربعين .

قال أبو الفرج : هكذا فى رواية ابن مخنف ، وفى رواية[1] أبى عبد الرحمن السُّلَمىّ أنها كانت ليلة سبع عشرة من شهر رمضان ، فقال لها ابن ملجَم : هذه الليلة هى التى وعدتُ فيها صاحبىّ ووعدَانى أن يقتلَ كلٌّ واحدٍ منا صاحبَه الذى يتوجّه إليه .

قلت : إنما تواعدُوا بمكة : عبد الرحمن ، والبُرَك ، وعَمْرو ؛ على هذه الليلة ؛ لأنهم يعتقدون أن قتل ولاة الجوْر قُربة إلى الله ، وأحرَى القُربات ما تُقُرِّب به فى الأوقات الشريفة المباركة .

ولما كانت ليلة الجمعة التاسعة عشرة من شهر رمضان ليلة شريفة ، يُرجَى أن تكون ليلة القَدْر ، عيّنوها لفعل ما يعتقدونه قُربةً إلى الله ؛ فليَعْجَب المتعجِّب من العقائد ، كيف تسرِى فى القلوب ، وتغلب على العقول ، حتى يرتكب الناسُ عظائمَ الأمور ، وأهوال الخطوب لأجلها !

[2]قال أبو الفرج : فدعت لهم بحريرٍ فعصبتْ به صدورهم ، وتقلدوا سيوفهم ، ومضوْا فجلسوا مقابل السُّدّة التى كان يخرج منها على عليه السلام إلى الصلاة[2] .

***

(١) ا ، ج ومقاتل الطالبيين : « حديث » .

(٢ ـ ٢) ساقط من ب ، وهو فى ا ، و ج ومقاتل الطالبيين .

قال أبو الفرج : وقد كان ابن ملجم أتى الأشعثَ بن قيس فى هذه الليلة ، فخلا به فى بعض نواحى المسجد ، ومرّ بهما حُجْر بن عدىّ ، فسمع الأشعثَ وهو يقول لابن ملجم : النَّجاءَ النَّجاء بحاجتك ! فقد فضحَك الصبح ، قال له حُجْر : قتلته يا أعور ! وخرج مبادراً إلى علىّ(١) ، وقد سبقه ابنُ مُلجَم فضربه(٢) ، فأقبل حُجْر والناس يقولون : قُتِل أمير المؤمنين

قال أبو الفرج : وللأشعث بن قيس فى انحرافِه عن أمير المؤمنين أخبارٌ يطول شرحها ، منها حديثٌ حدَّثنيه محمد بن الحسين الأشناندانىّ ، قال : حدثنى إسماعيل بن موسى : قال : حدثنا علىّ بن مسهر ، عن الأجلح ، عن موسى بن أبى النعمان قال : جاء الأشعثُ إلى علىّ يستأذِن عليه ، فردّه قَنْبَرَ ، فأدْمَى الأشعثُ أنفه ، فخرج علىّ وهو يقول : مالى ولك يا أشعث ! أما والله لو بعبد ثقيف تمرّست لاقشعرّتْ شعيراتك ! قيل : يا أمير المؤمنين ، ومَنْ عبد ثقيف ؟ قال : غلامٌ لهم لا يبقِى أهلَ بيتٍ من العرب إلا أدخلهم ذلاً ، قيل : يا أمير المؤمنين ، كم يَلِى — أو كم يمكث ؟ قال : عشرين ، إن بلغها .

قال أبو الفرج : وحدّثنى محمد بن الحسين أيضا بإسناد ذكره ، أنّ الأشعث دخل عَلَى علىّ فكلمه فأغلظ علىّ له ، فعرّض له الأشعث ؛ أنه سيفتك به ، فقال له علىّ : أبالموتِ تخوّفنى أو تهدّدنى ! فوالله ما أبالِى وقعتُ عَلَى الموتِ أو وقعَ الموتُ علىّ !

قال أبو الفرج : قال أبو مِخْنف : فحدّثنى أبى ، عن عبد الله بن محمد الأزدىّ ، قال : إنى لأصلِّى تلك الليلةَ فى المسجد الأعظم مع رجال من أهل المِصر ، كانوا يصلّون فى ذلك الشهر من أول الليل إلى آخره ؛ إذ نظرتُ إلى رجالٍ يصلّون قريبا من السُّدّة قياما وقعودا ، وركوعا وسجودا ، ما يسأمون ؛ إذ خرج عليهم علىّ بن أبى طالب الفجر ، فأقبل ينادى : الصلاة الصلاة ! فرأيتُ بريقَ السيف ، وسمعت قائلاً يقول : الحكم لله يا علىّ لا لك ،

---

(١) بعدها فى مقاتل الطالبيين : « وأسرج دابته » .
(٢) فى مقاتل الطالبيين : « فضرب علياً » .

ثم رأيت بريقَ سيف آخر ، وسمعت صوتَ عليٍّ عليه السلام ، يقول : لا يفوتنّكم الرجل.

قال أبو الفرج : فأما بريقُ السيف الأول ، فإنه كان شبيب بن بجرة ضربه فأخطأه ، ووقعت ضربته فى الطّاق ، وأما بريق السيف الثانى ، فإنه ابن ملجم ، ضَرَبه فأثبت الضربة فى وسط رأسه ، وشدّ الناس عليهما من كلّ ناحية ، حتى أخذوهما(١) .

قال أبو مخنف : فهمْدَان تذكُر أنّ رجلا منهم ، يكنى أبا أدماء أخذ ابنَ ملجم . وقال غيرهم : بل أخذَهُ المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب ، طرحَ عليه قطيفة ثم صرَعه ، وأخذ السيف من يده وجاء به .

قال : وأما شبيب بن بجرة فإنه خرج هارباً ، فأخذه رجلٌ فصرَعه ، وجلس على صدره ، (٢وأخذ السيف من يده ليقتله ، فرأى الناسَ يقصدون نحوه ، فخشىَ أن يعجّلوا عليه ، فوثب عن صدره٢) ، وخلّاه وطرح السيف عن يده ؛ وأمّا شبيب بن بجرة ففاته ، فخرج هارباً حتى دخلَ منزله ، فدخل عليه ابنُ عمٍّ له ، (٣فرآه يحلّ الحرير عن صدره ، فقال له٣) : ماهذا ؟ لعلّك قتلت أمير المؤمنين ! فأراد أن يقول : لا ، فقال : نعم ، فمضى ابنُ عمّه فاشتمل على سيفه ثم دخل عليه فضربه حتى قتله .

قال أبو مخنف : فحدّثنى أبى ، عن عبد الله بن محمد الأزدىّ ، قال : أدخِلَ ابنُ ملجم على علىّ عليه السلام ، ودخلتُ عليه فيمن دخَل ، فسمعت عليا يقول : النّفْس بالنفس ؛ إن أنا مِتّ فاقتلوه كما قتلنى ، وإن سلِمْتُ رأيت فيه رأيى ؛ فقال ابن ملجم : ولقد اشتريتُه بألفٍ – يعنى السيف –، وسمّمْتُه بألف ، فإن خاننى فأبعده الله ! قال : فنادته أمّ كلثوم : ياعدوّ الله ، قتلتَ أميرَ المؤمنين ! قال إنّما قتلت أباك ، قالت : ياعدوّ الله ؛ إنى لأرجُو

---

(١) مقاتل الطالبيين : « عليه من كل ناحية حتى أخذوه » .

(٢ – ٢) ساقط من ا ، ج ، وهو فى مقاتل الطالبيين .

(٣ – ٣) ساقط من ا ، ب ، وهو فى مقاتل الطالبيين .

ألا يكون عليه بأس ، قال : فأراكِ إنما تبكين عليًا إذاً والله لقد ضربتُه ضربة لو قسِمَت بين أهل الأرض لأهلكتهم .

قال أبو الفرج : وأخرج ابن ملجم من بين يديه ، وهو يقول [١] :

نحنُ ضَرَبْنا يا بنةَ الخير إذ طَغَى أبا حسنٍ مأمومةً فتفطّرا [٢]

ونحن حَلَلْنا ملكه من نظامِه بضربةِ سيف إذ علا وتجبَّرا

ونحن كرامٌ فى الصَّباحِ أعزةٌ إذا المرء بالموتِ ارتدى وتأزرا

قال : وانصرفَ النَّاسُ من صلاة الصبح ، فأحدَقُوا بابن ملجم ، ينهشُون لحمَه بأسنانهم كأنَّهم السباع ، ويقولون : ياعدوَّ الله ، ماذا صنَعت ! أهلكت أمةَ محمد ، وقتلت خيرَ الناس ! وإنه لصامت ما ينطِق .

قال أبو الفرج: وروى أبو مِخْنَف، عن أبى الطُّفَيل، أنّ صعصعة بن صُوحان، استأذَنَ على علىّ عليه السلام، وقد أتاه عائدا لما ضرَبه ابن ملجم — فلم يكن عليه إذْنٌ — فقال صعصعة للآذن : قلْ له : يرحمك الله يا أمير المؤمنين حيًّا وميّتا ، فلقد كانَ الله فى صدرك عظيما ، ولقد كنت بذات الله عليما . فأبلغه الآذِنُ مقالتَه ، فقال : قل له : وأنت يرحمك الله ،فلقد كنتَ خفيف المؤنة ، كثير المعونة .

قال أبو الفرج : ثم جُمع له أطباء الكوفة ، فلم يكن منهم أحدٌ أعلم بجُرحه من أثير بن عمرو بن هانئ السَّكونىّ — وكان متطبِّبا صاحب كرسىّ يعالج الجراحات، وكان من الأربعين غلاماً الذين كان خالد ابن الوليد أصابهم فى عين التمر فسباهم — فلما نظر أثير إلى جرح أمير المؤمنين دعا برئة شاة حارّة ، فاستخرج منها عِرْقاً ، وأدخله فى الُجرح ، ثم نفخه ، ثم

(١) الأبيات فى المؤتلف والمختلف للآمدى ٢٨٥ ، ونسبها إلى ابن ميناس . قال : وميناس أمه .
(٢) المأمومة : الشجة تبلغ أم الرأس .

استخرجه ، وإذا عليه بياض الدّماغ ، فقال : ياأمير المؤمنين ، اعهد عهدك ؛ فإنّ عدوّ الله قد وصلتْ ضربتُه إلى أمّ رأسك . فدعا علىٌّ عليه السلام عندذلك بدواة وصحيفة، وكتب وصيتَه : هذا ما أوصى به أميرُ المؤمنين علىّ بن أبى طالب ؛ أوصى بأنه يشهدُ أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودينِ الحقّ ليظهرَه على الدّين كله ولو كره المشركون ؛ صلوات الله وبركاته عليه ؛ إن صلاتى ونُسُكِى ومحْيَاى ومماتى لله رب العالمين ، لاشريك له، وبذلك أمرت وأنا أوّل المسلمين. أوصيك ياحسن وجميعَ ولدى وأهل بيتى ومَنْ بلغه كتابى هذا بتقوى الله ربّنا وربكم ، ولا تموتُنّ إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا ، فإنى سمعتُ رسول الله يقول : « صلاح ذات البين أفضلُ من عامة الصلاة والصيام ، وإن المبِيرة حالقة الدين إفساد ذات البين ، ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم . انظروا إلى ذوى أرحامكم فصِلُوهايهوّن الله عليكم الحساب . واللهَ اللهَ فى الأيتام فلا تُغِيرُنّ أفواهَهم بجفوتكم. والله الله فى جيرانكم،فإنها وصيةرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فما زال يُوصينا بهم حتى ظنَنّا أنه سيورّثهم الله ؛ واللهَ اللهَ فى القرآن فلا يسبقنّكم بالعمل به غيرُكم . والله الله فى الصلاة ، فإنها عماد دينكم . والله الله فى صيام شهر رمضان فإنه جُنّة من النار. واللهَ اللهَ فى الجهادبأموالكم وأنفسكم ، والله الله فى زكاة أموالكم ، فإنها تطفئْ غضب ربكم ، والله الله فى أهل بيت نبيكم فلا يظلَمُنّ بين أظهركم ، والله الله فى أصحاب نبيّكم فإن رسول الله صلى الله عليه وآله أوصَى بهم . والله الله فى الفقراء والمساكين فأشركوهم فى معايشكم . والله الله فيما ملكت أيمانكم فإنه كانت آخر وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله إذ قال : «أوصيكم بالضّعيفين؛ فيماملكت أيمانكم» ، ثم الصلاةَ الصلاةَ لا تخافوا فى الله لومة لائم يكفكم مَنْ بغى عليكم، ومن أرادكم بسوء. قولوا للناس حسنا، كما أمركم الله به ، ولا تتركوا الأمرَ بالمعروف والنهى عن المنكر فيتولّى ذلك غيرُكم ، وتدعون فلا يستجابُ لكم. عليكم بالتواضُع والتباذل والتبارّ ، وإياكم والتقاطُع والتفرّق

والتدابر ، تعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب . حفظكم الله من أهل بيت ، وحفظ فيكم نبيَّهُ ؛ أستودعكم الله خير مستودَع ، وعليكم سلام الله ورحمته .

قلت : قوله : « والله الله فى الأيتام ، فلا تغبّرنّ أفواههم بجفوتكم » يحتمل تفسيرين : أحدُهما لا تجيعوهم ؛ فإن الجائع يخلُف فمه ، وتتغيّر نكهته . والثانى : لا تحوجوهُم إلى تكرار الطلب والسؤال ، فإنّ السائل ينضبُ ريقه وتنشفُ لهواته ، ويتغيّر ريح فمه .

وقوله حكاية عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « أوصيكم بالضعيفين فيما ملكت أيمانكم » ، يعنى به الحيوان الناطق والحيوان الأعجم .

قال أبو الفرج : وحدثنى أبو جعفر محمد بن جرير الطبرىّ بإسناد ذكره فى الكتاب ، عن أبى عبد الرحمن السلمىّ ، قال : قال لى الحسن بن علىّ عليه السلام : خرجتُ وأبى يصلّى فى المسجد ، فقال لى : يابنىّ إنى بتّ الليلة أوقظ أهلي ، لأنها ليلة الجمعة صبيحة يوم بدر لتسع[1] عشرة ليلة خلت من شهر رمضان ، فملكتنى عيناى ، فسنح لى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقلت : يارسول الله ؛ ماذا لقيت من أمّتك من الأوَد[2] واللّدد ا فقال لى : ادْعُ عليهم ؛ فقلت : اللهم أبدلنى بهم خيراً منهم ، وأبدلهم بى مَنْ هو شرٌّ منى » .

قال الحسن عليه السلام : وجاء ابنُ أبى السّاج ، فآذَنه بالصلاة ؛ فخرج فخرجت خَلْفه ، فاعتوره الرجلان ، فأمّا أحدُهما فوقعت ضربته فى الطّاق ، وأما الآخر فأثبتها فى رأسه .

قال أبو الفرج : قال : حدثنى أحمد بن عيسى ، قال : حدّثنا الحسين بن نصر ، قال :

---

(١) مقاتل الطالبيين : « لسبع عشرة » .

(٢) فى مقاتل الطالبيين : قال أبو الفرج : الأود : العوج ، واللدد : الخصومات .

حدثنا زيد بن المعدّل ، عن يحيى بن شعيب ، عن أبى مِخنف ، عن فُضَيل بن خديج ، عن الأسود الكندىّ والأجلح ؛ قالا ، توفّى علىّ عليه السلام وهو ابن أربع وستين سنة فى عام أربعين من الهجرة ، ليلة لإحدى وعشرين ليلة الأحد مضت من شهر رمضان ، ووَلِىَ غُسلَه ابنُه الحسن وعبد الله بن العباس ، وكُفِّنَ فى ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ، وصلّى عليه ابنُه الحسن ، فكبّر عليه خمسَ تكبيرات ، ودُفِن بالرَّحَبة ، مما يلِى أبوابَ كِندة عند صلاة الصبح .

هذه رواية أبى مخنف .

قال أبو الفرج : وحدّثنى أحمد بن سعيد ، قال : حدثنا يحيى بن الحسن العلوىّ ، قال : حدّثنا يعقوب بن زيد ، عن ابن أبى عُمَير ، عن الحسن بن على الخلال ، عن جدّه ، قال : قلت للحسين[1] بن علىّ عليه السلام : أين دفنتم أمير المؤمنين عليه السلام ؟ قال : خرجنا به ليلا من منزله حتى مَرَرْنا به على منزل الأشعث بن قيس ، ثم خرجنا به إلى الظهر بجنب الغرِىّ .

قلت : وهذه الرواية هى الحقّ وعليها العمل ؛ وقد قلنا فيما تقدّم أن أبناء الناسِ أعرفُ بقبور آبائهم من غيرهم من الأجانب ؛ وهذا القبر الذى بالغرىّ ، هو الذى كان بنو علىّ يزورونه قديما وحديثا ؛ ويقولون : هذا قبر أبينا ، لا يشكّ أحد فى ذلك من الشّيعة ، ولا من غيرهم ؛ أعنى بنى علىّ من ظهر الحسن والحسين وغيرهما من سلالته ، المتقدمين منهم والمتأخرين ، ما زاروا ولا وقفوا إلّا على هذا القبر بعينه .

* * *

وقد روى أبو الفرَج عبد الرحمن بن على بن الجوزىّ فى تاريخه المعروف "بالمنتظم"[2] وفاة

(١) مقاتل الطالبين : « الحسن » .
(٢) المنتظم ٩ : ١٨٩ .

أبى الغنائم محمد بن على بن ميمون النَّرسِىّ (١) المعروف بأُبىّ (٢) ، لجودة قراءته قال :

توفى أبو الغنائم هذا فى سنة عشر وخمسمائة ، وكان محدِّثاً من أهل الكوفة ثقة حافظاً ، وكان من قُوّام الليل ومن أهل السنّة ، وكان يقول : ما بالكوفة مَنْ هو على مذهب أهل السنّة وأصحاب الحديث غيرى ؛ وكان يقول : مات بالكوفة ثلاثمائة صحابىّ ليس قبر أحد منهم معروفاً إلا قبر أمير المؤمنين ، وهو هذا القبر الذى يزوره الناس الآن ؛ جاء جعفر بن محمد عليه السلام وأبوه محمد بن علىّ بن الحسين عليهم السلام إليه ، فزاراه ، ولم يكن إذ ذاك قبراً معروفاً ظاهراً ، وإنما كان به سَرْح عِضاه ، حتى جاء محمد بن زيد الداعى صاحب الديلم ، فأظهر القبر (٣) .

وسألت بعضَ من أثق به من عقلاء شيوخ أهل الكوفة عمّا ذكره الخطيب أبو بكر فى تاريخه ، أنّ قوما يقولون : إنّ هذا القبر الذى تزورُه الشيعة إلى جانب الغرِىّ هو قبر المغيرة بن شعبة ، فقال : غلطوا فى ذلك ، قبر المغيرة وقبر زياد بالثويّة (٤) من أرض الكوفة ، ونحن نعرفهما وننقل ذلك عن آبائنا وأجدادنا . وأنشدنى قولَ الشاعر يرثى زيادا ، وقد ذكره أبو تمام فى الحماسة :

صَلّى الإلٰه على قبرٍ وَطَهّرَهُ ... عند الثويّة يَسفِى فوقَه المورُ (٥)

زَفّت إليه قريشٌ نعشَ سيّدِها ... فالحلم والجودُ فيه اليوم مقْبُور (٦)

أبا المغيرة والدنيا مفجِّعةٌ ... وإنّ من غَرّتِ الدنيا لمغْرُور

(١) فى الأصول : « الرسىّ » ، وما أثبته عن المنتظم والنجوم الزاهرة ٥ : ٢١٢ .

(٢) أُبىّ بن كعب بن قيس سيد القراء .

(٣) فى الأصول : « القيمة » ، وما أثبته من المنتظم .

(٤) الثوية : موضع قريب من الكوفة .

(٥) الأبيات فى الكامل للمبرد ١ : ٣١٧ ، ونسبها إلى حارثة بن بدر ؛ وهى أيضاً فى معجم البلدان ٣ : ٢٨ بهذه النسبة . والمور : التراب ؛ يريد أن الريح تسفيه بالتراب .

(٦) قال المبرد : قوله : « نعش سيدها » يريد موضعه من النسب ؛ لأنه نسبه إلى أبى سفيان ؛ وكان رئيس قريش قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم » .

قــد كان عندك للمعروف معرفةٌ ... وكان عنـــدك للمنكور تنكيرُ
وكنت تُغْشَى وتعطى المَالَ مِنْ سَعَةٍ ... فاليوم قبرُك أضحى وهو مهجُورُ
والنَّاسُ بعدَك قــد خفَّتْ حُلُومُهُمُ ... كأنما نُفِخَتْ فيــه الأعاصيرُ (١)

وسألت قطبَ الدين نقيب الطالبيين أبا عبد الله الحسين بن الأقساسيّ رحمه الله تعالى عن ذلك ، فقال : صدَق من أخبرك ؛ نحن وأهلها كافة نعرف مقابر ثَقِيف إلى الثوية ، وهى إلى اليوم معروفة ، وقبر المغيرة فيها ، إلا أنها لا تعرف ، وقد ابتلعها السَّبَخُ وَزَبَدُ الأرض وفورانُها ، فطمِسَت واختلط بعضها ببعض .

ثم قال : إن شئت أن تتحقق أنّ قبر المغيرة فى مقابر ثَقِيف فانظر إلى كتاب الأغانى (٢) لأبى الفرج على بن الحسين ، والمَحْ ما قاله فى ترجمة المغيرة ، وأنه مدفونٌ فى مقابر ثقيف ، ويكفيك قولُ أبى الفرج ، فإنه الناقد البصير ، والطبيب الخبير ؛ فتصفّحْتُ ترجمةَ المغيرة فى الكتاب المذكور ، فوجدت الأمر كما قاله النقيب .

***

قال أبو الفرج : كان مصقلةُ بن هبيرة الشيبانى قد لاَحَى المغيرةَ فى شىء كان بينهما منازعة ، فضرعَ له المغيرة وتواضع فى كلامه ، حتى طمع فيه مصقلة ، فاستعلى عليه وشتمه ، وقال : إنّى لأعرفُ شبَهى فى عروة ابنك ، فأشهد المغيرة على قوله هذا شهوداً ، ثم قدمه إلى شُرَيح القاضى ، فأقام عليه البيِّنة ، فضربه شريح الحدّ وآلى مصقلة ألّا يقيم ببلدة فيها المغيرة ، فلم يدخل الكوفة ، حتى مات المغيرة ، فدخلها ، فتلقاه قومُه فسلّموا عليه ، فما فرغ من السلام حتى سألهم عن مقابر ثقيف ، فأرشدوه إليها ، فجعل قومٌ من مواليه

---

(١) قال المبرد : « قوله : كأنما نفخت فيه الأعاصير ؛ هذا مثل ؛ وإنما يريد خفة الحلوم . والإعصار ــ فيما ذكر أبو عبيدة ــ ريح تهب بشدة فيما بين السماء والأرض » . هذا ولم أجد الأبيات فى الحماسة .
(٢) انظر الأغانى ١٦ : ٧٩ــ١٠١ .

يلتقطونَ الحجارة ، فقال لهم : ماهذا ؟ فقالوا : نظنّ أنكَ تريد أن ترجُم قبر المغيرة ، فقال: ألقوا ماقى أيديكم ، فانطلق حتى وقف على قبره ، ثم قال : والله لقد كنتَ ـ ماعلمت ـ نافعا لصديقك ، ضارًا لعدوك ، ومامثلك إلا كما قال مهلهل فى كليب أخيه :

إنّ تحتَ الأحجارِ حَزْماً وعَزْماً وَخصِيماً ألَدّ ذا مِغْـــلاقِ(١)

حيّــةٌ فى الوِجار أرْبد لَا ينـ ـفعُ منــه السليمَ نفثةُ راقِ

***

قال أبو الفرج : فأما ابن ملجم ، فإن الحسن بن علىّ بعد دفنه أمير المؤمنين دعَا به وأمر بضرب عنقه ، فقال له : إن رأيت أن تأخذ علىّ العهود أن أرجعَ إليك حتى أضعَ يدى فى يدك ، بعد أن أمضىَ إلى الشام ، فأنظر ماصنع صاحبى بمعاوية ، فإن كان قتله وإلاقتلته ثم عدت إليك حتى تحكُم فىّ حكمك . فقال : هيهات ، والله لانشربُ الماء البارد حتى تلحق روحك بالنار ، ثم ضرب عنقه ، واستوهبت أم الهيثم بنت الأسود النَخَعيّة جثّته منه ، فوهبها لها ، فأحرقتها بالنار .

وقال ابن أبى مياس الفزارىّ ، وهو من الخوارج :

فلَمْ أرَ مَهراً ساقَهُ ذُو سماحة كمهر قَطام من غنىّ ومُعْدِمِ

ثلاثة آلافٍ وعبدٌ وقَيْنةٌ وضربُ علىّ بالحسام المصمّمِ

فلا مهرَ أغلى من علىّ وإن غلا ولافتْكَ إلادون فتْكِ ابن ملجم

وقال عبد الله بن العباس بن عبد المطلب(٢) :

وَهزّ علىٌّ بالعراقين لحيةً مصيبتُها جلّت عَلَى كل مُسْلِم

وقال سيأتيها من الله نازلٌ ويخضِبُها أشقىَ البَرية بالدم

فعاجَلَهُ بالسيف شَلّتْ يمينه لشؤم قَطَام عند ذاك ابن مُلْجَم

---

(١) الأغانى ١٦ : ٩٢ ، والمغلاق : اللسان البليغ

(٢) الأبيات فى الاستيعاب ٤٧٢ ، ونسبها ، إلى بكر بن حماد .

فياضربةً من خاسر ضَلَّ سعيُه تَبَوَّأ منها مقعداً فى جهنمِ
ففاز أميرُ المؤمنين بحظه وإن طرقت إحدى الليالى بمعظم
ألا إنما الدنيا بلاء وفتنة حلاوتُها شيبتْ بصابٍ وعلقم

قال أبو الفرج: وأنشدنى عمى الحسن بن محمد، قال: أنشدنى محمد بن سعد، لبعض بنى عبد المطلب، يرثى عليا، ولم يذكر اسمه:

ياقبرَ سيدنا المجنَّ سماحةً صلّى الإلهُ عليك ياقبرُ
ماضرَّ قبراً أنت ساكنُه ألا يحُل بأرضه القطرُ
فليندينَّ سماحُ كفِّك بالثرى وليورِقَنَّ بجنبك الصَّخْرُ
والله لوبك لم أجِدْ أحدا[1] إلا قتلت، لفاتني الوترُ

---

(١) فى حاشية ج: «لم أدعْ أحداً».

— ٧٠ —

الأصْلُ

ومن كلام له عليه السلام فى ذم أهل العراق :

أمَّا بَعْدُ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَالْمَرْأَةِ الْحَامِلِ ، حَمَلَتْ فَلَمَّا أَتَمَّتْ أَمْلَصَتْ وَمَاتَ قَيِّمُهَا ، وَطَالَ تَأَيُّمُهَا ، وَوَرِثَهَا أَبْعَدُهَا .

أَمَا وَاللهِ مَا أَتَيْتُكُمْ اخْتِيَارًا ؛ وَلٰكِنْ جِئْتُ إِلَيْكُمْ سَوْقًا . وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَقُولُونَ : عَلِيٌّ[1] يَكْذِبُ ، قَاتَلَكُمُ اللهُ تَعَالَى ! فَعَلَى مَنْ أَكْذِبُ ! أَعَلَى اللهِ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ ! أَمْ عَلَى نَبِيِّهِ ؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَ[2] بِهِ !

كَلَّا وَاللهِ ؛ لٰكِنَّهَا لَهْجَةٌ غِبْتُمْ عَنْهَا ، وَلَمْ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهَا ، وَيْلُ أُمِّهِ كَيْلًا بِغَيْرِ ثَمَنٍ لَوْ كَانَ لَهُ وِعَاءٌ ؛ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ !

***

الشّرْحُ :

أملصتِ الحامل : ألقتْ ولدها سقاطا وقيِّمها : بعلها . وتأيّمها : خلوّها عن الأزواج ؛ يقول : لما شارفتم استئصالَ أهل الشام ، وظهرت أمارات الظّفر لكم ، ودلائل الفتح ، نكصتم وجنحتم إلى السِّلْم والإجابة إلى التحكيم عند رفع المصاحف ؛ فكنتم كالمرأةِ الحامل لما أتمت أشهرَ حَمْلِها ألقت ولدها إلقاء غير طبيعيّ ؛ نحو أن تلقيَه لسقطةٍ أو ضربة أو عارض يقتضى أن تلقِيَه هالكا .

ثم لم يكتفِ لهم بذلك ، حتى قال : «ومات بعلها ، وطال تأيّمها ، وورثها أبعدها» ، أى لم يكن لها ولد وهو أقربُ المخلفين إلى الميت ، ولم يكن لها بعلٌ فورثها الأباعد عنها ،

(١) ساقطة من مخطوطة النهج .

(٢) مخطوطة النهج : « صدّقه »

كالسافلين من بنى عمّ ، وكالمولاة تموت من غير ولد ولا من يجرى مجراه ، فيرثها مولاها ولا نَسب بينها وبينه .

ثم أقسم أنه لم يأتهم اختيارا ، ولكنّ المقاديرَ ساقته إليهم سَوْقاً ، يعنى اضطرارا .

وصدقَ عليه السلام ، لأنه لولا يوم الجمل لم يحتجْ إلى الخروج من المدينة إلى العراق ، وإنما استنجَد بأهْل الكوفة على أهل البصرة ، اضطراراً إليهم ، لأنه لم يكن جيشُه الحجازى وافياً بأهل البصرة الذين أصفقوا على حَرْبه ونكْث بيعته ، ولم يكن خروجه عن المدينة ـ وهى دار الهجرة ـ ومفارقته لقبر رسول الله صلى الله عليه وآله وقبرِ فاطمة عن إيثارٍ ومحبّة ؛ ولكنّ الأحوال تحكم وتسوقُ الناس إلى مالا يختارونه ابتداء .

وقد روى هذا الكلام على وجه آخر : « ما أتيتكم اختياراً ، ولا جئت إليكم شوقاً » بالشين المعجمة .

ثم قال : « بلغنى أنكم تقولون : يكذب » ؛ وكان كثيرا مايخبر عن الملاحم والكائنات ويومئ إلى أمور أخبره بها رسول الله صلى الله عليه وآله ، فيقول المنافقون من أصحابه : يكذب كما كان المنافقون الأوّلون فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله يقولون عنه : يكذب .

***

وروى صاحب كتاب " الغارات " ، عن الأعمش ، عن رجاله ، قال : خطب على عليه السلام ، فقال :

والله لو أمرتُكم فجمعتم من خياركم مائة ، ثم لو شئت لحدّثتكم من غُدوة إلى أن تَغيب الشمس ؛ لا أخبرتُكم إلاحقا ؛ ثم لتخرُجنّ فلتزعُمنّ أنى أكْذَبُ الناس وأفجرُهم .

وقد روى صاحب هذا الكتاب وغيره من الرواة أنه قال :

إن أمرَنا صعب مستصعَب ، لايحمله إلا ملك مقرّب ، أو نبىٌّ مرسل ، أو عبدٌ امتحَن الله قلبَه للإيمان .

وهذا الكلام منه كلام عارفٍ عالم بأنّ فى الناس مَنْ لا يصدّقه فيما[1] يقول ؛ وهذا أمر مركوز فى الجبلّة البشرية ، وهو استبعاد الأمور الغريبة ، وتكذيب الإخبار بها . وإذا تأمّلتَ أحواله فى خلافته كلّها وجدتها هى مختصرة من أحوال رسول الله صلى الله عليه وآله فى حياته ؛ كأنها نسخة منتسَخة منها ، فى حربه وسِلْمه ، وسيرته وأخلاقه ، وكثرة شكايته من المنافقين من أصحابه والمخالفين لأمره ؛ وإذا أردت أن تعلم ذلك علما واضحا ، فاقرأ سورة « براءة » ففيها الجمّ الغفير من المعنَى الذى أشرنا إليه .

***

[ذكر مطاعن النَّظَّام على الإمام علىّ والردّ عليه]

واعلم أن[2] النظّام لما تكلّم فى كتاب "النُّكت" ، وانتصر لكون الإجماع ليس بحجّة ، اضطر إلى ذكر عيوب الصحابة ، فذكر لكلّ منهم عيبا ، ووجّه إلى كلّ واحد منهم طعنا ، وقال فى علىّ : إنه لما حارب الخوارج يوم النّهروان ، كان يرفعُ رأسَه إلى السماء تارة ينظر إليها ، ثم يُطرِق إلى الأرض فينظر إليها تارةً أخرى ، يُوهِم أصحابه أنه يُوحَى إليه ، ثم يقول : « ما كذبت ولا كُذِبت » ، فلما فرغ من قتالهم وأُدِيل عليهم ، ووضعت الحرب أوزارها ، قال الحسن ابنه : يا أميرَ المؤمنين ، أكانَ رسول الله صلى الله عليه وآله تقدّم إليك فى أمر هؤلاء بشىء ؟ فقال : لا ، ولكنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أمرَنى بكلّ حقّ ، ومن الحقّ أن أقاتلَ الناكثين والقاسطين والمارقين .

قال النّظام[1] : وقولُه : « ما كَذَبت ولا كُذِبت » ، ورفعه رأسه أحيانا إلى السماء وإطراقه إلى الأرض إيهام ؛ إما لنزول الوحى عليه ، أو لأنه قد أُوصِىَ من قَبل فى شأن الخوارج بأمرٍ . ثم هو يقول : ما أُوصِىَ فيهم على خصوصيّتهم بأمر ؛ وإنما أُوصِىَ بكلّ الحق ، وقتالهم من الحق .

(١) كذا فى ج ، وفى ا ، ب : « كما » .

(٢) هو إبراهيم بن سيار بن هانئ البصرى أبو إسحاق النظام ، أحد أئمة المعتزلة ؛ ذكره ابن حجر فى لسان الميزان ١ : ٦٧ ، وقال إنه « مات فى خلافة المعتصم سنة بضع وعشرين ومائتين » .

وهذا عجيب طريف .

فنقول : إن النظام أخطأ عنـدنا فى تعريضه بهـذا الرجل خطأ قبيحاً ، وقـال قولًا منـكرا ؛ نستغفر الله له من عقابه ، ونسأله عفوَه عنه ؛ وليست الرواية التى رواها عن الحسن وسؤالِه لأبيه وجوابه له ، بصحيحة ولا معروفة ، والمشهور المعروف المنقولُ نقلًا يكاد يبلغ درجةَ المتواتر من الأخبار ، ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله فى معنى الخوارج بأعيانهم وذكرهم بصفاتهم ، وقوله صلى الله عليه وآله لعلى عليه السلام : « إنَّك مقاتلهم وقاتلهم ، وإن المخدَج[1] ذا الثُّدَيَّة منهم ؛ وإنك ستقاتل بعدى الناكثين والقاسطين والمارقين » ؛ فجعلهم أصنافا ثلاثة حسب ماوقعت الحال عليه . وهذا من معجزات الرسول صلى الله عليه وآله ، وإخباره عن الغيوب المفصّلة . فما أعلمُ من أىّ كتابٍ نَقَلَ النظّام هذه الرواية ، ولا عن أىّ مُحدِّث رواها ؛ ولقد كان رحمه الله تعالى بعيداً عن معرفة الأخبار والسِّيَر منصباً فكره ، مجهدا نفسه فى الأمور النظرية الدقيقة . كمسألة الجزء . ومداخلة الأجسام وغيرهما ، ولم يكن الحديث والسِّيَرُ من فنونه ولا مِن علومه ؛ ولا ريب أنه سمِعها ممن لا يوثَق بقوله ، فنقلها كما سمعها .

فأما كونه عليه السلام كان ينظر تارةً إلى السماء ، وتارةً إلى الأرض . وقوله : « ما كَذَبت ولا كُذِبت » ، فصحيح وموثوق بنقله ، لاستقامته وشهرته وكثرة رواته ؛ والوجه فى ذلك أنه استبطأ وجود المخدَج حيث طلبه فى جملة القتلى ، فلما طال الزمان . وأشفق من دخول شبهة على أصحابه لما كان قدّمه إليهم من الأخبار قَلِقَ واهتمّ . وجعل يكرر قوله : « ما كَذَبت ولا كُذِبت » أى ما كذبت على رسول الله صلى الله عليه وآله . ولا كَذَبنى رسول الله صلى الله عليه وآله فيما أخبرنى به .

فأمّا رفعُه رأسَه إلى السماء تارةً . وإطراقُه إلى الأرض أخرى ؛ فإنّه حيث كان يرفع

---

(١) المخدج : الناقص اليد .

رأسه ، كان يدعُو ويتضرّع إلى الله فى تعجيل الظَّفَرِ بالمخدَج ؛ وحيث يطرِق كان يغلبُه الهمّ والفكر فيُطرق .

ثم حين يقول : « ما كَذَبت ولا كُذِبت » ، كيف ينتظر نزول الوحى ، فإنّ من نزل عليه الوحى لا يحتاج أن يُسند الخبر إلى غيره ، ويقول : ما كَذَبت فيما أخبرتكم به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومما طعن به النظّام عليه[1] أنه عليه السلام قال : إذا حدّثتكم عن رسول الله صلى الله عليه وآله فهو كما حدّثتكم ، فوالله لأن أخِرّ من السماء أحبُّ إلىّ من أن أكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا سمعتمونى أحدّثكم فيما بينى وبينكم ؛ فإنما الحرْب خدعة » .

قال النظّام : هذا يجرِى مجرى التّدليس فى الحديث ، ولو لم يحدّثهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله بالمعاريض ؛ وعلى طريق الإيهام لما اعتذر من ذلك .

فنقول فى الجواب : إنّ النّظّام قد وَهِم وانعكس عليه مقصِد أمير المؤمنين ؛ وذلك أنه عليه السلام[1] لشدة ورعه أراد أن يفصّل للسامعين بين ما يخبر به عن نفسه ، وبين ما يرويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك لأنّ الضرورة ربّما تدعوه إلى استعماله المعاريض ، لا سيما فى الحرب المبنيّة على الخديعة والرأى ؛ فقال لهم : كلّما أقول لكم قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاعلموا أنه سليمٌ من المعاريض ، خالٍ من الرّمز والكناية ، لأنى لا أستجيز ولا أستحلّ أن أعمّىَ أو ألغِزَ فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وما حدّثتكم به عن نفسى ، فربّما أستعمل فيه المعاريض ؛ لأنّ الحرْب خُدْعة .

---

(١) ا ، ج : « رضى الله عنه » .

وهذا كلام رجل قد استعمل التقوى والوَرَع فى جميع أموره ، وبلغ من تعظيم أمر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، وإجلال قدره واحترام حديثه ألّا يرويَه إلّا بألفاظه لا بمعانيه ، ولا بأمرٍ يقتضى فيه إلباساً وتعمِيَةً ، ولو كان مضطرا إلى ذلك ؛ ترجيحاً للجانب الذى على جانب مصلحته فى خاصّ نفسه . فأمّا إذا هو قال كلاما يبتدئ به من نفسِه ، فإنه قد يستعمِلُ فيه المعاريضَ إذا اقتضتِ الحكمةُ والتدبير ذلك ؛ فقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله باتفاق الرواةِ كافّةً إذا أراد أن يغزُوَ وجهاً ورَّى عنه بغيره ، ولمّا خرج عليه السلام من المدينة لفتح مكة ، قال لأصحابه كلاما يقتضى أنه يقصِد بنى بكر بن عبد مناة من كنانة ، فلم يعلمُوا حقيقة حالِه حتى شارفَ مكة . وقال حين هاجَر وصحِبَه أبو بكر الصِّدّيق لأعرابىّ لقيهما : منْ أين أنت ؟ وممن أنت ؟ فلما انتسبَ لهما ، قال له الأعرابىّ : أمّا أنا فقد أطلعتُكما طِلْعَ أمرِى ؛ فمَن أنت ؟ فقال : من ماء ، لم يزده على ذلك ؛ فجعل الأعرابىّ يفكّر ، ويقول : من أىّ ماء ؟ من ماء بنى فلان ، من ماء بنى فلان ؟ فتركه ولم يفسّر له ؛ وإنما أراد عليه السلام أنه مخلوقٌ من نطفة .

فأما قول النَّظّام : « لو لم يحدّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم بالمعاريض لما اعتذرَ من ذلك » ؛ فليس فى كلامه اعتذار ؛ ولكنه نفَى أن يُدْخِلَ المعاريض فى روايته ؛ وأجازها فيما يبتدئ به عن نفسِه ؛ وليس يتضمّن هذا اعتذارا . وقوله : « لأنْ أخِرّ من السماء » يدلّ على أنه ما فعل ذلك ولا يفعله .

***

ثم قال : « عَلَى مَنْ أكذِب ؟ » يقول : كيف أكذب على الله وأنا أوّل المؤمنين به ؟ وكيف أكذب على رسول الله وأنا أول المصدّقين به ! أخرجه مخرج الاستبعاد لدعواهم وزعمهم.

فإن قلت : كيف يمكنُ أن يكونَ المكلّف الذى هو من أتباع الرسول كاذبا على الله إلا بواسطة إخبارِه عن الرسول ؛ لأنه لا وصلةَ ولا واسطة بينه وبين الله تعالى إلا الرسول ؛

وإذا لم يمكن كَذِبُه على الله إلا بكذبه على الرسول لم يَبْق لتقسيم الكذب وقوله : « أفأنا أكذب على الله أو على رسوله ؟ » معنى [١] .

قلت : يمكن أن يكذب الكاذب على الله دون أن يكونَ كاذباً على الرسول ؛ وإن كان من أتباع الرسول ؛ نحو أن يقول : كنت مع الرسول صلى الله عليه وآله ليلةً في مقبرة فأحيا الله تعالى فلانا الميت ؛ فقام وقال كذا . أو يقول : كنت معه يوم كذا ؛ فسمعت منادياً يناديه من السماء : افعل كذا ، أو نحو ذلك من الإخبار بأمورٍ لا تستند إلى حديث الرسول .

***

ثم قال عليه السلام [٢] : « كلّا والله » ، أى لا والله . وقيل : إن « كلّا » بمعنى « حقًّا » وإنه إثبات .

قال : « ولكنها لهجة غِبْتُم عنها » ، اللهجَة ، بفتح الجيم ؛ وهى آلة النطق ؛ يقال له : هو فصيح اللهجة ، وصادق اللهجة . ويمكن أن يعنَى بها لهجة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فيقول : « شهدت وغبتم » . ويمكن أن يعنى بها لهجتَه هو ؛ فيقول : إنها لهجة غبتم عن منافعها ، وأعدمتم أنفسكم ثمن مناصحتها .

ثم قال : « ويلمّه » الضمير راجع إلى مادلّ عليه معنى الكلام من العلم ؛ لأنّه لما ذكر اللّهجة وشهودَه إياها وغُيُوبتهم عنها دلّ ذلك على علمٍ له خصّه به الرسول عليه السلام . فقال : « ويلمّه » ، وهذه كلمة تقال للتعجّب والاستعظام ؛ يقال : « ويلمّه فارساً ! » وتكتب موصولة كما هى بهذه الصورة ، وأصله « ويل أمّه » مرادهم التعظيم والمدح ، وإن كان اللفظ موضوعا لضدّ ذلك ، كقوله عليه الصلاة والسلام : « فاظْفَرْ بذاتِ الدِّين تَرِبَتْ يداك » ، وكقولهم للرجل يصفونه ويقرّظونه : « لا أباله » .

وقال الحسن البصرىّ ؛ وهو يذكر علياً عليه السلام ، ويصف كونه على الحقّ

(١) ساقطة من ا ، ب وهى فى ج

(٢) ج : « رضى الله عنه » .

فى جميع أموره ؛ حتى قال : « فلما شارف الظَّفرَ وافق على التحكيم ، ومالك فى التحكيم والحقّ فى يديك ، لا أبا لك ! » .

قال أبو العباس المبرّد : هى[1] كلمة فيها جفاء وخشونة ؛ كانت الأعراب تستعملها فيمن يستعظمون أمرَه ، قال : ولما أنشِدَ سليمانُ بن عبد الملك قول بعض الأعراب :

رَبَّ العِبادِ مالَنـا ومالَـكَا   قد كنتَ تسقِينا فما بدَا لَـكَا

* أنزِلْ علينا الغيثَ لا أبَا لَـكَا *

قال : أشهدُ أنه لا أبَ له ولا صاحبةَ ولا ولد ، فأخرجها أحسن مخرج .

ثم قال عليه السلام : « كيلًا بغير ثمن لو كان له وعاء » ، انتصب « كيلا » لأنه مصدر فى موضع الحال ، ويمكن أن ينتصب على التمييز ، كقولهم : لله دره فارسا ! يقول : أنا أكِيلُ لكم العلم والحكمة كيلا ولا أطلب لذلك ثمنا لو وجدت وعاء ! أى حاملا للعلم ؛ وهذا مثل قوله عليه السلام : ها إنّ بين جنبيّ علما جمّا لو أجِد له حَمَلةً !

ثم ختم الفصلَ بقوله تعالى : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ ؛ وهو أحسن ماخُتِمَ هذا الكلام به .

[خطبة الإمام علىّ بعد يوم النَّهْرَوَان]

وروى المدائنىّ فى كتاب « صِفِّين » ، قال : خطب علىّ عليه السلام بعد انقضاء أمر النَّهروان ، فذكر طَرفاً من الملاحم ، قال :

إذا كثُرَتْ فيكُم الأخلاطُ ، واستولَتِ الأنباطُ ؛ دنَا خَرابُ العراق ؛ ذاك إذا بُنيَتْ مدينة ذات أثلٍ وأنهار . فإذا غلت فيها الأسْعار ، وشُيِّدَ فيها البنيانُ ، وحكم فيها الفُسّاق ، واشتدَّ البلاَء ، وتفَاخَر الغوغاء ؛ دنَا خُسوف البيْدَاء ، وطاب الهَرَبُ والجلاء . وستكونُ قبل الجلاء أمورٌ يشيبُ منها الصَّغير ، ويَعْطَبُ الكبير ، ويخرَس الفصيح

(١) الكامل س ٣ : ٢١٦

وَ يبْهَتُ الأَبِيب؛ يعاجَلون بالسيف صَلْتا، وقد كانوا قبل ذلك فى غَضَارة من عَيْشهم يمرحُون. فيالَهَا مصيبة حينئذ ! من البلاء العقيم، والبُكاء الطويل، والويْل والعوِيل، وشدَّة الصَّريخ؛ فى ذلك أمرُ الله — وَهُوَ كائن ، وقتا — بريج[1]. فيابنَ حُرّة[2] الإماء ، متى تَنْتَظرُ ! أبشِرْ بنصرٍ قريب مِنْ رَبٍّ رحيم. ألَا فويلٌ للمتكبِّرين؛ عند حصاد الحاصدين، وقتل الفاسقين. عصاة ذى العرش العظيم ؛ فبأبى وأمى من عدة قليلة ! أسماؤهم فى الأرض مجهولة . قد دنا حينئذ ظهورهم ، ولو شئت لأخبرتكم بما يأتى ويكون مِنْ حَوادث دَهْرِكُمْ ونوائب زمانكم ، وبلايا أيامكم ، وغَمَرَات ساعاتكم ، ولكنّه أفضيه إلى مَنْ أُفضيه إليه ، مخافةً عليكم ، ونظرا لكم ؛ علما منّى بما هو كائن وما يكون من البلاء الشامل ؛ ذلك عند تمرّد الأشرار، وطاعة أولى الخسار. ذاك أوانُ الحَتْفِ والدمار، ذاك إدبار أمركم، وانقطاع أصْلِكم وتشتُّتِ ألفتكم ؛ وإنما يكون ذلك عند ظُهور العصيان ، وانتشار الفُسوق ؛ حيثُ يكون الضربُ بالسّيْفِ أهونَ على المؤمنين من اكتساب درهَمٍ حلال ؛ حينَ لا تُنالُ المعيشَةُ إلّا بمعصية الله فى سمائه ، حينَ تَسْكَرُونَ من غير شراب ، وتحلفون من غير اضطرار ، وتظلِمون مِنْ غير منفعة ، وتكذبون من غير إحراج . تتفكّهون بالفسوق ، وتبادرون بالمعصية . قولُكم البهتان ، وحديثكم الزور ، وأعمالكم الغرور ؛ فعندَ ذلك لا تأمنون البيَاتَ ، فياله من بياتٍ ما أشدّ ظلمته ! ومن صائح ما أفظع صوته ! ذلك بيات لا يَنْمِى صاحِبُه ؛ فعند ذلك تُقتَلون ، وبأنواع البلاء تُضرَبُون ، وبالسّيْف تحصَدُون ، وإلى النار تصيرون ، ويعضكم البلاء كما يعضّ الغاربَ القتَبُ[3] . ياعجبا كلَّ العجب ، بين جُمادَى ورَجَب ! من جمع أشتاتٍ ، وحصْدِ نبات ، ومن أصوات بعدها أصوات .

ثم قال : سبق القضاء .. سبق القضاء !

---

(١) كذا وردت العبارة فى الأصول ، وفيها غموض .

(٢) كذا فى ب ، وفى ج : « خرت الإماء » ، وفى ا كلمة غير واضحة .

(٣) الغارب هنا : كاهل البعير . والقتب : رحل صغير على قدر السنام ؛ والكلام هنا جار على المثل .

قال رجل من أهل البصرة لرجل من أهل الكوفة إلى جانبه: أشهدُ أنه كاذب على الله ورسوله! قال الكوفىّ: وما يُدريك؟ قال: فوالله ما نزل علىّ من المنبر حتى فُلِج الرجل، فحُمِل إلى منزله فى شِقّ محمل، فمات من ليلته.

***

[من خطب الإمام علىّ أيضاً]

وروى المدائنىّ أيضا، قال: خطب علىّ عليه السلام[1]، فقال: لو كُسِرتْ لى الوِسادة لحكمتُ بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهلِ الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهْلِ الفرقان بفرقانهم، وما مِنْ آية فى كتاب الله أُنزلتْ فى سهلٍ أو جبل إلا وأنا عالم مَتَى أُنزلت، وفيمن أُنزلت.

فقال رجل من القُعود تحت مِنبره: يالله وللدّعوى الكاذبة! وقال آخر إلى جانبه: أشهد أنك أنت الله ربّ العالمين!

قال المدائنىّ: فانظر إلى هذا التناقض والتباين فيه!

***

وروى المدائنى أيضاً، قال: خطب علىّ عليه السلام[1]، فذكر الملاحم، فقال: سلونى قبل أن تفقِدونى، أما والله لَتَشْغَرَنّ الفتنة الصّماء برِجلِها، وتطأ فى خِطامها. يالها من فِتنة[2] شُبّت نارها بالحطب الجزْل، مقبلة من شرق الأرض رافعة ذيلها، داعية ويلَها، بدجلة أو حولها. ذاك إذا استدارَ الفلَك، وقلتم: مات أو هلك، بأىّ واد سلك!

فقال قوم تحت منبره: لله أبوه! ما أفصحه كاذبا!

***

وروى صاحب كتاب "الغارات" عن المنهال بن عمرو، عن عبد الله بن الحارث،

(١) ح: «رضى الله عنه».
(٢) ، ج: «فتنة» تصحيف.

قال : سمعت عليًا يقول على المنبر : ما أحدٌ جَرَتْ عليه المواسِي إلّا وقد أنزل الله فيه قرآنا ؛ فقام إليه رجل ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، فما أنزل الله تعالى فيك ؟ قال : يريد تكذيبه . فقام الناس إليه يلكزونه فى صدره وجنبه ، فقال : دعوه ، أقرأت سورة هود ؟ قال نعم ، قال: أقرأت قوله سبحانه : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾[1] قال: نعم ، قال : صاحب البينة محمد ، والتالى الشاهد أنا .

---

(١) سورة هود ١٧

(٧١)

الأصلُ :

ومن خطبة له عليه السلام علّم فيها الناس الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وآله:

اللَّهُمَّ دَاحِيَ الْمَدْحُوَّاتِ، ودَاعِمَ الْمَسْمُوكَاتِ، وجَابِلَ الْقُلُوبِ عَلَى فِطْرَاتِهَا[١] شَقِيِّهَا وسَعِيدِهَا؛ اجْعَلْ شَرَائِفَ صَلَوَاتِكَ، ونَوَامِيَ بَرَكَاتِكَ، عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ ورَسُولِكَ. الخَاتِمِ لِمَا سَبَقَ، والْفَاتِحِ لِمَا انْغَلَقَ، والْمُعْلِنِ الْحَقَّ بِالْحَقِّ، والدَّافِعِ جَيْشَاتِ الأَبَاطِيلِ، والدَّامِغِ صَوْلَاتِ الأَضَالِيلِ. كَمَا حُمِّلَ فَاضْطَلَعَ، قَائِمًا بِأَمْرِكَ، مُسْتَوْفِزًا فِي مَرْضَاتِكَ، غَيْرَ نَاكِلٍ عَنْ قُدُمٍ، ولَا وَاهٍ فِي عَزْمٍ، وَاعِيًا لِوَحْيِكَ، حَافِظًا لِعَهْدِكَ. مَاضِيًا عَلَى نَفَاذِ أَمْرِكَ؛ حَتَّى أَوْرَى قَبَسَ الْقَابِسِ، وأَضَاءَ الطَّرِيقَ لِلْخَابِطِ، وهُدِيَتْ بِهِ الْقُلُوبُ بَعْدَ خَوْضَاتِ الْفِتَنِ والآثَامِ[٢]. وأَقَامَ بِمُوضِحَاتِ الأَعْلَامِ ونَيِّرَاتِ الأَحْكَامِ؛ فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ، وخَازِنُ عِلْمِكَ الْمَخْزُونِ، وشَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ، وبَعِيثُكَ بِالْحَقِّ، ورَسُولُكَ إِلَى الْخَلْقِ.

اللَّهُمَّ افْسَحْ لَهُ مَفْسَحًا فِي ظِلِّكَ؛ وَاجْزِهِ مُضَاعَفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ.

اللَّهُمَّ وأَعْلِ عَلَى بِنَاءِ الْبَانِينَ بِنَاءَهُ، وَأَكْرِمْ لَدَيْكَ مَنْزِلَتَهُ، وَأَتْمِمْ لَهُ نُورَهُ، وَاجْزِهِ مِنَ ابْتِعَاثِكَ لَهُ مَقْبُولَ الشَّهَادَةِ؛ مَرْضِيَّ الْمَقَالَةِ، ذَا مَنْطِقٍ عَدْلٍ، وَخُطْبَةٍ فَصْلٍ.

اللَّهُمَّ اجْمَعْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فِي بَرْدِ الْعَيْشِ وَقَرَارِ النِّعْمَةِ، وَمُنَى الشَّهَوَاتِ، وَأَهْوَاءِ اللَّذَّاتِ، وَرَخَاءِ الدَّعَةِ، وَمُنْتَهَى الطُّمَأْنِينَةِ، وَتُحَفِ الْكَرَامَةِ.

***

(١) مخطوطة النهج : « فطرتها »

(٢) مخطوطة النهج : « بالأثم » .

الشَّرْح :

دَحَوْتُ الرَّغيف دَحْواً : بسطته ؛ والمدحُوّات هنا : الأرضون .

فإن قلت : قدثبت أنّ الأرض كُرِيّة ؛ فكيف تكون بسيطة، والبسيط هو المسطّح ، والكُرِيّ لا يكون مسطحا ؟

قلت : الأرض بجملتها شكل كرة ؛ وذلك لا يمنع أن تكون كلّ قطعة منها مبسوطة تصلح لأن تكون مستقرا ومجالا للبشر وغيرهم من الحيوان ؛فإنّ المراد بانبساطها هنا ليس هو السطح الحقيقيّ الذى لا يوجد فى الكرة، بل كون كلّ قطعة منها صالحة لأن يتصرّف عليها الحيوان لا يعنى به غير ذلك .

وداحى المدحُوّات ، يَنتصب لأنه منادى مضاف ، تقديره : ياباسط الأرضين المبسوطات.

قوله : « وداعم المسموكات » ، أى حافظ السموات المرفوعات ؛ دعمتُ الشىءَ إذا حفظتَه من الهوِىّ بدِعامة ، والمسموك : المرفوع ، قال :

إنّ الَّذى سَمَكَ السَّماءَ بَنَى لَنَا بيتا دعائمه أعزُّ وأطولُ[1]

ويجوز أن يكون عَنَى بكونها مسموكة كونَها ثخينة . وسُمْك الجسم هو البعد الذى يعبّر عنه المتكلّمون بالعمق وهو قسيم الطول والعرض، ولا شىء أعظم ثخنا من الأفلاك.

فإن قلتَ : كيف قال : إنه تعالى دعمَ السموات وهى بغير عَمَد ؟

قلت : إذا كان حافظاً لها من الهوىّ بقدرته وقوّته فقد صدق عليه كونُه داعماً لها ؛ لأن قوته الحافظة تجرى مجرى الدعامة .

قوله : «وجابل القلوب» أى خالقها ، والجَبْل الخلْق ، وجِبِلّة الإنسان: خِلْقتُه، وفِطَراتها: بكسر الفاء وفتح الطاء : جمع فِطْرة ، ويجوز كسر الطاء ، كما قالوا فى سِدْرة : سِدَرات وسِدِرات ، والفِطْرة : الحالة التى يفطِر الله عليها الإنسان ، أى يخلقه عليها خالياً من الآراء

---

(١) البيت مطلع قصيدة للفرزدق ، ديوانه ٧١٤

والديانات والعقائد والأهوية ؛ وهي مايقتضيه محض العقل ؛ وإنما يختار الإنسان بسوء نظره مايُفضِي به إلى الشقوة ؛ وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وآله : « كلّ مولود يُولدُ على الفطرة ، فإنما أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه » .

قوله : « شقيّها وسعيدها » بَدَل من القلوب ، وتقدير الكلام : وجابل الشقيّ من القلوب والسعيد على مافُطِرت عليه .

والنوامى : الزوائد . والخاتم لما سبق ؛ أى لما سبق من المِلَل . والفاتح لما انغلق من أمر الجاهلية . والمعلن الحقّ بالحقّ ، أى المظهر للحقّ الذى هو خلاف الباطل بالحقّ ، أى بالحرب والخصومة ؛ يقال: حاقّ فلان فلانا فحَقَّه ، أى خاصمه فَخصَمه . ويقال: مافيه حقّ أى خصومة .

قوله : « والدافع جيشات الأباطيل » ، جمع جَيْشة ، من جاشت القدر إذا ارتفع غَلَيانُها .

والأباطيل : جمع باطل على غير قياس ؛ والمراد أنه قامع مانجم من الباطل .

والدامغ : المهلك ، من دَمَغه أى شجّه حتى بلغ الدماغ ؛ ومع ذلك يكون الهلاك .

والصوّلات : جمع صوْلة وهى السطوة . والأضاليل : جمع ضلال على غير قياس .

قوله . « كما حُمّل » ، أى لأجل أنه حمل ، والعرب تستعمل هذه الكاف بمعنى التعليل ، قال الشاعر :

فقلتُ له أبا المِلْحاء خُـذْها كما أوسعتنا بَغياً وَعَـــدْوَا

أى هذه الضربة لبغيك علينا ، وتعدّيك .

وقوله : « كما حمّل » يعنى حَمل أعباء الرسالة . فاضطلع ، أى نهض بها قويًّا ؛ فرس ضَليع أى قوىّ ؛ وهى الضلاعة ، أى القوة .

مستوفزا ، أى غير بطىء ، بل يحثُّ نفسه ويُجهدها فى رضا الله سبحانه ، والوفز: العجَلة ، والمستوفز : المستعجل .

غير ناكلٍ عن قُدُم ، أى غير جبان ولا متأخر عن إقدام ، والمقدام : المتقدّم ؛ يقال مَضَى قُدُما أى تقدّم وسار ولم يعرّج .

قوله : « ولا واهٍ فى عزم » ؛ وَهَى ، أى ضعف ، والواهى : الضعيف .

واعياً لوحيك ، أى فاهما ، وَعَيْتُ الحديث ، أى فهِمته وَعَقَلْته .

ماضيا على نفاذ أمرك ؛ فى الكلام حذف تقديره : ماضيا مصرًّا على نفاذ أمرك ، كقوله تعالى : ﴿ فى تسع آيات إلى فِرْعَوْنَ ﴾[1] ، ولم يقل : « مرسَلا » لأنّ الكلام يدلّ بعضُه على بعض .

وقوله : « حتى أوْرَى قبسَ القابس » ؛ يقال : ورى الزَّنْدُ ، يرِى ؛ أى خرج ناره ، وأوريته أنا . والقَبَس : شعلة من النار ؛ والمراد بالقَبَس هاهنا نور الحق ، والقابس : الذى يطلب النار ، يقال : قَبَسْت منه نارا ، وأقبسنى نارا ؛ أى أعطانيها .

وقال الراوندىّ : أقبست الرجل علما ، وقبسته نارا ؛ أعطيته ؛ فإن كنتَ طلبتَها له قلت : أقبسته نارا .

وقال الكِسائىّ : أقبسته نارا وعلما سواء ؛ قال : ويجوز « قَبَسْته » بغير همزة فيهما .

قوله : « وأضاء الطريق للخابط » ، أى جعل الطريق للخابط مضيئة ، والخابط : الذى يسيرُ ليلا على غيرِ جادّة واضحة .

وهذه الألفاظ كلها استعارات ومجازات .

وخَوْضات الفتن : جمع خَوْضَة ؛ وهى المرّة الواحدة ، من خُضْتُ الماء والوحل ، أخوضهما ، وتقدير الكلام : وهديتْ به القلوبُ إلى الأعلام الموضحة بعد أن خاضَتْ فى الفتن أطوارا . والأعلام . جمع عَلَم ، وهو مايستدلّ به على الطريق ، كالمنارة ونحوها . والموضِحة : التى توضح للناس الأمور وتكشفها . [والنيّرات][2] : ذوات النور .

قوله : «فهو أمينك المأمون» أى أمينُك على وحيك ، والمأمون من ألقاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال كعب بن زهير :

---

(١) سورة النمل ١٢

(٢) زيادة يقتضيها السياق .

سَقَاكَ أبو بكر بكأسٍ رَوِيَّةٍ ... وأنهلكَ المأمونُ منها وعلَّكَا[١]

وخازن علمك ، المخزون بالجرّ صفة « علمك » والعلم الإلهي المخزون : هو ما أطلع الله تعالى عليه ورسوله من الأمور الخفيّة التى لا تتعلّق بالأحكام الشرعية كالملاحم وأحكام الآخرة وغير ذلك ، لأنّ الأمور الشرعية لا يجوزُ أن تكون مخزونة عن المكلّفين .

وقوله : « وشهيدُك يوم الدّين » ، أى شاهدك ، قال سبحانه : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هٰؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾[٢] .

والبعيث : المبعوث « فعيل » بمعنى « مفعول » كقتيل وجريح وصريع . ومَفْسَحاً مصدر ، أى وسّع له مفسحا .

وقوله : « فى ظلك » يمكن أن يكون مجازاً ، كقولهم : فلان يشملُنى بظلّه ، أى بإحسانه وبرّه ، ويمكن أن يكون حقيقة ، ويعنى به الظلّ الممدود الذى ذكره الله تعالى ، فقال : ﴿ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ۝ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴾[٣] .

وقوله : « وأعل على بناء البانين بناءه » ، أى اجعل منزلته فى دار الثواب أعلى المنازل . وأتمم له نورَه ، من قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾[٤] . وقد روِى أنه تُطفأ سائر الأنوار إلا نور محمد صلى الله عليه وآله ، ثم يعطى المخلصون[٥] من أصحابه أنواراً يسيرة يبصرون بها مواطىء الأقدام ، فيدعُون إلى الله تعالى بزيادة تلك الأنوار وإتمامها . ثم إن الله تعالى يتمّ نور محمد صلى الله عليه وآله ، فيستطيلُ حتى يملأ الآفاق ، فذلك هو إتمام نوره صلى الله عليه وآله .

قوله : « من ابتعاثك له » ، أى فى الآخرة .

مقبول الشهادة ، أى مصدّقا فيما يشهد به على أمته وعلى غيرها من الأمم .

---

(١) ديوانه ٣ ، وروايته : « شربت مع المأمون » ، وقال فى شرحه : « وكانت قريش تسمى النبى صلى الله عليه وسلم المأمون الأمين » .
(٢) سورة النساء ٤١
(٣) سورة الواقعة ٣٠ ، ٣١
(٤) سورة التحريم ٨
(٥) ج « المكلفون » .

وقوله: «ذا منطق عَدْل»، أى عادل، وهو مصدر أقيم مقام اسم الفاعل؛ كقولك: رجل فِطْر وصَوْم، أى مفطر وصائم.

وقوله: «وخطبة فصل» أى يخطب خطبة فاصلة يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾[(1)]، أى فاصل يفصل بين الحقّ والباطل؛ وهذا هو المقام المحمود الذى ذكره الله تعالى فى الكتاب، فقال: ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾[(2)]، وهو الذى يشار إليه فى الدّعوات فى قولهم: «اللهم آت محمداً الوسيلة والفضيلة، والدّرجة الرفيعة، وابعثه المقام المحمود».

قوله: «فى بَرْد العيش»؛ تقول العرب: عيش بارد ومعيشة باردة، أى لا حَرْب فيها ولا نزاع، لأنّ البَرْد والسكون متلازمان كتلازم الحرّ والحركة.

وقرار النعمة، أى مستقرّها، يقال: هذا قرار السّيْل، أى مستقرّه. ومن أمثالهم: «لكلّ سائلة قرار».

ومُنَى الشهوات: ماتتعلّق به الشهوات من الأمانى. وأهواء اللذات: ماتهواه النفوس وتستلذّه.

والرخاء، المصدر من قولك: رجل رخّى البال فهو بيّن الرخاء، أى واسع الحال.

والدّعة: السكون والطمأنينة، وأصلها الواو.

ومنتهى الطمأنينة. غايتها التى ليس بعدها غاية.

والتُّحَف: جمع تحفة؛ وهى مايكرَم به الإنسان من البرِّ واللُّطَف، ويجوز فتح الحاء.

* * *

[معنى الصلاة على النبىّ والخلاف فى جواز الصلاة على غيره]

فإن قلت: مامعنى الصلاة على الرسول صلى الله عليه وآله، التى قال الله تعالى فيها:

---

(١) سورة الطارق ١٣، ١٤.
(٢) سورة الإسراء ٧٩.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾(١).

قلت : الصلاة من الله تعالى هى الإكرام والتبجيل ورفع المنزلة ، والصلاة منا على النبى صلى الله عليه وآله هى الدعاء له بذلك، فقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾(٢) أى هو الذى يرفع منازلكم فى الآخرة، وقوله : ﴿ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ أى يدعون لكم بذلك.

وقيل : جُعِلوا لكونهم مستجابى الدعوة كأنهم فاعلون التعظيم للمؤمن ورفع المنزلة، ونظيره قوله : « حيّاك الله » أى أحياك الله وأبقاك، وحيّيتك أى دعوت لك بأن يحييك، لأنك لاعتمادك على إجابة دعوتك ووثوقك بذلك ، كأنك تحييه وتبقيه على الحقيقة ، وهكذا القول فى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ .

وقد اختلف فى الصلاة على النبىّ صلّى الله عليه وآله : هل هى واجبةٌ أم لا ؟

فمن الناس من لم يَقُلْ بوجوبها ، وجعل الأمر فى هذه الآية للنّدْب ومنهم من قال : إنّها واجبة .

واختلفوا فى حال وجوبها ؛ فمنهم من أوجبها كلما جرى ذكره ، وفى الحديث : « مَنْ ذُكِرْتُ عنده فلم يصلّ علىّ دخل النار وأبعده الله » ؛ ومنهم من قال : تجِبُ فى كلّ مجلس مرّة واحدة ، وإن تكرر ذكرُه. ومنهم مَنْ أوجبها فى العمر مرة واحدة ؛ وكذلك قال فى إظهار الشهادتين .

واختُلِف أيضا فى وجوبها فى الصلاة المفروضة ، فأبو حنيفة وأصحابه لا يوجبونها فيها. وروى عن إبراهيم النَّخَعِىّ أنهم كانوا يكتفون ـ يعنى الصحابة ـ عنها بالتشهّد ، وهو: « السّلام عليك أيها النبىّ ورحمة الله وبركاته »، وأوجبها الشافعىّ وأصحابه. واختلف أصحابه فى وجوب الصلاة على آل محمّد صلى الله عليه وآله ، فالأكثرون على أنها واجبة ، وأنها شرط فى صحة الصلاة .

---

(١) سورة الأحزاب ٥٦

(٢) سورة الأحزاب ٤٣

فإن قلت : فما تقول فى الصلاة على الصّحابة والصالحين من المسلمين؟

قلت : القياس جواز الصلاة على كلّ مؤمن، لقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾[1] ؛ وقوله : ﴿ أُولَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾[2] ؛ ولكنّ العلماء قالوا : إذا ذُكِرَ أحدٌ من المسلمين تبعاً للنبيّ عليه السلام فلا كلام فى جواز ذلك ؛ وأما إذا أفردوا أو ذُكِرَ أحد منهم ؛ فأكثر الناس كرِهوا الصلاة عليه ؛ لأنّ ذلك شعارُ رسول الله فلا يشركه فيه غيره .

وأما أصحابُنا من البغداديين فلهم اصطلاح آخر ؛ وهو أنهم يكرهون إذا ذكروا عليًّا عليه السلام أن يقولوا : « صلّى الله عليه » ولا يكرهون أن يقولوا : « صلواتُ الله عليه »، وجعلوا اللفظة الأولى مختصّة بالرسول صلى الله عليه وآله، وجعلوا اللفظة الثانية مشتركةً فيها بينهما عليهما السلام ، ولم يطلقوا لفظَ الصلاة على أحدٍ من المسلمين إلّا على علىّ وحده .

---

(١) سورة التوبة ١٠٣

(٢) سورة البقرة ١٥٧

— ٧٢ —

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام قاله لمروان بن الحكم بالبصرة .

قالوا : أُخِذَ مَرْوان بن الحكم أسيراً يوم الجمل فاستشفع الحسنَ والحسينَ عليهما السلام إلى أمير المؤمنين عليه السلام ؛ فكلّماه فيه فَخَلَّى سبيله ، فقالا له : يُبايعك يا أمير المؤمنين.
قال عليه السلام :

أَوَلَمْ يُبَايِعْنِي بَعْدَ قَتْلِ عُثْمَانَ ! لَا حَاجَةَ لِي فِي بَيْعَتِهِ ؛ إِنَّهَا كَفٌّ يَهُودِيَّةٌ ، لَوْ بَايَعَنِي بِيَدِهِ لَغَدَرَ بِسَبَّتِهِ . أَمَا إِنَّ لَهُ إِمْرَةً كَلَعْقَةِ الْكَلْبِ أَنْفَهُ ، وَهُوَ أَبُو الْأَكْبُشِ الْأَرْبَعَةِ ، وَسَتَلْقَى الْأُمَّةُ مِنْهُ وَمِنْ وَلَدِهِ يَوْماً أَحْمَرَ .

* * *

الشرحُ :

قد رُوِي هذا الخبر من طرق كثيرة ، ورويت فيه زيادة لم يذكرها صاحب "نهج البلاغة" ، وهي قوله عليه السلام في مروان : « يَحْمِلُ رايةَ ضلالة بعد ما يَشِيبُ صُدْغاه، وإنّ له إمْرة ... » إلى آخر الكلام .

وقوله : « فاستشفع الحسنَ والحسينَ إلى أمير المؤمنين عليه السلام » ، هو الوجه ، يقال : استشفعتُ فلاناً إلى فلان ؛ أي سألته أن يشفَع لي إليه ، وتشفّعت إلى فلان في فلان فشَفَّعني فيه تشفيعاً. وقول الناس : « استشفعتُ بفلان إلى فلان » بالباء ليس بذلك الجيِّد.

وقول أمير المؤمنين عليه السلام : « أو لم يبايعني بعد قتل عثمان ! » أيْ وَقَدْ غدر ؛ وهكذا لو بايعني الآن .

ومعنى قوله : « إنها كفٌّ يهودية » أي غادرة ، واليهود تنسب إلى الغدر والخبْث ، وقال تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ ﴾ [١] .

والسَّبَّة : الاست ، بفتح السين ، سبّه يسبّه أي طعنه في الموضع ؛ ومعنى الكلام محمولٌ على وجهين :

أحدهما : أن يكون ذكر السَّبّة إهانة له وغلظة عليه ، والعرب تسلُك مثل ذلك في خُطبها وكلامها ؛ قال المتوكّل لأبي العيناء : إلى متى تمدحُ الناس وتذمّهم ؟ فقال : ماأحسنو وأساءوا ؛ ثم قال : ياأمير المؤمنين ؛ إنّ الله تعالى رَضِيَ عن واحد فمدحه ، وسخِط على آخر فهجاه وهجا أمّه ؛ قال : ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [٢] ، وقال : ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ [٣] ؛ والزّنيم ولد الزنا [٤] .

الوجه الثّاني : أن يريدَ بالكلام حقيقةً لامجازاً ؛ وذلك لأنّ الغادرَ من العرب كان إذا عزَم على الغَدْر بعد عَهْدٍ قد عاهده أو عَقْدٍ قد عقده ، حَبَق استهزاء بما كان قد أظهره من اليمين والعهد ؛ وسُخرية وتهكّما .

والإمْرة : الولاية ، بكسر الهمزة . وقوله : « كلَعْقَةِ الكلب أنفه » ، يريد قِصَر المدّة ، وكذلك كانت مدّة خلافة مرْوان ، فإنّه ولِيَ تسعة أشهر .

والأكبُش : الأربعة بنو عبد الملك : الوليد ، وسليمان ، ويزيد ، وهشام ؛ ولم يَلِ الخلافةَ من بني أميّة ولا من غيرهم أربعة إخوة إلا هؤلاء .

وكلّ الناس فسّرُوا الأكبُشَ الأربعة بمَنْ ذكرناه ؛ وعندي أنه يجوز أن يعني به

---

(١) سورة المائدة ٨٢

(٢) سورة ص ٣٠ ، ٤٤

(٣) سورة القلم ١٣

(٢) العتل : الشديد .

بنى مَرْوان لصُلبه ؛ وهم : عبد الملك ، وعبدالعزيز ، وبِشر ، ومحمد ؛ وكانوا كِباشاً أبطالاً أنجاداً ، أما عبد الملك فوَلِىَ الخلافة ، وأما بِشر فوَلِىَ العراق ، وأمّا محمد فوَلِىَ الجزيرة ، وأما عبد العزيز فوَلِىَ مصر ، ولكلٍّ منهم آثار مشهورة . وهذ التفسير أولى ؛ لأن الوليد وإخوته أبناء ابنه ، وهؤلاء بنوه لصُلبه .

ويقال لليوم الشديد : يوم أحمر ، وللسَّنَة ذاتِ الجَدْب : سَنة حَمْراء .

وكلّ ماأخبر به أمير المؤمنين عليه السلام فى هذا الكلام وَقَع كما أخبر به ؛ وكذلك قوله : « يحمل راية ضلالة بعد مايشيب صُدغاه » ، فإنه ولِىَ الخلافة وهوابن خمسة وستين فى أعدل الروايات .

***

[مروان بن الحكم ونسبه وأخباره]

ونحنُ ذاكرون فى هذا الموضع نَسَبَه ، وجُمَلاً من أمره وولايته الخلافة ؛ ووفاته على سبيل الاختصار :

هو مَرْوان بن الحكَم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبدمناف ، وأمّه آمنة بنت عَلْقمة بن صفوان بن أمية الكِنانىّ . يُكنَى أبا عبد الملك ، ولِدَ على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ منذ سنة اثنتيْن من الهجرة ، وقيل عام الخندق ، وقيل يوم أُحُد ؛ وقيل غير ذلك . وقال قومٌ : بل ولد بمكة ، وقيل : ولد بالطائف . ذكر ذلك كلّه أبو عمر بن عبد البرّ فى كتاب " الاستيعاب " (١) .

قال أبو عُمَر : وممّن قال بولادته يومَ أحُد مالك بن أنس ، وعلى قوله يكونُ

---

(١) الاستيعاب ١٣٨٧ — ١٣٩٠ (طبعة نهضة مصر)

رسول الله صلى الله عليه وآله قد تُوفِّىَ ، وعمره ثمان سنين أو نحوها .

وقيل : إنه لما نُفِى مع أبيه إلى الطائف كان طفلا لا يعقل، وإنه لم يرَ رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان الحَكَم أبوه قد طرده رسول الله عن المدينة ، وسيّره إلى الطائف ؛ فلم يزَلْ بها حتى وَلِىَ عثمان ، فردّه إلى المدينة ، فقدمها هو وولده فى خلافة عثمان، وتوفِّىَ ، فاستكتبه عثمان وضمّه إليه ، فاستولَى عليه إلى أن قتِل .

والحكَم بن أبى العاص[1] هو عمّ عثمان بن عفان، كان من مُسلمة الفتح، ومن المؤلَّفة قلوبُهم ، وتوفِّىَ الحكَم فى خلافة عثمان قبل قتله بشهور .

واختلِف فى السبب الموجِب لنفى رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ فقيل : إنه كان يتحيّل ويستخفى ويتسمّع[2] ما يُسِرُّه رسول الله صل الله عليه وآله إلى أكابر الصحابة فى مُشركى قريش وسائر الكفار والمنافقين ، ويُفْشى ذلك عنه ، حتى ظهر ذلك عنه[3] .

وقيل كان يتجسّس على رسول الله صلى الله عليه وآله وهو عند نسائه ، ويسترِقُ السّمع ، ويُصغِى إلى ما يجرى هناك مما لا يجوز الاطّلاع عليه ، ثم يحدِّث به المنافقين على طريق الاستهزاء .

وقيل : كان يحكِيه فى بعض مِشْيَته وبعض حركاته ، فقد قيل: إنّ النبىّ صلى الله عليه وآله كان إذا مشى يتكفّأ[4] ، وكان الحكَم بن أبى العاص يحكِيه ، وكان شانئاً له مبغضاً حاسداً ، فالتفت رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً ، فرآه يَمشِى خَلْفه يحكيه فى مِشْيته ؛

---

(١) الاستيعاب ٣٥٩ ، ٣٦٠

(٢) كذا فى الاستيعاب ، وفى الأصول : « يسمع » .

(٣) ج : « منه » .

(٤) قال ابن الأثير فى النهاية ٤ : ٢٤ فى صفة مشيه عليه الصلاة والسلام : « كان إذا مشى تكفى تكفياً ؛ أى تمايل إلى قدام ؛ هكذا روى غير مهموز ، والأصل الهمز ، وبعضهم يرويه مهموزا لأنه مصدر تفعل . . . » .

فقال له : كذلك فَلْتَكُنْ ياحكَم . فكان الحكم مُخْتلجا يرتعش من[1] يومئذ ، فذكر ذلك عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ؛ فقال لعبد الرحمن بن الحكم يهجوه :

إنّ اللّعين أبوكَ فارمِ عِظامَهُ ... إن ترمِ ترمِ مخلَّجاً مجنونا
يمشى خَميصَ البَطنِ مِنْ عملِ التُّقَى ... وَيظلّ مِنْ عملِ الخبيث بَطينا

قال صاحب الاستيعاب : أما قول عبد الرحمن بن حسان « إنّ اللّعين أبوكَ » فإنه روى عن عائشة من طرق ذكرها ابن أبى خَيْثَمة وغيره ، أنّها قالت لمروان إذ قال فى أخيها عبد الرحمن أنه أنزل فيه : ﴿ وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾[2] : أما أنت يامروان فأشهد أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن أباك وأنت فى صُلْبه[3] .

وروى صاحب كتاب " الاستيعاب " بإسناد ذكره عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « يدخل عليكم رجل لَعين » ، قال عبد الله : وكنتُ قد رأيتُ أبى[4] يلبَس ثيابه ليقبل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلم أزل مشفقاً أن يكون أوّل مَنْ يدخل ، فدخل الحكم بن أبى العاص .

قال صاحب " الاستيعاب " : ونظر علىّ عليه السلام يوما إلى مَرْوان ، فقال له : « ويل لك ، وويل لأمة محمد منك ومن بنيكَ[5] إذا شاب صُدغاك ! » . وكان مَرْوان يدعى

---

(١) الخبر فى النهاية لابن الأثير ١ : ٣١٠ عن عبد الرحمن بن أبى بكر : « أن الحكم بن أبى العاص ابن أبى أمية أبا مروان ، كان يجلس خلف النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا تكلم اختلج بوجهه ، فرآه فقال له : كن كذلك ، فلم يزل يختلج حتى مات أى كان يحرك شفتيه وذقنه استهزاء وحكاية لفعل النبى صلى الله عليه وسلم فبقى يرتعد ويضطرب إلى أن مات » .

(٢) سورة الأحقاف ١٧

(٣) الاستيعاب : « تركت » .

(٤) الاستيعاب : « عمراً » .

(٥) ج : « بيتك » .

خَيط باطل ؛ قيل : لأنه كان طويلا مضطربا .

وضرِب يوم الدار على قفاه نخرّ لفيه (١) فلما بُويع له بالخلافة ، قال فيه أخوه عبدُ الرحمن بن الحكم ـ وكان ماجنا شاعرا [مُحسِنا] (٢) ؛ وكان لا يرى رأى مروان :

فواللهِ ما أدرِى وإنى لسائلٌ ... حليلةَ مَضرُوبِ القفا كَيفَ تَصنَعُ
لحا اللهُ قوماً أمَّرُوا خيطَ باطلٍ ... على الناس يُعطى مايشاء ويَمْنَعُ

وقيل : إنما قال له أخوه عبد الرحمن ذلك حينَ ولَّاه معاوية إمْرَة المدينة ، وكان كثيرا مايهجوه ؛ ومن شعره فيه :

وهبتُ نصيبى مِنكَ يامَرْوَ كُلَّهُ ... لعمرٍو ومروانَ الطويلِ وخالدِ
وربّ ابن أمٍّ زائد غير ناقصٍ ... وأنت ابنُ أمٍّ ناقصٌ غيرُ زائدِ

وقال مالك بن الرَّيْب يهجو مَرْوان بن الحكم :

لعَمْرُكَ مامَرْوَان يقضى أمورَنا (٣) ... ولكنّ مايقضى لنا بنتُ جَعْفرِ
فياليتَها كانَتْ علَينا أميرةً ... وليتك يامَرْوان أمسَيتَ ذا حِرِ

ومن شعر أخيه عبد الرحمن فيه :

ألَا مَنْ يُبْلِغَنْ مَرْوَانَ عَنِّى (٤) ... رَسُولًا والرَّسُولُ من البَيانِ
بأنك لَنْ ترى طَرْداً لحُرٍّ ... كإلصاقٍ به بعضَ الهَوَانِ (٥)
وهل حُدِّثْتَ قبلِى عن كريمٍ ... معينٍ فى الحوادث أو مُعانِ
يقيمُ بدار مضيعــةٍ إذا لمْ ... يكن حيران أو خَفِق الجَنان

---

(١) الاستيعاب : « نجرى لفيه » .
(٢) من الاستيعاب .
(٣) فى الأصول : « يا مروان » والصواب ما أثبته من الاستيعاب .
(٤) الاستيعاب : « من مبلغ » .
(٥) ورد البيت محرفا فى الأصول ، وما أثبته من الاستيعاب .

فلا تقذف بى الرَّجَوَيْنِ إنى ... أقلّ القوم مَنْ يُغنِى مكانى[١]
سأكفيك الذى استكفيتَ منّى ... بأمرٍ لا تُخالجه اليدانِ
فلو أنا بمنزلةٍ جَرَيْنَـــا ... جَرَيْتَ وأنتَ مُضطرب العِنَانِ
ولولا أنّ أمّ أبيك أمّى ... وأنْ من قد هجـاكَ فقد هَجَانى
لقـــد جاهرتُ بالبَغضاءِ إنّى ... إلى أمْرِ الجهارة والعِـــلانِ

ولما صار أمر الخلافة إلى معاوية ، ولّى مرْوانَ المدينة ، ثم جمع له إلى المدينة مكّة والطائف ، ثم عزله وولّى سعيدَ بنَ العاص ، فلما مات يزيد بن معاوية ، ووَلِيَ ابنُه أبو ليلى معاوية بن يزيد فى سنة أربع وستين ، عاش فى الخلافة أربعين يوماومات ، فقالت له أمّه أم خالد بنت أبى هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس : اجعل الخلافةَ من بعدك لأخيك، فأبى وقال : لايكونُ لِى مرُّها ولـكم حُلْوها ، فوثب مروان عليها ، وأنشد :

إنّى أرى فتنةً تَغْلِي مراجِلُها ... والملك بعـد أبى ليلَى لمنْ غَلَبَا

***

وذكر أبو الفرج علىّ بن الحسين الأصفهانى فى كتاب " الأغانى ": أن[٢] معاوية لما عَزل مَرْوان بن الحـكم عن إمْرَة المدينة والحجاز ، وولّى مكانه سعيد بن العاص ،وجّه مَرْوان أخاه عبد الرحمن بن الحـكَم أمامه إلى معاوية ، وقال له : القَهْ قبلى فعاتِبْه لى واستصْلِحه .

قال أبو الفرج : وقد رُوِى أنّ عبدَ الرحمن كان بدمشق يومئذ ، فلما بلغه خبرُ عَزْلِ مَرْوَان وقدومه إلى الشام، خرج وتلقّاه ، وقال له : أقِمْ حتّى أدخل إلى أخيك[٣] ، فإن كان عَزَلك عن مَوْجِدة دخلتَ إليه منفردا ، وإن كان عن غير مَوْجِدة دخلتَ إليه مع الناس

(١) الرجا : ناحية البئر من أعلاها ، إلى أسفلها ، وتثنيته رجوان ، (على البناء للمجهول) ورمى به الرجوان، أى استهين به ، فـكأنه رمى به هناك ، أى طرح فى المهالك .
(٢) الأغانى ١٣ : ٢٥٩ وما بعدها (طبعة الدار) .
(٣) الأغانى : « الرجل » .

فأقام مَرْوان ومضى عبد الرحمن ، فلما قدم على معاوية دخل إليه وهو يُعَشِّى الناس ، فأنشده :

أتَتْكَ العيسُ تَنْفُخُ فى بُرَاها ... تَكَشَّفُ عن مناكِبها القُطُوعُ(١)
بأبْيَضَ مِنْ أُمَيَّةَ مَضْرَحِيٍّ ... كأن جبينَه سَيْفٌ صنيعُ(٢)

فقال له معاوية : أزائراً جئت أم مفاخرا مكابرا ؟ فقال : أىَّ ذلك شئت ! فقال : ماأشاء من ذلك شيئا ؛ وأراد معاوية أن يقطعه عن كلامه الذى عَنّ له ، فقال له : على أىّ ظهر جئتنا ؟ فقال : على فرسٍ ، قال : ما صفته ؟ قال : أجشّ هَزِيم ـ يعرِّض بقول النَّجاشيّ فى معاوية يوم صِفِّين :

وَنَجّى ابنَ حَرْبٍ سابحٌ ذوعُلالةٍ ... أجشُّ هزِيمٌ والرماح دَوَانِ(٣)
إذا قلت أطرافُ الرِماح تنالُه ... مَرَتْهُ له السَّاقان والقَدَمان(٤)

فغضِب معاوية ، وقال : إلّا أنه لا يركبُه صاحبُه فى الظُّلم إلى الرِّيَب ؛ ولا هو ممن يتسوّر على جاراتِه ، ولا يتوثّب بعد هَجْمة الناس على كنائنه(٥) ـ وكان عبد الرحمن يُتَّهَمُ بذلك فى امرأة أخيه ـ فخجل عبدُ الرحمن ، وقال : ياأميرَالمؤمنين ، ماحَمَلك على عَزْل ابن عمّك ؟ ألخيانةٍ أوجبتْ ذلك ، أم لرأى رأيته وتدبير استصلحته ؟ قال : بل لتدبير استصلحته ، قال : فلا بأس بذلك . فخرج من عنده فلقىَ أخاه مَرْوان ، فأخبره بما دارَ بينه وبين معاوية ، فاستشاط غيظا وقال لعبد الرحمن : قَبحك الله ، ما أضعفك ! عَرَضت للرجل بما أغضبه ، حتى إذا انتصر(٦)

---

(١) العيس : النوق البيض ، يخالط بياضها شقرة . والبرى : جمع بره ، بضم ففتح ، وهى حلقة تجعل فى أنف البعير . والقطوع : جمع قطع ، بالكسر ؛ وهو الطنفسة تكون تحت الرحل .

(٢) المضرحى : السيد الكريم ، والصنيع : السيف المجرب المجلو .

(٣) السابح : الفرس السريع . والعلالة : البقية من السير والأجش : الغليظ الصوت من الإنسان ومن الخيل ومن الرعد . والهزيم : الفرس الشديد الصوت .

(٤) مرته : استدرت جريه . وفى الأغانى : « إذا خات » .

(٥) كنائن : جمع كنة ؛ امرأة الأخ أو الابن .

(٦) الأغانى : « انتصف » .

منك أحجمت عنه . ثم لبس حُلّته ، ورَكِب فرسَه ، وتقلّد سيفَه ، ودخلَ على مُعاويةَ ، فقال له حين رآه وتبيّن الغضبَ فى وجْهِه : مَرْحَباً بأبى عبد الملك ! لقد زرتَنا عند اشتياق منّا إليك ، فقال : [لا][1] هاللهِ ، مازرتُك لذلك ولا قدِمتُ عليك فألفيتُك إلا عاقًّا قاطعا ؛ والله ماأنصفتَنا ولا جزيتَنا جزاءنا، لقد كانت السابقة من بنى عبد شمس لآلِ أبى العاص ، والصِّهر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ، والخلافة منهم[2]، فوصلوكم يابنى حَرْب وشرّفوكم وولَّوْكم ، فما عزَلوكم ولا آثروا عليكم ؛ حتى إذا وليتم وأفضى الأمرُ إليكم أبيتم إلا أثَرَة وسوء صنيعة وقبح قطيعة ، فرويدا رويدا ! فقد بلغ بنو الحَكم وبنو بنيه نَيِّفًا وعشرين ، وإنما هى أيام قلائل حتى يكملوا أربعين ، ثم يَعلم امرُؤ مايكون منهم حينئذ ؛ ثم هم للجزاء بالحسْنى والسوء بالمرصاد .

قال أبو الفرج : هذا رمز إلى قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « إذا بلغ بنُو أبى العاص أربعين رجلا ، اتخذوا مال الله دُوَلا وعباد الله خوَلَا » ، فكان بنُو أبى العاص يذكرون أنّهم سيلُون أمْرَ الأمة إذا بلغوا هذه العدّة .

قال أبو الفرج : فقال له معاوية : مهلاً أبا عبد الملك ، إنّى لم أعزِلك عن خيانة ، وإنّما عزلتُك لثلاثةٍ لو لم يكن منهنّ إلا واحدة لأوجبتُ عَزْلك : إحداهُنّ أنى أمّرتُك على عبد الله بن عامر ، وبينكما مابينكما ، فلن تستطيع أن تشتفِىَ منه ، والثانية كراهيتُك لإمْرة زياد ، والثالثة أنّ ابنتِى رَمْلة استعدَتْك على زوجها عمرو بن عثمان ، فلم تُعْدِها . فقال مروان : أمّا ابنُ عامر فإنّى لاأنتصر منه فى سلطانى ، ولكن إذا تساوت الأقدام علم أين موقعه ، وأما كراهتى لإمْرة زياد فإنّ سائرَ بنى أمية كرهوه ؛ وجعل الله لنا فى ذلك الكرْه خيرا كثيرا . وأما استعداء رمْلة على عمرو ؛ فوالله إنه ليأتى علىّ سنة أو أكثر

---

(١) من الأغانى ، وها هنا للتنبيه وبعدها حرف قسم محذوف (انظر المغنى ١ : ٣٤٩) .
(٢) الأغانى : « فيهم » .

وعندى بنت عثمان ، فما أكشف لها ثوباً – يعرّض بأنّ رملة إنما تستعدِى على عمرو بن عثمان طلب النكاح – فغضب معاوية ، فقال: يابن الوَزَغ[1] ؛ لستَ هناك! فقال مروان: هو ما قلت لك؛وإنّى الآن لأبو عشرة، وأخو عشرة ، وعمّ عشرة ، وقد كادَ ولدأبى[2] أن يكملوا العِدّة – يعنى أربعين ؛ ولو قد بلغوها لعلمتَ أينَ تقع منى . فانخزَل[3] معاوية ، وقال:

فإن أكُ فِى شِرَارِكُمُ قَلِيلاً ... فإنّى فى خيارِكُمُ كثيرُ[4]

بغاثُ الطَّيْرِ أكثرُها فِرَاخاً ... وأمّ الصَّقْرِ مِقْلَاتٌ نَزُورُ[5]

ثم استخذَى معاوية فى يد مروان[6] وخضع ، وقال : [لك][7] العتبىَ ، وأنا رادك إلى عملك . فوثب مروان ، وقال : كلاّ وعيشِك لا رأيتَنى عائدا ! وخرج .

فقال الأحنف لمعاوية : مارأيت قطّ لك سَقْطَةً مثلها ! ما هذا الخضوع لمروان !وأىّ شىء يكون منه ومن بنى أبيه إذا بلغوا أربعين؟ وما الذى تخشاه منهم ؟ فقال : اذنُ منى أخبرْك ذلك ، فدنا الأحنف منه ، فقال [له][7] : إنّ الحكَم بنَ أبى العاص كان أحدَ مَنْ قَدِم مع [أختى][7] أمّ حبيبة لما زُفّتْ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهو يتولّى نقلها إليه ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلّم يُحِدّ النظر إليه ، فلماخرج من عنده ، قيل : يارسول الله ، لقد أحدَدْتَ النظر إلى الحكم ! فقال : ابن المخزوميّة ،ذاك رجل إذا بلغ بنو[8] أبيه ثلاثين أو أربعين ، ملكوا الأمر من بعدى ، فوالله لقد تلقاها مَرْوان من عين صافية . فقال الأحنف : رويداً يا أمير المؤمنين ؛ لايسمعْ هذا منك أحد ؛ فإنك تَضَعُ من قَدْرِك وقَدْرِ ولدك بعدك ؛ وإنْ يَقضِ الله أمراً يكن . فقال :

(١) الوزغ : جمع وزغة ، سام أبرص ، سميت بها لخفتها وسرعة حركتها .
(٢) الأغانى : « ولد » . (٣) انخزل ، أى تراجع .
(٤) البيتان من مقطوعة للعباس بن مرداس – حماسة أبى تمام – بشرح المرزوقى ٣ : ١٤٥٣ ؛ ونسب صاحب اللسان فى (قلت) البيت الثانى إلى كثير عزة .
(٥) المقلات : مفعال ، من القلت ، وهو الهلاك . والنزور : القليلة .
(٦) الأغانى : « فى يد مروان » .
(٧) من الأغانى .
(٨) الأغانى : « ولد » .

معاوية : اكتُمها يا أبا بحر علىّ إذاً ؛ فقد لَعَمْرُكَ (١) صدقتَ ونصحت .

***

وذكر شيخنا أبو عثمان الجاحظ فى كتاب '' مفاخرة هاشم وعبد شمس '' ، أنّ مَرْوان كان يُضعَّف ، وأنه كان ينشد يوم مرج راهط والرءوس تَنْدُر عن كواهلها :

وما ضَرَّهُمْ غير حَيْنِ النُّفوُ ... س أىّ غلامى قريش غَلَبْ !

قال : وهذا حُمق شديد ، وضعف عظيم ؛ قال : وإنما سادَ مرْوان وذُكِر بابنه عبد الملك ، كما ساد بنوه ؛ ولم يكن فى نفسه هناك .

***

فأمّا خلافه مروان ، فذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبرىّ فى التاريخ (٢) أن عبد الله بن الزبير لما أخرَج بنى أميّة عن الحجاز إلى الشام فى خلافة يزيد بن معاوية ، خرجوا وفيهم مَرْوان ، وابنه عبد الملك ، ولم تَطُلْ مدّة يزيد ، فتوفِّىَ ، ومات ابنُه بعده بأيام يسيرة . وكان من رَأى مَرْوان أن يدخل إلى ابن الزّبير بمكةّ فيبايعه بالخلافة ، فقدِمَ عبيدُ الله بن زياد ، وقد أخرجه أهلُ البصرة عنها بعد وفاة يزيد : فاجتمع هو وبنوأميّة ؛وأخبروه بما قدأجمع عليه مروان ،فجاء إليه ،وقال :استجبت لك ياأبا عبدالملك، فما يريد ! أنتَ كبير قريش وسيّدها تصنع ما تصنع ، وتشخص إلى أبى خُبَيْبٍ فتبايعه بالخلافة ! فقال مَرْوان :مافات شىء بعد ؛ فقام مرْوان ، واجتمع إليه بنو أميّة ومواليهم وعُبَيد الله بن زياد وكثيرمن أهل اليمن وكثير من كَلْب ، فقدم دمشق وعليها الضّحاك ابن قيس الفِهرِىّ ، قد بايعه النّاس على أنْ يُصَلِّىَ بهم ، ويقيمَ لهم أمرَهم ، حتى يجتمع

---

(١) الأغانى : « لعمرى » .

(٢) تاريخ الطبرى ٥ : ٥٣٠ وما بعدها ؛ مع تصرف واختصار .

الناس على إمام ، وكان هوى الضّحاك مع ابن الزبير إلا أنه لم يبايعْ له بعد ، وكان زفر ابن الحارث الكلابىّ بقنّسرين يخطب لابن الزبير ، والنعمان بن بشير الأنصارى بحمص يخطب لابن الزبير ، وكان حسان بن مالك بن بَحْدَل الكلبىّ بفلسطين يَهْوَى هوى بنى أمية ، ثم من بينهم بنى حرب ، لأنه كان عاملاً لمعاوية ، ثم ليزيد بن معاوية من بعده ، وكان حسّان بن مالك مُطاعاً فى قومه ، عظيما عندهم ؛ فخرج عن فِلَسْطين يريد الأُردُنّ ، واستخلف على فلسطين رَوْح بن زنباع الجذامىّ ، فوثب عليه بعد شُخُوص حسّان بن مالك وناتل(١) بن قيس الجُذامىّ أيضا ، فأخرجه عن فلسطين ، وخطب لابن الزبير ، وكان له فيه هوًى ، فاستوثقت الشام كلُّها لابن الزبير ، ماعدا الأردنّ ؛ فإنّ حسان بن مالك الكلبىّ كان يهوَى هَوَى بنى أميّة ، ويدعو إليهم ؛ فقام فى أهل الأردّن فخطبهم ؛ وقال لهم : ماشهادتُكم على ابن الزبير وقَتْلَى المدينة بالحرّة ؟ قالوا : نشهد أنّ ابن الزبير كان منافقا ؛ وأن قَتْلَى أهل المدينة بالحرّة فى النار ، قال : فما شهادتكم على يزيد بن معاوية وقتلاكم بالحرّة ؟ قالوا : نشهد أن يزيد بن معاوية كان مؤمناً ، وكان قتلانا بالحرّة فى الجنة ، قال : وأنا أشهد أنه إن كان دين يزيد ابن معاوية وهو حىّ حقا ، إنه اليوم لَعَلَى حَقّ هو وشيعته ، وإن كان ابن الزبير يومئذ هو وشيعتُه على باطل ؛ إنه اليوم وشيعته على باطل ؛ قالوا : صدقت ، نحن نبايعك على أن نقاتلَ معك مَنْ خالفك من الناس وأطاع ابن الزبير ، على أن تجنّبَنا ولاية هذين الغلامين ابنى يزيد بن معاوية ، وهما خالد وعبد الله ، فإنهما حديثة أسنانُهما ونحن نكرهُ أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبىّ !

قال : وقد كان الضحاك بن قيس يُوالى ابنَ الزبير باطنا ، ويهوى هواه ، ويمنعه إظهارَ ذلك بدمشق والبيعةَ له أنّ بنى أمية وكَلْباً كانوا بحضرته ، وكلب أخوالُ يزيد

---

(١) فى الأصول : « نائل » ، والصواب ما أثبته من تاريخ الطبرى .

ابن معاوية وبنيه ، ويطلبون الإمْرَة لهم ، فكان الضّحاك يعمل فى ذلك سرًّا ، وبلغ حسان ابن مالك بن بحْدل ما أجمع عليه الضّحاك ، فكتب إليه كتابا يعظّم فيه حقّ بنى أمية ، ويذكر الطاعة والجماعة وحسن بلاء بنى أمية عنده وصنيعهم إليه ، ويدعوه إلى بيعتهم وطاعتهم ويذكر ابنَ الزبير ويقع فيه ويشتمه ، ويذكر أنّه منافق قد خلع خليفتين ، وأمره أن يقرأ كتابه على الناس ؛ ثم دعا رجلا من كلْب يقال له ناغضة ، فسرّح بالكتاب معه إلى الضحاك بن قيس ، وكتب حسّانُ نسخة ذلك الكتاب ، ودفعه إلى ناغضة ، وقال له : إنْ قرأ الضحاك كتابى على الناس ، وإلا فقم أنت واقرأ هذا الكتاب عليهم ، وكتب حسان إلى بنى أمية يأمرهم أن يحضُروا ذلك ، فقدم ناغضة بالكتاب على الضّحاك ، فدفعه إليه ، ودفع كتابَ بنى أميّة إليهم سراً .

فلما كان يوم الجمعة ، وصَعِد الضّحاك على المِنبر ، وقدم إليه ناغضة ، فقال : أصلح الله الأمير ! ادعُ بكتاب حسّان فاقرأه على الناس ، فقال له الضحّاك : اجلس ، فجلس ثم قام ثانية فتكلّم مثل ذلك ، فقال له : اجلس ، فجلس ثم قام ثالثة وكان كالثانية والأولى ، فلما رآه ناغضة لا يقرأ الكتاب أخرج الكتاب الذى معه ، فقرأه على الناس . فقام الوليد بن عتبة بن أبى سفيان ، فصدق حسّان ، وكذّب ابن الزّبير وشتَمه ، وقام يزيد بن أبى النمس الغسّانى ، فصدّق مقالة حسان وكتابه ، وشتَم ابن الزبير ، وقام سُفيان بن أبرد الكلبىّ ، فصدّق مقالة حسان وشتَم ابنَ الزّبير ، وقام عمر بن يزيد الحكَمِىّ ، فشتَم حسان ، وأثنى على ابن الزبير ، فاضطرب الناسُ ، ونزل الضّحاك بن قيس ، فأمر بالوليد بن عُتْبة ، وسفيان ابن الأبرد ، ويزيد بن أبى النّمس الذين كانوا صدّقوا حسان ، وشتموا ابنَ الزبير . فحبسوا ، وجال الناس بعضُهم فى بعض ، ووثبت كلْب على عمر بن يزيد الحكَمىّ فضربوه ؛ وخرّقوا ثيابه . وقد كان قام خالد بن يزيد بن معاوية فصعِد مِرْقاتين[1] من المنبر ؛ وهو يومئذ غلام . والضحاك بن قيس فوق المنبر ، فتكلّم بكلام أوْجَز فيه ، لم يُسْمع بمثله ، ثم نزل .

(١) المرقاة : الدرجة فى السلم .

فلما دخل الضحاك بن قيس دارَه ، جاءت كلْب إلى السجن فأخرجوا سفيان بن أبرد الكلبيّ ، وجاءت غسان ؛ فأخرجوا يزيد بن أبي النّمس ؛ وقال الوليد بن عُتْبة : لو كنتُ من كلب أو غسّان ؛ لأخرجت ؛ فجاء ابنا يزيد بن معاوية : خالد وعبد الله ؛ ومعهما أخوالُهما من كَلْب ، فأخرجوه من السجن .

ثم إنّ الضّحاك بن قيس خرج إلى مسجد دمشق ، فجلس فيه ؛ وذكر يزيد بن معاوية فوقع فيه ، فقام إليه سنان من كلْب ومعه عصا ؛ فضربه بها ؛ والناس جلوس حَلَقاً . متقلِّدِى السيوف . فقام بعضُهم إلى بعض فى المسجد ؛ فاقتتلوا ، فكانت قيس عَيْلان قاطبةً تدعو إلى ابن الزبير ومعهما الضحاك ، وكلْب تدعو إلى بنى أميـة ، ثم إلى خالد بن يزيد ، فيتعصبون له ، فدخل الضحاك دارَ الإمارة ، وأصبح النـاس ، فلم يخرج الضّحاك إلى صلاة الفجر .

فلما ارتفع النهارُ بعث إلى بنى أميّة ، فدخلوا عليه ، فاعتذر إليهم ، وذكر حسنَ بلائهم عنده ، وأنه ليس يهوَى شيئاً يكرهونه ، ثم قال : تكتبون إلى حسّان ونكتب ، ويسير حسان من الأردنّ حتى ينزل الجابية[1] ونسير نحن وأنتم حتى نوافيَه بها ؛ فيجتمع رأىُ الناس على رجل منكم ! فرضيتْ بذلك بنو أميّة ، وكتبوا إلى حسّان وهو بالأردنّ وكتب إليه الضحاك يأمره بالموافاة فى الجابية ، وأخذ الناس فى الجهاز للرحيل .

وخرج الضحاك بن قيس من دمشق ، وخرج الناس وخرجت بنو أمية ، وتوجّهت الراياتُ يريدون الجابية ، فجاء ثور بن معن يزيد بن الأخنس السُّلَمىّ إلى الضحاك ؛ فقال : دعوتَنا إلى طاعة ابن الزبير فبايعناك على ذلك ؛ ثم أنت الآن تسير إلى هذا الأعرابىّ من كَلْب لتستخلفَ ابن أخته خالد بن يزيد بن معاوية ! فقال الضّحاك : فما الرأى ؟ قال : الرأىُ أن

---

(١) الجابية ، بكسر الباء وياء خفيفة : من أعمال دمشق .

نظهر ما كنّا نُسرّ ، وندعو إلى طاعة ابن الزبير، ونقاتل عليها . فمال الضحاك بمَنْ معه من الناس ، وانخزل من بنى أمية ومن معهم من قبائل اليمن فنزل مَرْج راهط .

قال أبو جعفر : واختلف فى أى وقت كانت الوقعة بمرج راهط فقال الواقدىّ : كانت فى سنة خمس وستين . وقال غيره : فى سنة أربع وستين .

قال أبو جعفر : وسارتْ بنو أميّة ولفيفها حتى وافوْا حسان بالجابية، فصلّى بهم أربعين يوماً ، والناس يتشاورن ، وكتب الضحاك بن قيس من مرج راهط إلى النُّعمان بن بشير الأنصارىّ ، وهو على حِمْص يستنجده؛ وإلى زُفَر بن الحارث وهو فى قِنّسرين، وإلى ناتل[1] ابن قيس وهو على فِلَسْطين ليستمدّهم ؛ وكلُّهم على طاعة ابن الزبير ، فأمدوه ، فاجتمعت الأجناد إليه بمرْج راهط ، وأما الذين بالجابية فكانت أهواؤهم مختلفة ، فأما مالك ابن هبيرة السكونىّ ، فكان يهوَى هوى يزيد بن معاوية ، ويحبّ أن تكونَ الخلافةُ فى ولده ، وأما حصين بن نُمير السّكونىّ[2] ؛ فكان يهوى هَوَى بنى أميّة ؛ ويحبّ أن تكون الخلافة لمرْوان بن الحكم ؛ فقال مالك بن هبيرة للحصين بن نمير : هلم فلْنبايعْ لهذا الغلام الذى نحن ولدنا أباه ؛ وهو ابن أختنا؛ فقد عرفت منزلتنا التى كانت من أبيه؛ إنك إن تبايعْه يحملك غدا على رقاب العرب ـ يعنى خالد بن يزيد ـ فقال الحصين : لا لعمر الله ؛ لا يأتينا العرب بشيخ ؛ ونأتيها بصبىّ ! فقال مالك : أظنّ هَوَاك فى مَرْوان ! والله إن استخلفْتَ مروان ليحسدنك على سَوْطك وشِرَاك نعلك، وظلّ شجرة تستظلّ بها. إنّ مروان أبو عشرة ، وأخو عشرة وعمّ عشرة ، فإن بايعتموه كنتم عبيداً لهم، ولكن عليكم بابن أختكم خالد بن يزيد فقال الحصين : إنى رأيتُ فى المنام قِنديلا معلقاً من السماء ، وإنه جاء كلّ من يمدّ عنقه إلى الخلافة ليتناوله ، فلم يصل إليه. وجاء مروان فتناوله ،والله لنستخلفنّه .

---

(١) فى الأصول : « نائل » وصوابه من تاريخ الطبرى .
(٢) فى الأصول : « السلولى » ، وما أثبته من تاريخ الطبرى .

فلما اجتمع رأيُهم على بيعته ، واستمالوا حسان بن بحْدل إليها ، قام رَوْح بن زِنباع الجذامىّ ، فحمِد اللهَ وأثنى عليه ، فقال :

أيها الناس ؛ إنكم تذكرون لهذا الأمر عبدَ الله بن عمر بن الخطاب ، وتذكرون صحبتَه لرسول الله صلى الله عليه ، وقدَمه فى الإسلام ، وهو كما تذكرون ؛ لكنه رجل ضعيف ، وليس صاحبُ أمة محمد بالضعيف ؛ وأما عبد الله بن الزُّبير وما يذكر الناس من أمره ، وأنّ أباه حوارىّ رسول الله صلى الله عليه ، وأمّه أسماء بنت أبى بكر ذات النِّطاقين ؛ فهو لعمرى كما تذكرون ، ولكنه منافق قد خلع خليفتين : يزيد وأباه معاوية ، وسفَكَ الدماء ، وشقّ عصا المسلمين ؛ وليس صاحبُ أمة محمد صلى الله عليه بالمنافق ؛ وأمّا مروان بن الحكم فوالله ما كان فى الإسلام صَدْعٌ قطّ إلا كان مَرْوان ممن يشعَب ذلك الصدْع ، وهو الذى قاتَل عن عثمان بن عفان يوم الدّار ، والذى قاتل علىّ بن أبى طالب يوم الجمل ؛ وإنا نرى للناس أن يبايعوا الكبير، ويستشبّوا[1] الصغير – يعنى بالكبير مروان ، وبالصغير خالد بن يزيد .

فاجتمع رأىُ الناس على البيعة لمروان ، ثم لخالد بن يزيد من بعده ؛ ثم لعمرو بن سعيد ابن العاص بعدهما ؛ على أن تكونَ فى أيام خلافة مروان إمْرة دمشق لعمرو بن سعيد ، وإمْرة حِمص لخالد بن يزيد . فلما استقرّ الأمر على ذلك ، دعا حسان بن بحْدل خالد بن يزيد ؛ فقال : يابن أختى ؛ إنّ الناس قد أبوْك لحداثة سِنّك ، وإنى والله ما أريدُ هذا الأمر إلا لك ولأهل بيتك ؛ وما أبايع مَرْوان إلا نظراً لكم ، فقال خالد : بل عجزت عنّا ، فقال: لا والله لم أعجز عنك ؛ ولكن الرأى لك ما رأيت .

ثم إن حسّان دعا مرْوان بن الحكم ، فقال له : يامروان ، إنّ الناس كلّهم لا يرضون

---

(١) فى الأصول : « ويسلموا » وما أثبته من تاريخ الطبرى .

بك ، فما ترى ؟ فقال مروان : إن يردِ الله أن يعطينيها لم يمنعنيها أحدٌ من خلقه ؛ وإن يرد أن يمنعنيها لا يعطينيها أحدٌ من خلقه ، فقال حسان : صدقت .

ثم صعِد حسان المنبر ،فقال : أيها الناس ؛ إنى مستخلِف فى غدٍ أحدَ كم إن شاءالله؛ فاجتمع الناس بُكرةَ الغد ينتظرون ، فصعِد حسان المنبر ، وبايع لمروان ، وبايع الناس ؛ وسار من الجابية حتى نزل بمرْج راهط ؛ حيث الضَّحَّاك بن قيس نازل ، فجعل مَرْوَانُ على ميمَنته عمرو بن سعيد بن العاص، وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد ؛ وجعل الضحّاكُ على ميمنته زياد بن عمرو بن معاوية العتكىّ ، وعلى ميسرته ثور بن معن السُّلمىّ ؛ وكان يزيد ابن أبى النِّمس الغسّانىّ بدمشق ، لم يشهد الجابية ، وكان مريضا ؛ فلما حصل الضّحاك بمرْج راهط[1] ، ثار بأهل دمشق فى عبيده وأهله ،فغلَب عليها ، وأخرج عامل الضحّاك منها؛ وغلب على الخزائن وبيت المال ، وبايع لمروان ، وأمدّه من دمشق بالرّجال والمال والسلاح؛ فكان ذلك أولَ فتح فُتح لمروان .

ثم وقعت الحرب بين مَرْوان والضحاك ؛فاقتتلوا بمرْج راهط عشرين ليلة؛ فهزِم أصحابُ الضحاك وقتلوا ؛ وقتل أشراف الناس من أهل الشام ؛ وقتِلت قيسٌ مقتلة لم تقتل مثلها فى موطن قطّ ، وقتل ثور بن معن السُّلَمىّ الذى ردّ الضحاك عن رأيه .

قال أبو جعفر : ورِوىَ أن بشير بن مروان كان صاحب الراية ذلك اليوم ،وأنه كان ينشد :

إن علَى الرئيس حَقًّـــا حقًّا   أن يخضب الصَّعْدَةَ أو يندقّا

وصُرِع ذلك اليوم عبد العزيز بن مروان [2]ثم استنقذ[2].

قال : ومرّ مروان برجل من محارب وهو فى نفرٍ يسير من أصحاب مروان ، فقال له :

---

(١) مرج راهط : موضع فى الغوطة من دمشق ؛ بها الواقعة المشهورة بين قيس وتغلب .

(٢–٢) لم يذكر فى الطبرى .

لو انضممتَ إلى أصحابك رحمك الله ! فإنى أراك فى قِلّة ، فقال : إن مَعَنا يا أمير المؤمنين من الملائكة مددا أضعاف مَنْ تأمرنا بالانضمام إليهم ؛ قال : فضحك مروان وسُرَّ بذلك ، وقال للناس ممن كان حوله : ألا تستمعون !

قال أبو جعفر : وكان قاتل الضحاك رجلاً من كلب ، يقال له زحنة بن عبد الله ، فلما قتله وأحضرَ الرأس إلى مروان ، ظهرت عليه كآبة ، وقال : الآن حين كَبِرَتْ سِنّى ، ودَقّ عظمى ، وصرت فى مثل ظِمْء(١) الحمار ؛ أقبلتُ أضرِب الكتائب بعضها ببعض !

قال أبو جعفر : وروى أنّ مروان أنشد لما بويع ودعا إلى نفسه :

لما رأيتُ الأمرَ أمراً نَهْبَا ... سَيّرت غسّان لَهُمْ وكلْبَا
والسَّكْسَكِيّين رجالا غُلْبا ... وطيِّئا تأبــاه إلّا ضَرْبَا
والقَيْن تمشى فى الحديد نُكْبا ... ومن تَنوخَ مُشْمَخِرًا صَعْبَا
لا يملكون الملك إلا غَصْبا(٢) ... وإنْ دَنَتْ قيس فقل لا قُرْبا

قال أبو جعفر : وخرج الناس منهزمين بعد قتل الضحاك ؛ فانتهى أهلُ حِمْص إلى حِمْص ؛ وعليها النّعمان بن بشير ، فلما عرف الخبر خرج هاربا ومعه ثَقَله وولده ، وتحيّر ليلته كلّها ، وأصبح وهو بباب مدينة حمص ، فرآه أهلُ حِمْص فقتلوه ، وخرج زفر بن الحارث الكلابىّ من قنّسرين هاربا ، فلحق بقرقيسياء ؛ وعليها عياض بن أسْلم الجرشى(٣) فلم يمكّنه من دُخُولها ، فحلف له زفر بالطلاق والعتاق أنّه إذا دخل حَمّامها خرج منها ، وقال له : إنّ لى حاجةً إلى دخول الحمام ، فلما دخلها لم يدخل حَمّامها وأقام بها ، وأخرج عياضا

(١) أى لم يبق من عمرى غير وقت قصير ، والظمء فى الأصل : ما بين الشربتين ، ويقال : إنه ليس شىء من الدواب أقصر ظمأ من الحمار .
(٢) الطبرى : « لا يأخذون الملك » .
(٣) فى الطبرى : « وهو ابن أسلم بن كعب بن مالك » .

منها ، وتحصّن فيها ، وثابَتْ إليه قيس عَيْلان ؛ وخرج ناتل بن قيس الجذاميّ من فلسطين هاربا ؛ فالتحق بابن الزبير بمكة ، وأطبق أهل الشام على مروان واستوثقوا له ، واستعمل عليهم عُمّاله ، ففى ذلك يقول زفر بن الحارث :

أرِينِي سِلَاحِي لَا أبَا لَكِ إنَّنِي ... أرَى الحَرْبَ لَا تَزْدَادُ إلَّا تَمادِيا (١)
أتانِيَ عَنْ مَرْوانَ بالغيْبِ أنَّه ... مُرِيقٌ دمى ، أو قاطعٌ من لسانيا
وفى العِيس منجاةٌ ، وفى الأرض مَهْرَبٌ ... إذا نحن رفّعْنا لهنّ المبانيا (٢)
فقد ينبت المرعى على دِمَنِ الثّرى ... وَتَبْقَى حَزَازَاتُ النُّفُوس كمَا هِيا
أتذهب كَلْبٌ لم تَنَلْها رماحُنَا ... وتترك قَتْلَى راهطٍ هِيَ مَاهيا
لعمرِى لقد أبقتْ وقيعةُ راهطٍ ... لحسّان صَدْعا بينا متنائيَا
أبَعْد ابن عمرو وابن معن تتَابَعا ... ومقتَلِ همّام أُمَنِّى الأمانيَا !
وَلَمْ تُرَ مِنّى نبوةٌ قَبْلَ هَذِهِ ... فِرارى وتَرْكِى صاحِبَىَّ ورائيا
أيذهب يومٌ واحد إنْ أسأتُه ... بصالحِ أيامى وحسن بلائيا !
فلا صُلْحَ حتى تَنْحِطَ الخيلُ بالقنا ... وتثأر من نسوانِ كَلْبٍ نِسائيا (٣)

وقال زُفَر بن الحارث أيضا ، وهو من شعر الحماسة :

أفى اللهِ أمّا بحْدَلٌ وابن بَحْدَلٍ ... فيحيَا وأمّا ابنُ الزُّبَيْرِ فيقتَلُ (٤) !
كَذَبْتُمْ وبيتِ اللهِ لا تقتلونَهُ ... وَلَمّا يكُنْ يومٌ أغرُّ مُحَجَّلُ

---

(١) الأبيات فى معجم البلدان ٤ : ٢١٦ ، والأغانى ١٧ : ١١١ (ساسى) ، مع اختلاف فى الرواية بينها وبين رواية الطبرى .

(٢) فى الطبرى : « المثانيا » ، بعده :

فَلَا تحسبُونى إن تغيّبتُ غافلاً ... ولا تفرحوا إن جئتُكُمْ بلقائيا

(٣) النحط : صوت الخيل من الإعياء ، بعده فى الطبرى :

ألَا ليتَ شعرى هَلْ تُصيبَنّ غارَةٌ ... تَنُوخًا وحَيَّىْ طَيِّئٍ من شِفائيا

(٤) ديوان الحماسة — بشرح المرزوقى ٢ : ٦٤٩ .

وَلَمَّا يكنْ للمشرفيّة فوقكمْ شعاعٌ كقرن الشّمس حين تَرجّلُ (١)

* * *

وأما وفاة مروان ، والسبب فيهـا أنه كان قد استقرّ الأمر بعده لخالد بن يزيد بن معاوية على ماقدّمنا ذكره ، فلمّا استوثق له الأمرُ ، أحبّ أن يبايع لعبد الملك وعبدالعزيز ابنيه ، فاستشار فى ذلك ، فأشير عليه أن يتزوّج أم خالد بن يزيد ، وهى ابنة أبى هاشم بن عتبة بن ربيعة ليصغَر شأنه فلا يرشّح للخلافة ، فتزوجها . ثم قال لخالد يوما فى كلام دار بينهما والمجلس غاصّ بأهله: اسكت يابن الرطبة(٢)، فقال خالد: أنت لعمرى مؤتمن وخبير.

ثم قام باكيا من مجلسه ـ وكان غلاما حينئذ ـ فدخل على أمّه ، فأخبرها ، فقالت له : لا يعرفنّ ذلك فيك ، واسكت فأنا أكفيك أمرَه . فلما دخل عليها مروان ، قال لها: ماقال لك خالد ؟ قالت : وماعساه يقول؟ قال : ألم يشكُنِى إليك؟ قالت : إنّ خالداً أشدّ إعظاماً لك من أن يشتكيَك، فصدّقها . ثم مكثت أياما ، فنام عندها وقد واعدت جواريَها ،وقُمْنَ إليه ، فجعلن الوسائد والبراذع عليه، وجلسنَ عليه حتى خنَقْنَهُ ،وذلك بدمشق فى شهر رمضان. وهو ابن ثلاث وستين سنة ، فى قول الواقدىّ .

وأما هشام بن محمد الكلبىّ ، فقال: ابن إحدى وثمانين سنة ، وقال : كان ابن إحدى وثمانين، عاش فى الخلافة تسعة أشهر. وقيل عشرة أشهر، وكان فى أيام كتابته لعثمان بن عفان أكثر حُكْماً ، وأشد تلطفا وتسلّطا منه فى أيام خلافته ، وكان ذلك من أعظم الأسباب الداعية إلى خلع عثمان وقتله .

وقد قال قوم : إن الضّحاك بن قيس لما نزل مَرْج راهط لم يَدْعُ إلى ابن الزُّبير ، وإنما دعا إلى نفسه . وبويع بالخلافة ، وكان قرشيا . والأكثر الأشهر أنه كان يدعو إلى ابن الزبير .

---

(١) قرن الشمس : أول ما ظهر منها . الترجل : هو المتوع ، والمتوع : قبل انتصاف النهار .

(٢) الطبرى : «يا ابن الرطبة الاست» .

(٧٣)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام لمّا عزموا على بيعة عثمان :

لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّى أَحَقُّ بِهَا مِنْ غَيْرِى؛ وَوَاللهِ لَأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلاَّ عَلَيَّ خَاصَّةً، الْتِمَاساً لِأَجْرِ ذَلِكَ وَفَضْلِهِ، وَزُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وَزِبْرِجِهِ.

***

الشَّرحُ :

نافست فى الشىء مُنافسة ونفاساً ؛ إذا رغبت فيه على وجه المباراة فى الكرم ، وتنافسوا فيه ، أى رغبوا .

والزّخرف : الذهب ، ثم شبه به كل مموّه مزوّر ، قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ (١) والمزخرف : المزيّن .

والزِّبرج : الزينة من وشيٍ أو جوهر ، ونحو ذلك . ويقال : الزبرج الذهب أيضاً .

يقول لأهل الشورى: إنكم تعلمون أنى أحقّ بالخلافة من غيرى، وتعدلون عنّى . ثم أقسم ليُسْلِمَنَّ وليتركَنّ المخالفة لهم، إذا كان فى تسليمه ونزوله عن حقّه سلامةُ أمور المسلمين، ولم يكن الجورُ والحيفُ إلا عليه خاصة، وهذا كلام مثله عليه السلام، لأنه إذا علم أو غلب على ظنه أنه إن نازَع وحارَب دخل على الإسلام وَهَن وَثَلْم لم يَخْتَرْ له المنازعة ، وإن كان

---

(١) سورة يونس ٢٤ .

يطلب بالمنازعة ماهو حقٌّ ؛ وإن عَلِم أو غلَب على ظنّه بالإمساك عن طلب حقّه أنما يدخل الثَّلْم والوَهَن عليه خاصة ، ويسلم الإسلامُ من الفتنة ، وَجَب عليه أنْ يُغضِيَ ويصبر على ما أتوْا إليه من أخذ حقّه ، وكفّ يده ؛ حراسة للإسلام من الفتنة .

فإن قلت : فهلّا سلّم إلى معاوية وإلى أصحاب الجمل، وأغضى على اغتصاب حَقّه حفظاً للإسلام من الفتنة ؟

قلت : إنّ الجورَ الداخل عليه من أصحاب الجمل ومن معاوية وأهل الشام ، لم يكن مقصوراً عليه خاصّة؛ بل كان يعمّ الإسلام والمسلمين جميعاً؛ لأنهم لم يكونوا عنده ممن يصلُح لرياسة الأمة وتحمّل أعباء الخلافة ، فلم يكن الشَّرْط الذى اشترطه متحقّقاً ، وهو قوله : « ولم يكن فيه جوْر إلّا علىّ خاصة » .

وهذا الكلام يدلّ على أنه عليه السلام لم يكن يذهب إلى أنّ خلافة عثمان كانت تتضمّن جَوْراً على المسلمين والإسلام، وإنما كانت تتضمن جوْراً عليه خاصّة، وأنها وقعت على جهة مخالفة الأوْلى؛ لا على جهة الفساد الكلّىّ والبطلان الأصلىّ؛ وهذا محضُ مذهب أصحابنا.

* * *

[كلام لعلىّ قبل المبايعة لعثمان]

ونحن نذكر فى هذا الموضع ما استفاض فى الروايات من مناشدته أصحابَ الشورى، وتعديده فضائله وخصائصه التى بان بها منهم ومن غيرهم. قد رَوَى الناس ذلك فأكثروا؛ والذى صحّ عندنا أنه لم يكن الأمرُ كما رُوِى من تلك التعديدات الطويلة؛ ولكنه قال لهم بعد أن بايع عبدُ الرحمن والحاضرون عثمانَ ، وتلكّأ هو عليه السلام عن البيعة : إنّ لنا حقّاً إن نعطَه نأخذه، وإن نمنَعه نركب أعجاز الإبل وإن طال السُّرى؛ فى كلام قد ذكره أهل السيرة؛ وقد أوردنا بعضه فيما تقدم، ثم قال لهم : أنشدكم الله ! أفيكم أحَدٌ آخَى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين نفسه ؛ حيث آخى بينَ بعض المسلمين وبعضٍ غيرى ؟

فقالوا: لا ؛ فقال: أفيكم أحدٌ ؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: « مَنْ كنت مولاه فهذا مولاه » غيرى؟ فقالوا : لا، فقال: أفيكم أحد؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أنتَ منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبىّ بعدى » غيرى؟ قالوا : لا ، قال : أفيكم من اؤتمن على سورة براءة ، وقال له رسول الله صلى الله عليه وآله إنه لا يؤدى عَنّى إلا أنا أو رجل مِنّى غيرى؟ قالوا : لا، قال: ألا تعلمون أنّ أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فرّوا عنه فى مأقِط[1] الحرب فى غير موطن، وما فررت قطّ ؟ قالوا : بلى ، قال : ألا تعلمون أنى أوّل الناس إسلاما ؟ قالوا : بلى . قال : فأيُّنا أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نسباً ؟ قالوا : أنت . فقطع عليه عبدُ الرحمن بن عوف كلامه ، وقال : ياعلىّ ؛ قد أبى الناس إلا على عثمان ، فلا تجعلنّ على نفسك سبيلا ، ثم قال : ياأبا طلحة ، ما الذى أمرك به عمر؟ قال : أن أقتُل مَنْ شقّ عصا الجماعة ، فقال عبد الرحمن لعلىّ : بايع إذن ؛ وإلا كنت متّبعاً غيرَ سبيل المؤمنين ، وأنفذْنا فيك ما أُمِرْنا به . فقال : « لقد علمتم أنى أحقُّ بها من غيرى ، والله لأسلمن . . . » الفصل إلى آخره ، ثم مدّ يده فبايع .

---

(١) المأقط : موضع القتال .

(٧٤)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام لما بلغه اتهام بنى أمية له بالمشاركة فى دم عثمان :

أَوَلَمْ يَنْهَ بَنِي أُمَيَّةَ عِلْمُهَا بِي عَنْ قَرْفِي ! أَوَمَا وَزَعَ الْجُهَّالَ سَابِقَتِي عَنْ تُهَمَتِي ! وَلَمَا وَعَظَهُمُ اللهُ بِهِ أَبْلَغُ مِنْ لِسَانِي .

أَنَا حَجِيجُ الْمَارِقِينَ ، وَخَصِيمُ النَّاكِثِينَ الْمُرْتَابِينَ ، وَعَلَى كِتَابِ اللهِ تُعْرَضُ الْأَمْثَالُ ، وبِمَا فِي الصُّدُورِ تُجَازَى الْعِبَادُ .

* * *

الشَّرْحُ :

القَرْف : العيب ؛ قرفته بكذا أى عبته . ووزَع : كَفّ وَردَع ؛ ومنه قوله: «لابدّ للناس من وَزَعة » ، جمع وازع ، أى من رؤساء وأمراء . والتُّهَمة ، بفتح الهاء ؛ هى اللغة الفصيحة ؛ وأصل التاء فيه واو .

والحجيج ، كالخصيم : ذو الحجاج والخصومة . يقول عليه السلام : أما كان فى عِلْم بنى أميّة بحالى مايَنهاها عن قَرْفى بدم عثمان ! وحاله التى أشار إليها ؛ وذكر أنّ عِلْمهم بها يقتضى ألا يقرِفوه بذلك ؛ هى منزلته فى الدّين التى لا منزلةَ أعلى منها ، ومانطق به الكتاب الصادق من طهارته وطهارة بنيه وزوجته ؛ فى قوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ . وقول النبىّ صلى الله عليه وآله : « أنتَ مِنى بمنزلة هارون من موسى » ، وذلك يقتضى عصمتَه عن الدّم الحرام ؛

(١) سورة الأحزاب ٣٣ .

كما أنّ هارون معصوم عن مثل ذلك . وترادف الأقوال والأفعال من رسول الله صلى الله عليه وآله فى أمره التى يضطرّ معها الحاضرون لها والمشاهدون إياها إلى أن مثله لا يجوز أن يسعى فى إراقةِ دم أمير مسلم ، لم يُحْدِث حدثاً يستوجب به إحلالَ دمه .

وهذا الكلامُ صحيح معقول ؛ وذاك أنّا نَرَى مَن يُظهر ناموس الدين ، ويواظب على نوافل العبادات ، ونشاهد مِنْ وَرَعِه وتقواه ما يتقرّر معه فى نفوسنا استشعارَه الدين ، واعتقاده إياه ، فيصرفنا ذلك عن قَرْفه بالعيوب الفاحشة ، ونستبعد مع ذلك طَعْنَ مَنْ يطعن فيه ، ونُنْكِرُه ونأباه ونكذّبه ؛ فكيف ساغ لأعداء أمير المؤمنين عليه السلام ؛ مع علمهم بمنزلته العالية فى الدين ، التى لم يصل إليها أحد من المسلمين ، أن يُطلِقوا ألسنَتهم فيه ، وينسُبوه إلى قتل عثمان أو الممالأة عليه ؛ لا سيما وقد اتّصل بهم ، وثَبَتَ عندهم ؛ أنه كان من أنصاره لا من المجلِبين عليه ، وأنه كان أحسنَ الجماعة فيه قولا وفعلا .

ثم قال : « ألم تَزَعِ الجهال وتردعُهم سابقتى عن تهمتى » ! وهذا الكلام تأكيد للقول الأوّل .

ثم قال : إن الذى وعظهم الله تعالى به فى القرآن من تحريم الغيبة والقذف وتشبيه ذلك بأكل لحم الميت أبلغُ من وعظى لهم ، لأنه لا عظةَ أبلغُ من عظة القرآن .

ثم قال : « أنا حَجِيج المارقين ، وخَصِيم المرتابين » ، يعنى يوم القيامة ؛ روى عنه عليه السلام أنه قال : « أنا أوّلُ من يجثو للحكومة بين يدى الله تعالى » ، وقد رُوِىَ عن النبى صلى الله عليه وآله مثل ذلك مرفوعا فى قوله تعالى : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾[1] وأنه صلى الله عليه وآله سئل عنها ، فقال : « علىّ وحمزة وعُبيدة ، وعُتبة وشَيْبة والوليد » ، وكانت حادثتُهم أوّلَ حادثة وقعت فيها مبارزة أهل الإيمان لأهل الشرك ، وكان المقتول الأول بالمبارزة الوليد بن عُتْبة ، قتله علىّ عليه السلام ، ضربه على رأسه فبدرَتْ عيناه على وجنته ،

(١) سورة الحج ١٩ .

فقال النبي صلى الله عليه وآله فيه وفى أصحابه ماقال ، وكان على عليه السلام يكثر من قوله : « أنا حجيج المارقين » ، ويشير إلى هذا المعنى .

ثم أشار إلى ذلك بقوله : « على كتاب الله تعرض الأمثال » ، يريد قوله تعالى : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ .

ثم قال : « وبما فى الصدور تجازى العباد » إن كنت قتلتُ عثمان أو مالأت عليه ؛ فإنّ الله تعالى سيجازيني بذلك ، وإلا فسوف يجازِى بالعقوبة والعذاب من اتّهمنى به ، ونسبه إلىّ .

وهذا الكلام يدلّ على مايقوله أصحابنا من تبرّؤ أمير المؤمنين عليه السلام من دم عثمان ، وفيه ردّ وإبطال لما يزعمه الإمامية ، من كونه رضىَ به وأباحه ؛ وليس يقول أصحابنا إنّه عليه السلام لم يكن ساخطا أفعال عثمان ، ولكنهم يقولون : إنه وإن سخطها وكرهها وأنكرها لم يكن مُبيحا لدمه ، ولا ممالئاً على قتله ، ولا يلزم من إنكار أفعال الإنسان إحلال دمه ، فقد لا يبلغ الفعل فى القبح إلى أن يستحلّ به الدم ؛ كما فى كثير من المناهى .

(٧٥)

الأصْلُ

ومن خطبة له عليه السلام :

رَحِمَ اللهُ امْرأً سَمِعَ حُكْماً فَوَعَى ، وَدُعِيَ إِلَى رَشَادٍ فَدَنَا ، وَأَخَذَ بِحُجْزَةِ هَادٍ فَنَجَا . رَاقَبَ رَبَّهُ ، وَخَافَ ذَنْبَهُ ، قَدَّمَ خَالِصًا ، وَعَمِلَ صَالِحًا . اكْتَسَبَ مَذْخُورًا ، وَاجْتَنَبَ مَحْذُوراً . رَمَى غَرَضاً ، وَأَحْرَزَ عِوَضاً . كَابَرَ هَوَاهُ ، وَكَذَّبَ مُنَاهُ . جَعَلَ الصَّبْرَ مَطِيَّةَ نَجَاتِهِ ، وَالتَّقْوَى عُدَّةَ وَفَاتِهِ . رَكِبَ الطَّرِيقَةَ الْغَرَّاء . لَزِمَ الْمَحَجَّةَ الْبَيْضَاء . اغْتَنَمَ الْمَهَل ، وَبَادَرَ الأَجَلَ ، وَتَزَوَّدَ مِنَ الْعَمَلِ .

***

الشَّرْحُ

الحُكْم هاهنا : الحِكْمة ، قال سبحانه : ﴿وَآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [1] ، ووعى : حفظ ، وعيتُ الحديث أعيه وعيا ، وأُذُنٌ واعيةٌ ، أى حافظة . ودنا : قَرُب . والحُجزة : معقِد الإزار ؛ وأخذ فلان بحجزة فلان إذا اعتصم به ولجأ إليه .

ثم حذف عليه السلام الواو فى اللفظات الأخر فلم يقل : « وراقب ربه » ، ولا « وقدّم خالصا » ، وكذلك إلى آخر اللفظات ؛ وهذا نوع من الفصاحة كثير فى استعمالهم .

واكتسب ، بمعنى كسب ، يقال : كسبت الشىء واكتسبته بمعنى .

والغَرَض : ما يرمَى بالسهام ، يقول : رحم الله امرأ رمى غَرَضاً ، أى قصد الحقّ كمن يرمى غرضا يقصده ، لا من يرمى فى عمياء لا يقصد شيئاً بعينه .

---

(١) سورة مريم ١٢ .

والعوض المحرَز ها هنا : هو الثواب .

وقوله : « كابر هواه » أى غالبه . وروى « كاثر » بالثاء المنقوطة بالثلاث ؛ أى غالب هواه بكثرة عقله ، يقال : كاثرنام فكثرنام ، أى غلبنام بالكثرة .

وقوله : « وكذَّب مُنَاه » أى أمنيَّته . والطريقة الغرّاء : البيضاء . والمَهَل : التغظ والتُّؤَدة .

(٧٦)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام :

إِنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَيُفَوِّقُونَنِي تُرَاثَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ تَفْوِيقاً ، وَاللهِ لَئِنْ بَقِيتُ لَهُمْ لَأَنْفُضَنَّهُمْ نَفْضَ اللَّحَّامِ الْوِذَامَ التَّرِبَةَ .

***

قال الرضيّ رحمه الله : وَيُرْوَى « التِّرَابَ الْوَذِمَةَ » ، وهو على القلب .

وقوله عليه السلام : « لَيُفَوِّقُونَنِي » أى يُعطوننى من المال قليلا كفُواق الناقة ، وهو الحلبة الواحدةُ من لبنها .

وَالْوِذَامُ التَّرِبَةُ : جمعُ وَذَمَةٍ ، وهى الْحُزَّةُ من الكَرِش أو الكَبِد تقع فى التُّراب فتنفض .

***

الشَّرْحُ :

اعلم أنّ أصل هذا الخبر قد رواه أبو الفرج على بن الحسين الأصفهانىّ فى كتاب " الأغانى "[1] بإسناد رفعه إلى الحارث بن حبيش ، قال: بعثنى سعيد بن العاص – وهو يومئذ أمير الكوفة من قِبَل عثمان – بهدايا إلى المدينة ، وبعث معى هدية إلى علىّ عليه السلام وكتب إليه : إنى لم أبعثْ إلى أحدٍ أكثر مما بعثت به إليك ، إلا إلى أمير المؤمنين[2] . فلما أتيت عليا عليه السلام وقرأ كتابه[3] ، قال : « لشدّ ما يحظر علىّ بنو أمية تراثَ محمد صلى الله عليه وسلم ! أما والله لئن وليتُها لأنفضنّها نَفْضَ القصّاب التراب الوذِمة » .

(١) الأغانى ١٢ : ١٤٤ (طبعة دار الكتب) .
(٢) الأغانى : « إلا شيئاً فى خزائن أمير المؤمنين » .
(٣) الأغانى : « فأخبرته » .

قال أبو الفرج : وهذا خطأ ؛ إنما هو « الوِذام التَّرِبة » .

قال : وقد حدثني [1] بذلك أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ عن أبي زيد عمر بن شبّة، بإسناد ذكره في الكتاب ، أنّ سعيد بن العاص حيث كان أميرَ الكوفة ، بعث مع ابن أبي عائشة مولاه إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام بصِلَة ، فقال عليّ عليه السلام : والله لا يزال غلام من غلمان بني أمية يبعث إلينا مما أفاء الله على رسوله بمثل قوت الأرملة ؛ والله لئن بقيت لأنفضنّها نَفض القصّاب الوذام التَرِبة .

(١) الخبر في الأغاني : « عن أبي زيد عن عبد الله بن محمد بن حكيم الطائي عن السعدي عن أبيه » .

(٧٧)

الأصل

ومن كلمات كان عليه السلام يدعو بها :

اللهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي ؛ فَإِنْ عُدْتُ فَعُدْ عَلَيَّ بِالْمَغْفِرَةِ . اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا وَأَيْتُ مِنْ نَفْسِي ، وَلَمْ تَجِدْ لَهُ وَفَاءً عِنْدِي .

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا تَقَرَّبْتُ بِهِ إِلَيْكَ بِلِسَانِي ، ثُمَّ خَالَفَهُ قَلْبِي . اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي رَمَزَاتِ الْأَلْحَاظِ ، وَسَقَطَاتِ الْأَلْفَاظِ وَسَهَوَاتِ الْجَنَانِ ، وَهَفَوَاتِ اللِّسَانِ .

***

الشرح

وأيتُ ، أى وعدت ، والوأى الوعد . ورمزات الألحاظ : الإشارة بها . والألحاظ : جمع لَحْظ ، بفتح اللام ، وهو مُؤْخَر العين . وسقَطات الألفاظ : لغوها ، وسهوات الجنان : غَفلاته ، والجَنان : القلْبُ . وهَفَوات اللسان : زلّاته .

وفى هذا الموضع يقال : ما فائدةُ الدعاء عندكم ـ والقديم تعالى إنّما يغفِر الصغائر ؛ لأنها تقع مكفّرة ، فلا حاجة إلى الدعاء بغفرانها ، ولا يؤثّر الدعاء أيضا فى أفعال البارى سبحانه لأنه إنما يفعلُ بحسَب المصالح ويرزق المال والولد وغير ذلك ، وبصرف المرض والجدب وغيرهما بحسب ما يعلمه من المصلحة ؛ فلا تأثير للدعاء فى شىء من ذلك ؟

والجواب ؛ أنه لا يمتنع أن يحسن الدعاء بما يعلم أنّ القديم يفعله لا محالة ، ويكون وجه حُسْنه ، صدوره عن المكلّف على سبيل الانقطاع إلى الخالق سبحانه .

ويجوز أيضا أن يكونَ فى الدعاء نفسِه مصلحة ولطف للمكلَّف ؛ لقد حَسُن منا الاستغفار للمؤمنين ، والصلاة على الأنبياء والملائكة .

وأيضا فليس كلّ أفعال البارئ سبحانه واجبةً عليه ، بل معظمها ما يصدر على وجه الإحسان والتفضّل ، فيجوز أن يفعله ، ويجوز ألّا يفعله .

فإن قلت : فهل يُسمّى فعلُ الواجب الذى لا بدّ للقديم — تعالى — من فعله إجابةً لدعاء المكلف ؟

قلت : لا ؛ وإنّما يسمّى إجابة إذا فعل سبحانه ما يجوز أن يفعلَه ، ويجوز ألّا يفعله كالتفضّل. وأيضا فإنّ اللطف والمصلحة قد يكون لطفا ومصلحة فى كلّ حال، وقد يكون لطفاً عند الدعاء ، ولولا الدعاء لم يكن لطفاً ؛ وليس بممتنع فى القِسْمِ الثانى أن يسمّى إجابة للدعاء ؛ لأنّ للدعاء على كلّ حال تأثيراً فى فعله .

فإن قيل : أيجوز أن يدعو النبىّ صلى الله عليه وآله بدعاء فلا يستجاب له ؟

قيل : إن مِنْ شرط حسن الدعاء أن يعلم الداعى حُسْن ما طلبه بالدعاء ؛ وإنما يَعلمُ حسنَه ؛ بألّا يكون فيه وجه قبح ظاهر ، وماغاب عنه من وجوه القبح ؛ نحو كونِه مفسدة يجب أن يشترِطه فى دعائه ، ويطلب مايطلبه بشرط ألّا يكون مفسدة . وإن لم يظهرْ هذا الشرط فى دعائه وجب أن يُضمِره فى نفسه ، فمتَى سأل النبىُّ ربَّه تعالى أمراً فلم يفعلْه لم يجز أن يقال : إنه ما أجيبت دعوتُه ؛ لأنه يكون قد سأل بشرط ألّا يكون مفسدة ؛ فإذا لم يقع ما يطلبه ، فلأنّ المطلوب قد علم الله فيه من المفسدة ما لم يعلمه النبىّ صلّى الله عليه وآله ؛ فلا يقال : إنه ما أجيب دعاؤه ؛ لأن دعاءه كان مشروطا ؛ وإنما يصدُق قولنا ما أجيب دعاؤه على مَنْ طلب أمرا طلباً مطلقاً غير مشروط فلم يقع ، والنبى صلى الله عليه وآله لا يتحقّق ذلك فى حقه .

(١) ا : « غاية » .

[من أدعية رسول الله المأثورة]

ونحن نذكر فى هذا الموضع جملة من الأدعية المأثورة طلباً لبركتها ، ولينتفع قارى الكتاب بها :

كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أصبح أن يقول :

« أصْبحْنَا وأصبح الملك والكِبْرياء والعظمة والجلال والخلق والأمر والليل والنهار وما يسكُن فيهما لله عزّ وجلّ وحدَه لاشريك له . اللهم اجعلْ أوّلَ يومِى هذا صلاحاً، وأوسطَه فلاحا ، وآخره نجاحا. اللهم إنّى أسألُكَ خيرَ الدنيا والآخرة يا أرحم الراحمين . اللهم اقسِمْ لنا من خَشيتك مايحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتنا ما تبلّغنا به رحمتك؛ ومن اليقين ما تهوّن به علينا مصيبات الدنيا . اللّهم متّعنا بأسماعِنا وأبصارِنا ، واجعلهما الوارث مِنّا ، وانصرنا على مَنْ ظلمنا ، ولاتجعل مصيبَتَنا فى ديننا ، ولاتجعل الدُّنيا أكبرَ همّنا ، ولا مَبْلَغَ علمنا ، ولا تسلط علينا مَنْ لا يرحمُنا » .

[من أدعية الصحيفة]

ومن دعاء أمير المؤمنين عليه السلام ، وكان يدعُو به زينُ العابدين علىّ بن الحسين عليه السلام ؛ وهو من أدعية الصحيفة :

يامَنْ يرحَمُ من لا يرحمهُ العباد ، ويا مَن يقبل من لا تقبلُه البلاد ، ويا مَنْ لا يحتقِر أهلَ الحاجة إليه ؛ يا من لا يجبَه بالردّ أهلَ الإلحاح إليه . يامَنْ لا يخفَى عليه صغيرُ ما يُتحَف به ، ولا يضيع يسيرُ ما يعملُ له . يا مَنْ يشكُر على القليل ، ويجازِى بالجليل . يا مَنْ يدنو إلى مَنْ دنا منه . يا من يَدْعُو إلى نفسه مَنْ أدبرَ عنه . يا مَنْ لا يغيِّر النعمة ، ولايبادِر بالنَّقمة. يا مَنْ يثمِّر الحسنَةَحتى ينمّيها، ويتجاوزعن السيئة حتى يعفّيها ؛ انصرفت

دون مَدَى كرمِك الحاجات، وامتلأت ببعضِ جودك أوعيةُ الطلبات، وتفسّختْ دون بلوغ نعتك الصّفات . فلك العلوّ الأعلى فوق كل عالٍ، والجلال الأمجد فوق كلّ جلال ؛ كلّ جليل عندك حقير، وكلّ شريفٍ في جَنْب شرفك صغير، خَاب الوافدون على غيرِك، وخَسِر المتعرّضون إلا لك، وضاع الملمّون إلا بك، وأجدب المنتجعون إلا منِ انتجعَ فضلك، لأنّك ذو غاية قريبة من الراغبين، وذو مجدٍ مباح للسائلين ؛ لا يَخيبُ لديك الآملون، ولا يخفِق من عطائك المتعرّضون، ولا يشقى بنقمتك المستغفرون ؛ رزقُك مبسوط لمَنْ عصاك، وحلمُك معرّض لمن ناواك، وعادتك الإحسان إلى المسيئين، وسنّتك الإبقاء على المعتدين، حتى لقد غرّتْهم أناتك عن النزوع، وصدّهم إمهالك عن الرجوع، وإنما تأنّيت بهم ليَفيئوا إلى أمرِك، وأمهلتهم ثقةً بدوَام مُلْكك، فمن كان من أهل السعادة ختمتَ له بها، ومَنْ كان من أهل الشّقاوة خذلته لها .

كلهم صائر إلى رحمتك، وأمورُهم آيلة إلى أمرك ؛ لم يهُنْ على طول مدّتهم سلطانُك، ولم تدحَضْ لترك معاجلتهم حججُك[1] ؛ حجّتك قائمة، وسلطانك ثابت، فالويل الدائم لمن جنحَ عنك، والخيبةُ الخاذِلة لمن خاب أمله منك، والشقاء الأشقى لمن اغترّ بك . ما أكثر تقلبه في عذابك، وما أعظم تردّده في عقابك، وما أبعدَ غايته من الفرج، وما أثبطه من سهولة المخرج ! عدلاً من قضائك لا تجور فيه، وإنصافاً من حكمك لا تحيفُ عليه ؛ قد ظاهرتَ الحجج، وأزلتَ الأعذار، وتقدّمت بالوعيد، وتلطّفت في الترغيب ؛ وضربت الأمثال، وأطلتْ الإمهال، وأخّرت وأنت تستطيع المعاجلة، وتأنّيت وأنت مليء بالمبادرة .

لم تك أناتك عجزاً، ولا حِلمك وَهْنا، ولا إمساكك لِعلّة، ولا انتظارك لمداراة، بل لتكونَ حجّتك الأبلغ، وكرمك الأكمل، وإحسانك الأوفى، ونعمتك الأتمّ .

---

(١) ج : « برهانك » .

كلّ ذلك كان ولم يزل ، وهو كائن لا يزول . نعمتُك أجلّ من أن توصف بشكرها ، ومجدُك أرفعُ من أن يحدّ بكنهه ، وإحسانُك أكبرُ من أن يشكَر على أقله ، فقد أقصرتُ ساكتا عن تحميدك ، وتهيبتُ ممسكا عن تمجيدك ، لا رغبةً يا إلهى عنك بل عجزا ، ولا زهدا فيما عندك بل تقصيرا ، وها أنذا يا إلهى أؤمّل بالوفادة ، وأسألك حسنَ الرِّفادة ، فاسمع ندائى ، واستجب دعائى ؛ ولا تختم عَمَلِي بخيبتى ، ولا تجبهنى بالردّ فى مسألتى ، وأكرِم من عندك منصرَفى ؛ إنك غير ضائق عمّا تريد ، ولا عاجز عمّا تشاء ؛ وأنت على كل شىء قدير .

***

ومن أدعيته عليه السلام ؛ وهو من أدعية الصحيفة أيضا :

اللهمّ يامَنْ برحمتِه يستغيث المذنبون ، ويامَنْ إلى إحسانه يفزَعُ المضطرون ، ويامَنْ لخيفتِه ينتحب الخاطئون ؛ يا أنسَ كلّ مستوحِشٍ غريب ، يافرج كلّ مكروب حريب . ياعونَ كلّ مخذول فريد ، ياعاضدَ كلّ محتاج طريد ؛ أنت الذى وَسِعْتَ كلّ شىء رحمة وعلما ، وأنتَ الذى جعلتَ لكلّ مخلوق فى نعمتك سَهمْاً ، وأنت الذى عفوُه أعلَى من عقابه ، وأنت الذى رحمتُه أمام غضَبِه ؛ وأنت الذى إعطاؤه أكبرُ من منعه ، وأنتَ الذى وَسِع الخلائق كلّهم بعفوه ، وأنت الّذى لا يرغبُ فى غنى مَنْ أعطاه . وأنت الذى لا يفرِّط فى عقاب من عصاه .

وأنا ياسيّدى عبدُك الذى أمرتَه بالدعاء فقال : لبيْك وسعدَيْك ! وأنا ياسيدى عبدُكَ الذى أوقرَتِ الخطايا ظهره ، وأنا الذى أفنتِ[1] الذنوبُ عمرَه ، وأنا الذى بجهله عصاك ؛ ولم يكن أهلا منه لذلك ؛ فهل أنتَ يامولاى راحمٌ من دعاك فاجتهد فى الدعاء ، أم أنت غافرٌ لمن بكى لك ، فأسرع فى البكاء ، أم أنت متجاوزٌ عمّن عفّر لك وجهَه ، متذلّلا ، أم أنت مغْنٍ من شكا إليك فقره متوكّلا !

(١) ج : « وأفنت الذنوب عمره » .

اللهم فلا تخيِّب مَنْ لايجدمعطياً غيرَك ، ولا تخذُل من لايستغنى عنك بأحدٍ دونك .
اللهم لاتُعرِضْ عَنّى وقد أقبلت عليك ، ولا تحرمْنى وقد رغبتُ إليك ، ولا تجبَهنى بالردّ وقد انتصبتُ بين يديك .أنت الذِى وصفتَ نفسَك بالرّحمة ، وأنت الذى سمّيتَ نفسك بالعفو ، فارحمنِي واعف عَنّى ؛ فقـد ترَى ياسيّدى فيضَ دموعى من خيفَتِك ، ووجيبَ قلبِي من خشيتك ، وانتفاضَ جوارحى من هيبتك ، كلُّ ذلك حياء منك بسوء عَمَلِي ، وخجلاً منك لـكثرة ذنوبى؛ قد كَلّ لسانِي عن مناجاتك ، وخمدصوتى عن الدعاء إليك!

يا إلهى ، فـكَمْ من عيبٍ سترتَه علىّ فلم تفضحْنى ، وكَمْ من ذنبٍ غَطّيتَ عليـه فلم تشهرّ بى ! وكَمْ من عائبةٍ أَلممتُ بها فلم تهتِكْ عَنّى سترَها ، ولم تقلّدنى مكروه شنَارها، ولم تبد علىّ محرّمات سوآتها . فمن يلتمسُ معايبى من جيرتى وحَسَدَةِ نعمتك عندى ،ثم لم ينهنى ذلك حتى صرتُ إلى أسوإ ماعهدتَ مِنّى افمن أجهلُ مِنّى ياسيدى برشدِك !ومَنْ أغفلُ مِنّى عن حظّه منك! ومَنْ أبعد مِنّى من استصلاح نفسه حين أنفقت ماأجريتَ علىّ من رزقك فيما نهيتَنى عنه مِن معصيتك ! ومَنْ أبعدُ غوْراً فى الباطل ، وأشدّ إقداماً علَى السوء منّى حين أقِفُ بين دعوتك ودعوة الشيطان ،فاتّبع دعوته على غير عَمى عن المعرفة به، ولا نسيانٍ من حفظى له ؛ وأنا حينئـذ موقِنٌ أنّ منتهَى دعوتك الجنّـة ، ومنتهى دعوته النار !

سُبحَانك فـا أعجب ماأشهد به على نفسى ،وأعدّدُه من مكنون أمرى ! وأعجبُ مِنْ ذلك أناتك عَنّى ، وإبطاؤك عن معاجلتى ؛ وليس ذلك من كرمى عليك ، بل تأنّياً منك بى وتفضُّلا منك علىّ ؛ لأن ارتدعَ عن خطئِي ، ولأنّ عفوك أحبُّ إليك من عقوبتى .
بل أنا ياإلهى أ كثرُ ذنوباً، وأقبح آثارا ،وأشنع أفعالا ،وأشدّ فى الباطل تهوّرا ،وأضعف عند طاعتك تيقّظا ،وأغفل لوعيدك انتباها؛ مِنْ أنْ أحصِىَ لك عيوبى ، وأقدر على تعديد

ذنوبى ؛ وإنما أوبّخ بهـذا نفسى طمعاً فى رأفتك التى بها إصلاح أمر المذنبين ، ورجاء لعصمتك التى بها فَكاك رقاب الخاطئين . اللهمّ وهذه رقبتى قد أرقّتها الذنوب فأعتِقها بعفوك ؛ وقد أثقلتْها الخطايا فخفّف عنها بمنّك . اللهمّ إنى لو بكيت حتى تسقط أشفارُ عينى ؛ وانتحبْتُ حتى ينقطع صوتى ، وقمتُ لك حتى تنتشرَ قدماىَ ، وركعتُ لك حتى ينخلِع صُلْبى ، وسجدتُ لك حتى تتفقأ حَدَقتَاى ، وأكلتُ التراب طولَ عمرى ، وشربتُ ماء الرماد آخر دهرى ؛ وذكرتُك فى خلال ذلك حتى يكلّ لسانى ؛ ثم لم أرفع طرفى إلى آفاق السماء استحياء منك ؛ لما استوجبتُ بذلك محو سيئة واحدة من سيئاتى ؛ فإن كنتَ تغفرُ لى حين أستوجب مغفرتَك ، وتعفو عنى حين أستحقُّ عفوك ؛ فإنّ ذلك غير واجب لى بالاستحقاق ، ولا أنا أهلٌ له على الاستيجاب ؛ إذ كان جزائى منك من[1] أول ما عصيتُك النار ؛ فإن تعذّبنى فإنك غير ظالم .

إلهى فإن تغمّدْتَنى بسترك فلم تفضحنى ، وأمهلتَنى بكرمك فلم تعاجِلْنى ، وحلُمتَ عنى بتفضّلك فلم تغيّر نعمك علىّ ، ولم تـكدّر معروفك عندى ، فارحم طول تضرُّعى ، وشدةَ مسكنتى ، وسوء موقفى .

اللهم صلّ على محمد وآل محمد ، وأنقذنى من المعاصى ، واستعملنى بالطاعة ، وارزقنى حسنَ الإنابة ، وطهّرنى بالتوبة ، وأيّدنى بالعصمة ، واستصلِحْنِى بالعافية ، وارزقنى حلاوة المغفرة ، واجعلنى طليقَ عفوك ، واكتب لى أماناً من سَخَطك ، وبشّرْنى بذلك فى العاجل دون الآجل[2] ؛ بشرَى أعرفها ، وعرّفنى له علامةً أتبيّنها ؛ إن ذلك لا يضيقُ عليك فى وُجْدك ، ولا يتكاءدك فى قدرتك ، وأنت على كلّ شىء قدير .

* * *

ومن أدعيته عليه السلام ؛ وهو من أدعية الصحيفة :

---

(١) ب : « فى » .　　(٢) ب : « والعاجل » .

اللهم ياذا الملك المتأبّد بالخلود والسلطان ، الممتنِـع بغير جنود ، والمعزّ الباقى على مرّ الدهور ؛ عزّ سلطانك عزًّا لا حدّ له ولا منتهى لآخره ، واستعلَى ملـكك علوًّا سقطت الأشياء دونَ بلوغ أمده، ولا يبلغ أدنى مااستأثرت به من ذلك نعوتُ أقصى نعت الناعتين ضلّت فيك الصفات ، وتفسّخت دونك النعوت ، وحارت فى كبريائك لطائف الأوهام.

كذلك أنت الله فى أوّليتك ، وعلى ذلك أنت دائم لا تزول ، وكذلك أنت الله فى آخريتك ؛ وكذلك أنت ثابت لا تحُول .

وأنا العبد الضعيف عملًا ، الجسيم أملا ، خرجتْ من يدىّ أسبابُ الوصلات إلى رحمتك ، وتقطّعت عنّى عِصَمُ الآمال إلا ماأنا معتصم به من عفوك. قلّ عندى ماأعتدّ به من طاعتك، وكثُر عندى ما أبوء به من معصيتك ؛ ولن يفوتك[1] عفوٌ عن عبدك وإن أساء ؛ فاعف عنّى .

اللهم قد أشرف على كلّ خطايا الأعمال علمُك، وانـكشف كلّ مستور عند خُبْرِك؛ فلا ينطوى عنك دقائق الأمور ، ولا يعزُب عنك خفايا السرائر[2]؛ وقد هربتُ إليك من صغائر ذنوب موبقة ، وكبائر أعمال مردية ، فلا شفيعَ يشفع لى إليك ، ولا خفير يؤمننى منك ، ولا حصن يحجبنى عنك ، ولا ملاذ ألجأ إليه غيرك .

هذا مقامُ العائذ بك ، ومحلّ المعترف لك ، فلا يضيقَنّ عنّى فضلُك ، ولا يقصرَنّ دونى عفوك ، ولا أكون أخيبَ عبادك التائبين ، ولا أقنَط وفودك الآملين ؛ واغفر لى إنك خير الغافرين .

اللهمّ إنك أمرتنى فغفلت ، ونهيتَنى فركبت ، وهذا مقام من استحيا لنفسه منك، وسخِط عليها ورضىَ عنك؛ وتلقّاك بنفس خاشعةٍ ،وعين خاضعة، وظهرٍ مثقَل من الخطايا، واقفا بين الرغبة إليك والرهبة منك ؛ وأنت أوْلَى مَنْ رجاه ، وأحقُّ مَنْ خشيَه واتقاه؛

(١) ج : « يفوتك » .
(٢) ج : « خفايا لأعمال » .

فأعطني يارب ما رجوتُ ، وأمنّي ماحَذرت ، وعد عليّ بفضلك ورحمتك ؛ إنك أكرمُ المسئولين .

اللهمّ وإذ سترتَني بعفوك ، وتغمّدتَني بفضلك في دار الفناء،فأجِرْني من فَضيحات دار البقاء عند مواقف الأشهاد ؛ من الملائكة المقربين ، والرسل المكرّمين ، والشهداء الصالحين ؛ مِنْ جارٍ كنتُ أكاتمه سيّئاتي،ومن ذي رحِمٍ كنت أحتشِم منه لسريراتي؛ لم أثق بهم في السّتْر[1] عليّ،ووثقت بك في المغفرة لي،وأنت أولى مَنْ وُثِق به،وأعطى مَنْ رُغِب إليه ، وأرأف من استرحِم ؛ فارحمني .

اللهم إني أعوذُ بك مِنْ نار تغلّظتَ بها على مَنْ عصاك ، وأوعدْت بها من ضادّك وناوَاك ، وصدَف عن رضاك . ومن نارٍ نورها ظلمة،وهيّنُها صعب ، وقريبها بعيد.ومِنْ نارٍ يأكل بعضُها بعضاً ، ويصول بعضها على بعض؛ ومن نارٍ تَذَرُ العظام رميماً ، وتسق أهلَها حميا ، ومن نارٍ لاتبقى على من تضرّع ، ولا ترحم مَنِ استعطفها ، ولا تقدر على التخفيف عمّن خشع لها ، واستبتل إليها ، تلقَى سكانَها بأحرّ مالديها من أليم النّكال ، وشديد الوبال .

اللهم بك أعوذ من عقَاربها الفاغرة أفواهَها،وحيّاتها الناهشة بأنيابها،وشرابها الذي يقطّع الأمعاء ، ويذيب الأحشاء ؛ وأستهديك لما باعد عنها ، وأنقذ منها ، فأجرني بفضل رحمتك ؛ وأقِلْني عثرَتِي بحسن إقالتك ، ولا تخذُلني ياخير المجيرين .

اللهم صلّ على محمد وآل محمد إذا ذُكِر الأبرار،وصلّ على محمد وآل محمد ما اختلف الليل والنهار ، صلاةً لا ينقطع مددها ، ولا يحصى عددُها ، صلاة تشحن الهواء ، وتملأ الأرض والسماء .

صلّ اللهم عليه وعليهم حتى ترضى ، وصلّ عليه وعليهم بعد الرّضا صلاةً لاحدّ لها، ولا منتهى ؛ يا أرحم الراحمين !

***

---

(١) ب : « السرّ » وما أثبته من ج .

ومن دعائه عليه السلام ، وهو من أدعية الصحيفة :

اللهمّ إني أعوذ بك من هَيَجان الحِرْص وسَوْرة الغضب ، وغَلَبة الحسد وضعف الصبر، وقلة القناعة ، وشكَاسة الخُلق، وإلحاح الشهوة، وملكة الحَمِيَّة ، ومتابعة الهوى، ومخالفة الهدى وسِنَة الغفلة ، وتعاطى الكُلْفة، وإيثار الباطل على الحقّ ، والإصرار على المأثم ، والاستكثار من المعصية ، والإقلال من الطاعة ، ومباهاة المكثرين ، والإزراء على المقلّين ، وسوء الولاية على مَنْ تحت أيدينا، وترك الشُّكْر لمن اصطنع العارفة عندنا، وأن نعضُدَ ظالما ، أو نخذل ملهوفاً ، أو نروم ما ليس لنا بحقّ ، أو نقول بغير علم، ونعوذ بك أن ننطوِيَ على غِشّ لأحد ، وأن نُعجَب بأموالنا وأعمالنا، وأن نُمدّ في آمالنا. ونعوذ بك من سوء السريرة ، واحتقار الصغيرة ، وأن يستحوذَ علينا الشيطان ، أو يشتدّ لنا الزمان ؛ أو يتهضّمنا السلطان ، ونعوذ بك من حبّ الإسراف ، وفقدان الكفاف ، ومن شماتة الأعداء ، والفقر إلى الأصدقاء ، ومن عيشة في شدّة ، أو موت على غير عُدّة .

ونعوذ اللهمّ بك من الحسرة العُظْمى ، والمصيبة الكبرى ، ومن سوء المآب ، وحرمان الثواب ، وحلول العقاب .

اللهم أعذنا من كلّ ذلك برحمتك وَمَنّك وجودك ، إنك على كل شيء قدير .

* * *

ومن دعائه عليه السلام وتحميده ، وذكره النبيّ صلى الله عليه وآله ، وهو من أدعية الصحيفة أيضاً :

الحمد لله بكلّ ما حمِده أدنى ملائكته إليه ، وأكرمُ خلقِه عليه ، وأرضى حامدِيه لديه ؛ حمداً يفضل سائرَ الحمد ، كفضلِ ربّنا – جلّ جلاله – على جميع خَلْقه .

ثم له الحمد مكانَ كلّ نعمة له علينا، وعلى جميع عباده الماضين والباقين ، عَدَد ما أحاط به علمُه ، ومن جميع الأشياء أضعافاً مضاعفة ، أبداً سرمداً إلى يوم القيامة ، وإلى ما لا نهاية له

من بعد القيامة ؛ حمداً لا غايةَ لحدّه ، ولا حساب لعدّه ، ولا مبلغَ لأعداده ، ولا انقطاع لآماده ؛ حمداً يكون وُصْلَةً إلى طاعته ، وسبباً إلى رضوانه ، وذريعةً إلى مغفرته ، وطريقاً إلى جنته ، وخفيراً من نقمته وأمْناً من غَضَبِه ، وظهيراً على طاعته ، وحاجزاً عن معصيته ؛ وعوناً على تأدية حقه ووظائفه ؛ حمداً نسعَدُ به في السعداء من أوليائه ، وننتظم به في نظام الشهداء بسيوف أعدائه .

والحمد لله الذي منّ علينا بنبيّه محمد صلى الله عليه وآله دون الأمم الماضية ، والقرون السالفة ؛ لقدرته التي لاتعجزُ عن شيء وإن عظُم ، ولا يفوتها شيء وإن لَطُف .

اللّهم فصلّ على محمد أمينك على وحيك ، ونجيّك من خَلْقك ، وصفيّك من عبادك . إمام الرحمة وقائد الخير ، ومفتاح البركة ، كما نصب لأمرك نفسه ، وعرض فيك للمكروه بدَنه ، وكاشف في الدعاء إليك حامّته ، وحارب في رضاك أسرته ، وقطع في نُصرة دينك رَحِمَهُ ، وأقصى الأدنين على عنودهم عنك ، وقرّب الأقصين على استجابتهم لك ؛ ووالى فيك الأبعدين ، وعاند فيك الأقربين ، وأدأب[1] نفسه في تبليغ رسالتك ، وأتعبها في الدعاء إلى ملّتك ، وشغَلها بالنصح لأهل دعوتك ، وهاجر إلى بلاد الغرْبة ومحلّ النأى عن موطن رحله ، وموضع رجْله ، ومسقط رأسه ، ومأنَس نفسه ؛ إرادة منه لإعزاز دينك ، واستنصاراً على أهل الكفر بك ؛ حتى استتبّ له ماحاول في أعدائك ، واستتمّ له ما دبّر في أوليائك ، فنهد إلى المشركين بك ، مستفتحاً بعونك ، ومتقوياً على ضعفه بنصرك ، فغزاهم في عُقْر ديارهم ، وهجم عليهم في بُحبوحة قرارهم ؛ حتى ظهر أمرُك ، وعلَتْ كلمتك ؛ وقد كره المشركون .

اللهم فارفعه — بما كَدَح فيك — إلى الدرجة العليا من جنّتك ؛ حتى لا يساوَى في منزلة ، ولا يُكافأ في مرتبة ، ولا يوازيه لديك ملَك مقرّب ، ولا نبيّ مرسَل ، وعرّفه في أمته من

(١) ج : « وأدّب » .

حسن الشفاعة أجلّ ماوعدته ؛ يانافذ العِدَة ، يا وافىَ القول ، يا مبدّل السيئات بأضعافها من الحسنات ؛ إنك ذو الفضل العظيم .

***

[من الأدعية المأثورة عن عيسى عليه السلام]

ومن الأدعية المروية عن عيسى بن مريم عليهما السلام :

اللهم أنت إله مَنْ فى السماء ، وإله من فى الأرض ، لا إله فيهما غيرك ، وأنت حكيم مَنْ فى السماء ، وحكيم من فى الأرض ؛ لا حكيم فيهما غيرك ؛ وأنت مَلِك من فى السماء ، وملك من فى الأرض ، لا ملك فيهما غيرك ؛ قدرتك فى السماء كقدرتك فى الأرض ، وسلطانك فى السماء كسلطانك فى الأرض ؛ أسألك باسمك الكريم ، ووجهك المنير ، وملِكك القديم أن تفعل بى كذا وكذا .

***

[من الأدعية المأثورة عن بعض الصالحين]

وكان بعض الصالحين يدعو فيقول :

اللهم لا تدخلنا النارَ بعد أن أسكنت قلوبَنا توحيدك ، وإنى لأرجو ألا تفعل ؛ وإن فعلت لتجمعنّ بيننا وبين قوم عاديْناهم فيك .

ومن دعاء بعضهم :

اللهمّ إنك لم تشرِك فى خلقنا غيرَك ، فلا تشرك فى الإحسان إلينا غيرَك ؛ اللهمّ لا ربّ لنا غيرك ؛ فلا تجعل حاجتَنا عند غيرك . اللهم إنّا لا نعبدُ غيرك ، فلا تسلّط علينا غيرَك .

قام أعرابىّ على قبرِ رسول الله صلى الله عليه وآله فقال :

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! قلت فقبلنا ، وتلوتَ فوعَينا ، ثم ظلمنا أنفسنا ، وقرأنا فيما أتيتنا به عن ربنا : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً[١] ﴾ . اللهم إنا قد جئنا رسولك ونحن نستغفرك ونسأل رسولك أن يستغفر لنا خطايانا ، فاغفر لنا وتُبْ علينا .

فيقال : إن إنساناً حضر ذلك الدعاء ، فرأى تلك الليلة رسول الله صلى الله عليه وآله في منامه يقول له : أبلغ الأعرابيّ أنّ الله قد غفر له .

ومن أدعية بعض الصالحين :

اللهمّ إني لم آتِكَ بعمل صالح قدّمتُه ، ولا شفاعة مخلوق رجوتُه ؛ أتيتك مقرًّا بالظلم والإساءة على نفسي ؛ أتيتك بلا حجّة ، أتيتك أرجو عظيمَ عفوكَ الذي عدتَ به على الخاطئين ؛ ثم لم يمنعك عكوفُهم على عظيم الجُرْم أن جُدْت لهم بالمغفرة ، فياصاحب العفو العظيم اغفرِ الذنب العظيم ، برحمتك يا أرحم الراحمين .

وروى أنّ عليًّا عليه السلام اعتمر ، فرأى رجلامتعلقًا بأستار الكعبة ، وهو يقول : يامَنْ لايشغَلُه سمع عن سمع ؛ يامن لاتغلّطه[٢] المسائل ولايبرمه إلحاح الملحّين ؛ أذقني بَرْدَ عفوك ، وحلاوة مغفرتك ؛ وعذوبة عافيتك ؛ والفوزَ بالجنّة ، والنجاة من النار .

فقال عليّ عليه السلام : والذى نفسِي بيده إن قالها وعليه مثل السموات والأرض من الذنوب قولا مخلصا ليغفرنّ له .

ودعا أعرابيّ عند الملتزَم ، فقال :

اللّهم إن لك على حقوقا فتصدّقْ بها علىّ ، وإنّ للناس قبلى تبِعاتٍ فتحمّلها عنى ؛ وقد أوجبتَ لكلّ ضيفٍ قرًى وأنا ضيفُك الليلة ، فاجعل قِرايَ الجنة .

---

(١) سورة النساء ٦٤ .

(٢) ب : « تغلطه » ، وما أثبته من ج .

ودعا بعض الأعراب أيضاً ، وقد خرج حاجّا ، فقال : اللّهم إليك خرجْتُ ؛ وما عندك طلبت ، فلا تحرمنى خيرَ ما عندك ، لشرّ ما عندى ؛ اللهم إن كنتَ لم ترحَمْ تعبِي ونصَبِي ؛ فإنّها لمصيبة أصِبْتُ بها ، فلا تحرمْنى أجرَ المصاب على المصيبة .

ودعا بعضهم فقال : اللّهمّ إنك سترتَ علينا فى الدنيا ذنوبا كثيرة ؛ ونحن إلى سترها فى الآخرة أحوَج ؛ فاغفر لنا .

ومن دعاء بعضهم : اللّهمّ اجعل الموتَ خيرَ غائب ننتظره ، واجعل القبرَ خيرَ بيت نعمره ؛ واجعل مابعدَه خيراً لنا منه . اللهمّ إليك عجّت الأصوات بصنوف اللغات تسألكُ الحاجات ، وحاجتى إليك أن تذكرنى عند طول البِلَى ، إذا نسينى أهلُ الدنيا .

وقال بعضهم : كنتُ أدعو الله بعد وفاة مالك بن دينار أنْ أراه فى منامى ، فرأيتُه بعد سنة ، فقلت : يا أبا يحيى ، علمّنى كيف أدعو ؟ فقال : قل : اللّهم يسّر الجواز ، وسهل المجاز .

وقال الشعبىّ : حسدتُ عبد الملك بن مروان على دعاء كان يدعُو به على المنبر ؛ يقول : اللهمّ إن ذنوبى كثيرة جلّت أن توصَف ، وهى صغيرة فى جَنْب عفوك ، فاعفُ عنى .

ومن دعاء بعض الزهاد : اللهمّ إنّى أعوذ بك من أهل يُلهينى ، ومن هوًى يُردِينى ، ومن عمل يُخزينى ، ومن صاحب يِغوينى ، ومن جارٍ يؤذينى ؛ ومن غِنًى يُطغينى ، ومن فقرٍ ينسّينى . اللهمّ اجعلنا نستحييك ونتقيك ، ونخافك ونخشاك ، ونرجوك ونطيعك فى السرّ والعلانية . اللهمّ استرنا بالمعافاة والغنى ؛ أستعين الله على أمورى ، وأستغفر الله لذنوبى ، وأعوذ بك من شرّ نفسى .

ويروى أنّ رجلا أعمى جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فشكا إليه ذهابَ بصره ، فقال صلى الله عليه وآله له : قل : يا سبّوح يا قدّوس ، يا نور الأنوار ، يا نورَ السموات والأرض ، يا أوّل الأولين ، ويا آخر الآخرين ، ويا أرحم الراحمين ، أسألك

أنْ تغفرَ لى الذنوبَ التى تغيّر النعم ، والذنوب التى تنزِل النقم ، والذنوب التى تهتك العِصَم ، والذنوب التى توجب البلاء ، والذنوب التى تقطع الرجاء ، والذنوب التى تحبس الدعاء ، والذنوب التى تـكشف الغِطاء ، والذنوب التى تعجّل الفناء ، والذنوب التى تظلِم الهواء ، وأسألك باسمك العظيم ، ووجهك الـكريم ، أن تردّ علىّ بصرى .

فدعا بذلك فردّ عليه بصره .

ومن الآثار المنقولة ، أن الله تعالى غضب على أمة فأنزل عليهم العذاب ، وكان فيهم ثلاثة صالحون ، فخرجوا وابتهلوا إلى الله سبحانه ، فقام أحدهم فقال : اللهمّ إنك أمرتنا أن نعتق أرقّاءنا ونحن أرقّاؤك ؛ فاعتِقنا ، ثم جلس . وقام الثانى فقال : اللّهمّ إنك أمرتنا أن نعفوَ عمّن ظلمنا ، وقد ظلمنا أنفسنا فاعفُ عنّا ، ثم جلس . وقام الثالث فقال : اللهمّ إنا على ثقة أنك لم تخلق خلقا أوسعَ من مغفرتك ، فاجعل لنا فى سعتها نصيباً ؛ فرفع عنهم العذاب .

قيل لسفيان بن عُيينة : ما حديث رويته عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « أفضل دعاء أعطِيته أنا والنبيون قبلى : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت ، وهو حىّ لا يموت ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير » ، كأنهم لم يروهُ دعاء ! فقال : ما تنكرون من هذا ! ثم روى لهم قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « مَنْ تشاغل بالثناء على الله ، أعطاه الله فوق رغبة السائلين » . ثم قال : هذا أمية بن أبى الصَّلْت يقول لابن جُدْعان :

أأذكرُ حاجتى أمْ قد كفانى حَيَاؤك ؟ إنّ شيمتَك الحياء[1]
إذا أثنى عليـــك المرء يوماً كَفَاهُ مِنْ تعرُّضِهِ الثناء

وقال : هذا مخلوق يقول لمخلوق ، فما ظنّكم برب العالمين !

---

(١) شعراء النصرانية ٢٢٠ .

ومن دعائه صلى الله عليه وآله : « اللهمّ إنّى أعوذُ بك من الفقر إلا إليك ، ومن الذلّ إلالك » .

ومن دعائه عليه السلام : « اللهمّ ارزقني عينين هطّالتين تسقيان القلوبَ مذروفَ الدموع ، قبل أن يكون الدمع دماً ، وقرع الضِّرْس ندماً » .

ومن دعائه عليه السلام : « اللهمّ طهّرلسانى من الكذب ،وقلبي من النفاق ، وعملى من الرياء ، وبصرى من الخيانة ، فإنك تعلم خائنَةَ الأعين وماتخفى الصدور » .

ومما رواه أنس بن مالك . « لاتعجزُوا عن الدعاء فإنّه لن يهلِكَ مع الدعاء أحد » .

ومن رواية جابر بن عبد الله : « لقد بارك الله للرجل فى الحاجة بكثرة الدعاء فيها ، أعْطِيَها أو مُنِعَها » .

أبوهريرة يرفعه : « اللهمّ أصْلِح لى فى دينى الذى هوعِصْمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشِى ، وأصلِحْ لى آخرتى التى إليها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كلّ خير ، والموت راحة لى مِن كلّ شرّ » .

قيل لأعرابيّ :أتحسِنُ أن تدعوَ ربّك ؟ فقال : نعم ، ثم دعا فقال : اللهمّ إنّك مَننْتَ علينا بالإسلام من غير أن نسألَكَ ، فلا تحرِمْنا الجنّة ونحن نسألك .

سُمِعَتْ أعرابية تقول فى دعائها : ياعريضَ الجَفْنة ، ياأبا المكارم ، ياأبيض الوجه ؛ فزجرها رجل ، فقالت : دعونى أصف ربى بما يستحقّه .

وكان موسى بن جعفر عليه السلام يقول فىسجوده آخر الليل : إلهى عَظُم الذنبُ من عبدك ، فليحسُن العفوُ من عندك .

ذُكِرَ عند بعض الصالحين رجلٌقد أصابه بلاءعظيم ؛وهو يدعوفتبطىء عنهالإجابة، فقال : بَلَغَنى أنّ الله تعالى يقول : كيف أرحم المبتَلَى من شىء أرحمه به !

قال طاوس : إنى لفى الحِجْر ليلةً إذ دخل علىّ بن الحسين عليه السلام ، فقلت : رجل صالح من أهلِ بيتٍ صالح ؛ لأسمعن دعاءه ! فسمعتُه يقول فى أثناء دعائه : عَبْدُك بفِنائك ، سائلك بفِنائك ، مسكينك بفِنائك . فما دعوت بهنّ فى كَرْب إلا وفرّج عنى .

عمر بن ذَرّ : اللهم إن كنا عصيناك فقد تركنا من معاصيك أبغضها إليك ؛ وهو الإشراك ، وإن كنّا قصّرنا عن بعض طاعتك ، فقد تمسكنا منها بأحبّها إليك ، وهو شهادة أن لا إلٰه إلا أنت ، وأنّ رسلك جاءت بالحقّ من عندك .

أعرابىّ : اللهمّ إنّا نبات نعمتِك ، فلا تجعلْنا حصائدَ نقمتك .

بعضهم : اللهمّ إن كنتَ قد بلّغت أحداً من عبادك الصالحين درجة ببلاء ، فبلّغْنيها بالعافية .

حجّ أعرابىّ ، فكان لا يستغفر إذا صلّى كما يستغفر الناس ، فقيل له ، فقال : كما أنّ تركى الاستغفار مع ما أعلم من عَفْوِ الله ورحمته ضعف ، فكذلك استغفارى مع ما أعلم من إصرارى لؤم .

لما صافّ قتيبة بن مسلم الترك وهاله أمرُهم ، سأل عن محمد بن واسع ، فقيل : هو فى أقصى الميمنة جانحا على سِيَة[1] قوسه ، مبصبصاً بإصبعه نحو السماء ، فقال قتيبة : لتلك الأصبع الفارورة ، أحبّ إلىّ من مائة ألف سيف شهير ، ورمح طَرِير[2] .

سمع مطرّف بن الشّخّير صيحة الناس بالدعاء ، فقال : لقد هممتُ أن أحلف أن الله غفر لهم ، ثم ذكرت أنى فيهم فكففت .

كان المأمون إذا رفعت المائدة من بين يديه يقول : الحمد لله الذى جعل أرزاقنا أكثر من أقواتنا .

الحسن البصرىّ : مَنْ دخل المقبرة فقال : اللهمّ ربّ الأرواح العالية ، والأجساد البالية ،

---

(١) سية القوس : ما عطف من طرفيها . (٢) رمح طرير : محدد .

والعظام النَّخِرة التى خرجت من الدنيا وهى مؤمنة بك ؛ أدخِلْ عليهم رَوْحاً منك وسلاماً منّى ؛ كتب الله له بعدد مَنْ ولد ـ منذ زمن آدم إلى أن تقومَ الساعة ـ حسنات .

علىّ عليه السلام : الدّعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السموٰات والأرض .

قيل : إنّ فيما أنزله الله تعالى من الكتب القديمة : إن الله يبتلى العبد وهو يحبّه ؛ ليسمعَ دعاءه وتضرُّعَه .

أبو هريرة : اطلبُوا الخيرَ دهرَكم كلَّه ، وتعرّضوا لنفحَاتٍ مِنْ رحمة الله تعالى ، فإنّ لله تعالى نفحاتٍ من رحمته ، يصيب بها من يشاء من عباده ، واسألوا الله أن يسترَ عوارتِكم ، ويؤمّن روعاتكم .

صلّى رجل إلى جَنْب عبد الله بن المبارك ، فلما سلّم الإمام سلّم وقام مجِلا ، فجذب عبدُ الله بثوبه ، وقال : أمالك إلى ربِّك حاجة !

قيل لعمر بن عبد العزيز : جزاك الله عن الإسلام خيرا ! فقال : لا ، بل جزى الله الإسلام عنّى خيرا .

علىّ عليه السلام : الداعِى بغير عملٍ كالرامى بغير وَتَر .

كان الزهرىّ إذا فرغ من الحديث تلاه ، فدعا : اللهمّ إنى أسألك خيرَ ما أحاط به علمُك فى الدنيا والآخرة ، وأعوذ بك من شرّ ما أحاط به علمُك فى الدنيا والآخرة .

كان زبيد النّامِىّ يستتبع الصبيان إلى المسجد ، وفى كُمّه الجوْز ، ويقول : مَن يتبعنِى منكم فأعطيه خمس جوزات ؟ فإذا دخلو المسجد ، قال ارفعوا أيديكم وقولوا : اللهمّ اغفر لزبيد ، فإذا دَعَوْا قال : اللهم استجِبْ لهم ، فإنهم لم يذنبوا .

علىّ عليه السلام : جعلَ فى يديك مفاتيح خزائنه بما أذِنَ لك فيه من مسألته ، فمتى شئتَ استفتحتَ بالدعاء أبوابَ نعمته ، واستمطرت شآبيبَ رحمته ، فلا يقنِطنّك إبطاء

إجابته ، فإن العطيةَ على قدر النية ، وربما أُخرت عنك الإجابة ، ليكون ذلك أعظم لأجر السائل ، وأجزلَ لعطاء الآمل ؛ وربما سألت الشيء فلا تُؤتاه ، وأُوتيتَ خيراً منه ، أو صُرِف عنك بما هو لك خير . واعلم أنه رُبَّ أمرٍ قد طلبتَ ؛ فيه هلاكُ دينك لو أوتيتَه .

ومن الدعاء المرفوع : اللهمّ مَنْ أراد بنا سوءاً فأحِطْ به ذلك السوء كإحاطة القلائد بترائب الولائد ، وأرسخه على هامته كرسوخ السِّجِّيل[1] على قِمَم أصحاب الفيل .

سمع عمر رجلا يقول فى دعائه : اللهم اجعلنى من الأقلِّين ! فقال : ما أردتَ بهذا ؟ قال : قول الله عز وجل : ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾[2] ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾[3] ، فقال : عليكم من الدعاء بما عُرف .

قال سعيد بن المسيِّب : مرّ بى صِلَة بن أشيم ؛ فقلت له : ادع لى ، فقال : رغّبك الله فيما يبقَى ، وزهّدك فيما يفنَى ، ووهب لك اليقين الذى لا تسكُنُ النفوس إلا إليه ، ولا تعوّل إلا عليه .

كان علىّ بن عيسى بن ماهان صاحبَ خراسان ، وفى أيامه عصام بن يوسف الزاهد فلقيَه فى الطريق ، وسلّم عليه علىّ ، فأعرض عنه ولم يردّ عليه ، فوقف علىّ ، ورفع يديه وأسبل عينيه ، وقال : اللهمّ إنّ هذا الرجل يتقرّب إليك ببغضِى ، وأنا أتقرّب إليك بحبّه ، فإن كنت غفرتَ له ببغضِى ، فاغفرْ لى بحبّه ، يا كريم ! ثم سار .

قال الأصمعىّ : سمعتُ أعرابيا يدعو ويقول : اللّهمّ إن كان رزقى فى السماء فأنزله ، وإن كان فى الأرض فأخرجه ، وإن كان بعيداً فقرّبه ، وإن كان قريبا فيسرّه ، وإن كان قليلا فكثّره ، وإن كان كثيرا فبارك لى فيه .

---

(١) السجيل : حجارة من مدر .
(٢) سورة هود ٤٠ — (٣) سورة سبأ ١٣

من دعاء عمرو بن عُبَيْد (١) : اللهمّ أغْنِنِي بالافتقار إليك ، ولا تُفقِرْني بالاستغناء عنك ؛ اللهم أعنّى عَلَى الدنيا بالقَناعة ؛ وعلى الدين بالعصمة .

شكا رجل إلى الحسن رحمه الله تعالى رجلًا يظلمه ، فقال له : إذا صلّيت الركعتين بعد المغرب ، فاسجد وقل : ياشديدَ القوى ، ياشديد المِحَال ، ياعزيز ، أذللتَ لعزّتك جميعَ مَنْ خلقت ، فصلّ على محمد وآل محمد ، واكفِنى مؤونة فلان بما شئت . فدعا بها فلم يرعْهُ إلا الواعية (٢) بالليل . فسأل ، فقيل : مات فلان فجأة .

قال موسى عليه السلام : يارب إنك لتعطيني أكثر من أملِي ، قال : لأنك تكثِر من قول: ماشاء الله ؛ لا قوة إلا بالله.

كان بعض الصالحين يقول قبل الصلاة : يامحسن ، قد جاءك المسيء ، وقد أمرت المحسن أن يتجاوزَ عن المسيء ، فتجاوزْ عن قبيح ماعندِى بجميل ماعندك . اللهمّ ارزقنى عَمَلَ الخائفين وخوف العاملين ؛ حتى أنعم بترك (٣) التنعّم طمعا فيما وعدت ، وخوفا مما أوعدت .

ومن الأدعية الجامعة : اللهمّ أغنِنِي بالعلم ، وزيّنّى بالحلم ، وجَمّلنى بالعافية ، وكرّمنى بالتقوى.

أحمد بن يوسف كاتب المأمون ؛ إذا دخل عليه حيّاه بتحيّة أبرويز الملك : عشتَ الدهر ، ونِلت المنى ، وجُنّبت طاعة النساء .

ومن الدعاء المروىّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « اللهمّ اغفر لى ذنوبى وخطاياى كلّها . اللهم أنعِشْنى وأجِزْنى وانصرنى واهدنى لِصالح الأعمال والأخلاق ؛

---

(١) فى الأصول : « عبيدة » تحريف .

(٢) الواعية : الصراخ .

(٣) فى الأصول : « منزلة » ، تحريف .

إنه لايهدى لصالحها ، ولا يصرِف عن سيئها إلا أنت . اللهمّ إنى أسألك الثباتَ فى الأمر، والعزيمة على الرشد ، وأسألك شكرَ نعمتك وحسنَ عبادتك ، وأسألك قلباً سليما، ولسانا صادقا ، وأسألك من خير ماتعلم ؛ وأعوذ بك من شرّ ماتعلم، وأستغفرك لما تعلم ، إنك أنت علام الغيوب .

***

[آداب الدعاء]

قالوا : ومن آداب الدعاء أن ترصد له الأوقات الشريفة ، كما بين الأذان والإقامة ، وكوقت السجود ووقت السّحر ؛ ويستحبّ أن يدعُوَ مستقبل القبلَة رافعاً يديه ؛ لماروى سلمان عن النبيّ صلى الله عليه وآله : « إنّ ربّكم كريم يستحى من عَبْدِه إذا رفع إليه يديه أن يردّهما صِفراً » ، ويستحبّ أن يمسح بهما وجهه بعد الدعاء ، فإنّ ذلك قد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله .

ويكره أن يرفَع بصرَه إلى السماء ، لقوله عليه السلام : « لَينتهينّ أقوامٌ عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء ، أو لتُخطفنّ أبصارُهم » ، وقد رُخّص فى ذلك للصديقين والأئمة العادلين

ويستحبّ أن يخفض صوته ، لقوله تعالى : ﴿ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾[1]. وقد روى أن عمر سمِع رجلا يجهر بالدعاء ، فقال : لكن زكريا نادى ربه نداء خفياً .

ويكره أن يتكلّف[2] الكلام المسجوع ، ويستحبّ الإتيان بالمطبوع منه ، لقوله صلى الله عليه وآله : « إيّاكم والسجع فى الدعاء ، بحسْبِ أحدكم أن يقول : اللهمّ إنى أسألك الجنّة وما قرّب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النّار وما قرّب إليها من قول أو عمل » .

(١) سورة الأعراف ٥٥ .

(٢) فى ب : « يتكلم » ، وما أثبته عن ا ، ج .

وقيل فى الوصيـة الصالحـة : ادعُ ربَّك بلسـان الذّلة والاحتقـار ، لابلسان الفصاحة والتشدّق .

وقال سفيان بن عُيينة : لايمنعنّ أحدَكم من الدعاء مايعلَمُه من نفسه ، فإنّ الله تعالى أجابَ دعاء شرّ خلقه إبليس حيث قال : ﴿ أَنظِرْنِي ﴾[1] .

النبيّ صلى الله عليه وآله : « إذا سأل أحدُكم ربه مسألة [فتعرّف الإجابة][2]، فليقل : الحمد لله الذى بنعمته تتمّ الصالحات . ومَنْ أبطأ عنه شىء من ذاك فليقل : الحمد لله على كل حال » .

ومن الآداب أن يَفتتح بالذّكر وألاّ يَبتدئ بالمسألة ، كان رسول الله صلى الله عليه وآله قبل أن يدعو يقول : « سبحان ربّىَ العلىّ الوهاب » .

أبو سليمان الدارانىّ : مَنْ أراد أن يسأل الله تعالى حاجتَه فليبدأ بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم يسألُ حاجتَه ، ثم يختم بالصّلاة على رسول الله صلى الله عليـه وآله ، فإنّ الله تعالى يقبَلُ الصلاتين ؛ وهو أكرم من أن يَدَع مابينهما .

ومن دعاء علىّ عليه السلام : « اللهمّ صنْ وجهى باليسار ، ولا تبذل جاهى بالإقتار ، فأسترزقَ طالبي رزقك ، وأستعطِفَ شرار خلقك ، وأبتلى بحَمْد مَنْ أعطانى ، وأفتتنَ بذمّ مَنْ منعنى ، وأنت من وراء ذلك كلّه ولىّ الإعطاء والمنع ، إنك على كل شىء قدير » .

ومن دعاء الحسن رحمه الله تعالى : « اللهمّ إنى أعوذُ بك من قَلْب يعرِف ، ولسان يصِف ، وأعمال تخالف » .

ومن دعاء أهل البيتِ عليهم السلام ، وفيه رائحة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذى نحن فى شرحه : اللهم إنى أستغفرُك لما تبتُ منه إليك ثم عـدت فيه ، وأستغفرك

---

(١) سورة الأعراف ١٤ .

(٢) من ج .

لما وعدتك من نفسي ثم أخلفتك ، وأستغفرك للنعم التي أنعمتَ بها عليَّ ، فتقوّيتُ على معصيتك ،وأستغفرك من كلّ ذنب تمكنتُ منه بعافيتك، ونالته يدي بفضل نعمتك، وانبسطتُ إليه بسعة رزقك، واحتجبتُ فيه عن الناس بسترك ، واتكلت فيه على أكرم عفوك. اللهمّ إني أعوذ بك أن أقولَ حقاً ليس فيه رضاك ، ألتمس به أحداً سواك ،وأعوذ بك أن أتزيّن للناس بشيء يشينني عندك ، وأعوذ بك أن أكونَ عِبرةً لأحد من خلقك ، وأن يكون أحدٌ من خلقك أسعدَ بما علّمتني مني ، وأعوذ بك أن أستعينَ بمعصية لك على ضُرّ يصيبني .

كان أبو مسلم الخولانيّ إذا أهمّه أمر قال : يامالكَ يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين .

ومن دعاء عليّ عليه السلام : اللهمّ إن تَهتُ عن مسألتي وأعميتُ عن طلبتي ، فدلّني على مصالحي ،وخُذْ بقلبي إلى مَراشدي. اللهم احمِلني على عفوك ، ولا تحمِلني على عدلك.

(٧٨)

الأصْـلُ :

ومن كلام له عليه السلام قاله لبعض أصحابه لما عزم على المسير إلى الخوارج ، وقد قال له : إن سرت يا أمير المؤمنين فى هذا الوقت ، خشيت ألا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم ، فقال عليه السلام :

أَتَزْعُمُ أَنَّكَ تَهْدِي إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا صُرِفَ عَنْهُ السُّوءُ، وَتُخَوِّفُ مِنَ السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا حَاقَ بِهِ الضُّرُّ ! فَمَنْ صَدَّقَكَ بِهٰذَا فَقَدْ كَذَّبَ ٱلْقُرْآنَ ، وَٱسْتَغْنَى عَنِ ٱلاسْتِعَانَةِ بِاللهِ فِي نَيْلِ ٱلْمَحْبُوبِ وَدَفْعِ ٱلْمَكْرُوهِ . وَتَبْتَغِي فِي قَوْلِكَ لِلْعَامِلِ بِأَمْرِكَ أَنْ يُولِيَكَ ٱلْحَمْدَ دُونَ رَبِّهِ ؛ لِأَنَّكَ - بِزَعْمِكَ - أَنْتَ هَدَيْتَهُ إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي نَالَ فِيهَا النَّفْعَ ، وَأَمِنَ الضُّرَّ .

ثم أقبل عليه السلام على الناس فقال :

أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ، إِيَّاكُمْ وَتَعَلُّمَ النُّجُومِ إِلاَّ مَا يُهْتَدَى بِهِ فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ ، فَإِنَّهَا تَدْعُو إِلَى ٱلْكَهَانَةِ ؛ ٱلْمُنَجِّمُ كَالْكَاهِنِ ، وَٱلْكَاهِنُ كَالسَّاحِرِ ، وَالسَّاحِرُ كَالْكَافِرِ ، وَٱلْكَافِرُ فِي النَّارِ ؛ سِيرُوا عَلَى ٱسْمِ ٱللهِ .

***

الشَّرْحُ :

حاق به الضر ، أى أحاط به ؛ قال تعالى : ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾[1] .

ويوليك الحمد ، مضارع « أولاك » ؛ وأولاك معدّى بالهمزة من « وَلِيَ » ، يقال : وليَ

---

(١) سورة فاطر ٤٣ .

الشىء ولايةً وأوليته ذلك؛أى جعلته والياً له ومتسلّطاً عليه.والـكاهن : واحد الـكُهّان وهم الذين كانوا يخبرون عن الشياطين بكثير من الغائبات .

***

[القول فى أحكام النجوم]

واعلم أنّ الناس قد اختلفوا فى أحكام النجوم ، فأنـكرها جمهورُ المسلمين والمحقّقون من الحـكماء ؛ ونحن نتكلم هاهنا فى ذلك ونبحث فيه بحثين : بحثا كلاميا ، وبحثا حُكْمِيًّا.

أمّا البحثُ الـكلامىّ ؛ هو أن يقال : إمّا أن يذهب المنجمون إلى أنّ النجوم مؤثرة ، أو أمارات .

والوجه الأول ينقسم قسمين : أحدهما أنْ يقال : إنها تفعل بالاختيار ، والثانى أن تفعلَ بالإيجاب .

والقول بأنّها تفعل بالاختيار باطل ؛ لأنّ المختار لابدّ أن يكونَ قادراً حيًّا،والإجماع من المسلمين حاصلٌ على أنّ الـكواكب ليستْ حيّة ولاقادرة ، والإجماع حجّة،وقد بَيّن المتكلِّمون أيضا أنّ مِنْ شرط الحياة الرطوبة، وأن تـكون الحرارة على قَدْر مخصوص ؛ متى أفرط امتنع حلول الحياة فى ذلك الجسم ؛ فإنّ النار على صرافتها يستحيل أن تـكون حَيّة ؛ وأن تحلّها الحياة لعدم الرطوبة وإفراط الحرارة فيها واليبس،والشّمسُ أشدُّ حرارةً من النار ؛ لأنّها على بُعْدِها تؤثّر ماتؤثره النّار على قُرْبِها ؛ وذلك دليل على أنّ حرارتَها أضعافُ حرارة النار ؛ وبينوا أيضا أنّها لو كانت حيّة قادرة لم يَجزْ أن تفعلَ فى غـيرها ابتداء ؛ لأنّ القادر بقدرة لا يصحّ منه الاختراع ؛وإنما يفعل فى غيرِه على سبيل التوليد ؛ ولابدّ من وصلة بين الفاعل والمفعول فيه،والـكواكب غير مماسّة لنا ، فلا وُصلة بينهاوبيننا ؛ فيستحيل أنْ تـكون فاعلة فينا .

فإن ادّعى مدّعٍ أنّ الوصلة هى الهواء ، فمن ذلك أجوبة :

أحدُها : أنّ الهواء لا يجوز أن يكون وصلة وآلةً فى الحركات الشديدة وحمل الأثقال، لاسيما إذا لم يتموّج .

والثانى : أنه كان يجب أن نحسّ بذلك، ونعلم أنّ الهواء يحرّكنا ويصرّفنا ؛ كما نعلم فى الجسم إذا حرّكنا وصرّفنا بآلة موضع تحريكه لنا بتلك الآلة .

والثالث : أنّ فى الأفعال الحادثة فينا مالا يجوز أن يفعل بآلة،ولا يتولّد عن سبب؛ كالإرادات والاعتقادات ونحوها .

وقد دلّل أصحابنا أيضا على إبطال كون الكواكب فاعلةً للأفعال فينا ، بأنّ ذلك يقتضِى سقوط الأمر والنهى ، والمدح والذم ، ويلزمهم مايلزم المجبِرة ، وهذا الوجهُ يبطل كونَ الكواكب فاعلة فينا بالإيجاب ، كما يبطل كونَها فاعلة بالاختيار .

وأما القول بأنها أمارات على مايحدُث ويتجدّد ؛ فيمكن أن يُنصر بأن يقال : لم لا يجوزُ أن يكون الله تعالى أجْرَى العادة،بأن يفعل أفعالا مخصوصة عند طلوع كوكب أو غروبه أو اتصاله بكوكب آخر .

والكلام على ذلك بأن يقالَ : هذا غير ممتنع لو ثبت سمع مقطوع به يقتضى ذلك؛ فإنّ هذا مما لا يعلم بالعقل .

فإن قالوا : نعلم بالتجربة .

قيل لهم : التجربة إنما تكون حُجّةً إذا استمرّت واطّردت ؛ وأنتم خطؤكم فيما تحكمون به أكثرُ من صوابكم،فهلّا نسبتمُ الصّواب الذى يقع منكم إلى الاتفاق والتخمين! فقد رأينا من أصحاب الزّرَق[1] والتخمين مَنْ يصيب أكثرَ مما يصيب المنجّم،وهو من غير أصل صحيح ولا قاعدة معتمدة ومتى قلتم : إنما أخطأ المنجّم لغَلطه فى تسيير الكواكب ؛

---

(١) الزرق : التفرس .

قيل لكم: ولم لا يكون سبب الإصابة اتفاقا؟ وإنما يصحّ لكم هذا التأويل والتخريج لو كان على صحة أحكام النجوم دليل قاطع، هو غير إصابة المنجّم.

فأما إذا كان دليل صحّة الأحكام الإصابة، فهلّا كان دليلُ فسادها الخطأ، فما أحدُهما إلا فى مقابلة صاحبه!

ومما قيل على أصحاب الأحكام، إن قيل لهم فى شىء بعينه: خذوا الطّالع واحكموا، أيؤخذ أم يترك؟ فإن حكموا بأحدهما خولفوا، وفُعِل خلاف ما أخبروا به؛ وهذه المسألة قد أعضل عليهم جوابها.

وقال بعض المتكلّمين لبعض المنجّمين: أخبِرْنى، لو فرضنا جادّة مسلُوكة، وطريقاً يمشِى فيها الناس نهاراً وليلًا؛ وفى تلك المحجّة آبار متقاربة، وبين بعضها وبعض طريق يحتاجَ سالكه إلى تأمّل وتوقّف؛ حتى يتخلّص من السقوط فى بعض تلك الآبار؛ هل يجوز أن تكون سلامة مَنْ يمشى بهذا الطريق من العميان كسلامة من يمشى فيه من البُصَراء، والمفروض أنّ الطريق لا يخلو طَرْفةَ عين من مشاة فيها عميان ومبصرون؟ وهل يجوز أن يكون عَطَبُ البُصَراءِ مقاربا لعَطَب العميان؟

فقال المنجّم: هذا مما لا يجوزُ، بل الواجب أن تكون سلامةُ البصراء أكثرَ من سلامة العميان.

فقال المتكلّم: فقد بطل قولكم؛ لأن مسألتنا نظير هذه الصورة، فإن مثال البُصَراء هُم الذين يعرفون أحكامَ النجوم، ويميّزون مَساعدها من مَناحسها، ويتوقّوْن بهذه المعرفة مضارَّ الوقت والحركات ويتخطّوْنها ويعتمدون منافعَها ويقصدونها؛ ومثال العميان كلّ من لا يحسِنُ علم النجوم؛ ولا يقولون به من أهل العلم والعامة، وهم أضعاف أضعاف عدد المنجمين.

ومثال الطريق الذى فيه الآبار ، الزمان الذى مضى ومرّ على الخلق أجمعين ، ومثال آباره مصائبه ومِحَنُه .

وقد كان يجب ـ لو صحّ علم أحكام النجوم ـ أن سلامة المنجّمين أكثرُ ، ومصائبهم أقلّ ؛ لأنهم يتوقّوْن المحن ويتخطوْنها لعلمهم بها قبل كونها ، وأن تكون مِحَنُ المعرضين عن علم أحكام النجوم على كثرتهم أوفر وأظهر ؛ حتى تكون سلامة كلّ واحد منهم هى الطريقة الغريبة ؛ والمعلومُ خلاف ذلك ، فإنّ السلامة والمحن فى الجميع متقاربة متناسبة غير متفاوته .

***

وأما البحث الحُكمىّ فى هذا الموضع ؛ فهو أنّ الحادث فى عالم العناصر عند حلول الكوكب المخصوص فى البرج المخصوص ؛ إمّا أن يكون المقتَضِى له مجرّد ذلك الكوكب أو مجرد ذلك البرج ، أو حلول ذلك الكوكب فى ذلك البرج . فالأولان باطلان ؛ وإلّا لوَجب أن يحدث ذلك الأمر قبل أن يحدث ، والثالث باطل أيضاً ؛ لأنه إمّا أن يكون ذلك البرج مساوِياً لغيره من البروج فى الماهيّة ، أو مخالفاً . والأول يقتضى حدوثَ ذلك الحادث حالَ ما كان ذلك الكوكب حالّاً فى غيره من البروج ؛ لأنّ حكم الشىء حكم مثله ، والثانى يقتضى كونَ كُرة البروج متخالفة الأجزاء فى أنفسها ؛ ويلزم فى ذلك كونها مركّبة ، وقد قامت الدلالة على أنه لا شىء من الأفلاك بمركّب .

وقد اعتُرِض على هذا الدليل بوجهين :

أحدهما : أنّه لِمَ لا يجوز أن تختلف أفعالُ الكواكب المتحيّرة عند حلولها فى البُروج ، لا لاختلاف البروج فى نفسها ، بل لاختلاف مافى تلك البروج من الكواكب الثابتة المختلفة الطبائع !

الوجه الثانى : لِمَ لا يجوزُ أن يقال : الفلَك التاسع مكوكَب بكواكب صغار لا نراها

لغاية بعدِها عنا ، فإذا تحركت فى كرات تداويرها سامتَتْ مواضعَ مخصوصة من كُرة الكواكب الثابتة ؛ وهى فلك البروج ، فاختلفت آثار الكواكب المتحيّرة عند حلولها فى البروج ، باعتبار اختلاف تلك الكواكب الصغيرة ؟ ولِمَ لا يجوزُ إثبات كرة بين الكرة الثامنة ، وبين الفلك الأطلس المدبّر لجميع الأفلاك من المشرق إلى المغرب ، وتكون تلك الكرَة المتوسّطة بينهما بطيئة الحركة بحيث لا تفِى أعمارنا بالوقوف على حركتها ؛ وهى مكوكبة بتلك الكواكب الصغار المختلفة الطبائع ؟

وأجيب عن الأول ، بأنّه لو كان الأمر كما ذُكِر ، لوجب أن تختلف بيوتُ الكواكب وإشرافها وحدودها عند حركة الثوابت بحركة فَلَكها ، حتى إنها تتقدّم على مواضعها فى كلّ مائة سنة على رأى المتقدمين ، أو فى كلّ ست وستين سنة على رأى المتأخرين درجة واحدة ؛ لكنّ ليس الأمرُ كذلك ، فإنّ شرف القمر ، كما أنه فى زماننا فى درجة الثالثة من الثور ، فكذلك كان عند الذين كانوا قبلنَا بألف سنة وبألفى سنة .

وأما الوجه الثانى فلا جواب عنه .

***

واعلم أنّ الفلاسفة قد عوّلَتْ فى إبطال القول بأحكام النجوم على وجهٍ واحد ، وهو أن مبنَى هذا العلم على التجربة ، ولم توجد التجربة فيما يدّعيه أربابُ علم النجوم ، فإنّ ها هنا أمورا لا تتكرر إلا فى الأعمار المتطاولة مثل الأدوار والألوف التى زعم أبو معشرٍ أنها هى الأصل فى هذا العلم ، ومثل مماسّة جُرْم زُحَل للكرة المكوكبة ، ومثل انطباق معدّل النهار على دائرة فَلَك البروج، فإنهم يزعمون أنّ ذلك يقتضِى حدوثَ طوفان الماء وإحاطتَه بالأرض من جميع الجوانب ، مع أن هذه الأمور لا توجد إلا فى ألوف الألوف من السنين ؛ فكيف تصحّ أمثالُ هذه الأمور بالتجربة !

وأيضاً ، فإنّا إذا رأينا حادِثاً حدَثَ عند حلول كوكب مخصوص فى برج مخصوص

فكيف نعلم استنادَ حدوثه إلى ذلك الحلول ! فإنّ فى الفلك كواكبَ لاتحصى ، فما الذى خصّص حدوثَ ذلك الحدوث بحلول ذلك الكوكب فى ذلك البرج لاغيره ! وبتقدير أن يكون لحلوله تأثير فى ذلك ، فلا يمكن الجزم قبل حلوله بأنه إذا حلّ فى البرج المذكور لابدّ أن يحدث ذلك الحادث ، لجواز أن يوجد مايبطل تأثيره ؛ نحو أن يحلّ كوكب آخر فى برج آخر ، فيدفع تأثيرَه ، ويبطل عمله ؛ أو لعلّ المادة الأرضيّة لاتكون مستعدّة لقبول تلك الصورة ، وحدوث الحادث ، كما يتوقّف على حصول الفاعل يتوقفّ على حصول القابل ، وإذا وقع الشكّ فى هذه الأمور بطل القولُ بالجزم بعلم أحكام النجوم ؛ وهذه الحجّة جيّدة إن كان المنجّمون يطلبون القطع فى علمهم .

فأما إن كانوا يطلبون الظنّ فإن هذه الحجة لاتفسد قولهم .

***

فأما أبو البركات بن مَلْكا البغدادى صاحب كتاب " المعتبر " فإنه أبطلَ أحكام النجوم من وجهٍ وأثبته من وجه .

قال : أما مَنْ يريد تطبيقَ علم أحكام النجوم على قاعدة العلم الطبيعى فإنّه لاسبيلَ له إلى ذلك ؛ فإنّا لانتعلّق من أقوالهم إلا بأحكام يحكمُون بها من غير دليل ؛ نحو القول بحرّ الكواكب وبرْدها أو رطوبتها ، وبيوستها واعتدالها ، كقولهم : إنّ زُحَل بارد يابس ، والمشترى معتدل ؛ والاعتدال خير والإفراط شرٌّ ، وينتجون من ذلك أنّ الخيرَ يوجب سعادة ، والشرّ يوجب مَنْحَسَة ، وما جانَس ذلك مما لم يقل به علماء الطبيعيين ولم تنتجه مقدّماتهم فى أنظارهم ؛ وإنما الذى أنتجتْه هو أنّ الأجرام السماوية فَعّالة فيما تحويه وتشتمل عليه وتتحرك حوله فعلا على الإطلاق غير محدود بوقت ؛ ولا مقدّر بتقدير ، والقائلون بالأحكام ادّعَوْا حصولَ علمهم بذلك ؛ من توقيف وتجربة لايطابق نظر الطبيعىّ .

وإذا قلت بقول الطبيعى بحسب أنظاره أنّ المشترى سَعْد ، والمرّيخ نحس ، أو أنّ زحل

بارد يابس ، والمريخ حارّ يابس ؛ والحارّ والبارد من الملموسات ؛ ومادلّ على هذا المسّ وما استدل عليه بلمس كتأثيره فيما يلمسه ؛ فإنّ ذلك لم يظهر للحسّ فى غير الشمس ، حيث تسخّن الأرض بشعاعها ؛ ولو كان فى السمائيات شىء من طبائع الأضداد ؛ لكان الأولى أن تكون كلّها حارّة ؛ لأنّ كواكبها كلّها منيرة .

ومتى يقول الطبيعى بتقطيع الفلك وتقسيمه إلى أجزاء ، كما قسّمه المنجمون قسمة وهمية إلى بروج ودرَج ودقائق؛ وذلك جائز للمتوهّم ، كجواز غيره ، وليس بواجب فى الوجود ولا حاصل ، فنقلوا ذلك التوهم الجائز إلى الوجود الواجب فى أحكامهم ، وكان الأصلُ فيه على زعمهم حركةَ الشمس والأيام والشهور ، فحصّلوا منها قسمة وهمية ، وجعلوها كالحاصلة الوجودية المثمرة بحدود وخطوط ، كأنّ الشمس بحركتها من وقت إلى مثله خطّت فى السماء خطوطا ، وأقامت فيها جُدُراً أو حدودا ، أو غيرت فى أجزائها طباعا تغييرا يبقى ، فيتقى به القسمة إلى تلك الدَّرَج والدقائق ، مع جواز الشمس عنها ، وليس فى جوهر الفلك اختلاف يتميز به موضع عن موضع سوى الكواكب ، والكواكب تتحرك عن أمكنتها ، فبقيت الأمكنة على التشابه ، فبماذا تتميز بروجه ودرَجه ، ويبقى اختلافها بعد حركة المتحرك فى سَمْتها ؟ وكيف يقيس الطبيعىّ على هذه الأصول ، وينتج منها نتائج ويحكم بحسبها أحكاما؟ وكيف له أن يقول بالحدود ويجعل خمسَ درجات من بُرْج الكوكب وستًّا لآخر ، وأربعا لآخر ، ويختلف فيها البابليون والمصريون ، وجعلوا أربابَ البيوت كأنّها ملّاك ، والبيوت كأنها أملاك تثبت لأربابها بصكوك وأحكام الأسد للشمس والسرطان للقمر !

وإذا نظر الناظر وجد الأسد أسداً من جهة كواكب شكّلوها بشكل الأسد ، ثم انقلبت عن مواضعها وبقى الموضع أسداً وجعلوا الأسد للشمس . وقد ذهبتْ منه الكواكبُ التى كأنّ بها أسدا كأن ذلك الملك بيت للشمس ، مع انتقال الساكن وكذلك السَّرَطان للقمر .

***

ومن الدقائق فى العلم النجومى الدرجات المدارة والغربيّة والمظلمة والنيّرة والزائدة فى السعادة ودرجات الآثار؛ من جهة أنها أجزاء الفلك؛ إن قطعوها وما انقطعت؛ ومع انتقال ماينتقل من الكواكب إليها وعنها، ثم أنتجوا من ذلك نتائج أنظارهم؛ من أعداد الدرَج وأقسام الفلك، فقالوا: إنّ الكوكب ينظر إلى الكواكب من ستين درجة نظر تسديس لأنه سُدُس من الفلك، ولا ينظر إليه من خمسين ولا من سبعين، وقد كان قبل الستين بعشر دَرَج، وهو أقرب من ستين، وبعدها بعشر دَرَج، وهو أبعد من ستين لاينظر.

فليت شعرى ماهذا النظر! أترى الكواكب تظهر للكوكب ثم تحتجِب عنه، ثم شعاعه يختلط بشعاعه عند حدّ لايختلط به قبله ولا بعده!

وكذلك التربيع، من الرُّبع الذى هو تسعون درجة، والتثليث، من الثلث الذى هو مائة وعشرون درجة، فلم لايكون التخميس والتسبيع والتعشير على هذا القياس! ثم يقولون: الحَمَل حارّ يابس نارىّ، والثور بارد يابس أرضِىّ، والجوزاء حارّ رطب هوائىّ، والسرطان بارد رطب مائىّ! ماقال الطبيعى هذا قطّ، ولا يقول به.

وإذا احتجُّوا وقاسوا كانت مبادئ قياساتهم الحمل بُرْج ينقلب؛ لأن الشمس إذا نزلت فيه ينقلب الزمان من الشتاء إلى الربيع، والثور برج ثابت؛ لأنّ الشمس إذا نزلت فيه ثبت الربيع على ربيعيّته.

والحقّ أنه لاينقلب الحمل ولا يثبت الثور؛ بل هما على حالهما فى كلّ وقت. ثم كيف يبقَى دهرَه منقلبا مع خروج الشمس منه وحلولها فيه! أتراها تخلِّف فيه أثرا أو تحيل منه طباعا؛ وتبقى تلك الاستحالة إلى أن تعود فتجدِّدَها! ولم لايقول قائل: إن السَّرَطان حارّ يابس، لأن الشمس إذا نزلتْ فيه يشتدّ حرّ الزمان؛ وما يجانس هذا مما لايلزم؛ لاهو ولا ضدّه؛ فليس فى الفَلَك اختلاف يعرفه الطبيعىّ، إلا بما فيه من الكواكب، وهو فى نفسه

واحد متشابه الجوهر والطبع ؛ ولـكنها أقوالٌ قال بها قائل فقبِلها قائل ، ونقلهـا ناقل ، فحسُن فيها ظنّ السامع ، واغترّ بها مَنْ لاخِبْرة له ولا قدرة له على النظر .

ثم حَكَم بها الحاكمون بجيد وردىء ، وسلْب وإيجـاب ، وبتّ وتجوز ، فصادف بعضُه موافقة الوجود فصدّق ، فيعتبر به المعتبرون ، ولم يلتفتوا إلى ما كذب منه فيكذّبوه ؛ بل عذروا وقالوا : إنما هو منجّم ؛ وليس بنبيّ حتى يصدق فى كلّ مايقول ؛ واعتذرُوا له بأنّ العلم أوسعُ من أن يحيط به أحد ، ولو أحاط به أحدٌ لصدق فى كلّ شىء ! ولعمرالله أنه لوأحاط به علما صادقا لصدّق ، والشأن فى أن يحيطَ به على الحقيقـة ، لا أن يفرَض فرضا ، ويتوهم وهما ، فينقله إلى الوجود وينسب إليه ، ويقيس عليه .

قال : والذى يصحّ من هذا العلم ويلتفِتُ إليه العقلاء ؛ هى أشياء غير هذه الخرافات التى لاأصل لها ؛ فما حصل توقيف أو تجربة حقيقة كالقرانات والمقابلة ، فإنها أيضـاً من جملة الاتصالات ؛ كالمقارنة من جهة أنّ تلك غاية القُرْب ؛ وهـذه غاية البعـد ؛ ونحوممرّ كوكب من المتحيرة ، تحت كوكب من الثابتـة ، ونحوه مايعرض للمتحيّرة من رجوع واستقامة وارتفاع فى شمال ، وانخفاض فى جنوب ، وأمثال ذلك .

فهذا كلام ابن ملـكا كما تراه يبطلُ هذا الفنّ من وجه ، ويقول به من وجه .

***

وقد وقفت لأبى جعفر محمد بن الحسين الصنعانىّ المعروف بالخازن ، صاحب كتاب ” زيج الصفائح “ على كلام فى هذا الباب مختصر له سماه ” كتاب العالمين “ أنا ذاكرُه فى هـذا الموضع على وجهه . لأنه كلامٌ لابأس به ، قال : إنّ بعضَ المصدّقين بأحـكام النجوم وكلّ المـكذّبين بها ، قد زاغوا عن طريق الحقّ والصواب فيها . فإنّ الـكثيرمن المصدّقين بها قد أدخلوا فيها ماليس منها ، وادّعَوْا مالم يمـكن إدراكه بها ، حتى كثُرفيها خطؤهم ، وظهر كذبهم ، وصار ذلك سبباً لتـكذيب أكثر الناس بهذا العلم .

فأما المكذِّبون به فقد بلغوا من إنكار صحيحه وردّ ظاهره إلى أن قالوا : إنه لا يصح منه شيء أصلًا، ونسبوا أهله إلى الرزق والاحتيال والخداع والتمويه ، فلذلك رأينا أن نبتدئ بتبيين صحّة هذه الصناعة ، ليظهر فسادُ قول المكذِّبين لها بأسرها ، ثم نبيّن ما يمكن إدراكه بها ليبطل دعوى المدّعين فيها ما يمتنع وجودُه بها .

أما الوجوه التي بها تصحّ صناعة الأحكام فهي كثيرة ، منها ما يظهر لجميع الناس من قِبَل الشمس ، فإنّ حدوث الصيف والشتاء وما يعرِض فيهما من الحرّ والبرد والأمطار والرياح ونبات الأرض ، وخروج وقت الأشجار وحملها الثمار ، وحركة الحيوان إلى النسل والتوالد وغير ذلك ، مما يشاكلُه من الأحوال، إنما يكون أكثر ذلك بحسب دنوّ الشمس من سَمْت الرءوس في ناحية الشمال ، وتباعدها منه إلى ناحية الجنوب ، وبفضل قوّة الشمس على قوة القمر ، وقُوَى سائر الكواكب ظهر ما قلنا لجميع الناس .

وقد ظهر لهم أيضاً من قبَل الشمس في تغيير الهواء كلّ يوم؛ عند طلوعها، وعند توسّطها السماء ، وعند غروبها ما لا خفاء به من الآثار .

ومن هذه الوجوه ما يظهر للفلّاحين والملّاحين بأدنى تفقّد للأشياء التي تحدث . فإنّهم يعلمون أشياء كثيرة من الآثار التي يؤثّرها القمر وأنوار الكواكب الثابتة، كالمدّ والجزر، وحركات الرياح والأمطار وأوقاتها عند الحدوث ، وما يوافق من أوقات الزراعات وما لا يوافق ، وأوقات اللّقاح والنتاج .

وقد يظهر من آثار القمر في الحيوان الذي يتوالد في الماء والرّطوبات ما هو مشهور لا ينكر .

ومنها جهات أخرى يعرفها المنجّمون فقط على حَسَب فضل علمهم ، ودقّة نظرهم في هذا

العِلم . وإذ قد وصفنا على سبيل الإجمال مايوجب حقيقة هذا العلم ، فإنّا نصِف مايمكن إدراكه به أو لا يمكن ، فنقول : لما كانت تغيّرات الهواء ، إنّما تحدث بحسَب أحوال الشمس والقمر والكواكب المتحيرة والثابتة ، صارت معرفة هذه التغيّرات قد تدرك من النجوم مع سائر مايتبعُها من الرياح والسحاب والأمطار والثلج والبرد والرعد والبرق ؛ لأنّ الأشياء التي تلي الأرض وتصل إليها هذه الآثار من الهواء المحيط بها ، كانت الأعراض العامية التي تعرض في هذه الأشياء تابعةً لتلك الآثار ؛ مثل كثرة مياه الأنهار وقلتها ، وكثرة الثمار وقلتها وكثرة خِصْب الحيوان وقلّته ، والجُدوبة والقَحْط ، والوباء والأمراض التي تحدث في الأجناس والأنواع ، أو في جنس دون جنسٍ ، أو في نوع دون نوع ، وسائر مايشاكل ذلك من الأحداث .

ولما كانت أخلاقُ النفس تابعةً لمزاج البدن ، وكانت الأحداث التي ذكرناها مغيّرة لمزاج البدَن ، صارت أيضاً مغيِّرة للأخلاق ، ولأنّ المزاج الأول الأصليّ هو الغالب على الإنسان في الأمر الأكثر ، وكان المزاج الأصليّ هو الذي طُبِع عليه الإنسان في وقت كونه في الرَّحِم ، وفي وقت مولده وخروجه إلى جوّ العالم — صار وقت الكون ووقت المولد أدلّ الأشياء على مِزاج الإنسان ، وعلى أحواله التابعة للمزاج ، مثل خِلقة البدن ، وخَلق النفس والمرض والصحّة ، وسائر مايتبع ذلك ، فهذه الأشياء ومايشبِهُها من الأمور التي لا تشارك شيئاً من الأفعال الإرادية فيه مما يمكن معرفتُه بالنجوم ، وأما الأشياء التي تشارك الأمور الإرادية بعضَ المشاركة ، فقد يمكن أن يصدقُ فيها هذا العلم على الأمر الأكثر ، وإذا لم يستعمل فيه الإرادة جرَى على ماتقود إليه الطبيعة .

على أنه قد يعرض الخطأ والغلط لأصحاب هذه الصناعة من أسباب كثيرة ، بعضها يختص بهذه الصناعة دون غيرها ، وبعضها يعمُّها وغيرها من الصنائع .

فأمّا ما يعمّ فهو من قصور طبيعة الناس فى معرفة الصنائع أيّاً كانت عن بلوغ الغاية فيها ، حتى لا يبقى وراءها غاية أخرى، فكثرة الخطأ وقلّته على حَسَب تقصير واحد واحد من الناس .

وأما ما يخصّ هـذه الصناعة فهو كثير ما يحتاج صاحبها إلى معرفته ، مما لا يمكنه أن يعلم كثيراً منه إلا بالحدْس والتخمين ، فضلاعن لُطف الاستنباط وحسن القياس، ومما يحتاج إلى معرفة علم أحوال الفَلَك ، ومما يحدث فى كل واحد من تلك الأحوال ، فإنّ كل واحد منها له فعل خاص ، ثم يؤلف تلك الأحوال بعضها مع بعض على كثرة فنونها واختلافاتها، ليحصلَ من جميع ذلك قوّة واحدة ، وفعلٌ واحد ، يكون عنه الحادث فى هذا العالم ، وذلك أمر عسير ، فمتى أُغفل من ذلك شىء كان الخطأ الواقع بحسبِ الشىء الذى سها عنه وترك استعماله .

ثم من بعد تحصيل ما وصفناه ينبغى أن يعلم الحال التى عليها يُوافى فى تلك القوة الواحدة الأشياء التى تعرض فيها تلك الأحداث ، كأنه مثلا إذا دل ما فى الفلك على حدوث حَرّ ، وكانت الأشياء التى يعرض فيها ما يعرِض قد مَرّ بها قبل ذلك حَرّ ، لحميت وسخنت أثّر ذلك فيها أثراً قوياً ، فإن كان قد مرّ بها بَرْد قبل ذلك ، أثّر ذلك فيها أثراً ضعيفاً ، وهذا شىء يحتاج إليه فى جميع الأحداث التى تعمل فى غيرها مما يناسب هذه المعرفة .

وأما الأحداثُ التى تخصّ ناحيةً ناحية ، أو قوماً قوماً ، أو جنساً جنساً ، أو مولوداً واحداً من النّاس؛ فيحتاج مع معرفتها إلى أن يعلم أيضاً أحوالُ البلاد والعادات ، والأغذية والأوباء وسائر ما يشبِه ذلك ، مما له فيه أثر وشركة ، مثل ما يفعل الطبيب فى المعالجة ، وفى تقدمة المعرفة ، ثم من بعد تحصيل هذه الأشياء كلّها ينبغى أن ينظَر فى الأمر الذى قد استدلّ على حدوثه ، هل هو مما يمكن أن يرد أو يتلافى بما يبطله أو يغيره من جهة

الطبّ والحيل أم لا ؟ كأنه مثلا استدلّ على أنه يصيب هذا الإنسان حرارة يحمّ منها ، فينبغى أن يحكم بأنه يحمّ إن لم يتلاف تلك الحرارة بالتبريد ، فإنه إذا فعل ذلك أنزل الأمور منازلَها ، وأجراها مجاريها .

ثم إن كان الحادث قويًّا لا يمكن دفعه ببعض ما ذكرنا ، فليس يلزم الحاجة إلى ما قلنا ، فإنّ الأمر يحدث لامحالة ، وما قوى وشمل الناس فإنّه لايمكن دفعه ولافسخه ، وإن أمكَنَ فإنما يمكنُ فى بعض الناس دون بعض .

وأما أكثرهم فإنه يجرى أمره على ماقد شمل وعمّ ، فقد يعمّ الناسَ حَرّ الصيف ، وإن كان بعضُهم يحتال فى صرفه بالأشياء التى تبرد وتنفى الحرّ .

فهذه جملة ما ينبغى أن يعلم ويعمل عليه أمور هذه الصناعة .

***

قلت : هذا اعتراف بأن جميع الأحداث المتعلقة باختيار الإنسان وغيره من الحيوان لا مدخلَ لعلم أحكام النجوم فيه ، فعلى هذا لا يصحّ قولُ من يقول منهم لزيد مثلا : إنك تتزوّج أو تشترى فرساً ، أو تقتل عدوًّا أو تسافر إلى بلد ونحو ذلك ، وهو أكثر ما يقولونه ويحكمون به .

وأما الأمور الكليّة الحادثة لا بإرادة الحيوان واختياره ، فقد يكون لكلامهم فيه وجهٌ من الطريق التى ذكرها ، وهى تعلّق كثيرٍ من الأحداث بحركة الشمس والقمر ، إلا أن المعلومَ ضرورة من دين رسول الله صلى الله عليه وآله إبطال حكم النجوم وتحريم الاعتقاد بها والنهى والزجر عن تصديق المنجّمين ، وهذا معنى قول أمير المؤمنين فى هذا الفصل : « فمن صدقك بهذا فقد كذّب القرآن ، واستغنى عن الاستعانة بالله » . ثم أردف

ذلك وأكّده بقوله : كان يجب أن يحمَد المنجم دون البـارى تعالى ؛ لأن المنجم هو الذى هدى الإنسان إلى الساعة التى ينجح فيها، وصدّه عن الساعة التى يخفق ويُكْدِى فيها فهو المحسن إليه إذاً ، والمحسن يستحقّ الحمد والشكر، وليس للبارئ سبحانه إلى الإنسان فى هـذا الإحسان المخصوص ؛ فوجب ألّا يستحقّ الحمد على ظَفَر الإنسان بطلبه؛ لـكنّ القول بذلك والتزامه كفر محْضٌ .

(٧٩)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام بعد فراغه من حرب الجمل فى ذمّ النساء :

مَعَاشِرَ النَّاسِ ؛ إِنَّ النِّسَاءَ نَوَاقِصُ الإِيمَانِ ، نَوَاقِصُ الْحُظُوظِ ، نَوَاقِصُ الْعُقُولِ. فَأَمَّا نُقْصَانُ إِيمَانِهِنَّ فَقُعُودُهُنَّ عَنِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ فِي أَيَّامِ حَيْضِهِنَّ ، وَأَمَّا نُقْصَانُ عُقُولِهِنَّ فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ مِنْهُنَّ كَشَهَادَةِ الرَّجُلِ الْوَاحِدِ ، وَأَمَّا نُقْصَانُ حُظُوظِهِنَّ فَمَوَارِيثُهُنَّ عَلَى الأَنْصَافِ مِنْ مَوَارِيثِ الرِّجَالِ .

فَاتَّقُوا شِرَارَ النِّسَاءِ، وَكُونُوا مِنْ خِيَارِهِنَّ عَلَى حَذَرٍ، وَلَا تُطِيعُوهُنَّ فِي الْمَعْرُوفِ حَتَّى لَا يَطْمَعْنَ فِي الْمُنْكَرِ .

***

الشّرْحُ :

جَعَل عليه السلام نقصانَ الصّلاة نقصاناً فى الإيمان ، وهذا هو قولُ أصحابنا : إنّ الأعمالَ من الإيمان ، وإنّ المقرّ بالتوحيد والنبوّة ، وهو تارك للعمل ليس بمؤمن .

وقوله عليه السلام « ولا تطيعوهنّ فى المعروف » ، ليس بنهى عن فعل المعروف ؛ وإنما هو نهى عن طاعتهنّ، أى لاتفعلوه لأجل أمرهنّ لكم بهِ ، بل افعلوه لأنه معروف، والكلام ينحو نحو المثل المشهور : «لا تعط العبد كُراعا فيأخذ ذراعا» .

وهذا الفصل كلّه رمز إلى عائشة، ولا يختلفُ أصحابنا فى أنها أخطأتْ فيما فعلتْ ثم تابت وماتت تائبة ، وأنها من أهل الجنة .

قال كلّ من صنف فى السير والأخبار : إن عائشة كانتْ من أشدّ الناس على عثمان ؛ حتى إنها أخرجتْ ثوباً من ثياب رسول الله صلى الله عليه وآله ، فنصبته فى منزلها ، وكانت تقول للداخلين إليها : هذا ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يَبْلَ ، وعثمان قد أبلَى سنّته .

قالوا : أولُ مَنْ سمى عثمان نعثلا عائشة ؛ والنّعثل : الكثير شعر اللحية والجسد ، وكانت تقول : اقتلوا نعثلا ، قتل الله نعثلا !

وروى المدائنىّ فى كتاب " الجمل " ، قال : لما قتِل عثمان ، كانت عائشة بمكّة ، وبلغ قتلُه إليها وهى بشَراف ، فلم تشكّ فى أنّ طلحة هو صاحب الأمر ، وقالت : بُعْداً لنعثل وسحقا ! إيهِ ذا الإصبع ! إيه أبا شِبْل ! إيه يابن عمّ ؛ لكأنى أنظرُ إلى إصبعه وهو يبايَع له : حثُّوا الإبل ودعدعوها[1] .

قال : وقد كان طلحةُ حين قتل عثمان أخذ مفاتيحَ بيت المال ، وأخذ نجائبَ كانت لعثمان فى داره ، ثم فسد أمرُه ، فدفعها إلى علىّ بن أبى طالب عليه السلام .

[أخبار عائشة فى خروجها من مكّة إلى البصرة بعد مقتل عثمان]

وقال أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدىّ فى كتابه : إنّ عائشة لما بلغها قتلُ عثمان وهى بمكّة ، أقبلتْ مسرعة ، وهى تقول : إيه ذا الإصبع ! لله أبوك ! أما إنهم وجدوا طلحة لها كفُؤا . فلما انتهت إلى شَراف استقبلها عبيد بن أبى سلمة الليثىّ ، فقالت له : ماعندك ؟ قال : قُتِل عثمان ، قالت : ثم ماذا ؟ قال : ثم حارتْ بهم الأمور إلى خير مَحَار ؛ بايعوا عليا ، فقالت : لوددْتُ أنّ السماء انطبقتْ على الأرض إن تمّ هذا ، وَيحك ! انظر ماتقول ! قال : هو ماقلتُ لك ياأمّ المؤمنين ، فولولت ، فقال لها : ما شأنُك ياأمّ المؤمنين !

---

(١) الدعدعة : الزجر .

والله ما أعرف بين لابتيها أحدا أولَى بها منه ولا أحقّ ؛ ولا أرى له نظيرا فى جميع حالاته ، فلماذا تكرهين ولايته ؟ قال : فما ردّت عليه جوابا .

قال : وقد رُوِى من طرق مختلفة أنّ عائشة لما بَلغها قتلُ عثمان وهى بمكة ، قالت : أبعده الله ! ذلك بما قدّمت يداه ، وما الله بظلام للعبيد .

قال : وقد رَوَى قيس بن أبى حازم أنه حج فى العام الذى قُتِل فيه عثمان وكان مع عائشة لما بلغها قتله ، فتحمّل إلى المدينة ، قال : فسمعها تقول فى بعض الطريق : إيه ذا الإصبع ! وإذا ذكرت عثمان قالت : أبعده الله ! حتى أتاها خبرُ بيعة علىّ ، فقالت : لوددتُ أنّ هذه وقعت على هذه ، ثم أمرت بردّ ركائبها إلى مكة فردّت معها ، ورأيتها فى سيرها إلى مكة تخاطب نفسها ، كأنها تخاطبُ أحدا : قتلوا ابن عفان مظلوما ، فقلت لها : يا أمّ المؤمنين ، ألمْ أسمعك آنفا تقولين : أبعده الله ، وقد رأيتك قبلُ أشدّ الناس عليه وأقبحهم فيه قولا ! فقالت : لقد كان ذلك ، ولكنى نظرت فى أمره ، فرأيتهم استتابوه حتى إذا تركوه كالفِضّة البيضاء أتوْه صائما محرِماً فى شهر حرام فقتلوه .

قال : وروى من طرق أخرى أنها قالت لما بلغها قتله أبعده الله ! قتله ذنبُه ، وأقاده الله بعمله ! يا معشرَ قريش لا يسومنكم قتلَ عثمان ، كما سامَ أحمرُ ثمود قومَه ، إنّ أحقّ الناس بهذا الأمر ذو الإصبع ، فلما جاءت الأخبار ببيعة علىّ عليه السلام ، قالت : تعِسُوا تعسُوا ! لا يردُّون الأمر فى تيم أبدا .

كتب طلحة والزبير إلى عائشة وهى بمكة كتابا : أن خَذِّلِى النّاس عن بيعة علىّ ، وأظهرى الطلب بدم عثمان ، وحملا الكتاب مع ابن أختها عبد الله بن الزبير ، فلما قرأت الكتاب كاشفتْ وأظهرت الطلب بدم عثمان ؛ وكانت أمّ سلمَة رضى الله عنها بمكة فى ذلك العام ؛ فلما رأتْ صنع عائشة ، قابلتها بنقيض ذلك ، وأظهرت موالاةَ علىّ عليه السلام ونصرته على مقتضى العداوة المركوزة فى طباع الضّرتين .

قال أبو مخنف : جاءت عائشةُ إلى أمّ سلمة تخادِعها على الخروج للطّلب بدم عثمان ، فقالت لها : يا بنتَ أبي أميه ، أنتِ أوّلُ مهاجرة من أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله وأنتِ كبيرة أمّهات المؤمنين، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله يَقسم لنا من بيتِك، وكان جبريل أكثرَ ما يكون في منزلك ، فقالت أم سلَمَة : لأمرٍ ما قلت هذه المقالة ، فقالت عائشة : إنّ عبدالله أخبرني أن القوم استتابوا عثمان، فلما تاب قتلوه صائما في شهر حرام، وقد عزمتُ على الخروج إلى البصرة ومعي الزبير وطلحةُ ، فاخرجي معنا ، لعلّ الله أن يصلِح هذا الأمر على أيدينا وبنا ، فقالت أمّ سلمة : إنك كنت بالأمس تحرّضين على عثمان ، وتقولين فيه أخبثَ القول ، وما كان اسمُه عندك إلا نَعْثَلاً ، وإنّك لتعرفين منزلة عليّ بن أبي طالب عند رسول الله صلى الله عليه وآله ، أفأذكّرك ؟ قالت : نعم ، قالت : أتذكرين يومَ أقبل عليه السلام ونحن معه ؛ حتى إذا هبط من قُدَيد ذات الشمال ، خلا بعليّ يناجيه فأطال ، فأردت أن تهجمي عليهما ، فنهيتُك فعصيتِني ، فهجمتِ عليهما ، فما لبثتِ أن رجعتِ باكية ، فقلت : ماشأنك ؟ فقالت : إني هجمتُ عليهما وهما يتناجيان فقلت لعليّ : ليس لي من رسول الله إلا يومٌ من تسعة أيام ، أفما تدَعني يابن أبي طالب ويومي ! فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ ، وهو غضبان محمرّ الوجه ، فقال : ارجعي وراءك ، والله لا يبغضُه أحدٌ من أهل بيتي ولا من غيرهم من الناس إلا وهو خارج من الإيمان ، فرجعت نادمةً ساقطة ! قالت عائشة : نعم أذكر ذلك .

قالت : وأذكّرك أيضا ، كنت أنا وأنتِ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت تغسلين رأسَه ، وأنا أحيسُ له حيساً ، وكان الحيس[1] يعجبه ، فرفع رأسه ، وقال : « ياليت شعرِي ، أيتكنّ صاحبة الجمل الأذنب ، تنبحُها كلاب الحوءب ، فتكون ناكبة

---

(١) الحيس : تمر يخلط بسمن وأقط فيعجن ويدلك حتى تمتزج ثم يندر نواه .

عن الصراط ! » فرفعت يدى من الحيْس ، فقلت : أعوذُ بالله وبرسوله من ذلك ، ثم ضربَ على ظهرك ، وقال : « إياك أن تكونيها » ثم قال : يا بنت أبى أمية ؛ إياك أن تكونيها يا حُميراء ، أما أنا فقد أنذرتك » ، قالت عائشة : نعم أذكر هذا .

قالت : وأذكرك أيضا كنتُ أنا وأنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سَفر له ، وكان علىّ يتعاهد نَعْلَىْ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيخصِفها[1] ، ويتعاهد أثوابه فيغسلها ، فنَقِبت[2] له نعلٌ ، فأخذها يومئذ يخصِفها ، وقعد فى ظلّ سَمُرة ، وجاء أبوك ومعه عمر ، فاستأذنا عليه ، فقمنا إلى الحجاب ، ودخلا يحادثانه فيما أراد ، ثم قالا : يا رسول الله إنا لا ندرِى قدر ما تصحبنا ، فلو أعلمتنا مَنْ يستخلف علينا ، ليكون لنا بعدك مفزعا ؟ فقال لهما : أما إنى قد أرى مكانه ، ولو فعلت لتفرّقتم عنه . كما تفرّقت بنو إسرائيل عن هارون بن عمران ، فسكتا ثم خرجا ، فلما خرجْنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلتِ له ، وكنتِ أجرأ عليه مِنّا : مَنْ كنتَ يارسول الله ، مستخلفا عليهم؟ فقال : خاصف النّعل ، فظرنا فلم نر أحدا إلا عليا ، فقلت : يا رسول الله ، ما أرى إلّا عليًّا ، فقال : هو ذاك ، فقالت عائشة : نعم أذكر ذلك ، فقالت : فأىّ خروج تخرجين بعد هذا ؟ فقالت : إنما أخرج للإصلاح بين الناس وأرجو فيه الأجر إن شاء الله ، فقالت : أنت ورأيك ، فانصرفت عائشة عنها ، وكتبتْ أمّ سلمة بما قالت وقيل لها إلى علىّ عليه السلام .

فإن قلت : فهذا نصٌّ صريح فى إمامة علىّ عليه السلام ، فما تصنعُ أنت وأصحابك المعتزلة به ؟

قلت : كلاّ إنه ليس بنصّ كما ظننت ، لأنه صلى الله عليه وآله لم يقل : قد استخلفته ، وإنما قال : « لو قد استخلفتُ أحداً لاستخلفته » ، وذلك لايقتضى حصول الاستخلاف ؛

---

(١) خصف النعل : خرزها .

(٢) نقبت النعل : ثقبت .

ويجوز أنْ تكونَ مصلحةُ المكلَّفين متعلقة بالنصّ عليه لو كان النبيّ صلى الله عليه وآله مأموراً بأنْ ينصّ على إمام بعينه من بعده، وأن يكون من مصلحتهم أن يختاروا لأنفسهم من شاءوا إذا تركهم النبي صلى الله عليه وآله وآراءهم ولم يعين أحدا.

***

وروى هشام بن محمد الكلبي في كتاب "الجمل" أن أمّ سلمة كتبت إلى عليّ عليه السلام من مكة: أما بعد، فإنّ طلحة والزبير وأشياعَهم أشياع الضلالة، يريدون أن يخرجُوا بعائشة إلى البصرة ومعهم عبد الله بن عامر بن كُريز؛ ويذكرون أنّ عثمان قُتل مظلوما، وأنهم يطلبون بدمه؛ والله كافيهم بحوْله وقوته؛ ولولا مانهانا الله عنه من الخروج، وأمرَنا به من لزوم البيت لم أدَع الخروجَ إليك، والنُّصرة لك؛ ولكنِّي باعثة نحوك ابني، عَدْل [1] نفسي عمر بن أبي سلمة، فاستوصِ به ياأمير المؤمنين خيرا.

قال: فلما قدم عمر على عليّ عليه السلام أكرمه، ولم يزل مقيما معه حتى شهد مشاهده كلّها، ووجّهه أميرا على البحرين. وقال لابن عمّ له: بلغني أن عمر يقول الشعر، فابعث إليّ من شعره، فبعث إليه بأبيات له أولها:

جزتْك أميرَ المؤمنين قرابةٌ رفعتَ بها ذكرى جزاء موفَّرا

فعجب عليّ عليه السلام من شعره واستحسنه.

***

ومن الكلام المشهور الذي قيل: إن أمّ سلَمة رحمها الله، كتبتْ به إلى عائشة: إنكِ جُنّة بين رسول الله صلى الله عليه وآله وبين أمّته، وإن الحجابَ دونك لمضروب على حُرمته، وقد جمع القرآن ذيلك فلا تَنْدَحيه، وسكّن عُقَيْراك فلا تُصْحريها، لو أذكرتكِ قولةً مِنْ رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرفينها لنهشت بها نَهْش الرّقشاء المطرِقة. ما كنت

---

(١) عدل نفسي: مثلها.

قائلة لرسول الله صلى الله عليه وآله لو لقيك ناصة قَلُوص قعودك من مَنْهَل إلى منهل قد تركت عُهَيداه ، وهتكت ستره ، إنّ عمود الدين لا يقومُ بالنساء ، وصَدْعه لا يُرأب بهن ، حُماديات النساء خفض الأصوات وخفر الأعراض ، اجعلى قاعدة البيت قبرك حتى تلقينه ، وأنت على ذلك .

فقالت عائشة : ما أعرفنى بنصحك ، وأقبلنى لوعْظك ! وليس الأمر حيث تذهبين ؛ ما أنا بعميّة عن رأيك ، فإن أُقِمْ ففى غير حرج ، وإن أخرج ففى إصلاح بين فئتين من المسلمين .

وقد ذكر هذا الحديث أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة فى كتابه المصنف فى " غريب الحديث " فى باب أم سلمة ، على ما أورده عليك ، قال :

لما أرادت عائشة الخروجَ إلى البصرة ، أتتها أم سلمة ، فقالت لها : إنك سُدَّة بين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلّم وبين أمته ، وحجابك مضروب على حُرْمته ، قد جَمَع القرآن ذيلك فلا تندَحيه ، وسكّن عُقَيراك فلا تُصْحريها ، الله من وراء هذه الأمة ، لو أراد رسول الله صلى الله عليه وسلّم أن يعهد إليك عَهِداً عُلت عُلت ؛ بل قد نهاك عن الفَرْطة فى البلاد ؛ إنّ عمود الإسلام لا يُثابُ بالنساء إن مال ، ولا يُرأبُ بهنّ إن صُدع ، حُمادَيات النساء غَضّ الأطراف وخَفَر الأعراض وقِصَر الوهازة ؛ ما كنتِ قائلة لو أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله عارضَك ببعض الفلوات ، ناصّة قَلُوصاً من منهل إلى آخر ، إنّ بعين الله مَهْواك ، وعلى رسوله تَرِدين ؛ وقد وَجَّهتِ سِدَافته ـ ويروى سَجافته ـ وتركت عُهَيْدَاه . لو سرتُ مسيرك هذا ثم قيل لى : ادخلى الفردوس لاستحييت أنْ ألقى محمدا صلى الله عليه وسلّم هاتكةً حجابا ، وقد ضرَبه علىّ ، اجعلِي حِصْنَك بيتك ، ووقاعةَ الستر قبرك ؛ حتّى تلقَيْنه ، وأنت على تلك أطوع ما تكونين لله

بالرقبة ، وأنصر ما تكون للدين ماحلت عنه . لو ذكّرتك قولًا تعرفينه لنهشت به نهش الرّقشاء المطرِقة .

فقالت عائشة: ماأقبلَني لوعظك اوليس الأمر كما تظنّين، ولنعمَ المسيرُ مسير فزعتْ فيه إليّ فئتان متناجزتان ـ أو قالت متناحرتان ـ إن أقعد ففي غير حرج ، وإن أخرج فإلى مالا بدّ لي من الازدياد منه .

تفسير غريب هذا الخبر

السُّدّة : الباب ؛ ومنه حديث رسول الله صلى الله عليه وآله أنه ذكر أول مَنْ يردُ عليه الحوض ، فقال : الشُّعْث رءوسا ، الدُّنس ثيابا ، الذين لا تفتح لهم السُّدد ، ولا ينكحون المتنعمات ؛ وأرادت أمّ سلمَة أنكِ بابٌ بين النبيّ صلى الله عليه وآله وبين النـاس ، فمتى أصيب ذلك الباب بشيء فقد دُخل على رسول الله صلى الله عليه وآله في حرَمه وحوزته ، واستبيح ماحماه ، تقول : فلاتكوني أنتِ سببَ ذلك بالخروج الذي لا يجب عليك ، فتحوجي الناس إلى أن يفعلوا ذلك. وهذا مثلُ قول نعمان بن مُقَرّن للمسلمين في غزاة نَهاوَنْد : ألاوإنكم باب بين المسلمين والمشركين ، إن كُسِر ذلك الباب دُخل عليهم منه .

وقولها : « قد جمع القرآن ذيلك فلا تَنْدَحيه » ، أي لا تفتحيه ولا توسّعيه بالحركة والخروج ؛ يقال : ندحتُ الشيء إذا وسّعته ، ومنه يقال : فلان في مَندوحة عن كذا،أي في سعة ؛ تريد قول الله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾[1]. ومن روى «تبدحيه» بالباء فإنه من البَدَاح وهو المتسع من الأرض ؛ وهو معنى الأول .

وسكن عُقَيْراك ، من عُقْر الداروهو أصلها ؛ أهل الحجاز يضمّون العَين ؛ وأهل نجد يفتحونها . وعُقَيْرَى اسم مبنيٌّ من ذلك على صيغة التصغير ؛ ومثله ممّا جاء مصغرا « الثريّا » و« الحُميّا » وهو سوْرة الشراب. قال ابن قتيبة : ولم أسمع ؛ « بعقيرا » إلافي هذا الحديث.

(١) سورة الأحزاب ٣٣ .

قولها : « فلا تُصْحريها » ، أى لاتبْرزيها وتجعليها بالصحراء ، يقال : أصْحَر ، كما يقال : أنجد وأسْهَل وأحزن .

وقولها : « الله من وراء هذه الأمة » ، أى محيط بهم وحافظ لهم وعالم بأحوالهم ، كقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ مِنْ وَرَآئِهِمْ مُحِيطٌ ﴾ (١) .

قولها : « لو أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم » الجواب محذوف ، أى لفعل ولَعَهد ؛ وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ ﴾ (٢) ، أى لكان هذا القرآن .

قولها : « عُلْتِ عُلْت » ؛ أى جرْت فى هذا الخروج ، وعدلت عن الجواب ، والعول : الميل والجور ، قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ (٣) ـ ومن الناس من يرويه « عِلْتِ عِلْتِ » بكسر العين ، أى ذهبت فى البلاد وأبعدت السير ، يقال : عال فلان فى البلاد ، أى ذهب وأبعد ؛ ومنه قيل للذئب : عيال .

قولها : « عن الفَرْطة فى البلاد » ، أى عن السفر والشّخوص ، من الفَرْط وهو السَّبْق والتقدّم ، ورجل فارط : أتى الماء ، أى سابق .

قولها : « لايُثْأَب بالنساء » ، أى لا يردّ بهن إن مال إلى استوائه ؛ من قولك : ثاب فلان إلى كذا ، أى عاد إليه .

قولها : « ولا يرأب بهنّ إن صَدع » أى لا يسدّ بِهِنّ ، ولا يجمع ، والصَّدْعُ : الشقّ ، ويروى : « إن صَدَع » بفتح الصاد والدال أجروه مجرى قولهم : جبرت العظم فجبر .

قولها : « حمادَيات النساء » يقال : حُمادَاك أن تفعل كذا مثل « قُصاراك أن تفعل كذا » أى جهدك وغايتك .

---

(١) سورة البروج ٨٥ .
(٢) سورة الرعد ٣١ .
(٣) سورة النساء ٣ .

وغض الأطراف؛ جمعها، وخَفَرَ الأعراض، الخفَر: الحياء، والأعراض، جمع عِرْض وهو الجسد، يقال: فلان طيِّب العِرْض، أى طيب ريح البدن؛ ومن رواه «الإعراض» بكسر الهمزة جعله مصدرا؛ من أعرضَ عن كذا.

قولها: و«قِصَر الوِهازة»، قال ابن قتيبة: سألت عَنْ هذا فقال لى مَنْ سألته: سألتُ عنه أعرابيًّا فصيحا فقال: الوِهَازة: الخطوة، يقال للرجل: إنه لمتوهّز ومتوهّر، إذا وطىء وطئًا ثقيلا.

قولها: «ناصّة قلوصا»، أى رافعة لها فى السير، والنصّ: الرفع، ومنه يقال: حديث مَنْصوص، أى مرفوع، والقَلُوص من النوق: الشابّة وهى بمنزلة الفتاة من النساء.

والمنهل: الماء ترده الإبل.

قولها: «إنّ بعين الله مَهْواك»، أى إن الله يرى سيرَك وحركتك، والهُوِىّ: الانحدار فى السير من النَّجد إلى الغَوْر.

قولها: «وعلى رسوله تَرِدين»، أى تقدمين فى القيامة.

قولها: «وقد وجَّهت سِدَافته»، السِّدافة: الحجاب والستر، هى من أسْدَفَ الليل إذا ستر بظلمته، كأنه أرخى ستورا من الظلام، ويروى بفتح السين، وكذلك القول فى سَجافته؛ إنه يروى بكسر السين وفتحها، والسّدافة والسَّجافة بمعنى.

ووجّهت، أى نظمتها بالخرز، والوجيهة: خرزة معروفة، وعادة العرب أن تنظِم على المحَمِل خرزات إذا كان للنساء.

قولها: «وتركت عُهَيْداه»، لفظة مصغَّرة مأخوذة من العَهْد، مشابهة لما سلف من قولها: «عُقَيْراك» و«حماديات النساء».

قولها: «ووِقاعة السّتر» أى موقِعَه على الأرض إذا أرسلته، وهى الموقعة أيضا، وموقعة الطائر.

قولها : « حتى تلقينَه وأنت على تلك » ، أى على تلك الحال ، فحذف .

قولها: «أطوع ماتكونين لله إذا لزمته» ، أطوع : مبتدأ، وإذا لزمته: خبر المبتدأ، والضمير فى لزمته راجع إلى العهد والأمر الذى أمرتْ به .

قولها : « لَنَهَشَتْ به نَهْش الرقشاء المطرِقة » ، أى لعضّك ونهشك ما أذكّره لك وأذكِّرك به كما تنهشك أفعى رقشاء ، والرَّقش فى ظهرها ، هو النقط، والجرادة أيضاً رقشاء ، قال النابغة :

فبتُّ كأنى ساورتْنى ضئيلةٌ من الرُّقْش فى أنيابها السُّمُّ ناقع[1]

والأفعى يوصف بالإطراق ؛ وكذلك الأسد والنمر والرجل الشجاع ؛ وكان معاوية يقول فى علىّ عليه السلام : الشجاع المطرِق ، وقال الشاعر وذكر أفعى :

أصمّ أعمى مايجيب الرُّقى من طول إطراق وإسْبَاتِ[2]

قولها: « فئتان متناجزتان »، أى تسرع كلّ واحدة منهما إلى نفوس الأخرى، ومن رواه « متناحرتان » أراد الحربَ وطَعْن النّحور بالأسنة ، ورشقها بالسهام .

وفزعت إلى فلان فى كذا ، أى لذتُ به والتجأت إليه .

وقولها : « إن أقعد ففى غير حَرَج » أى فى غير إثم ، وقولها : « فإن أخرج فإلى مالا بدّ لى من الازدياد منه » ، كلام مَن يعتقِد الفضيلة فى الخروج ، أو يعرف موقع الخطإ ويصرّ عليه.

***

لما عزمت عائشة على الخروج إلى البصرة طلبوا لها بعيرا أيِّداً يحمل هَوْدَجها ، فجاءهم يعلَى بن أمية ببعيره المسمى عَسْكراً ، وكان عظيم الخَلْق شديداً ، فلما رأتْه أعجبها ، وأنشأ الجَمَّال يحدِّثها بقوته وشدته ، ويقول فى أثناء كلامه : « عسكر » ، فلما سمعت هذه اللفظة ، استرجعتْ ، وقالت: ردّوه لاحاجة لى فيه ، وذكرت حيث سئلت أن رسول الله

(١) ديوانه : ٥١

(٢) اللسان ٢ : ٣٤٣ ، من غير نسبة .

صلى الله عليه وآله ذكر لها هذا الاسم ، ونهاها عن ركوبه ، وأمرَتْ أن يطلب لها غيرُه فلم يوجد لها مايشبهه ، فغيِّر لها بجِلال غير جِلاله ، وقيل لها : قد أصبْنالك أعظم منه خَلقا ، وأشدّ قوة ، وأتِيَتْ به فرضيت .

قال أبو مخنف : وأرسلت إلى حَفصة تسألها الخروجَ والمسير معها[1] ، فبلغ ذلك عبدَالله ابن عمر ، فأتى أختَه فعزم عليها ، فأقامت وحطّتِ الرِّحال بعد ماهمّت .

كتب الأشتر من المدينة إلى عائشة وهى بمكةَ ، أما بعد : فإنّكِ ظعينة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد أمرك أن تقرّى فى بيتك ، فإنْ فعلتِ فهو خيرٌ لك ، فإن أبيتِ إلاّ أن تأخذى مِنْسأتك ، وتُلقى جلبابك ، وتبدى للناس شعيراتك ، قاتلتُك حتى أردّك إلى بيتك ، والموضع الذى يرضاه لك ربّك .

فكتبت إليه فى الجواب : أما بعد ، فإنّك أولُ العرب شَبّ الفتنة ، ودعا إلى الفرقة وخالف الأئمة ، وسعى فى قتل الخليفة ، وقد علمتَ أنك لن تُعجزَ الله حتى يصيبك منه بنقِمة ينتصر بها منك للخليفة المظلوم ، وقد جاءنى كتابُك ، وفهمت مافيه ؛ وسيكفينيك الله ؛ وكلّ من أصبح مماثلا لك فى ضلالك وغيّك ، إن شاء الله .

وقال أبو مِخْنف : لما انتهت عائشةُ فى مسيرها إلى الحوأب ، وهو ماء لبنى عامر بن صعصعة ، نبحتْها الكلاب ؛ حتى نفرت صِعاب إبلها ، فقال قائل من أصحابها : ألا ترون ، ما أكثر كلاب الحوأب ، وما أشد نُباحها ! فأمسكت زمام بعيرها ، وقالت : وإنها لكلاب الحوأب ! ردّونى ردّونى ؛ فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول ... وذكرت الخبر ، فقال لها قائل : مهلًا يرحمك الله ! فقد جُزْنا ماء الحوأب ؛ فقالت : فهل من شاهد ؟ فلفقوا لها خمسين أعرابيا ، جعلوا لهم جُعْلا ، فحلفوا لها[1] : إن هذا ليس بماء الحوأب ، فسارت لوجهها.

لما انتهت عائشة وطلحة والزبير إلى حَفْر[2] أبى موسى قريبًا من البصرة ، أرسل

---

(١) ساقطة من ب .

(٢) ضبطه صاحب مراصد الاطلاع بالفتح ثم السكون ، وقال : على جادّة البصرة إلى مكة .

عثمان بن حَنيف ـ وهو يومئذ عامل علىّ عليه السلام على البَصْرة ـ إلى القوم أبا الأسود الدؤلىّ يعلَمُ له[1] علمهم، فجاء حتّى دخلَ على عائشة، فسألها عن مسيرها، فقالت: أطلب بدم عثمان، قال: إنه ليسَ بالبَصْرة مِنْ قَتَلة عثمان أحدٌ، قالت: صدقت؛ ولكنّهم مع علىّ بن أبى طالب بالمدينة، وجئت أستنهضُ أهلَ البصرة لقتاله. أنغضب لكم من سَوْط عثمان ولا نغضب لعثمان من سيوفكم! فقال لها: ماأنت مِن السَّوْط والسيف! إنما أنت حَبِيس رسول الله صلى الله عليه وآله، أمرَكِ أن تَقرّى فى بيتك، وتتلِى كتاب ربك، وليس على النساء قتال، ولا لهنّ الطلب بالدماء؛ وإن عليّاً لأولى بعثمان منك، وأمسُّ رحما؛ فإنهما ابنا عبد مناف، فقالت: لست بمنصرفة حتى أمضِىَ لما قدمتُ لَهُ، أفتظنّ يا أبا الأسود أنّ أحداً يقدمُ على قتالى! قال: أما والله لتقاتِلِنّ قتالا أهونه الشديد.

ثم قام فأتى الزبير، فقال. يا أبا عبد الله، عهدُ الناس بك، وأنت يوم بويع أبو بكر آخذٌ بقائم سيفك، تقول: لا أحدَ أولى بهذا الأمر من ابن أبى طالب؛ وأين هذا المقام من ذاك! فذكر له دمَ عثمان، قال: أنت وصاحبك وليتماه فيما بلغنا! قال: فانطلقْ إلى طلحة فاسمع مايقول، فذهب إلى طلحة، فوجده سادِراً فى غَيِّه، مصِرّاً على الحرب والفتنة، فرجع إلى عثمان بن حُنيف، فقال: إنها الحرب، فتأهّبْ لها!

لما نزل علىّ عليه السلام بالبَصْرة، كتبت[2] عائشة إلى زيد بن صُوحان العبدىّ:

من عائشة بنت أبى بكر الصديق زَوج النبى صلى الله عليه وسلّم إلى ابنها الخالص زيد ابن صُوحان؛ أمابعدُ فأقِمْ فى بيتك، وخذّل الناسَ عن علىّ، وليبلغنِى عنك ماأحبّ؛ فإنك أوثق أهلى عندى، والسلام.

فكتب إليها: من زيد بن صُوحان إلى عائشة بنت أبى بكر؛ أمّابعدُ فإن الله أمرَكِ بأمرٍ وأمرَنا بأمرٍ؛ أمركِ أن تَقَرّى فى بيتك، وأمرَنا أن نجاهدَ، وقد أتانى كتابُك،

(١) كذا فى ا، وفى ب: «لهم».
(٢) كذا فى ا، وفى ب: «فكتبت».

فأمرتِنى أنْ أصنعَ خِلاف ماأمرَنى الله،فأ كون قدصنعتُ ماأمرَكَ الله به،وصنعتِ ماأمرنى الله به ، فأمرُكِ عندى غير مطاع ، وكتابك غير مجاب ، والسلام .

روى هـذين الـكتابين شيخنا أبو عثمان عمرو بن بحر ، عن شيخنا أبى سعيد الحسن البصرىّ .

***

وركبت عائشة يوم الحرب الجملَ المسمّى عسكرا فى هَوْدج ، قد ألبس الرَّفرف ، ثم ألبِس جلود النَّمِر ، ثم ألبِس فوق ذلك دروع الحديد .

الشعبىّ ، عن مسلم بن أبى بَكْرة،عن أبيه أبى بَكْرة،قال: لما قدم طلحة والزبير البصرة، تقلّدتُ سيفِى ، وأنا أريد نصرَهما ، فدخلت على عائشة ، وإذا هى تأمر وتنهى،وإذا الأمر أمرُها،فذكرتُ حديثاً كنت سمعته عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « لن يفلِح قومٌ تدبِّر أمرَهم امرأة » ، فانصرفت واعتزلتهم .

وقد رُوِىَ هذا الخبر على صورة أخرى : « إنّ قوما يخرجُون بعدى فى فئة ، رأسها امرأة ، لا يفلحون أبداً » .

كان الجمل لواء عسكر البصرة لم يكن لواء غيره .

***

خطبت عائشة والناس قد أخذوا مصافّهم للحرب ، فقالت :

أما بعد فإنا كنا نقَمْنا على عثمان ضربَ السوط،وإمْرة الفتيان،ومَرْتَع السحابة المحمِيّة؛ ألا وإنكم استعتبتموه فأعتبكم، فلما مُصْتُموه[(١)] كما يُماص الثوب الرَّحيض[(٢)]،عَدَوْتم عليه، فارتـكبتم منه دماً حراما ، وايمُ الله إن كان لأحصنَـكم فَرْجا ، وأتقا كم لله .

***

(١) الموص : الغسل ؛ كذا فسره صاحب اللسان ، واستشهد بكلام عائشة .
(٢) الرحيض : المغسول ؛ وانظر النهاية لابن الأثير ١ : ٧٢

خطب علي عليه السلام لما تواقف الجمعان ، فقال :

لا تقاتلوا القومَ حتى يبدءوكم، فإنكم بحمد الله على حُجّة؛ وكفّكم عنهم حتى يبدءوكم حجة أُخرى ، وإذا قاتلتموهم فلا تُجهِزوا على جريح ، وإذا هزمتموهم فلا تتبعُوا مُدْبراً ، ولا تكشِفوا عورة ، ولا تمثّلوا بقتيل ، وإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا سِتْراً ، ولا تدخلوا دارا ، ولا تأخذوا من أموالهم شيئا ، ولا تهيجوا امرأة بأذًى ، وإن شتمْنَ أعراضكم وسبَبْنَ أمراءكم وصلحاءكم؛ فإنّهن ضعاف القوى[1]، والأنفس والعقول؛ لقد كنّا نؤمَر بالكفّ عنهنّ وإنهنّ لمشركات، وإن كان الرجل ليتناولُ المرأة بالهراوة والجريدة، فيعيَّر بها وعقِبه من بعده .

***

قُتِل بنو ضَبّة حول الجمل فلم يبقَ فيهم إلا مَنْ لا نفع عنده ، وأخذَت الأزد بخِطامه، فقالت عائشة : مَنْ أنتم ؟ قالوا : الأزد ، قالت : صبراً ، فإنما يصبر الأحرار؛ مازلت أرى النّصر مع بنى ضَبّة ؛ فلما فقدتُهم أنكرتُه . فحرّضت الأزْد بذلك ؛ فقاتلوا قتالا شديدا ، ورُمِى الجملُ بالنّبْل حتى صارت القبة عليه كهيئة القنفذ .

***

قال علىّ عليه السلام : لما فنِيَ الناس على خِطام الجمل، وقطعت الأيدى، وسالت النفوس: ادعُوا لى الأشتر وعمّارا ، فجاءا ، فقال : اذهباً فاعقِرا هذا الجمل ؛ فإن الحرْب لا يبوخ[2] ضِرامها مادام حيًّا ؛ إنهم قد اتخذوه قبلة ، فذهبا ومعهما فتيانِ من مُراد ، يعرُف أحدهما بعمر بن عبد الله ، فما زالا يضربان الناسَ حتى خَلَصا إليه، فضربه المُرادىّ عَلَى عرقوبيْه، فأقعى وله رُغاء ، ثم وقع لجنبه ، وفرّ الناسِ من حوله ، فنادى علىّ عليه السلام : اقطعوا

---

(١) فى ب : « القوم » ، وما أثبته من ا .

(٢) لا يبوخ : لا يخمد .

أنساعَ الهودج ، ثم قال لمحمد بن أبي بكر : اكفني أختك ، فحملها محمد حتى أنزلها دار عبد الله بن خلف الخزاعيّ .

***

بعث عليّ عبد الله بن عباس إلى عائشة يأمرها بالرحيل إلى المدينة ، قال : فأتيتُها[1] ، فدخلت عليها ، فلم يوضع لي شيء أجلِس عليه ، فتناولت وسادة كانت في رَحْلها ، فقعدت عليها ، فقالت : يابن عباس ، أخطأتَ السنّة ، قعدت على وسادتنا في بيتنا بغير إذننا ! فقلت : ليسَ هذا بيتكِ الذي أمَرك الله أن تقرّي فيه ، ولو كان بيتَك ما قعدتُ على وِسادتك إلا بإذنك ، ثم قلت : إن أمير المؤمنين أرسلَني إليك يأمُرك بالرحيل إلى المدينة ، فقالت : وأين أمير المؤمنين ! ذاك عمر ، فقلت : عمر وعليّ ، قالت : أبيت ! قلت : أما والله ما كان أبوك إلا قصيرَ المدّة ، عظيم المشقة ، قليل المنفعة ، ظاهر الشؤم بيّن النّكد ، وما عسى أن يكون أبوك ! والله ما كان أمرُك إلا كحلَب شاة حتى صرت لاتأمرين ولا تنهين ، ولاتأخذين ولاتعطين ، وما كنت إلا كما قال أخو بني أسد :

ما زال إهداء الصغائر بيننا نثّ الحديث وكثرَة الألقابِ[2]

حتى تركت كأن صوتك بينهم في كلّ نائبة طنينُ ذبابِ

قال : فبكت حتى سُمِع نحيبُها من وراء الحجاب ، ثم قالت : إني معجّلة الرحيل إلى بلادي إن شاء الله تعالى ، والله ما من بلدٍ أبغضَ إليّ من بلد أنتم فيه ، قلت : ولم ذاك ! فو الله لقد جعلناكِ للمؤمنين أمًّا ، وجعلنا أباك صِدّيقا ، قالت : يابن عباس ، أتمنّ عليّ برسول الله ؟ قلت : مالى لا أمنّ عليك بمَنْ لو كان منك لمننتِ به عليّ !

ثم أتيت عليا عليه السلام فأخبرته بقولها وقولي ، فسرّ بذلك ، وقال لي : ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[3] ؛ وفي رواية : أنا كنت أعلم بك حيث بعثتك.

(١) ب « فلقيتها » ، وما أثبته من ا .

(٢) البيتان في ثمار القلوب ٥٠٣ ، ونسبهما إلى حضرمي بن عامر ، وهما أيضاً في الحيوان ٣ : ٣١٥

(٣) سورة آل عمران ٣٤ .

(٨٠)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام :

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ الزَّهَادَةُ قِصَرُ الْأَمَلِ ، وَالشُّكْرُ عِنْدَ النِّعَمِ ، وَالتَّوَرُّعُ عِنْدَ الْمَحَارِمِ ، فَإِنْ عَزَبَ ذَلِكَ عَنْكُمْ فَلَا يَغْلِبِ الْحَرَامُ صَبْرَكُمْ ، وَلَا تَنْسَوْا عِنْدَ النِّعَمِ شُكْرَكُمْ ؛ فَقَدْ أَعْذَرَ اللهُ إِلَيْكُمْ بِحُجَجٍ مُسْفِرَةٍ ظَاهِرَةٍ ؛ وَكُتُبٍ بَارِزَةِ الْعُذْرِ وَاضِحَةٍ .

***

الشَّرْحُ :

فسّر عليه السلام لفظ الزّهادة ، وهى الزّهد ، بثلاثة أمور وهى : قصَر الأمل ، وشكر النعمة ، والورَع عن المحارم ، فقال : لا يسمّى الزّاهد زاهداً حتى يستكمل هذه الأمور الثلاثة ، ثم قال : « فإن عزب ذلك عنكم » ، أى بَعُدَ ، فأمران من الثلاثة لابدّ منهما ؛ وهما الورع وشكر النعم ، جعلهما آكد وأهمّ من قصر الأمل .

واعلم أنّ الزهد فى العُرْف المشهور هو الإعراض عن متاع الدنيا وطيباتها ، لكنه لما كانت الأمور الثلاثة طريقاً موطئة إلى ذلك أطلَق عليه السلام لفظ الزهد عليها على وجه المجاز .

وقوله : « فقد أعذر الله إليكم » أى بالغ ؛ يقال : أعذَر فلان فى الأمر أى بالغ فيه ، ويقال : ضُرِب فلان فأعذر ، أى أشرف على الهلاك ؛ وأصل اللفظة من العذر ؛ يريد أنه

قد أوضحَ لكم بالحجج النيّرة المشرقة مايجب اجتنابُه، ومايجب فعله ؛ فإن خالفتم استوجبتمُ العقوبة ؛ فكان له فى تعذيبكم العذر .

***

[الآثار والأخبار الواردة فى الزهد]

والآثار الواردة فى الزهد كثيرة :

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أفلح الزاهد فى الدنيا ، حَظِىَ بعزّ العاجلة وبثواب الآخرة » .

وقال صلى الله عليه وآله : « من أصبَحت الدنيا همّه وسَدَمه، نزع الله الغنى من قلبه وصيّر الفقر بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتِب له ، ومن أصبحت الآخرة همّه وسَدَمه ، نزع الله الفقر عن قلبه ، وصيّر الغنى بين عينيه ، وأتته الدنيا وهى راغمة » .

وقال عليه السلام للضحّاك بن سفيان : ماطعامُك ؟ قال : اللحم واللبن ، قال : ثم يصير إلى ماذا ؟ قال : إلى ماعلمت ، قال : فإن الله ضرب مايخرج من ابن آدم مثلا للدنيا .

وكان الفُضَيل بن عِياض يقول لأصحابه إذا فرغ من حديثه : انطلقوا حتى أريكم الدنيا ، فيجىء بهم إلى المزبلة ، فيقول : انظروا إلى عنَبهم وسَمْنهم ودَجاجهم وبطِّهم ! صار إلى ماترون .

ومن الكلام المنسوب إلى المسيح عليه السلام : الدنيا قنطرة فاعبروها ولاتعمروها.

سئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن قوله سبحانه : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ

يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾[1] فقال : إذا دخل النّور القلبَ انفسح، فذلك شرح الصدر، فقيل: أفلذلك علامة يعرف بها ؟ قال: نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافِي عن دار الغُرور، والاستعداد للموت قبل نزوله .

قالوا : أوحى الله تعالى إلى نبيّ من الأنبياء : اتخذِ الدّنيا ظِئْراً ، واتخذ الآخرة أمًّا .

الشعبيّ : ما أعلم لنا وللدنيا مثلا إلا قول كُثَيِّر :

أسيئِي بنَا أو أحسِني لا ملومةً ... لَدَيْنَا ولا مقلِيّةً إن تَقَلَّتِ[2]

بعض الصالحين : المستغنى عن الدّنيا بالدّنيا ، كالمطفِئ النارَ بالتبن .

وفى بعض الكتب القديمة الإلهية : قال الله للدنيا : مَنْ خدَمَنى فاخدميه ، ومن خدَمكِ فاستخدِميه .

دخل محمد بن واسع على قُتيبة بن مسلم ، وعليه مدرعة من صُوف ، فقال : ماهذه ؟ فسكت ، فأعاد عليه السؤال ، فقال : أكره أن أقولَ زهداً فأزكّيَ نفسى ، أو فقرا فأشكوَ ربىّ .

قيل فى صفة الدنيا والآخرة : هما كضَرّتين إن أرضيتَ إحداهما أسخطتَ الأخرى.

قيل لمحمد بن واسع: إنك لترضَى بالدُّون، قال : إنما رضىَ بالدُّون مَنْ رضىَ بالدنيا .

خطب أعرابىٌّ كان عاملاً لجعفر بن سليمان على ضَرِيّة يوم جُمعة خطبةً لم يُسمعْ أوجَز منها ولا أفصح ، فقال : إنّ الدنيا دارُ بلاغ ، وإنّ الآخرةَ دار قرار ؛ فخذُوا من ممرّكم لمُستقَرّكم ، ولا تهتِكوا أستارَكم عند مَنْ لا تخفى عليه أسراركم ، وأخرِجُوا من الدنيا قلوبَكم قبل أن تخرُج منها أبدانُكم ؛ ففيها جئتم ، ولغيرها خُلقتم ؛ إنّ المرء إذا هلك قال الناس : ماترك؟ وقالت الملائكة: ماقدّم ؟ فلِلّه آثاركم ! قدّموا بعضاً يكن لكم،

---

(١) سورة الأنعام ١٢٥ .

(٢) من قصيدته التائية المشهورة ؛ فى أمالى القالى ٢ : ١٠٧ — ١١٠ .

ولا تؤخِّروا كُلًّا فيكون عليكم ؛ أقول قولى هذا ؛ وأستغفر الله ، والمدعوُّ له الخليفة ، ثم الأمير جعفر . ونزل .

أبو حازم الأعرج : الدُّنيا كلُّها غموم ، فما كان فيها سرورا فهو ربح .

محمد بن الحنفيّة : مَنْ عزّت عليه نفسُه هانتْ عليه الدنيا .

قيل لعلىّ بن الحسين عليه السلام : مَنْ أعظمُ الناس خَطَراً ؟ قال : مَنْ لم يَرَ الدنيا لنفسه خطراً .

قال المسيح عليه السلام لأصحابه : حبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئة ، واقتناء المال فيها داء عظيم ، قالوا له : كيف ذلك ؟ قال : لا يسلم صاحبه من البغى والكبر ؛ قيل : فإن سَلِم منهما ؛ قال : يشغلُه إصلاحه عن ذكر الله.

أشرف أبو الدرداء على أهلِ دمشق؛ فقال: ياأهلَ دمشق، تبنونُ مالا تسكنون، وتجمعون مالا تأكلون، وتأمُلُون مالا تدركون! أينَ مَنْ كان قبلَكم؟ بنوْا شديداً ، وأمّلوا بعيداً، وجمعوا كثيراً ، فأصبحتْ مساكنهم قُبوراً ، وجَمْعُهم بُوراً ، وأملُهم غروراً .

قال المأمون : لوسئلت الدُّنيـا عن نَفَسها لم تسطِعْ أن تصفَ نفسها بأحسنَ من قول الشاعر :

إذا امتحنَ الدُّنيا لبيبٌ تكشَّفَتْ ... لَهُ عن عَدُوٍّ فى ثيابِ صديقِ (١)

وقال رجل :يارسولَ الله ، كيف لى أن أعلم أمرى ؟ قال : « إذا أردتَ شيئاً من أمور الدنيا فعسُر عليك ؛ فاعلم أنك بخير ، وإذا أردتَ شيئاً من أمر الدنيا فيسُر لك ؛ فاعلم أنه شرٌّ لك » .

قال رجل ليونس بن عبيد : إنّ فلانا يعمل بعمل الحسن البصرىّ ، فقال : والله ماأعرِف أحداً يقول بقوله ، فكيفَ يعمل بعمله ؟ قيل : فصفه لنا ، قال : كان إذا أقبَلَ

---

(١) لأبى نواس . ديوانه ١٩٢ .

فكأنه أقبل مِنْ دفنِ حبيب ، وإذا جاس فكأنه أسيرٌ أجلس لضرب عنقه ، وإذا ذكرتِ النار فكأنها لم تخلق إلا له .

وقال بعض الصالحين لرجل : يافلان، هلْ أنت على حالٍ أنتَ فيها مستعدٌ للموت ؟ قال : لا ، قال : فهل أنت عالم بأنك تنتقل إلى حال ترضى به ؟ قال : لا ، قال : أفتعلم بعد الموت داراً فيها مستعتَب[1]؟ قال : لا ، قال : أفتأمن الموت أن يأتيَك صباحاً أو مساء ؟ قال : لا ، قال : أفيرضى بهذه الحال عاقل !

وقال أبو الدَّرْداء : أضحكتني ثلاثٌ ، وأبكتني ثلاث : أضحكني مؤمّل الدنيا والموت يطلبه ، وغافلٌ وليس بمغفول عنه ، وضاحكٌ ملء فيه لايدرِي أراضٍ عنه الله أمْ ساخطٌ ! وأبكاني فراقُ محمد وحزبه ، وأبكاني هولُ الموت ، وأبكاني هولُ الموقف ، يومَ تبدُو السرائر حين لاأدرى أيؤخذ بى إلى جنّة أم إلى نار !

وكان عبد الله بن صغير يقول :أتضحكُ ولعلّ أكفانَك قد خرجت من عند القصّار !

وكان يقال : مَنْ أتى الذنبَ ضاحكاً ،دخل النار باكياً .

وكان مالك بن دينار يقول: وددت أنّ رزقى فى حصاة أمَصّها حتى أبول، فلقد اختلفت إلى الخلاء حتى استحييتُ من ربّى .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لايبلغ العبدُ أن يكونَ من المتّقين حتى يدَعَ ماليس به بأس حذراً عمّا به البأس » .

وقال المسيح عليه السلام : بحقّ أقول لكم ؛ إنّ مَنْ طلب الفِرْدَوس ، فخبزُ الشعير ، والنوم على المزابل مع الكلاب ، له كثير .

وأوصى ابن محرز رجلًا فقال : إن استطعتَ أن تعرِف ولا تعرَف ،وتسأل ولا تُسأل، وتمشى ولا يُمشى إليك ، فافعل .

---

(١) مستعتب : رضا .

وقال علىّ عليه السلام : طوبى لمن عَرَف الناس ولم يعرفوه ، تعجّلتْ له منيّتُه ، وقلّ تراثه ، وفقد باكياته .

وكان يقال : فى الجوع ثلاث خصالٍ : حياةٌ للقلب ، ومذلّة للنفس ، ويورث العقل الدقيق [من المعانى] [1] .

وقال رجل لإبراهيم بن أدهم : أريدُ أن تقبل منى دراهم ، قال : إن كنت غنياً قبلتُها منك ، وإن كنتَ فقيرا لم أقبلْها ، قال : فإنى غنى ، قال : كم تملك ؟ قال ألفى درهم ، قال : أفيسرّك أن تكون أربعة آلاف ؟ قال : نعم ، قال : لست بغنىّ ودراهمك لا أقبلها .

وكان أبو حازم الأعرج إذا نظَر إلى الفاكهة فى السوق ، قال : موعدكِ الجنة إن شاء الله تعالى .

ومرّ أبو حازم بالقصابين ، فقال له رجل منهم : يا أبا حازم ؛ هذا سَمين فاشتر منه ، قال : ليس عندى دراهم ، قال : أنا أنظِرُك ، قال : فأفكّر ساعة ، ثم قال : أنا أنظِرُ نفسى .

نزل الحجّاج فى يوم حارّ على بعض المياه ، ودعا بالغَدَاء وقال لحاجبه : انظر مَنْ يتغدّى معى ، واجهَدْ ألّا يكون من أهل الدنيا ، فرأى الحاجبُ أعرابيًّا نائما ، عليه شملة من شَعَر ، فضربه برجله ، وقال : أجب الأمير ، فأتاه ، فدعاه الحجّاج إلى الأكل ، فقال : دعانى مَنْ هو خيرٌ من الأمير فأجبته ؛ قال : مَنْ هو ؟ قال : الله ، دعانى إلى الصوم فصمت ؛ قال : أفى هذا اليوم الحارّ ؟ قال : نار جهنم أشدُّ حرًّا ، قال : أفطِر وتصومُ غدا ، قال : إن ضمنتَ لى البقاء إلى غد ، قال : ليس ذلك إلىّ ، قال : فكيف أدعُ عاجلًا لآجل لا تقدر عليه ! قال : إنه طعام طيِّب ، قال : إنك لم تطيّبه ولا الخبّاز ، ولكنّ العافية طيّبته لك .

وقال شبيب : كنّا سنة فى طريق مكّة ، فجاء أعرابىّ فى يوم صائفٍ شديد الحرّ ،

---

(١) بالأصول غموض ، ولعل الصواب ما أثبته أو قريب منه .

ومعه جارية سوداء، وصحيفة؛ فقال: أفيكم كاتب؟ قلنا: نعم، وحضر غداؤنا، فقلنا له: لو دخلتَ فأصبت من طعامنا! قال: إنّى صائم، قلنا: الحرّ وشدته، وجفاء البادية، فقال: إنّ الدنيا كانت ولم أكنْ فيها، وستكون ولا أكونُ فيها، وما أحبّ أن أغبن أمامى، ثم نبذ إلينا الصحيفة، فقال للكاتب: اكتُب ولا تزِدْ على ما أمليه عليك: هذا ما أعتَق عبدالله بن عقيل الكلبىّ، أعتق جاريةً له سوداء اسمها لؤلؤة، ابتغاء وجهِ الله وجواز العقبة، وإنه لا سبيلَ له عليها إلا سبيل الولاء، والمنّة لله علينا وعليها واحدة.

قال الأصمعىّ: فحدّثت بذلك الرشيد، فأمر أن يعتَق عنه ألف نسمة، ويكتب لهم هذا الكتاب.

وقال خالد بن صفوان: بتُّ ليلتى هذه أتمنّى، فكبست البحر الأخضر بالذهب الأحمر، فإذا الذى يلقانى من ذلك رغيفان وكوزان وطِمْران [١].

ورأى رجلٌ رجلا من ولد معاوية يحمل على بعير له، فقال: هذا بعد ما كنتم فيه من الدنيا! قال: رحمك الله يابن أخى، ما فقدنا إلا الفُضول.

وقال الحسن: يابن آدم، إنما أنت أيام مجموعة، كلما ذهب يوم ذهب بعضُك.

قال يونس الكاتب: لو قيل بيت دريد فى زاهدٍ كان به جديرا:

قليلُ التّشكّى للمصيبات ذاكرٌ   من اليوم أعقابَ الأحاديث فى غد [٢]

وقال الحسن: ما أطال عبد الأملَ إلا أساء العمل.

وقال رجل للفُضَيل بن عياض: ما أعجب الأشياء؟ قال: قلبٌ عرف الله ثم عصاه.

قال وكيع: ما أحسنتُ قطّ إلى أحد، ولا أسأت إليه، قيل: كيف؟ قال: لأن الله تعالى قال: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [٣].

---

(١) الطمر: الثوب الخلق.

(٢) من كلمة له فى ديوان الحماسة ٢ : ٣٠٨ يرثى أخاه عبد الله.

(٣) سورة الإسراء ٧.

وقال الحسن لرجل : إن استطعتَ ألّا تسيء إلى أحدٍ ممن تحبّه فافعل ، قال الرجل : يا أبا سعيد [١] ، أوَ يسيء المرء إلى مَنْ يحبّه ؟ قال : نعم ، نفسُك أحبُّ النفوس إليك ، فإذا عصيتَ الله فقد أسأتَ إليها .

وكان مالك بن دينار إذا منَع نفسَه شيئاً من الشهوات ، قال : اصبرى ، فوالله مامنعُك [٢] إلا لكرامتك علىّ .

قام رسول الله صلى الله عليه وآله الليل ، حتى تورّمت قدماه ، فقيل له : يارسول الله ، أتفعل هذا ، وقد غفرَ الله ماتقدّم مِنْ ذنبك وماتأخر ؟ قال : « أفلا أكونُ عبداً شكوراً ! » .

وقال عبد الله بن مسعود : لايكونَنّ أحدكم جيفة ليله ، قُطْرُب [٣] نهاره .

وكان يقال . مَنْ كثُرت صلاته بالليل حَسُن وجهه بالنهار .

وكان مالك بن دينار يقول فى قَصصه : ما أشد فطام الكبر ! وينشدُ :

أتروضُ عِرْسك بعد ماهرِمَتْ ! ومن العناء رياضةُ الهرِمِ

وقال آخر :

إن كنت تؤمن بالقيامة واجترأتَ على الخطيّهْ
فلقد هلكتَ وإن جحدْتَ فذاك أعظمُ للبليّهْ

---

(١) كنية الحسن البصرى . (٢) ج : « ما منعتك » .
(٣) القطرب : دويبة لا تستريح نهارها سعياً .

(٨١)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام فى صفة الدنيا :

مَا أَصِفُ مِنْ دَارٍ ، أَوَّلُهَا عَنَاء ، وَآخِرُهَا فَنَاء ! فى حَلَالِهَا حِسَابٌ، وَفِى حَرَامِهَا عِقَابٌ .

مَنْ اسْتَغْنَى فِيهَا فُتِنَ ، وَمَنْ افْتَقَرَ فِيهَا حَزِنَ وَمَنْ سَاعَاهَا فَاتَتْهُ ، وَمَنْ قَعَدَ عَنْهَا وَاتَتْهُ ، وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ ، وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ .

***

قال الرضىّ رحمه الله :

أقول: وإذا تأمّلَ المتأمِّلُ قوله عليه السلام: «ومَن أبصرَ بها بصَّرتْه» ،وَجدَ تحته من المعنى العجيب ، والغرض البعيد ، مالا يبلَغ غايتَه ولايدرَك غوره ، لاسيَّما إذا قرن إليه قوله : « وَمَنْ أبصَرَ إليها أعمتْهُ » ، فإنه يجد الفرق بين «أبصرَ بها» و«أبصرَ إليها» وَاضِحًا نَيِّراً، وعجيباً باهراً .

الشَّرْحُ :

العناء : التعب . وساعاها : جاراها سعياً . وواتته : طاوعته .

ونظر الرضىّ إلى قوله . « أولها عناء وآخرها فناء » ، فقال .

وأوّلُنا العنــاءُ إذا طَلَعْنَــا ‏ ‏ ‏ ‏ إلى الدنيا وآخِرُنا الذهابُ [1]

---

(١) ديوانه ١ : ١٠١ .

ونظر إلى قوله عليه السلام « فى حلالها حساب ، وفى حرامها عقاب » بعضُ الشعراء ، فقال :

الدهر يومان فيومٌ مضَى ... عنك بما فيه ويومٌ جديدْ
حلالُ يوميك حسابٌ وفى ... حرام يَوْميْكَ عذابٌ شديدْ
تجمعُ ما يأكلُه وارثٌ ... وأنت فى القبر وحيدٌ فريدْ
إنى لغيرى واعظٌ تاركٌ ... نفسى وقولى من فعالى بعيدْ
حلاوةُ الدنيا ولَذَّاتُها ... تكلّف العاقلَ ما لا يريدْ

ومن المعنى أيضا قول بعضهم :

حَلَالُهَا حَسْرَةٌ تُفضِى إلَى نَدَمٍ ... وَفِى المحارِمِ مِنْهَا الغم مَنْزُورُ

ونظر الحسن البصرىّ إلى قوله عليه السلام : « من استغنى فيها فُتِن ، ومن افتقرَ فيها حزن » ، فقال ، وقد جاءه إنسان يبشّره بمولود له ذكر : ليهنك الفارس يا أبا سعيد ، فقال : بل الراجِل ! ثم قال : لا مرحباً بمن إنْ كان غنيًّا فتنَنِى ، وإن كان فقيراً أحزننى ، وإن عاش كَدَّنى ، وإن مات هَدّنى ، ثم لا أرضى بسعيي له سعيا ، ولا بكدحِي له كدحا ؛ حتى أهتمّ بما يصيبه بعد موتى ، وأنا فى حالٍ لا ينالُنى بمساءته حُزْن ، ولا بسروره جَذَل .

ونظر ابن المعتزّ إلى قوله عليه السلام : « مَنْ ساعاها فاتتْه ، ومن قعد عنها واتته » فقال : الدنيا كظلّك ، كلّما طلبته زاد منك بعدا .

ونظرتُ إلى قوله عليه السلام : « ومَنْ أبصر بها بصرته ، ومن أبصر إليها أعمته » ، فقلت :

دُنْيَاكَ مثلُ الشّمْسِ تُدنى إليـ ... ـك الضوء لكن دعوة المُهلِكْ
إن أنت أبصرتَ إلى نورِها ... تَعْشَ ، وإن تبصرْ به تدركْ

فإن قلت : المسموع : أبصرت زيدا ، ولم يسمع أبصرت إلى زيد ، قلت : يجوز أن يكون قوله عليه السلام : « ومن أبصر إليها » ، أى ومن أبصر متوجها إليها ، كقوله : ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾[1] ولم يقل « مرسلا » ؛ ويجوز أن يكون أقام ذلك مقام قوله « نظر إليها » لما كان مثله ، كما قالوا فى « دخلت البيت » ، « ودخلت إلى البيت » أجروه مجرى « ولجت إلى البيت » لمّا كان نظيره .

---

(١) سورة النمل ١٢ .

(٨٢)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام ؛ وتسمى بالغراء ؛ وهى من الخطب العجيبة :

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي عَلَا بِحَوْلِهِ ، وَدَنَا بِطَوْلِهِ ؛ مَانِحِ كُلِّ غَنِيمَةٍ وَفَضْلٍ ، وَكَاشِفِ كُلِّ عَظِيمَةٍ وَأَزْلٍ . أَحْمَدُهُ عَلَى عَوَاطِفِ كَرَمِهِ ، وَسَوَابِغِ نِعَمِهِ ، وَأُومِنُ بِهِ أَوَّلاً بَادِياً ، وَأَسْتَهْدِيهِ قَرِيباً هَادِياً ، وَأَسْتَعِينُهُ قَاهِراً قَادِراً ، وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ كَافِياً نَاصِراً ؛ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ؛ أَرْسَلَهُ لِإِنْفَاذِ أَمْرِهِ ، وَإِنْهَاءِ عُذْرِهِ ، وَتَقْدِيمِ نُذُرِهِ .

***

الشرح :

الحوْل: القوة . والطَّول : الإفضال ، والمانح : المعطى . والأزْل ، بفتح الهمزة : الضيق والحبس. والعواطف : جمع عاطفة وهى مايعطفك على الغير ، ويدنيه مِنْ معروفك ، والسوابغ: التوامّ الكوامل ؛ سبَغَ الظّلُّ ؛ إذا عَمّ وشمل .

و« أولا » هاهنا منصوب على الظرفية ؛ كأنه قال : قبل كلّ شىء . والأوّل نقيض الآخر أصله « أوْءل » على « أفعل » مهموز الوسط ، قلبت الهمزة واوا وأدغم ، يدلّ على ذلك قولهم: « هذا أوّلُ منك » والإتيان بحرف الجرّ دليل على أنه « أفعل » ، كقولهم : هذا أفضل منك ؛ وجمعه على أوائل وأوالٍ أيضا على القلب . وقال قوم : أصله « ووّل » على « فوْعل » فقلبت الواو الأولى همزة ؛ وإنما لم يجمع على « ووالٍ » لاستثقالهم اجتماع الواوين وبينهما ألف الجمع.

(١) ب : « أوال » تصحيف

وإذا جعلت « الأول » صفة لم تصرِفه ، تقول: لقيته عاماً أوّل ، لاجتماع وزن الفعل، وتقول: ما رأيته مذ عامُ أوّلَ ، كلاهما بغير تنوينٍ ؛ فمن رفع جعله صفة لعام ؛ كأنه قال : أوّل من عامنا ، ومَنْ نصب جعله كالظرف، كأنه قال : مذ عام قبل عامنا . فإن قلت : « ابدأ بهذا أوّلُ » ، ضممته على الغاية .

والإنهاء : الإبلاغ ، أنهيتُ إليه الخبرَ فانتهى ؛ أى بلغ ؛ والمعنى أنّ الله تعالى أعذر إلى خلقه وأنذرهم ؛ فإعذارُه إليهم أنْ عرّفهم بالحجج العقليّة والسمعية أنّهم إنْ عصوْه استحقّوا العقاب؛ فأوضح عذرَه لهم فى عقوبته إيّاهم على عصيانه . وإنذاره لهم : تخويفه إياهم من عقابه. وقد نظر البحترىّ إلى معنى قوله عليه السلام : « علا بحوله، ودنا بطوله »، فقال:

دَنَوْتَ تَوَاضُعاً وَعَلَوْتَ قَدْراً ... فَشَأْنَاكَ انْحِفَاضٌ وارْتِفَاعُ[1]
كَذَاكَ الشمس تبعُدُ أنْ تُسَامَى ... وَيَدْنُو النُّورُ مِنْهَا والشُّعَاعُ

* * *

وفى هذا الفصل ضروب من البديع ؛ فمنها أنّ « دنا » فى مقابلة « علا » لفظا ومعنى؛ وكذلك « حوله » و « طوله » .

فإن قلت : لا ريبَ فى تقابل « دنا » و « علا » من حيث المعنى واللفظ؛ وأما « حوله » و « طوله » فإنهما يتناسبان لفظا ؛ وليسا متقابلين معْنى ، لأنهما ليسا ضدّين ، كما فى العلوّ والدنوّ .

قلت : بل فيهما معنى التضادّ ، لأنّ الحول هو القوّة ، وهى مشعرة بالسّطْوة والقهر، ومنه منشأ الانتقام ، والطَّوْل : الإفضال والتـكرّم ، وهو نقيض الانتقام والبطش .

فإن قلت : أنت وأصحابُك لا تقولون إنّ الله تعالى قادرٌ بقدرة ، وهو عنـدكم قادر

---

(١) ديوانه ١ : ٨٢ ، يمدح إبراهيم بن المدبر .

لذاتِه ، فكيف تتأوّلون قوله عليه السلام : « الذى علا بِحَوْله » ؟ أليس فى هذا إثبات قدرة له زائدة على ذاته ، وهذا يخالف مذهبكم !

قلت : إنّ أصحابنا لا يمتنعون من إطلاق قولهم : إنّ لله قوة وقدرة وحولا ، وحاش لله أنْ يذهب ذاهبٌ منهم إلى منع ذلك ! ولكنّهم يطلقونه ويعنُون به حقيقتَه العرفيّة ، وهى كون الله تعالى قويًّا قادراً ، كما نقول نحن والمخالف : إن لله وجوداً وبقاء وقِدماً ، ولا نعنى بذلك أنّ وجوده أو بقاءه أو قدمه معانٍ زائدة على نفسه ، لكنا نعنى كلّنا بإطلاق هذه الألفاظ عليه كونه موجودا أو باقيا أو قديما ، وهذا هو العُرْف المستعمَل فى قول الناس : « لا قوة لى على ذلك » و « لا قدرة لى على فلان » لا يعنون نفىَ المعنى ، بل يعنون كونَ الإنسان قادرا قويا على ذلك .

ومنها أن « مانحا » فى وزن « كاشف » و « غنيمة » بإزاء « عظيمة » فى اللفظ ، وضدها فى المعنى ؛ وكذلك « فضل » و « أزل » .

ومنها أن « عواطف » بإزاء « سوابغ » و « نِعَمه » بإزاء « كرمه » .

ومنها — وهو ألطف ما يَستعمله أرباب هذه الصناعة : أنه جعل « قريبا هاديا » ، مع قوله : « أستهديه » ؛ لأن الدليل القريب منك أجدرُ بأن يهديَك من البعيد النازح ، ولم يجعله مع قوله : « وأستعينه » ؛ وجعل مع الاستعانة « قاهرا قادرا » لأنّ القادر القاهر يليقُ أن يستعانَ ويستنجَد به ؛ ولم يجعله قادرا قاهرا مع التوكّل عليه ، وجعل مع التوكل « كافيا ناصرا » ؛ لأنّ الكافىَ الناصر أهلٌ لأنْ يتوكّل عليه .

وهذه اللطائف والدقائق من معجزاته عليه السلام التى فات بها البلغاء ، وأخرس الفصحاء .

***

الأصْلُ :

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِى ضَرَبَ لَكُمُ الْأَمْثَالَ ، وَوَقَّتَ لَكُمُ الْآجَالَ ، وَأَلْبَسَكُمُ الرِّيَاشَ ، وَأَرْفَغَ لَكُمُ الْمَعَاشَ ، وَأَحَاطَ بِكُمُ الْإِحْصَاءَ ، وَأَرْصَدَ لَكُمُ الْجَزَاءَ ، وَآثَرَكُمْ بِالنِّعَمِ السَّوَابِغِ ، وَالرِّفَدِ الرَّوَافِغِ ، وَأَنْذَرَكُمْ بِالْحُجَجِ الْبَوَالِغِ ؛ فَأَحْصَاكُمْ عَدَدًا ، وَوَظَّفَ لَكُمْ مُدَدًا ، فِي قَرَارِ خِبْرَةٍ ، وَدَارِ عِبْرَةٍ ، أَنْتُمْ مُخْتَبَرُونَ فِيهَا ، وَمُحَاسَبُونَ عَلَيْهَا .

***

الشرح :

وقّت وأقّت بمعنى ؛ أى جعل الآجال لوقتٍ مقدّر .

والرياش والرّيش واحد ؛ وهو اللباس ، قال تعالى : ﴿ يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا ﴾[1] . وقرئ « ورياشا » ، ويقال : الرياش : الخِصْب والغنى ، ومنه ارتاش فلان ، حَسُنت حاله ، ويكون لفظ « ألبسكم » مجازا إن فُسّر بذلك .

وأرفغ لكم المعاش ؛ أى جعله رفيغا ، أى واسعاً مخصِباً ؛ يقال : رفُغ – بالضم – عيشُه رَفاغة ، اتسع ، فهو رافغ ورفيغ ، وترفّغ الرجل ، وهو فى رفاغيَة من العيش ، مخففا ، مثل « رَفاهِيَة » و « ثمانية » .

وقوله : « وأحاط بكم الإحصاء » ، يمكن أنْ ينصَب الإحصاء على أنّه مصدر فيه اللام ، والعامل فيه غير لفظه ، كقوله : « يعجبه السُّخون » ، ثم قال : « حُبًّا[2] » ، وليس

---

(١) سورة الأعراف ٢٦ .

(٢) أصله قول الراجز ، وأورده صاحب اللسان فى (سخن) :

يُعْجِبُهُ السُّخِينُ وَالمَصِيدُ … وَالتَّمْرُ حُبًّا مَالَهُ مَزِيدُ

دخول اللام بمانع من ذلك ؛ تقول : ضربتُه الضربة ، كما تقول : ضربته ضربا . ويجوز أن ينصب بأنّه مفعول به ، ويكون ذلك على وجهين :

أحدهما: أن يكون من «حاط» ثلاثيا ، تقول: حاط فلان كَرْمَه ، أى جعل عليه حائطا، فكأنه جعل الإحصاء والعدّ كالحائط المدار عليهم؛ لأنّهم لا يبعدون منه ولا يخرجون عنه.

والثانى :أن يكون مَن حاط الحمارُ عانَته يحُوطها ؛ بالواو أى جمعها ؛ فأدخل الهمزة؛ كأنه جعل الإحصاء يحوطهم ويجمعهم ؛ تقول : ضربتُ زيداً وأضربته أى جعلته ذا ضَرْب ، فلذلك كأنه جعل عليه السلام الإحصاء ذا تحويط عليهم بالاعتبار الأول ، أو جعله ذا جمع لهم بالاعتبار الثانى .

ويمكن فيه وجه آخر ، وهو أن يكون الإحصاء مفعولا له ويكون فى الكلام محذوف تقديره: وأحاط بكم حفظته وملائكته للإحصاء ودخول اللام فى المفعول له كثير ، كقوله:

* والهَوْلَ مِنْ تَهوّلِ الهُبُورِ[1] *

قوله : « وأرصد » يعنى أعدّ ، وفى الحديث : « إلّا أن أرصُدَه لدينْ علىّ » .

وآثَرَكم، من الإيثار، وأصله أن تقدّم غيرَك على نفسك فى منفعة أنت قادرٌ على الاختصاص بها وهو فى هذا الموضع مجاز مستحسَن .

والرِّفَد : جمع رِفْدَة ، مثل كِسْرة وكِسَر ، وفِدْرة وفِدَر . والرِّفدة والرِّفْد واحد ، وهى العطيّة والصِّلَة ورَفدت فلانا رَفْدًا بالفتح ، والمضارع أرفِده بكسر الفاء ، ويجوز « أرفدته » بالهمزة .

والروافغ : الواسعة . والحجج البوالغ : الظاهرة المبينة، قال سبحانه : ﴿ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾[2] .

---

(١) للعجاج وقد ورد البيت محرفا فى الأصول ، وصوابه من الديوان ٤٨

(٢) سورة الأنعام ١٤٩ .

ووظَّف لـكم مدداً ، أى قدّر ، ومنه وظيفة الطعام .

وقرار خِبْرة بكسر الخاء ، أى دار بلاء واختبار ، تقول : خبرت زيدا أخبُره خُبْرة، بالضم فيهما ، وخِبْرة بالـكسر إذا بلوته واختبرته ، ومنه قولهم : صغَّر الخُبْرُ الخبرَ .

ودار عِبْرة أى دار اعتبار واتّعاظ ، والضمير فى « فيها » و «عليها » ليس واحدا ، فإنّه فى « فيها » يرجع إلى الدار ، وفى « عليها » يرجع إلى النعم والرِّفْدِ ، ويجوز أن يكون الضمير فى « عليها » عائدا إلى الدار على حذف المضاف ، أى على سكانها .

***

الأَصْـلُ :

فَإِنَّ الدُّنْيَا رَنِقٌ مَشْرَبُهَا ، رَدِغٌ مَشْرَعُهَا ، يُونِقُ مَنْظَرُهَا ، وَيُوبِقُ مَخْبَرُهَا . غُرُورٌ حَائِلٌ ، وَضَوْءٌ آفِلٌ ، وَظِلٌّ زَائِلٌ ، وَسِنَادٌ مَائِلٌ ، حَتَّى إِذَا أَنِسَ نَافِرُهَا، وَاطْمَأَنَّ نَاكِرُهَا ،قَمَصَتْ بِأَرْجُلِهَا وَقَنَصَتْ بِأَحْبُلِهَا ،وَأَقْصَدَتْ بِأَسْهُمِهَا ،وَأَعْلَقَتِ الْمَرْءَ أَوْهَاقَ الْمَنِيَّةِ ، قَائِدَةً لَهُ إِلَى ضَنْكِ الْمَضْجَعِ ، وَوَحْشَةِ الْمَرْجِعِ، وَمُعَايَنَةِ الْمَحَلِّ وَثَوَابِ الْعَمَلِ .

وَكَذَلِكَ الْخَلَفُ بِعَقْبِ السَّلَفِ ؛ لَا تَقْلِعُ الْمَنِيَّةُ اخْتِرَاماً ،وَلَا يَرْعَوِي الْبَاقُونَ اجْتِرَاماً ، يَحْتَذُونَ مِثَالاً ، وَيَمْضُونَ أَرْسَالاً ، إِلَى غَايَةِ الِانْتِهَاءِ ، وَصَيُّورِ الْفَنَاءِ .

***

الشّـرح :

يقال : عيش رنِق، بكسر النون، أى كدِر، وماء رنْق بالتسكين ، أى كدر والرَّنَق بفتح النون مصدر قولك : «رنِق الماء» بالـكسر ورنّقته أنا ترنيقا، أى كدّرته والرواية

المشهورة فى هذا الفصل «رِنَق مشربُها» بالكسر أقامه مقام قولهم: «عيش رَنِق»، ومن رواه «رَنْق مشربها» بالسكون ــ وهم الأقلون ــ أجرى اللفظ على حقيقته.

ويقال: مشرع رَدِغ: ذو طين ووحل، روى «الرَّدَغة» بالتحريك، ويجوز تسكين الدال؛ والجمع رِداغ ورَدْغ[١].

وبو نِق منظرُها: يعجب الناظر؛ آنقنى الشىء أعجبنى. وبُوبق مخبرها: يُهلك، وَبق الرجلُ يبِق وبُوقا، هلك؛ والموْبق «مفعِل» منه كالموعد «مَفْعل»، من وعَد يعِد، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾[٢]. وقد جاء وَبِق يبِق، بالكسر فيهما، وهو نادر، كورثَ يرِث، وجاء أيضا وبق يوبق وبقاً.

والغُرور، بضم الغين: ما يغترّ به من متاع الدنيا، والغَرور، بالفتح: الشيطان. والحائل: الزائل، والآفل: الغائب، أفل غاب يأفُلُ ويأفِل أفولا.

والسِّناد: دِعامة يُسنَد بها السقف. ونا كرها: فاعل، من نكرت كذا، أى أنكرته.

وقمِصت بأرجلها، قمَصَ الفرسُ وغيره يقمِص ويقمُص قمْصا وقِماصا، أى استن؛ وهو أن يرفع يديه ويطرحهما معا، ويعجن برجليه، وفى المثل المضروب لمن ذلّ بعدعزة: «ما لِعَير من قِماص».

وجمع فقال: «بأرجلها» وإنما للدابة رجلان، إمّا لأنّ المثنى قد يطلق عليه صيغة الجمع؛ كما فى قولهم: امرأة ذات أوراك ومآكم؛ وهما وَركان، وإمّا لأنه أجرى اليدين والرجلين مجرى واحد، فسماها كلّها أرجلا. ومن رواه «بالحاء» فهو جمع رَحْل الناقة.

وأقصدت: قتلت مكانها من غير تأخير.

---

(١) وردع، كخدم أيضاً.

(٢) سورة الكهف ٥٢

والأوهاق : جمع وَهَق بالتحريك ، وهو الحبل ، وقد يسكن مثل نَهْر ونهر . وأُعلقتُ المرء الأوْهَاق : جعلتَ الأوهاق عالقة به . والضنك : الضيق .

والمضجع : المصدر أو المكان ، والفعل ضَجَع الرجل جنبه بالأرض، بالفتح ، يضجَع ضجوعا وضجْما ، فهو ضاجع ؛ ومثله أضجع .

والمرجِع : مصدر رَجَع، ومنه؛ قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ ﴾؛[1] وهو شاذّ ، لأن المصادر من فَعَل يفعِل بكسر العين ؛ إنما يكون بالفتح .

قوله : «ومعاينة المحلّ» ،أى الموضع الذى يحُلُّ به المكلَّف بعد الموت؛ ولا بدّ لكلّ مكلف أن يعلم عَقِيب الموت مصيره ؛ إما إلى جنة وإما إلى نار .

وقوله : « ثواب العمل » يريد جزاء العمل ، ومراده الجزاء الأعمّ الشامل للسعادة والشقاوة ، لا الجزاء الأخصّ الذى هو جزاء الطاعة، وسمى الأعمّ ثوابا على أصل الحقيقة اللغوية ؛ لأنّ الثواب فى اللغة الجزاء ؛ يقال: قد أثابَ فلان الشاعرَ لقصيدة كذا ،أى جازاه

وقوله : « وكذلك الخلف بِعقْبِ السلف» الخلَف المتأخرون ، والسلَف المتقدمون؛ وعقْب هاهنا بالتسكين؛ وهو بمعنى بَعْد، جئت بعقْب فلان أى بعده ، وأصله جَرْى الفرس بعد جَرْيه ، يقال: لهذا الفرس عَقْب حسن. وقال ابن السكيت : يقال. جئت فى عُقْب شهر كذا ، بالضم ، إذا جئت بعد مايمضى كلّه، وجئت فى عَقِب ، بكسر القاف إذا جئت وقد بقيت منه بقية . وقد روى : « يَعقُب السلف » ، أى يتبع .

وقوله : « لا تقلع المنية »، أى لاتكفّ ، والاخترام: إذهاب الأنفس واستئصالها.

---

(١) سورة الأنعام ١٦٤

وارعوى : كفّ عن الأمر وأمسك ، وأصل فعله الماضي رَعَى برعو ، أي كفّ عن الأمر ، وفلان حسن الرَّعوة والرِّعوة والرُّعْوة والرَّعوى والارعواء . والاجترام ، افتعال من الجرم ، وهو الذنب ، ومثله الجريمة ، يقال : جَرَم وأَجْرَم بمعنى .

قوله : «يحتذون مثالا» أي يقتدون ، وأصله من «حذوت النعل بالنعل حَذْواً» ، إذا قدّرت كلّ واحدة على صاحبها .

قوله : «ويمضون أرسالا» ، بفتح الهمزة ، جمع رَسَل ، بفتح السين ، وهو القطيع من الإبل أو الغنم ، يقال : جاءت الخيل أرسالا ، أي قطيعا قطيعا .

وصَيّور الأمر : آخره وما يؤول إليه .

***

الأصل :

حَتّى إِذَا تَصَرَّمَتِ الْأُمُورُ ، وَتَقَضَّتِ الدُّهُورُ ، وَأَزِفَ النُّشُورُ ، أَخْرَجَهُمْ مِنْ ضَرَائِحِ الْقُبُورِ ، وَأَوْكارِ الطُّيُورِ ، وَأَوْجِرَةِ السِّباعِ ، وَمَطَارِحِ الْمَهالِكِ ؛ سِراعاً إِلَى أَمْرِهِ ، مُهْطِعِينَ إِلَى مَعادِهِ رَعِيلًا صُمُوتاً ، قِياماً صُفُوفاً ، يَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ ، وَيُسْمِعُهُمُ الدّاعِي ؛ عَلَيْهِمْ لَبُوسُ الِاسْتِكَانَةِ ، وَضَرَعُ الِاسْتِسْلَامِ وَالذِّلَّةِ . قَدْ ضَلَّتِ الْحِيَلُ ، وَانْقَطَعَ الْأَمَلُ ، وَهَوَتِ الْأَفْئِدَةُ كاظِمَةً ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ مُهَيْنِمَةً ، وَأَلْجَمَ الْعَرَقُ ، وَعَظُمَ الشَّفَقُ ، وَأُرْعِدَتِ الْأَسْمَاعُ ، لِزَبْرَةِ الدّاعِي إِلَى فَصْلِ الْخِطابِ وَمُقايَضَةِ الْجَزاءِ ، وَنَكالِ الْعِقَابِ ، وَنَوَالِ الثَّوابِ .

***

الشرح

تصرّمت الأمور: تقطّعت، ومثله «تقضّت الدهور». وأزف: قَرُب ودَنا، يأزف أزفا؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ (١) أى القيامة، الفاعل «آزف».

والضرائح: جمع ضريح وهو الشَّقّ فى وسَط القبر. واللَّحْد: ما كان فى جانب القبر، وضرحت ضَرْحا، إذا حفرت الضريح.

والأوكار: جمع وَكْر بفتح الواو، وهو عشّ الطائر، وجمع الكثرة وُكور، ووكر الطائر يكِرُ وَكْراً، أى دخل وَكْره، والوَكْن بالفتح مثل الوكر، أى العُشّ.

وأوجِرَة السِّباع: جمع وِجار بكسر الواو، ويجوز فتحها، وهو بيت السَّبُع والضَّبُع ونحوها.

مهطعين: مسرعين. والرَّعيل: القطعة من الخيل.

قوله عليه السلام: «ينفذهم البَصَر ويُسمعهم الداعى»، أى هم مع كثرتهم لا يخفى منهم أحد عن إدراك البارئ سبحانه، وهم مع هذه الكثرة أيضا لا يبقى منهم أحد إلّا إذا دعا داعى الموت سمع دعاءه ونداءه.

واللَّبوس، بفتح اللام: ما يلبس، قال:

البَسْ لِكُلِّ حالة لَبُوسَها ‌ ‌ إما نعيمَها وإما بوسَها (٢)

ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ (٣) يعنى الدُّروع.

والاستكانة: الخضوع. والضَّرع: الخشوع والضعف، ضَرَع الرجل يضرَع، وأضرعه غيره.

وكاظمة: ساكتة، كَظَم يكظِم كُظوما أى سكتَ، وقوم كُظَّم، أى ساكتون.

---

(١) سورة النجم ٥٧.

(٢) أنشده ابن السكيت لبيهس الفزارى، فى خبر ذكره صاحب اللسان فى ٨ : ٨٧.

(٣) سورة الأنبياء ٨١.

ومهينمة: ذات هَيْنَمة، وهى الصوت الخفىّ . وألجم العرقُ: صار لجاما، وفى الحديث. «إنَّ العرق ليَجْرى منهم حتى إنّ منهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من يبلغ صَدْره، ومنهم من يبلغ عنقه، ومنهم من يُلجمه، وهم أعظمهم مشقّة» .

وقال لى قائل: ما أرى لقوله عليه السلام: «المؤذّنون أطولُ الناس أعناقا يوم القيامة»، كثير فائدة، لأنّ طولَ العنق جدا ليس مما يرغب فى مثله، فذكرت له الخبر الوارد فى العرَق وقلتُ: إذا كان الإنسان شديد طول العنق كان عن إلجام العرق أبْعَد، فظهرت فائدة الخبر. ويروى «وأنجم العرق»، أى كثر ودام .

والشَّفق والشفقة، بمعنى، وهو الاسم من الإشفاق، وهو الخوف والحذر، قال الشاعر:

تَهْوَى حَيَاتِى وأهْوَى مَوْتَها شَفَقاً ... والموتُ أكرم نزّالٍ على الحُرَمِ[1]

وأرعدت الأسماع: عرتها الرِّعدة. وزَبْرة الداعى: صدته، ولا يقال الصوت زَبْرة إلا إذا خالطه زجر وانتهار، زبرتُه أزْبُرُه، بالضم .

وقوله: «إلى فصل الخطاب»، إلى هاهنا يتعلّق بالدّاعى. وفصل الخطاب: بتّ الحكومة التى بين الله وبين عباده فى الموقف، رزقنا الله المسامحة فيها بمنه! وإنما خص الأسماع بالرعدة، لأنها تحدُث من صوت الملك الذى يدعو النّاس إلى محاسبته .

والمقايضة: المعاوضة، قايضت زيداً بالمتاع، وهما قيِّضان، كما قالوا: بيِّعان .

فإن قلت: كيف يصحّ ما ذكره المسلمون من حَشْر الأجساد! وكيف يمكن ما أشارَ إليه عليه السلام من جَمْع الأجزاء البدنية من أوكار الطيور وأوجرة السباع، ومعلوم أنه قد يأكلُ الإنسانَ سَبُع، ويأكل ذلك السبُعَ إنسان آخر، ويأكل هذا الإنسانَ طائر، ثم يأكل الطائرَ إنسان آخر، والمأكول يصير أجزاء من أجزاء بدن الآكل، فإذا حشرت

---

(١) لإسحاق بن خلف، من أبيات له فى ديوان الحماسة — بشرح التبريزى ١ : ٢٧٥ .

الحيوانات كلها على ما تزعم المعتزلة ، فتلك الأجزاء المفروضة ، إما أن تحشر أجزاء من بنية الإنسان ، أو بنية السبع ، أو منهما معا ، فإنْ كان الأول وجب ألا يحشر السبع ، وإن كان الثانى وجبَ ألا يحشر الإنسان ، والثالث محال عقلا ، لأنّ الجزء الواحد لا يكون فى موضعين .

قلت : إن فى بدن كلّ إنسان وكلّ حيوان أجزاء أصلية وأجزاء زائدة ، فالأجزاء الزائدة يمكن أن تصير أجزاء بدن حيوان إذا اغتذى بها ، والأجزاء الأصلية لا يمكن ذلك فيها ، بل يحرسها الله تعالى من الاستحالة والتغيير ، وإذا كان كذلك ، أمكن الحشر بأن تعادَ الأجزاء الأصلية إلى موضعها الأول ، ولا فساد فى استحالة الأجزاء الزائدة ، لأنه لا يجب حشرُها ، لأنها ليست أصل بنْية المكلّف ، فاندفع الإشكال . وأما من يقول بالنفس الناطقة من أهل الملّة ، فلا يلزمه الجواب عن السؤال ، لأنه يقول : إنّ الأنفس إذا أزِف يوم القيامة ، خلقت لها أبدان غير الأبدان الأولى ، لأن المكلف المطيع والعاصى المستحق للثواب والعقاب عندهم ، هو النفس ، وأما البدن فآلة لها تستعمله استعمال الكاتب للقلم ، والنجار للفأس .

***

الأصْلُ

عِبادٌ مَخْلُوقُونَ اقْتِدَاراً ، وَمَرْبُوبُونَ اقْتِسَاراً ، وَمَقْبُوضُونَ احْتِضَاراً ، وَمُضَمَّنُونَ أجْدَاثاً ؛ وَكَائِنُونَ رُفَاتاً ، وَمَبْعُوثُونَ أفْرَاداً ، وَمَدِينُونَ جَزَاءً ، وَمُمَيَّزُونَ حِساباً . قَدْ أُمْهِلُوا فِي طَلَبِ الْمَخْرَجِ ، وَهُدُوا سَبِيلَ الْمَنْهَجِ ، وَعُمِّرُوا مَهَلَ الْمُسْتَعْتَبِ ، وَكُشِفَتْ عَنْهُمْ سُدَفُ الرِّيَبِ ، وَخُلُّوا لِمِضْمارِ الْجِيَادِ ، وَرَوِيَّةِ الارْتِيَادِ ، وَأَنَاةِ الْمُقْتَبِسِ الْمُرْتَادِ ، فِي مُدَّةِ الأجَلِ ، وَمُضْطَرَبِ الْمَهَلِ .

***

الشرح :

مربوبون : مملوكون . والاقتسار : الغَلَبة والقهر .

والاحتضار : حضور الملائكة عند الميت؛ وهو حينئذ محتضَر، وكانت العرب تقول: لبن محتضَر : أى فاسد ذو آفة؛ يعنون أنّ الجنّ حضرته ؛ يقال: اللبن محتَضَر فغطِّ إناءك.

والأجداث : جمع جَدَث ، وهو القبر ؛ واجتدث الرجل ؛ اتخذ جَدَثاً ، ويقال : « جَدَف » بالفاء .

والرُّفات : الحُطام ؛ تقول منه رَفَتَ الشىء فهو مرفوت .

ومدينون ، أى مجزيّون . والدِّيْن : الجزاء ؛ ومنه ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾[1] .

ومميَّزون حسابا ، من قوله تعالى: ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾[2]، ومن قوله تعالى: ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾[3]؛ كأنّ قوله: «ومبعوثون أفرادا»، مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ ﴾[4] وأصل التمييز على الفصل والتبيين .

قوله : « قد أمهلوا فى طلب المخرج » ، أى أنظِروا لِيفيئوا إلى الطاعة ويخلصوا التوبة، لأنّ إخلاصَ التوبة هو المخرج الذى مَنْ سلكه خرج من رِبْقَة المعصية. ومثله قوله: « وهُدُوا سبيل المنهج » ، والمنهج : الطريق الواضح .

والمستعتَب : المسترضَى ؛ استعتبت زيدا إذا استرضيته عَنّى ؛ فأنا مستعتِب له ، وهو مستعتَب . وأعتبنى ، أى أرضانى، وإنما ضرب المثل بمهل المستعتَب، لأنّ مَنْ يُطلب رضاه فى مجرى العادة لا يُرهَق بالتماس الرضا منه ؛ وإنما يمهل ليرضى بقلبه لا بلسانه .

والسُّدَف : جمع سُدْفة ؛ هى القطعة من الليل المظلم، هذا فى لغة أهل نجد ؛ وأما غيرهم

---

(١) سورة الفاتحة ٣

(٢) سورة يس ٥٩

(٣) سورة الواقعة ٧

(٤) سورة الأنعام ٩٤

فيجمل السدْفة الضوء ، وهذا اللفظ من الأضداد، وكذلك السَّدَف، بفتح السين والدال. وقد قيل : السُّدفة: اختلاط الضوء والظلمة كوقت ما بين طلوع الفجر إلى الإسفار، والسَّدَف: الصبح وإقباله ، وأسدف الليل ، أظلم ؛ وأسدف الصبح أضاء ، يقال: أسدِف الباب ، أى افتحه حتى يضىء البيت؛ وفى لغة هوازن «أسدفوا» ؛ أى أسرجوا، من السراج. والرِّيَب : الشبهة ، جمع رِيبة .

والمضمار : الموضع الذى تضمَّر فيه الخيل ، والمِضمار أيضا المدة التى تضمَّر فيها . والتضمير: أن تعلفَ الفرس حتى يسمَن؛ ثم تردّه إلى قوته الأولى؛ وذلك فى أربعين يوما، وقد يطلَق التَّضْمير على نقيض ذلك ؛ وهو التجويع حتى يهزل ويخفّ لحمُه. ضَمَر الفرسُ بالفتح، يضمُر بالضم، ضمورا، وجاء «ضَمُر الفرس» بالضم، وأضمرته أنا، وضمّرته فاضطمر هو، ولؤلؤ مضطمر : فى وسطه بعض الانضمام. رجل لطيف الجسم ، ضمِير البطن، وناقة ضامر وضامرة أيضاً . يقول : مكَّنهم الحكيم سبحانه وخلاَّهم وأعمالهم ، كما تمكَّن الخيل التى تستبق فى المِضمار ليعلم أيها أسبق .

والروِيّة : الفكرة، والارتياد: الطلب، ارتاد فلان الكلأ يرتاده ارتيادا : طلبه، ومثله راد الكلأ يروده رَوْداً ورِياداً ؛ وفى الحديث: « إذا بال أحدُكم فليرتدْ لبوله »، أى فليطلب مكانا ليِّنا أو منحدرا ، والرائد: الذى يرسله القوم فى طلب الكلأ ؛ وفى المثل : « الرائد لا يكذب أهله » . والأناة : التؤدة والانتظار ، مثل القناة .

وتأنّى فى الأمر: ترفّق، واستأنى فلان بفلان، أى انتظر به، وجاء الأناء ، بالفتح والمدّ، على « فَعَال » قال الحطيئة :

وَأَكْرَيْتُ العَشَاءَ إلى سُهَيْلٍ أو الشِّعْرى فطال بِىَ الأَنَاءُ [1]

والمقتبِس : متعلّم العلم هاهنا، ولا بدّ له من أناة ومَهَل ليبلغُ حاجتَه، فضرب مثلا، وجاء

---

(١) ديوانه ٢٥

فى بعض الروايات: « ومقبوضون اختضارا » بالخاء المعجمة؛ وهو موت الشاب غضًا أخضر، أى مات شابا ، وكان فتيان يقولون لشيخ: أجزرت يا أبا فلان، فيقول: أىْ بنىّ، وتختضرون! أجزّ الحشيش : آن أنْ يُجزّ، ومنه قيل للشيخ كاد يموت: قد أجزّ ، والرواية الأولى أحسن، لأنها أعمّ .

وفى رواية « لمضمار الخيار »، أى للمضمار الذى يستبق فيه الأبرار الأتقياء إلى رضوان الله سبحانه .

***

الأصْلُ :

فيالها أمثالًا صائبةً ، ومَواعِظَ شافِيةً ، لَوْ صادَفَتْ قُلوبًا زاكِيةً ، وأسماعًا واعِيةً ، وآراءً عازِمَةً ، وألبابًا حازِمَةً !

فاتقُوا اللهَ تَقِيَّةَ مَنْ سَمِعَ فَخَشَعَ ، وَاقْتَرَفَ فاعْتَرَفَ ، وَوَجِلَ فَعَمِلَ ، وَحاذَرَ فبادَرَ ، وَأيقَنَ فَأحْسَنَ ، وَعُبِّرَ فاعْتَبَرَ ، وَحُذِّرَ فَحَذِرَ ، وَزُجِرَ فازْدَجَرَ ، وَأجابَ فَأنابَ ، وَراجَعَ فتابَ ، وَاقْتَدَى فاحْتَذَى ، وَأُرِيَ فَرَأى ، فَأسْرَعَ طالِبًا ، وَنَجا هارِبًا ؛ فَأفادَ ذَخِيرَةً ، وأطابَ سَرِيرَةً ، وعَمَّرَ مَعادًا ، واسْتَظْهَرَ زادًا ، لِيَوْمِ رَحِيلِهِ ، وَوَجْهِ سَبِيلِهِ ، وحالِ حاجَتِهِ ، وَمَوْطِنِ فاقَتِهِ ، وَقَدَّمَ أمامَهُ لِدارِ مُقامِهِ .

فاتقُوا اللهَ عِبادَ اللهِ جِهَةَ ما خَلَقَكُمْ لَهُ ، وَاحْذَرُوا مِنْهُ كُنْهَ ما حَذَّرَكُمْ مِنْ نفسِهِ ، وَاسْتَحِقُّوا مِنْهُ ما أعَدَّ لَكُمْ بِالتَّنَجُّزِ لِصِدْقِ مِيعادِهِ ، والحَذَرِ مِنْ هَوْلِ مَعادِهِ .

***

الشّرْحُ :

صائبة : غير عادلة عن الصواب ، صاب السهم يصوب صَوْبَةً ، أى قصد ولم يَجُرْ ،

وصاب السهمُ القرطاسَ يَصِيبه صَبْياً لغة فى « أصابه » ، وفى المثل : مع الخواطئ سهم صائب.

وشافية : تبرئ من مرض الجهل والهوى . والقلوب الزاكية : الطاهرة ، والأسماع الواعية : الحافظة . والآراء العازمة : ذات العزم . والألباب : العقول ، والحازمة : ذات الحَزْم ، والحزْم : ضبط الرجُلِ أمرَه .

وخشع الرجل ، أى خضع . واقترف : اكتسب ، ومثله قرَف يقرِف بالكسر ، يقال : هو يقرِفُ لعياله ، أى يكسب .

ووجِل الرجل خاف ، وَجَلاً ، بفتح الجيم ، ومستقبله يَوْجَل وياجَل وييجَ وبِيجَل ، بكسر الياء المضارعة .

وبادر : سارع . وعبَّر : أى أرِىَ العِبَر مرارا كثيرة ، لأنَّ التشديد هاهنا دليل التكثير . فاعتبر ، أى فاتّعظ . والزَّجْر : النهى والمنع ، زُجِر أى منع ، وازدجر مطاوع ازدجر ؛ اللفظ فيهما واحد ، تقول : ازدجرت زيدا عن كذا فازدجر هو ، وهذا غريب ؛ وإنما جاء مطاوع ازدجر فى « زجر » لأنّهما كالشىء الواحد ؛ وفى بعض الروايات « ازدُجر فازدجر » ، فلا يحتاج مع هذه الرواية إلى تأويل .

وأناب الرجل إلى الله ، أى أقبل وتاب . واقتدى بزيد ؛ فعل مثله فعله ، واحتذى مثله .

قوله عليه السلام : « فأفاد ذخِيرة » ، أى فاستفاد ؛ وهو من الأضداد ، أفدت المال زيدا أعطيته إياه ؛ وأفدت أنا مالا ؛ أى استفدته واكتسبته .

قوله عليه السلام : « فاتقوا الله عباد الله جهة ما خلقكم له » . نصب « جهة » بفعل مقدر ، تقديره : « واقصدوا جهة ما خلقكم له » يعنى العبادة ، لأنه تعالى قال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1] . فحذف الفعل ، واستغنى عنه بقوله : « فاتقوا الله » لأنّ التقوى

(١) سورة الذاريات ٥٦ .

ملازمة لقصد المكلّف العبادة ، فدلّت عليه واستغنى بها عن إظهاره .

والكُنْهُ : الغاية والنهاية ؛ تقول : أعرفه كُنْهَ المعرفة ؛ أى نهايتها .

ثم قال عليه السلام : « واستحقّوا منه ما أعدّ لكم » ، أى اجعلوا أنفسكم مستحقين لثوابه الذى أعدّه لكم إن أطعتم .

والباء فى « بالتنجّز » متعلق بـ « استحقوا » ويقال : فلان يتنجّز الحاجة ، أى يستنجحها ويطلب تعجّلها ، والناجز : العاجل ؛ يقال : « ناجزاً بناجز » ؛ كقولك : « يداً بيد » أى تعجيلا بتعجيل ؛ والتنجّز من المكلّفين بصدق ميعاد القديم سبحانه ؛ وهو مواظبتهم على فعل الواجب ، وتجنُّب القبيح . و « والحذر » مجرور بالعطف على « التنجّز » ؛ لا على « الصدق » ؛ لأنه لا معنى له .

***

الأصْلُ :

ومنها :

جَعَلَ لَكُمْ أَسْمَاعاً لِتَعِيَ مَاعَنَاهَا ، وَأَبْصَاراً لِتَجْلُوَ عَنْ عَشَاهَا ، وَأَشْلَاءً جَامِعَةً لِأَعْضَائِهَا ، مُلَائِمَةً لِأَحْنَائِهَا ، فِي تَرْكِيبِ صُوَرِهَا ؛ وَمُدَدِ عُمُرِهَا ، بِأَبْدَانٍ قَائِمَةٍ بِأَرْفَاقِهَا ، وَقُلُوبٍ رَائِدَةٍ لِأَرْزَاقِهَا ، فى مُجَلِّلَاتِ نِعَمِهِ ، وَمُوجِبَاتِ مِنَنِهِ ، وَحَوَاجِزِ عَافِيَتِهِ .

وَقَدَّرَ لَكُمْ أَعْمَاراً سَتَرَهَا عَنْكُمْ ، وَخَلَّفَ لَكُمْ عِبَراً مِنَ آثَارِ الْمَاضِينَ قَبْلَكُمْ ، مِنْ مُسْتَمْتَعِ خَلَاقِهِمْ ، وَمُسْتَفْسَحِ خَنَاقِهِمْ . أَرْهَقَتْهُمُ الْمَنَايَا دُونَ الْآمَالِ ، وَشَذَّبَهُمْ عَنْهَا تَخَرُّمُ الْآجَالِ ، لَمْ يَمْهَدُوا فى سَلَامَةِ الْأَبْدَانِ ، وَلَمْ يَعْتَبِرُوا فى أُنُفِ الْأَوَانِ .

***

الشرح :

قوله : « لتعى ما عناها » ، أى لتحفظ وتفهم ما أهمّها ؛ ومنه الأثر المرفوع : « مِنْ حُسْنِ إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » .

ولتجلو ، أى لتكشف .

وعن ها هنا زائدة ؛ ويجوز أن تكون بمعنى « بَعْد » كما قال :

* لَقِحَتْ حَرْبُ وائِلٍ عَنْ حِيالِ[1] *

أى بعد حِيال ، فيكون قد حذف المفعول ، وحذفه جائز ، لأنه فضلة ؛ ويكون التقدير : لتجلوَ الأذى بعد عشاها ، والعشا ، مقصور : مصدر عَشِيَ ، بكسر الشين ، يَعْشَى ؛ فهو عَشٍ ، إذا أبصر نهارا ولم يبصر ليلا .

والأشلاء : جمع شِلْو ، وهو العضو .

فإن قلت : فأىّ معنى فى قوله : أعضاء تجمع أعضاء تجمع أعضاءها ؟ وكيف يجمع الشىء نفسه ؟ قلت : أراد عليه السلام بالأشلاء هاهنا الأعضاء الظاهرة ، وبالأعضاء الجوارح الباطنة ؛ ولا ريب أنّ الأعضاء الظاهرة تجمع الأعضاء الباطنة وتضمها . والملائمة : الموافِقة . والأحناء : الجوانب والجهات . ووجه الموافقة والملاءمة أنّ كون اليد فى الجانب أوْلَى من كونها فى الرأس أو فى أسفل القدم ؛ لأنها إذا كانت فى الجانب كان البطش وتناول ما يراد ودَفْع ما يؤذى أسهل ؛ وكذلك القول فى جعل العين فى الموضع الذى جعلت به ، لأنّها كَدَيْدَبان السفينة البحرية ، ولو جعلت فى أمّ الرأس لم ينتفع بها هذا الحدّ من الانتفاع الآن ؛ وإذا تأملت سائر أدوات الجسد وأعضائه وجدتها كذلك .

---

(١) للحارث بن عباد ؛ وأوله :

* قَرِّبا مَرْبِطَ النعامَةِ مِنِّى *

ثم قال: «فى تركيب صورها»، كأنه قال: مركبة أو مصورة، فأتى بلفظة «فى» كما تقول: ركب بسلاحه وفى سِلاحه، أى متسلحا.

وقوله: «بأرْفاقها»، أى بمنافعها جمع رِفْق، بكسر الراء، مثل حِمْل وأحمال، وأرفقت فلانا، أى نفعته. والمِرْفق من الأمر: ما ارتفقت به وانتفعت، ويروى: «بأرْماقها»، والرَّمَق: بقية الروح.

ورائدة: طالبة. ومجلِّلات النعم، تجلّل الناسَ، أى تعمّهم؛ من قولهم: «سَحاب مجلِّل» أى يطبّق الأرض، وهذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، كقولك: أنا فى سابغ ظلّك وعميم فضلك، كأنه قال: فى نعمه المجلِّلة؛ وكذلك القول فى موجبات مِننه، أى فى مننه التى توجب الشُّكر.

وفى ها هنا متعلقة بمحذوف، والموضع نصب على الحال.

ثم قال: «وحواجز عافيته»، الحواجز: الموانع، أى فى عافية تحجز وتمنع عنكم المضارّ. ويروى «وحواجز بَلِيَّتِه»، وقد فسر قوله: «حواجز عافيته»؛ على أن يراد به ما يحجز العافية ويمنعها عن الزوال والعدم.

قوله عليه السلام: «من مستمتَع خَلاقهم»، الخلاق: النصيب؛ قال تعالى: ﴿ وَمَالَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ [1]، وقال تعالى: ﴿ فَٱسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ ﴾ [2]، وتقدير الكلام: خلّف لكم عِبَراً من القرون السالفة، منها تمتعهم بنصيبهم من الدنيا ثمّ فناؤهم، ومنها فسحة خناقهم [3] وطول إمهالهم، ثم كانت عاقبتهم الهلكة.

وأرهقتهم المنايا: أدركتهم مسرعة.

---

(١) سورة البقرة ٢٠٠ (٢) سورة التوبة ٦٩

(٣) الخناق، بالفتح: حبل يختنق به.

والمرهَق : الذى أدرك ليقتل . وشذّبهم عنها : قطعهم وفرقهم؛ من تشذيب الشجرة؛ وهو تقشيرها .

وتخرّمت زيدا المنية : استأصلته واقتطعته .

ثم قال : « لم يمهدوا فى سلامة الأبدان »، أى لم يمهدوا لأنفسهم ؛ من تمهيد الأمور وهو تسويتها وإصلاحها .

وأنف الأوان: أوله، يقال: روضةٌ أُنُف لم ترْعَ قبل، وكأس أنف: لم يُشْرَب بها قبلُ .

***

الأصلُ :

فَهَلْ يَنْتَظِرُ أَهْلُ بَضاضةِ الشَّبابِ إِلَّا حَوانِىَ الْهَرَمِ ، وَأَهْلُ غَضارَةِ الصِّحَّةِ إِلَّا نَوازِلَ السَّقَمِ ، وَأَهْلُ مُدَّةِ الْبَقاءِ إِلَّا آوِنَةَ الْفَناءِ ، مَعَ قُرْبِ الزِّيالِ ، وَأُزُوفِ الِانْتِقالِ ، وَعَلَزِ الْقَلَقِ ، وَأَلَمِ الْمَضَضِ ، وَغُصَصِ الْجَرَضِ ، وَتَلَفُّتِ الِاسْتِغاثَةِ بِنُصْرَةِ الْحَفَدَةِ وَالْأَقْرِباءِ ، وَالْأَعِزَّةِ وَالْقُرَناءِ ، فَهَلْ دَفَعَتِ الْأَقارِبُ ، أَوْ نَفَعَتِ النَّوَاحِبُ ، وَقَدْ غُودِرَ فِي مَحَلَّةِ الْأَمْواتِ رَهِيناً ، وَفى ضِيقِ الْمَضْجَعِ وَحِيداً ، قَدْ هَتَكَتِ الْهَوامُّ جِلْدَتَهُ ، وَأَبْلَتِ النَّواهِكُ جِدَّتَهُ ، وَعَفَتِ الْعَواصِفُ آثارَهُ ، وَمَحا الْحَدَثانُ مَعالِمَهُ ، وَصارَتِ الْأَجْسادُ شَحِبَةً بَعْدَ بَضَّتِها ، وَالْعِظامُ نَخِرَةً بَعْدَ قُوَّتِها ، وَالْأَرْواحُ مُرْتَهَنَةً بِثِقَلِ أَعْبائِها ، مُوقِنَةً بِغَيْبِ أَنْبائِها ، لَا تُسْتَزادُ مِنْ صالِحِ عَمَلِها ، وَلَا تُسْتَعْتَبُ مِنْ سَيِّءِ زَلَلِها .

***

الشرح :

البَضَاضة : مصدر، من بَضَضت يا رجُل ، بضِضت ، بالفتح والكسر بضاضةً وبضُوضة ، ورجل بَضّ ، أى ممتلئ البدن رقيق الجلد ، وامرأة بَضّة .

وحوانى الهرم : جمع حانية ؛ وهى العلّة التى تَحْنِي شِطَاط(١) الجسد ، وتميله عن الاستقامة .

والهرَم : الكِبَر . والغضارة : طيب العيش ، ومنه المثل : أباد الله غضراءهم ، أى خيرهم وخِصْبهم .

وآونة الفناء جمع أوَان ؛ وهو الحِيْن ، كزمان وأزمنة ، وفلان يصنع ذلك الأمر آونة كقولك : تارات ، أى يصنعه مراراً ويدَعه مراراً .

والزِّيال : مصدر زايله مزايلة وزِيالاً ، أى فارقه .

والأزوف : مصدر أزِف ، أى دنا .

والعَلَز : قلق وخِفّة وهلع يصيب الإنسان ، وقد عَلِز بالكسر ، وبات عَلِزاً ، أى وجعا قلقا . والمضض : الوجع ، أمضَّنِي الجرح ومَضَّنى ؛ لغتان ، وقد مَضِضْت يا رجل ، بالكسر .

والغُصَص : جمع غُصّة ، وهى الشجا ، والغَصَص بالفتح : مصدر قولك غَصِصت يا رجل تَغص بالطعام ، فأنت غاصٌّ وغصّان ، وأغصصتُه أنا .

والجريض : الرِّيق يغصّ به ؛ جَرَض بريقه بالفتح ، يَجْرِض بالكسر ، مثل كَسَر يكسِر ؛ وهو أن يبلع ريقه على همّ وحزن بالجهد . والجريض : الغُصّة ، وفى المثل : « حال

---

(١) الشطاط ، بالفتح والكسر : الطول واعتدال القوام .

الجريض دون القريض » ؛ وفلان يجرَض بنفسه إذا كان يموت ، وأجرضه الله بريقه أغصّه .

والحفَدة : الأعوان والخدم ، وقيل : ولد الولد ، واحدهم حافد ؛ والباء فى « بنُصرة الحفدة » متعلق بالاستعانة ؛ يقول : إن الميّت عند نزول الأمر به يتلفّت مستغيثاً بنصرة أهله وولده ، أى يستنصُر يستصرخ بهم .

والنوّاحب : جمع ناحبة ، وهى الرافعة صوتها بالبكاء ، ويروى : « النوادب » .

والهوامّ : جمع هامّة؛ وهى مايخاف ضرره من الأحناش؛ كالعقارب والعناكب ونحوها والنواهك : جمع ناهكة وهى ما ينهَك البدن ، أى يبليه .

وعفَتْ : دَرَسَت ، ويروى بالتشديد . وشَجِبة : هالكة ، والشَّجَب : الهلاك ، شجِب الرجل بالكسر ، يَشجَب ، وجاء شَجَب ، بالفتح يشجُبُ بالضم ؛ أى هلك ؛ وشَجَبه الله يشجُبه ، يتعدّى ولا يتعدى .

ونخِرَة : بالية . والأعباء : الأثقال ، واحدها عِبْء .

وقال : « موقنة بغيب أنبائها » ، لأنّ الميت يعلم بعد موته ما يصير إليه حاله من جنة أو نار .

ثم قال : إنها لا تكلف بعد ذلك زيادة فى العمل الصالح ، ولا يطلب منها التوبة من العمل القبيح ؛ لأن التكليف قد بطل .

***

الأصْلُ :

أَوَلَسْتُمْ أَبْنَاءَ الْقَوْمِ وَالْآبَاءِ ، وَإِخْوَانَهُمْ وَالْأَقْرِبَاءِ ، تَحْتَذُونَ أَمْثِلَتَهُمْ ، وَتَرْكَبُونَ قِدَّتَهُمْ وَتَطَئُونَ جَادَّتَهُمْ ؛ فَالْقُلُوبُ قَاسِيَةٌ عَنْ حَظِّهَا، لَاهِيَةٌ عَنْ رُشْدِهَا،

سالِكَةٌ فِي غَيْرِ مِضْمَارِهَا ، كَأَنَّ الْمَعْنِيَّ سِوَاهَا ، وَكَأَنَّ الرُّشْدَ فِي إِحْرَازِ دُنْيَاهَا .

***

الشَّرْحُ :

القِدَّة ، بالدال المهملة وبكسر القاف : الطريقة ، ويقال لكل فِرْقة من الناس إذا كانت ذات هَوًى على حدة : قِدّة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴾[1] ، ومن رواه : « ويركبون قُذَّتهم » بالذال المعجمة وضم القاف أراد الواحدة من قُذذ السهم ؛ وهى ريشه، يقال : حذوَ القُذّة بالقُذّة، ويكون معنى : « وتركبون قُذّتهم » ؛ تقتفون آثارهم وتُشابهون بهم فى أفعالهم .

ثم قال : وتطئون جادّتهم ؛ وهذه لفظة فصيحة جداً .

ثم ذكر قساوة القلوب وضلالها عن رشدها ، وقال : « كأنّ المعنيّ سواها » ؛ هذا مثل قول النبيّ صلى الله عليه وآله : « كأنّ الموت فيها على غيرنا كُتِب ، وكأنّ الحق فيها على غيرنا وجب » .

***

الأَصْلُ :

وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَجَازَكُمْ عَلَى الصِّرَاطِ وَمَزَالِقِ دَحْضِهِ ، وَأَهَاوِيلِ زَلَلِهِ ، وَتَارَاتِ أَهْوَالِهِ ، فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ ؛ تَقِيَّةَ ذِي لُبٍّ شَغَلَ التَّفَكُّرُ قَلْبَهُ ، وَأَنْصَبَ الْخَوْفُ بَدَنَهُ ، وَأَسْهَرَ التَّهَجُّدُ غِرَارَ نَوْمِهِ ، وَأَظْمَأَ الرَّجَاءُ هَوَاجِرَ يَوْمِهِ ، وَظَلَفَ الزُّهْدُ شَهَوَاتِهِ ،

---

(١) سورة الجن ١١ .

وَأَوْجَفَ الذِّكْرُ بِلِسَانِهِ ، وَقَدَّمَ الْخَوْفَ لِأَمَانِهِ ، وَتَنَكَّبَ الْمَخَالِجَ عَنْ وَضَحِ السَّبِيلِ ، وَسَلَكَ أَقْصَدَ الْمَسَالِكِ إِلَى النَّهْجِ الْمَطْلُوبِ؛ وَلَمْ تَفْتِلْهُ فَاتِلَاتُ الْغُرُورِ ، وَلَمْ تَعْمَ عَلَيْهِ مُشْتَبِهَاتُ الْأُمُورِ ؛ ظَافِراً بِفَرْحَةِ الْبُشْرَى ، وَرَاحَةِ النُّعْمَى، فِي أَنْعَمِ نَوْمِهِ وَآمَنِ يَوْمِهِ .

قَدْ عَبَرَ مَعْبَرَ الْعَاجِلَةِ حَمِيداً ، وَقَدَّمَ زَادَ الْآجِلَةِ سَعِيداً ، وَبَادَرَ عَنْ وَجَلٍ ، وَأَكْمَشَ فِي مَهَلٍ، وَرَغِبَ فِي طَلَبٍ ، وَذَهَبَ عَنْ هَرَبٍ، وَرَاقَبَ فِي يَوْمِهِ غَدَهُ، وَرُبَّمَا نَظَرَ قُدُماً أَمَامَهُ .

فَكَفَى بِالْجَنَّةِ ثَوَاباً وَنَوَالًا ، وَكَفَى بِالنَّارِ عِقَاباً وَوَبَالًا ! وَكَفَى بِاللهِ مُنْتَقِماً وَنَصِيراً ! وَكَفَى بِالْكِتَابِ حَجِيجاً وَخَصِيماً !

***

الشرح :

وقال أصحابنا رحمهم الله تعالى : الصراط الوارد ذكرُه في الكتاب العزيز؛ هو الطريق لأهل الجنة إلى الجنة ، ولأهل النار إلى النار بعد المحاسبة ، قالوا : لأنّ أهلَ الجنة ممرّهم على باب النار ، فمن كان من أهل النار عُدِل به إليها ، وقذف فيها ، ومَنْ كان من أهل الجنّة مرّ بالنار مرورا نجا منها إلى الجنة ، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾(١)؛ لأنّ ورودها هو القرب منها ، والدنوّ إليها ، وقد دلّ القرآن على سُور مضروب بين مكان النار وبين الموضع الذى يجتازون منه إلى الجنة في قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾(٢).

---

(١) سورة مريم ١٩ (٢) سورة الحديد ١٣

قالوا: ولا يصحّ ماروى فى بعض الأخبار أن الصراط أدقّ من الشعر وأحدّ من السيف، وأنّ المؤمن يقطعه كمرور البرق الخاطف ، والكافر يمشى عليه حَبْواً ، وأنه ينتفض بالذين عليه حتى تتزايل مفاصلُهم . قالوا :لأنّ مثل ذلك لا يكون طريقاً للماشى ،ولا يتمكّنُ من المشى عليه ؛ ولو أمكن لم يصحّ التكليف فى الآخرة ، ليؤمر العُقلاء بالمرور عليه على وجه التعبّد .

ثم سأل أصحابنا أنفسهم ، فقالوا : أىّ فائدة فى عمل هذا السّور ؟ وأىّ فائدة فى كون الطريق الذى هو الصراط منتهياً إلى باب النار منفرجاً منها إلى الجنة ؟ ألستم تعللون أفعال البارئ تعالى بالمصالح ، والآخرة ليست دارَ تكليف ليفعل فيها هذه الأفعال للمصالح !

وأجابوا بأنّ شعورَ المكلّفين فى الدنيا بهذه الأشياء مصالحلهم ، وألطاف فى الواجبات العقلية ، فإذا أعلِمَ المكلفون بهاوجب إيقاعُها على حسب ماوعِدوا وأخبِروا به ، لأنّ الله صادق لاخُلْف فى أخباره .

وعندى أنه لا يمتنع أن يكونَ الصراط على ماوردت به الأخبار ، ولا مانع من ذلك قولهم : لا يكون طريقاً للماشى ، ولا يتمكن من المشى عليه مسلم ، ولكنْ لم لا يجوزُ أن يكونَ فى جمله على هذا الوجه والإخبار عن كيفيته هذه مصلحة للمكلّفين فى الدنيا ؟ وليس عدم تمكُّن الإنسان من المشى عليه بمانع من إيقاعه على هذا الوجه ،لأنّ المراد من هذا وأمثاله هو التخويف والزجر .

وأما قولهم : الآخرة ليست دار تكليف، فلقائل أن يقول لهم : لم قلتمْ :إنه تكليف؟ ولم لا يجوز أن يكونَ المكلَّفُونَ مضطرين إلى سلوكه اضطراراً ؟ فالمؤمن يخلُق الله فيه الثبات والسكينة ، والحركة السريعة فينجُو ويسلم ، والكافر يخلق فيه ضدّ ذلك فيهوى ويعطب ولا مانع من ذلك .

يقال : مكان دَحْض ودَحَض ، بالتحريك ، أى زَلَق ، وأدحضتُه أنا أزلقتُه فدحَض هو .

والأهاويل : الأمور المفزعة . وتارات أهواله ، كقوله :دفَعات أهواله ؛ وإنما جعل أهواله تاراتٍ ؛ لأنّ الأمور الهائلة إذا استمرّت لم تكن فى الإزعاج والترويع ، كما تكون إذا طرأت تارة ، وسكنت تارة .

وأنصب الخوف بدنه :أتعب ؛ والنَّصَب :التعب . والتهجّد هنا: صلاة الليل،وأصلُه: السهر ؛ وقد جاء التهجّد بمعنى النوم أيضا ؛ وهو من الأضداد .

الغِرار : قلّة النوم ؛وأصله قلّة لبن الناقة ؛ ويقال : غارت الناقة تغار غِرارا قل لَبَنُها.

فإن قلت : كيف توصف قِلّةُ النوم بالسهر ؛ وإنما يوصف بالسَّهَر الإنسان نفسه ؟

قلت : هذا من مجازات كلامهم ؛ كقولهم ليل ساهر ، وليل نائم .

والهواجر : جمع هاجِرة ؛ وهى نصف النهار عند اشتداد الحرّ ، يقال : قد هَجَّر النهار، وأتينا أهلنا مُهَجِّرِينَ ، أى سائرين فى الهاجِرة .

وظلَف : منع ، وظلِفت نفسُ فلان ، بالكسر عن كذا ؛ أى كفّتْ .

وأوْجَف : أسرع ، كأنّه جعل الذِّكْر لشدّة تحريكه اللسان مُوجفا به ، كما توجِف الناقة براكبها ، والوجِيف : ضرْب من السَّيْر .

ثم قال : « وقدم الخوف لأمانه » ، اللام هاهنا لام التعليل ، أى قدّم خوفه ليأمن.

والمخالج : الأمور المختلجة ، أى الجاذبة ، خَلَجه واختلجه ، أى جذَبه .

وأقصد المسالك : أقومها . وطريق قاصد ، أى مستقيم .

وفتله عن كذا ، أى ردّه وصرفه ، وهو قلب « لفت » .

ويروى : « قد عَبَر مَعْبر العاجلة حميدا ، وقدم زاد الآجلة سعيدا » .

وأكمش : أسرع، ومثله انكمش ورجل كِمش أى سريع ، وقد كمُش بالضم كماشة فهو كِمش وكميش ، وكمّشته تكميشا : أعجلته .

قوله : « ورغب فى طلب ، وذهب عن هرب » ، أى ورغب فيما يطلب مثله ، وفرّ عما يهرب من مثله ، فأقام المصدر مقام ذى المصدر .

ونظر قُدُما أمامه ، أى ونظر ما بين يديه مقدما لم يَنْثَنِ ولم يعرّج ، والدال مضمومة ها هنا .

قال الشاعر يذم امرأة :

تمضى إذا زُجِرَتْ عَنْ سوأةٍ قُدُماً　　كأنها هَدَمٌ فى الجفْرِ منقاضُ[(1)]

ومن رواه بالتسكين ، جاز أن يعنى به هذا ويكون قد خفف ، كما قالوا : حُلْم وحُلُم . وجاز أن يجعله مصدرا ، من قَدَمَ الرجل بالفتح ، يقدَم قَدْما ، أى تقدم ، قال الله تعالى : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ﴾[(2)] ، أى يتقدمهم إلى ورودها ؛ كأنه قال : «ونظرَ بين يديه متقدماً لغيره وسابقا إياه إلى ذلك » . والباء فى « بالجنة » و « بالنار » و « بالله » و « بالكتاب » زائدة ، والتقدير : كفى الله ، وكفى الكتاب !

***

---

(١) الهدم بالتحريك : ما تهدم من نواحى البئر فسقط فى جوفها . والجفر : البئر الواسعة لم تطو . والبيت أنشده ابن السيراف عن ابن دريد مع أبيات هى :

قد رابنى مِنكِ يا أسماء إعراضُ　　فدام منّا لكم مقتٌ وإبغاضُ
إن تبغضينى فما أحببتُ غانيةً　　يروضُها من لِئامِ النّاسِ روّاضُ
تمضى إذا زُجِرَتْ عن سوأة قُدُماً　　كأنّها هَدَمٌ فى الجفْرِ منقاضُ
قُلْ للغوانى أما فيكُنّ فاتكةٌ　　تعلو اللئيمَ بضربٍ فيه إمحاضُ

وانظر اللسان ١٥ : ٣٧٠ .

(٢) سورة هود ٩٨ .

الأَصْلُ :

أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِى أَعْذَرَ بِمَا أَنْذَرَ ، وَاحْتَجَّ بِمَا نَهَجَ ، وَحَذَّرَكُمْ عَدُوًّا نَفَذَ فِي الصُّدُورِ خَفِيًّا ، وَنَفَثَ فِي الآذَانِ نَجِيًّا ؛ فَأَضَلَّ وَأَرْدَى ، وَوَعَدَ فَمَنَّى ، وَزَيَّنَ سَيِّئَاتِ الْجَرَائِمِ ، وَهَوَّنَ مُوبِقَاتِ الْعَظَائِمِ ، حَتَّى إِذَا اسْتَدْرَجَ قَرِينَتَهُ ، وَاسْتَغْلَقَ رَهِينَتَهُ ؛ أَنْكَرَ مَا زَيَّنَ ، وَاسْتَعْظَمَ مَا هَوَّنَ ، وَحَذَّرَ مَا أَمَّنَ .

***

الشَّرْحُ

« أعذر بما أنذر » ، ما ها هنا مصدرية ، أى أعذر بإنذاره . ويجوز أن تكونَ بمعنى « الذى » .

والعدوّ المذكور : الشيطان .

وقوله : « نَفَذ فى الصدور » و « نفث فى الآذان » كلام صحيح بديع . وفى قوله : « نفذ فى الصدور » ، مناسبة لقوله صلى الله عليه وآله : « الشيطان يجرى من بنى آدم مجرى الدم » ، والنجىّ : الذى يسارّهُ ، والجمع الأنجية ، قال .

* إنّى إذا ما القومُ كانُوا أنْجِيَهْ (١) *

وقد يكون النجىّ جماعة مثل الصديق ، قال الله تعالى : ﴿ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ (٢) ، أى متناجين .

القرينة هاهنا : الإنسان الذى قارنه الشيطان ، ولفظه لفظ التأنيث ؛ وهو مذكّر ، أراد القرين ، قال تعالى : ﴿ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ (٣) ، ويجوز أن يكون أراد بالقرينة النفس ، ويكون

---

(١) بعده :

واضطربَ القومُ اضطرابَ الأرشيَهْ   هُناكَ أوصِينى ولا تُوصِى بِيَهْ

والرجز لسحيم بن وثيل اليربوعى . اللسان ٢٠ : ١٧٩

(٢) سورة يوسف ٨٠   (٣) سورة الزخرف ٣٨ .

الضمير عائداً إلى غير مذكور لفظا لما دلّ المعنى عليه ؛ لأن قوله : « فأضل وأردى ، ووعد فمنّى » معناه أضلّ الإنسان وأردى ، ووعده فمنّى ، فالمفعول محذوف لفظا ؛ وإليه رجع الضمير على هـذا الوجه ؛ ويقال : غَلِقَ الرّهن إذا لم يفتكّه الراهن فى الوقت المشروط ، فاستحقه المرتهن .

وهذا الكلام مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ . . . ﴾ الآية(١) .

***

الأصل

ومنها فى صفة خلق الإنسان :

أَمْ هَذَا الَّذِي أَنْشَأَهُ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ ، وَشُغُفِ الْأَسْتَارِ ؛ نُطْفَةً دِهَاقاً ، وَعَلَقَةً مِحَاقاً ، وَجَنِيناً وَرَاضِعاً ، وَوَلِيداً وَيَافِعاً ؛ ثُمَّ مَنَحَهُ قَلْباً حَافِظاً ، وَلِسَاناً لَافِظاً ، وَبَصَراً لَاحِظاً ، لِيَفْهَمَ مُعْتَبِراً ، وَيُقَصِّرَ مُزْدَجِراً ؛ حَتَّى إِذَا قَامَ اعْتِدَالُهُ ، وَاسْتَوَى مِثَالُهُ ؛ نَفَرَ مُسْتَكْبِراً ، وَخَبَطَ سَادِراً ؛ مَاتِحاً فِي غَرْبِ هَوَاهُ ، كَادِحاً سَعْياً لِدُنْيَاهُ ؛ فِي لَذَّاتِ طَرَبِهِ ، وَبَدَوَاتِ أَرَبِهِ ؛ ثُمَّ لَا يَحْتَسِبُ رَزِيَّةً ، وَلَا يَخْشَعُ تَقِيَّةً ؛ فَمَاتَ فِي فِتْنَتِهِ غَرِيراً ، وَعَاشَ فِي هَفْوَتِهِ يَسِيراً ، لَمْ يُفِدْ عِوَضاً ، وَلَمْ يَقْضِ مُفْتَرَضاً .

دَهَمَتْهُ فَجَعَاتُ الْمَنِيَّةِ فِي غُبَّرِ جِمَاحِهِ ، وَسَنَنِ مِرَاحِهِ ، فَظَلَّ سَادِراً ، وَبَاتَ سَاهِراً ، فِي غَمَرَاتِ الْآلَامِ ، وَطَوَارِقِ الْأَوْجَاعِ وَالْأَسْقَامِ ؛ بَيْنَ أَخٍ شَقِيقٍ ، وَوَالِدٍ شَفِيقٍ ،

---

(١) سورة إبراهيم ٢٢

وَدَاعِيَةٍ بِالْوَيْلِ جَزَعاً، وَلَا دِمَةٍ لِلصَّدْرِ قَلَقاً؛ وَالْمَرْءُ فِي سَكْرَةٍ مُلْهِثَةٍ، وَغَمْرَةٍ كَارِثَةٍ، وَأَنَّةٍ مُوجِعَةٍ، وَجَذْبَةٍ مُكْرِبَةٍ، وَسَوْقَةٍ مُتْعِبَةٍ.

ثُمَّ أُدْرِجَ فِي أَكْفَانِهِ مُبْلِساً، وَجُذِبَ مُنْقَاداً سَلِساً؛ ثُمَّ أُلْقِيَ عَلَى الْأَعْوَادِ، رَجِيعَ وَصَبٍ، وَنِضْوَ سَقَمٍ، تَحْمِلُهُ حَفَدَةُ الْوِلْدَانِ، وَحَشَدَةُ الْإِخْوَانِ؛ إِلَى دَارِ غُرْبَتِهِ، وَمُنْقَطَعِ زَوْرَتِهِ؛ وَمُفْرَدِ وَحْشَتِهِ؛ حَتَّى إِذَا انْصَرَفَ الْمُشَيِّعُ، وَرَجَعَ الْمُتَفَجِّعُ، أُقْعِدَ فِي حُفْرَتِهِ نَجِيّاً لِبَهْتَةِ السُّؤَالِ، وَعَثْرَةِ الْامْتِحَانِ.

وَأَعْظَمُ مَاهُنَالِكَ بَلِيَّةً نُزُلُ الْحَمِيمِ، وَتَصْلِيَةُ الْجَحِيمِ، وَفَوْرَاتُ السَّعِيرِ، وَسَوْرَاتُ الزَّفِيرِ؛ لَا فَتْرَةٌ مُرِيحَةٌ، وَلَا دَعَةٌ مُزِيحَةٌ، وَلَا قُوَّةٌ حَاجِزَةٌ، وَلَا مَوْتَةٌ نَاجِزَةٌ، وَلَا سِنَةٌ مُسَلِّيَةٌ؛ بَيْنَ أَطْوَارِ الْمَوْتَاتِ؛ وَعَذَابِ السَّاعَاتِ؛ إِنَّا بِاللهِ عَائِذُونَ!

***

الشرح :

أم هنا إما استفهامية على حقيقتها ؛ كأنه قال : أعظكم وأذكركم بحال الشيطان وإغوائه ، أم بحال الإنسان منذ ابتدأ وجوده إلى حين مماته ، وإما أنْ تكون منقطعة بمعنى « بل » كأنه قال : عادلا وتاركا لما وعظهم به ؛ بل أتلو عليكم نبأ هذا الإنسان الذى حاله كذا .

الشُّغُف بالغين المعجمة : جمع شَغاف ، بفتح الشين ، وأصله غلاف القلب ، يقال : شغفه الحبّ ، أى بلغ شغافه ، وقرئ : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾[1] .

والدّهاق : المملوءة ، ويروى « دفاقا » من دفَقت الماء أى صببته .

قال : « وعلقَةً محاقا » ، المحاق : ثلاث ليال من آخر الشهر ، وسميت محاقا لأنّ القمر يمتحق فيهنّ ، أى يخفى وتبطل صورته ، وإنما جعل العلقة محاقا ها هنا ، لأنها لم تحصل لها الصورة الإنسانية بعد ؛ فكانت ممحوّة ممحوقة .

---

(١) سورة يوسف ٣٠

واليافع : الغلام المرتفع ، أيفَع وهو يافع ؛ وهذا من النوادر . وغلام يَفَع ويَفَعة وغلمان أيفاع ويَفَعة أيضا .

قوله : « وخَبَط سادرا » ؛ خَبَط البعير إذا ضرب بيديه إلى الأرض، ومشى لا يتوقى شيئا.

والسادر : المتحيِّر ، والسادر أيضا : الذى لا يهتمّ ولا يبالى ما صنع ، والموضع يحتمل كلا التفسيرين .

والماتح : الذى يستقى الماء من البئر وهو على رأسها . والمائح : الذى نزل البئر إذا قلّ ماؤها ، فيملأ الدلاء . وسُئل بعض أئمة اللغة عن الفرق بين الماتح والمائح ، فقال : اعتبر نقطتَى الإعجام ، فالأعلى للأعلى ، والأدنى للأدنى .

والغَرْب : الدلو العظيمة . والكَدْح : شدّة السعى والحركة ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ (١) .

قوله : « وبَدَوات » ، أى ما يخطر له من آرائه التى تختلف فيها دواعيه ، فتقدم وتحجِم ، ومات غريرا ، أى شابا ، ويمكن أن يُراد به أنه غيرُ مجرّب للأمور .

والهفوة : الزلّة ، هفا يهفو . لم يُفِدْ عوضا ، أى لم يكتسب .

وغُبّر جماحة : بقاياه ، قال أبو كبير الهذلىّ :

وَمُبَرَّإٍ مِنْ كُلِّ غُبَّرِ حَيْضَةٍ وَفَسَادِ مُرْضِعَةٍ وَدَاءٍ مُغْيِلِ (٢)

والجِماح الشِّرّة وارتكاب الهوى . وسَنَن مِراحه ، السَّنَن : الطريقة ، والمِراح : شدّة الفرح والنشاط .

قوله : « فظلّ سادراً » ، السادر هاهنا غير السادر الأول ، لأنه هاهنا المغمى عليه كأنه

---

(١) سورة الانشقاق ٦

(٢) ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ٨٤ والمغيل ، من الغيل ؛ وهو أن تغشى المرأة وهى ترضع ؛ فذلك اللبن الغيل .

سكران ؛ وأصله من سدر البعير من شدة الحرّ وكثرة الطّلاء بالقَطِران ، فيكون كالنائم لايحسّ ، ومراده عليه السلام هاهنا أنه بَدَأ بِهِ المرض . ولادِمة للصدر : ضاربة له ، والتِدام النساء : ضربهنّ الصدور عندالنياحة . سكرة مُلْهِثة : تجعل الإنسانلاهثاً لشدّتها لهثَ يَلْهَثُ لهثاناً ولِهاثا ، ويروى « ملهية » بالياء ، أي تُلهى الإنسان وتشغله .

والكارثة « فاعلة » من كرثه الغم يكرُثه بالضمّ ، أى اشتدّ عليه وبلغ منه غاية المشقة .

الجذبة : جذب الملك الرُّوح من الجسد أو جذب الإنسان إذا احتضر ليُسَجّى .

والسَّوْقة : من سياق الرُّوح عند الموت . والمُبْلِس : الذى يَيئس من رحمة الله ، ومنه سُمّىَ إبليس. والإبلاس أيضا :الانكسار والحزن . والسَّلِس : السَّهل المقادة . والأعوادخشب الجنازة،ورَجيع وَصِب :الرَّجيع المعنى الكالّ: والوصِب :الوجع ،وصِب الرجل يوْصَب، فهوواصب ، وأوصبه الله فهو مُوصب .والموصَّب بالتشديد : الكثير الأوجاع .والنِّضو: الهزيل . وحشَدَة الإخوان : جمع حاشد ؛ وهو المتأهّب المستعدّ . ودار غربته : قبره . وكذلك منقطَع زورته ، لأنّ الزيارة تنقطع عنده .

ومفرد وَحْشته نحو ذلك ،لانفراده بعمله ، واستيحاش الناس منه ؛ حتىإذا انصرف المشيِّع وهو الخارج مع جنازته ، أقعِد فى حفرته . هذا تصريحٌ بعذاب القبر ، وسنذكر مايصلح ذكره فى هذا الموضع .

والنجىّ :المناجى .ونُزُول الحميمِ وتَصْلية الجَحِيم ،من الألفاظ الشريفة القرآنية[1] .

ثم نفى عليه السلام أن يكون فى العذاب فتور يجد الإنسان معه راحة ، أو سكون يزيح عنه الألم أى يزيله ، أو أنّ الإنسان يجد فى نفسه قوة تحجز بينه وبين الألم ، أى تمنع ويموت موتاً ناجزاً معجّلا ، فيستريح ، أو ينام فيسلو وقتَ نومه عمّا أصابه من الألم فى اليقظة كما فى دار الدنيا .

---

(١) وهو قوله تعالى فى سورة الواقعة : ﴿ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾.

ثم قال : « بين أطوار الموتات » ، وهذا فى ظاهره متناقض ، لأنه نفى الموتَ مطلقاً ، ثم قال : « بين أطوار الموتات » ، والجواب أنه أراد بالموتات الآلام العظيمة ؛ فسمّاها موتات ؛ لأنّ العرب تسمّى المشقة العظيمة موتا ، كما قال :

* إنَّمَا المَيْتُ مَيِّتُ الأحْيَاء[1] *

ويقولون : الفقر الموت الأحمر ، واستعمالهم مثل ذلك كثير جدا .

ثم قال : « إنّا بالله عائذون » ؛ عُذْت بفلان واستعذت به ؛ أى التجأت إليه .

* * *

[فصل فى ذكر القبر وسؤال منكَر ونَكير]

واعلم أنّ لقاضى القضاة فى كتاب " طبقات المعتزلة " فى باب « القبر وسؤال منكر ونكير » ؛ كلاما أنا أورد هاهنا بعضه ، قال رحمه الله تعالى :

إنّ عذابَ القبر إنما أنكره ضرار بن عمرو ، ولما كان ضرارٌ من أصحاب واصل بن عطاء ، ظنّ كثيرٌ من الناس أنّ ذلك مما أنكرته المعتزلة ؛ وليس الأمر كذلك ؛ بل المعتزلة رجلان : أحدهما يجوّز عَذَاب القبر ، ولا يقطع به ؛ وهم الأقلون ، والآخر يقطع على ذلك ؛ وهم أكثر أصحابِنا لظهور الأخبار الواردة فيه ؛ وإنما تنكر المعتزلة قول طائفة من الجهلة إنّهم يعذبون وهم موتى ، لأنّ العقل يمنعُ من ذلك ؛ وإذا كان الإنسان مع قُرْب العهد بموته ؛ ولمّا يدفن يعلمون أنّه لا يسمع ولا يبصر ولا يدرك ، ولا يألم ولا يلتذّ ، فكيف يجوز عليه ذلك وهو ميت فى قبره ! وما رُوِى من أنّ الموتى يسمعون لا يصحّ إلا أن يُراد به أنّ الله تعالى أحياهم ، وقوّى حاسة سمعهم ، فسمعوا وهم أحياء .

---

(١) صدره :

* لَيْسَ مَنْ مَاتَ فاستراحَ بميْتٍ *

من أبيات قالها ابن الرعلاء الضبابى فى يوم عين أباغ . الكامل فى التاريخ لابن الأثير ١ : ٣٢٦

قال رحمه الله تعالى : وأنكر أيضاً مشايخنا أن يكونَ عذابُ القبر دائماً فى كلِّ حال، لأنَّ الأخبار إنما وردت بذلك فى الجملة، فالذى يقال به هو قدر ماتقتضيه الأخبار دون ما زاد عليه مما لادليلَ عليه ، ولذلك لسنا نوقِّت فى التعذيب وقتا ، وإن كان الأقرب فى الأخبار أنها الأوقات المقارنة للدفن ، وإن كان لانعنيها بأعيانها .

هكذا قال قاضى القضاة ، والذى أعرفه أنا من مذهب كثير من شيُوخنا قَبْل قاضى القضاة أنَّ الأغلبَ أن يكونَ عذاب القبر بين النَّفْخَتَيْن .

ثم إن قاضىَ القضاة سأل نفسه ، فقال : إذا كانت الآخرة هى وقت المجازاة ، فكيف يعذَّب فى القبر فى أيام الدنيا ؟

وأجاب بأن القليل من العقاب المستحَقّ قد يجوز أن يجعلَه الله فى الدنيا لبعض المصالح، كما فعل فى تعجيل إقامة الحدود على من يستحقّها، فلا يمتنع منه تعالى أنْ يفعل ذلك بالإنسان إذا كان من أهل النار .

ثم سأل نفسه ، فقال : إذا كان بالموت قد زالَ عنه التكليف ، فكيف يقولون يكون ذلك من مصالحه !

وأجاب بأنا لم نقل : إنَّ ذلك من مصالحه وهو ميِّت ؛ وإنما نقول إنه مصلحة أنْ نعلم فى الدنيا ذلك من حال الموتى ؛ لأنه إذا تصوّر أنه مات عُوجل بضرب من العقاب فى القبر ، كان أقرب إلى أن ينصرف عن كثير من المعاصى . وقد يجوز أن يكون ذلك لطفاً للملائكة الذين يتولَّوْن هذا التعذيب .

* * *

فأمّا القول فى منكَر ونكير ، فإنه سأل نفسه رحمه الله تعالى ، وقال : كيف يجوز أن يسمَّوْا بأسماء الذمّ ، وعندكم أن الملائكة أفضلُ من الأنبياء ؟

وأجاب ، فقال : إنّ التسمية إذا كانت لقباً لم يقع بها ذم، لأنّ الذمّ إنما يقع لفائدة الاسم ، والألقاب كالإشارات لا فائدة تحتها ؛ ولذا يلقب الرجل المسلم بظالم وكلب ونحو ذلك ؛ فيجوز أن يكون هذان الاسمان من باب الألقاب ، ويجوز أنْ يسمّيا بذلك من حيث يهجُمان على الإنسان عند إكمال الله تعالى عقله على وجه ينكره ويرتاع منه ، فسمّيا منكرا ونكيرا .

قال : وقد روى فى المساءلة فى القبر أخبار كثيرة وكلّ ذلك مما لا قبحَ فيه ، بل يجوز أن يكون من مصالح المكلّفين فلا يصحّ المنع عنه .

وجملة الأمر أنّ كلّ ماثبت من ذلك بالتواتر والإجماع، وليس بمستحيل فى القدرة، ولا قبيح فى الحكمة يجب القول به ، وما عداه مما وردت به آثار وأخبار آحاد يجب أن يجوّز ؛ ويقال : إنه مظنون ليس بمعلوم ، إذا لم يمنع منه الدليل .

***

الأصلُ :

عِبَادَ ٱللهِ ، أَيْنَ الذينَ عُمِّرُوا فنَعِمُوا ، وَعُلِّمُوا ففَهِمُوا ، وَأُنْظِرُوا فَلَهَوْا ، وَسُلِّمُوا فَنَسُوا ! أُمْهِلُوا طَوِيلاً ، وَمُنِحُوا جَمِيلاً ، وَحُذِّرُوا أَلِيماً ، وَوُعِدُوا جَسِيماً .

احْذَرُوا الذُّنُوبَ المُوَرِّطَةَ ، وَٱلْعُيُوبَ المُسْخِطَةَ . أُولِي ٱلْأَبْصَارِ وَٱلْأَسْمَاعِ، وَٱلْعَافِيَةِ وَٱلْمَتَاعِ ، هَلْ مِنْ مَنَاصٍ أَوْ خَلَاصٍ ، أَوْ مَعَاذٍ أَوْ مَلَاذٍ ، أَوْ فِرَارٍ أَوْ مَحَارٍ ! فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ، أَمْ أَيْنَ تُصْرَفُونَ ، أَمْ بِمَاذَا تَغْتَرُّونَ !

وَإِنَّمَا حَظُّ أَحَدِكُمْ مِنَ الأَرْضِ ، ذَاتِ الطُّولِ وَٱلْعَرْضِ ، قِيدُ قَدِّهِ ؛ مُتعفِّراً عَلَى خَدِّهِ .

الآنَ عِبَادَ ٱللهِ ، وَٱلْخِنَاقُ مُهْمَلٌ ، وَالرُّوحُ مُرْسَلٌ ، فِي فَيْنَةِ ٱلْإِرْشَادِ ، وَرَاحَةِ

الْأَجْسَادِ ، وَبَاحَةِ الاحْتِشَادِ، وَمَهَلِ الْبَقِيَّةِ ،وأُنُفِ الْمَشِيَّةِ ، وَإِنْظَارِ التَّوْبَةِ ، وَانْفِسَاحِ الْحَوْبَةِ ، قَبْلَ الضَّنْكِ وَالْمَضِيقِ ، وَالرَّوْعِ وَالزُّهُوقِ ، وَقَبْلَ قُدُومِ الْغَائِبِ الْمُنْتَظَرِ ، وَأَخْذَةِ الْعَزِيزِ الْمُقْتَدِرِ .

***

قال الرضى رحمه الله :

وفِي الخبرِ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا خطب بِهَذِهِ الْخُطْبَةِ اقْشَعَرَّتْ لَهَا الْجُلُودُ، وَبَكَتِ الْعُيُونُ ، وَرَجَفَتِ الْقُلُوبُ ؛ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُسَمِّي هَذِهِ الْخُطْبَةَ الْغَرَّاء .

***

الشرح :

نَعِم الرجل يَنْعَم ضِدّ قولك : « بَئِس »، وجاء شاذا نَعِم ينعِم بالكسر. وأنظروا: أمهلوا. والذنوب المورّطة : التى تُلقِى أصحابها فى الورطة ؛ وهى الهلاك ؛ قال رؤبة [1] :

* فأصبحُوا فى ورطة الأَوْرَاطِ [2] *

وأصله أرض مطمئنّة لاطريق فيها ، وقد أورطت زيدا وورّطته توريطا فتورّط. ثم قال عليه السلام: «أولى الأبصار والأسماع»، ناداهم نداء ثانيا بعدالنداء الذى فى أول الفصل، وهو قوله : « عباد الله » ؛ فقال: يامَنْ منحهم الله أبصارا وأسماعا، وأعطاهم عافية، ومتّعهم متاعاً هل من مناص ؛ وهو الملجأ والمفرّ؛ يقالُ : ناصَ عن قِرْنه مناصاً ، أىْ فرّ وراوغ، قال سبحانه : ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ [3] .

---

(١) قبله :

* نَحْنُ جَمَعْنَا النَّاسَ بالملطَاطِ *

(٢) اللسان ١٠ : ٣٠٤

(٣) سورة ص ٣

والمحار : المرجع ، من حارَ يحور أى رجع ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴾ (١) .

ويؤفكون : يقلبون ، أفكه يأفِكه عن كذا ، قلبه عنه إلى غيره ، ومثله «يُصْرَفون» .

وقِيد قدّه : مقدار قدّه ، يقال : قرب منه قِيدَ رمح وقادَ رُمْح ، والمراد هاهنا هو القبر ، لأنه بمقدار قامة الإنسان .

والمُنعفِرُ : الذى قد لامس العَفَر ، وهو التراب .

ثم قال عليه السلام : «الآن والخناق مُهْمَل» ؛ تقديره : اعملوا الآن وأنتم مخلَّوْنَ متمكّنون لم يعقد الحبل فى أعناقكم ، ولم تقبض أرواحكم .

والرُّوح يُذكّر ويؤنث . والفَيْنة : الوقت ، ويروى « وفَيْنة الارتياد » ؛ وهو الطَّلب .

وأُنفُ المشيّة : أول أوقات الإرادة والاختيار .

قوله : « وانفساح الحَوْبة » ، أى سعة وقت الحاجة ، والحَوْبَة : الحاجة والأَرَب ، قال الفرزدق :

فَهَبْ لِي خُنَيساً واتّخِذْ فِيه مِنّةً ... لحَوْبَةِ أمّ ما يَسُوغُ شَرابُها (٢)

والغائب المنتظر ؛ هو الموت .

قال شيخنا أبو عثمان رحمه الله تعالى : حدّثنى ثُمامة ، قال : سمعتُ جعفر بن يحيى - وكان من أبلغ الناس وأفصحهم - يقول : الكتابة (٣) ضمّ اللفظة إلى أختها ، ألم تسمعوا قول شاعر لشاعر ؛ وقد تفاخرا : أنا أشعرُ منك لأنّى أقول البيت وأخاه ، وأنت تقول البيت وابنَ عمّه ! ثم قال : وَناهيك حسنا بقول علىّ بن أبى طالب عليه السلام : «هَلْ من مناص أو خلاص ، أو معاذ أو ملاذ ، أو فرار أو محار ! » .

(١) سورة الانشقاق ١٤

(٢) ديوانه ١ : ٩٤ . الحوبة : الحاجة ، وخنيس : فتى كان بالجيش فى السند ، بحر - والتجمير : أن ينزل فى البعث ولا يرد - وكانت أمه امرأة من الشام ؛ تشفعت بالفرزدق فى شأنه ، فكتب إلى العامل أبياتاً ، ومنها هذا البيت ؛ والخبر مذكور فى الديوان .

(٣) ب : « بضم » ، وما أثبته من ا .

قال أبو عثمان : وكانَ جعفر يُعجب أيضا بقول علىّ عليه السلام : أين من جدّ واجتهد، وجَمَع واحتشد ، وبنَى فشيَّد ، وفرش فمهَّد [١] ، وزخرف فنجَّد ، قال : ألا ترى أن كلّ لفظة منها آخذةٌ بعُنقِ قرينتها ، جاذبة إياها إلى نفسها ، دالّةٌ عليها بذاتها!

قال أبو عثمان : فكان جعفر يسمّيه فصيح قريش .

***

واعم أننا لا يتخالجنا الشكّ فى أنه عليه السلام أفصحُ من كلّ ناطق بلغة العرب من الأولين والآخرين ، إلّا من كلام الله سبحانه ، وكلام رسول الله صلى الله عليه وآله؛ وذلك لأنّ فضيلَة الخطيب والكاتب فى خطابته وكتابته تعتمِد على أمرين ؛ هما : مفردات الألفاظ ومركَّباتها .

أما المفردات فأنْ تكون سهلةً سلِسة غيرَ وحشيّة ولا معقّدة ، وألفاظه عليه السلام كلها كذلك؛ فأما المركّبات فحُسْنُ المعنى وسرعة وصوله إلى الأفهام ، واشتماله على الصفات التى باعتبارها فُضِّل بعضُ الكلام على بعض ، وتلك الصفات هى الصناعة التى سمّاها المتأخرون البديع ، من المقابلة، والمطابقة ، وحسن التقسيم ، وردّ آخر الكلام على صَدْره ، والترصيع، والتسهيم ، والتوشيح ، والمماثلة ، والاستعارة ، ولطافة استعمال المجاز ، والموازنة ، والتكافؤ، والتّسميط والمشاكلة .

ولا شبهةَ أن هذه الصفات كلَّها موجودة فى خُطَبه وكتبه ، مبثوثة متفرقة فى فرُش كلامه عليه السلام ، وليس يوجد هذان الأمران فى كلامِ أحد غيرِه فإن كان قد تعمّلها وأفكَر فيها، وأعمَل رويتَه فى رَصْفها [٢] ونثرها ، فلقد أتى بالعجب العُجاب ، ووجبَ

---

(١) ب : « ومهد » .

(٢) ب : « فى » صنعها » .

أن يكون إمام الناس كلّهم فى ذلك ؛ لأنّه ابتكره ولم يعرف من قبله وإن كان اقتضبها ابتداء ، وفاضت على لسانه مرتجلة ، وجاش بها طبْعه بديهةً ، من غير رويّةٍ ولا اعمال ، فأعجب وأعجب !

وعلى كلا الأمرين فلقد جاء مجلّياً والفصحاء تنقطع أنفاسهم على أثره . وبحقٍّ ماقال معاوية لمحقن الضبّى ، لمّا قال له : جئتك من عند أعيا الناس : يابن اللخناء ، ألعلىٍّ[1] تقول هذا ؟ وهل سنّ الفصاحة لقريش غيره !

واعلم أن تكلّف الاستدلال على أن الشمس مضيئة يتعب ، وصاحبه منسوب إلى السَّفَه ، وليس جاحد الأمور المعلومة علما ضروريًّا بأشدّ سفهاً ممّن رام الاستدلال بالأدلة النظرية عليها .

---

(١) ب : « لعلى » .

(٨٣)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام فى ذكر عمرو بن العاص :

عَجباً لابْنِ النَّابِغَةِ ! يَزْعُمُ لِأَهْلِ الشَّامِ أَنَّ فِيَّ دُعَابَةً ، وَأَنِّي امْرُؤٌ تِلْعَابَةٌ ، أُعافِسُ وَأُمارِسُ ! لقَدْ قَالَ بَاطِلاً ، وَنَطَقَ آثِماً . أَمَا ـ وشَرُّ الْقَوْلِ الْكَذِبُ ـ إِنَّهُ لَيَقُولُ فَيَكْذِبُ ، وَيَعِدُ فَيُخْلِفُ ، وَيُسْأَلُ فَيَبْخَلُ ، وَيَسْأَلُ فَيُلْحِفُ ، وَيَخُونُ الْعَهْدَ ، وَيَقْطَعُ الْإِلَّ ؛ فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْحَرْبِ فَأَيُّ زَاجِرٍ وَآمِرٍ هُوَ ! مَا لَمْ تَأْخُذِ السُّيوفُ مَآخِذَهَا ؛ فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ أَكْبَرُ مَكِيدَتِهِ أَنْ يَمْنَحَ الْقَوْمَ سُبَّتَهُ .

أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَيَمْنَعُنِي مِنَ اللَّعِبِ ذِكْرُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّهُ لَيَمْنَعُهُ مِنْ قَوْلِ الْحَقِّ نِسْيَانُ الْآخِرَةِ . وَإِنَّهُ لَمْ يُبَايِعْ مُعَاوِيَةَ حَتَّى شَرَطَ لَهُ أَنْ يُؤْتِيَهُ أَتِيَّةً ، وَيَرْضَخَ لَهُ عَلَى تَرْكِ الدِّينِ رَضِيخَةً .

***

الشرحُ :

الدّعابة : المُزاح ، دَعَب الرجل ، بالفتح . ورجل تِلْعابة ، بكسر التاء : كثير اللعب ، والتَّلْعاب ، بالفتح : مصدر « لعب » .

والمعافسة : المعالجة والمصارعة ، ومنه الحديث : «عافَسْنَا النساء»[1] . والممارسة نحوه .

يقول عليه السلام : إن عَمْراً يقدح فيَّ عند أهل الشام بالدُّعابة واللعب ، وأنى كثير

---

(١) النهاية لابن الأثير فى حديث حنظلة الأسدى وروايته : « فإذا رجعنا عافسنا الأزواج » ٣ : ١١٠

المازحة ، حتى أنى ألاعب النساء وأغازلهنّ ، فعلَ المترَف الفارغ القلب، الذى تتقضى[1] أوقاته بملاذّ نفسه .

ويُلحِف: يلحّ فى السؤال ؛ قال تعالى : ﴿ لَا يَسْأَلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾[2]؛ ومنه المثل: « ليس الملحِف مِثل الرّدّ » .

والإلّ : العهد ، ولمّا اختلف اللفظان حَسُن التقسيم بهما ، وإن كان المعنى واحداً.

ومعنى قوله : « ما لم تأخذ السيوف مآخذها » ؛ أى ما لم تبلغ الحرب إلى أن تخالط الرءوس ، أى هو ملىء بالتّحريض والإغراء قبل أن تلتحِم الحرب ، فإذا التحمت واشتدّت فلا يمكث ، وفعل فَعلته التى فعل .

والسَّبّة : الاست ، وسبّه يَسُبُّهُ : طعنه فى السَّبّة .

ويجوز رفع « أكبر » ونصبه ، فإن رفعتَ فهو الاسم ، وإن نصبتَ فهو الخبر.

والأتيّة: العطية، والإيتاء: الإعطاء . ورضخ له رضخاً : أعطاه عطاء بالكثير، وهى الرّضيخة ؛ لما يعطَى .

***

[نسب عمرو بن العاص وطرف من أخباره]

ونحن نذكر طرفا من نسب عمرو بن العاص وأخباره إلى حين وفاته إن شاء الله .

هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سَهْم بن عمرو بن هُصَيْص بن كعب بن لُؤَىّ بن غالب بن فِهر بن مالك بن النّضر . يكنى أبا عبدالله ، ويقال: أبو محمد .

---

(١) ب : « تنقضى » .
(٢) سورة البقرة ٢٧٣ .

أبوه العاص بن وائل ، أحد المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وآله ، والمكاشفين له بالعداوة والأذى، وفيه وفى أصحابه أنزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾(١).

ويلقب العاصُ بن وائل فى الإسلام بالأبتر، لأنه قال لقريش : سيموتُ هذا الأبتر غداً ، فينقطع ذكرُه ، يعنى رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه لم يكن له صلى الله عليه وآله ولدٌ ذكر يُعقِبُ منه ، فأنزل الله سبحانه : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾(٢) .

وكان عمرو أحد مَنْ يؤذى رسولَ الله صلى الله وآله بمكّة ، ويشتِمه ويضع فى طريقه الحجارة ؛ لأنّه كان صلى الله عليه وآله يخرج من منزله ليلاً فيطوف بالكعبة، وكان عمرو يجعل له الحجارة فى مسلكه ليعثُرَ بها . وهو أحدُ القوم الذين خرجوا إلى زينب ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا خرجت مهاجرة من مكةَ إلى المدينة ، فروَّعُوها وقرَعوا هَوْدَجها بكعُوب الرماح ، حتى أجْهَضت جنيناً ميّتاً من أبى العاص بن الربيع بعلها، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله ، نال منه وشقّ عليه مشقّة شديدة ولعنهم . روى ذلك الواقدىّ .

وروى الواقدىّ أيضاً وغيره من أهل الحديث؛ أن عمرو بن العاص هجا رسولَ الله صلى الله عليه وآله هِجاء كثيرا ، كان يعلّمه صبيان مَكة ، فيُنشدونه ويَصيحون برسول الله إذا مرّ بهم ، رافِعين أصواتهم بذلك الهجاء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يصلّى بالِحجْر : « اللهمّ إنّ عمرو بن العاص هَجَانى ، ولستُ بشاعر ؛ فالعنْه بعدَد ماهجانى » .

وروى أهل الحديث أنّ النّضر بن الحارث وعُقبة بن أبى مُعَيط وعمرو بن العاص ، عهدوا إلى سَلَى(٣) جملٍ فرفعوه بينهم ووضعُوه على رأس رسول الله صلى الله عليه وآله وهو ساجد بفناء الكعبة ، فسال عليه ، فصبَرَ ولم يرفَعْ رأسه ، وبكَى فى سجوده ودعا عليهم ،

---

(١) سورة الحجر ٩٥ . (٢) سورة الكوثر ٣ .

(٣) السلى : جلدة فيها الولد من الناس والمواشى .

فجاءت ابنتُه فاطمة عليها السلام وهي باكية ، فاحتضنت ذلك السَّلا فرفعته عنه فألقته وقامت على رأسه تبكى ، فرفع رأسه صلى الله عليه وآله ؛ وقال : «اللهمَّ عليك بقريش»، قالها ثلاثاً ؛ ثم قال رافعاً صوته : «إنِّى مظلوم فانتصِر» ؛ قالها ثلاثا ، ثم قام فدخل منزله ؛ وذلك بعد وفاة عمّه أبى طالب بشهرين .

ولشدّة عداوة عمرو بن العاص لرسول الله صلى الله عليه وآله ، أرسله أهلُ مكّة إلى النّجاشيّ ليزهِّدَه فى الدّين، وليطرد عن بلاده مهاجِرَة الحبشة، وليقتل جعفر بن أبى طالب عنده ، إن أمكنه قتلُه ، فكان منه فى أمر جعفر هناك ماهو مذكور مشهور فى السِّيَر، وسنذكر بعضه .

فأمّا النابغة فقد ذكر الزمخشريّ فى ”كتاب ربيع الأبرار“ قال : كانت النابغة أم عمرو بن العاص أمَةً لرجل من عَنَزة ، فسُبِيت ، فاشتراها عبد الله بن جُدْعان التيمىّ بمكة ، فكانت بَغِيًّا ، ثم أعتقها ، فوقع عليها أبو لهب بن عبد المطلب، وأميّة بن خلَف الجمحىّ ، وهشام بن المغيرة المخزومىّ، وأبو سفيان بن حَرْب، والعاص بن وائل السّهمىّ، فى طُهْرٍ واحد ؛ فولدت عَمراً، فادّعاه كلُّهم ، فحكّمتْ أمُّه فيه، فقالت: هو من العاص بن وائل، وذاك لأن العاص بن وائل كان يُنفق عليها كثيراً، قالوا : وكان أشبه بأبى سفيان؛ وفى ذلك يقول أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فى عمرو بن العاص :

أبوك أبو سفيانَ لاشكَّ قد بَدَتْ لنا فيك منـــه بيِّناتُ الشَّمائلِ

***

وقال أبو عمر بن عبد البر صاحب كتاب ” الاستيعاب “ (١) : كان اسمها سلمى — وتلقّبت بالنابغة — بنت حَرْملة (٢) من بنى جلّان بن عَنَزة بن أسد بن ربيعة بن نزار ،

(١) الاستيعاب ص ٤٣٤ .
(٢) الاستيعاب : « سبية بنى جلان » .

أصابها سِباء ، فصارت إلى العاص بن وائل بعد جماعة من قريش ، فأولدها عمراً .

قال أبو عمر : يقال إنه جُعِل لرجل ألف درهم على أن يسأل عمراً وهو على المنبر: مَنْ أمّه ؟ فسأله،فقال : أمّى سلمى بنت حرملة؛تُلقَّب بالنابغة،من بنى عَنَزة ثم أحد بنى جِلّان وأصابتها رماح[1] العرب فبيعت بعُكاظ،فاشتراها الفاكه بن المغيرة،ثم اشتراها منه عبدالله ابن جُدْعان ، ثم صارت إلى العاص بن وائل،فولدت فأنجبت، فإن كان جُعِل لك شىء فخذ

***

وقال المبرّد فى كتاب " الكامل "[2] : اسمها ليلى . وذكر هذا الخبر وقال : إنها لم تكن فى موضع مَرْضِىّ ،قال المبرّد:وقال المنذر بن الجارود مرة لعمرو بن العاص :أىّ رجل أنت لولا أن أمك أمّك ! فقال : إنى أحمد الله إليك ، لقد فكَّرْت البارحة[3] فيها فأقبلت أنقلها فى قبائل العرب[4] ممن أحبّ أن تكون[4] منها ، فما خطرت لى عَبْدالقيس على بال !

وقال المبرّد : ودخل عمرو بن العاص مكة؛فرأى قوما من قريش قد جلسوا حَلْقة ، فلما رأوه رَمَقُوه بأبصارهم ، فعدل إليهم فقال : أحسِبكم كنتم فى شىء من ذكرى ؟قالوا: أجل ؛ كنا نمثّل بينك وبين أخيك هشام بن العاص، أيّكما أفضل ؟ فقال عمرو:إن لهشام علىّ أربعة : أمه بنت هشام بن المغيرة ، وأمّى مَن قد عرفتم ؛ وكان أحبّ إلى أبيه منى ، وقد علمتم معرفة الوالد بولده ، وأسْلَمَ قَبْلِى ، واستشهد وبقِيت .

***

وروى أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتاب " الأنساب " أن عمْرا اختصم فيه يوم

---

(١) الاستيعاب « رماح » .
(٢) الكامل ٤ : ٧٩ .
(٣) الكامل : « فى هذا » .
(٤ — ٤) ليس فى نسخة الكامل المطبوعة .

ولادته رجلان : أبو سفيان بن حرب ، والعاص بن وائل ؛ فقيل : لِتَحْكم أمّه ؛ فقالت أمّه : إنه من العاص بن وائل ؛ فقال أبو سفيان : أما إنى لا أشك أنى وضعته فى رَحِم أمه ، فأبت إلا العاص .

فقيل لها : أبو سفيان أشرف نسباً ؛ فقالت : إن العاص بن وائل كثير النفقة علىّ وأبو سفيان شَحِيح .

فنى ذلك يقول حسان بن ثابت لعمرو بن العاص حيث هجاه مكافئاً له عن هجاء رسول الله صلى الله عليه وآله :

أبوكَ أبو سفيان لاشكَّ قد بَدَتْ   لنا فيك منه بيِّنَاتُ الدلائلِ
فَفَاخِرْ به إمَّا فَخَرْتَ ولا تكن   تفاخرُ بالعاص المجين بن وائل
وإن التى فى ذاك ياعمرو حُكِّمَتْ   فقالت رجاء عند ذاك لنائل
مِنَ العاص عمرٌو تخبر الناس كلَّما   تجمَّعَتِ الأقوامُ عندَ المحافلِ

[مفاخرة بين الحسن بن علىّ ورجالات من قريش]

وروى الزبير بن بكار فى كتاب " المفاخرات " ؛ قال : اجتمع عند معاوية عمرو ابن العاص ، والوليد بن عُقْبة بن أبى مُعَيط ، وعُتْبة بن أبى سفيان بن حرب ، والمغيرة ابن شعبة ، وقد كان بلغهم عن الحسن بن علىّ عليه السلام قوارصُ ، وبلغه عنهم مثل ذلك ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ؛ إن الحسن قد أحيا أباه وذكره ، وقال فصُدِّق ، وأمر فأُطيع ، وخَفَقَتْ له النعال ، وإنّ ذلك لرافعه إلى ما هو أعظم منه ، ولا يزال يبلغنا عنه ما يسوءنا .

قال معاوية : فما تريدون ؟ قالوا : ابعث عليه فليحضُر لنَسُبّه ونَسُبّ أباه ، ونعيِّره ونوبخه ، ، ونخبره أن أباه قتل عثمان ونقرّره بذلك ، ولا يستطيع أن يغيِّر علينا شيئا ، من ذلك .

قال معاوية : إنى لا أرى ذلك ولا أفعله ؛ قالوا : عزمْنا عليك يا أمير المؤمنين لتفعلَنَّ ؛ فقال : ويحكم لا تفعلوا ! فو الله ما رأيته قطّ جالسا عندى إلا خفت مقامه وعيبَه لى ، قالوا : ابعث إليه على كلٍّ حال ؛ قال : إن بعثت إليه لأنصفنَّه منكم .

فقال عمرو بن العاص : أتخشى أن يأتىَ باطلُه على حقنا ، أو يُرْبِى قَوْلُه على قولنا !

قال معاوية : أما إنى إن بعثت إليه لآمرنّه أن يتكلّم بلسانه كلّه ، قالوا : مُرْه بذلك .

قال : أما إذْ عصيتمونى ، وبعثتم إليه وأبيْتم إلا ذلك فلا تُمْرِضوا[1] له فى القول ، واعلموا أنهم أهل بيتٍ لا يعيبهم العائب ، ولا يُلْصَق بهم العار ؛ ولكن اقذفوه بحجَرِه ؛ تقولون له : إن أباك قتل عثمان ، وكره خلافة الخلفاء مِن قبله .

فبعث إليه معاوية ، فجاءه رسوله ، فقال : إن أمير المؤمنين يدعوك .

قال : مَنْ عنده ؟ فسماهم له ؛ فقال الحسن عليه السلام : ما لهم خرَّ عليهم السقف من فوقهم ، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون . ثم قال : يا جارية ، ابغينى[2] ثيابى ، اللهم إنى أعوذُ بك من شرورهم ، وأدْرَأُ بك فى نحورهم ، وأستعين بك عليهم ، فاكْفِنيهم كيف شئتَ وأنّى شئت ، بحَوْلٍ منك وقوة ، يا أرحم الراحمين !

ثم قام ، فلما دخل على معاوية ، أعظمه وأكرمه ، وأجلسه إلى جانبه ، وقد ارتاد القوم ، وخطروا خَطَران الفحول ، بغيًا فى أنفسهم وعُلُوًّا ، ثم قال : يا أبا محمد ؛ إن هؤلاء بعثوا إليك وعَصَوْنى .

فقال الحسن عليه السلام : سبحان الله ! الدّار دارُك ، والإذنُ فيها إليك ، والله إن كنتَ أجبتَهم إلى ما أرادوا وما فى أنفسهم إنى لأستحيى لك من الفُحْش ، وإن كانوا غلبوك على رأيك إنى لأستحيى لك من الضعف ؛ فأيهما تُقَرِّر ، وأيهما تنكر ؟ أما إنى

---

(١) فلا تمرضوا له ؛ أى لا تجعلوا قولكم مريضاً .

(٢) ابغينى ثيابى ، أى أعينينى على احضارها .

لو علمتُ بمكانهم جئتُ معى بمثلهم من بنى عبد المطّلب ، وما لى أن أكون مستوحشا منك ولا منهم ! إن وليِّىَ الله ، وهو يتولّى الصالحين .

فقال معاوية : يا هذا ، إنّى كرهتُ أن أدعوَك ، ولكن هؤلاء حملونى على ذلك مع كراهتى له ، وإن لك منهم النَّصَف ومنِّى ، وإنما دَعَوْناك لنقرِّرَك أن عثمان قُتل مظلوما ، وأن أباك قتله ، فاستمِع منهم ثم أجِبْهم ، ولا تمنعك وَحْدتك واجتماعُهم أن تتكلم بكلِّ لسانك .

فتكلم عمرو بن العاص ، فحمِد الله وصلى على رسوله ، ثم ذكر عليًّا عليه السلام ، فلم يترك شيئًا يعيبه به إلا قاله ، وقال : إنه شتم أبا بكر وكره خلافته ، وامتنع مِنْ بيعته ، ثم بايعه مكرَهًا ، وشَرَك فى دم عمر ، وقتلَ عثمان ظلمًا . وادّعى من الخلافة ما ليس له .

ثم ذكر الفتنة يعيِّره بها ، وأضاف إليه مساوىَ[1] ؛ وقال : إنكم يابنى عبد المطلب لم يكن الله ليعطيَكم الملك على قتلكم الخلفاء ، واستحلالكم ما حرّم الله من الدماء ، وحِرْصكم على الملك ، وإتيانكم ما لا يحلّ . ثم إنك يا حسن ، تحدّث نفسك أن الخلافة صائرة إليك ، وليس عندك عقلُ ذلك ولا لُبّه ، كيف ترى الله سبحانه سلبك عقلَك ، وتركك أحمقَ قريش ، يُسخر منك ويُهزأ بك ، وذلك لسوء عمل أبيك ! وإنما دعوناك لنسبَّك وأباك ، فأما أبوك فقد تفرّد الله به وكفانا أمره ، وأما أنت فإنك فى أيدينا نختار فيك الخصال ، ولو قتلناك ما كان علينا إثم من الله ، ولا عيب من الناس ، فهل تستطيع أن تردّ علينا وتكذِّبنا؟ فإن كنت ترى أنا كذبنا فى شىء فارْدُده علينا فيما قلنا ، وإلا فاعلم أنك وأباك ظالمان .

ثم تكلم الوليد بن عُقْبة بن أبى مُعَيط ، فقال : يابنى هاشم ، إنكم كنتم أخوال عثمان ؛ فنِعم الولد كان لكم ؛ فعَرف حقكم ، وكنتم أصهاره فنعم الصِّهر كان لكم ، يكرمكم فكنتم

(١) ج : « وعيره » .

أول من حسده ، فقتله أبوك ظلما ، لا عذرَ له ولا حجة ، فكيف ترون الله طالب بدمه ، وأنزلكم منزلتكم ! والله إن بنى أمية خير لبنى هاشم من بنى هاشم لبنى أمية ، وإن معاوية خيرٌ لك من نفسك .

ثم تكلم عُتْبة بن أبى سفيان ، فقال : ياحسن ، كان أبوك شرَّ قريش لقريش ، أسفكها لدمائها ، وأقطعها لأرحامها ، طويلَ السيف واللسان ، يقتل الحىَّ ويعيب الميت ، وإنك ممّن قتل عثمان ، ونحن قاتلوك به ، وأما رجاؤك الخلافة فلست فى زَنْدِها قادحا ، ولا فى ميزانها راجحا ، وإنكم يابنى هاشم قتلتم عثمان ، وإنَّ فى الحق أن نقتلك وأخاك به ؛ فأما أبوك فقد كفانا الله أمرَه وأقادَ منه ، وأما أنت ، فوالله ما علينا لو قتلناك بعثمان إثم ولا عدوان .

ثم تكلم المغيرة بن شعبة ، فشتم عليا ، وقال : والله ما أعيبه فى قضية يخون ، ولا فى حكم يميل ، ولكنه قتل عثمان . ثم سكتوا .

فتكلم الحسن بن علىّ عليه السلام ؛ فحمِد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله صلى الله عليه وآله ، ثم قال : أما بعد يا معاوية ، فما هؤلاء شتمونى ولكنك شتمتَنى ، فحشاً ألِفتَه ؛ وسوء رأى عُرفتَ به ، وخُلُقاً سيئا ثبتٌ عليه ، وبغياً علينا ؛ عداوةً منك لمحمد وأهله ، ولكن اسمع يا معاوية ، واسمعوا فلأقولنّ فيك وفيهم ما هو دون ما فيكم .

أنشدُكم الله أيها الرّهط ، أتعلمون أن الذى شتمتموه منذ اليوم ، صلّى القبلتين كلتيهما وأنت يامعاوية بهما كافر ؛ تراها ضلالة ، وتعبد اللات والعزى غواية !

وأنشدكم الله هل تعلمون أنه بايع البَيْعتين كلتيهما : بيعة الفتح وبيعة الرضوان ، وأنت يا معاوية بإحداهما كافر ، وبالأخرى ناكث !

وأنشدُكم الله هل تعلمون أنه أولُ الناس إيمانا ، وأنك يا معاوية وأباك

من المؤلفة قلوبهم تُسِرُّون الكفر ، وتظهرون الإسلام ، وتُستمالون بالأموال !

وأنشدُكم الله، ألستم تعلمون أنه كان صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بَدْر، وأنّ راية المشركين كانت مع معاوية ومع أبيه ، ثم لقيكم يوم أُحُد ويوم الأحزاب ، ومعه راية رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومعك ومع أبيك رايةُ الشِّرك ؛ وفى كلّ ذلك يفتح الله ويُفلج حُجّتَه ، وينصر دعوتَه ، ويصدّق حديثه ، ورسول الله صلى الله عليه وآله فى تلك المواطن كلّها عنه راضٍ ، وعليك وعلى أبيك ساخط ! وأنشدك الله يا معاوية ، أتذكر يوماً جاء أبوك على جمل أحمر ، وأنت تسوقُه ، وأخوك عتبة هذا يقوده ، فرآكم رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ فقال : « اللهمّ العن الراكب والقائد والسائق ! » .

أتنسى يا معاوية الشعر الذى كتبتَه إلى أبيك لما همّ أن يُسلم ، تنهاه عن ذلك :

ياصخر لا تُسْلِمنْ يوماً فتفضحَنا	بعد الذين بِبَدْرٍ أصبحُوا فِرَقا
خالى وعمّى وعمّ الأمّ ثالثهمْ	وحنظلُ الخير قد أهدى لنا الأرَقا
لا تركَنَنّ إلى أمرٍ تكلّفنا	والرّاقصات به فى مكة الخُرُقَا
فالموتُ أهونُ من قول العِداة : لقدْ	حادَ ابنُ حربٍ عن العُزّى إذا فَرِقا[(١)]

والله لَمَا أخفيتُ من أمرك أكبرُ مما أبديتُ .

وأنشدكم الله أيها الرهط ؛ أتعلمون أن عليًا حرّم الشهواتِ على نفسه بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فأنزل فيه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾[(٢)] ، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله بعث أكابرَ أصحابه إلى بنى قريظة فنزلوا من حِصْنهم فهُزموا ، فبعث عليًا بالراية ، فاستنزلهم على حكم الله وحكم رسوله ، وفعل فى خَيْبر مثلها !

---

(١) فرق ، كفرح : فزع واضطرب .   (٢) سورة المائدة ٨٧ .

ثم قال : يامعاوية أظنُّك لاتعلم أنّى أعلم مادعا به عليك رسول الله صلى الله عليه وآله لما أراد أن يكتبَ كتابا إلى بنى خُزيمة ، فبعث إليك [ابن عباس، فوجدك تأكل، ثم بعثه إليك مرة أخرى فوجدك تأكل ، فدعا عليك الرسول بجوعك][1] ونهمِك إلى أن تموت.

وأنتم أيها الرّهط : نشدتُكم الله ، ألا تعلمون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لعن أبا سفيان فى سبعة مواطن لاتستطيعون ردّها :

أوّلها: يوم لَقِيَ رسول الله صلى الله عليه وآله خارجا من مكّة إلى الطائف ، يدعو ثقيفا إلى الدِّين ، فوقع به وسبّه وسفَّهَهُ وشتَمه وكذّبه وتوعّده ، وهمّ أن يَبطش به، فلعنه الله ورسوله وصُرِف عنه .

والثانية يوم العِير ؛ إذ عرض لها رسول الله صلى الله عليه وآله وهى جائيةٌ من الشام، فطردها أبو سفيان ، وساحَل بها، فلم يظفر المسلمون بها، ولعنه رسول الله صلى الله عليه وآله ودعا عليه ، فكانت وقعة بدر لأجلها .

والثالثة يوم أُحُد ، حيث وقف تحت الجبل ، ورسول الله صلى الله عليه وآله فى أعلاه ، وهو ينادى : اعْلُ هُبَل ! مرارا ، فلعنه رسول الله صلى الله عليه وآله عشر مرات ، ولعنه المسلمون .

والرابعة يوم جاء بالأحزاب وغَطفَان واليهود ، فلعنه رسول الله وابتهل .

والخامسة يوم جاء أبو سفيان فى قريش فصدُّوا رسول الله صلى الله عليه وآله عن المسجد الحرام « والهدْىَ معكوفًا أن يبلغ مَحِلّه » ذلك يوم الحدَيبية ، فلعن رسول الله صلى الله عليه وآله أباسفيان ، ولعن القادة والأتباع ، وقال : «ملعونون كلُّهم ، وليس فيهم من يؤمن » ، فقيل : يارسول الله ، أفما يُرْجَى الإسلام لأحد منهم فكيف باللعنة ؟ فقال : « لا تصيب اللعنة أحدا من الأتباع ، وأما القادة فلا يفلح منهم أحد » .

(١) زيادة يقتضيها السياق ، أخذت عن قصة جاءت فى ترجمة معاوية فى أسد الغابة ٤ : ٣٨٦ نقلها عن صحيح مسلم .

والسادسة يوم الجمل الأحمر .

والسابعة يومَ وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وآله فى العَقَبة ليستنفروا ناقته ، وكانوا اثنى عشر رجلا ، منهم أبو سفيان .

فهذا لك يامعاوية؛ وأما أنت يابنَ العاص؛ فإنّ أمرَك مشترَك، وضعتك أمك مجهولا؛ من عُهر وسِفاح ، فيك أربعة من قريش ، فغلب عليك جزّارُها ، ألأمُهُمْ حَسبا ، وأخبثهم منصِبا ؛ ثم قام أبوك فقال : أنا شانىء محمدٍ الأبتر ، فأنزل الله فيه ما أنزل .

وقاتلتَ رسول الله صلى الله عليه وآله فى جميعِ المشاهد ، وهجوْتَه وآذيته بمكّة وكِدته كيدَك كلّه ، وكنتَ من أشدّ النّاس له تكذيبا وعداوةً .

ثم خرجتَ تريد النّجاشىّ مع أصحاب السفينة ، لتأتِىَ بجعفر وأصحابه إلى أهل مكة، فلما أخطأك ما رجوْتَ ورجَعك الله خائبا ، وأكذَبَك واشِياً ، جعلت حدَّك على صاحبك عُمارة بن الوليد ، فوشَيت به إلى النجاشىّ ، حسدًا لما ارتكبَ مع حليلتك ، ففضحك الله وفضحَ صاحبك .

فأنت عدوّ بنى هاشم فى الجاهلّية والإسلام . ثم إنك تعلم وكلّ هؤلاء الرّهْط يعلمُون أنك هجوتَ رسول الله صلى الله عليه وآله بسبعين بيتا من الشِّعر ، فقال رسول الله صلى عليه وآله : « اللّهمّ إنى لا أقول الشّعر ولا ينبغى لى ، اللّهمّ العنه بكل حرفٍ ألف لعنة » ؛ فعليك إذاً من الله مالا يحصَى من اللعن .

وأما ما ذكرتَ من أمر عثمان ، فأنت سعّرت عليه الدّنيا نارا ، ثم لحقت بفلسطين ، فلمّا أتاك قتلُه ، قلت : أنا أبو عبد الله إذا نكأتُ قَرْحة أدميتُها . ثم حبستَ نفسك إلى معاوية ، وبعتَ دينك بدنياه ، فلسنا نلومك على بُغض ، ولا نعاتبك على ودّ ، وبالله

مانصرت عثمان حيًا ولا غضِبت له مقتولا ، ويحك يابن العاص ! ألستَ القائل فى بنى هاشم لما خرجت من مكة إلى النجاشىّ :

تقول ابنتى أين هـذا الرحيـل ومـا السَّيْرُ مِنِّى بمستنكَر
فقلت : ذرينى فـإنى امرؤٌ أريدُ النجـاشىَّ فى جعفرِ
لأكْوِيَهُ عنـده كيَّةً أقيمُ بهـا نخوةَ الأصْعَرِ
وشانئُ أحمـدَ من بينهمْ وأقولُهم فيـه بالمنكَرِ
وأجرى إلى عتبةٍ جاهـداً ولو كانَ كالـذَّهَبِ الأحمرِ
ولا أنثنى عن بَنِى هـاشمٍ ومااسطعتُ فى الغَيبِ والمَحْضَرِ
فـإنْ قَبِـل العَتْبَ منِّى لَهُ وإلا لَوَيْتُ له مِشفَرِى

فهذا جوابك ، هل سمعته !

وأما أنت ياوليد ؛ فوالله ماألومك على بغض علىّ ، وقد جلدك ثمانين فى الخمر ، وقتَل أباكَ بين يدىْ رسول الله صبرا ، وأنت الذى سمّاه الله الفاسق ، وسمّى عليا المؤمن ، حيث تفاخرتما فقلتَ له : اسكت ياعلىّ ، فأنا أشجع منك جنانا ، وأطول منك لسانا ، فقال لك علىّ : اسكُتْ ، ياوليد فأنامؤمن وأنت فاسق ؛ فأنزل الله تعالى فى موافقة قوله : ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾[1] ، ثم أنزل فيك على موافقة قوله أيضا : ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[2].

ويحك ياوليد ! مَهْمَا نسيتَ ، فلا تنسَ قول الشاعر فيك وفيه :

أنزل الله والـكتاب عزيزٌ فى علىٍّ وفى الوليـد قرآنا

---

(١) سورة السجدة ١٨ .
(٢) سورة الحجرات ٦ .

فتبوّا الوليــد إذ ذاك فِسْقاً   وعلىٌّ مبــوّأٌ إيمانا
ليس من كان مؤمنا ـ عَمْرَكَ اللهُ ـ كَمَنْ كان فاسقا خَــوّانا
سوف يُدْعَى الوليد بعد قليل   وعلىٌّ إلى الحساب عِيانا
فعلىٌّ يُجــزى بذاك جِناناً   ووليــدٌ يُجزى بذاك هَوانا
رُبَّ جَدٍ لِعُقْبَة بن أبانٍ   لابس فى بلادنا تُبّانا(١)

وما أنت وقريش ؟ إنما أنت عِلج من أهل صَفّورية ، وأقسم بالله لأنت أكبر فى الميلاد ، وأسنّ ممن تدعى إليه .

وأما أنت ياعتبة ؛ فوالله ماأنت بحصيف فأجيبك ، ولا عاقل فأحاورَك وأعاتبَك ، وما عندك خير يُرْجَى ، ولا شرّ يتقى ، وما عقلك وعقل أَمَتِك إلا سواء ، ومايضرّ عليًّا لو سبَبْتَه على رءوس الأشهاد !

وأما وعيدك إيّاى بالقتل ، فهلّا قتلت اللّحيانىّ إذ وجدته على فراشك ! أماتستحي من قول نصر بن حجاج فيك :

يا للرجال وحادثِ الأزمان   ولَسُبَّــةٍ تُخزى أبا سفيانِ
نُبِّئْتُ عتبةَ خانه فى عِرْسِه   جِبْسٌ لئيمُ الأصــل من لِحْيانِ

وبعدَ هذا ، ماأربأ بنفسى عن ذكره لفحشه؛فكيف يخاف أحدٌ سيفَك ، ولم تقتلْ فاضحَك ! وكيف ألومك على بغض علىٍّ ،وقد قتلَ خالك الوليد مبارزة يوم بدر،وشَرِك حمزة فى قتل جدّك عتبة ، وأوْحَدك من أخيك حنظلة فى مقام واحد !

وأما أنت يامغيرة ؛ فلم تكن بخليقٍ أن تقع فى هذا وشِبْهه،وإنما مَثَلك مثَلُ البعوضة إذ قالت للنخلة : استمسكى ؛ فإنى طائرة عنك ، فقالت النخلة : وهل علمتُ بكِ واقعة علىّ فأعلم بكِ طائرةً عنى !

---

(١) التبان : سراويل صغيرة (معرب : تمبان بالفارسية) يكون للملاحين .

واللهِ ما نشعرُ بعداوتك إيّانا، ولا اغتممنا إذ علمنا بها، ولا يشقّ علينا كلامُك، وإن حدّ الله فى الزّنا لثابت عليك، ولقد درأ عمرُ عنك حقا ؛ اللهُ سائله عنه !

ولقد سألتَ رسول الله صلى الله عليه وآله : هل ينظر الرجل إلى المرأة يريد أن يتزوجها ؟ فقال : « لا بأس بذلك يامغيرة مالم ينو الزنا » ، لعلمه بأنكَ زانٍ .

وأما فخركم علينا بالإمارة: فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾ (١) .

ثم قام الحسن فنفضَ ثوبه، وانصرف ؛ فتعلّق عمرو بن العاص بثوبه ، وقال: ياأمير المؤمنين ، قد شهدتَ قوله فىّ وقذفَه أمّى بالزنا ، وأنا مطالب له بحدّ القذف .

فقال معاوية : خلّ عنه لا جزاك الله خيراً . فتركه .

فقال معاوية: قد أنبأتكم أنه ممّن لا نطاق عارضتُه، ونهيتكم أن تسبّوه فعصيتمونى، والله ما قام حتى أظلم علىّ البيت، قوموا عنّى، فلقد فضحكم الله وأخزاكم بترككم الحزْم، وعُدولِكم عن رأى النّاصح المشفِق ؛ والله المستعان .

[عمرو بن العاص ومعاوية]

وروى الشّعبىّ ، قال : دخل عمرو بن العاص على معاوية يسأله حاجة، وقد كان بلغ معاويةَ عنه ما كَرِهَهُ ، فكره قضاءها وتشاغل ، فقال عمرو : يامعاوية ؛ إنّ السخاء فِطنة ، واللؤمَ تغافل، والجفاء ليس من أخلاق المؤمنين. فقال معاوية: ياعمرو؛ بماذا تستحقّ منّا قضاء الحوائج العظام ؟ فغضب عمرو وقال : بأعظم حقّ وأوْجَبِه ، إذْ كنتَ فى بحر عجّاج، فلولا عمرو لغرقتَ فى أقلّ مائه وأرقّه، ولكنّى دفعتك فيه دفعة فصرتَ فى وسطه، ثم دفعتك فيه أخرى فصرت فى أعلى المواضع منه ، فمضى حكمُك ، ونفذ أمرُك، وانطلق

(١) سورة الإسراء ١٦ .

لسانُك بعد تلجلجِه ، وأضاء وجهك بعد ظلمتِه ، وطمستْ لك الشمسَ بالعِهْن المنفوش، وأظلمت لك القمر بالليلة المدلهمّة .

فتناوم معاوية، وأطبق جفنيه مليًّا، فخرج عمرو ، فاستوى معاوية جالساً وقال لجلسائه: أرأيتم ماخرج من فم ذلك الرجل ؟ ما عليه لو عرَّض ؛ ففى التعريض ما يكفى ! ولكنه جَبهنى [1] بكلامه ، ورمانى بسموم سِهامه .

فقال بعض جلسائه : ياأميرَ المؤمنين ؛ إن الحوائج لتُقضى على ثلاث خصال : إمّا أن يكون السائلُ لقضاء الحاجة مستحقاً فتُقْضَى له بحقّه ، وإمّا أن يكون السائل لئيماً فيصونَ الشريف نفسَه عن لسانه فيقضِىَ حاجته ، وإمّا أن يكون المسئول كريماً فيقضيَها لكرمه؛ صغُرتْ أو كبرتْ .

فقال معاوية : لله أبوك ! ماأحسن مانطقت ! وبعث إلى عمرو فأخبره ، وقضى حاجته ووصله بصِلَة جليلة ، فلما أخذها ولّى منصرفاً. فقال معاوية : ﴿ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [2] فسمعها عمرو ، فالتفت إليه مغضباً وقال : والله يامعاوية ، لا أزال آخذ منك قهراً، ولا أطيع لك أمراً ، وأحفِر لك بئراً عميقاً ، إذا وقعت فيه لم تدرَكْ إلا رميماً [3] . فضحك معاوية ، فقال : ماأريدك ياأباعبدالله بالكلمة ، وإنما كانت آية تلوتها من كتاب الله عرَضتْ بقلبى ، فاصنع ماشئت .

[عبد الله بن جعفر وعمرو بن العاص فى مجلس معاوية]

وروى المدائنىّ قال : بينا معاوية يوما جالسا عنده عمرو بن العاص ، إذ قال الآذن : قد جاء عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، فقال عمرو : والله لأسُوءنَّه اليوم ، فقال معاوية : لاتفعل ياأبا عبد الله ، فإنك لاتنتصف منه ، ولعلّك أن تُظهِرَ لنا من منقبته ماهو خفىّ عنا، وما لا نحبُّ أن نعلمَه منه .

---

(١) جبهه : لقيه بما يكره من الكلام . (٢) سورة التوبة ٥٨ .
(٣) الرميم : البالى من العظام .

وغشيهم عبدالله بن جعفر ؛ فأدناه معاوية وقرّبه ، فمال عمرو إلى بعض جلساء معاوية، فنال من عليّ عليه السلام جِهاراً غير ساتر له ، وثَلَبه ثلباً قبيحاً .

فالتمع لونُ عبد الله بن جعفر واعتراه أفْكَل حتى أرْعدت خصائله [1] ، ثم نزل عن السرير كالفَنيق [2] ، فقال عمرو : مَهْ يا أبا جعفر ! فقال له عبد الله : مه لا أمّ لك ! ثم قال :

أظنّ الحِلْمَ دلّ عليّ قومى وقد يُسْتجْهَلُ الرجلُ الحليمُ [3]

ثم حَسَر عن ذراعيه ، وقال : يامعاوية ، حتّامَ نتجرّع غيظَك ؟ وإلى كم الصبرُ على مكروه قولك، وسيّئ أدبك ،وذميم أخلاقك ! هَبِلَتْكَ الهَبُول [4] ! أمايزجرك ذِمام المجالسة عن القَذْع لجليسك إذا لم تكن لك حُرْمة مِنْ دينك تنهاك عما لا يجوز لك ! أما والله لو عطَفَتْكَ أواصرُ الأرحام ، أو حاميْتَ على سهمك من الإسلام ، ما أرعَيْت بنى الإماء المُتْك [5] ، والعَبيد الصُّكّ أعراضَ قومك .

ومايجهل موضعَ الصَّفْوة [6] إلا أهل الجفوة ، وإنك لَتعرف وشائظ [7] قريش وصَبْوة غرائزها ، فلا يدعونك تصويبُ مافرَط من خطئك فى سفك دماء المسلمين ، ومحاربة أمير المؤمنين ، إلى التمادى فيما قد وضح لك الصواب فى خلافه . فاقصِدْ لمنهج الحقّ ، فقد طال عَمَهُك [8] عن سبيل الرُّشد ، وخبطُك فى بحور ظلمة الغيّ .

---

(١) الأفكل : الرعدة ، والخصائل : كل لحمة فيها عصب .

(٢) الفنيق : الفحل المكرم الذى لا يؤذى لكرامته .

(٣) من أبيات لقيس بن زهير ، وقوله : « يستجهل الرجل الحليم » أى إذا أحرج الحليم ، فقد يتكلف مالا يكون معهوداً فى طبعه .

(٤) الهبول ، بالفتح : المرأة الثكول .

(٥) المتك : جمع متكاء ؛ وهى الجارية البظراء وهو مما يسب به . والرجل الأصك : المضطرب الرجلين ، وجمع الأصك صكّ .

(٦) صفوة القوم : خيارهم .

(٧) يقال : هو وشيظة فى قومه ، وجمعه وشائظ ، أى حشو فيهم . (٨) ب : « عماك » .

فإن أبيت ألّا تتابعنا فى قبح اختيارك لنفسك ، فأعفِنا من سوء القالة فينا إذا ضمّنا وإياك الندىّ ، وشأنَك وما تريد إذا خلوت ؛ والله حسيبك ، فو الله لولا ماجعل الله لنا فى يديك لما أتيناك .

ثم قال : إنك إن كلّفتنى ما لم أطِقْ ساءك ما سَرّك منّى من خُلُق .

فقال معاوية : يا أبا جعفر ، أقسمت عليك لتجلسنّ ، لعن الله مَنْ أخرج ضَبّ صَدْرِك من وجاره ؛ محمولٌ لك ما قلت ، ولك عندنا ما أمّلت ، فلو لم يكن مَحْمِدُك ومنصبك لكان خُلُقك وخَلْقك شافِعَيْنِ لك إلينا ، وأنت ابنُ ذى الجناحين وسيّد بنى هاشم .

فقال عبد الله : كلاّ ، بل سيّد بنى هاشم حسن وحسين ، لاينازعهما فى ذلك أحد .

فقال : أبا جعفر ، أقسمت عليك لمَاَ ذكرت حاجة لك إلا قضيتُها كائنة ما كانت ، ولو ذهبتْ بجميع ما أملِك ، فقال : أما فى هذا المجلس فلا ، ثم انصرف .

فأتبعه معاوية بصرَه ، وقال : والله لكأنه رسول الله صلى الله عليه وآله ، مشيُه وخُلُقه وخَلْقه ، وإنه لمن مِشْكاتِه ، ولوددت أنه أخى بنفيس ما أملِك .

ثم التفت إلى عمرو ، فقال : أبا عبد الله ، ما تراه منعه من الكلام معك ؟ قال : ما لا خفاء به عنك ، قال : أظنّك تقول : إنه هابَ جوابك ؛ لا والله ، ولكنّه ازدَراك واستَحقرك ، ولم يرك للكلام أهلاً ، أما رأيتَ إقبالَه علىّ دونك ذاهبا بنفسه عنك !

فقال عمرو : فهل لك أن تسمع ما أعددتُه لجوابه ؟ قال معاوية : اذهب إليك أبا عبد الله ، فلات حين جوابٍ سائرَ اليوم .

ونهض معاوية وتفرّق الناس .

***

[عبد الله بن العباس ورجالات قريش فى مجلس معاوية]

وروى المدائنى أيضاً قال: وَفَد عبد الله بن عباس على معاوية مرّة، فقال معاوية لابنه يزيد، ولزياد بن سُمية، وعتبة بن أبى سفيان، ومَرْوان بن الحكم، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن أمّ الحكم: إنه قد طال العهد بعبد الله بن عباس، وما كان شَجَر بيننا وبينه وبين ابن عمّه، ولقد كان نَصَبه للتحكيم فدُفع عنه، فحرِّكوه على الكلام لنبلُغَ حقيقة صفته، ونقِفَ على كنْه معرفته، ونعرف ما صُرِف عنا من شبا حَدّه، وزُوِيَ عَنّا من دهاء رأيه، فربما وُصِف المرء بغير ما هو فيه، وأُعْطِيَ من النعت والاسم ما لا يستحقه.

ثم أرسل إلى عبد الله بن عباس، فلما دخل واستقرّ به المجلس، ابتدأه ابن أبى سفيان فقال: يابن عباس، ما منع عليّاً أن يوجِّه بك حَكما؟ فقال: أما والله لو فعل لقرن عمراً بصَعْبة من الإبل، يوجع كفّه[1] مرامُها، ولأذهلتُ عقله، وأجرضته بريقه، وقدحت فى سويداء قلبه، فلم يبرمْ أمراً، ولم ينفض ترابا، إلا كنت منه بمرأى ومسمع، فإن أنكأه أدميت قواه، وإن أدْمِه فصَمت عراه، بغرْب مِقْوَل لا يفلّ حدُّه، وأصالة رأى كمتاح الأجل لا وَزَر منه، أصدع به أديمَه، وأفلُّ به شَبا حَدّه، وأشحَذُ به عزائم المتقين، وأزيح به شُبَه الشاكين.

فقال عمرو بن العاص: هذا والله يا أمير المؤمنين نجومُ أوّل الشرّ، وأفولُ آخرِ الخير، وفى حَسْمِه قطع مادّته، فبادرْه بالحملة، وانتهز منه الفرصة، واردَع بالتنكيل به غيرَه، وشرِّد به مَنْ خَلْفَه.

فقال ابن عباس: يا بنَ النابغة؛ ضلّ والله عقلُك، وسَفُه حِلْمك، ونطق الشيطانُ على لسانك؛ هلاّ توليتَ ذلك بنفسك يوم صِفّين حين دُعيتَ نَزالِ[2]، وتكافح الأبطال،

---

(١) ا: «كفيه». (٢) نزال هنا بمعنى المنازلة.

وكثرت الجراح ، وتقصّفتِ الرّماح ، وبرزتَ إلى أمير المؤمنين مصاولا ، فانكفأ نحوك بالسيف حاملا ؛ فلما رأيت الكواشرَ من الموت ؛ أعددت حيلةَ السلامة قبل لقائه ، والانكفاء عنه بعد إجابة دعائه ، فمنحته ـ رجاء النجاة ـ عورتك ، وكشفتَ له ـ خوف بأسه ـ سوأتك ، حـذَراً أن يصطلمك بِسَطْوَته ، ويلتهمك بحَمْلته ، ثم أشرت على معاوية كالناصح له بمبارزته ، وحسَّنْت له التعرُّض لمكافحته ، رجاء أن تكتفى مؤنته ، وتعدم صورته ، فعلم غِلَّ صدرك ، وما انحنت عليه من النفاق أضلعُك ، وعرَفَ مَقَرَّ سهمك فى غَرَضك .

فاكفف غَرْب لسانِك ، واقمَع عوراء لفظك؛ فإنك لمن أسدٍ خادرٍ [1] ، وبحر زاخر ، إن تبرّزت للأسد افترسَك ؛ وإن عُمْت فى البحرِ قمسك [2] .

فقال مرْوان بن الحكم: يابن عباس إنّك لتصرف أنيابك، وتُورى نارك، كأنك ترجو الغَلَبة وتؤمّل العافية ، ولولا حلم أمير المؤمنين عنكم لتناولكم بأقصرِ أنامله، فأوردكم منهلاً بعيداً صدَرُه ، ولعمرى لئن سَطَا بِكُمْ ليأخذَنّ بعضَ حقّه منكم، ولئن عفَا عن جرائركم فقديماً مانُسب إلى ذلك .

فقال ابن عباس : وإنك لتقول ذلك ياعدوّ الله ، وطريد رسول الله ، والمباح دمه ، والداخل بين عثمان ورعيّته، بما حملهم على قطع أوداجه، وركوب أثباجه ! أما والله لو طلب معاوية ثأره لأخذك به ، ولو نظر فى أمر عثمان لوجدك أوله وآخره .

وأما قولك لى : «إنك لتصرف أنيابك، وتورى نارك» ؛ فسَلْ معاوية وعمراً يخبراك ليلة الهرير ، كيف ثباتنا للمَثُلات، واستخفافنا بالمعضلات، وصدقُ جلادنا عند المصاوَلة ، وصبرُنا

---

(١) أسد خادر : مقيم فى خدره .

(٢) قمسك : غمسك ، وفى « ا » : « غمسك » .

على اللَّأواء والمطاولة، ومصافحتنا بجباهنا السيوف المرهَفة؟ ومباشرتُنا بنحورنا حَدَّ الأسِنَّة، هل خِمنا[1] عن كرائم تلك المواقف، أم لم نبذل مُهجنا للمتالف؟ وليس لك إذ ذاك فيها مقامٌ محمود، ولا يومٌ مشهودٌ، ولا أثر معدود، وإنهما شهدا مالو شهدتَ لأقلقك؛ فاربَعْ على ظَلْعِك، ولا تتعرّض لما ليس لك، فإنك كالمغروز فى صَفَدٍ، لا يهبط برجل، ولا يرقى بيد.

فقال زياد : يابن عباس، إنى لأعلم مامنع حسَنا وحسينا من الوفود معك على أمير المؤمنين إلا ماسوّلت لهما أنفسهما، وغرّهما به مَنْ هو عند البأساء سلّمهما، وايم الله لو وَليتُهما لأدأبا فى الرّحلة إلى أمير المؤمنين أنفسَهما، ولقلّ بمكانهما لبثُهما.

فقال ابن عباس : إذن والله يقصرُ دونهما باعُك، ويضيق بهما ذراعك، ولو رُمتَ ذلك لوجدت من دونهما فئة صُدُقا، صُبُرا على البلاء، لا يخيمون عن اللقاء، فلعَرَكوك بكلا كلهم، ووَطِئوك بمناسمهم، وأوجروك مُشَق رماحهم، وشِفار سيوفهم ووخز أسنتهم، حتى تشهد بسوء ماأتيت، وتتبيّن ضياع الحزم فيما جنيت. فحذارِ حذارِ من سوء النية فتكافأ برد الأمنيّة، وتكون سببا لفساد هذين الحيَّيْن بعد صلاحهما، وسعياً فى اختلافهما بعد ائتلافهما، حيث لا يضرّهما إبساسُك، ولا يغنى عنهما إيناسك.

فقال عبد الرحمن بن أم الحكم : لله دَرُّ ابن مُلجم ! فقد بلغ الأمل، وأمِن الوجل، وأحدّ الشفرة وألانَ المُهرَة، وأدرك الثار، ونفَى العار، وفاز بالمنزلة العليا، ورقى الدرجة القصوى.

فقال ابن عباس : أما والله: لقد كرع كأسَ حتفه بيده، وعجّل اللهُ إلى النار بروحه،

---

(١) خمنا : ضعفنا .

ولو أبدى لأمير المؤمنين صفحته لخالطه الفحل القَطِم[1] والسيف الخَذِم[2]، ولألقمه صابا، وسقاه سماً ، وألحقه بالوليد وعُتبة وحنظلة ، فكلّهم كان أشدّ منه شكيمة ، وأمضى عزيمة ، ففرَى بالسيف هامَهم ، ورمّلهم[3] بدمائهم ؛ وقرى الذئاب أشلاءهم، وفرّق بينهم وبين أحبائهم : ﴿ أولئك حَصَبُ جهنم هم لها واردونَ ﴾[4] ، و ﴿ هَلْ تُحِسّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً[5] ﴾ ، ولا غَرْو إن ختِل، ولا وصمةَ إن قُتل؛ فإنّا لكما قال دُرَيد ابن الصِّمّة :

فإنا لَلَحْمُ السيف غيرَ مكرَّهٍ ونلحِمه طوراً وليس بذِي نُكرِ[6]
يُغار علينا واترين فيُشتفَى بنا إن أُصبنا ، أو نُغير على وِترِ

فقال المغيرة بن شُعبة : أما والله لقد أشرت على عليّ بالنصيحة فآثر رأيه ، ومضى على غُلَوائه ، فكانت العاقبة عليه لا له ، وإنى لأحسِب أن خلَفه يقتدون بمنهجه .

فقال ابن عباس : كان والله أميرُ المؤمنين عليه السلام أعلمَ بوجوه الرأى، ومعاقد الحزم، وتصريف الأمور ، من أن يقبل مشورتك فيما نهى الله عنه ، وعنّف عليه، قال سبحانه: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ...﴾[7] ؛ ولقد وقفك على ذِكر مبين ، وآية متلوّة قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ

---

(١) القطم : الفحل الصئول .
(٢) الخذم : القاطع . (٣) رملهم : لطخهم .
(٤) سورة الأنبياء ٩٨ . (٥) سورة مريم ٩٨ .
(٦) من كلمة له فى الأغانى ١٠ : ٥ (طبعة الدار) ، وفى الأغانى :

* غير نكيرة . . . ونلحمه حينا *

ولحمه : أى أطعمه اللحم .
(٧) سورة المجادلة ٢٢.

عَضُداً ﴾ [١] ، وهل كان يسوغ له أن يحكّم فى دماء المسلمين وفىْء المؤمنين ، من ليس بمأمون عنده ، ولا موثوق به فى نفسه؟ هيهات هيهات ! هوأعلم بفرْض الله وسنةرسوله أن يُبطِن خلاف ما يظهر إلا للتقيّة ، ولات حين تَقِيّة ! مع وضوح الحق،وثبوت الجنان، وكثرة الأنصار ، يمضى كالسيف المصلَت فى أمر الله ، مؤثراً لطاعة ربّه ، والتقوى على آراء أهل الدنيا .

فقال يزيد بن معاوية : يابن عباس ، إنك لتنطق بلسان طَلْق يُنْبِئ عن مكنون قلب حُرِق ، فاطْوِ ما أنتَ عليه كَشْحاً ، فقد محا ضوء حقنا ظلمةَ باطلكم .

فقال ابن عباس : مهلاً يزيد ، فوالله ما صفَتِ القلوبُ لكم منذ تكدّرت بالعداوة [٢] عليكم ، ولا دَنَتْ بالمحبة إليكم مذنأت بالبغضاء عَنْكم ، لا رضيت اليوم منكم ما سخطت بالأمس من أفعالكم ،وإن تدُل [٣] الأيام نستقض ما سُدّ عنا ، ونسترجع ماابتُزّ منا، كيلًا بكيل، ووزْنا بوزن ، وإن تكن الأخرى فكفى بالله وليًّا لنا،ووكيلاعلى المعتدين علينا .

فقال معاوية : إنّ فى نفسى منكم لحزازاتٍ يا بنى هاشم ، وإنى لخليقٌ أن أدرك فيكم الثار ، وأنفى العار ، فإن دماءنا قِبَلكم ، وظلامتنا فيكم .

فقال ابن عباس : والله إن رُمْتَ ذلك يامعاوية لتثيرَنّ عليك أُسْدا مُخدرة [٤]،وأفاعىَ مطرقة ، لا يفثؤها كثرة السلاح ، ولا يعضّها نكاية الجراح ، يضعون أسيافهم على عواتقهم ، يضربون قدُما قدُما مَن ناوأهم ، يهون عليهم نُباح الكلاب وعُواء الذئاب ،

---

(١) سورة الكهف ٥١ . (٢) ساقطة من ب .

(٣) يقال: دالت الأيام ، أى دَرت ، وهومن قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ .

(٤) الأسد الخادر والمخدر : المقيم فى الخدر ؛ وهو العرين .

لا يُفاتون بوِتر ، ولا يُسبَقون إلى كريم ذِكر ، قد وطّنوا على الموت أنفسهم ، وسَمَتْ بهم إلى العَلياء هِمَمُهم ؛ كما قالت الأزدية :

قومٌ إذا شهدوا الهِياج فلا ... ضربٌ يُنهنِهُهم ولا زَجْرُ

وكأنّهم آساد غِينَــة قَدْ ... غَرِثَتْ وبلَّ متونها القطرُ (١)

فلتَكونَنَّ منهم بحيث أعددتَ ليلةَ الهرير للهرب فرسَك ، وكان أكبر همّك سلامة حُشاشةِ نفسك ، ولولا طغامٌ من أهل الشام وقوكَ بأنفسهم ، وبذلوا دونك مُهَجَهم ، حتى إذا ذاقوا وَخز الشِّفار ، وأيقنوا بحلول الدّمار ، رفعوا المصاحف مستجيرين بها ، وعائذين بعِصْمَتها ـ لكنتَ شِلواً (٢) مطروحا بالعَراء ، تَسْفِي عليك رياحُها ، ويعتورك ذُبابها .

وما أقول هذا أريد صرفَك عن عَزِيمتك ، ولا إزالتَك عن معقود نيّتك ، لكنّ الرَّحِم التى تعطف عليك ، والأوامر التى توجب صرفَ النّصيحة إليك .

فقال معاوية : لله درّك يابن عباس ! ماتكشف الأيام منك إلا عن سيف صقيلٍ ، ورأى أصيلٍ ! وبالله لو لم يلد هاشمٌ غيرَك لما نقص عددُهم ، ولو لم يكن لأهلك سواك لكان الله قد كثّرهم .

ثم نهض ، فقام ابن عباس وانصرف .

* * *

وروى أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب فى أماليه ، أن عمرو بن العاص قال لعُتبة ابن أبى سفيان يوم الحكَمين : أما ترى ابنَ عباس قد فتح عينيْه ، ونشَر أذنيه ، ولو قدر أن يتكلّمَ بهما فعل ، وإن غَفْلة أصحابه لمجبورة بفطنته ، وهى ساعتنا الطُّولى فاكفنيه .

قال عتبة : بجهدى .

---

(١) الغينة : الأشجار الملتفة فى الجبال وفى السهول بلا ماء ؛ فإذا كانت بماء فهى الغيضة . والغينة أيضاً : موضع باليمن . (٢) الشلو : العضو من أعضاء اللحم .

قال : فقمت فقعدت إلى جانبه ، فلما أخذ القومُ فى الـكلام أقبلت عليه بالحديث ، فقرَع يدىَ ، وقال : ليست ساعة حديث ؛ قال : فأظهرتُ غضبا ، وقلت : يابن عباس، إن ثقتَك بأحلامنا أسرعتْ بك إلى أعراضنا،وقد والله تقدّم من قَبْلُ العذر ، وكثُر مِنّا الصبر ؛ ثم أقذعتهُ فجاش لى مِرْجله وارتفعت أصواتنا،فجاء القوم فأخذوا بأيدينا فنحّوْه عنى ونحّوْنى عنـه ، فجئت فقرُبت من عمرو بن العاص ، فرمانى بمؤخر عينيـه وقال : ماصنعت؟فقلت : كفيتك التّقوالة،فحَمْحَم كما يُحمحِم الفرس للشعير . قال:وفات ابن عباس أوّل الـكلام ، فـكره أن يتكلّم فى آخره .

وقد ذكرنا نحن هذا الخبر فيما تقدم فى أخبار صِفّين على وجه آخر غير هذا الوجه .

***

[عُمارة بن الوليد وعَمْرو بن العاص فى الحبشة]

فأما خبر عُمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومىّ،أخى خالد بن الوليد مع عمرو بن العاص فقد ذكره ابن إسحق فى كتاب '' المغازى '' قال :

كان عُمارة بن الوليد بن المغيرة وعمرو بن العاص بن وائل،بعد مَبْعَث رسول الله صلى الله عليه وآله ، خرجا إلى أرض الحبشة على شِرْكهما ، وكلاهما كان شاعراً عارِماً فاتِـكاً . وكان عُمارة بن الوليد رجلا جميلا وَسيماً تَهواه النساء ، صاحبَ محادثة لهنّ ؛ فركبا البحر ومع عمرو بن العاص امرأته ، حتى إذا صاروا فى البحر ليالىَ، أصابا من خَمْرٍ معهما ، فلما انتشى عمارة قال لامرأة عمرو بن العاص : قبّلينى ، فقال لها عمرو : قبّلى ابنَ عمك،فقبّلته فهَوِيَها عُمارة،وجعل يراودها عن نفسها،فامتنعتْ منه.ثم إن عمراً جلس على مِنجاف[1]

---

(١) المنجاف : سكان السفينة .

السفينة يبول ، فدفعه عمارة فى البحر فلما وقع عمرو سبح ، حتى أخذ بمجاف السفينة ، فقال له عُمارة : أما والله لو علمتُ أنك سابحٌ ماطرحتُك ، ولكننى كنتُ أظنّ أنك لاتحسنُ السباحة ، فضغِن عمرو عليه فى نفسه ، وعلم أنه كان أراد قتله ؛ ومضيا على وجههما ذلك ؛ حتى قدِما أرضَ الحبشة ؛ فلما نزلاها كتب عمرو إلى أبيه العاص بن وائل ؛ أن اخلعنى وتبرَّأ من جريرتى إلى بنى المغيرة وسائر بنى مخزوم ، وخشِىَ على أبيه أن يُتْبَع بجريرته . فلما قدِم الكتابُ على العاص بن وائل ، مشى إلى رجال بنى المغيرة وبنى مخزوم ، فقال : إن هذين الرَّجُلين قد خرجا حيث علمتم ، وكلاهما فاتك صاحبُ شرّ ، غيرُ مأمونين على أنفسهما ، ولا أدرى مايكون منهما ! وإنى أبرأ إليكم من عمرو وجريرته ، فقد خلعتُه . فقال عند ذلك بنو المغيرة وبنو مخزوم : وأنتَ تخاف عمراً على عُمارة ! ونحن فقد خلعنا عُمارة وتبرأنا إليك من جريرته ، فخلِّ بين الرجلين . قال : قد فعلتُ ، فخلعوهما وبرِئ كلّ قوم من صاحبهم ومايجرى منه .

قال : فلما اطمأنّا بأرض الحبشة ؛ لم يلبثْ عُمارة بن الوليد أن دَبّ لامرأة النجاشىّ — وكان جميلاً صبيحا وسيما — فأدخلته ، فاختلف إليها ، وجعل إذا رجع من مَدخله ذلك يخبر عمراً بما كان من أمره ، فيقول عمرو : لاأصدقك أنك قدرت على هذا ، إن شأن هذه المرأة أرفع من ذلك ؛ فلما أكثر عليه عُمارة بما كان يخبره — وكان عمرو قد علم صدقَه ، وعرف أنه دخل عليها ، ورأى من حاله وهيئته وماتصنع المرأة به إذا كان معها ، وبيتوتته عندها ؛ حتى يأتى إليه مع السَّحَر ماعرف به ذلك ، وكانا فى منزلٍ واحد ؛ ولكنه كان يريد أن يأتيَه بشىء لايستطاع دفعه ، إن هو رفع شأنه إلى النجاشىّ — فقال له فى بعض

مايتذاكران من أمرها : إنْ كنتَ صادقا فقلْ لهـا : فلتدهنْك بدُهن النجاشيِّ الذى لايدّهن به غيره ، فإنى أعرفه ، وائتنى بشىء منه حتى أصدّقك ، قال : أفعل .

فجاء فى بعض مايدخل إليها ، فسألها ذلك ،فدَهنته منه ، وأعطته شيئا فى قارورة ،فلما شمّه عمرو عَرفه ، فقال : أشهد أنك قد صدَقت ! لقـد أصبتَ شيئا ماأصابَ أحـد من العرب مثلَه قطّ ، [ونلت من][1] امرأة الملك [شيئا][1] ماسمعنا بمثل هذا . وكانوا أهلَ جاهلية وشبانا ، وذلك فى أنفسهم فَضْلٌ لمن أصابه وقَدَر عليه .

ثم سكت عنه[2] حتى اطمأنّ، ودخل على النجاشىّ[2] ،فقال : أيها الملك؛ إن معى سفيهاً من سفهاء قريش ، وقد خشيتُ أن يعرّنى[3] عندك أمرُه ،وأردت أن أُعلمَك بشأنه ،وألّا أرفع ذلك إليك حتى أستثبت أنه قـد دخل على بعض نسائك فأ كثر. وهـذا دُهنك قد أعطتْه وادّهن به .

فلما شمّ النجاشىّ الدُّهن، قال : صدقت ، هذا دُهنى الذى لايكون إلا عند نسائى، فلما أثبت أمرَه ، دعا بعُمارة، ودعا نسوة أُخَرَ ، فجرّدُوه من ثيابه ، ثم أمرهنّ أن ينفُخن فى إحليله ، ثم خلى سبيله .

فخرج هاربا فى الوحش ، فلم يزلْ فى أرض الحبشة ، حتى كانت خلافةعمر بن الخطاب، فخرج إليه رجالٌ من بنى المغيرة ، منهم عبد الله بن أبى ربيعة بن المغيرة ــ وكان اسم عبدالله قبل أن يُسلم بجيرا ،فلما أسلم ، سمّاه رسول اللهصلى الله عليه وآله عبد الله ــ فرصدوه على ماء بأرض الحبشة، كان يرِدُه مع الوحش ،فزعموا أنه أقبل فى حُمر من حُمرالوحش ليرد معها، فلما وجد ريح الإنس ، هرب منـه ، حتى إذا أجهده العطش ، ورد فشرِب حتى تملّأ ، وخرجُوا فى طلبه .

---

(١) تكملة من الأغانى .

(٢ــ٢) الأغانى : « حتى إذا اطمأن دخل على النجاشى » .

(٣) عره : لطخه بالعيب ، وفى ا : « يغيرنى » ، وما أثبته عن الأغانى .

قال عبد الله بن أبي ربيعة : فسبقتُ إليه فالتزمته ، فجعل يقول : أرسِلْني ، إني أموت إن أمسكتَني . قال عبد الله : فضبطتُه[1] فمات في يدي مكانه ، فواروْه ثم انصرفوا .

وكان شَعْرُه — فيما يزعمون — قد غطّى كلَّ شيء منه ؛ فقال عمرو بن العاص ، يذكر ما كان صنع به وما أراد من امرأته :

تَعَلَّمْ عُمارَ أنّ من شرِّ سُنّةٍ ... على المرء أن يُدْعَى ابنُ عمٍّ له ابْنَما
أأن كنتَ ذا بُرْدَيْن أحوَى مُرجَّلا ... فلستَ براعٍ لابن عمك مَحرَما
إذا المرء لم يترك طعاما يحبُّه ... ولم ينهَ قلباً غاويا حيثُ يمَّما
قضى وَطَراً منهُ يَسيرا وأصبحتْ ... إذا ذكرت أمثالُها تملأُ الفما[2]

***

[أمر عمرو بن العاص مع جعفر بن أبي طالب في الحبشة]

وأما خبر عمرو بن العاص في شخوصه إلى الحبشة ، ليكيد جعفر بن أبي طالب والمهاجرين من المؤمنين عند النجاشيّ[3] ، فقد رواه كلّ من صنف في السيرة ؛ قال محمد بن إسحاق في كتاب "المغازي" قال :

حدّثني محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهريّ ، عن أبي بكر بن عبد الرحمن ، ابن الحارث بن هشام المخزوميّ ، عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية ، زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله ، قالت :

لما نزلنا بأرض الحبشة جاورْنا بها خيرَ جارٍ ، النجاشيّ ، أمِنّا[4] على ديننا ، وعبدْنا الله لا نُؤذَى كما كنا نُؤذَى بمكة ، ولا نسمع شيئاً نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا

---

(١) في الأغاني : « فضغطته » .
(٢) الخبر والشعر في الأغاني ٩ : ٥٧ — ٥٩ (طبعة الدار)
(٣) النجاشيّ ، وبتخفيفها .
(٤) في الأصول « أمننا » وما أثبته من السيرة .

بينهم أن يبعثوا إلى النجاشيّ فى أمرنا رجلين منهم جَلْدين ، وأن يُهدُوا للنجاشيّ هدايا مما يُستطرَف من متاع مكّة ، وكان من أعجب ما يأتيه منه الأدَم ؛ فجمعوا أدَماً كثيرا ، ولم يتركوا من بَطارقته بِطريقا إلا أهدَوْا إليه هديّة . ثم بعثوا بذلك مع عبد الله بن أبى ربيعة بن المغيرة المخزوميّ وعمرو بن العاص بن وائل السهميّ ، وأمروهما أمرَهم ، وقالوا لهما : ادفعا إلى كلّ بِطريق هديته ، قبل أن تُكلّما النجاشيّ فيهم .

ثم قَدِما إلى النجاشيّ ، ونحن عنده فى خيرِ دار عند خير جار ، فلم يبق من بطارقته بطريقٌ إلا دفعا إليه هديته ، قبلَ أن يكلّما النجاشيّ ، ثم قالا للبطارقة :

إنه قد فرّ[(1)] إلى بلد الملك منّا غِلمانٌ سفهاء ، فارقوا دينَ قومهم ، ولم يدخلوا فى دينكم ، وجاءوا بدين مبتدَع لا نعرفه نحنُ ولا أنتم ، وقد بعثَنا إلى الملك أشرافُ قومهم لنردّهم إليهم ، فإذا كلّمنا الملك فيهم فأشيروا عليه أن يُسْلِمَهم إلينا ولا يكلّمهم ، فإن قومَهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم . فقالوا لهما : نعم .

ثم إنهما قرّبا[(2)] هدايا الملك إليه فقَبِلها منهم ، ثم كلّماه ، فقالا له :

أيّها الملك ، قد فرّ إلى بلادك منّا غِلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، جاءوا بدينٍ ابتدعُوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ؛ وقد بعثَنا فيهم إليك أشرافُ قومِنا من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم ، لتردّهم عليهم ؛ فهمْ أعلى بهم عَيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاينوه منهم .

قالت أم سلَمة : ولم يكن شىء أبغضَ إلى عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص ، من أن يسمع النجاشيّ كلامهم .

فقالت بطارقة الملك وخواصّه حوله : صدقا أيها الملك ، قومُهم أعلَى بهم عينا ، وأعلم

---

(١) السيرة : « ضوى » ، أى أوى .   (٢) السيرة : « قدما » .

بما عابوا عليهم فليسْلِمْهم الملك إليهما ، ليردّاهم (١) إلى بلادهم وقومهم .

فغضب الملك وقال : لا ها اللهِ ! إذاً لا أسلمهم إليهما ، ولا أخفِر (٢) قوما جاورونى ونزلوا بلادى ، واختارونى على سواى ، حتى أدعوهم وأسألهم عمّا يقول هذان فى أمرهم ، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتُهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهم ، وأحسنتُ جوارَهم ماجاورونى .

قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم ، فلمّا جاءهم رسوله اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض : ماتقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا : نقول والله ما علِمْناه ، وما أمرَنا به نبينا صلى الله عليه وآله كائنا [فى ذلك] (٣) ماهو كائن ، فلما جاءوه ، وقد دعا النجاشىُّ أساقفتَه ، فنشروا مصاحفَهم حوله ، سألهم فقال لهم : ماهذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟ قالت أم سلمة : وكان الذى كلّمه جعفر بن أبى طالب فقال له :

أيها الملك إنا كنّا قوما فى جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوىُّ منّا الضعيف . فكنّا على ذلك حتى بعث الله عزّ وجلّ علينا رسولا منّا ، نعرف نسبَه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده ، ونخلع ما كنا عليه نحن وآباؤنا من دونه ، من الحجارة والأوثان ، وأمرَنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرّحِم ، وحسن التجاور ، والكفّ عن المحارم والدماء ، ونهانا عن سائر الفواحش ؛ وقولِ الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصَنة ، وأمرَنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئا ، وبالصلاة وبالزكاة والصيام .

---

(١) السيرة : « فليردهم » .

(٢) فى السيرة : « ولا يكاد قوم » .

(٣) من السيرة .

قالت[1] : فعدّد عليه أمورَ الإسلام كلَّها، فصدّقناه وآمنّا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حَرّم علينا، وأحْلَلْنا ما أحَلّ لنا، فعدا علينا قومُنا فعذّبونا، وفتنُونا عن ديننا، ليردّونا إلى عبادة الأصنام والأوثان عن عبادة الله، وأن نستحلّ ما كنا نستحلّ من الخبائث؛ فلمّا قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلدك، واخترناك على مَنْ سواك، ورغِبنا في جوارك، ورجونا ألّا نظلم عندك أيها الملك.

فقال النجاشيّ : فهل معك مما جاء به صاحبكم عن الله شيء؟ فقال جعفر : نعم. فقال اقرأه عليّ، فقرأ عليه صدْراً من «كهيعص»، فبكى حتى اخضلّت لحيتُه، وبكت أساقفته حتى أخضلوا لحاهم[2]. ثم قال النجاشيّ : والله إن هذا والذى جاء به عيسى لَيخرج من مشكاةٍ واحدة، والله لا أُسْلِمكم إليهم.

قالت أمّ سلمة : فلمّا خرج القوم مِن عنده، قال عمرو بن العاص[3] : والله لأعيبُهم غداً عنده بما يستأصل به خَضْراءهم[3]؛ فقال له عبدالله بن أبى ربيعة — وكان أتقى الرّجُلَيْن: لا تفعلْ، فإنّ لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفوا؛ قال : والله لأخبرنّه غداً أنهم يقولون في عيسى بن مريم إنه عبدٌ. ثم غَدا عليه من الغد، فقال : أيها الملك، إنّ هؤلاء يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيما؛ فأرسِلْ إليهم فسلْهم عمّا يقولون فيه؛ فأرسل إليهم.

قالت أم سلمة : فما نزل بنا مثلُها. واجتمع المسلمون، وقال بعضهم لبعض : ما تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟ فقال جعفر بن أبى طالب : نقول فيه والله ما قال عزّ وجلّ، وما جاء به نبينا عليه السلام، كائنا في ذلك ما هو كائن.

فلمّا دخلوا عليه قال لهم : ما تقولون في عيسى بن مريم؟ فقال جعفر : نقول إنه عبدالله

(١) في الأصول : «قال»، وما أثبته من السيرة.
(٢) السيرة : «أخضلوا مصاحفهم».
(٣ — ٣) السيرة : «والله لآتينه غدا عنه بما أستأصل به خضراءهم، أى جماعتهم».

ورسوله وروحُه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البَتُول .

قالت : فضرب النجاشيّ يديْه على الأرض، وأخذ منها عوداً ، وقال : ماعدا عيسى ابن مريم ماقال هذا العود .

قالت : فقد كانت بطارقته تناخرت حوله، حين قال جعفر ماقال،فقال لهم النجاشيّ: وإن تناخرتم !

ثم قال للمسلمين:اذهبوا فأنتم « سيومٌ » بأرضى،أى آمنون،مَنْ سبَّكم غَرِم، ثم مَنْ سبَّكم غرم ، ثم مَنْ سبّكم غرم ، ما أحِب أن لى دَبْراً[1] ذهباً وأنى آذيتُ رجلامنكم- والدّبر بلسان الحبشة : الجبل - ردُّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى فيها ؛ فوالله ماأخذ الله منى الرّشوة حتى ردّنى إلى مُلكى . فآخذ الرّشوة فيه ، وما أطاع الناسَ فىّ أفأطيعهم فيه !

قالت : فخرج الرجلان من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ماجاءا به ، وأقمنا عنده فى خير[2] دار مع خير جار ، فوالله إنّا لعلى ذلك ؛ إذ نزل به رجلٌ من الحبشة ينازعه فى ملكه .

قالت أمّ سلمة : فوالله ما أصابنا خوفٌ وحزن قَطّ كان أشدَّ من خوف وحزنٍ نزل بنا أن يظهرَ ذلك الرجل على النجاشيّ ، فيأتى رَجل لا يعرفُ من حقّنا ما كان يعرف منه .

قالت : وسار إليه النجاشىُّ وبينهما عرْض النّيل ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله:مَنْ رجلٌ يخرج حتى يحضر وَقْعةالقوم ثم يأتينا بالخبر ؟ فقال الزّبير بن العوام: أنا - وكان من أحدَث المسلمين[3] سِنًّا- فنفخوا له قربة فجعلناها تحت صدره ، ثم سَبَح

---

(١) فى الأصول : « دينا » ، والصواب من السيرة .

(٢) السيرة : « بخير » .

(٣) السيرة : « القوم » .

عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التى بها يلتقى القوم ، ثم انطلق حتى حضرهم . قالت : ودعونا الله للنجاشىّ بالظهور على عدوّه والتمكين له فى بلاده، فوالله إنا لعلى ذلك متوقعون لما هو كائن ، إذ طلع الزبير يسعى ويلوّح بثوبه ويقول : ألا أبشروا ، فقد ظهر النجاشىّ وأهلك الله عدوّه .

قالت : فوالله ما أعلمنا فرحنا فرحة مثلها قطّ، ورجع النجاشىّ، وقد أهلك الله عدوّه وتمكّن ومكّن له فى بلاده ، واستوثق له أمر الحبشة، فكنّا عنده فى خير منزلٍ ودار إلى أن رجعنا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة (١) .

***

وروى عن عبد الله بن جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال : لقد كاد عمرو بن العاص عمّنا جعفرا بأرض الحبشة عند النجاشىّ ، وعند كثير من رعيّته بأنواع الكيد ردّها الله تعالى عنه بلطفه؛ رماه بالقتل والسَّرَق والزّنا فلم يلصق به شىء من تلك العيوب، لما شاهده القوم من طهارته وعبادته ، ونُسكه وسيما النبوّة عليه، فلما نبا معوَلُه عن صفاته ، هيّأ له سمًّا قذفه إليه فى طعام ، فأرسل الله هِرًّا كفأ تلك الصَّحفة ، وقد مدّ يده نحوه ثم مات لوقته ، وقد أكل منها. فتبين لجعفر كيدُه وغائلته فلم يأكل بعدها عنده، ومازال ابن الجزّار عدوًّا لنا أهلَ البيت .

***

[أمر عمرو بن العاص فى صفين]

وأمّا خبر عمرو فى صِفّين واتقائه حملة علىّ عليه السلام ، بطرحه نفسه على الأرض وإبداء سَوْأته : فقد ذكره كلّ من صنف فى السِّيَر كتابا ، وخصوصاً الكتب الموضوعة لصِفّين .

---

(١) الخبر فى سيرة بن هشام ١ : ٢١١ — ٢١٣ (على هامش الروض الأنف) .

قال نصر بن مزاحم فى كتاب صفين ، قال :

حدثنا محمد بن إسحاق ، عن عبدالله بن أبى عمرو ، وعن عبد الرحمن بن حاطب ، قال[1] : كان عمرو بن العاص عدوا للحارث بن نضر الخثعمى[2] ، وكان من أصحاب علىّ عليه السلام ، وكان علىّ عليه السلام قد تهيبته فرسان الشام ، وملأ قلوبهم بشجاعته ، وامتنع كلٌّ منهم من الإقدام عليه . وكان عمرو قلّما جلس مجلساً إلا ذكر فيه الحارث بن نضر الخثعمىّ وعابه ، فقال الحارث :

ليس عمرو بتاركٍ ذكرَه الحا … رث بالسوء أو يلاقى عليّــا[3]

واضعُ السيف فوق منكِبه الأيـ … ـمن لا يحسب الفوارس شيّا

ليتَ عمرا يلقاه فى حَوْمة النَّقْـ … ـع وقد أمست السيرف عِصِيّاً[4]

حيث يدعو للحرب حامية القَوْ … مِ إذا كان بالبِراز مَلِيّا[5]

فالقه إن أردت مكرُمة الدّهْـ … ـر أو الموت كلّ ذاك عليّا

فشاعت هذه الأبيات حتى بلغت عمرا ، فأقسم بالله ليلقيَن عليّاً ولو مات ألف موتة . فلما اختلطت الصفوف لقيَه لحمل عليه برمحه ، فتقدم علىٌّ عليه السلام وهو مخترط سيفاً

---

(١) صفين ٤٨١ وما بعدها .

(٢) صفين : « الجشمىّ » .

(٣) صفين :

ليس عمروٌ بتاركٍ ذكره الحرْ … بَ مدى الدهر أو يلاقى عليــا

(٤) صفين : « صارت السيوف » .

(٥) بعده فى صفين :

فوق شهبٍ مثلِ السحوق من النّخْـ … ـلِ ينـادى المبارزين إليّا

ثمّ يا عَمْرُ نستريح من الفخـ … ـر وتَلْقَى به فتًى هاشميّـا

السحوق من النخل : الطويلة ؛ شبه بها الخيل .

معتقلٌ رمحا ، فلما رهقه همز فرسَه ليعلوَ عليه ، فألقى عمرو نفسه عن فرسه إلى الأرض شاغراً برجليه؛ كاشفا عورته ، فانصرف عنه لافتاً وجهه مستدبِراً له ، فعدّ الناس ذلك من مكارمه وسؤدُده ، وضرِب بها المثل .

***

قال نصر: وحدثنى محمد بن إسحاق ، قال : اجتمع[(١)] عند معاوية فى بعض ليالى صِفّين عمرو بن العاص ، وعُتبة بن أبى سفيان ، والوليد بن عُقبة ، ومروان بن الحكم ، وعبدالله ابن عامر ، وابن طلحة الطَّلحاتِ الخزاعىّ ، فقال عتبة : إن أمْرَنا وأمرَ علىّ بن أبى طالب لَعجَب ! ما فينا إلا موتور مُجتاح[(٢)] .

أمّا أنا فقتل جدّى عُتبة بن ربيعة ، وأخى حنظلة ، وشرِك فى دم عمّى شيبة يوم بدر. وأما أنتَ يا وليد ، فقتلَ أباك صَبْراً ، وأما أنت يابن عامر ، فصرع أباك وسلب عمك . وأما أنت يابن طلحة ، فقتل أباك يوم الجمل ، وأيتَم إخوتك . وأما أنت يا مروان فكما قال الشاعر :

وأفلتهنّ عِلباءٌ جَريضاً ولَوَ أدرَكْنَهُ صَفِرَ الوِطَابُ[(٣)]

فقال : معاوية هذا الإقرار فأين الغُيُر[(٤)] ؟ قال مَرْوان: وأىَّ غُيُر تريد ؟ قال: أريد أن تشجُروه بالرماح. قال: والله يامعاوية ماأراك إلا هاذيا أو هازئا، وماأرانا إلا ثقّلنا عليك، فقال ابن عُقْبة .

يقول لنا معاويةُ بن حَرْب أما فيكمْ لِوَاتركم طَلُوبُ
يَشُدُّ على أبى حسَن علىّ بأسْمَر لا تُهجِّنه الكعوبُ

---

(١) صفين ٤٧٥ وما بعدها .

(٢) صفين : « مجاح » .

(٣) لامرئ القيس ، ديوانه ١٣٨ ، وعلباء قاتل والد امرئ القيس ، والجريض : الذى يؤخذ بريقه . وصفر وطابه ، كناية عن القتل .

(٤) الغير : جمع غيور ، والغيرة : المحبة .

فيهتِكَ مجمع اللَّبَّاتِ مِنْهُ ونقعُ الحرب مطَّرِدٌ يؤوبُ
فقلت له : أتلعب يابن هندٍ كأنك بيننا رجلٌ غريبُ !
أتُغرِينا بحيةِ بطنِ وادٍ إذا نهشَتْ ، فليس لها طبيبُ(١)
وما ضَبعٌ يدِبُّ ببطن وادٍ أتيح له به أسَدٌ مَهِيبُ
بأضعف حيلةً مِنَّا إذا ما لقيناه ولُقيـاهُ عجيبُ
سوى عمرو وَقَتْه خُصيتاهُ وكان لقلبه مِنْهُ وَجِيبُ
كأنَّ القومَ لما عاينوه خِلال النقْع ، ليس لهم قلوبُ
لعمر أبى معاويةَ بن حربٍ وما ظنِّى ستلحقُه العيوبُ
لقد ناداه فى الهيجا علىٌّ فأسمعه ولكنْ لا يُجيبُ

فغضب عمرو ، وقال : إن كان الوليد صادقا فليلْق عليًّا ، أو فليقِفْ حيث يسمع صوته .

وقال عمرو :

يذكِّرُنى الوليد دُعَا علىٍّ ونُطْقُ المرء يملؤه الوعيدُ
متى تذكرْ مشاهدَه قريش يَطِرْ من خوفه القلب الشّديدُ
فأما فى اللقـاء فأين منهُ معاويةُ بن حرب والوليدُ!
وعيَّرَنى الوليد لقـاء ليث إذا ما شدَّ هابَته الأسودُ(٢)
لقيتُ ولست أجهلُه عليًّا وقد بُلَّتْ من العَلَقِ اللُّبودُ
فأطعُنه ويطعُننى خِلاسا وماذا بعد طعْنته أريدُ !
فرُمْها منه يابن أبى مُعَيطٍ وأنت الفارس البطل النَّجيدُ
وأُقسِمُ لو سمعتَ ندا علىٍّ لطار القلب وانتفخَ الوريدُ

---

(١) صفين : « أتأمرنا » .

(٢) صفين : « إذا ما زار » أى زأر .

ولو لافيتَه شُقَّت جيُوبٌ عليك ، ولُطِّمت فيك الخدودُ

***

وذكر أبو عمر بن عبد البر فى كتاب " الاستيعاب " فى باب بُسْر بن أرطاة قال [١] :

كان بُسْر من الأبطال الطغاة ، وكان مع معاوية بصِفِّين ، فأمره أن يلقى عليًا عليه السلام فى القتال ، وقال له : إنى سمعتك تتمنّى لقاءه ، فلو أظفرك الله به وصرعته حصلْتَ على الدنيا والآخرة [٢] ، ولم يزل يشجّعه ويمنّيه حتى رأى عليا فى الحرب ، فقصده ، والتقيا فصرعه علىّ عليه السلام ، [٣] وعرض له معه مثل ما عرض له مع عمرو ابن العاص فى كشف السوأة [٣] .

قال أبو عمر : وذكر ابن الكلبىّ فى كتابه فى أخبار صِفِّين ، أن بُسْر بن أرطاة بارَز عليًا يوم صِفِّين ، فطعنه علىٌّ عليه السلام فصرَعه ، فانكشف له ، فكفّ عنه ، كما عرض له مثل [٤] ذلك مع عمرو بن العاص .

قال : وللشعراء فيهما أشعار مذكورة فى موضعها من ذلك الكتاب ؛ منها فيما ذكر ابن الكلبى والمدائنىّ قول الحارث بن نضر الخثعمى [٥] — وكان عدوّا لعمر بن العاص وبُسْر بن أرطاة :

أفى كلّ يوم فارسٌ لك ينتهى وعورته وسْطَ العجاجَةِ باديَهْ
يكفُّ لهَا عنه علىٌّ سِنانه ويَضحك منها فى الخلاء معاويَهْ

---

(١) الاستيعاب ١٦٤ وما بعدها .
(٢) الاستيعاب : « دنيا وآخرة » .
(٣ — ٣) الاستيعاب : « وعرض على كرم الله وجهه مثل ما عرض فيما ذكر مع عمرو بن العاص »
(٤) الاستيعاب : « فيما ذكر » .
(٥) الاستيعاب : « السهمى » .

بدَتْ أمسِ من عمرو فقنّع رأسه ... وعورة بُسْر مثلها حذو حاذية
فقولا لعمرو ثم بُسْرٍ : ألاَ انظُرَا ... لنفسِكما : لاتلْقَيا الليثَ ثانيه
ولا تحمَدا إلا الحيا وخصاكما ... هما كانتا والله للنفس واقيه
ولولاهما لم تنجُوَا من سنانِه ... وتلك بما فيها إلى العَوْد ناهيه
متى تلقيا الخيل المغيرة صُبْحَةً ... وفيها علىٌّ فاترُكا الخيلَ ناحيه
وكونا بعيداً حيث لايبلغ القنا ... نُحورَكما ، إنّ التجارِبَ كافيه

***

وروى الواقدىّ قال : قال معاوية يوما بعداستقرار الخلافة له لعمرو بن العاص :ياأبا عبد الله ، لاأراك إلاويغلبُنى الضحك ؛ قال: بماذا ؟ قال : أذكريوم حمل عليك أبو تراب فى صِفّين ، فأزريت نفسك فَرَقاً من شبا سنانه ، وكشفت سوأتك له ؛ فقال عمرو : أنا منك أشدّ ضحكا ؛ إنى لأذكرُ يومَ دعاك إلى البِراز فانتفخ سَحْرُك ، وربا لسانُك فى فمك ، وغَصِصْتَ بريقك ، وارتعدَتْ فرائصُك،وبدا منك ما أكره ذِكْرَه لك ؛ فقال معاوية : لم يكن هذا كلّه ، وكيف يكون ودونى عَكّ والأشعرِيون! قال : إنك لتعلم أن الذى وصفتُ دون ما أصابك ، وقد نزل ذلك بك ودونك عكّ والأشعريون ، فكيف كانت حالك لو جمعكما مأقِطُ[1] الحرب ! فقال : ياأبا عبد الله ، خُضْ بنا الهزل إلى الجِدّ، إن الجُبْن والفرار من علىّ لا عار على أحدٍ فيهما .

***

(١) المأقط : موضع القتال .

[خبر إسلام عمرو بن العاص]

فأما القول فى إسلام عمرو بن العاص ، فقد ذكره محمد بن إسحاق فى كتاب " المغازى " قال :

حدثنى زيد بن أبى حبيب ، عن راشد مولى حبيب بن أبى أوْس الثَّقفِىّ، عن حبيب ابن أبى أوس ، قال : حدثنى عمرو بن العاص مِن فِيه ، قال :

لما انصَرفْنا [مع الأحزاب] (١) من الخندق، جمعتُ رجالا من قُريش كانوا يروْن رأْيى، ويسمعون مِنّى، فقلت لهم: والله إنى لأرى أمر محمد يعلو الأمور علوًّا مُنكَرا، وإنّى قد رأيت رأيا، فما ترون فيه؟ فقالوا: مارأيت؟ فقلت: أرى أن نُلْحَق بالنجاشىّ، فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومه أقمنا عند النجاشىّ، فأنْ نكون تحت يديه أحبُّ إلينا من أن نكون تحت يدىْ محمد، فإن ظهر قومُنا فنحن مَن قد عرفوا، [فلن يأتنا منهم إلا خير] (١). قالوا : إنَّ هذا الرأىُ ، فقلت : فاجمعوا مانُهدِى له — وكان أحبَّ (٢) مايأتيه من أرضنا الأدَم (٣) — فجمعنا له أدَماً كثيراً ، ثم خرجنا حتى قدِمنا عليه ، فوالله إنا لعندَه، إذ قدم عمرو بن أمية الضَّمرِىّ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله بعثه إليه فى شأن جعفر بن أبى طالب وأصحابه.

قال : فدخل عليه، ثم خرج من عنده، فقلت لأصحابى: هذا عمرو بن أمية، لو قد دخلتُ على النجاشىّ فسألته إياه فأعطانيه ، فضربت عنقه ، فإذا فعلتُ ذلك رأتْ قريش أنى قد أجزأت (٤) عنها حين قتلت رسول محمد، قال : فدخلتُ عليه فسجدت له فقال: مرحباً بصديقى

---

(١) من سيرة ابن هشام .
(٢) السيرة : « ما يهدى إليه » .
(٣) الأدم : الجلود ، جمع أديم .
(٤) أجزأت عنها : قمت مقامها .

أهديتَ إلىّ من بلادك شيئا ؟ قلت : نعم أيها الملك ، قد أهديت لك أدَما كثيراً ، ثم قرّبته إليه ،فأعجبه واشتهاه ،ثم قلت له : أيها الملك ،إنى قد رأيت رجلا خرج من عندك، وهو رسول رجل عدوّ لنا فأعطنيه لأقتلَه ، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا .

فغضب الملك ، ثم مدّ يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره ، فلوانشقّت لى الأرض لدخلتُ فيها فرَقاً منه ، ثم قلت : أيها الملك ، والله لو ظننتُ أنك تكره هذا ما سألتُكَه ، فقال : أتسألنى أن أعطيَك رسولَ رجل يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى لتقتله ؟ فقلت: أيها الملك ، أكذلك هو ؟ فقال : إِى، والله ! أطِعْنى ويحك واتبعه ،فإنه والله لعلَى حقّ ، وليظهرَنّ على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده ، قلت:فبايِعْنى له على الإسلام ، فبَسط يده،فبايعته على الإسلام ،وخرجتُ عامدا لرسول الله صلى الله عليه وآله ، فلما قدمت المدينة جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله،وقد أسلم خالد ابن الوليد ، وقد كان صحِبَنى فى الطريق إليه ، فقلتُ : يارسول الله ، أبايعك على أن تغفرَ لى ماتقدم من ذنبى ، ولم أذكر ما تأخر ، فقال : بايِعْ ياعمرو ؛ فإن الإسلام يجبّ ماقبله ، وإن الهجرة تجبّ ماقبلها ، فبايعته وأسلمت [(١)] .

وذكر أبو عمر فى '' الاستيعاب '' : أنّ إسلامه كان سنة ثمانٍ ، وأنه قدِم وخالد ابن الوليد وعثمان بن طلحة المدينة ، فلما رآهم رسولُ الله،قال : رمتْكم مكّة بأفلاذ كَبِدها.

قال : وقد قيل إنه أسلم بين الحديبيَة وخيبر ، والقول الأول أصحّ [(٢)] .

[بعث رسول الله عمرا إلى ذات السلاسل]

قال أبو عمر : وبعث رسولُ الله عمراً إلى ذات السّلاسل من بلاد قُضاعة فى ثلثمائة، وكانت أمّ العاص بن وائل من بَلِيّ ،فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله عمراً إلى أرض بلى

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٣١٧ (مطبعة حجازى) . (٢) الاستيعاب ١١٨٥ وما بعدها .

وعُذْرة ، يتألفهم بذلك ويدعوهم إلى الإسلام،فسارَ حتى إذا كان على ماء أرض جُذام ، يقال له: السلاسل ــ وقد سمِّيت تلك الغزاة ذات السَّلاسل ــ خاف، فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يستنجِدُ ، فأمدّه بجيش فيه مائتا فارس ، فيه أهلُ الشرَف والسوابق من المهاجرين والأنصار، فيهم أبو بكر وعمر،وأمّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح ، فلما قدِموا على عمرو ، قال عمرو : أنا أميرُكم وإنما أنتم مدَدى ، فقال أبو عبيدة : بل أنا أمير مَنْ معى وأنت أمير من معك ، فأبى عمرو ذلك ، فقال أبو عبيدة : إن رسول الله صلى الله عليه وآله عهد إلىّ فقال : إذا قدمت إلى عمرو فتطاوعا ولا تختلفا ، فإن خالفتَنى أطعتك ، قال عمرو : فإنى أخالفك ، فسلّم إليه أبو عبيدة، وصلى خلفه فى الجيش كله ، وكان أميرا عليهم، وكانوا خمسمائة .

***

[ولايات عمرو فى عهد الرسول والخلفاء]

قال أبو عمر : ثم ولاه رسول الله صلى الله عليه وآله عُمان ، فلم يزل عليها حتى قُبِض رسول الله صلى الله عليه وآله، وعمل لعمر وعثمان ومعاوية ، وكان عمر بن الخطاب ولّاه بعد مَوْت يزيد بن أبى سفيان فِلَسْطين والأردنّ ، وولّى معاوية دمشق وبعلبكّ والبلقاء ، وولى سعيدَ بن عامر بن خذيم حِمْص . ثم جمع الشام كلّها لمعاوية ، وكتب إلى عمرو ابن العاص أن يسيرَ إلى مصر، فسار إليها فافتتحها ،فلم يزل عليها واليا حتى مات عمر فأمّره عثمان عليها أربع سنين ونحوها ، ثم عزله عنها وولاها عبد الله بن سعد العامرىّ .

قال أبو عمر : ثم إن عمرو بن العاص ادّعى على أهل الإسكندرية أنهم قد نقضوا العهد الذى كان عاهدهم ، فعمِد إليها، فحارب أهلها وافتتحها ، وقتل المقاتلة وسَبى الذرّية ، فنقم ذلك عليه عثمان ، ولم يصحّ عنده نقضُهم العهدَ ، فأمر بردّ السَّبى الذى سُبوا من القُرى إلى مواضعهم ، وعزل عمرا عن مصر ، وولى عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح العامرىّ

مصر بدَله ؛ فكان ذلك بدوُّ الشر بين عمرو بن العاص وعثمان بن عفّان ، فلمّا بدا بينهما من الشرّ مابدَا ، اعتزل عمرو في ناحيةِ فِلسطين بأهله ، وكان يأتى المدينة أحيانا ، فلما استقرّ الأمر لمعاوية بالشام ، بعثه إلى مصر بعد تحكيم الحكَمَيْن فافتتحها ، فلم يزل بها إلى أن مات أميرا عليها ، فى سنة ثلاث وأربعين ، وقيل سنة اثنتين وأربعين ، وقيل سنة ثمان وأربعين ، وقيل سنة إحدى وخمسين .

قال أبو عمر : والصحيح أنه مات فى سنة ثلاث وأربعين ، ومات يوم عيد الفِطْر من هذه السنة وعمره تسعون سنة ، ودفن بالمقطَّم من ناحية السَّفح ، وصلّى عليه ابنه عبدالله ، ثم رجع فصلّى بالناس صلاةَ العيد ، فولاه معاوية مكانه ، ثم عزله وولى مكانه أخاه عُتْبة ابن أبى سفيان .

قال أبو عمر : وكان عمرو بن العاص من فُرسان قريش وأبطالهم فى الجاهلية ، مذكوراً فيهم بذلك ، وكان شاعرا حسن الشعر ، وأحد الدّهاة المتقدمين فى الرأى والذكاء ، وكان عمر بن الخطاب إذا استضعف رجلا فى رأيه وعقله ، قال : أشهد أنّ خالقك وخالق عمرو واحد ؛ يريد خالق الأضداد[١] .

* * *

[نُبذ من كلام عمرو بن العاص]

ونقلت أنا من كتب متفرِّقة كلمات حِكْمية تُنسب إلى عمرو بن العاص ، استحسنْتُها وأوردتها ، لأنى لا أجحد أفاضل فضلَه ، وإن كان دينُه عندى غيرَ مرضىّ .

فمن كلامه : ثلاث لا أملّهنّ : جليسى مافَهِم عنى ، وثوبى ما سترنى ، ودابتى ماحَملتْ رَحْلى .

(١) انظر أخبار عمرو بن العاص فى الاستيعاب ص ١١٨٤ وما بعدها .

وقال لعبد الله بن عباس بصِفِّين : إن هذا الأمرَ الذى نحن وأنتم (١ فيه ، ليس بأوّل أمر قاده البلاء ، وقد بلغ الأمر مِنّا ومنكم ماترى ، وما أبقت لنا هذه الحرب حياة ولا صبرا ، ولسنا نقول : ليت الحرب عادت ؛ ولكنا ١) نقول : ليتها لم تكن كانت ! فافعل فيما بقىَ بغير مامضى ، فإنك رأسُ هذا الأمر بعد علىّ ، وإنما هو آمر مطاع ، ومأمور مطيع ، ومبارز مأمون ، وأنت هو .

ولمّا نصب معاوية قميصَ عثمان على المنبر ، وبكى أهل الشام حوله ، قال : قد هممتُ أن أدعَه على المنبر ، فقال له عمرو : إنه ليس بقميص يوسف ، إنه إن طال نظرهم إليه ، وبحثوا عن السبب وقفوا على مالا تحبّ أن يقفوا عليه ، ولكن لذِّعهم بالنظر إليه فى الأوقات .

وقال : ماوضعت سرّى عند أحدٍ فأفشاه فلُمْتُه ، لأنى أحقّ باللوم منه إذ كنتُ أضيقَ به صدرا منه .

وقال : ليس العاقل الذى يعرف الخير من الشرّ ، لكن العاقل من يعرف خير الشرّين .

وقال عمر بن الخطاب لجلسائه يوما وعمرو فيهم : ما أحسنُ الأشياء ؟ فقال كلٌّ منهم ماعنده ؟ فقال : ماتقول أنت ياعمرو ؟ فقال :

* الغمراتُ ثمّ ينجلينا (٢) *

وقال لعائشة : لوددت أنك قتلتِ يوم الجمل ، قالت : ولِمَ لاأبالك ؟! قال : كنت تموتين بأجَلِك ، وتدخلين الجنة ، ونجعلك أكبرَ التشنيع على علىّ بن أبى طالب عليه السلام .

وقال لبنيه ، يا بَنِى ، اطلبوا العلم ، فإن استغنيتم كان جمالا ، وإن افتقرتم كان مالا .

ومن كلامه : أميرٌ عادل خيرٌ من مطر وَابل ، وأسدٌ حَطوم خير من سلطان ظلوم ، وسلطان ظلوم خير من فتنة تدوم ، وزلة الرِّجل عَظمٌ يجبَر ، وزلّة اللسان لاتُبقِى ولاتَذَر . واستراح مَنْ لاعقل له .

(١ – ١) ساقط من ب ، ج ، وأثبته من ا .

(٢) البيت من رجز للأغلب العجلى ؛ جمهرة الأمثال ١٥٠

وكتب إليه عمر يسأله عن البحر ، فكتب إليه : خَلق عظيم يركبه خَلق ضعيف . دُود على عود ، بين غرق ونَزَق .

وقال لعثمان وهو يخطب على المنبر : ياعثمان ، إنك قد ركبتَ بهذه الأمة نهاية من الأمر ، وزغت فزاغوا ، فاعتدِل أو اعتزِل .

ومن كلامه : استوحِش من الكريم الجائع ، ومن اللئيم الشبعان ؛ فإنّ الكريم يصول إذا جاع ، واللئيم يصول إذا شبع .

وقال : جُمِع العجز إلى التوانى فنتج بينهما الندامة ، وجُمِع الجبن إلى الكسل فنتَجَ بينهما الحرمان .

* * *

وروى عبدالله بن عباس ، قال : دخلتُ على عمرو بن العاص وقد احتُضِر ، فقلت : ياأبا عبدالله ؛ كنت تقول : أشتهى أنى أرى عاقلا يموت حتى أسأله كيف تجد ، فماذا تجد ؟ قال : أجد السماء كأنها مطبِقة على الأرض وأنا بينهما ، وأرانى كأنما أتنفس من خرق إبرة ، ثم قال : اللهم خُذ منى حتى ترضَى ، ثم رفع يده ، فقال : اللهم أمرتَ فعصينا ، ونهيتَ فركبنا ؛ فلا برىء فأعتذر ، ولا قوىّ فأنتصر ، ولكن لا إله إلا الله ؛ فجعل يرددها حتى فاض .

وقد روى أبو عمر بن عبدالبرّ هذا الخبر فى كتاب " الاستيعاب " ، قال : لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة ، قال : اللهمّ أمرتَنى فلم أئتمر ، وزجرتَنى فلم أنزجر . ووضع يده فى موضع الغلّ ، ثم قال : اللهمّ لاقوِىٌّ فأنتصر ؛ ولا برىء فأعتذر ، ولا مستكبرٌ بل مستغفر ، لا إله إلا أنت ؛ فلم يزل يرددها حتى مات .

قال أبو عمر : وحدثنى خلف بن قاسم ، قال : حدثنى الحسن بن رشيق ، قال : حدثنا الطحاوىّ ، قال : حدثنا المُزَنىّ ، قال : سمعت الشافعىّ يقول : دخل ابنُ عباس على عمرو ابن العاص فى مرضه ، فسلّم عليه ، فقال : كيف أصبحت ياأبا عبد الله ؟ قال : أصبحتُ وقد أصلحت من دنياى قليلا ، وأفسدتُ من دينى كثيرا ؛ فلو كان الذى أصلحتُ هو الذى

أفسدت ، والذى أفسدت هو الذى أصاحت ، لَفُزت . ولو كان ينفعنى أنْ أطلبَ طلبتُ، ولو كان ينجينى أن أهرُب ، هربت فقد صرت كالمنخنق بين السماء والأرض ، لا أرق بيدين ، ولا أهبط برجلين ، فعظنى بعظةٍ أنتفع بها يابن أخى ، فقال ابن عباس : هيهات أبا عبد الله ، صار ابنُ أخيك أخاك ، ولا تشاء أن تبكِىَ إلا بكيت[1] ، كيف يؤمر برحيلٍ من هو مقيم ! فقال عمرو على حينها : من حين ابن بضع وثمانين تقنِطنى من رحمة ربى ! اللهمّ إنّ ابن عباس يُقنطنى من رحمتك ، فخذمنّى حتى ترضى ؛ فقال ابن عباس : هيهات أبا عبد الله ! أخذتَ جديدا وتُعطى خَلَقا ؛ قال عمرو : مالى ولك يابن عباس ! ما أرسل كلمة إلا أرسلتَ نقيضها[2] .

***

وروى أبو عمر فى كتاب " الاستيعاب " أيضا عن رجال قد ذكرهم وعدّدهم أنّ عَمْراً لمّا حضرته الوفاة ، قال له ابنه عبد الله وقد رآه يبكى : لِمَ تبكى ؟ أجزعاً من الموت ؟ قال : لا والله ، ولكن لما بعده . فقال له : لقد كنت على خيرٍ ، فجعل يُذكّرُه صحبةَ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفتوحه بالشام ، فقال له عمرو : تركتَ أفضل من ذلك شهادةَ أن لا إله إلا الله ، إنى كنتُ على ثلاثة أطباق ، ليس منها طبَق إلا عرفتُ نفسى فيه ، كنت أولَ أمرى كافرا ، فكنت أشدَّ الناس على رسول الله صلى الله عليه ، فلو مِتّ حينئذ وجبتْ لى النار ، فلما بايعت رسول الله صلى الله عليه ، كنت أشدّ الناس حياء منه ، فما ملأتُ منه عينى قطّ ، فلو متّ يومئذ قال الناس : هنيئا لعمرو ! أسلم وكان على خير، ومات على خير أحواله ، فسرّ حواله بالجنة ؛ ثم تلبّثتُ بعد ذلك بالسلطان وبأشياء ، فلا أدرى

(١) الاستيعاب : « أن تبكى إلا بكيت » .
(٢) الاستيعاب ١١٨٩ .

أعلىّ أم لى ؟ فإذا مت فلا تبكينّ علىّ باكية ، ولا يتبعنى نائح ، ولا تقرّبوا من قبرى نارا ، وشُدّوا علىّ إزارى ، فإنى مخاصَم ، وشنوا علىّ التراب شنًّا ؛ فإنّ جنبى الأيمن ليس بأحقّ من جنبى الأيسر ، ولا تجعلوا فى قبرى خشبة ولا حجرا ، وإذا واريتمونى فاقعدوا عندى قَدْرَ نحر جزور وتقطيعها ؛ أستأنس بكم (١)

***

فإن قلت : فما الذى يقوله أصحابك المعتزلة فى عمرو بن العاص ؟ قلت : إنهم يحكمون على كلّ من شهد صِفِّين ، بما يحكم به على الباغى الخارج على الإمام العادل ، ومذهبهم فى صاحب الكبيرة إذا لم يتب معلوم .

فإن قلت : أليس فى هذه الأخبار مايدل على توبته ؛ نحو قوله : « ولا مستكبر بل مستغفر »وقوله: «اللهمّ خذمنى حتى ترضى»،وقوله : «أمرتَ فعصيت، ونهيت فركبت» . وهذا اعتراف وندَم ، وهو معنى التوبة ؟ قلت : إن قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إذَا حَضَر أَحَدَهُمُ الموْتُ قَالَ إِنى تُبْتُ الآنَ ﴾ (٢) يمنع من كون هذا توبة ، وشروط التوبة وأركانها معلومة ، وليس هذا الاعتراف والتأسّف منها فى شىء .

وقال شيخُنَا أبو عبد الله : أوّلُ مَنْ قال بالإرجاء المحْض معاوية وعمرو بن العاص ، كانا يزعُمان أنه لا يضرُّ مع الإيمان معصية ، ولذلك قال معاوية لمن قال له : حاربتَ من تعلَم ، وارتكبتَ ماتعلم، فقال : وثقتُ بقوله تعالى :﴿ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾(٣) .

---

(١) الاستيعاب ١١٩٠

(٢) سورة النساء ١٨ .

(٣) سورة الزمر ٥٣ .

وإلى هذا المعنى أشار عمرو بقوله لابنه : تركتَ أفضلَ من ذلك ؛ شهادةَ أن لا إله إلا الله .

* * *

[فصل فى شرح ما نسب إلى علىّ من الدعابة]

فأما ما كان يقوله عمرو بن العاص فى علىّ عليه السلام لأهل الشام : «إن فيه دُعابة» ، يروم أن يعيبه بذلك عندهم ؛ فأصل ذلك كلمة قالها عمر فتلقفها ، حتى جعلها أعداؤه عيبا له وطعنا عليه

قال أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب فى كتاب " الأمالى " :

كان عبدالله بن عباس عند عمر ، فتنفس عمر نَفَساً عاليا ، قال ابن عباس : حتى ظننت أن أضلاعه قد انفرجتْ ، فقلت له : ما أخرجَ هذا النَّفَسَ منك يا أمير المؤمنين إلا همٌّ شديدٌ . قال : إى والله يابن عباس ، إنى فكّرت فلم أدرِ فيمن أجعلُ هذا الأمر بعدى . ثم قال: لعلك ترى صاحبَك لها أهلا ؟ قلت : وما يمنعه من ذلك مع جهاده وسابقته وقَرابته وعلمه! قال : صدقتَ ، ولكنه امرؤ فيه دُعابة ؛ قلت : فأين أنت من طلحة ؟ قال : هو ذو البأو [1] بإصبعه المقطوعة . قلت : فعبدالرحمن ؟ قال : رجل ضعيف لو صار الأمر إليه لوضع خاتَمه فى يد امرأتِه . قلت : فالزبير ؟ قال شَكِسٌ لَقِسٌ [2] ، يلاطم فى البقيع فى صاعٍ من بُرّ . قلت : فسعد بن أبى وقاص ؟ قال: صاحب مِقْنَبٍ [3] وسلاح ؛ قلت: فعثمان، قال: أوْه أوْه ؛ مرارا . ثم قال : والله لِئَنْ وَلِيها ليحملنّ بنى أبى مُعَيط على رقاب الناس ، ثم لتنهضنّ إليه العرب فتقتله . ثم قال : يابن عباس ، إنه لا يصلح لهذا الأمر إلا حصيف العُقْدة ، قليل الغِرّة ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ؛ يكون شديدا من غير عُنف ، ليّنا من

---

(١) البأو : الكبر والفخر ؛ وفى اللسان : روى الفقهاء : « فى طلحة بأواء » .
(٢) الشكس : الصعب الخلق ، واللقس العسر .
(٣) المقنب : جماعة الخيل .

غير ضعف ، جوادا من غير سَرَف ، مُمسِكا من غير وكْف[1] . قال ابن عباس : وكانت هذه صفات عمر ، ثم أقبل علىّ فقال : إنّ أحرَاهم أن يحملَهم على كتاب ربهم وسنّة نبيهم لصاحبُك ، والله لئن وليَها ليحملنّهم على المحجّة البيضاء والصراط المستقيم .

* * *

واعلم أن الرجل ذا الخلق المخصُوص لا يرى الفضيلةَ إلا فى ذلك الخُلق ، ألا ترَى أنّ الرجل يبخلُ فيعتقد أنّ الفضيلةَ فى الإمساك والبخيل يعيب أهلَ السّماح والجود، وينسبهم إلى التبذير وإضاعة الحزم ، وكذلك الرجل الجواد يعيب البخلاء وينسبُهم إلى ضيق النّفْس وسوء الظنّ وحب المال ، والجبان يعتقد أن الفضيلة فى الجبن ويعيب الشجاعة ويعتقد كونها خرَقا وتغريرا بالنفس ، كما قال المتنبى :

* يرى الجبناء أنّ الجبنَ حزمٌ[2] *

والشجاع يعيب الجبانَ وينسُبه إلى الضعف ، ويعتقد أنّ الجبن ذلّ ومهانة ! وهكذا القول فى جميع الأخلاق والسجايا المقتسمة بين نوع الإنسان . ولمّا كان عمر شديد الغِلْظَة وَعْر الجانب ، خشِن الملمس دائم العبوس ، كان يعتقد أنّ ذلك هو الفضيلة وأن خِلافه نقص ، ولو كان سهلا طَلْقا مطبوعا على البشاشة وسماحة الخُلق ، لكان يعتقد أنّ ذاك هو الفضيلة وأن خلافه نقص ، حتى لو قدّرنا أن خُلقَه حاصل لعلىّ عليه السلام ، وخُلقَ علىّ حاصل له، لقال فى علىّ : « لولا شراسة فيه » .

فهو غير ملوم عندى فيما قاله ، ولا منسوب إلى أنه أراد الغضّ من علىّ ، والقدح

---

(١) الوكف : العيب .

(٢) ديوانه ٢٣٩ وبقيته :

* وَتِلْكَ خَدِيعةُ الطَّبْعِ اللَّئِيمِ *

فيه ، ولكنه أخبر عن خُلقه، ظانّاً أن الخلافة لا تصلح إلا لشديد الشكيمة ، العظيم الوعورة . وبمقتضى ما كان يظنّه من هذا المعنى ، تمّم خلافة أبى بكر بمشاركته إياه فى جميع تدابيراته وسياسته وسائر أحواله ، لرفقٍ وسهولة كانت فى أخلاق أبى بكر ، وبمقتضى هذا الخلُق المتمكّن عنده ، كان يشير على رسول الله صلى الله عليه وآله فى مقامات كثيرة ، وخطوب متعددة ، بقتل قوم كان يرى قتلَهم ، وكان النبىّ صلّى الله عليه وآله يرَى استبقاءهم واستصلاحَهم ، فلم يقبلْ عليه السلام مشورتَه على هذا الخلُق .

وأما إشارته عليه يوم بدر بقتل الأسرى حيث أشار أبو بكر بالفِداء ، فكان الصواب مع عمر ونزل القرآن بموافقته، فلما كان فى اليوم الثانى وهو يوم الحديبيَة أشار بالحرب، وكرِه الصلح ، فنزل القرآنُ بضدّ ذلك ، فليس كلّ وقت يصلح تجريد السيف ، ولا كلّ وقت يصلح إغماده ، والسياسة لا تجرى على منهاج واحدٍ ولا تلزم نظاما واحدا .

وجملة الأمر أنه رضى الله عنه لم يقصِدْ عيبَ علىّ عليه السلام ، ولا كان عنده معيباً ولا منقوصاً ؛ ألا ترَى أنه قال فى آخر الخبر : « إنّ أحْرَاهم إن وَلِيَها أن يحملهم على كتاب الله وسنّة رسوله لِصاحبُك » ، ثم أكّد ذلك بأن قال : « إن وَلِيَهم ليحملنّهم على المحجّة[1] البيضاء والصراط المستقيم » ، فلو كان أطلَق تلك اللفظة ، وعنَى بها ما حملها عليه الخصوم ، لم يقل فى خاتمة كلامه ما قاله .

وأنت إذا تأمّلت حالَ علىّ عليه السلام فى أيام رسول الله صلى الله عليه وآله ، وجدتَه بعيدا عن أن يُنسبَ إلى الدُّعابة والمُزاح ، لأنه لم ينقَلْ عنه شىء من ذلك أصلا ؛ لا فى كتب الشيعة ولا فى كتب المحدّثين ، وكذلك إذا تأمّلت حالَه[2] فى أيام الخليفتين أبى بكر وعمر ، لم تجدْ فى كتب السيرة حديثا واحدا يمكن أن يتعلّق به متعلق فى دُعابته ومُزاحه ، فكيف يُظَنّ

---

(١) المحجة : الطريق ؛ والطريق تذكر وتؤنث . (٢) ج : « حالته » .

بعمر أنه نَسَبه إلى أمر لم ينقله عنه ناقل ، ولا ندّد به صديق ولا عدوّ ؛ وإنما أراد سهولة خُلُقِه لا غيْر ، وظنّ أن ذلك مما يُفضى به إلى ضعف إنْ ولىَ أمر الأمّة ، لاعتقاده أنّ قِوام هذا الأمر إنما هو بالوعورة ، بناء على ما قد ألفته نفسه ، وطبِعتْ عليه سجيّتهُ ، والحال فى أيام عثمان ، وأيام ولايته عليه السلام الأمرَ كالحال فيما تقدم ، فى أنه لم يظهر منه دُعابة ، ولا مُزاح يسمّى الإنسان لأجله ذا دُعابة ولعب . ومن تأمّل كتب السِّيَر عرف صِدْق هذا القول ، وعرف أن عمرو بن العاص أخذ كلمة عمر إذ لم يقصِدْ بها العيب فجعلها عيباً ، وزاد عليها أنه كثيرُ اللعب ، يعافِس النساء ويمارسهنّ ، وأنه صاحب هَزْل .

ولعمر الله لقد كان أبعدَ الناس من ذلك ، وأىّ وقت كان يتّسع لعلىّ عليه السلام حتى يكون فيه على هذه الصفات ؟ فإن أزمانه كلّها فى العبادة والصلاة ، والذكر والفتاوى والعلم ، واختلاف الناس إليه فى الأحكام وتفسير القرآن ، ونهاره كلّه أو معظمه مشغول بالصوْم ، وليله كله أو معظمه مشغول بالصلاة . هذا فى أيام سِلْمه ، فأما أيام حربه فبالسيف الشهير ، والسِّنان الطرير[1] ، وركوب الخيل ، وقوْد الجيش ، ومباشرة الحروب .

ولقد صدق عليه السلام فى قوله : « إننى ليمنعنى من اللعب ذِكرُ الموت » ، ولكنّ الرجل الشريف النبيل ، الذى لا يستطيع أعداؤه أن يذكروا له عيباً أو يَعُدّوا عليه وَصمة ، لا بدّ أن يحتالوا ويبذلوا جهدهم فى تحصيل أمرٍ ما وإن ضعف ، يجعلونه عذراً لأنفسهم فى ذمّه ، ويتوسّلون به إلى أتباعهم فى تحسينهم لهم مفارقته ، والانحراف عنه ، وما زال المشركون والمنافقون يصنعون لرسول الله صلى الله عليه وآله الموضوعات ، ينسبون إليه ماقد برّأه الله عنه من العيوب والمطاعن ، فى حياته وبعد وفاته إلى زماننا هذا ، ومايزيدُه الله سبحانه إلا رفعة وعلوًّا ، فغيرُ منكَر أن يعيب عليًّا عليه السلام عمرو بن العاص وأمثاله من أعدائه ، بما إذا تأمله المتأمل ، علم أنهم باعتمادهم عليه وتعلّقهم به ، قد اجتهدوا

---

(١) سنان طرير : أى محدد .

فى مدحه والثناء عليه، لأنهم لو وجدوا عيباً غير ذلك لذكروه، ولو بالغ أمير المؤمنين وبذل جهده فى أن يُثنىَ أعداؤه وشانِئوه عليه من حيث لا يعلمون، لم يستطع إلى أن يجد إلى ذلك طريقاً ألطفَ من هذه الطريق التى أسلكهم الله تعالى فيها، وهداهم إلى منهاجها، فظنُّوا أنهم يغضون منه؛ وإنما أعلوْا شأنه، ويضعون من قدره، وإنما رفعوا منزلته ومكانه.

***

[أقوال وحكايات فى المزاح]

ونحن نذكر من بعد، ما جاء فى الأحاديث الصحاح والآثار المستفيضة، المتفَق على نقلها مزاحَ رسول الله صلى الله عليه وآله، ومزاح الأشراف والأفاضل والأكابر من أصحابه والتابعين له، ليعلم أن المزاح إذا لم يخرج عن القاعدة الشَّرْعية لم يكن قبيحا.

فأوّل ذلك مارواه الناس قاطبة أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إنى أمزح، ولا أقول إلا حقًّا»

وقيل لسفيان الثورىّ: المزاح هُجْنة؟ فقال: بل هو سنة، لقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنى أمزح ولا أقول إلا الحق»

وجاء فى الخبر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لامرأة من الأنصار: «الحقى زوجك فإنّ فى عينه بياضا»، فسعتْ نحوه مرعوبة، فقال لها: ما دهاك؟ فأخبرته، فقال: نعمْ إنّ فى عينى بياضاً لا لسوء، فخفّضى عليك. فهذا من مُزاح رسول الله صلى الله عليه وآله.

وأتت عجوز من الأنصار إليه عليه السلام، فسألته أن يدعوا الله تعالى لها بالجنة، فقال: «إن الجنة لاتدخلها العجُز» فصاحت، فتبسم عليه السلام، فقال: ﴿إنَّا أنْشأنَاهُنَّ إنْشاء، فَجَعَلْنَاهُنَّ أبْكاراً[1]﴾.

---

(١) سورة الواقعة ٣٥

وفى الخبر أيضا : أن امرأة استحملته ، فقال : « إنا حاملوكِ إن شاء الله تعالى على ولد الناقة » ، فجعلت تقول : يارسول الله : وما أصنع بولد الناقة ؟ وهل يستطيع أن يحملنى ! وهو يبتسم ويقول : « لا أحملك إلا عليه » ، حتى قال لها أخيرا : « وهل يلد الإبل إلا النوق » !

وفى الخبر أنه عليه السلام مرّ ببلال وهو نائم فضربه برجله ، وقال : أنائمة أمّ عمرو ؟ فقام بلال مرعوبا ، فضرب بيده إلى مذاكيره ، فقال له : مابالك ؟ قال : ظننت أنى تحولت امرأة . قيل : فلم يمزح رسول الله بعد هذه .

وفى الخبر أيضا أن نُغَرا [(١)] كان لصبىّ من صبيان الأنصار ، فطار من يده ، فبكى الغلام ، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله يمرّ به فيقول : « ياأباعمير ، مافعل النُّغَير » ؟ والغلام يبكى .

وكان يمازح ابنىْ بنته مُزاحا مشهورا ، وكان يأخذ الحسين عليه السلام ، فيجعله على بطنه ، وهو عليه السلام نائم على ظهره ويقول له : حُزُقَّةٌ حُزُقَّة ، تَرَقَّ عين بقّة [(٢)] .

وفى الحديث الصحيح المتفق عليه : أنه مرّ على أصحاب الدِّرَكلة وهم يلعبون ويرقصون ، فقال : جِدّوا يابنى أرْفَدَة ، حتى يعلم اليهود والنصارى أن فى ديننا فُسحةِ .

قال أهل اللغة : الدِّرِكلة ، بكسر الدال والكاف : لعبة للحبش فيها ترقص . وبنو أرْفَدَة : جنس من الحبش يرقصون .

وجاء فى الخبر أنه سابَق عائشة فسبقته ، ثم سابقها فسبقها فقال : هذه بتلك .

وفى الخبر أيضا أن أصحاب الزفافة وهم الراقصون ، كانوا يقمَعون [(٣)] باب حجرة عائشة ، فتخرج إليهم مستمعة ومبصرة ، فيخرج هو عليه السلام من ورائها مستترا بها .

وكان نعيمان [(٤)] ، وهو من أهل بدر ، أوْلَع الناس بالمُزاح عند رسول الله صلى الله عليه

---

(١) النغر : صغار العصافير . وانظر اللسان .

(٢) الحزقة : الضعيف الذى يقارب خطوه من ضعف . وعين بقة كناية عن صغر العين . وانظر اللسان ١١ : ٣٣٠

(٣) يقمعون : يضربون . (٤) هو نعيمان بن عمرو بن رفاعة بن الحارث ؛ كذا نسبه وترجم له وذكر طائفة من أخباره فى الإصابة ٤ : ٥٤٠

وكان يكثر الضحك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « يدخل الجنة وهو يضحك » .

وخرج نُعيمان هو وسويبط بن عبد العزّى[١] وأبو بكر الصديق ، فى تجارة قبل وفاة رسول الله صلى عليه وآله بعامين ، وكان سُويبط على الزاد ، فكان نُعَيمان يستطعمه فيقول: حتى يجىء أبو بكر ؛فمرّ بركب من نَجْران ،فباعه نُعَيمان منهم على أنه عبدٌ له بعشر قلائص ، وقال لهم : إنه ذولسان ولهجة ، وعساه يقول لكم : أنا حرّ ؛ فقالوا : لا عليك . وجاءوا إليه فوضعوا عمامته فى عنقه ، وذهبوا به ، فلما جاء أبو بكر أُخبر بذلك ، فرده وأعاد القلائص إليهم . فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه من ذلك سَنَة[٢] .

وروى أن أعرابياً باع نُعَيمانَ عكّة[٣] عسل ، فاشتراها منه ، فجاء بها إلى بيت عائشة فى يومها وقال : خذوها، فظنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أنه أهداها إليه، ومضى نُعَيمان، فنزل الأعرابىّ على الباب ، فلما طال قعوده نادى : ياهؤلاء ، إما أن تعطونا ثمن العسل أو تردّوه علينا ، فعلم رسول الله صلى الله عليه وآله بالقصّة ، وأعطى الأعرابىّ الثمن، وقال لنُعَيمان :ماحملك على مافعلت ؟قال :رأيتُك يارسولَ الله ؛ تحبّ العسل ، ورأيت العُكّة مع الأعرابىّ . فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله ولم ينكِر عليه .

وسئل النَّخَعِىّ : هل كان أصحاب رسول الله يضحكون ويمزحون ؟فقال : نعم والإيمان فى قلوبهم مثل الجبال الرواسى .

وجاء فى الخبر أن يحيى عليه السلام لقى عيسى عليه السلام ، وعيسى متبسّم ، فقال يحيى عليه السلام : مالى أراك لاهياً كأنك آمن ! فقال عليه السلام : مالى أراك عابساً

---

(١) فى الإصابة ٢ : ٩٦ ، ٩٧ : « سويبط بن حرملة ، قال : ذكره موسى بن عقبة وابن إسحاق وعروة فيمن هاجر إلى الحبشة »

(٢) الخبر فى الإصابة ٢ : ٩٧ .

(٣) العكة : زق السمن أو العسل .

كأنك آيس ؟ فقالا : لا نبرح حتى ينزل علينا الوحى، فأوحى الله إليهما: أحبُّكما إلىّ الطلقُ البسّام ، أحسنُكما ظنًّا بى .

وروى عن كبراء الصحابة رضى الله تعالى عنهم أنهم كانوا يتمازحون ويتناشدون الأشعار ، فإذا خاضوا فى الدين ، انقلبت حماليقهم ، وصاروا فى صور أخرى .

وروى أن عبدالله بن عمر قال لجارِيته : خلقَنِي خالق الخير ، وخلقك خالق الشر . فبكت ، فقال : لا عليك ، فإن الله تعالى هو خالق الخير وهو خالق الشر .

قلت : يعنى بالشرّ المرض والغلاء ونحوهما .

وكان ابن سيرين ينشد :

نُبِّئتُ أن فتـاة كنتُ أخطبُـا ... عُرقوبها مثلُ شهر الصوم فى الطولِ [1]

ثم يضحك حتى يسيل لعابه .

وجاء عبد الرحمن بن عوف إلى باب عمر بن الخطاب ، فوجدَه مستلقيا على مِرفقة له، رافعاً إحدى رجليه على الأخرى ، منشداً بصوت عال :

وكيف ثَوائِي بالمدينـة بعـدما ... قَضَى وطراً منها جميلُ بن معمرِ!

فلما دخل عبد الرحمن وجلس ، قال : يا أبا محمد ، إنّا إذا خلونا قلنا كما يقول الناس .

وكان سعيد بن المسيّب ينشد :

لقد أصبحتْ عِرْس الفرزدق جامحـاً ... ولو رضيت رمح استه لاستقرّتِ [2]

ويضحك حتى يستغرق .

وكان يقال : لا بأس بقليل المُزاح يخرج منه الرجل عن حدّ العبوس .

---

(١) زهر الآداب ١٦٥ ، من غير نسبة .

(٢) لجرير ، ديوانه ٨٨

ومن كلام بعض الأدباء : ونحن نحمد الله إليك، فإن عُقْدة الإسلام فى قلوبنا صحيحة، وأواخيه عندنا ثابتة ، وقد اجتهد قوم أن يدخلوا قلوبنا من مرض قلوبهم ، وأن يَشُوبوا يقيننَا بشكّهم ، فَعَصم الله منهم، وحال توفيقه دونهم ، ولنا بعدُ مذهب فى الدُّعابة جميل، لا يشوبه أذى ولا قذَى ، يخرج بنا إلى الأنس من العبُوس ، وإلى الاسترسال من القُطوب ، ويلحقنا بأحرار الناس الذين ارتفعوا عن لُبسة الرياء ، وأنِفوا من التشوّف بالتصنّع .

وقال ابن جُرَيج : سألت عطاء عن القراءة على ألحان الغناء والحُداء، فقال لى: لا بأس بذلك؛ حدثنى عبيد الله بن عمر الليثىّ ، أنه كان لداود النبىّ عليه السلام مِعزَفَة ، قد يضرب بها إذا قرأ الزبور ، فتجتمع إليه الطير والوحش ، فيبكى ويُبكى مَنْ حوله .

وقال جابر بن عبد الله الجُعفى : رأيت الشعبىّ يقول لخياط يمازحه : عندنا حُبٌّ مكسور وأحب أن تخيطه ؛ فقال الخياط : أحضر لى خيوطاً من ريح لأخيطه لك .

وسئل الشعبىّ : هل يجوز أن يؤكل الجِنّى لو ظُفر به ؟ فقال: ليتنا نخرج منه كَفافاً[1] لا لنا ولا علينا .

وسأل إنسان محمد بن سيرين عن هشام بن حسان، فقال : توفى البارحة ، أما شعَرت ؟ فخرج يسترجع ، فلما رأى ابن سيرين جزعَه ، قرأ : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾[2] .

وكان زيد بن ثابت من أفكهِ الناس فى بيته وأرفثهم، وقد أباح الله تعالى الرَّفَث إلى النساء ، فقال: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ

---

(١) الكفاف : المثل .

(٢) سورة الزمر ٤٢ .

وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾[1]. وقال أهـلُ اللغة : الرَّفَث : القول الفاحش تخاطَب به المرأة حال الجماع .

ومرّ بالشعبيّ حمّال على ظهره دَنّ خَلّ ،فوضع الدّنّ وقال له: ما كان اسم امرأة إبليس؟ فقال الشعبيّ : ذلك نكاح ماشهدناه .

وقال عِـكْرمة : خَتَن ابنُ عباس بنِيه فأرسلنى ، فدعوت اللعّابين فلعِبوا ، فأعطاهم أربعة دراهم .

وتقدّم رجلان إلى شُريح فى خُصومة ، فأقرّ أحدهما بما ادُّعِيَ عليه وهو لايدرى ، فقضَى شُريح عليه ، فقال : أصلحك الله ! أتقضى علىّ بغَيْر بينة ؟ قال : بلى ، شهد عندى ثقة . قال : ومَنْ هو ؟ قال : ابنُ أخت خالتك .

وجاء فى الخبر أن النبى صلى الله عليه وآله مرّ بصُهيب وهو أرمد يأكل تمراً ،فنهاه، فقال : إنما آكله عن جانب العين الصحيحة يارسول الله ، فضحك منه ولم ينـكِر عليه .

وفى الخبر أنّه صلى الله عليه وآله مَرّ بحسان بن ثابت ، وقد رشّ[2] أطماره ، وعنده جارية تغنيه :

هـل علىّ ويحـكما إن لهوتُ من حرَجِ

فقال صلى الله عليه وآله : « لاحَرَجَ إن شاء الله » .

وقيل : إن عبد الله بن جعفر قال لحسان بن ثابت فى أيام معاوية : لوغنّتك فلانة جاريتى صوت كذا لم تدرِكْ ركابك ،فقال : ياأبا جعفر، ﴿ فَـكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِير ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة ١٨٧ .
(٢) رش أطماره : غسلها
(٣) سورة الحج .

وقال أسلم مولى عمر بن الخطاب : مرّ بى عمر وأنا وعاصم نغنّى غناء النَّصْب[1] ، فوقف وقال : أعيدا علىّ ، فأعدنا عليه ، وقلنا : أينا أحسن صنعة ياأمير المؤمنين ؟ فقال : مَثَلُكما كحمارى العِبادىِّ ، قيل له : أىّ حماريك شرّ ؟ فقال : هذا ثمّ هذا. فقلت: ياأميرَ المؤمنين ، أنا الأول من الحمارين ؛ فقال : أنت الثانى منهما .

ومرّ نعيمان وهو بَذِرِىّ بمخرمة بن نوفل فى خلافة عثمان ، وقد كُفّ بصره ، فقال: ألا يقودنى رجل حتى أبول ؟ فأخذ نعيمان بيده حتى صار به إلى مؤخر المسجد ، وقال : هاهنا فبُلْ ، فبال، فصاح به النّاس ، فقال : مَنْ قادنى ؟ قيل : نعيمان ، قال : لله علىّ أن أضرِبَه بعصاى هذه . فبلغ نعيمان فأتاه ، فقال : بلغنى أنك أقسمت لتضربنّ نعيمان فهل لك فيه ! قال : نعم . قال : قم ، فقام معه حتى وافَى به عثمان بن عفان وهو يصلى ،فقال : دونك الرجل ،فجمع مخرَمة يديه فى العصا وضربه بها ، فصاح الناس : ويلك، أمير المؤمنين! قال : من قادنى ! قالوا : نعيمان ، قال : ومالى ولنعيمان ! لاأعرض له أبدا !

وكان طُويس يتغنّى فى عُرس ، فدخل النعمان بن بشير الأنصارى العرس وطويس يغنيهم :

أجِدَّ بعَمْرة هجرانُها ... وتسخط أم شاننا شانُها[2]

فأشاروا إليه بالسكوت ، فقال النعمان : دعوه إنه لم يقل بأسا ، إنما قال :

وعمرةُ مِنْ سروات النّسا ... تنفحُ بالمسك أرْدَانُها

وعَمْرة هذه أمّ النعمان ؛ وفيها قيل هذا النسيب .

وقد روى عن جماعة من الصحابة والتابعين اللعب بالنَّرْد والشِّطْرَنج ، ومنهم من روى عنهم شربَ النبيذ وسماع الغناء المطرب .

---

(١) النصب : غناء يشبه الحداء ؛ إلا أنه أرق .

(٢) البيتان لقيس بن الخطيم ، ديوانه ٧ ، ٨

فأمّا أمير المؤمنين علىّ عليه السلام ، فإذا نظرت إلى كتب الحديث والسِّيَر ، لم تجد أحداً من خَلْقِ الله عدوًّا ولا صديقا ، روى عنه شيئا من هذا الفنّ ؛ لا قولا ولا فعلا ، ولم يكن جِدّ أعظم من جِدِّه ، ولا وقار أتمّ من وقاره ، وما هَزَل قطّ ولا لعِب ، ولا فارق الحقّ والناموس الدينىّ سرًّا ولا جهرا ؛ وكيف يكون هازلا ومن كلامه المشهور عنه : « مامزح امرؤ مزحة إلا ومجّ معها من عقله مجّة » ! ولكنه خُلِق على سَجِيّة لطيفة ، وأخلاق سهلة ، ووجه طَلْق ، وقول حَسَن ، وبِشْر ظاهر ، وذلك من فضائله عليه السلام ، وخصائصه التى منحه الله بشرفها ، واختصه بمزيتها ، وإنما كانت غلظته وفظاظته فعلا لا قولا ، وضربا بالسيف لا جَبْها بالقول ، وطَعْنا بالسنان لا عَضْها باللسان [1] ؛ كما قال الشاعر :

وتسفَه أيدينا ويحلُم رأيُنا ونشتِمُ بالأفعال ، لا بالتكلّمِ

***

[نبذ وأقوال فى حسن الخلق ومدحه]

فأمّا سوء الخلق فلم يكن من سجاياه ، فقد قال النبى صلى الله عليه وآله : « خصلتان لا يجتمعان فى مؤمن : البُخلُ وسوء الخلق » . وقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [2] ، وقال أيضا : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [3] .

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وآله : ما الشؤم ! فقال : سوء الخلق .

وصحب جابر رجلًا فى طريق مكة ، فآذاه سوء خُلُقه ، فقال جابر : إنى لأرحمه ، نحن نفارقه ويبقى معه سوء خُلُقه !

(١) يقال : جبهت فلانا ؛ إذا خاطبته بما يكره . والعضه : الرمى بالكذب والبهتان
(٢) سورة القلم ٤
(٣) سورة آل عمران ١٥٩

وقيل لعبد الله بن جعفر : كيف تجاورُ بنى زُهرة وفى أخلاقهم زَعارة [١] ؟ قال : لايكون لى قِبَلهم شىء إلا تركتُه ، ولا يطلبون منى شيئا إلا أعطيتهم .

وفى الحديث المرفوع أنه صلى الله عليه وآله قال : « ألا أنبئكم بشرّ الناس »؟ قالوا: بلى يارسول الله ، قال: « مَنْ نزل وحْده ، ومنع رِفْده ، وضرب عبده » ، ثم قال : « ألا أنبئكم بشرّ من ذلك » ؟ قالوا : بلى ، قال : « مَنْ لم يُقِل عَثرة ، ولا يقبل معذرة ».

وقال إبراهيم بن عباس الصولىّ : لو وزنت كلمة رسول الله صلى الله عليه وآله بمحاسن الخلق كلّها لرجحت ، قوله : « إنكم لن تسَعُوا [٢] الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم».

وفى الخبر المرفوع: « حُسن الخلق زمام من رحمة الله فى أنف صاحبه، والزّمام بيد المَلَك، والملك يجرّه إلى الخير ، والخير يجرّه إلى الجنة ؛ وسوء الخلق زمام من عذاب الله فى أنف صاحبه ، والزمام بيد الشيطان ، والشيطان يجرّه إلى الشرّ ، والشرّ يجرّه إلى النار » .

وروى الحسن بن علىّ عليه السلام عن النبىّ صلى الله عليه وآله : « إن الرّجُل يدرك بحسن خلقه درَجة الصائم القائم ، وإنه ليُكتب جبارا ولا يملك إلا أهلَه » .

وروى أبو موسى الأشعرىّ ، قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وآله يمشى وامرأةٌ بين يديه ، فقلت : الطريقَ لرسول الله صلى الله عليه ! فقالت : « الطريق معرِّض ؛ إن شاء أخذ يمينا وإن شاء أخذ شمالا . فقال صلى الله عليه وآله: « دعوها فإنها جبّارة [٣] ».

وقال بعض السلف : الحسَن الخلق ذو قرابة عند الأجانب ، والسيِّئ الخلق أجنبىّ عند أهله .

ومن كلام الأحنف : ألا أخبرُكم بالمحْمَدة بلا مذمة ؟ الخلق السَّجِيح ، والكفّ عن القبيح . ألا أخبركم بأدوأ الداء ! الخلق الدنئ واللسان البذئ » .

(١) الزعارة ، وتشدد الراء : شراسة الخلق .

(٢) فى الأصول : « لن تشبعوا » تصحيف؛ ولفظ الحديث فى الجامع الصغير ١ : ١٧٥ : « إنكم لاتسعون الناس بأموالكم ، ولكن ليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق » .

(٣) جبارة ، أى مستكبرة عاتية . وانظر النهاية ١ : ١٤٢

وفى الحديث المرفوع : « أول ما يوضع فى الميزان الخلقُ الحسن » .

وجاء مرفوعا أيضاً : « المؤمن هيّن ليّن كالجمل الأنِف[1]؛ إن قيد انقاد ، وإن أنيخ على صخرة استناخ » .

وجاء مرفوعا أيضا : « ألا أخبركم بأحبّكم إلىّ وأقربكم منّى مجالس يوم القيامة ؟ أحاسنكم أخلاقا ، الموطّئون أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون . ألا أخبركم بأبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة : الثرثارون المتفيهقون » .

أبو رجاء العُطاردىّ : من سرّه أن يكون مؤمنا حقا ، فليكن أذلّ من قَعُود ؛ كلّ من مرّ به ادّعاه .

فُضَيل بن عياض : لأن يصحبنى فاجر حَسَنُ الخلق ، أحب إلىّ من أن يصحبَنى عابد سيّئ الخلق ، لأنّ الفاسق إذا حسُن خلقه خفّ على الناس وأحبوه ، والعابد إذا ساء خلقهُ ، ثقُل على الناس ومَقَتُوه .

دخل فَرْقد ومحمد بن واسع على رجل يعودانه ، فجرى ذكر العنف والرّفق ، فروى فَرْقد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قيل له : عَلَى من حُرّمت النار يارسول الله ؟ قال : « على الهيّن الليّن السّهل القريب » ؛ فلم يجد محمد بن واسع بياضاً يكتب ذلك فيه ، فكتبه على ساقه .

عبد الله بن الدارانىّ : ما ضُرِب عبدٌ بعقوبة أعظمَ من قَسْوة القلب .

عائشة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله بأهل بيت خيرا أدخل عليهم باب رِفْق » .

وعنها ، عنه صلى الله عليه وآله : « من أعُطِىَ حظّه من الرّفق أعطِىَ حظّه من خير الدنيا والآخرة » .

---

(١) يريد سهل المقادة ؛ وأصله أن البعير إذا اشتكى من البرة توضع فى أنفه يقال له : بعير أنف .

جرير بن عبد الله البَجَليّ رفعه « إنّ الله ليُعطى على الرفق ما لا يعطى على الخُرْق ، فإذا أحبّ الله عبدا أعطاه الرفق » . وكان يقال : « مادخل الرِّفق فى شىء إلا زانه » .

أبو عَوْن الأنصاريّ : ما تكلّم الإنسان بكلمةٍ عنيفة إلا وإلى جانبها كلمة ألْيَن منها تجرى مجراها .

سئلتْ عائشة عن خُلُق رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، فقالت : كان خلقُه القرآن : ﴿ خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وأعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ(١) ﴾ .

وسئل ابنُ المبارك عن حُسْن الخلق ، فقال : بسْط الوجْه ، وكفّ الأذى ، وبذلُ الندى .

ابن عباس : إنّ الخُلُقَ الحسَن يذِيب الخطايا كما تُذِيب الشمس الجليد ، وإنّ الخلُق السّيِّئ يفسِد العمل ، كما يفسد الخلّ العسل .

علىّ عليه السلام : ما من شىء فى الميزان أثقل من خُلُق حَسَن .

وعنه عليه السلام : عنوان صحيفة المؤمن حُسْنُ خلقه .

وعنه عليه السلام مرفوعاً : عليكم بحسْنِ الخلُق ؛ فإنه فى الجنة ، وإياكم وسوء الخلق فإنّه فى النار .

قال المنصور لأخيه أبى العباس فى بنى حسن لما أزمَعُوا الخروج عليه : آنسْهُم يا أميرَ المؤمنين بالإحسان ، فإن استوحشوا فالشرُّ يصلح ما يعجز عنه الخير ، ولا تَدَعْ محمدا يمرَحُ فى أعنّة العقوق . فقال أبو العباس : يا أبا جعفر ؟ إنه من شدّد نفّر ، ومن لان ألّف ، والتغافل من سجايا الكرام .

[فصل فى ذكر أسباب الغلظة والفظاظة]

ونحن نذكر بعدُ كلاماً كليًا فى سبب الغلظة والفظاظة ، وهو الخلق المنافى للخلق الذى كان عليه أمير المؤمنين ، فنقول :

(١) سورة الأعراف ١٩٩

إنه قد يكون لأمر عائد إلى المزاج الجسمانى ، وقد يكون لأمر راجع إلى النفس :
فأمّا الأول ؛ فإنما يكون من غَلَبة الأخلاط السوداوّية وترمّدها ، وعدم صفاء الدّم وكثرة كدرته وعكره ، فإذا غلظ الدم وثَخُن غلظ الرُّوح النفسانىّ وثخن أيضا ، لأنه متولدٌ من الدم ، فيحدث منه نوع مما يحدث لأصحاب الفِطْرة ، من الاستيحاش والنبْوة عن الناس وعدم الاستئناس والبشاشة ، وصار صاحبُه ذا جفاء وأخلاق غليظة ، ويشبه أن يكون هذا سببا ماديًّا ، فإنّ الذى يقوى فى نفسى أن النفوس إن صحّت وثبتت مختلفةٌ بالذات .

وأما الراجع إلى النفس فأن يجتمع عندها أسقاط وأنصباء من قوى مختلفة مذمومة ، نحو أن تكون القوة الغضبية عندها متوافرة ، وينضاف إليها تصوُّر الكمال فى ذاتها وتوهم النقصان فى غيرها ، فيعتقد أنّ حركات غيره واقعة على غير الصّواب ، وأن الصواب ماتوهمه .
وينضاف إلى ذلك قلّة أدب النفس وعدم الضبط لها واستحقارها للغير ؛ ويقلّ التوقير له ، وينضاف إلى ذلك لجاجٌ ، وضيق فى النفس ، وحدّةٌ واستشاطة وقلة صبر عليه ، فيتولّد من مجموع هذه الأمور خُلُق دنىء ؛ وهو الفلظة والفظاظة ، والوعورة والبادرة المكروهة ، وعدم حبّة الناس ، ولقاؤهم بالأذى ، وقلّة المراقبة لهم ، واستعمال القَهْر فى جميع الأمور ، وتناول الأمر من السماء ؛ وهو قادر على أن يتناوله من الأرض .

وهذا الخلق خارجٌ عن الاعتدال ، وداخل فى حَيّز الجوْر ؛ ولا ينبغى أن يسمّى بأسماء المدح ، وأعنى بذلك أن قوماً يسمُّون هذا النوع من العنْف والخلق الوعر رجوليّة ، وشدةً وشكيمة ، ويذهبون به مذهبَ قوة النفس وشجاعتها ؛ الذى هو بالحقيقة مدح . وشتّان بين الخُلقين ، فإنّ صاحبَ هذا الخلق الذى ذممناه تصدُر عنه أفعال كثيرة يجور فيها على نفسه ثم على إخوانه ؛ على الأقربِ فالأقرب من معامليه ، حتى ينتهىَ إلى عبيده وحرمه ؛ فيكون عليهم سوط عذاب ، لا يقيلُهم عثْرة ، ولا يرحم لهم عَبْرة ، وإن كانوا برآء الذنوب ، غير مجرمين ولا مكتسِبى سوء ، بل يتجرّم عليهم ، ويهيج من أدنى سبب يجد به طريقا إليهم ،

حتى يبسُط يده ولسانه ، وهم لا يمتنعون منه ، ولا يتجاسرون على ردّه عن أنفسهم ، بل يُذعِنون له ويقرّون بذنوب لم يقترفوها ؛ استكفافا لعاديته وتسكينا لغَضبه ، وهو فى ذلك يستمرّ على طريقته لا يكفّ يدا ولا لسانا .

وأصل هذا الخلق الذى ذكرناه أنه مركّب من قوى مختلفة من شدة القوة الغضبية، فهى الحاملة لصاحب هذا الحق على ما يصدُر عنه من البادرة المكروهة والجُبْه والقِحة ؛ وقد رأينا وشاهدنا من تشتدّ القوة الغضبية فيه ، فيتجاوز الغضب على نوع الإنسان إلى البهائم التى لا تعقل، وإلى الأوانى التى لا تحسّ ،وربما قام إلى الحمار وإلى البرذَوْن فضربهما ولكمهما، وربّما كسر الآنية لشدة غَضبه ، وربما عَضّ القُفل إذا تعسّر عليه ،وربما كسر القلم إذا تعلقت به شعرة من الدواة واجتهد فى إزالتها فلم تزل .

ويحكى عن بعض ملوك اليونان المتقدّمين ؛ أنه كان يغضب على البحر إذا هاج واضطرب ، وتأخرت سفنه عن النفوذ فيه ؛ فيقسم بمعبودِه ليطمّنه وليطرحنّ الجبال فيه حتى يصيرَ أرضا ، ويقف بنفسه على البحر ، ويهدده بذلك، ويزجُره زجرا عنيفا ، حتى تدرّ أوداجُه ويشتدّ احمرار وجهه ؛ ومنهم من لا يسكن غضبُه حتى يصَبّ عليه ماء بارد أو حتى يبول ؛ ولهذا ورد فى الشريعة، الأمر لمن اشتد غضبه أن يتوضأ للصلاة ويصلِّىَ .

وكان عمر بن الخطاب إذا غضب على واحد من أهله لا يسكُن غضبُه ؛ حتى يعضّ يده عضًا شديدا حتى يدْمِيها .

***

وذكر الزبير بن بكار فى " الموفقيات " أن سرّية جاءت لعبد الرحمن أو لعبيد الله

ابن عمر بن الخطاب إليه تشكوه فقالت : ياأميرَ المؤمنين ، ألا تعذُرنى من أبى عيسى ؛ قال : ومَنْ أبو عيسى ؟ قالت : ابنك عبيد الله ، قال : ويحك ! وقد تـكنّى بأبى عيسى! ثم دعاه فقال : إيهاً اكتنيت بأبى عيسى ! فحذر وفزِع ، وأخذ يده فعضّها ؛ ثم ضربه ، وقال: ويلك ! وهل لعيسى أب؟ أتدرى ما كُنَى العرب ! أبو سلمة ، أبو حنظلة ، أبو عرفطة أبو مرّة . . .

قال الزبير : وكان عمر إذا غضِب على بعض أهله لم يَسكن غضبهُ حتى يعضّ يده عضا شديدا . وكان عبد الله بن الزبير كذلك ، ولقوة هذا الخلُق عنده أضمر عبد الله بن عباس فى خلافته إبطال القول بالعول(١) وأظهره بعده ، فقيل له : هلا قلت هـذا فى أيام عمر ! فقال : هبْته ، وكان أميرا مهيباً .

ولذلك قال أيضاً أبو سفيان فى استلحاق زياد :أخاف من هذا العَيْر الجالس أن يخرِق علىّ إهابىّ ؛ فإذا هابه أبو سفيان ، وهو من بنى عبد مناف فى المنزلة التى تعلم ، وحوله بنو عبد شمس ، وهم جمرة قريش ، فما ظنك بمن هو دونه !

وقد علمتَ حال جبلة بن الأيهم وارتدادَه عن الإسلام لتهدّده له ووعيده إياه أن يضربه بالدِّرّة ، وفساد الحال بينه وبين خالد بن الوليد بعد أن كان وليّاً مصافيا ، ومنحرفا عن غيره قاليا ، والشأن الذى كان بينه وبين طلحة حتى همّ أن يوقِع به ، وحتّى همّ طلحة أن يجاهرَه ، وطلحة هو الذى قال لأبى بكر عند موته : ماذا تقول لربك وقد ولّيتَ فينا فظّاً غليظا ! وهو القائل له : ياخليفةَ رسول الله؛ إنا كنّا لانحتمل شراسته وأنت حىّ تأخذ على يديه ، فـكيف يكون حالنا معه وأنت ميت وهو الخليفة !

واعلم أنا لانريد بهذا القول ذمّه رضى الله عنه ؛ وكيف نذمّه وهو أوْلى الناس بالمدح

---

(١) العول : ارتفاع الحساب فى الفرائض . انظر اللسان .

والتعظيم ؛ ليُمْن نقيبته وبركة خلافته ، وكثرة الفتوح فى أيامه، وانتظام أمور الإسلام على يده اولكنّا أردنا أن نشرح حال العنف والرفق، وحال سعة الخلق وضيقه ، وحال البشاشة والعبوس ، وحال الطلاقة والوعورة ،فنذكر كل واحدمنها ذكرا كليّاً، لانخصّ به إنسانا بعينه .فأما عمر فإنه وإن كان وعراً شديدا خشنا، فقدرزق من التوفيق والعناية الإلهية ونُجْح المساعى، وطاعة الرعية ونفوذ الحكم ، وقوة الدين وحسن النية وصحة الرأى ، مايُربى محاسنه ومحامده على ما فى ذلك الخلق من نقص ، وليس الكامل المطلق إلا الله تعالى وحده .

فأما حديث الرُّضيخة وماجعل معاوية لعمرو بن العاص من جعالة على مبايعته ونصرته ، فقد تقدم ذكره فى أخبار صفين المشروحة فى هذا الكتاب من قبل .

(٨٤)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا ٱللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، الأَوَّلُ لَا شَيْءَ قَبْلَهُ ، وَالآخِرُ لَا غَايَةَ لَهُ ، لَا تَقَعُ ٱلْأَوْهَامُ لَهُ عَلَى صِفَةٍ ، وَلَا تُعْقَدُ ٱلْقُلُوبُ مِنْهُ عَلَى كَيْفِيَّةٍ ؛ وَلَا تَنَالُهُ ٱلتَّجْزِئَةُ وَالتَّبْعِيضُ ، وَلَا تُحِيطُ بِهِ ٱلْأَبْصَارُ وَٱلْقُلُوبُ .

الشَّرْحُ

فى هذا الفصل على قصره ثمانى مسائل من مسائل التوحيد :

الأولى : أنّه لاثانىَ له سبحانه فى الإلٰهية .

والثانية : أنه قديم لا أوّل له . فإن قلت : ليس يدلّ كلامه على القدم ، لأنه قال : « الأوّل لاشىء قبله » فيوهِم كونه غير قديم بأن يكون محدثا وليس قبله شىء ، لأنه محدَث عن عدم والعدم ليس بشىء ! قلت : إذا كان محدَثا كان له محدِث ؛ فكان ذلك المحدث قبله ، فثبت أنه متى صدق أنه ليس شىء قبله صدق كونه قديما .

والثالثة : أنه أبدِىٌّ لا انتهاء ولا انقضاء لذاته .

والرابعة : نفى الصفات عنه ـ أعنى المعانى .

والخامسة : نفى كونه مكيّفا ؛ لأن كيف إنما يُسأل بها عن ذوى الهيئات والأشكال وهو منزّه عنها .

والسادسة : أنه غير متبعّض لأنه ليس بجسم ولا عَرَض .

والسابعة : أنه لا يُرى ولا يدرَك.

والثامنة : أن ماهيّته غير معلومة ، وهو مذهب الحكماء وكثير من المتكلّمين من أصحابنا وغيرهم .

وأدلّةُ هذه المسائل مشروحة فى كتبنا الكلامية .

واعلم أنّ التوحيد والعدل والمباحث الشريفة الإلهيّة ، ماعرِفت إلا من كلام هذا الرجل ، وأنّ كلام غيره من أكابر الصحابة لم يتضمّن شيئا من ذلك أصلا ؛ ولا كانوا يتصورونه ، ولو تصوّروه لذكروه . وهذه الفضيلة عندى أعظم فضائله عليه السلام .

* * *

الأصْلُ :

ومنها :

فَاتَّعِظُوا عِبَادَ ٱللهِ بِالْعِبَرِ النَّوَافِعِ ، وَٱعْتَبِرُوا بِالآيِ السَّوَاطِعِ ، وَٱزْدَجِرُوا بِالنُّذُرِ ٱلْبَوَالِغِ ، وَٱنْتَفِعُوا بِالذِّكْرِ وَٱلْمَوَاعِظِ ، فَكَأَنْ[1] قَدْ عَلِقَتْكُمْ مَخَالِبُ ٱلْمَنِيَّةِ ، وَانقَطَعَتْ مِنكُمْ عَلَائِقُ ٱلْأُمْنِيَّةِ ، وَدَهَمَتْكُمْ مُفْظِعَاتُ ٱلْأُمُورِ ، وَالسِّيَاقَةُ إِلَى ٱلْوِرْدِ ٱلْمَوْرُودِ ، فَكُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ؛ سَائِقٌ يَسُوقُهَا إِلَى مَحْشَرِهَا ، وَشَاهِدٌ يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِعَمَلِهَا .

* * *

الشّرْحُ

العِبَر : جمع عِبْرة ، وهى مايعتبر به أىّ يتعظ . والآى : جمع آية ، ويجوز أن يريدَ

---

(١) مخطوطة النهج « وكأن » .

بها آى القرآن ، ويجوز أن يريدَ بها آيات الله فى خلقه ، وفى غرائب الحوادث فى العالم .

والسواطع : المشرقة المنيرة .

والنُّذر : جمع نذير ؛ وهو المخوِّف ، والأحسن أن يكون النُّذر ها هنا هى الإنذرات نفسها ، لأنه قد وصف ذلك بالبوالغ ، وفواعل لا تكون فى الأكثر إلا صفة المؤنث .

ومُفظِعاتِ الأمور : شدائدها الشنيعة ، أفظعَ الأمرُ فهو مُفظِع ، ويجوز فظُع الأمر بالضم فظاعة فهو فظيع ، وأُفظِع الرجل على ما لم يسمَّ فاعله ، أى نزل به ذلك .

وقوله : « والسياقة إلى الورد المورود » ؛ يعنى الموت . وقوله : «سَائِقٌ وَشَهِيدٌ» ؛ وقد فسّر عليه السلام ذلك وقال : « سائق يسوقها إلى محشَرها ، وشاهد يشهد عليها بعملها » ؛ وقد قال بعض المفسرين : إن الآية لا تقتضى كونهما اثنين ، بل من الجائز أن يكون ملكا واحداً جامعاً بين الأمرين ، كأنه قال : « وجاءت كل نفس معها ملك يسوقها ويشهد عليها» . وكلام أمير المؤمنين يحتمل ذلك أيضاً ، لأنه لم يقل أحدهما ؛ لكن الأظهر فى الأخبار والآثار أنهما ملكان .

فإن قلت: إذا كان تعالى عالما بكلّ شىء فأىّ حاجة إلى الملائكة التى تكتب الأعمال ، كما قال سبحانه : ﴿ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾[1] ؛ وإذا كان تعالى أعدل العادلين فأىّ حاجة إلى ملك يشهد على المكلّف يوم القيامة ؟ وإذا كان قادرا لذاته ، فأىّ حاجة إلى ملَك يسوق المكلف إلى المحشر ؟ قلت : يجوز أن يكونَ فى تقرير مثل ذلك فى أنفس المكلّفين فى الدنيا ألطافٌ ومصالح لهم فى أديانهم ، فيخاطبهم الله تعالى به

(١) سورة الزخرف ٨٠

لوجوب اللطف فى حكمته ، وإذا خاطبهم به وجب فعله فى الآخرة ؛ لأن خبره سبحانه لا يجوز الخلف عليه .

***

الأصل :

ومنها فى صفة الجنة :

دَرجَاتٌ مُتَفَاضِلَاتٌ ، وَمَنَازِلُ مُتَفَاوِتَاتٌ ، لَا يَنْقَطِعُ نَعِيمُهَا ، وَلَا يَظْعَنُ مُقِيمُهَا ، وَلَا يَهْرَمُ خَالِدُهَا ، وَلَا يَبْأَسُ سَاكِنُهَا .

***

الشرح :

الدَّرَجات : جمع درجة ، وهى الطّبقات والمراتب ، ويقال لها : درجات فى الجنة ودَرَكات فى النار ، وإنما تفاضَلَتْ وتفاوتت بحسب الأعمال ، ولا يجوز أن يقع ذلك تفضُّلاً ؛ لأن التفضّل بالثّواب قبيح .

فإن قلت : فما قولك فى الحور والولدان والأطفال والمجانين ؟ قلت : يكون الواصل إليهم نعيماً ولذة لا شبهة فى ذلك ، ولكن لا ثواب لهم ولا ينالونه ، والثواب أمرٌ أخصّ من المنافع والنعيم ، لأنه منافع يقترن بها التعظيم والتبجيل ، وهذا الأمرُ الأخصّ لا يحسن إيصاله إلّا إلى أرباب العمل .

وقوله : « لا ينقطع نعيمها ولا يظعن مقيمها » قولٌ متفق عليه بين أهل الملّة ، إلا ما يحكى عن أبى الهذيل ؛ أنّ حركات أهل الجنة تنتهى إلى سكون دائم . وقد نزّهه قوم من أصحابنا عن هذا القول وأكذبوا رواته ، ومَنْ أثبته منهم عنه زعم أنه لم يقل بانقطاع النعيم ، لكن بانقطاع الحركة مع دوام النعيم ، وإنما حمله على ذلك أنه لما استدلّ على أن

الحركة الماضية يستحيل ألّا يكون لها أوّل ، عورض بالحركات المستقبلة لأهل الجنة والنار، فالتزم أنها متناهية ، وإنما استُبعد هذا عنه ؛ لأنه كان أجلّ قدراً من أن يذهب عليه الفرق بين الصورتين .

وييأس : مضارع يَئِسَ ، وجاء فيه « يَيئِس » بالكسر ،وهو شاذّ كشذوذ « يحسِب » و ينعِم ، ومعنى « ييأس » : يصيبه البؤس وهو الشقاء .

(٨٥)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

قَدْ عَلِمَ السَّرَائِرَ ، وَخَبَرَ الضَّمَائِرَ ، لَهُ الْإِحَاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَالْغَلَبَةُ لِكُلِّ شَيْءٍ وَالْقُوَّةُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُ مِنْكُمْ فِي أَيَّامِ مَهَلِهِ ، قَبْلَ إِرْهَاقِ أَجَلِهِ ، وَفِي فَرَاغِهِ قَبْلَ أَوَانِ شُغُلِهِ ، وَفِي مُتَنَفَّسِهِ قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ بِكَظَمِهِ ؛ وَلْيُمَهِّدْ لِنَفْسِهِ وَقَدَمِهِ ، وَلْيَتَزَوَّدْ مِنْ دَارِ ظَعْنِهِ لِدَارِ إِقَامَتِهِ .

فَاللهَ اللهَ أَيُّهَا النَّاسُ فِيمَا اسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ ، وَاسْتَوْدَعَكُمْ مِنْ حُقُوقِهِ ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً ، وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدًى ؛ وَلَمْ يَدَعْكُمْ فِي جَهَالَةٍ وَلَا عَمًى ، قَدْ سَمَّى آثَارَكُمْ ، وَعَلِمَ أَعْمَالَكُمْ ، وَكَتَبَ آجَالَكُمْ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْكُمُ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ ؛ وَعَمَّرَ فِيكُمْ نَبِيَّهُ أَزْمَاناً ؛ حَتَّى أَكْمَلَ لَهُ وَلَكُمْ فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ دِينَهُ الَّذِي رَضِيَ لِنَفْسِهِ ؛ وَأَنْهَى إِلَيْكُمْ عَلَى لِسَانِهِ مَحَابَّهُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَمَكَارِهَهُ ، وَنَوَاهِيَهُ وَأَوَامِرَهُ ، وَأَلْقَى إِلَيْكُمُ الْمَعْذِرَةَ ، وَاتَّخَذَ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةَ ، وَقَدَّمَ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ، وَأَنْذَرَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ .

***

الشرح :

السرائر : جمع سَرِيرة ، وهو ما يكتم من السِّرّ .

وخبَر الضمائر ، بفتح الباء : امتحنها وابتلاها ، ومن رواه بكسر الباء أراد «علم» ، والاسم

الُخبْر ، بضم الخاء وهو العلم . والضمائر : جمع ضمير ، وهو ماتضمره وتكنّه فى نفسك .

وفى قوله : « له الإحاطة بكلّ شىء » ؛ وقد بينها ثلاث مسائل فى التوحيد :

إحداهنّ : أنه تعالى عالم بكلّ المعلومات .

والثانية : أنه لاشريك له ، وإذا ثبت كونه عالماً بكلّ شىء كان فى ضمن ذلك نفى الشريك ، لأن الشريك لا يكون مغلوباً .

والثالثة : أنه قادر على كلّ ما يصح تعلق قادريته تعالى به .

وأدلة هذه المسائل مذكورة فى الكتب الكلاميّة .

وقوله : « فليعمل العامل منكم إلى قوله » : « وليتزوّد من دار ظعنه لدار إقامته » مأخوذٌ من قول رسول الله صلى الله عليه وآله فى خطبته المشهورة وهى : « أيها الناس ؛ إنّ لكم معالمَ فانتهُوا إلى معالمكم وإن لكم غاية فانتهوا إلى غايتكم . إن المؤمن بين مخافتين : بين أجل قد مَضى لا يدرِى ما الله صانعٌ به ، وأجلٍ قد بقىَ لا يدرى ما الله قاضٍ فيه ، فليأخذ العبدُ من نفسه لنفسه ، ومِنْ دنياه لآخرته ، ومن الشّبيبة قبل الهرَم ، ومن الحياة قبل الموت ؛ فو الذى نفس محمد بيده ؛ ما بعدَ الموت من مستعتَب ، وما بعدَ الدنيا من دار إلا الجنة أو النار » .

والمَهل : المهلة والتؤدة . والإرهاق : مصدر أرهق ، تقول : أرهقه قِرنه فى الحرب إرهاقاً إذا غشيَه ليقتله ، وزيد مرهَق ؛ قال الشاعر :

تَنْدَى أكفّهمُ وفى أبياتهمْ ثِقَةُ المجاور والمضافِ المرهَقِ (١)

وفى متنفّسه ، أى فى سَعة وقته ؛ يقال : أنت فى نفَس من أمرك ، أى فى سَعة .

---

(١) للكميت ؛ اللسان ٣ : ٤٢١ .

والكَظَم بفتحهما : مخرج النَّفَس ، والجمع أكْظَام . ويجوز ظعْنه وظعَنه ، بتحريك العين وتسكينها ، وقرئ بهما : ﴿ يوم ظعْنكم[1] ﴾ ﴿ وظعَنكم ﴾ .

ونصب « اللهَ اللهَ » على الإغراء ، وهو أن تقدّر فعلا ينصب المفعول به ؛ أى اتقوا الله ، وجعلِ تكرير اللفظ نائباً عن الفعل المقدّر ودليلا عليه .

استحفظكم من كتابه : جعلكم حَفَظة له ؛ جمع حافظ .

السُّدَى : المهمَل ، ويجوز سَدى بالفتح ، أسديت الإبل : أهملتها . وقوله : « قد سمّى آثاركم » يفسَّر بتفسيرين : أحدهما : قد بيّن لكم أعمالكم خيرها وشرها ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ[2] ﴾ ؛ والثانى : قد أعلى مآثركم ، أى رفع منازلكم إن أطعتم ، ويكون سمّى بمعنى أسْمَى ، كما كان فى الوجه الأول بمعنى أبان وأوضح .

والتِّبْيان، بكسر التاء : مصدر ، وهو شاذّ ؛ لأن المصادر إنما تجئ على « التَّفعال » بفتحها مثل التَّذكار والتَّكرار ، ولم يأت بالكسر إلا حرفان وهما : التِّبْيان والتِّلْقاء .

وقوله : « حتى أكمل له ولكم دينه » من قوله تعالى : ﴿ اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى[3] ﴾ .

وقوله : « الذى رضى لنفسه » من قوله تعالى : ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ ﴾[4] ؛ لأنه إذا ارتضى لهم فقد ارتضاه لنفسه ، أى ارتضى أن ينسب إليه ، فيقال : هذا دين الحق . « وأنهى إليكم » : عرّفكم وأعلمكم .

ومحابّه : جمع محبة ، ومكارهه : جمع مَكْرهة ، وهى ما تكره ، وفى هذا دلالة أن الله تعالى يحب الطاعة ويكره المعصية ، وهو خلاف قول الجبرة .

---

(١) سورة النحل ٨٠ .
(٢) سورة البلد ١٠ .
(٣) سورة المائدة ٣ .
(٤) سورة النور ٥٥ .

والأوامر : جمع آمِر ، وأنكره قوم وقالوا : هاهنا جمع «أمر» ، كالأحاوص جمع أحوص، والأحامر جمع أحمر . يعنى الكلام الآمر لهم بالطاعات وهو القرآن .

والنَّواهى : جمع ناهية ، كالسَّوارى جمع سارية ، والغوادى جمع غادية ، يعنى الآيات الناهية لهم عن المعاصى ، ويضعُف أن يكون الأوامر والنواهى جمع أمر ونهى ، لأن «فعلاً» لا يجمع على أفاعل وفواعل ، وإن كان قال ذلك بعض الشواذّ من أهل الأدب .

وقوله : «وألقى إليكم المعذرة» كلام فصيح ، وهو من قوله تعالى : ﴿ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ ﴾(١) .

وقدّم إليكم بالوعيد ، وأنذركم بين يدى عذاب شديد ، أى أمامه وقبله ، مأخوذ أيضا من القرآن . ومعنى قوله : « بين يدى عذاب شديد » ، أى أمامه وقبله ؛ لأن ما بين يديك متقدم لك .

***

الأصْلُ :

فَاسْتَدْرِكُوا بَقِيَّةَ أَيَّامِكُمْ ، وَاصْبِرُوا لَهَا أَنْفُسَكُمْ ؛ فَإِنَّهَا قَلِيلٌ فِي كَثِيرِ الْأَيَّامِ الَّتِي تَكُونُ مِنْكُمْ فِيهَا الْغَفْلَةُ ، وَالتَّشَاغُلُ عَنِ الْمَوْعِظَةِ ، وَلَا تُرَخِّصُوا لِأَنْفُسِكُمْ ؛ فَتَذْهَبَ بِكُمُ الرُّخَصُ مَذَاهِبَ الظَّلَمَةِ ، وَلَا تُدَاهِنُوا فَيَهْجُمَ بِكُمُ الْإِدْهَانُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ .

عِبَادَ اللهِ : إِنَّ أَنْصَحَ النَّاسِ لِنَفْسِهِ أَطْوَعُهُمْ لِرَبِّهِ ، وَإِنَّ أَغَشَّهُمْ لِنَفْسِهِ أَعْصَاهُمْ لِرَبِّهِ ؛ وَالْمَغْبُونُ مَنْ غَبَنَ نَفْسَهُ ، وَالْمَغْبُوطُ مَنْ سَلِمَ لَهُ دِينُهُ ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ ، وَالشَّقِيُّ مَنِ انْخَدَعَ لِهَوَاهُ وَغُرُورِهِ .

(١) سورة النساء ٩٠ .

وَاعْلَمُوا أَنَّ يَسِيرَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ ، وَمُجَالَسَةَ أَهْلِ الْهَوَى مَنْسَاةٌ لِلْإِيمَانِ ؛ وَمَحْضَرَةٌ لِلشَّيْطَانِ .

جَانِبُوا الْكَذِبَ فَإِنَّهُ مُجَانِبٌ لِلْإِيمَانِ . الصَّادِقُ عَلَى شَفَا مَنْجَاةٍ وَكَرَامَةٍ ، وَالْكَاذِبُ عَلَى شَرَفِ مَهْوَاةٍ وَمَهَانَةٍ .

وَلَا تَحَاسَدُوا ؛ فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْإِيمَانَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ ، وَلَا تَبَاغَضُوا فَإِنَّهَا الْحَالِقَةُ ؛ وَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَمَلَ يُسْهِي الْعَقْلَ ، وَيُنْسِي الذِّكْرَ . فَأَكْذِبُوا الْأَمَلَ ؛ فَإِنَّهُ غُرُورٌ ، وَصَاحِبُهُ مَغْرُورٌ .

***

الشرح

قوله : « فاستدركوا بقيّة أيامكم » ؛ يقال : « استدركت مافات وتداركت مافات » ، بمعنى « واصبروا لها أنفسكم » : مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾[1] ؛ يقال : « صبر فلان نفسه على كذا » ، أى حبَسها عليه . يتعدىّ فينصب ؛ قال عنترة :

فصبرتُ عارفةً لذلك حُرَّةً ترسو إذا نفس الجبان تَطَلَّعُ[2]

أى حبست نفسا عارفة . وفى الحديث النبوىّ فى رجل أمسك رجلا وقتله الآخر ، فقال عليه السلام : « اقتلوا القاتل واصبروا الصابر » ، أى احبسوا الذى أمسكه حتى يموت .

والضمير فى « فإنها قليل » عائد إلى الأيام التى أمرهم باستدراكها . يقول : إن هذه الأيام التى قد بقيَت من أعماركم قليلة ، بالنسبة والإضافة إلى الأيام التى تغفلون فيها عن الموعظة .

---

(١) سورة الأنعام ٥٢ .

(٢) يذكر حرباً كان فيها . اللسان ٦ : ١٠٧ .

وقوله : « فإنها قليل » فأخبر عن المؤنث بصيغة المذكر ، إنما معناه فإنها شيء قليلٌ بحذف الموصوف ؛ كقوله : ﴿ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقاً ﴾ [1] أى قبيلا رفيقا .

ثم قال : « ولا ترخّصوا » ؛ نَهَى عن الأخذ برُخَص المذاهب ؛ وذلك لأنه لا يجوز للواحد من العامة أن يقلّد كلاً من أئمة الاجتهاد فيما خفّ وسَهُل من الأحكام الشرعية . أولا تُساهلوا أنفسكم فى ترك تشدبد المعصية ، ولا تسامحوها وترخّصوا إليها فى ارتكاب الصغائر والمحقّرات من الذنوب ، فتهجُم بكم على الكبائر ، لأنّ من مَرَن على أمرٍ تدرّج من صغيره إلى كبيره .

والمداهنة : النفاق والمصانعة ، والإدهان مثله ؛ قال تعالى : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [2] .

قوله : « إنّ أنصحَ الناس لنفسه أطوعُهم لربه » ، لأنه قد صانها عن العقاب ، وأوجب لها الثواب ؛ وذلك غاية ما يمكن من نصيحتها ونفعها .

قوله : « وإن أغشّ الناس لنفسه أعصاهم لربه » ؛ لأنه ألقاها فى الهلاك الدائم ، وذلك أقصى ما يمكن من غِشّها والإضرار بها .

ثم قال : « والمغبونُ من غبَن نفسه » ، أى أحقّ الناس أن يسمّى مغبونا مَنْ غبَن نفسه ، يقال : غبنتُه فى البيع غبْنا ، بالتسكين ، أى خدعتُه ، وقدغُبِن فهو مغبون ، وغبِن الرجل رأيه بالكسر غبَنا بالتحريك فهو غبين ، أى ضعيف الرأى ، وفيه غبَانة . ولفظ الغَبْن يدلّ على أنه من باب غَبْن البيع والشراء ، لأنه قال : « والمغبون » ولم يقل : « والغبين » .

والمغبوط : الذى يُتمنّى مثلُ حاله ، والذى يتمنى زوالَ حاله وانتقالها هو الحاسد ،

---

(١) سورة النساء ٦٩ .
(٢) سورة القلم ٩ .

والحسد مذموم ، والغبطة غير مذمومة ، يقال : غَبَطته بما نَال ، أغبطه غبطا وغِبْطة فاغتبط هو ؛ كقولك منعته فامتنع ، وحبسته فاحتبس ، قال الشاعر :

وبينما المرء فى الأحياء مغتبِطٌ إذ صار فى الرَّمْس تعفُوه الأعاصير (١)

هكذا أنشدوه بكسر الباء ، وقالوا فيه : مغتبَط ، أى مغبوط .

قوله : « والسعيد من وُعظ بغيره » مثَل من الأمثال النبوية .

وقد ذكرنا فيما تقدم ، ماجاء فى ذم الرياء وتفسير كونه شِرْكا .

وقوله عليه السلام : « مَنْسَاة للإيمان » ؛ أى داعية إلى نسيان الإيمان وإهماله ، والإيمان الاعتقاد والعمل .

ومحضرة للشيطان : موضع حضوره ، كقولك : مَسْبَعة ، أى موضع السباع . ومَفْعَاة ، أى موضع الأفاعى .

ثم نهى عن الكذب وقال : « إنه مجانب للإيمان » وكذا ورد فى الخبر المرفوع . وشَفَا منجاة ؛ أى حَرْف نجاة وخَلَاص ؛ وشفا الشىء حرفه ، قال تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ ﴾ (٢) ؛ وأشفى على الشىء وأشرف عليه بمعنًى ؛ وأكثر مايقال ذلك فى المكروه ، يقال : أشفى المريض على الموت ، وقد استعمله هاهنا فى غير المكروه .

والشَّرَف : المكان العالى ، بفتح الشين ، وأشرفت عليه ، أى اطّلعت من فوق .

والمَهْوَاة : موضع السقوط . والمهانة : الحقارة .

ثم نهى عن الحسَد وقال : « إنه يأكلُ الإيمان كما تأكل النارُ الحطب » ، وقد ورد هذا الكلام فى الأخبار المرفوعة ؛ وقد تقدّم منا كلام فى الحسد ، وذكرنا كثيرا مما جاء فيه .

---

(١) من أبيات فى اللسان (دهر) ، ونسبها إلى عثير بن لبيد العذرى ، وانظر نزهة الألبا ص ٢٧

(٢) سورة آل عمران ١٠٣ .

ثم نهى عن المباغضة وقال : « إنها الحالقة » ، أى المستأصِلة التى تأتى على القوم ، كالحلق للشعر .

ثم نهى عن الأمل وطُوله وقال : « إنه يورث العقل سهوا ، وينسى الذكر ». ثم أمر بإكذاب الأمل ، ونهى عن الاعتماد عليه ، والسكون إليه ، فإنه من باب الغرور .

وقد ذكرنا فى الأمل وطوله نكتاً نافعة فيما تقدم ،ويجب أن نذكر ماجاء فى النهى عن الكذب .

* * *

[فصل فى ذم الكذب وحقارة الكذابين]

جاء فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « إذا كذب العبد كذبة تباعد الملك منه مَسيرة ميل ، من نتْن ماجاء به » .

وعنه عليه السلام: « إياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور والفجور يهدى إلى النار ، وإن الرجل ليكذِب ويتحرّى الكذب ، فيُكتب عند الله كاذبا ؛ وعليكم بالصدق ، فإن الصِّدق يَهدى إلى البِرّ ، وإن البرّ ليهدى إلى الجنة ، وإن الرجلَ ليصدُق ويتحرّى الصدق ، فيُكتب عند الله صادقا » .

وروى أنّ رجلا قال للنبى صلى الله عليه وآله : أنا يارسول الله أستسِرّ بخلال أربع: الزنا، وشرب الخمر ،والسرَق ، والكذب ،فأيّتهنّ شئتَ تركتُها لك ؛قال دع الكذب؛ فلما وَلّى همّ بالزنا ، فقال: يسألنى فإن جحدت نقضت ماجعلت له ، وإن أقررت حُدِدت، ثم همّ بالسّرق، ثم بِشُرْب الخمر ، ففكّر فى مثل ذلك ، فرجع إليه فقال : قد أخذتَ علىّ السبيل كلّه ، فقد تركتهنّ أجمع .

قال العباس بن عبد المطلب لابنه عبد الله : يابنىّ أنت أفقهُ منى ، وأنا أعقل منك ،

وإن هذا الرجل يُدْنيك ـ يعنى عمر بن الخطاب ـ فاحفظ عنى ثلاثاً : لاتُفشِيَنّ له سرًّا، ولا تغتابَنّ عنده أحداً ، ولا يطّلِعَنّ منك على كِذْبةٍ . قال عبد الله : فكانت هذه الثلاث أحبّ إلىّ من ثلاث بَدَرات ياقوتاً .

قال الواثق لأحمد بن أبى دُوَاد رحمه الله تعالى : كان ابنُ الزّيات عندى ، فذكَرك بكلّ قبيح ، قال : الحمد لله الذى أحوَجه إلى الكذب علىّ ، ونزّهنى عن الصدق فى أمره .

وكان يقال : أمران لايكاد أحدُهما ينفكّ من الكذب : كثرةُ المواعيد وشدة الاعتذار .

ومن الحِكَم القديمة : إنما فَضَل الناطق على الأخرس بالنطق ،وزَيْن المنطق الصدق، فالكاذب شرٌّ من الأخرس .

قال الرشيد للفضل بن الربيع فى كلام جرى بينهما : كذبتَ، فقال : ياأمير المؤمنين؛ وَجْه الكذوب لايقابلك ، ولسانه لايحاورك .

قيل فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾(١)؛ هى فى الكذابين ، فالويل لكلّ كاذب إلى يوم القيامة .

ومن كلام بعض الصالحين : لولم أترك الكذب تأثُّماً لتركتهُ تكرُّماً .

أبو حيان : الكذب شعارٌ خَلَق ، وموردٌ رَنَق(٢)، وأدب سيّئ ، وعادة فاحشة ، وقلّ مَن استرسل معه إلا ألفه، وقلّ من ألفه إلا أتلفه ،والصدق ملبس بهىّ ،ومنهل غذىّ، وشُعاع منبثّ ،وقلّ مَن اعتاده ومرنَ عليه إلا صحبتْه السكينة ،وأيّده التوفيق ، وخدمتْه القلوب بالمحبّة ، ولحظتْه العيون بالمهابَة .

---

(١) سورة الأنبياء ١٨ .

(٢) الرنق ، بفتح النون وإسكانها وكسرها : الكدر .

ابن السّماك : لاأدرى ، أُوجَر على ترك الـكذب أم لا ! لأنى أتركه أَنَفَةً .

يحيى بن خالد : رأيتُ شِرِّيب خمرٍ نَزَع ، ولصًّا أقلع ، وصاحبَ فواحش ارتدع ، ولم أر كاذبا رَجَعَ .

قالوا فى تفسير هذا : إن المولع بالـكذب لا يكاد يصبر عنه ، فقد عوتب إنسان عليه، فقال لمعاتبه : يابن أخى ، لو تفرّغْتَ به لما صبرت عنه .

وقيل لـكاذب معروف بالـكذب : أصدقت قطّ ؟ قال: لولا أنى أخاف أن أصدُق لقلت : لا !

وجاء فى بعض الأخبار المرفوعة : قيل له : يارسولَ الله ، أيـكون المؤمن جَبانا ؟قال: نعم ، قيل : أفيـكُون بخيلا ؟ قال : :نعم ، قيل أفيكون كاذبا ؟ قال : لا .

وقال ابنُ عباس : الحدَث حَدَثان : حدث مِن فِيك ، وحدث من فَرْجك .

وقال بعضهم : من أسرع إلى الناس بمـا يكرهون ، قالوا فيه مالا يعلمون ؛ أخذه شاعر فقال :

وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إلى ذَمِّهِ ذَمُّوه بالحقّ وبالباطلِ[1]

وكان يقال : خذوا عن أهل الشرف ، فإنهم قَلّما يكذبون .

وقال بعض الصالحين : لو صحِبَنى رجل ، فقال لى: اشترطْ علىّ خَصْلَةً واحدة لاتزيد عليها ، لقلت : لاتـكذب .

وكان يقال : خَصْلتان لايجتمعان : الـكذب والمروءة .

كان يقال : مِنْ شرف الصدق أنّ صاحبَه يُصدّق على عدوّه ، ومن دناءة الـكذب أنّ صاحبَه يكذَّب وإن كان صادقا .

---

(١) العقد ٢ : ٤٤٤ من غير نسبة ، وبعده :

مَقَالَةُ السُّوءِ إِلَى أَهْلِهَا أَسْرَعُ مِنْ مُنحَدِرٍ إِلَى سَائِلِ

ومثل هـذا قولهم : منْ عُرِف بالصدق جاز كِذبُه ، ومن عُرِف بالـكذب لم يَجُزْ صدقه .

وجاء فى الخبر المرفوع : « إن فى المعاريض لمندوحَةً عن الـكذب » .

وقال ابن سِيرين : الـكلام أوسع من أن يكذب ظريفٌ .

وقالوا فى قوله تعالى : ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾[1] لم ينسَ ،ولـكنه من معاريض الـكلام ، وكذلك قالوا فى قول إبراهيم : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾[2] .

وقال العُتْبِيّ : إنى لأصدُق فى صغارِ مايضرّنى ، فـكيف لاأصدق فى كبار ماينفعنى !

وقال بعض الشعراء :

لايـكذبُ المرء إلّا منْ مهـانتِه ... أوعادةِ السُّوء أو من قلّة الأدبِ

لَعَضُّ جيفةِ كَلْبٍ خيرُ رائحـةٍ ... مِن كِذبة المرء فى جِدّ وفى لعبِ

شهد أعرابىّ عند معاوية بشهادة ، فقال له : كذبت ، فقال :الـكاذب والله المتزمّل فى ثيابك ؛ فقال معاوية : هذا جزاء من عَجِل .

وقال معاوية يوما للأحنف ـ وحدّثه حديثـا ، أتـكذب ؟ فقال له الأحنف : والله ما كذبت منذ علمتُ أنّ الـكذب يشين أهله .

ودخل عبدُ الله بن الزُّبير يوماً على معاوية فقال له : اسمع أبياتاً قلتُها ـ وكان واجداً على معاوية ـ فقال : هات ، فأنشده :

إذا أنت لم تُنصِفْ أخاكَ وجَـدْتَه ... عَلَى طَرَفِ الهجران إن كان يعقِـلُ

ويركب حدّ السيف من أن تَضيمه ... إذا لم يـكن عن شفرة السيف مِزْحَلُ

فقال معاوية : لقد شعرتَ بعدنا ياأبا بكر ؛ ثم لم يلبث معاوية أن دخل عليه مَعْنُ

---

(١) سورة الـكهف ٧٣ .

(٢) سورة الصافات ٨٩ .

ابن أوس المزنىّ ، فقال : أقلت بعدنا شيئا ؟ قال نعم ، وأنشده :

لَعَمْرُكَ لا أدرِى وإنِّى لأَوْجَلُ   عَلَى أيِّنَا تَعْدُو المَنِيَّـةُ أَوَّلُ (١)

حتى صار إلى الأبيات التى أنشدها ابن الزبير ، فقال معاوية : يا أبا بكر ، أما ذَكرتَ آنفا أن هذا الشعر لك ؟ فقال : أنا أصلحتُ المعانى وهو ألّف [الشعر] (٢) . وبعدُ ، فهو ظِئْرى (٣) وما قال من شىء فهوَ لى .

وكان عبدالله بن الزبير مُسْتَرضَعًا فى مُزَيْنة (٤) .

وروى أبو العباس المبرّد فى " الكامل " أن عمرَ بن عبد العزيز كَتب فى إشخاص إياس بن معاوية المزنىّ ، وعدىّ بن أرطاة الفَزارىّ أمير البصرة وقاضيها إليه ، فصار عدىٌّ إلى إياس ، وقدّر أنّه يمزّنه (٥) عند عمر بن عبد العزيز ويُثْنِى عليه ، فقال له : يا أبا وائلة ، إن لنا حقًّا ورحِما ، فقال إياس : أعَلَى الكذب تريدنى ! والله ما يسرنىّ أنْ كذبتُ كذبة؟ يغفرها الله لى ، ولا يطلع عليها هذا ـ وأومأ إلى ابنه ـ ولِى ما طلعت عليه الشمس (٦) !

وروى أبو العباس أيضا : أن عمرو بن معديكرب الزُّبيدىّ كان معروفا بالكذب . وقيل لخلف الأحمر ـ وكان مولًى لهم وشديد التعصب لليمن : أكان عمرو بن معديكرب يكذب ؟ قال : يكذب فى المقال ويصدق فى الفعال (٧) .

---

(١) ديوانه ٥٧ .

(٢) من الكامل .

(٣) الكامل « وهو بعد ظئرى » .

(٤) الخبر فى الكامل ٢ : ٢١١ ، ٢١٢ .

(٥) فى الأصول : « يقرظه » ، وما أثبته من الكامل . وفى زيادات أبى الحسن الأخفش : التمزين . المدح ، ولم أسمع هذه اللفظة إلا من أبى العباس ، وهى عندى مشتقة من المازن . وهو بيض النمل ؛ وبهذا سميت مازن ؛ كأنه أراد منه أن يكبره . ويروى : « يكثره » . وفى زيادات الكامل أيضاً : قال الشيخ : قوله : « أن يمزنه عند الخليفة ؛ أى كأنه يجعله سيد مزينة ؛ لأنه كان مزينياً » .

(٦) الكامل ٢ : ٢١٢ .

(٧) الكامل ٢ : ٢٠٨ .

قال أبو العباس : فروِى لنا أن أهل الكوفة الأشراف ، كانوا يظهرون بالكُنَاسة[١] فيركبون على دوابهم حتى تطرُدَهم[٢] الشمس ، فوقف عمرو بن معديكرب الزُّبيدىّ ، وخالد بن الصقعب النَّهدىّ — وعمرو لا يعرفه ، إنما يسمع باسمه — فأقبل عمرو يحدثه ، فقال : أغرْنا مرّة على بنى نَهْد ، فخرجوا مسترعِفين بخالد بن الصقعب ، فحملتُ عليه ، فطعنته فأذريتهُ[٣] ثم مِلْت عليه بالصَّمْصَامة[٤] ، فأخذت رأسه ، فقال خالد بن الصقعب : حِلًا أبا ثور ، إن قتيلك هو المحدِّث ؛ فقال عمرو : ياهذا إذا حُدِّثت فاستمِع ، فإنما نتحدّث بمثل ما تسمع لنُرهِب به هذه المعدّيَةَ .

قوله : « مسترعِفين » أى مقدمين له . وقوله : « حِلًا أبا ثور » أى استثن ، يقال : حلف ولم يتحلّل ، أى لم يستثن . والمعدّية : مضرُ وربيعة وإياد ، بنو معدّ بن عدنان ، وهم أعداء اليمن فى المفاخرة والتكاثُر .

---

(١) الكناسة : محلة بالكوفة .
(٢) الكامل : « إلى أن يطردهم حر الشمس » .
(٣) أذريته : صرعته وألقيته عن فرسه .
(٤) الصمصامة : السيف الصارم لا ينثنى ؛ وهو اسم عمرو بن معديكرب .

(٨٦)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

عِبَادَ ٱللهِ، إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ ٱللهِ إِلَيْهِ عَبْداً أَعَانَهُ ٱللهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَٱسْتَشْعَرَ ٱلْحُزْنَ، وَتَجَلْبَبَ ٱلْخَوْفَ ؛ فَزَهَرَ مِصْبَاحُ ٱلْهُدَى فِي قَلْبِهِ ، وَأَعَدَّ ٱلْقِرَى لِيَوْمِهِ ٱلنَّازِلِ بِهِ ، فَقَرَّبَ عَلَى نَفْسِهِ ٱلْبَعِيدَ ، وَهَوَّنَ ٱلشَّدِيدَ .

نَظَرَ فَأَبْصَرَ ، وَذَكَرَ فَٱسْتَكْثَرَ، وَٱرْتَوَى مِنْ عَذْبٍ فُرَاتٍ، سُهِّلَتْ لَهُ مَوَارِدُهُ، فَشَرِبَ نَهَلاً ، وَسَلَكَ سَبِيلاً جَدَداً .

قَدْ خَلَعَ سَرَابِيلَ ٱلشَّهَوَاتِ ، وَتَخَلَّى عَنِ ٱلْهُمُومِ ، إِلَّا هَمّاً وَاحِداً ٱنْفَرَدَ بِهِ ، فَخَرَجَ مِنْ صِفَةِ ٱلْعَمَى ، وَمُشَارَكَةِ أَهْلِ ٱلْهَوَى، وَصَارَ مِنْ مَفَاتِيحِ أَبْوَابِ ٱلْهُدَى، وَمَغَالِيقِ أَبْوَابِ ٱلرَّدَى .

قَدْ أَبْصَرَ طَرِيقَهُ ، وَسَلَكَ سَبِيلَهُ ، وَعَرَفَ مَنَارَهُ ، وَقَطَعَ غِمَارَهُ، وَٱسْتَمْسَكَ مِنَ ٱلْعُرَا بِأَوْثَقِهَا، وَمِنَ ٱلْحِبَالِ بِأَمْتَنِهَا ، فَهُوَ مِنَ ٱلْيَقِينِ عَلَى مِثْلِ ضَوْءِ ٱلشَّمْسِ، قَدْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلّٰهِ سُبْحَانَهُ فِي أَرْفَعِ ٱلْأُمُورِ ؛ مِنْ إِصْدَارِ كُلِّ وَارِدٍ عَلَيْهِ، وَتَصْيِيرِ كُلِّ فَرْعٍ إِلَى أَصْلِهِ .

مِصْبَاحُ ظُلُمَاتٍ ، كَشَّافُ عَشَوَاتٍ ، مِفْتَاحُ مُبْهَمَاتٍ ، دَفَّاعُ مُعْضِلَاتٍ ، دَلِيلُ فَلَوَاتٍ ؛ يَقُولُ فَيُفْهِمُ ، وَيَسْكُتُ فَيَسْلَمُ .

قَدْ أَخْلَصَ لِلّٰهِ فَٱسْتَخْلَصَهُ ، فَهُوَ مِنْ مَعَادِنِ دِينِهِ ، وَأَوْتَادِ أَرْضِهِ ، قَدْ أَلْزَمَ

نَفْسَهُ الْعَدْلَ ، فَكَانَ أَوَّلَ عَدْلِهِ نَفْيُ الْهَوَى عَنْ نَفْسِهِ .

يَصِفُ الْحَقَّ وَيَعْمَلُ بِهِ ، لَا يَدَعُ لِلْخَيْرِ غَايَةً إِلَّا أَمَّهَا ، وَلَا مَظِنَّةً إِلَّا قَصَدَهَا ، قَدْ أَمْكَنَ الْكِتَابَ مِنْ زِمَامِهِ ، فَهُوَ قَائِدُهُ وَإِمَامُهُ ، يَحُلُّ حَيْثُ حَلَّ ثَقَلُهُ ، وَيَنْزِلُ حَيْثُ كَانَ مَنْزِلُهُ .

***

الشرح :

استشعر الحزن : جعله كالشعار ، وهو ما يلي الجسد من الثياب . وتجلبب الخوف : جعله جلباباً ، أى ثوباً .

زهر مصباح الهدى : أضاء . وأعدّ القِرَى ليومه ، أى أعدّ ما قدمه من الطاعات قِرًى لضيف الموتِ النازل به . والفُرات : العذب .

وقوله : « فشرب نَهَلاً » ؛ يجوز أن يكون أراد بقوله : « نَهَلاً » المصدرَ ، من نَهِلَ يَنْهَلُ نَهَلاً ، أى شرب حتى رَوِىَ ، ويجوز أن يريد بالنَّهَل الشرب الأول خاصة ، ويريد أنه اكتفى بما شرب به أولا ، فلم يحتج إلى العَلَل .

وطريق جَدَدٌ : لا عثار فيه لقوة أرضه . وقطع غِمارَه ؛ يقال : بحر غَمْرٌ ، أى كثير الماء ، وبحار غِمار . واستمسك من العرا بأوثقها ؛ أى من العقود الوثيقة ، قال تعالى : ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ [1] .

ونصب نفسه لله ، أى أقامها .

كشّاف عَشَوات : جمع عُشْوة وعَشْوة وعِشْوة ، بالحركات الثلاث ، وهى الأمر الملتبس ؛ يقال : أوطأنى عَشْوَةً .

---

(١) سورة البقرة ٢٥٦ .

والمعضِلات : جمع معضلة وهى الشدائد والأمور التى لا يهتدى لوجهها .

دليل فلوات ، أى يُهتدى به كما يَهتدى الركب فى الفلاة بدليلهم .

أمّها : قصدها . ومظِنّة الشىء : حيث يُظنّ وجوده . والثَّقَل . متاع المسافر وحَشَمه .

[فصل فى العبّاد والزهّاد والعارفين وأحوالهم]

واعلم : أنّ هذا الكلام منه أخذ أصحاب علم الطريقة والحقيقة علمَهم ، وهو تصريح بحال العارف ومكانته من الله تعالى .

والعِرْفان درجة حالٍ رفيعة شريفة جدًّا ، مناسبة للنبوّة ، ويختصّ الله تعالى بها مَنْ يقرّبه إليه من خلقه .

والأولياء على طبقات ثلاث :

الطبقة الأولى : حالُ العابد ، وهو صاحبُ الصلاة الكثيرة ، والصوْم الدائم ، والحجّ والصدقة .

والطبقة الثانية : حال الزاهد ، وهو المعرِضُ عن ملاذّ الدنيا وطيّباتها ؛ تقنِعه الكِسرة ، وتستُره الخِرْقة ، لا مالَ ولا زوجة ولا ولد .

والطبقة الثالثة : حال العارف ، وهو الواصل إلى الله سبحانه بنفسه لا ببدنه ، والبارئ سبحانه متمثّلٌ فى نفسه تمثُّلَ المعشوق فى ذات العاشق ؛ وهو أرفع الطبقات ، وبعده الزاهد .

وأما العابد فهو أدونُها ، وذلك لأنّ العابد مُعامل كالتّاجر ، يعبُد ليثاب ، ويُتعب نفسه ليرتاح ؛ فهو يعطى من نفسه شيئا ويطلب ثمنه وعِوَضه ، وقد يكون العابد غنيًّا موسرا ، كثير المال والولد ، فليستْ حاله من أحوال الكمال .

وأما الزاهد ، فإنه احتقرَ الدنيا وعروضها وقَيْناتها ، فخلصت نفسه من دناءة المطامع

وصار عزيزاً مَلِـكا ، لا سلطان عليه لنفسه ولا لغيره ، فاستراح من الذلّ والهوان ، ولم يبق لنفسه شيء تشتاق إليه بعد الموت ، فـكان أقرب إلى السلامة والنجاة من العابد الغنيّ الموسر .

وأمّا العارف فإنّه بالحال التي وصفناها ، ويستلزم مع وجودها أن يكون زاهدا ، لأنه لا يتصوَّر العِرْفان مع تعلّق النفس بملاذّ الدنيا وشهواتها . نعم قد يحصلُ بعضُ العرفان لبعض العلماء الفضلاء ، مع تعلّقهم بشهوات الدنيا ، ولـكنّهم لا يكونون كاملين فى أحوالهم ، وإنمـا تحصُل الحالة الـكاملة لمن رَفَضَ الدنيا وتخلّى عنها ، وتستلزم الحالة المذكورة أيضا أن يكونَ عابدا عبادةً ما ، وليس يشترط فى حصول حال العرفان أن يكون على قدم عظيمة من العبادة ، بل الإكثارُ من العبادة حجاب كما قيل ؛ ولـكنْ لا بدّ من القيام بالفرائض وشيء يسير من النوافل .

***

واعلم : أن العارف هو العارف بالله تعالى وصفاته وملائـكته ورسله وكتبه ، وبالحكمة المودعة فى نظام العالم ، لاسيما الأفلاك والـكواكب ، وتركيب طبقات العناصر ، والأحكام وفى تركيب الأبدان الإنسانية .

فمن حصل له ذلك ، فهو العارف ؛ وإن[1] لم يحصل له ذلك ، فهو ناقص العرفان ، وإن انضمّ إلى ذلك استشعارُه جلال الله تعالى وعظمته ، ورياضة النفس والمجاهدة ، والصبر والرضا والتوكل ، فقد ارتفع طبقة أخرى ، فإن حصل له بعد ذلك الحبّ والوجْد ، فقد ارتفع طبقة أخرى ، فإن حَصَل له بعد ذلك الإعراضُ عن كلّ شيء سوى الله ، وأن يصيرَ مسلوبا عن الموجودات كلها ، فلا يشعر إلا بنفسه وبالله تعالى ، فقد ارتفع طبقـة أخرى ، وهى أرفع الطبقات .

---

(١) ب : « فإن » .

وهناك طبقة أخرى يذكرونها ، وهى أن يسلب عن نفسه أيضا ، فلا يكون له شعور بها أصلا ، وإنما يكون شاعرا بالقيّوم الأوّل سبحانَه لاغير ، وهذه درجةُ الاتحاد ، بأن تصير الذّاتان ذاتاً واحدة .

وهذا قول قوم من الأوائل ومن المتأخّرين أيضا ، وهومقام صعب ، لاتثبت العقول لتصوُّره واكتناهه .

***

واعلم أن هذه الصفات والشروط والنعوت التى ذكرها فى شرح حال العارف ، إنما يعنى بها نفسَه عليه السلام ؛وهو من الكلام الذى له ظاهروباطن ؛فظاهره أن يشرح حال العارف المطلق، وباطنه أن يشرح حال عارف معيّن ، وهو نفسه عليه السلام .وسيأتى فى آخر الخطبة مايدلّ على ذلك .

ونحن نذكر الصفات التى أشار عليه السلام إليها واحدة واحدة :

فأوّلها : أن يكون عبداً أعانه الله على نفسه ، ومعنى ذلك أن يخصّه بألطاف ، يختار عندها الحسَن ويتجنّب القبيح ، فكأنه أقام النفس فى مقام العدوّ ، وأقام الألطافَ مقام المعونة التى يمدّه الله سبحانه بها ، فيكسِر عادية العدوّ المذكور ؛ وبهذا الاعتبار سمى قومٌ من المتكلمين اللطف عَوْناً .

وثانيها : أن يستشعر الحزن ، أى يحزن على الأيام الماضية، إن لم يكن اكتسب فيها من موجبات الاختصاص أضعاف ما اكتسبه .

وثالثها : أن يتجلببَ الخوف ، أى يخاف من الإعراض عنه ،بأن يصدر عنه مايمحوه من جريدة المخلِصين .

ورابعها : أن يمِدّ القِرَى لضيف المنيّة ، وذلك بإقامة وظائف العبادة .

وخامسها : أن يقرّب على نفسه البعيد ، وذلك بأن يمثّل الموت بين عينيه صباحا ومساء ، وألّا يطيل الأمل .

وسادسها : أن يهوّن عليه الشدائد ؛ وذلك باحتمال كُلَف المجاهدة ورِياضة النفس على عمل المشاقّ .

وسابعها : أن يكون قد نظر فأبصر ، وذلك بترتيب المقدّمات المطابقة لمتعلقاتها ترتيبا صحيحا ، لتنتج العلم اليقينيّ .

وثامنها : أن يذكر الله تعالى فيستكثرَ من ذكره ، لأنّ ذكره سبحانه والإكثار منه ، يقتضى سكونَ النفس وطُمأنينتها ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (١) .

وتاسعها: أن يرتوىَ من حبّ الله تعالى ، وهو العذب الفُرات ، الذى سهل موارده على من انتخبه الله ، وجعله أهلًا للوصول إليه ، فشرب منه ونَهَل ، وسلك طريقًا لاعثار فيه ولا وَعْث .

وعاشرها: أن يخلَعَ سرابيلَ الشهوات، لأن الشهوات تصدِئ مرآة العقل ،فلاتنطبع المعقولات فيها كما ينبغى ، وكذلك الغَضب .

وحادى عشرها : أن يتخلّى من الهموم كلّها ، لأنها تزيّدات وقواطع عن المطلوب ، إلا همًّا واحداً وهو همّه بمولاه ، الذى لذّته وسروره الاهتمام به ، والتفرد بمناجاته ومطالعة أنوار عِزّته ، فحينئذ يخرج عن صفة أهل العمى ، ومن مشاركة أهل الهوى ، لأنه قدامتاز عنهم بهذه المرتبة والخاصيّة التى حصلت له فصار مفتاحاً لباب الهدى ، ومِغلاقا لباب الضلال والردى ، قد أبصر طريق الهدى ، وسلك سبيله ، وعرف مناره ، وقطع غماره .

---

(١) سورة الرعد ٢٨ .

وثانى عشرها : أن ينصِبَ نفسَه لله فى أرفع الأمور ، وهو الخلوة به ، ومقابلة أنوار جلاله بمرآة فكره ، حتى تتكيَّف نفسه بتلك الكيفية العظيمة الإشراق ، فهذا أرفع الأمور وأجلّها وأعظمها ، وقد رَمَز فى هذا الفصل ، ومزجه بكلام خرج به إلى أمر آخر ، وهو فقه النفس فى الدين ، والأمور الشرعية النافعة للناس فى دنياهم وأخراهم ؛ أمّا فى دنياهم فلردْع المفسِد وكفّ الظالم ، وأما فى أخراهم فللفوز بالسعادة باعتبار امتثال الأوامر الإلهية . فقال : « فى إصدار كلّ وارد عليه » ؛ أى فى فُتيا كلّ مستفتٍ له ، وهداية كلّ مسترشِد له فى الدين ؛ ثم قال : « وتصيير كلّ فرع إلى أصله » . ويمكن أن يحتجّ بهذا من قال بالقياس ، ويمكن أن يقال : إنه لم يُرِد ذلك ، بل أراد تخريج الفروع العقلية ، وردّها إلى أصولها ؛ كما يتكلف أصحابنا القول فى بيان حكمة القديم تعالى ، فى الآلام وذبح الحيوانات ، ردًّا له إلى أصل العدل ، وهو كونه تعالى لا يفعل القبيح .

وثالث عشرها : أن يكون مصباحا لظلمات الضلال ، كشّافا لعَشوات الشُّبَه ، مفتاحا لمبْهَمات الشُّكوك المستغلقة ، دفّاعا لمعضلات الاحتجاجات العقلية الدقيقة الغامضة ، دليلا فى فلوات الأنظار الصعبة المشتبهة ، ولم يكن فى أصحاب محمد صلى الله عليه وآله أحد بهذه الصفة إلا هو .

ورابع عشرها : أن يقول مخاطبا لغيره فيُفهمه ما خاطبه به ، وأن يسكت فيَسلم ، وذلك لأنه ليس كل قائل مُفهما ، ولا كل ساكت سالما .

وخامس عشرها : أن يكونَ قد أخلصَ لله فاستخلَصه الله ، والإخلاص لله مقام عظيم جدًّا ، وهو ينزّه الأفعال عن الرّياء ، وألّا يمازج العبادة أمر لا يكون لله سبحانه ؛ ولهذا كان بعض الصالحين يُصْبِح من طول العبادة نَصِباً قشفا ، فيكتحلُ ويدّهن ؛ ليُذهِبَ بذلك أثر العبادة عنه .

وقوله : « فهو من معادن دينه وأوتاد أرضه »، معادن دينه: الذين يُقتبس الدين منهم، كمعادن الذهب والفضة ، وهى الأرضون التى يلتقط ذلك منها ، وأوتاد أرضه: هم الذين لولاهم لمادَت الأرض وارتجّت بأهلها، وهذا من باب الاستعارة الفصيحة ، وأهل هذا العلم يقولون : أوتاد الأرض جماعة من الصالحين ، ولهم فى الأوتاد والأبدال والأقطاب كلامٌ مشهور فى كتبهم .

وسادس عشرها : أن يكون قد ألزَم نفسه العدل ، والعدالة : مَلَكة تصدُر بها عن النفس الأفعال الفاضلة خلقا لا تخلّقاً .

وأقسام العدالة ثلاثة ، هى الأصول وما عدَاها من الفضائل فروع عليها :

الأولى الشجاعة ، ويدخل فيها السخاء لأنه شجاعة وتَهوين للمال ، كما أنّ الشجاعة الأصلية تَهوين للنفس، فالشجاع فى الحرب جواد بنفسه، والجواد بالمال شجاع فى إنفاقه، ولهذا قال الطائىّ :

أيقنتُ أنَّ من السَّمَاح شجاعةً تُدمِى؛ وأنّ من الشجاعة جودَا[1]

والثانية : الفقه ، ويدخل فيها القناعة والزهد والعزلة .

والثالثة : الحكمة ، وهى أشرفها .

ولم تحصل العدالة الكاملة لأحدٍ من البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله إلا لهذا الرجل ، ومن أنصف عَلِم صحة ذلك ، فإن شجاعته وجوده ، وعفّته وقناعته وزهده ، يُضرب بها الأمثال .

وأما الحكمة والبحث فى الأمور الإلهيّة ، فلم يكن من فنّ أحد من العرب ، ولا نقل فى جهادِ أكابرهم وأصاغرهم شىء من ذلك أصلا ، وهذا فنٌّ كانت اليونان وأوائل الحكماء وأساطين الحكمة ينفردون به ؛ وأوّل من خاض فيه من العرب علىّ عليه السلام ، ولهذا

---

(١) أبو تمام ، ديوانه ١ : ٤٢٣ .

تجدُ المباحث الدقيقة فى التوحيد والعدل مبثوثةً عنه فى فرش كلامه وخطبه ، ولا تجدفى كلام أحد من الصحابة والتابعين كلمةً واحدة من ذلك ، ولا يتصوّرونه ، ولو فُهّموه لم يفهموه ، وأنّى للعرب ذلك !

ولهذا انتسب المتكلّمون الذين لجّجوا فى بحار المعقولات إليه خاصة دون غيره ، وسمّوه أستاذَهم ورئيسهم ، واجتذبته كلُّ فرقة من الفِرَق إلى نفسها ؛ ألا ترَى أن أصحابنا ينتمُون إلى واصل بن عطاء ، وواصل تلميذ أبى هاشم بن محمد بن الحنفيّة ، وأبو هاشم تلميذ أبيه محمد ، ومحمد تلميذ أبيه علىّ عليه السلام !

فأما الشِّيعة من الإمامية والزّيديّة والكيسانيّة ، فانتماؤهم إليه ظاهر .

وأما الأشعرية فإنهم بأَخَرَةٍ ينتمون إليه أيضا ، لأنّ أبا الحسن الأشعرىّ تلميذ شيخنا أبى علىّ رحمه الله تعالى ، وأبو علىّ تلميذ أبى يعقوب الشّحّام ، وأبو يعقوب تلميذ أبى الهُذَيل ، وأبو الهُذَيل تلميذ أبى عثمان الطويل ، وأبو عثمان الطّويل تلميذ واصل بن عطاء ، فعاد الأمر إلى انتهاء الأشعرية إلى علىّ عليه السلام .

وأما الكرّامية فإن ابن الهيصم ذكر فى كتاب " المقالات " أنّ أصلَ مقالتهم وعقيدتهم تنتهى إلى علىّ عليه السلام من طريقين :

أحدها : بأنهم يُسندون اعتقادَهم عن شيخ بعد شيخ ، إلى أن ينتهى إلى سُفيان الثّورىّ ، ثم قال : وسفيان الثورىّ من الزيديّة ، ثم سأل نفسه فقال : إذا كان شيخكم الأكبر الذى تنتمون إليه كان زيديًّا ، فمابالكم لاتكونون زيديّة ؟ وأجاب بأن سُفيان الثورىّ رحمه الله تعالى ، وإن اشتهر عنه الزّيْدية ، إلا أنّ تزيّده إنما كان عبارة عن موالاة أهل البيت ، وإنكار ما كان بنو أميّة عليه من الظلم ، وإجلال زيد بن علىّ وتعظيمه ، وتصويبه فى أحكامه وأحواله ، ولم ينقل عن سفيان الثورىّ أنّه طعن فى أحد من الصحابة .

الطريق الثانى : أنه عدّ مشايخهم واحداً فواحدا ، حتى انتهى إلى علماء الكوفة من أصحاب علىّ ، كسلمة بن كُهَيل ، وحَبّة العُرَنىّ ، وسالم بن الجعد ، والفضل بن دُكين ، وشعبة ، والأعمش ، وعلقمة وهُبيرة بن مريم ، وأبى إسحاق الشعبىّ ، وغيرهم ، ثم قال : وهؤلاء أخذوا العلم من علىٍّ بن أبى طالب عليه السلام ، فهو رئيس الجماعة — يعنى أصحابه — وأقوالهم منقولة عنه ومأخوذة منه .

وأما الخوارج فانتماؤهم إليه ظاهر أيضا ، مع طعنهم فيه ، لأنهم كانوا أصحابه ، وعنه مَرَقوا ، بعد أن تعلّموا عنه واقتبسوا منه ، وهم شيعته وأنصاره بالجمل وصِفّين ، ولكنّ الشيطان رانَ على قلوبهم ، وأعمى بصائرهم .

ثم إنه عليه السلام ذكر حال هذا العارف العادل فقال : « أوّل عدله نفى الهوى عن نفسه » ، وذلك لأنّ من يأمر ولا يأتمر ، وينهى ولا ينتهى ، لا تؤثر عظته ، ولا ينفع إرشاده . ثم شرح ذلك فقال : « يصف الحق ويعمل به » . ثم قال : « لا يدع للخير غاية إلا أمّها ، ولا مَظِنّةً إلا قصدها » ؛ وذلك لأن الخير لذته وسروره وراحته ، فمتى وجد إليه طريقا سلكها ، ثم قال : « قد أمكن الكتاب — يعنى القرآن — من زمامه » ، أى قد أطاع الأوامر الإلهية ، فالقرآن قائده وإمامه ، يحلّ حيث حلّ ، وينزل حيث نزل .

***

الأصلُ :

وَآخَرُ قَدْ تَسَمَّى عَالِماً وَلَيْسَ بِهِ ، فَاقْتَبَسَ جَهَائِلَ مِنْ جُهَّالٍ ، وَأَضَالِيلَ مِنْ ضُلَّالٍ ، وَنَصَبَ لِلنَّاسِ أَشْرَاكاً مِنْ حَبَائِلِ غُرُورٍ وَقَوْلِ زُورٍ ، قَدْ حَمَلَ الْكِتَابَ عَلَى آرَائِهِ ، وَعَطَفَ الْحَقَّ عَلَى أَهْوَائِهِ ، يُؤْمِنُ النَّاسَ مِنَ الْعَظَائِمِ ، وَيُهَوِّنُ كَبِيرَ الْجَرَائِمِ ، يَقُولُ : أَقِفُ عِنْدَ الشُّبُهَاتِ — وَفِيهَا وَقَعَ — وَيَقُولُ : أَعْتَزِلُ الْبِدَعَ — وَبَيْنَهَا اضْطَجَعَ — فَالصُّورَةُ

صُورَةُ إِنسَانٍ ، وَالْقَلْبُ قَلْبُ حَيَوَانٍ ، لَا يَعْرِفُ بَابَ الْهُدَى فَيَتَّبِعَهُ ، وَلَا بَابَ الْعَمَى فَيَصُدَّ عَنْهُ ، وَذَلِكَ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ .

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ! وَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ، وَالْأَعْلَامُ قَائِمَةٌ ، وَالْآيَاتُ وَاضِحَةٌ ؛ وَالْمَنَارُ مَنْصُوبَةٌ ! فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ ! وَكَيْفَ تَعْمَهُونَ وَبَيْنَكُمْ عِتْرَةُ نَبِيِّكُمْ ؛ وَهُمْ أَزِمَّةُ الْحَقِّ ، وَأَعْلَامُ الدِّينِ ، وَأَلْسِنَةُ الصِّدْقِ ! فَأَنْزِلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ الْقُرْآنِ ، وَرِدُوهُمْ وُرُودَ الْهِيمِ الْعِطَاشِ .

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ خُذُوهَا عَنْ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَّا وَلَيْسَ بِمَيِّتٍ ، وَيَبْلَى مَنْ بَلِيَ مِنَّا وَلَيْسَ بِبَالٍ ، فَلَا تَقُولُوا بِمَا لَا تَعْرِفُونَ ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الْحَقِّ فِيمَا تُنْكِرُونَ ، وَأَعْذِرُوا مَنْ لَا حُجَّةَ لَكُمْ عَلَيْهِ ـ وَهُوَ أَنَا . أَلَمْ أَعْمَلْ فِيكُمْ بِالثَّقَلِ الْأَكْبَرِ ، وَأَتْرُكْ فِيكُمُ الثَّقَلَ الْأَصْغَرَ ! قَدْ رَكَزْتُ فِيكُمْ رَايَةَ الْإِيمَانِ ، وَوَقَفْتُكُمْ عَلَى حُدُودِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَأَلْبَسْتُكُمُ الْعَافِيَةَ مِنْ عَدْلِي ، وَفَرَشْتُكُمُ الْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي ، وَأَرَيْتُكُمْ كَرَائِمَ الْأَخْلَاقِ مِنْ نَفْسِي .

فَلَا تَسْتَعْمِلُوا الرَّأْيَ فِيمَا لَا يُدْرِكُ قَعْرَهُ الْبَصَرُ ، وَلَا تَتَغَلْغَلُ إِلَيْهِ الْفِكَرُ .

***

الشَّرْحُ :

الجهائل : جمع جهالة ؛ كما قالوا : عَلاقة وعلائق . والأضاليل : الضّلال ، جمعٌ لا واحد له من لفظه .

وقوله : « وقد حمل الكتاب على آرائه » ، يعنى قد فسّر الكتاب وتأوّله على مُقتضى هواه وقد أوضح ذلك بقوله : « وعطف الحقّ على أهوائه » .

وقوله : « يؤمِن الناس من العظائم » ، فيه تأكيد لمذهب أصحابنا فى الوعيد ، وتضعيف لمذهب المرجئة الذين يؤمنون الناس من عظائم الذنوب ، ويُمَنُّونهم العفوَ ؛ مع الإصرار وترك التَّوْبة . وجاء فى الخبر المرفوع المشهور : « الكيِّسُ مَنْ دانَ نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبَعَ نفسَه هواها ، وتمنَّى على الله » .

وقوله : « يقول أقف عند الشبهات » ؛ يعنى أنّ هذا المدّعِىَ للعلم يقول لنفسه وللناس : أنا واقف عند أدْنَى شبهة تحرُّجا وتورُّعاً ؛ كما قال صلى الله عليه وآله : « دَعْ ما يَرِيبُك إلى ما لا يريبُك » .

ثم قال : « وفى الشبهات وَقَع » ، أى بجهله ؛ لأنّ مَنْ لا يعلم الشبهة ما هى ، كيف يقفُ عندها ، ويتحرّج من الورْطة فيها ، وهو لا يأمن من كونها غير شبهة على الحقيقة !

وقوله : « اعتزل البِدَع ، وبينها اضطجع » ؛ إشارة إلى تضعيف مذاهب العامة والحَشَوِيّة الذين رفضوا النَّظر العقلىّ ، وقالوا : نعتزل البدع .

وقوله : « فالصورة صورة إنسان ... » وما بعده ، فمراده بالحيوان ها هنا الحيوان الأخرس كالحمار والثور ، وليس يريد العموم ، لأنّ الإنسان داخل فى الحيوان ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ إنْ هُمْ إلَّا كالأنعام بَلْ هُمْ أضَلُّ سَبِيلاً[1] ﴾ .

وقال الشاعر :

وَكَائِنْ تَرَى مِنْ صامِتٍ لكَ مُعْجَبٍ … زِيادَتُه أوْ نَقْصُه فى التَّكَلُّمِ[2]

لسانُ الفتى نِصْفٌ ونِصْفٌ فؤادُه … فلمْ يبقَ إلَّا صُورةُ اللَّحْمِ والدمِ

---

(١) سورة الفرقان ٤٤ .

(٢) البيتان ينسبان إلى زهير ، ملحق ديوانه ص ١٩٢ (من مجموعة العقد الثمين) .

قوله : « وذلك مَيِّت الأحياء » كلمة فصيحة ، وقد أخذها شاعر فقال :

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ ... إِنَّمَا المَيْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ [(١)]

إلا أن أمير المؤمنين عليه السلام أراد لجهله ، والشاعر أراد لبؤسه .

وتُؤفكُون : تقلبون وتصرَفُون .

والأعلام : المعجزات هاهنا ؛ جمع عَلَم ، وأصله الجبل أو الراية والمنارة ، تنصَب في الفَلاة ليهتدَى بها .

وقوله : « فأينَ يُتاه بكم ! » أى أين يذهب بكم في التيه ! ويقال : أرضٌ تيهاء يتحيّر سالكها . وتَعمَهُون : تتحيّرون وتَضِلّون .

وعِتْرَة رسول الله صلى الله عليه وآله : أهلُه الأَدْنَوْن ونسله ؛ وليس بصحيح قول مَنْ قال : إنّهم رهطُه وإن بعدوا ؛ وإنما قال أبو بكر يوم السقيفة أو بعده : « نحن عِترة رسول الله صلى الله عليه وبيضته التى فَقِئَتْ عنه » ؛ على طريق المجاز ؛ لأنهم بالنسبة إلى الأمصار عِتْرَة له لا فى الحقيقة ؛ ألا تَرَى أنّ العدنانىّ يفاخر القحطانى ؛ فيقول له : أنا ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ ليس يعنى أنه ابنُ عمّه على الحقيقة ، بل هو بالإضافة إلى القحطانىّ كأنه ابن عمه ؛ وإنما استعمل ذلك ونطق به مجازا . فإن قدّر مقدّرٌ أنه على طريق حذفِ المضافات ؛ أى ابن ابن عمّ أب الأب ؛ إلى عدد كثير فى البنين والآباء ، فكذلك أراد أبو بكر أنهم عِترة أجداده ، على طريق حذف المضاف . وقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وآله عِترته مَنْ هى ، لما قال : « إنى تارك فيكم الثَّقَلَيْن » ، فقال : « عِترتى أهل بيتى » ، وبيّن فى مقام آخر مَن أهلُ بيته حيث طرح عليهم كساء . وقال حين نزلت : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ

---

(١) لابن الرعلاء الغسانى ، الكامل لابن الأثير ٣٢٦ .

﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾[1] : « اللهم هؤلاء أهلُ بيتى فأذهب الرجس عنهم ».

فإن قلت : فمَنْ هى العِترة التى عناها أمير المؤمنين عليه السلام بهذا الكلام ؟

قلت : نفسه وولداه ؛ والأصلُ فى الحقيقة نفسه ، لأنّ ولديه تابعان له ؛ ونسبتهما إليه مع وجوده كنسبة الكواكب المضيئة مع طلوع الشمس المشرقة ، وقد نبّه النبى صلى الله عليه وآله على ذلك بقوله : « وأبوكما خير منكما » .

وقوله : « وهم أزِمّة الحقّ » : جمع زمام ؛ كأنه جعل الحقّ دائراً معهم حيثما داروا ، وذاهبا معهم حيثما ذهبوا ، كما أن الناقة طَوْع زمامها ، وقد نبّه الرسول الله صلى الله عليه وآله على صِدْق هذه القضية بقوله : « وأدِر الحقّ معه حيث دار » .

وقوله : « وألسنة الصّدق » من الألفاظ الشريفة القرآنية ، قال الله تعالى : ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾[2] ، لما كان لا يصدُر عنهم حكم ولا قول إلا وهو موافق للحقّ والصواب جعلَهم كأنّهم ألسِنَةُ صِدْقٍ لا يصدر عنها قول كاذب أصلا ؛ بل هى كالمطبوعة على الصدق .

وقوله : « فأنزلوهُم منازل القرآن » تحته سرٌّ عظيم ؛ وذلك أنّه أمر المكلّفين بأنْ يُجْرُوا العِترة فى إجلالها وإعظامها والانقياد لها والطاعة لأوامرها مَجْرَى القرآن .

فإن قلت : فهذا القول منه يُشعِرُ بأنّ العِترة معصومة ، فما قول أصحابكم فى ذلك ؟

قلت : نصّ أبو محمد بن متّويه رحمه الله تعالى فى كتاب " الكفاية " على أنّ عليا عليه السلام معصوم ، وإنْ لم يكنْ واجبَ العصمة ، ولا العصمة شرط فى الإمامة ؛ لكن أدلّة النصوص قد دلّتْ على عِصْمَتِه ؛ والقطع على باطنه ومغيبه ، وأنّ ذلك أمرٌ اختصّ

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣ .

(٢) سورة الشعراء ٨٤ .

هو به دون غيره من الصحابة ؛ والفرق ظاهرٌ بين قولنا : « زيد معصوم ، وبين قولنا : « زيد واجب العصمة » ، لأنّه إمام ؛ ومِنْ شرط الإمام أن يكون معصوماً ، فالاعتبار الأول مذهبنا ، والاعتبار الثانى مذهب الإمامية .

ثم قال : « ورِدوهم وِرْد الهِيم العطاش » ، أى كونوا ذوى حِرْصٍ وانكماش على أخذ العلم والدين منهم ، كحِرْص الهِيم الظاء على وُرود الماء .

ثم قال : « أيُّها الناس خذوها عن خاتم النبيين » إلى قوله : « وليس ببالٍ » هذا الموضع يحتاج إلى تلطّف فى الشرح ، لأنّ لقائلٍ أنْ يقولَ : ظاهر هذا الكلام متناقض ، لأنه قال : « يموت مَنْ مات منا وليس بميت » ، وهذا كما تقول : يتحرّك المتحرّك وليس بمتحرّك ، وكذلك قوله : ويبلى مَنْ بلِيَ منا ، وليس ببال » ، ألا ترى أنه سلْب وإيجاب لشىء واحد ! فإن قلتم : أراد بقاء النفس بعد موت الجسد ، كما قاله الأوائل وقوم من المتكلمين ، قيل لكم : فلا اختصاص للنبىّ ولا لعلىّ بذلك ؛ بل هذه قضِيّة عامة فى جميع البشر ، والكلام خَرَج مخرج التمدّح والفخر .

فنقول فى الجواب :

إنّ هذا يُمكن أن يحمَل على وجهين :

أحدُهما : أن يكونَ النبى صلى الله عليه وآله وعلىٌّ ومَنْ يتلوهُما من أطايب العِترة أحياء بأبدانهم التى كانت فى الدنيا بأعيانها ؛ قَدْ رَفعهم الله تعالى إلى ملكوت سماواته ؛ وعلى هذا لو قدرنا أن محتفِراً احتفر تلك الأجداث الطاهرة عقب دَفْنهم لم يجد الأبدان فى الأرض ؛ وقد روى فى الخبر النبوىّ صلى الله عليه وآله مثل ذلك ؛ وهو قوله : « إنّ الأرض لم تُسَلَّط علىّ ، وأنها لا تأكل لى لحماً ولا تشرب لى دما » نعم يبقى الإشكال فى قوله : « ويبلى مَنْ بَلِيَ منا وليس ببالٍ » ؛ فإنه إنْ صَحّ هذا التفسير فى الكلام الأول ؛ وهو قوله : « يموت

مَنْ مات منّا وليس بميت » ؛ فليس يصحّ فى القضية الثانية ، وهى حديث البلاء ، لأنها تقتضى أنّ الأبدانَ تَبْلى وذاك الإنسان لم يبلَ ، فأحوج هذا الإشكال إلى تقدير فاعل محذوف ؛ فيكون تقدير الكلام : يموت مَنْ مات حال موته وليس بميت فيما بعد ذلك من الأحوال والأوقات ، وَيَبْلَى كفن مَنْ بَلِيَ منّا وليس هو ببال ؛ فحذف المضاف كقوله : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ ﴾[1] ، أى وإلى أهل مدين : ولما كان الكَفَنُ كالجزء من الميت لاشتماله عليه عبّر بأحدهما عن الآخر للمجاورة والاشتمال ، كما عبّروا عن المطر بالسماء ، وعن الخارج المخصوص بالغائط ، وعن الخمر بالكأس . ويجوز أن يحذف الفاعل كقوله تعالى : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾[2] ؛ و ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴾[3] . وقول حاتم : « إذا حَشْرَجَتْ[4] » وحذف الفاعل كثير .

والوجه الثانى أنّ أكثر المتكلّمين ذهبوا إلى أن للإنسان الحىّ الفعّال أجزاء أصلية فى هذه البنية المشاهدة ؛ وهى أقلّ ما يمكن أن تأتلف منه البنية التى معها يصحّ كون الحىّ حيًّا ، وجعلوا الخطاب متوجّها نحوها ، والتكليف وارداً عليها ، وما عداها من الأجزاء ؛ فهى فاضلة ليست داخلة فى حقيقة الإنسان ؛ وإذا صحّ ذلك جاز أن ينتزع الله تلك الأجزاء الأصلية من أبدان الأنبياء والأوصياء ، فيرفعها إليه بعد أن يخلق لها من الأجزاء الفاضلة عنها نظير ما كان لها فى الدار الأولى ؛ كما قاله مَنْ ذهب إلى قيامة الأنفس والأبدان معاً ، فتنعم عنده وتلتذ بضروب اللذات الجسمانية ، ويكون هذا مخصوصاً بهذه الشجرة

---

(١) سورة الأعراف ٨٥

(٢) سورة ص ٣٢ .

(٣) سورة الواقعة ٨٣ .

(٤) من قول حاتم :

لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى   إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْماً وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

ديوانه ١١٨ (من مجموعة خمسة دواوين) .

المباركة دون غيرها ؛ ولا عجب فقد ورد فى حقّ الشهداء نحو ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (١) .

وعلى الوجه الأول لو أنّ محتفراً احتفر أجداثهم لوجدَ الأبدان فيها ؛ وإن لم يعلم أنّ أصول تلك البُنَى قد انتزعت منها ونقلت إلى الرفيقِ الأعلى ؛ وهذا الوجه لايحتاج إلى تقديرِ ماقدّرناه أولا من الحذف ؛ لأنّ الجسد يَبْلَى فى القبر إلاقدْر ماانتزع منه ونقِل إلى مَحلّ القُدْس ؛ وكذلك أيضاً يصدُق على الجسد أنّه ميت ؛ وإن كان أصل بنيته لم يمتْ ؛ وقد ورد فى الخبر الصحيح : « أنّ أرواحَ الشهداء من المؤمنين فى حواصل طيور خُضْر تدور فى أفناء الجنان ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش » ، فإذا جاء هذا فى الشهداء فما ظنُّك بموالى الشُّهدَاء وساداتهم !

فإن قلت : فهل يجوز أن يُتأوّل كلامُه ، فيقال : لعلّه أراد بقاء الذِّكر والصيت؟

قلت إنه لبعيدٌ ، لأنّ غيرَهم يَشْرَكُهم فى ذلك ؛ ولأنّه أخرج الكلام مخرَجَ المستغرب المستعظم له .

فإن قلت : فهل يمكن أن يقال : إن الضمَير يعود إلى النبي صلى الله عليه وآله ؛ لأنه قد ذكره فى قوله : « خاتم النبيين » فيكون التقدير :أنه يموت مَنْ مات مناوالنبي صلى الله عليه وآله ليس بميت ، ويبلى مَنْ بَلى منا والنبي ليس ببال .

قلت : هذا أبعدُ من الأول ، لأنه لو أراد ذلك لقال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله لاتُبليه الأرض ، وإنه الآن حيّ ؛ ولم يأت بهذا الكلام الموهم ؛ ولأنه فى سياق تعظيم العِترة وتبجيل أمرها ؛ وفخره بنفسه وتمدّحه بخصائصه ومزاياه ؛ فلا يجوزأن يدخل فى غضون ذلك ماليس منه .

---

(١) سورة آل عمران ١٦٩ .

فإن قلت : فهل هذا الكلام منه أم قاله مرفوعا ؟ قلت : بل ذكره مرفوعا ، ألا تراه قال : « خذوها عن خاتم النبيين » . ثم نعود إلى التفسير فنقول : إنّه لما قال لهم ذلك علم أنه قال قولا عجيباً ؛ وذكر أمراً غريباً ، وعلم أنهم ينكرون ذلك ويعجبون منه ، فقال لهم : فلا تقولوا مالا تعرفون ؛ أى لاتكذّبوا أخبارى ؛ ولا تكذّبوا أخبار رسول الله لكم بهذا فتقولون مالا تعلمون صِحَّته ، ثم قال : فإن أكثر الحق فى الأمور العجيبة التى تنكرُونها كإحياء الموتى فى القيامة ، وكالصراط والميزان والنار والجنةوسائر أحوال الآخرة ؛ هذا إن كان خاطَب مَنْ لايعتقد الإسلام ؛ فإن كان الخطاب لمن يعتقد الإسلام فإنه يعنى بذلك أنّ أكثرهم كانوا مرجئة ومشبّهة ومُجْبِرة ؛ ومن يعتقد أفضليةَ غيره عليه ، ومن يعتقد أنه شَرِكَ فى دم عثمان ، ومن يعتقد أنّ معاوية صاحب حُجّة فى حربه ؛ أو شبهة يمكن أن يتعلّق بها متعلق ؛ ومن يعتقد أنّه أخطأ فى التحكيم ؛ إلى غير ذلك من ضروب الخطأ التى كان أكثرهم عليها .

ثم قال : «واعذروا مَنْ لاحجةلكم عليه وهو أنا» ، يقول : قد عَدَلْتُ فيكم، وأحسنت السيرة وأقمتكم على المحجّة البيضاء ، حتى لم يبق لأحد منكم حُجّةٌ يحتجّ بها علىّ ، ثم شرح ذلك ،فقال : « عملت فيكم بالثقَل الأكبر » ، يعنى الكتاب و«خلفت فيكم الأصغر» يعنى ولديْه ؛ لأنهمابقية الثقَل الأصغر ؛ فجاز أن يطلق عليهمابعد ذهاب مَنْ ذهب منه أنهما الثقل الأصغر ؛ وإنما سمى النبى صلى الله عليه وآله الكتاب ، والعِتْرة الثقلَيْن لأن الثقَل فى اللغة متاع المسافر وحَشَمُه ؛ فكأنه صلى عليه وآله لمّا شارف الانتقال إلى جوار ربه تعالى جعل نفسه كالمسافر الذى ينتقل من مَنْزِلٍ إلى منزل ؛ وجعل الكتاب والعِتْرة كمتاعه وحَشَمه ؛ لأنهما أخصّ الأشياء به .

قوله : « وركزت فيكم راية الإيمان » ، أى غرزتها وأثبتها ؛ وهذا من باب الاستعارة .

وكذلك قوله : « ووقفتكم على حدود الحلال والحرام » من باب الاستعارة أيضاً ، مأخوذ من حُدود الدار وهى الجهات الفاصلة بينها وبين غيرها .

قوله : « وألبستكم العافية من عَدْلِى » استعارة فصيحة ، وأفصح منها قوله : « وفرشتكم المعروف من قولى وفعلى » ، أى جعلته لكم فراشا ، وفَرَش هاهنا : متعدٍّ إلى مفعولين ، يقال : فرشته كذا ، أى أوسعته إياه .

ثم نهاهم أن يستعملوا الرأى فيما ذكره لهم من خصائص العِترة وعجائب ما منحها الله تعالى ، فقال : إنّ أمرنا أمر صعب لا تهتدى إليه العقول ، ولا تدرك الأبصار قعرَهُ ، ولا تتغلغل الأفكار إليه . والتغلغل : الدخول ، من تغلغل الماء بين الشجر ، إذا تخللها ودخل بين أصولها .

***

الأصْلُ :

ومنها :

حَتَّى يَظُنَّ الظَّانُّ أَنَّ الدُّنْيَا مَعْقُولَةٌ عَلَى بَنِى أُمَيَّةَ ؛ تَمْنَحُهُمْ دَرَّهَا ؛ وَتُورِدُهُمْ صَفْوَهَا ؛ وَلَا يُرْفَعُ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَوْطُهَا وَلَا سَيْفُهَا . وَكَذَبَ الظَّانُّ لِذَلِكَ ؛ بَلْ هِىَ مَجَّةٌ مِنْ لَذِيذِ الْعَيْشِ يَتَطَعَّمُونَهَا بُرْهَةً ، ثُمَّ يَلْفِظُونَهَا جُمْلَةً .

***

الشّرْحُ :

معقولة : محبوسة بعقال كما تعقل الناقة . وتمنحهم : تعطيهم ، والمنح : العطاء ، منحَ يمنَح بالفتح ، والاسم المِنْحَة بالكسر ، واستمنحت زيدا : طلبت مِنْحَته .

والدَّرّ فى الأصل : اللَّبن ، جعل الدنيا كناقة معقولة عليهم تمنحهم لبنها ، ثم استعمل

الدَّرّ فى كل خير ونفع ، فقيل : لا دَرَّ درّه ! أى لا كثُر خيره ، ويقال فى المدح : لله درّه ! أى عمله .

ومجّة من لذيذ العيش ، مصدر مَجّ الشراب مِنْ فِيه ، أى رمى به وقذَفه ، ويقال : امجّتْ نقطة من القلم ، أى ترشَّشَتْ ، وشيخ ماجّ ، أى كبير يمجّ الريق ، ولا يستطيع حبسه لكبره .

ويتطعّمُونها ؛ أى يذوقونها . وبُرْهة ، أى مدة من الزمان فيها طول . ولفظت الشىء من فمى ، ألفظه لفظا : رميته ، وذلك الشىء اللُّفاظة واللُّفاظ ؛ أى يلفظونها كلَّها لا يبقى منها شىء معهم .

***

وهذه الخطبة طويلة ، وقد حذف الرضىّ رحمه الله تعالى منها كثيرا ، ومن جملتها :

أما والذِى فَلَق الحبّة ، وبرأ النَّسمة ، لا يرَوْن الذى ينتظرون حتى يهلِك المتمنُّون . ويَضْمَحِلّ المحلُّون ، ويتثبّت المؤمنون ، وقليلٌ ما يكون ؛ والله والله لا ترَوْن الذى تنتظرون حتى لا تَدْعُون الله إلا إشارةً بأيدِيكُمْ وإيماضاً بحواجبكم ، وحتى لا تملِكُون من الأرض إلّا مواضعَ أقدامكم ، وحتى يكونَ موضعُ سلاحكم على ظهورِكم ؛ فيومئذٍ لا ينصرنى إلا الله بملائكتِه ، ومَنْ كَتَبَ عَلَى قَلْبِه الإيمان ، والَّذِى نَفسُ علىّ بيدِه لا تقوم عصابةٌ تطلب لِى أو لغيرِى حقًّا ، أو تدفع عنا ضَيْماً إلا صرَعتهم البليّةُ ، حتى تقوم عصابةٌ شهدت مع محمد صلى الله عليه وآله بَدْراً ، لا يودَى قتيلُهم ، ولا يداوَى جريحُهم ، ولا ينعَشُ صريعُهم . قال المفسرون : هم الملائكة .

ومنها :

لقد دعوتُكُم إلى الحقّ وتوانَيْتُمْ ، وضربتُكم بالدِّرَّةِ فما استقمتم ، وستَلِيكم

بَعْدِي وُلاة يعذِّبُونكم بالسِّيَاط والحديد ، وسيأتيكم غُلاما ثقيفٍ : أَخْفش وجُمْبوب ؛ يقتلان ويُظَلِّمان ، وقليل ما يمكَّنان .

قلت : الأخفش : الضعيف البصر خِلْقة ، والجُمبوب : القصير الدميم ، وهما الحجاج ويوسف بن عمر . وفى كتاب عبد الملك إلى الحجّاج : قاتلك الله أخيفشَ العينين ، أصكَّ الجاعِرَتَيْن[1] !

ومن كلام الحسن البصرى رحمه الله تعالى يذكر فيه الحجاج : أتانا أُعَيْمش أُخَيْفش يمدّ بيدٍ قصيرة البنان ، ما عرق فيها عنان فى سبيل الله .

وكان المثل يُضْرَبُ بقِصَرِ يوسف بن عمر ، وكان يغضب إذا قيل له قصير ، فَصَّل له الخيَّاطُ ثوبا ، فأبقى منه فضلة كثيرة ، فقال له : ما هذه ؟ قال : فضلت مِنْ قميص الأمير ، فضربه مائة سوط ، فكان الخيّاطون بعد ذلك يفصِّلُون له اليَسير من الثوب ، ويأخذون الباق لأنفسهم .

(١) الجاعرتان : حرفا الوركين المشرفان عن الفخذين . والأصك : الذى تصك ركبتاه وعرقوباه عن المشى

(٨٧)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ لَمْ يَقْصِمْ جَبَّارِي دَهْرٍ قَطُّ إِلَّا بَعْدَ تَمْهِيلٍ وَرَخَاء ؛ وَلَمْ يَجْبُرْ عَظْمَ أَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا بَعْدَ أَزْلٍ وَبَلَاء ؛ وَفِي دُونِ مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ عَتْبٍ وَمَا اسْتَدْبَرْتُمْ مِنْ خَطْبٍ مُعْتَبَرٌ . وَمَا كُلُّ ذِي قَلْبٍ بِلَبِيبٍ ، وَلَا كُلُّ ذِي سَمْعٍ بِسَمِيعٍ ؛ وَلَا كُلُّ ذِي نَاظِرٍ بِبَصِيرٍ .

فَيَا عَجَباً ! وَمَا لِيَ لَا أَعْجَبُ مِنْ خَطَإِ هَذِهِ الْفِرَقِ عَلَى اخْتِلَافِ حُجَجِهَا فِي دِينِهَا ؛ لَا يَقْتَصُّونَ أَثَرَ نَبِيٍّ ، وَلَا يَقْتَدُونَ بِعَمَلِ وَصِيٍّ ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِغَيْبٍ ، وَلَا يَعِفُّونَ عَنْ عَيْبٍ ، يَعْمَلُونَ فِي الشُّبُهَاتِ ، وَيَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ ، الْمَعْرُوفُ فِيهِمْ مَا عَرَفُوا ، وَالْمُنْكَرُ عِنْدَهُمْ مَا أَنْكَرُوا ، مَفْزَعُهُمْ فِي الْمُعْضِلَاتِ إِلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَتَعْوِيلُهُمْ فِي الْمُهِمَّاتِ عَلَى آرَائِهِمْ ؛ كَأَنَّ كُلَّ امْرِئٍ مِنْهُمْ إِمَامُ نَفْسِهِ ، قَدْ أَخَذَ مِنْهَا فِيمَا يَرَى بِعُرًى ثِقَاتٍ ، وَأَسْبَابٍ مُحْكَمَاتٍ .

***

الشَّرْحُ :

القَصْم ، بالقاف والصاد المهملة : الكسر ، قصمتُه فانقصم ، وقصّمته فتقصّم ، ورجل أقصم الثنيّة ؛ أي مكسورها ، بيّن القصَم ، بفتح الصاد .

والتمهيل : التأخير . ويروى « رجاء » وهو التأخير أيضا ؛ والرواية المشهورة « ورخاء » ، أي بعد إعطائهم من سعة العيش وخِصب الحال ما اقتضته المصلحة .

والأزْل ، بفتح الهمزة :الضيق . ويقتصُّون : يتبعون ، قال سبحانه وتعالى : ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ (١) .

ويعِفُّون ، بكسر العين ؛ عَفَفْتُ عن كذا ، أعِفُّ عَفًّا وعِفَّةً وعَفافة ، أى كففت ، فأنا عفٌّ وعفيف ، وامرأة عَفّة وعفيفة ، وقد أعفّه الله ، واستعفّ عن المسألة ، أى عفّ . وتعفّف الرجل ، أى تكلّف العِفّة ، ويروى : « ولا يعفُون عن عَيْب » ، أى لا يصفحون.

ومفزعهم : ملجؤهم . وفيما يُرى ، أى فيما يظنّ ، ويرى بفتح الياء ؛ أى فيما يراه هو. وروى : « بعرًا وثيقات » .

يقول إنّ عادة الله تعالى ألّا يقصِم الجبابرة إلا بعد الإمهال والاستدراج ؛ بإفاضة النعم عليهم ، وألّا يجبر أولياءه وينصرهم إلا بعد بؤس وبلاء يمتحنهم به ، ثم قال لأصحابه : إنّ فى دون ما استقبلتم من عَتْب لمعتبر ، أى من مشقّة ، (٢ يعنى بما استقبلوه ما لاقوه ٢) فى مستقبل زمانهم من الشيب ، وولاة السوء ، وتنكّر الوقت ؛ وسمّى المشقّة عتْباً ، لأن العَتْب مصدر عَتَب عليه ، أى وَجَد عليه ، فجعل الزمانَ كالواجد عليهم ، القائم فى إنزال مشاقه بهم مقامَ الإنسان ذى الموجِدَة يعتِب على صاحبه . وروى « من عَتَب » ، بفتح التاء جمع عتَبة ؛ يقال: لقد حُمِل فلان على عتَبة ، أى أمر كريه من البلاء ؛ وفى المثل : « ما فى هذا الأمر رتَب ولا عتَب » ، أى شدة . وروى أيضاً « من عَنَتٍ » وهو الأمر الشاق. وما استدبروه من خَطْب ؛ يعنى به ما تصرّم عنهم من الحروب والوقائع التى قَضَوْها ونضوها واستدبروها. ويروى: «واستدبرتم من خِصْب» ؛ وهو رخاء العيش ؛ وهذا يقتضى المعنى الأول ، أى وما خَلّفتمْ وراءكم من الشباب والصحّة وصفو العيشة .

ثم قال : « وما كل ذى قلب بلبيب ... » الكلام إلى آخره ، وهو مأخوذ من قول الله

(١) سورة القصص ١١ .

(٢-٢) ج : « يعنى ما استقبلوه ، أى ما لاقوه » .

تعـالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ (١) .

ثم تعجّب من اختلاف حجج الفرق فى الدّين وخطئهم وكونهم لا يتبعون أقوالَ الأنبياء ، ولا أقوال الأوصياء ، ثم نَعَى عليهم أحوالهم القبيحة ، فقال : إنهم لا يؤمنون بالغيب ، أى لا يصدقون بما لم يشاهدوه ، ولا يكفُّون عن الأمور القبيحة ، لـكنهم يعملون فى الشبهات ، أى يعملون أعمالا داخلة فى الشبهات متوسطة لها . ويسيرون فى الشهوات ، جعل الشهوات كالطريق التى يسير فيها الإنسان .

ثم قال : المعروف فيهم ماعرفوه ، أى ليس المعروف عندهم ما دلّ الدليل على كونه معروفا وصوابا وحقًّا ، بل المعروف عندهم ماذهبوا إلى أنه حَقّ ، سواء كان حقًّا فى نفس الأمر أو لم يكن ، والمنـكر عندهم ماأنـكروه كما شرحناه فى المعروف .

ثم قال : إنهم لا يستشيرون بعالم ، ولا يستفتون فقيها فاضلا ، بل مفزعهم فى الأمور المشكلة إلى أنفسهم وآرائهم ، ولقد صدق عليه السلام ، فإن هذه صفات مَنْ يدّعى العلم والفضل فى زماننا وقبله بدهر طويل ، وذلك أنهم يأنفون من التعلّم والاسترشاد ، فالبادئ منهم يعتقد فى نفسه أنه أفضلُ من البارع المنتهى ، ومتى ظفر الواحـد منهم بمبادئ علم وحَمله ، شرع فى التّدريس والتصنيف ، فمنعه التزامه بذلك من التردد إلى أبواب العلماء ، وأنف من سؤالهم عن الأمور المشكلة ، فدام جهله إلى أن يموت .

ثم قال : « كأنّ كلّ واحد منهم إمام نفسه » ، ويروى بحذف « كأنّ » وإسقاطها ، وهو أحسن .

(١) سورة الأعراف ١٧٩ .

(٨٨)

الأصلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

أرسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الأُمَمِ، وَاعْتِزَامٍ[1] مِنَ الفِتَنِ؛ وَانْتِشَارٍ مِنَ الأُمُورِ، وَتَلَظٍّ مِنَ الحُرُوبِ، وَالدُّنيا كَاسِفَةُ النُّورِ، ظَاهِرَةُ الغُرُورِ؛ عَلَى حِينِ اصْفِرَارٍ مِنْ وَرَقِهَا، وَإِيَاسٍ مِنْ ثَمَرِهَا، وَإِغْوَارٍ[2] مِنْ مَائِهَا. قَدْ دَرَسَتْ مَنَارُ الهُدَى، وَظَهَرَتْ أَعْلَامُ الرَّدَى؛ فَهِيَ مُتَجَهِّمَةٌ لِأَهْلِهَا، عَابِسَةٌ فِي وَجْهِ طَالِبِهَا، ثَمَرُهَا الفِتْنَةُ، وَطَعَامُهَا الجِيفَةُ، وَشِعَارُهَا الخَوْفُ، وَدِثَارُهَا السَّيْفُ.

فَاعْتَبِرُوا عِبَادَ اللهِ، وَاذْكُرُوا تِيكَ الَّتِي آبَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ بِهَا مُرْتَهَنُونَ، وَعَلَيْهَا مُحَاسَبُونَ. وَلَعَمْرِي مَا تَقَادَمَتْ بِكُمْ وَلَا بِهِمُ العُهُودُ، وَلَا خَلَتْ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمُ الأَحْقَابُ وَالقُرُونُ، وَمَا أَنْتُمُ اليَوْمَ مِنْ يَوْمٍ كُنْتُمْ فِي أَصْلَابِهِمْ بِبَعِيدٍ.

وَاللهِ مَا أَسْمَعَكُمُ الرَّسُولُ شَيْئاً إِلَّا وَهَا أَنَا ذَا اليَوْمَ مُسْمِعُكُمُوهُ، وَمَا أَسْمَاعُكُمُ اليَوْمَ بِدُونِ أَسْمَاعِكُمْ بِالأَمْسِ، وَلَا شُقَّتْ لَهُمُ الأَبْصَارُ، وَلَا جُعِلَتْ لَهُمُ الأَفْئِدَةُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ؛ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيتُمْ مِثْلَهَا فِي هَذَا الزَّمَانِ، وَوَاللهِ مَا بُصِّرْتُمْ بَعْدَهُمْ شَيْئاً جَهِلُوهُ، وَلَا أُصْفِيتُمْ بِهِ وَحُرِمُوهُ، وَلَقَدْ نَزَلَتْ بِكُمُ البَلِيَّةُ جَائِلاً خِطَامُهَا، رِخْواً بِطَانُهَا؛ فَلَا يَغُرَّنَّكُمْ مَا أَصْبَحَ فِيهِ أَهْلُ الغُرُورِ، فَإِنَّمَا هُوَ ظِلٌّ مَمْدُودٌ إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ.

***

(١) مخطوطة النهج : « واعترام ».

(٢) مخطوطة النهج : « وإغوار ».

الشرح :

الفَترة بين الرسل : انقطاعُ الرّسالة والوحى ؛ وكذلك كان إرسال محمد صلى الله عليه وآله ، لأنَّ بين محمد وبين عهد المسيح عليه السلام عهداً طويلا ، أكثر الناس على أنه ستمائة سنة ، ولم يرسَل فى تلك المدّة رسول ، اللهمّ إلا ما يقال عن خالد بن سنان العبسىّ ، ولم يكن نبيًّا ولا مشهوراً .

والهجْعة : النَّوْمة ليلا ، والهجوع مثله ، وكذلك التَّهْجاع ، بفتح التاء ، فأما الهِجْعة بكسر الهاء ؛ فهى الهيئة كالجِلْسة من الجلوس .

قوله : « واعتزام من الفتن » ، كأنه جعل الفِتَن معتزِمة ، أى مريدة مصمّمة للشَّغب والمرْج . ويروى : « واعتراض » ، ويروى : « واعترام » بالراء المهملة من العُرام ، وهى الشِّرّة . والتلظّى : التلهّب .

وكاسفة النور : قد ذهب ضوءها ، كما تكسف الشمس . ثم وصفها بالتغير وذبول الحال ، فجعلها كالشجرة التى اصفرّ ورَقها وبيِس ثمرها . وأعور ماؤها ، والإعوار : ذهاب الماء ، فلاة عوْراء : لا ماء بها . ومَنْ رواه : « وإغوارٍ من مائها » ، بالغين المعجمة ، جعله من غار الماء ، أى ذهب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً ﴾(١) .

ومتجهّمة لأهلها : كالحة فى وجوههم .

ثم قال : « ثمرها الفتنة » أى نتيجتها ومايتولّد عنها . وطعامها الجيفة ، يعنى أكل الجاهلية الميتة ، أو يكون على وجه الاستعارة ، أى أكلها خبيث . ويروى «الخِيفة» أى الخوف ، ثم جعل الخوف والسيف شعارها ودثارها ، فالشعار مايلِى الجسد ، والدِّثار فوق

---

(١) سورة الملك ٣٠ .

الشمار ، وهذا من بديع الكلام ومن جيِّد الصناعة ، لأنه لما كان الخوفُ يتقدّم السيف والسيف يتلوه ، جعلَ الخوف شِعاراً لأنه الأقربُ إلى الجسد ؛ وجعل الدِّثار تاليا له .

ثم قال : « واذكروا تيك » كلمة إشارة إلى المؤنثة الغائبة ، فيمكن أن يعنى بها الدنيا التى تقدّم ذكرها ، وقد جعل آباءهم وإخوانهم مرتهَنين بها ومحاسبين عليها ، والارتهان : الاحتباس ، ويمكن أن يعنى بها الأمانة التى عرضت على الإنسان فحملها ، والمراد بالأمانة الطاعة والعبادة وفعل الواجب وتجنّب القبيح . وقال : « تيك » ولم يجر ذكرها ، كما قال تعالى : ﴿ الٓمٓ * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ[(١)] ﴾ ولم يجرِ ذكره ؛ لأنّ الإشارة إلى مثل هذا أعظم وأهيب وأشدّ روعة فى صدر المخاطَب من التصريح .

قوله : « ولا خلت فيما بينكم وبينهم الأحقاب » ، أى لم يطل العهد ؛ والأحقاب : المدد المتطاولة ، والقرون : الأمم من الناس .

وقوله : « من يوم كنتم » ؛ يروى بفتح الميم من « يوم » على أنه مبنّى ؛ إذ هو مضاف إليه الفعل المبنى ؛ ويروى بجرّها بالإضافة ؛ على اختلاف القولين فى علم العربية .

ثم اختلفت الرواية فى قوله : « والله ما أسمعكم » فروى بالكاف وروى « أسمعهم » ، وكذلك اختلفت الرواية فى قوله : « وما أسماعُكم اليومَ بدون أسماعكم بالأمس » ، فروى هكذا ، وروى « بدون أسماعهم » ، فمن رواه بهاء الغيبة فى الموضعين فالكلام منتظم ، لا يحتاج إلى تأويل ، ومن رواه بكاف الخطاب ، قال : إنه خاطب به من صحب النبىّ صلى الله عليه وآله وشاهده وسمع خطابه ؛ لأنّ أصحاب علىّ عليه السلام كانوا فريقين : صحابة وتابعين ، ويعضد الرواية الأولى سياق الكلام .

وقوله : « ولا شُقّت لهم الأبصار ... إلا وقد أعطيتم مثلها[(٢)] » .

---

(١) سورة البقرة ١ ، ٢ .

(٢) كذا فى الأصول .

وأصفيتم به : منحتموه ، من الصفيّ وهو ما يصطفيه الرئيس من المغنم لنفسه قبل القسمة ، يقال : صفيّ وصفيّة .

وخلاصة هذا الكلام أن جميع ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله قاله لأصحابه قد قلتُ مثله لكم ، فأطاع أولئك وعصيتم أنتم ، وحالكم مساوية لحالهم .

قلت : لو أن مجيبا منهم يجيبُه لأمكن أن يقول له : المخاطبون وإن كانوا نوعا واحدا متساويا ؛ إلا أنّ المخاطَب مختلف الحال ؛ وذلك لأنّك وإن كنت ابنَ عمه فى النّسب وأخاه ولحمه ودمه ؛ وفضائلك مشتقة من فضائله ، وأنت قبَس من نوره وثانيه على الحقيقة ، ولا ثالث لكما ؛ إلا أنك لم تُرْزَق القبول الذى رزقه ؛ ولا انفعلت نفوس الناس لك حسب انفعالها له ؛ وتلك خاصيّة النبوة التى امتاز بها عنك ؛ فإنه كان لا يسمع أحدٌ كلامَه إلا أحبّه ومال إليه ؛ ولذلك كانت قريش تسمى المسلمين قبل الهجرة الصباة ، ويقولون : نخاف أن يَصْبُو الوليد بن المغيرة إلى دين محمد صلى الله عليه وآله ؛ ولئن صبا الوليد وهو ريحانة قريش لتصبوَنّ قريش بأجمعها . وقالوا فيه : ما كلامه إلا السّحر ؛ وإنه ليفعل بالألباب فوق ما تفعل الخمر . ونهوْا صبيانَهم عن الجلوس إليه لئلا يستميلهم بكلامه وشمائله ؛ وكان إذا صلى فى الحِجْر وجهر يجعلون أصابعَهم فى آذانهم خوفاً أن يسحرهم ويستميلهم بقراءته وبوعظه وتذكيره ، هذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾(١) .

ومعنى قوله : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾(٢) لأنهم كانوا يهربون إذا سمعوه يتلو القرآن ، خوفاً أن يغيِّر عقائدهم فى أصنامهم ، ولهذا

---

(١) سورة نوح .
(٢) سورة الإسراء ٤٦ .

أسلم أكثر الناس بمجرد سماع كلامه ورؤيته ومشاهدة رُوائه ومنظره، وماذاقوه من حلاوة لفظه وسَرِيّ كلامه فى آذانهم ، ومَلَك قلوبهم وعقولهم ، حتى بذلوا المُهَج فى نصرته ؛ وهذا من أعظم معجزاته عليه السلام ، وهو القبول الذى منحه الله تعالى، والطاعة التى جعلها فى قلوب الناس له ، وذلك على الحقيقة سِرّ النبوّة ، الذى تفرّد به صلوات الله عليه ، فكيف يروم أمير المؤمنين من الناس أن يكونوا معه كما كان آباؤهم وإخوانهم مع النبىّ صلى الله عليه وآله ؛ مع اختلاف حال الرئيسين وتساوى الأثرين كما يعتبر فى تحققه تساوى حال المحلين ، يعتبر فى حقيقته أيضا تساوى حال العلّتين .

ثم نعود إلى التفسير ، قال : « ولقد نزلت بكم البليّة » ، أى المحنَة العظيمة ، يعنى فتنة معاوية وبنى أمية .

وقال : « جائلا خِطامها » ، لأن الناقة إذا اضطرب زمامها استصعبتْ على راكبها، ويسمى الزمام خِطاما لكونه فى مقدّم الأنف ، والخطم من كلّ دابة : مقدّم أنفها وفمها[1] ، وإنما جعلها رخوا بطانها ، لتكون أصعب على راكبها ، لأنّه إذا استرخى البطان كان الراكب فى معرض السقوط عنهـا ، وبطان القَتَب هو الحزام الذى يجعل تحت بطن البعير .

ثم نهاهم عن الاغترار بالدنيا ومتاعها ، وقال : إنها ظلٌّ ممدود إلى أجل معدود ، وإنما جعلها كالظلّ لأنه ساكن فى رأى العين ، وهو متحرك فى الحقيقة ، لايزال يتقلّص ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً ﴾[2] وهو أشبه شىء بأحوال الدنيا .

وقال بعض الحكماء : أهل الدنيا كركبٍ سِيرَ بهم وهم نيام .

---

(١) ج : « أنفه وفه » .
(٢) سورة الفرقان ٥٦ .

(٨٩)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ ، وَالْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ ، الَّذِي لَمْ يَزَلْ قَائِمًا دَائِمًا ؛ إِذْ لَا سَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ ، وَلَا حُجُبٌ ذَاتُ إِرْتَاجٍ ، وَلَا لَيْلٌ دَاجٍ ، وَلَا بَحْرٌ سَاجٍ ، وَلَا جَبَلٌ ذُو فِجَاجٍ ، وَلَا فَجٌّ ذُو اعْوِجَاجٍ ، وَلَا أَرْضٌ ذَاتُ مِهَادٍ ، وَلَا خَلْقٌ ذُو اعْتِمَادٍ ، وَذَلِكَ مُبْتَدِعُ الْخَلْقِ وَوَارِثُهُ ، وَإِلَٰهُ الْخَلْقِ وَرَازِقُهُ ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ دَائِبَانِ فِي مَرْضَاتِهِ ، يُبْلِيَانِ كُلَّ جَدِيدٍ ، وَيُقَرِّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ .

***

الشّرْحُ :

الروِيّة : الفكرة وأصلها الهمز ، روّأت في الأمر ، وقد جاء مثلها كلمات يسيرة شاذّة ، نحو البريّة ، من برأ ، أى خلق ، والذريّة من ذرَأ أى خلق أيضا ، والدّريّة وهى مايستتر به الصائد ، أصله من درأت أى دفعت ، وفلان بريّ أصله بريء ، وصف الله تعالى بأنّه يعرف من غير أن تتعلّق الأبصار بذاته ، ويخلق من غير تفكر وتروّ فيما يخلقه .

لم يزل قائما ، القائم والقيّوم بمعنًى ، وهو الثابت الذى لا يزولُ ، ويعبر عنه فى الاصطلاح النظريّ بالواجب الوجود ، وقد يفسر القائم على معنى قولهم : فلان قائم بأمر كذا ، أى والٍ وممسك له أن يضطرب .

ثم قال : هو موصوف بأنه قائم دائم من قبل أن يخلق العالم ، وهذا يؤكد التفسير

الأول ؛ لأنه إذا لم يكن العالم مخلوقا بعد لم يصدق عليه أنه قائم بأمره إلا بالقوة لا بالفعل ؛ كما يصدق عليه أنه سميع بصير فى الأزل ، أى إذا وجدت المسموعات والمبصرات سمعها وأبصرها ، ولو سمى قبل خلق الكلام متكلما على هذا التفسير لم أستبعده ؛ وإن كان أصحابنا يأبونه .

والأبراج : الأركان فى اللغة العربية .

فإن قلت : فهل يطابق هذا التفسير مايعتقده أصحابُ الهيئة وكثير من الحكماء والمتكلمين أنّ السماء كُرة لازاوية فيها ولا ضِلَع ؟

قلتُ : نعم لامنافاة بين القولين ، لأن الفلك وإن كان كُرة لكن فيه من المتممات مايجرى مجرى أركان الحصن أو السور ، فصحّ إطلاق لفظة الأبراج عليه ، والمتممات أجسام فى حشو الفلك تخفّ فى موضع ؛ والناس كلهم أثبتوها .

فإن قلت : فهل يجوز أن يحمل لفظ الأبراج على مايعتقده المنجّمون وأهل الهيئة ، وكثير من الحكماء والمتكلمين من كون الفلك مقسوما باثنى عشر قسما ، كلّ قسم منها يسمى برجا ؟

قلت : لامانع من ذلك ، لأنّ هذا المسمى كان معلوما متصوّرا قبل نزول القرآن ، وكان أهل الاصطلاح قد وضعوا هذا اللفظ بإزائه ، فجاز أن ينزل القرآن بموجبه ؛ قال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ [1] ، وأخذها علىّ عليه السلام منه ، فقال : « إذ لاسماء ذات أبراج » ، وارتفع « سماء » لأنه مبتدأ وخبره محذوف ؛ وتقديره « فى الوجود » .

ثم قال : « ولا حُجُب ذات إرتاج » والإرتاج مصدر أرتج أى أغلق ، أى ذات إغلاق ، ومن رواه « ذات رِتاج » على « فِعال » ، فالرتاج الباب المغلق ، ويُبعِد رواية مَنْ رواه

---

(١) سورة البروج ١ .

«ذات أرتاج» لأن «فعالا» قل أن يجمع على «أفعال»؛ ويعنى بالحُجُب ذات الإرتاج حجب النور المضروبة بين عرشه العظيم وبين ملائكته . ويجوز أن يريد بالحجب السموٰات أنفسها ، لأنها حجبت الشياطين عن أن تعلم ما الملائكة فيه .

والليل الداجى : المظلم ، والبحر الساجى : الساكن . والفِجاج : جمع فَجّ ؛ وهو الطريق الواسع بين جبلين . والمهاد : الفراش .

قوله : « ولا خاق ذو اعتماد » ؛ أى ولا مخلوق يسعى برجلين فيعتمد عليهما ، أو يطير بجناحيه فيعتمد عليهما ؛ ويجوز أن يريد بالاعتماد هنا : البطش والتصرّف . مبتدع الخلق : مخرجه من العدم المحض ، كقوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾[1] . ودائبان : تثنية دائب ؛ وهو الجادّ المجتهد المتعب ، دأب فى عمله أى جدّ وتعب دأبا ودءوبا فهو دئيب ، ودأبته أنا . وسمّى الشمس والقمر دائبين لتعاقبهما على حال واحدة دائما لا يفتران ولا يسكنان ، وروى «دائبين» بالنصب على الحال ويكون خبر المبتدأ «يبليان» وهذه من الألفاظ القرآنية[2] .

***

الأصل :

قَسَمَ أَرْزَاقَهُمْ ، وَأَحْصَى آثَارَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ وَعَدَدَ أَنْفُسِهِمْ وَخَائِنَةَ أَعْيُنِهِمْ ، وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ مِنَ الضَّمِيرِ ، وَمُسْتَقَرَّهُمْ وَمُسْتَوْدَعَهُمْ مِنَ الْأَرْحَامِ وَالظُّهُورِ ، إِلَى أَنْ تَتَنَاهَى بِهِمُ الْغَايَاتُ .

***

الشرح

آثارهم ، يمكن أن يُعنَى به آثار وطئهم فى الأرض إيذانا بأنه تعالى عالم بكلّ معلوم

(١) سورة الأنعام ١٠١ .

(٢) من من قوله تعالى فى سورة إبراهيم : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾

كما آذن قوله سبحانه : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ [1] بذلك . ويمكن أن يعنى به حركاتهم وتصرفاتهم .

وروى : « وعدد أنفاسهم » على الإضافة .

وخائنة الأعين : مايومى به مسارقة وخفية . ومستقرهم ، أى فى الأرحام . ومستودعهم ، أى فى الأصلاب ، وقد فسر ذلك فتكون «من» متعلقة بمستودعهم ومستقرهم على إرادة تكررها ، ويمكن أن يقال : أراد مستقرهم ومأواهم على ظهر الأرض ومستودعهم فى بطنها بعد الموت ، وتكون «من» ها هنا بمعنى «مذ» أى مذ زمان كونهم فى الأرحام والظهور إلى أن تتناهى بهم الغايات ، أى إلى أن يحشروا فى القيامة . وعلى التأويل الأول يكون تناهى الغايات بهم عبارة عن كونهم أحياء فى الدنيا .

***

الأصْلُ :

هُوَ الَّذِي اشْتَدَّتْ نِقْمَتُهُ عَلَى أَعْدَائِهِ فِي سَعَةِ رَحْمَتِهِ ، وَاتَّسَعَتْ رَحْمَتُهُ لِأَوْلِيَائِهِ فِي شِدَّةِ نِقْمَتِهِ . قَاهِرُ مَنْ عَازَّهُ ، وَمُدَمِّرُ مَنْ شَاقَّهُ ؛ وَمُذِلُّ مَنْ نَاوَاهُ ، وَغَالِبُ مَنْ عَادَاهُ ، مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ ، وَمَنْ سَأَلَهُ أَعْطَاهُ ، وَمَنْ أَقْرَضَهُ قَضَاهُ ، وَمَنْ شَكَرَهُ جَزَاهُ .

عِبَادَ اللهِ ، زِنُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُوزَنُوا ، وَحَاسِبُوهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تُحَاسَبُوا ، وَتَنَفَّسُوا قَبْلَ ضِيقِ الْخِنَاقِ ، وَانْقَادُوا قَبْلَ عُنْفِ السِّيَاقِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يُعَنْ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاعِظٌ وَزَاجِرٌ ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا لَا زَاجِرٌ وَلَا وَاعِظٌ .

***

---

(١) سورة الأنعام ٥٩ .

الشرح :

يجوز نَقِمة ونِقْمَة ، مثل كَلِمة وكِلْمة ، ولَبِنة ولِبْنة ، ومعنى الكلام أنه مع كونه واسع الرحمة فى نفس الأمر ، وأنه أرحم الراحمين ؛ فإنه شديد النقمة على أعدائه ؛ ومع كونه عظيم النقمة فى نفس الأمر وكونه شديد العقاب فإنه واسع الرحمة لأوليائه . وعازّه ، أى غالبه ، وعَزّه أى غلبه ، ومنه ﴿ وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ ﴾ (١) ، وفى المثل « مَنْ عَزَّ بَزّ » ، أى مَنْ غَلَب سلَب . والمدمِّر : المهلك ، دمّره ودمّر عليه بمعنًى ، أى أهلكه . وشاقّه : عاداه ، قيل إنّ أصلَه من الشّق وهو النِّصف ، لأن المعادى يأخذ فى شِقّ والمعادى فى شِقّ يقابله . وناواه ، أى عاداه ، واللفظة مهموزة ، وإنما ليّنها لأجل القرينة السّجعية ، وأصلها ناوأتُ الرجل مناوأة ونِواء ؛ ويقال فى المثل : « إذا ناوأت الرجل فاصْبر » .

قوله : « زنوا أنفسكم قبل أن توزنوا » من الكلام الفصيح النادر اللطيف ، يقول : اعتبروا أعمالكم وأنتم مختارون قادرون على استدراك الفارط ، قبل أن يكون هذا الاعتبار فعلَ غيركم وأنتم لا تقتدرون على استدراك الفارط ، ومثله قوله : « وحاسبوها من قبل أن تحاسبوا » .

ثم قال : « وتنفّسوا قبل ضيق الخناق » ، أى انتهزوا الفرصة ، واعملوا قبل أن يفوتَكم الأمر ، ويجدّ بكم الرحيل ويقع الندم ، قال الشاعر :

اخْتِمْ وطينُكَ رَطْبٌ إن قدرتَ فَكَمْ ... قد أمكن الختمُ أقواماً فما ختموا

ثم قال : « وانقادوا قبل عُنف السياق » ، هو العُنف بالضم ، وهو ضدّ الرفق ، يقال عَنُف عليه وعَنُف به أيضا ، والعَنِيف : الذى لا رفق له بركوب الخيل ، والجمع عُنُف . واعتنفتُ الأمرَ ، أى أخذته بعنف ، يقول : انقادوا أنتم من أنفسكم قبل أن تقادوا وتساقوا

---

(١) سورة ص ٢٣ .

بغير اختياركم سوقاً عنيفا . ثم قال « مَنْ لم يُعِنْه الله على نفسه حتى يجعل له منها واعظا وزاجرا لم ينفعه الزجر والوعظ من غيرها » أخذ هذا المعنى شاعر فقال :

وأقصرت عَمّا تعهدين وزاجرٌ من النفس خَيْرٌ من عِتَابِ الْعَواذِلِ

فإن قلت : أليس فى هذا الكلام إشعارٌ ما بالجبر ؟

قلت : إنه لاخلاف بين أصحابنا فى أنّ لله تعالى ألطافاً يفعلها بعباده ، فيقرّبهم من الواجب ، ويبعدهم من القبيح ؛ ومن يعلم الله تعالى من حاله أنه لالطف له لأنّ كلّ مايعرض لطفاً له فإنه لايؤثر فى حاله ولايزداد به إلا إصراراً على القبيح والباطل ؛ فهو الذى عَنَاه أميرُ المؤمنين عليه السلام بقوله : « من لم يعن على نفسه » ،لأنه ماقبل المعونة ولاانقاد إلى مقتضاها ، وقد روى : « واعلموا أنّه مَنْ لم يعِن على نفسه » بكسر العين أى من لم يعِن الواعظين له والمنذرين على نفسه ،ولم يكن معهم إلباً عليها وقاهرا لها، لم ينتفع بالوعظ والزجر ، لأن هوى نفسه يغلِب وعظَ كلّ واعظ وزجر كل زاجر .

(٩٠)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام تعرف بخطبة الأشباح ، وهى من جلائل خطبه عليه السلام

روى مَسعَدَةُ بنُ صَدَقَةَ عن الصادقِ جعفرِ بنِ محمدٍ عليهما السـلامُ ، أنه قال : خطب أميرُ المؤمنينَ بهذه الخطبةِ على منبرِ الكوفةِ ؛ وذلك أن رجلًا أتاه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، صِفْ لنا ربَّنا[١] مثل ما نراه عيانًا[١] ، لنزداد له حبًّا ، وبه معرفة ؛ فغضِبَ ونادَى : الصلاة جامِعَةً ، فاجتمع إليه الناسُ حتى غصَّ المسجدُ بأهلِهِ ؛ فصعِدَ المنبرَ وهو مغضَبٌ متغيرُ اللونِ ، فحمِدَ الله وأثنى عليه ، وصلَّى على النبى صلى الله عليه وآله ، ثم قال:

اَلْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى لَا يَفِرُهُ الْمَنْعُ وَالْجُمُودُ ، وَلَا يُكْدِيهِ الْإِعْطَاءُ وَالْجُودُ ؛ إِذْ كُلُّ مُعْطٍ مُنْتَقِصٌ سِوَاهُ ، وَكُلُّ مَانِعٍ مَذْمُومٌ مَا خَلَاهُ ؛ وَهُوَ الْمَنَّانُ بِفَوَائِدِ النِّعَمِ ، وَعَوَائِدِ الْمَزِيدِ وَالْقِسَمِ ، عِيَالُهُ الْخَلَائِقُ ، ضَمِنَ أَرْزَاقَهُمْ ، وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهُمْ ، وَنَهَجَ سَبِيلَ الرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ ، وَالطَّالِبِينَ مَا لَدَيْهِ ، وَلَيْسَ بِمَا سُئِلَ بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَا لَمْ يُسْأَلْ ، الْأَوَّلُ الَّذِى لَمْ يَكُنْ لَهُ قَبْلٌ فَيَكُونَ شَىْءٌ قَبْلَهُ ، وَالْآخِرُ الَّذِى لم يكن لَهُ[٢] بَعْدٌ فَيَكُونَ شَىْءٌ بَعْدَهُ ، وَالرَّادِعُ أَنَاسِىَّ الْأَبْصَارِ عَنْ أَنْ تَنَالَهُ أَوْ تُدْرِكَهُ ، مَا اخْتَلَفَ عَلَيْهِ دَهْرٌ فَيَخْتَلِفَ مِنْهُ الْحَالُ ، وَلَا كَانَ فِى مَكَانٍ فَيَجُوزَ عَلَيْهِ الانْتِقَالُ .

***

الشَّرْحُ :

الأشباح : الأشخاص ، والمراد بهم هـا هنا الملائكة ، لأنَّ الخطبة تتضمن ذِكرَ الملائكة .

(١ – ١) ساقط من مخطوطة النهج . (٢) مخطوطة النهج : « ليس له » .

وقوله : « الصلاة جامعةً » منصوب بفعل مقدر ، أى احضروا الصلاة ، وأقيموا الصلاة ، و « جامعةً » منصوب على الحال من الصلاة .

وغَصَّ المسجد ، بفتح الغين ، أى امتلأ ، والمسجدغاصٌّ بأهله . ويقال: رجل مغضَب ، بفتح الضاد ، أى قد أغضِب ، أى فعل به مايوجب غَضَبه .

ويَفِرُه المنع : يزيد فى ماله ، والموفور التامّ ، وفرتُ الشىء وفْرا وَوَفَر الشىءُ نفسُه وفُورا ، يتعدّى ولايتعدى . وفى أمثالهم : « يوفر ويحمد » هو من قولك وفرته عرضَه ووفرته ماله .

وقوله : « ولا يكديه الإعطاء » ، أى لايفقِرُه ولا ينفد خزائنه ، يقال : « كَدَتِ الأرضُ » تَكِدُ وفهى كادية ، إذا أبطأ نباتُها ، وقلّ خيرها ، فهذا لازِم ، فإذا عدّيته أتيتَ بالهمزة فقلتَ : أكديت الأرض ، أى جعلتها كادية ، وتقول : أكدَى الرجلُ إذا قلّ خيره ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى ﴾[1] ، أى قطع القليل ، يقول : إنّه سبحانه قادر على المقدورات ، وليس كالملوك من البشر الذين إذا أعطوا نقصَتْ خزائنهم وإن منعوا زادت ، وقد شرح ذلك وقال : « إذ كلّ معطٍ منتقَص » أى منقوص ، ويجىء «انتقص» لازما ومتعديا ، تقول : انتقص الشىءُ نفسُه ، وانتقصتُ الشىء ، أى نقصتهُ وكذلك « نقص » يجىء لازما ومتعديا .

ثم قال : «وكلّ مانع مذموم غيره» ، وذلك لأنّه تعالى إنما يمنع مَنْ تقتضى الحكمةُ والمصلحةُ منعه ، وليس كما يمنع البشر . وسأل رجل علىّ بن موسى الرِّضا عن الجواد ، فقال : إنّ لكلامك وجهين ، فإن كنتَ تسأل عن المخلوق ، فإنّ الجواد هو الذى يؤدّى ماافترض الله عليه ، والبخيل هو الذى يبخلُ بما افترض الله عليه ، وإن كنت تعنى الخالق ،

---

(١) سورة النجم ٣٤ .

فهو الجواد إن أعطى؛ وهو الجواد إن منَع ، لأنه إن أعطى عبداً أعطاه ماليس له ، وإن منعه منعه ما ليس له .

قوله : « وليس بما سُئِل بأجود منه بما لم يُسأل » فيه معنى لطيف ، وذاك لأنّ هذا المعنى مما يختصّ بالبشر ، لأنهم يتحركون بالسؤال وتهزّهم الطلبات ، فيكونون بما سألهم السائل أجود منهم بما لم يسألهم إياه ، وأما البارئ سبحانه فإن جوده ليس على هذا المنهاج لأنّ جوده عامّ في جميع الأحوال .

ثم ذكر أنّ وجودَه تعالى ليس بزمانيّ ، فلا يطلق عليه البعدية والقبلية ، كما يطلق على الزمانيات ، وإنما لم يكن وجوده زمانيا لأنه لا يقبل الحركة ، والزمان من لواحق الحركة ، وإنما لم تطلق عليه البَعْدِيّة والقَبْلِيّة إذ لم يكن زمانيا ، لأنّ قولنا فى الشىء : إنه بعد الشىء الفلانىّ ، أى للموجود فى زمان حضر بعد تَقَضِّى زمان ذلك الشىء الفلانى ، وقولنا فى الشىء : إنه قبل الشىء الفلانى، أى إنه موجود فى زمان حضر ولم يحضر زمان ذلك الشىء الفلانىّ بعد ، فما ليس فى الزمان ليس يصدق عليه القَبْل والبعد الزمانيان ، فيكون تقدير الكلام على هذا : الأوّل الذى لا يصدق عليه القبلية الزّمانية ، ليمكن أن يكون شىءٌ ما قبله ، والآخِر الذى لا يصدق عليه البعدية الزمانية ، ليمكن أن يكون شىء ما بعده .

وقد يحمل الكلامُ على وجه آخر أقربَ مُتناوَلاً من هذا الوجه ، وهو أن يكون أراد : الذى لم يكن محدثاً ، أى موجوداً قد سبقه عدم ، فيقال إنه مسبوق بشىء من الأشياء إما المؤثر فيه أو الزمان المقدم عليه ، وأنه ليس بذات يمكن فناؤها وعدمها فيما لايزال ، فيقال : إنه ينقضى وينصرم ، ويكون بعده شىء من الأشياء ، إمّا الزمان أو غيره ، والوجه الأوّلُ أدق وألطف ، ويؤكد كونه مراداً قوله عقيبه : « ما اختلف عليه دهر فيختلف منه الحال » ، وذلك لأنّ واجب الوجود أعلى من الدهر والزمان ، فنسبة ذاته إلى الدهر والزمان بجملته وتفصيل أجزائه نسبة متحدة .

فإن قلت : إذا لم يكن قبل الأشياء بالزمان ولا بعدها بالزمان ؛ فهو معها بالزمان ، لأنه لا يبقى بعد نفى القَبْلية والبعدية إلا المعيّة !

قلت : إنما يلزم ذلك فيما وجوده زمانيّ ، وأمّا ما ليس زمانيا لا يلزم من نفى القبليّة والبعديّة إثبات المعيّة ، كما أنّه ما لم يكن وجوده مكانيا لم يلزم من نفى كونه فوق العالم أو تحت العالم بالمكان ، أن يكون مع العالم بالمكان .

ثم قال : « الرادع أناسيّ الأبصار عن أن تنالَه أو تدركه » ، الأناسيّ : جمع إنسان ؛ وهو المثال الذى يُرى فى السواد ؛ وهذا اللفظ بظاهره يشعر بمذهب الأشعريّة ، وهو قولهم : إنّ الله تعالى خالقَ فى الأبصار مانعاً عن إدراكه ؛ إلا أنّ الأدلّة العقلية من جانبنا اقتضتْ تأويلَ هذا اللفظ ، كما تأوّل شيوخنا قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (١) ؛ فقالوا : إلى جنّةِ ربها ؛ فنقول : تقديرُه الرادعُ أناسيَّ الأبصار أنْ تنال أنوارَ جلالته .

فإن قلت : أتثبتون له تعالى أنواراً يمكن أن تدركها الأبصار ، وهل هذا إلا قولٌ بالتجسيم !

قلت : كلاّ لا تجسيمَ فى ذلك ؛ فكما أنّ له عرشاً وكرسيًّا وليس بجسم ؛ فكذلك أنوار عظيمة فوق العرش ، وليس بجسم ، فكيف تنكر الأنوار ، وقد نطق الكتاب العزيز بها فى غير موضع ، كقوله : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ (٢) ، وكقوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ .

***

(١) سورة القيامة ٧٥ .
(٢) سورة الزمر ٦٩ .

الأصْلُ :

وَلَوْ وَهَبَ مَاتَنَفَّسَتْ عَنْهُ مَعَادِنُ الْجِبَالِ ؛ وَضَحِكَتْ عَنْهُ أَصْدَافُ الْبِحَارِ ؛ مِنْ فِلِزِّ اللُّجَيْنِ وَالْعِقْيَانِ ، وَنُثَارَةِ الدُّرِّ وَحَصِيدِ الْمَرْجَانِ ، مَا أَثَّرَ ذَلِكَ فِي جُودِهِ ، وَلَا أَنْفَدَ سَعَةَ مَاعِنْدَهُ ، وَلَكَانَ عِنْدَهُ مِنْ ذَخَائِرِ الْأَنْعَامِ ، مَالَا تُنْفِدُهُ مَطَالِبُ الْأَنَامِ ، لِأَنَّهُ الْجَوَادُ الَّذِي لَا يَغِيضُهُ (١) سُؤَالُ السَّائِلِينَ ، وَلَا يُبَخِّلُهُ إِلْحَاحُ الْمُلِحِّينَ .

***

الشَّرْحُ

هذا الكلام من تتمة الكلام الأوّل ، وهو قوله : « لا يفِرُه المنع ، ولا يكْدِيه الإعطاء والجود ». وتنفّست عنه المعادن : استعارة، كأنها لما أخرجته وولدته كانت كالحيوان يتنفّس فيخرج من صدره ورئته الهواء .

وضحكت عنه الأصداف ، أى تفتحت عنه وانشقّت ، يقال للطَّلْع حين ينشقّ : الضَّحك ، بفتح الضاد ، وإنما سمى الضاحك ضاحكا ، لأنه يفتح فاه . والفِلِزّ : اسم الأجسام الذائبة كالذهب والفضة والرصاص ونحوها. واللُّجَين : اسم الفضة جاء مُصغّرا، كالكُميت والثّريّا. والعِقْيان : الذهب الخالص ، ويقال : هو ماينبت نباتا وليس مما يحصل من الحجارة. ونُثارة الدّرّ : ماتناثر منه ، كالسُّقاطة والنُّخالة ، وتأتى «فُعالة» تارةً للجيِّد المختار ، وتارة للساقط المتروك ، فالأول نحو الخلاصة ، والثانى نحو القُلامة .

وحصيد المَرْجان : كأنه أراد المتبدّد منه كما يتبدّد الحبّ المحصود ، ويجوز أن يعنى به الصلب المحكم ، من قولهم : «شيء مستحصَد» ، أى مستحصف مستحكم ، يعنى أنه ليس برخو ولاهشّ ، ويروى: «وحَصْباء المرجان» ، والحصباء : الحصى. وأرض حَصِبة ومَحْصَبة،

(١) مخطوطة النهج : « يغيظه »

بالفتح : ذات حَصْباء . والمرجان : صغار اللؤلؤ ؛ وقد قيل إنه هذا الحجر ، واستعمله بعض المتأخّرين فقال :

أدْمَى لها المرجانُ صَفْحَةَ خَدِّه وبكى عليها اللؤلؤ المكنونُ

وتُنفده : تفنيه ، نفد الشيء أى فَنِيَ ، وأنفدته أنا . ومطالب الأنام : جمع مطلب ، وهو المصدر ، من طلبت الشيء طَلَباً ومطلبا .

ويَغيضه ، بفتح حرف المضارعة : ينقصُه ؛ ويقال : غاضَ الماء ، فهذا لازم ، وغاض الله الماء ، فهذا متعدٍّ ؛ وجاء : أغاض الله الماء .

والإلحاح : مصدر ألحّ على الأمر ، أى أقام عليه دائما ، من ألحّ السحاب ؛ إذا دام مطره ، وألحّ البعيرُ : حرَن ، كما تقول : خَلأَتِ الناقة ، وروى « ولا يُبخِله » بالتخفيف ؛ تقول : أبخلت زيدا ، أى صادفته بخيلا ؛ وأجبنته : وجدته جبانا .

وفى هذا الفصل من حسن الاستعارة وبديع الصنعة مالا خفاء به .

***

الأصْلُ :

فَانْظُرْ أَيُّهَا السَّائِلُ فَمَا دَلَّكَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِ مِنْ صِفَتِهِ فَائْتَمَّ بِهِ ، وَاسْتَضِئْ بِنُورِ هِدَايَتِهِ ، وَمَا كَلَّفَكَ الشَّيْطَانُ عِلْمَهُ ، مِمَّا لَيْسَ فِي الْكِتَابِ عَلَيْكَ فَرْضُهُ ، وَلَا فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَئِمَّةِ الْهُدَى أَثَرُهُ ، فَكِلْ عِلْمَهُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مُنْتَهَى حَقِّ اللهِ عَلَيْكَ .

وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ أَغْنَاهُمْ عَنِ اقْتِحَامِ السُّدَدِ الْمَضْرُوبَةِ دُونَ الْغُيُوبِ الْإِقْرَارُ بِجُمْلَةِ مَاجَهِلُوا تَفْسِيرَهُ مِنَ الْغَيْبِ الْمَحْجُوبِ ، فَمَدَحَ اللهُ

اعْتِرَافَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنْ تَنَاوُلِ مَالَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْماً ، وَسَمَّى تَرْكَهُمُ التَّعَمُّقَ فِيمَا لَمْ يُكَلِّفْهُمُ الْبَحْثَ عَن كُنْهِهِ رُسُوخاً ، فَاقْتَصِرْ عَلَى ذَلِكَ ، وَلَا تُقَدِّرْ عَظَمَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ عَلَى قَدْرِ عَقْلِكَ فَتَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ .

* * *

الشَّرْحُ :

تقول : ائتمّ فلان بفلان ؛ أى جعله إماما واقتدى به . فـكِلْ علمه ؛ من وكلَه إلى كذا وكلاً ووُكولا ؛ وهذا الأمر موكول إلى رأيك . والاقتحام : الهجوم والدخول مغالبة. والسُّدد المضروبة : جمع سُدّة ؛ وهى الرّتاج .

واعلم أنّ هذا الفصل يمكن أن تتعلق به الحشويّة المانعون من تأويل الآيات الواردة فى الصفات ، القائلين بالجمود على الظواهر ، ويمكن أيضا أن يتعلّق به مَنْ نفى النظر وحرّمه أصلا ؛ ونحن قبل أن نحققه ونتكلّم فيه نبدأ بتفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾[1] ؛ فنقول :

إن مِنَ النّاسِ من وقف على قوله : ﴿ إلا اللهُ ﴾ ، ومنهم من لم يقف على ذلك ، وهذا القول أقوى من الأوّل ؛ لأنه إذا كان لا يعلم تأويل المتشابه إلا الله لم يكن فى إنزاله ومخاطبة المكلّفين به فائدة ، بل يكون كخطاب العربىّ بالزنجية ، ومعلوم أنّ ذلك عيب قبيح .

فإن قلتَ : فما الذى يكون موضع ﴿ يقُولُون ﴾ من الإعراب ؟

قلت : يمكن أن يكون نصبا على أنه حال من الراسخين ، ويمكن أن يكون كلاما مستأنفا ، أى هؤلاء العالمون بالتأويل ، يقولون : آمنّا به .

---

(١) سورة آل عمران ٧ .

وقد روى عن ابن عباس أنه تأوّل آية ، فقال قائل من الصحابة : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ ﴾ ، فقال ابن عباس : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ ، وأنا من جملة الراسخين .

ثم نعود إلى تفسير كلام المؤمنين عليه السلام فنقول :

إنه غضب وتغيّر وجهه لقول السائل : صِفْ لنا ربّنا مثل ما نراه عيانا ، وإذا هذا المعنى ينصرف وصيّة له بما أوصاه به من اتباع ما جاء فى القرآن والسنّة ، وذلك لأنّ العلم الحاصل من رؤية الشىء عيانا ، عِلْمٌ لا يمكن أن يتعلّق مثله بالله سبحانه ، لأن ذاته تعالى لايمكن أن تُعْلَمَ من حيث هى هى ، كما تعلم المحسوسات ، ألا ترى أنّا إذا علمنا أنه صانع العالم ،وأنه قادر عالم حىّ سميع بصير مريد ، وأنه ليس بجسم ولا جوهر ولا عَرَض ،وعلمنا جميعَ الأمور السلبية والإيجابية المتعلقة به ، فإنما علمنا سُلوبا وإضافات ، ولاشك أنّ ماهية الموصوف مغايرة لماهية الصفات ، والذوات المحسوسة بخلاف ذلك ، لأنّا إذا رأينا السّوَاد ، فقد علمنا نفس حقيقة السواد لاصفة من صفات السواد ؛ وأيضا فإنّا لو قدرنا أنّ العلم بوجوده وصفاته السلبية والإيجابية ، يستلزم العلم بذاته ، من حيث هى هى لم يكن عالما بذاته علما جزئيا ، لأنّه يمكن أن يصدُق هذا العلم على كثيرين ، على سبيل البدل ، وإذا ثبت أنه يستحيلُ أن يصدُق على كثيرين على سبيل البدل ، ثبتَ أنّه يستحيلُ أن يصدُق على كثيرين على سبيل الجمع ، والعلم بالمحسوس يستحيلُ أن يصدق على كثيرين لاعلى سبيل الجمع ، ولا على سبيل البدل ، فقد بانَ أنه يستحيل أن يعلم الله تعالى كما يعلم الشىء المرئىّ عيانا ، فأمير المؤمنين عليه السلام أنكر هذا السؤال كما أنكره الله تعالى على بنى إسرائيل لماطلبوا الرؤية ،قال تعالى:﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ [1] .

---

(١) سورة البقرة ٥٥ .

ثم قال للسائل بعد غضبه واستحالة لونه وظهور أثر الإنكار عليه: مادلَّك القرآنُ عليه من صفته فخُذْ به ، فإن لم تجده فى الـكتاب فاطلبه من السنّة ومن مذاهب أئمة الحق ، فإن لم تجد ذلك ، فاعلم أنّ الشيطان حينئذ قد كلّفك علمَ مالم يكلفك الله علمه ؛ وهـذا حقّ ؛ لأن الـكتاب والسنّة قد نطقا بصفات الله من كونه عالما قادراً حيّاً مريداً سميعا بصيرا ، ونطقا أيضا بتنزيهه عن سِمات الحُدُوث كالجسيمة والحلول والجهة ؛ وما استلزم الجهة كالرؤية فلا إنـكارَ على مَنْ طلب فى مدارك العقول وجوها تعضّدُ ماجاء به القرآن والسنّة ، وتوفّق بَيْن بعض الآيات وبعض ؛ وتحمل أحدَ اللفظين على الآخر إذا تناقضا فى الظاهر ، صيانةً لـكلام الحكيم عن التهافت والتعارض . وأما مالم يأتِ الـكتاب والسنة فيه بشىء فهو الذى حُرّم وحُظِر على المـكلّفين الفـكر فيه ؛ كالـكلام فى الماهيّة التى يذهب ضرار المتكلم إليها ، وكإثبات صفات زائدة على الصفات المعقولة لذات البارئ سبحانه ، وهى على قسمين:

أحدُها : مالم يرِدْ فيه نصّ ؛ كإثبات طائفة تعرف بالماتريدية صفةً سمّوْها التـكوين زائدة على القدرة والإرادة .

والثانى : ماورد فيه لفظ فأخطأ بعضُ أهل النظر ، فأثبت لأجل ذلك اللفظة صفة غير معقولة للبارئ سبحانه ، نحو قول الأشعريّين : إنّ اليدين صفة من صفات الله ، والاستواء على العرش صفة من صفات الله ، وإنّ وجه الله صفة من صفاته أيضا ، ثم قال : إن الراسخين فى العلم الذين غنوا بالإقرار بما عرفوه عن الولوج والتقحّم فيما لم يعرفوه ، وهؤلاء هم أصحابنا المعتزلة لاشبهة فى ذلك ، ألا ترى أنّهم يعللون أفعال الله تعالى بالحِـكم والمصالح ، فإذا ضاق عليهم الأمر فى تفصيل بعض المصالح فى بعض المواضع ، قالوا : نعلم على الجملة أنّ لهذا وجهَ حكمة ومصلحة ، وإن كنا لانعرف تفصيل تلك المصلحة ، كما يقولون فى تـكليف مَنْ يعلم الله تعالى منه أنه يكفر ، وكما يقولون فى اختصاص الحال التى حدث فيها العالم بحدوثه دون ماقبلها وما بعدها .

وقد تأول القطب الراوندى كلامَ أمير المؤمنين فى هذا الفصل ، فقال : إنما أنكر على من يقول : لم تعبَّد اللهُ المكلَّفين بإقامة خمس صلوات ؛ وهلا كانت ستا أو أربعا ! ولم جعلَ الظهر أربع ركعات ، والصبح ركعتين ؟ وهلّا عكس الحال ! وهذا التأويل غيرُ صحيح ، لأنه عليه السلام إنما أخرج هذا الكلام مخرج المنكِر عَلَى مَنْ سأله أن يصف له البارئ سبحانه ، ولم يكن السائل قد سأل عن العِلّة فى أعداد الصَّلاة وكمية أجزاء العبادات.

ثم إنه عليه السلام قد صرّح فى غُضونِ الكلام بذلك؛ فقال : فانظر أيها السائل، فما دلّك القرآن عليه من صفته فائتمّ به، وما لم يدلك عليه فليس عليك أن تخوض فيه ، وهذا الكلام تصريحٌ بأنّ البحث إنما هو فى النظر العقلىّ فى فنّ الكلام ، فلا يجوز أن يحمل على ما هو بمعزل عنه .

واعلم أننا نتساهل فى ألفاظ المتكلمين، فنوردها بعباراتهم، كقولهم فى «المحسوسات» والصواب « المحسّات » ؛ لأنه لفظ المفعول من «أحسّ» الرباعى، لكنا لما رأينا العدول عن ألفاظهم إذا خضنا فى مباحثهم مستهجَناً عَبّرنا بعباراتهم على علم منّا أنّ العربية لا تسوغُها.

***

الأصْلُ :

هُوَ ٱلْقَادِرُ ٱلذِى إِذَا ٱرْتَمَتِ ٱلْأَوْهَامُ لِتُدْرِكَ مُنْقَطَعَ قُدْرَتِهِ ، وَحَاوَلَ ٱلْفِكْرُ ٱلْمُبَرَّأُ مِنْ خَطَرِ ٱلْوَسَاوِسِ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ فِى عَمِيقَاتِ غُيُوبِ مَلَكُوتِهِ ، وَتَوَلَّهَتِ ٱلْقُلُوبُ إِلَيْهِ ، لِتَجْرِىَ فِى كَيْفِيَّةِ صِفَاتِهِ ،وَغَمُضَتْ مَدَاخِلُ ٱلْعُقُولِ فِى حَيْثُ لَا تَبْلُغُهُ ٱلصِّفَاتُ لِتَنَاوُلِ عِلْمِ ذَاتِهِ ـ رَدَعَهَا وهى تَجُوبُ مَهَاوِىَ سُدَفِ ٱلْغُيُوبِ ، مُتَخَلِّصَةً إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ؛ فَرَجَعَتْ إِذْ جُبِهَتْ مُعْتَرِفَةً بِأَنَّهُ لَا يُنَالُ بِجَوْرِ الاعْتِسَافِ كُنْهُ مَعْرِفَتِهِ ، وَلَا تَخْطُرُ بِبَالِ أُولِى الرَّوِيَّاتِ خَاطِرَةٌ مِنْ تَقْدِيرِ جَلَالِ عِزَّتِهِ .

***

الشرح :

ارتمت الأوهام ، أى ترامَت ؛ يقال : ارتمى القوم بالنَّبل؛ أى تراموا ، فشبّه جوَلان الأوهام والأفكار وتعارضها بالترامى .

وخَطْر الوساوس، بتسكين الطاء ؛ مصدر خَطَر له خاطر، أى عرض فى قلبه،وروى « من خطَرات الوساوس » .

وتولّهت القوب إليه : اشتدّ عِشقها حتى أصابها الوَله وهو الحيرة .

وقوله : « لتجرى فى كيفية صفاته » ، أى لتصادف مجرًى ومسلكا فى ذلك؛ وغمضت مداخلُ العقول ، أى غَمض دخولها ، ودق فى الأنظار العميقة التى لاتبلغ الصفات كنهَها لدقّتها وغموضها طالبة أن تنال معرفته تعالى .

ولفظة « ذات » لفظة قد طال فيها كلام كثير من أهل العربية ، فأنكر قومٌ إطلاقها على الله تعالى وإضافتها إليه ، أمّا إطلاقها فلأنّها لفظة تأنيث ؛ والبارئ سبحانه منزّه عن الأسماء والصفات المؤنثة ؛ وأما إضافتها فلأنّها عين الشىء ؛ والشىء لا يضاف إلى نفسه. وأجاز آخرون إطلاقها فى البارئ تعالى وإضافتها إليه ، أما استعمالها فلوجهين :

أحدها أنها قد جاءت فى الشعر القديم ، قال خُبيب الصحابىّ عند صَلْبه :

وذلك فى ذاتِ الإله وإن يشأ ... يُبارك على أوصال شلوٍ موزّعِ [1]

ويروى « ممزّع [2] » ، وقال النابغة :

محلّتهمْ ذاتُ الإله ودينُهمْ ... قديمٌ فما يخشَوْن غير العواقب [3]

والوجه الثانى أنها لفظة اصطلاحية، فجاز استعمالها لا على أنها مؤنث « ذو » بل تستعمل

---

(١) هو خبيب بن عدى الأنصارىّ ، من قصيدة أوردها ابن عبد البر فى الاستيعاب ٤١١ .
(٢) هى رواية الاستيعاب . (٣) ديوانه ٨ .

ارتجالا فى مسماها الذى عَبّر عنه بها أرباب النظر الإلهىّ ، كما استعملوا لفظ الجوهر والعرَض وغيرهما فى غير ما كان أهل العربية واللغة يستعملونها فيه .

وأما منعهم إضافتها إليه تعالى ، وأنه لا يقال : « ذاته » ؛ لأنّ الشىء لا يضاف إلى نفسه فباطل بقولهم : أخذتْهُ نفسه وأخذته عينه ؛ فإنه بالاتفاق جائز ، وفيه إضافة الشىء إلى نفسه .

ثم نعود إلى التفسير :

قوله عليه السلام : «ردعها» ، أى كفّها . وتجوب ، أى تقطع . والمهاوى : المهالك ؛ الواحدة مَهْوَاة بالفتح ، وهى ما بين جبلين أو حائطين ونحو ذلك . والسُّدَف : جمع سُدْفة ، وهى القطعة من الليل المظلم . وجُبهت ، أى رُدّت ، وأصله مِنْ جَبْهتُه ، أى صَكَكْتُ جبهتَه . والجَوْر : العدول عن الطريق . والاعتساف : قَطْع المسافة على غير جادّة معلومة .

وخُلاَصة هذا الفصل أنّ العقول إذا حاولت أن تدرِك متى ينقطع اقتداره على المقدَرات نكصتْ عن ذلك ، لأنه قادر أبداً دائماً على ما لا يتناهى ؛ وإذا حاول الفِكْر الذى قد صفا وخلا عن الوساوس والعوائقِ أنْ يدرك مغيّبات عِلْمِه تعالى كَلّ وحَسَر ورجع ناقصا أيضاً ؛ وإذا اشتدّ عشق النفوس له ، وتولّهت نحوه لتسلك مسلكا تقِف منه على كيفية صفاته عجزت عن ذلك ؛ وإذا تغلغلت العقول ، وغَمَضت مداخلُها فى دقائق العلوم النظرية الإلهيّة التى لا توصف لدقّتها طالبة أن تعلم حقيقة ذاته تعالى ، انقطعت وأعيت ، وردّها سبحانه وتعالى وهى تجول وتقطع ظلماتِ الغيب لتخلُص إليه ، فارتدّتْ حيث جَبّهها وردعها ، مُقِرّة معترِفة بأن إدراكه ومعرفته لا تُنالُ باعتساف المسافات التى بينها وبينه ؛ وإن أرباب الأفكار والرويات يتعذّر عليهم أن يخطِر لهم خاطر يطابق ما فى الخارج من تقدير جلال عزته ؛ ولا بدّ من أخذ هذا القيد فى الكلام ؛ لأن أرباب الأنظار

لا بدّ أن تخطر لهم الخواطر فى تقدير جلال عِزّته ؛ ولكن تلك الخواطر لا تكون مطابقة لها فى الخارج ؛ لأنها خواطر مستندُها الوهم لا العقل الصريح ؛ وذلك لأنّ الوهم قد ألف الحِسّيات والمحسوسات ، فهو يعقل خواطر بحسب ما ألفه من ذلك ؛ وجلالُ واجبِ الوجود أعلى وأعظم من أن يتطرّق الوهمُ نحوه ؛ لأنه برىء من المحسوسات سبحانه ؛ وأما العقل الصريح فلا يدرِك خصوصية ذاته لما تقدّم .

واعلم أن قوله تعالى : ﴿ فَارْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾[1] فيه إشارة إلى هذا المعنى، وكذلك قوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِنْ عِلْمِهِ ﴾[2] .

***

الأصلُ :

الَّذِى ٱبْتَدَعَ ٱلْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ ٱمْتَثَلَهُ، وَلَا مِقْدَارٍ ٱحْتَذَى عَلَيْهِ مِنْ خَالِقٍ مَعْبُودٍ كَانَ قَبْلَهُ ، وَأَرَانَا مِنْ مَلَكُوتِ قُدْرَتِهِ ، وَعَجَائِبِ مَا نَطَقَتْ بِهِ آثَارُ حِكْمَتِهِ ، وَٱعْتِرَافِ ٱلْحَاجَةِ مِنَ ٱلْخَلْقِ إِلَى أَنْ يُقِيمَهَا بِمِسَاكِ قُوَّتِهِ ؛ مَادَلَّنَا بِاضْطِرَارِ قِيَامِ ٱلْحُجَّةِ لَهُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ ، فَظَهَرَتْ فِي ٱلْبَدَائِعِ ٱلَّتِي أَحْدَثَهَا آثَارُ صَنْعَتِهِ ، وَأَعْلَامُ حِكْمَتِهِ ، فَصَارَ كُلُّ مَاخَلَقَ حُجَّةً لَهُ ، وَدَلِيلاً عَلَيْهِ ؛ وَإِنْ كَانَ خَلْقاً صَامِتاً؛ فَحُجَّتُهُ بِالتَّدْبِيرِ نَاطِقَةٌ ، وَدَلَالَتُهُ عَلَى ٱلْمُبْدِعِ قَائِمَةٌ .

***

---

(١) سورة الملك ٣ ، ٤ .

(٢) سورة البقرة ٢٥٥ .

الشرح :

المِساك ، بكسر الميم : مايمسَك ويعصَم به .

وقوله : « ابتدع الخلق على غير مثال امتثله » يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يريد بـ « امتثله » مثله ، كما تقول : صنعت واصطنعت بمعنى ، فيكون التقدير أنّه لم يمثِّل لنفسِهِ مثالا قبل شروعه فى خلق العالم ؛ ثم احتذى ذلك المثال ؛ ورُكّب العالم على حسب ترتيبه ، كالصانع الذى يصوغ حلْقة من رصاص مثالا ، ثم يصوغ حلقة من ذهب عليها ، وكالبنّاء يقدر ويفرض رسوماً وتقديراتٍ فى الأرض وخطوطاً ، ثم يبنى بحسبها .

والوجه الثانى : أنّه يريد بامتثَله احتذاه وتقبّله واتبعه ، والأصل فيه امتثال الأمر فى القول ، فنقل إلى احتذاء الترتيب العقلىّ ، فيكون التقدير أنّه لم يمثِّل له فاعل آخر قبله مثالا اتبعه واحتذاه وفعل نظيره ، كما يفعل التلميذ فى الصباغة والنجارة شيئاً قد مثّل له أستاذُه صورتَه وهيئته .

واعلم أنّ هذا أحدُ الأسئلة التى يذكرها أصحابنا فى باب كونه عالما ، لأنهم لما استدلُّوا على كونه تعالى عالماً بطريق إحكام العلم وإتقانه ، سألوا أنفسَهم فقالوا : لم لايجوز أن يكونَ القديم سبحانه أحدَثَ العالم محتذياً لمثال مثله ، وهيئة اقتضاها ، والمحتذِى لايجب كونه عالماً بما يفعله ، ألا ترى أنّ من لايحسِن الكتابة قد يحتذى خطا مخصوصاً ، فيكتب قريباً منه ، وكذلك من يطبع الشّمع بالخاتم ثم يطبع فيه مثال الخاتم ، فهو فعل الطابع ، ولايجب كونه عالما .

وأجاب أصحابنا عن ذلك فقالوا : إنّ أول فعل محكم وقع منه ، ثم احتذى عليه ، يكفى فى ثبوت كونه عالما ، وأيضاً فإنّ المحتذى ليست العالمية بمسلوبة عنه ، بل موصوف بها ،

ألا ترى أنه متصوّر صورة مايحتذيه ، ثم يوقع الفعل مشابها له ، فالمحتذى عالم فى الجملة ، ولكنّ علمه يحدث شيئاً فشيئاً .

فأما معنى الفصل فظاهر ، يقول عليه السلام : إنه ابتدع الخلق على غير مثال قدمه لنفسه ولا قدم له غيره ليحتذى عليه ، وأرانا من عجائب صنعته ومن اعتراف الموجودات كلّها ، بأنها فقيرة محتاجة إلى أنْ يمسكها بقوته، مادلّنا على معرفته ضرورة ، وفى هذا إشارة إلى أنّ كلّ ممكن مفتقر إلى المؤثر ، ولما كانت الموجودات كلّها غيره سبحانه ممكنة لم تكن غَنِيَّة عنه سبحانه ، بل كانت فقيرة إليه ، لأنها لولاه مابقيت ، فهو سبحانه غنىّ عن كلّ شىء ، ولا شىء من الأشياء مطلقاً بغنىّ عنه سبحانه ، وهذه من خصوصية الإلٰهية ، وأجلّ ماتدركه العقول من الأنظار المتعلقة بها .

فإن قلت : فى هذا الكلام إشعار بمذهب شيخكم أبى عثمان ، فى أنّ معرفته تعالى ضرورية .

قلت : يكاد أن يكون الكلام مشعِراً بذلك ؛ إلا أنه غير دالّ عليه ، لأنه لم يقل ما دلنا على معرفته باضطرار ، ولكن قال ما دلّنا باضطرار قيام الحجّة له على معرفته ، فالاضطرار راجعٌ إلى قيام الحجة ، لا إلى المعرفة .

ثم قال عليه السلام : وظهرت آثار صنعته ، ودلائل حكمته فى مخلوقاته فكانت وهى صامتة فى الصورة ناطقة فى المعنى بوجوده وربوبيته سبحانه ، وإلى هذا المعنى نظر الشاعر فقال :

فَوَعَجَباً كَيْفَ يُعْصَى الإلٰهُ ... أمْ كيف يجحدُه الجاحدُ ! (١)
وَفِي كُلِّ شىء لَه آيةٌ ... تَدُلُّ على أنَّهُ وَاحِدُ

---

(١) لأبى العتاهية ، ديوانه ٦٩ ، ٧٠

وقال فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [1] : إنه عبارة عن هذ المعنى .

* * *

الأَصْلُ :

فَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ شَبَّهَكَ بِتَبَايُنِ أَعْضَاءِ خَلْقِكَ ، وَتَلَاحُمِ حِقَاقِ مَفَاصِلِهِمُ الْمُحْتَجِبَةِ لِتَدْبِيرِ حِكْمَتِكَ ، لَمْ يَعْقِدْ غَيْبَ ضَمِيرِهِ عَلَى مَعْرِفَتِكَ ، وَلَمْ يُبَاشِرْ قَلْبَهُ الْيَقِينُ بِأَنَّهُ لَا نِدَّ لَكَ ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ تَبَرُّؤَ التَّابِعِينَ عَنِ الْمَتْبُوعِينَ ؛ إِذْ يَقُولُونَ : ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ؛ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . كَذَبَ الْعَادِلُونَ بِكَ ، إِذْ شَبَّهُوكَ بِأَصْنَامِهِمْ ، وَنَحَلُوكَ حِلْيَةَ الْمَخْلُوقِينَ بِأَوْهَامِهِمْ ، وَجَزَّءُوكَ تَجْزِئَةَ الْمُجَسَّمَاتِ بِخَوَاطِرِهِمْ ، وَقَدَّرُوكَ عَلَى الْخِلْقَةِ الْمُخْتَلِفَةِ الْقُوَى بِقَرَائِحِ عُقُولِهِمْ .

وَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ سَاوَاكَ بِشَىْءٍ مِنْ خَلْقِكَ فَقَدْ عَدَلَ بِكَ ، وَالْعَادِلُ بِكَ كَافِرٌ بِمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ مُحْكَمَاتُ آيَاتِكَ ، وَنَطَقَتْ عَنْهُ شَوَاهِدُ حُجَجِ بَيِّنَاتِكَ ، وَأَنْتَ اللَّهُ الَّذِى لَمْ تَتَنَاهَ فِى الْعُقُولِ ؛ فَتَكُونَ فِى مَهَبِّ فِكْرِهَا مُكَيَّفاً ، وَلَا فِى رَوِيَّاتِ خَوَاطِرِهَا مَحْدُوداً مُصَرَّفاً .

* * *

الشَّرْحُ :

حقاق المفاصل جمع حِقّة ؛ وجاء فى جمعها حِقاق وحُقق وحُق ؛ ولما قال : « بتباين أعضاء خلقك ، وتلاحم حقاق مفاصلهم » ؛ فأوقع التلاحُم فى مقابلة التباين صناعة وبديعا . وروى

(١) سورة الإسراء ٤٤ .

« المحتجّة » ، فمن قال : « المحتجّة » ، أراد أنها بما فيها من لطيف الصنعة كالمحتجة المستدلة على التدبير الحكمى من لدنه سبحانه ، ومن قال : « المحتجبة » أراد المستترة ، لأنّ تركيبها الباطن خفىّ محجوب .

والندّ : المثل . والعادلون بك : الذين جعلوا لك عَدِيلًا ونظيرا . ونحلوك : أعطوك ؛ وهى النِّحلة ، وروى : « لم يُعقَد » على ما لم يسمّ فاعله .

وغَيْب ضميره ، بالرفع . والقرائح : جمع قَرِيحة ، وهى القوة التى تستنبط بها المعقولات وأصلُه من قريحة البئر ، وهو أوّل مائها .

ومعنى هذا الفصل أنه عليه السلام شَهِد بأنّ المجسم كافر ، وأنّه لا يعرف الله ، وأن من شبه الله بالمخلوقين ذوى الأعضاء المتباينة ، والمفاصل المتلاحمة ، لم يعرفه ولم يباشر قلبه اليقين ، فإنّه لا ندّ له ولا مِثْل ، ثم أكّد ذلك بآيات من كتاب الله تعالى ، وهى قوله تعالى : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُون * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ(١) ﴾ . حكى سبحانه حكاية قول الكفّار فى النار ؛ وهم التّابعون للذين أغووهم من الشياطين وهم المتبوعون . لقد كنّا ضالين إذ سوينا كم بالله تعالى ، وجعلنا كم مثله ، ووجه الحُجّة أنه تعالى حكى ذلك حكاية منكِرٍ على مَنْ زعم أن شيئا من الأشياء يجوز تسويته بالبارى سبحانه ، فلو كان البارى سبحانه جسما مصوّرا ، لكان مشابها لسائر الأجسام المصوّرة ، فلم يكن لإنكاره على من سواه بالمخلوقات معنى .

ثم زاد عليه السلام فى تأكيد هذا المعنى ، فقال : كذب العادلون بك ، المثبتون لك نظيراً وشبيها ، يعنى المشبِّهة والمجسّمة ، إذ قالوا : إنك على صورة آدم ، فشبّهوك بالأصنام التى

(١) سورة الشعراء ٩٤ — ٩٨ .

كانت الجاهلية تعبدها ، وأعطوك حلية المخلوقين لما اقتضت أوهامهم ذلك ، من حيث لم يألفوا أن يكون القادر الفاعل العالم إلّا جسما ، وجعلوك مركبا ومتجزئا ، كما تتجزأ الأجسام ، وقدروك على هذه الخلقة ، يعنى خلقة البشر المختلفة القُوى ، لأنها مركبة من عناصر مختلفة الطبائع . ثم كرّر الشهادة فقال : أشهد أنّ مَنْ ساواك بغيرك ، وأثبت أنك جوهر أو جسم فهو عادل بك كافر . وقالت تلك الخارجية للحجاج : « أشهدُ أنك قاسط عادل » ، فلم يفهم أهلُ الشام حوله ما قالت ، حتى فسّره لهم ، قال عليه السلام فمن يذهب إلى هذا المذهب فهو كافر بالكتاب ، وبما دلّت عليه حجج العقول . ثم قال : وإنك أنت الله ، أى وأشهد أنك أنت الله الذى لم تحِط العقولُ بك ، كإحاطتها بالأشياء المتناهية ، فتكون ذا كيفية .

وقوله : « فى مهبّ فكرها » استعارة حسنة ، ثم قال : « ولا فى رَوِيّات خواطرها » ، أى فى أفكارها . محدودا ، ذا حدّ مُصَرّفا ، أى قابلا للحركة والتغير .

وقد استدلّ بعضُ المتكلّمين على نفى كون البارئ — سبحانه — جسما بما هو مأخوذ من هذا الكلام ، فقال : لو جاز أن يكون البارئ جسما ، لجاز أن يكونَ القمر هو إله العالم ، لكن لا يجوز أن يكون القمر إله العالم ، فلا يجوز أن يكون البارى جِسْماً ، بيان الملازمة أنّه لو جاز أن يكون البارئ سبحانه جسما ، لما كان بيْن الإلهية وبين الجسمية منافاة عقلية ، وإذا لم يكن بينهما منافاة عقلية أمكن اجتماعُهما ، وإذا أمكن اجتماعهما جاز أن يكون القمر هُوَ إله العالم ، لأنه لا مانع من كونه إله العالم إلا كونه جسما يجوز عليه الحركة ، والأفول ، ونقصان ضوئه تارة ، وامتلاؤه أخرى ، فإذا لم يكن ذلك منافيا للإلهية ، جاز أن يكون القمر إله العالم ، وبيان الثانى إجماعُ المسلمين على كفرِ من أجاز كون القمر إله العالم ، وإذا ثبتت الملازمة وثبتت المقدّمة الثانية فقد تمت الدلالة .

***

الأصْـلُ :

ومنها :

قَدَّرَ مَاخَلَقَ فَأَحْكَمَ تَقْدِيرَهُ ، وَدَبَّرَهُ فَأَلْطَفَ تَدْبِيرَهُ ، وَوَجَّهَهُ لِوِجْهَتِهِ فَلَمْ يَتَعَدَّ حُدُودَ مَنْزِلَتِهِ ، وَلَمْ يَقْصُرْ دُونَ الانْتِهَاءِ إِلَى غَايَتِهِ ، وَلَمْ يَسْتَصْعِبْ إِذْ أُمِرَ بِالْمُضِيِّ عَلَى إِرَادَتِهِ ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا صَدَرَتِ الْأُمُورُ عَنْ مَشِيئَتِهِ ! الْمُنْشِئُ أَصْنَافَ الْأَشْيَاءِ بِلَا رَوِيَّةِ فِكْرٍ آلَ إِلَيْهَا ، وَلَا قَرِيحَةِ غَرِيزَةٍ أَضْمَرَ عَلَيْهَا ، وَلَا تَجْرِبَةٍ أَفَادَهَا مِنْ حَوَادِثِ الدُّهُورِ ، وَلَا شَرِيكٍ أَعَانَهُ عَلَى ابْتِدَاعِ عَجَائِبِ الْأُمُورِ ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ وَأَذْعَنَ لِطَاعَتِهِ ، وَأَجَابَ إِلَى دَعْوَتِهِ ، لَمْ يَعْتَرِضْ دُونَهُ رَيْثُ الْمُبْطِىءِ ، وَلَا أَنَاةُ الْمُتَلَكِّىءِ ، فَأَقَامَ مِنَ الْأَشْيَاءِ أَوَدَهَا ، وَنَهَجَ حُدُودَهَا ، وَلَاءَمَ بِقُدْرَتِهِ بَيْنَ مُتَضَادِّهَا ، وَوَصَلَ أَسْبَابَ قَرَائِنِهَا ، وَفَرَّقَهَا أَجْنَاساً ، مُخْتَلِفَاتٍ فِي الْحُدُودِ وَالْأَقْدَارِ ، وَالْغَرَائِزِ وَالْهَيْئَاتِ ، بَدَايَا خَلَائِقَ أَحْكَمَ صُنْعَهَا ، وَفَطَرَهَا عَلَى مَاأَرَادَ وَابْتَدَعَهَا .

***

الشَّرْحُ :

الوِجْهة ، بالكسر : الجهة التي يتوجّه نحوها ، قال تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ موَلِّيهَا ﴾ (١) .

والرَّيْث : البطء والمتلكّىء : المتأخر . والأوَد : الاعوجاج . ولاءم بين كذا وكذا ، أي جمع ، والقرائن هنا : الأنفس ، واحدتها قَرونة وقَرينة ، يقال : سمحت قرينته وقَرونته ؛ أي أطاعته نفسُه وذلّت ، وتابعته على الأمر . وبدايا . ها هنا : جمع بدية ،

---

(١) البقرة ١٤٨ .

وهى الحالة العَجيبة ، أبدأ الرجل إذا جاء بالأمر البدىء ، أى المعجِب ، والبديّة أيضاً : الحالة المبتدأة المبتكرة ، ومنه قولهم : فَعَلَه بادئَ ذى بَدِىء على وزن « فعيل » ، أى أوّل كلّ شيء . ويمكن أن يحملَ كلامُه أيضاً على هذا الوجه .

وأما خلائق ؛ فيجوز أن يكون أضاف « بدايا » إليها ؛ ويجوز ألاّ يكون أضافه إليها ، بل جعلها[1] بدلاً من « أجناسا » . ويروى « برايا » جمع بريّة . يقول عليه السلام : إنّه تعالى قَدّر الأشياء التى خلقها، فخلقها محكمة على حَسَب ما قدّر . وألطف تدبيرها، أى جعله لطيفا ، وأمضى الأمور إلى غاياتها وحدودها المقدّرة لها ، فهيأ الصَّقْرة للاصطياد ، والخيل للركوب والطّراد ، والسيف للقَطْع ، والقلم للكتابة ، والفَلَكَ للدوران ونحو ذلك ، وفى هذا إشارة إلى قول النبىّ صلى الله عليه وآله : « كلٌّ ميسّرٌ لما خلق له » ؛ فلم تتعدّ هذه المخلوقات حدود منزلتها التى جعلت غايتها، ولا قصرت دون الانتهاء إليها ، يقول : لم تقف على الغاية ولا تجاوزتها . ثم قال : ولا استصعبتْ وامتنعت إذا أمرها بالمضىّ إلى تلك الغاية بمقتضى الإرادة الإلهية ، وهذا كلّه من باب المجاز ؛ كقوله تعالى : ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ[2]﴾ .

وخلاصة ذلك ، الإبانة عن نفوذ إرادته ومشيئته .

ثم علّل نفى الاستصعاب فقال : وكيف يَستصعب ، وإنما صدرت عن مشيئته ! يقول : إذا كانت مشيئتهُ هى المقتضيَة لوجود هذه المخلوقات ، فكيف يُسْتَصْعَبُ عليه بلوغها إلى غاياتها التى جعلت لأجلها ، وأصلُ وجودها إنما هو مشيئته ، فإذا كان أصل وجودها بمشيئته ، فكيف يستصعب عليه توجيهها لوجهتها ، وهو فرع من فروع وجودها وتابع له !

---

(١) ا : « يجعلها » .

(٢) سورة فصلت ١١ .

ثم أعاد معانيَ القول الأول ، فقال : إنه أنشأ الأشياء بغير روية ولا فكرة ولا غريزة أضمر عليها خَلْق ما خلق عليها . ولا تجربة أفادها ، أى استفادها من حوادث مرّت عليه من قبلُ ، كما تكسب التجارب علوماً لم تكن ، ولا بمساعدة شريك أعانه عليها . فتمّ خلقُه بأمره إشارة إلى قوله : « ولم يستصعب إذ أمر بالمضىّ » ؛ فلما أثبت هناك كونها أُمِرت أعاد لفظ الأمر ها هنا ، والكلّ مجاز ، ومعناه نفوذ إرادته ، وأنه إذا شاء أمراً استحال ألّا يقع ، وهذا المجاز هو المجازُ المستعمَل فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[1] ؛ تعبيرا بهذا اللفظ عن سرعة مواتاة الأمور له ، وانقيادها تحت قدرته .

ثم قال : ليس كالواحد منا يعترض دون مراده رَيْث وبطء ، وتأخير والتواء . ثم قال : وأقام العِوج وأوضح الطريق ، وجمع بين الأمور المتضادّة ، ألا ترى أنه جمع فى بدَن الحيوانات والنبات بين الكيفيات المتباينة المتنافرة ، من الحرارة والبرودة ، والرطوبة واليبوسة ، ووصلَ أسباب أنفسها بتعديل أمزجتها ، لأن اعتدال المزاج أو القرب من الاعتدال سببُ بقاء الروح ، وفرّقها أجناساً مختلفات الحدود والأقدار ، والخلق والأخلاق والأشكال . أمورٌ عجيبة بديعة مبتكرة الصنعة ، غير محتذٍ بها حَذْوَ صانع سابق ، بل مخلوقة على غير مثال ، قد أحكم سبحانه صنعها ، وخَلَقَها على موجب ما أراد ، وأخرجها من العدم المحض إلى الوجود ، وهو معنى الابتداع ، فإنّ الخلق فى الاصطلاح النظرىّ على قسمين : أحدهما صورة تخلق فى مادة ، والثانى ما لا مادّة له ، بل يكون وجودُ الثانى من الأول فقطْ ، من غير توسّط المادة ، فالأول يسمّى التكوين ، والثانى يسمى الإبداع ، ومرتبة الإبداع أعلى من مرتبة التكوين .

***

(١) سورة يس ٨٢ .

الأصل :

ومنها فى صفة السماء :

وَنَظَمَ بِلاَ تَعْلِيقٍ رَهَوَاتِ فُرَجِهَا ، وَلاَحَمَ صُدُوعَ انْفِرَاجِهَا ، وَوَشَّجَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَزْوَاجِهَا ، وَذَلَّلَ لِلْهَابِطِينَ بِأَمْرِهِ ، وَالصَّاعِدِينَ بِأَعْمَالِ خَلْقِهِ حُزُونَةَ مِعْرَاجِهَا ، وَنَادَاهَا بَعْدَ إِذْ هِيَ دُخَانٌ ، فَالْتَحَمَتْ عُرَا أَشْرَاجِهَا ، وَفَتَقَ بَعْدَ الاِرْتِتَاقِ صَوَامِتَ أَبْوَابِهَا ، وَأَقَامَ رَصَداً مِنَ الشُّهُبِ الثَّوَاقِبِ عَلَى نِقَابِهَا ، وَأَمْسَكَهَا مِنْ أَنْ تَمُورَ فِي خَرْقِ الْهَوَاءِ بِأَيْدِهِ ، وَأَمَرَهَا أَنْ تَقِفَ مُسْتَسْلِمَةً لِأَمْرِهِ ، وَجَعَلَ شَمْسَهَا آيَةً مُبْصِرَةً لِنَهَارِهَا ، وَقَمَرَهَا آيَةً مَمْحُوَّةً مِنْ لَيْلِهَا ، وَأَجْرَاهُمَا فِي مَنَاقِلِ مَجْرَاهُمَا ، وَقَدَّرَ سَيْرَهُمَا[1] فِي مَدَارِجِ دَرَجِهِمَا ، لِيُمَيِّزَ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِهِمَا ، وَلِيُعْلَمَ عَدَدُ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ بِمَقَادِيرِهِمَا ، ثُمَّ عَلَّقَ فِي جَوِّهَا فَلَكَهَا ، وَنَاطَ بِهَا زِينَتَهَا ، مِنْ خَفِيَّاتِ دَرَارِيِّهَا ، وَمَصَابِيحِ كَوَاكِبِهَا ، وَرَمَى مُسْتَرِقِي السَّمْعِ بِثَوَاقِبِ شُهُبِهَا ، وَأَجْرَاهَا عَلَى أَذْلاَلِ تَسْخِيرِهَا ، مِنْ ثَبَاتِ ثَابِتِهَا ، وَمَسِيرِ سَائِرِهَا ، وَهُبُوطِهَا وَصُعُودِهَا ، وَنُحُوسِهَا وَسُعُودِهَا .

***

الشرح :

الرَّهَوات : جمع رَهْوة ، وهى المكان المرتفع والمنخفض أيضا ، يجتمعُ فيه ماء المطر ، وهو من الأضداد . والفُرَج : جمع فُرْجة ، وهى المكان الخالى . ولاحم : ألصق . والصَّدْع : الشَّق . ووَشَّجَ ، بالتشديد ، أى شبك . ووشجت العروقُ والأغصان ، بالتخفيف : اشتبكت ، وبيننا رحم واشِجة ، أى مشتبكة .

وأزواجها : أقرانها وأشباهها ، قال تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاَثَةً ﴾[2] ، أى أصنافا ثلاثة .

---

(١) مخطوطة النهج : « مسيرهما » .

(٢) سورة الواقعة ٧ .

والحُزونة : ضدّ السّهولة . وأشراجُها : جمع شَرَج ؛ وهو عُرا العَيْبة ؛ وأشرجتُ العيبة، أى أقفلت أشراجَها، وتسمى مجرّة السماء شَرَجا ؛ تشبيها بشَرَج العَيْبة ؛ وأشراج الوادى: ماانفسح منه واتسع .

والارتتاق : الارتتاج . والنقاب : جمع نَقْب ؛ وهو الطريق فى الجبل. وتَمُور : تتحرك وتذهب وتجىء ؛ قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً ﴾ [1] والأيْدُ : القوة. ونَاطَ بها : عَلَق . والدّرارىّ : الكواكب المضيئة ، نسبت إلى الدُّرّ لبياضها؛ واحدها دُرّىّ، ويجوز كسر الدال ، مثل بحر لُجىّ ولِجىّ .

والثواقب : المضيئات . وتقول : افعل ماأمرتُك على أذلاله ، أى على وجهه ؛ ودَعْه فى أذلاله ؛ أى على حاله ، وأمور الله جارية على أذلالها ؛ أى على مجاريها وطرقها .

يقول عليه السلام : كانت السماء أوّل ماخلقت غير منتظمة الأجزاء ، بل بعضُها أرفعُ وبعضها أخفَض ، فنظمها سبحانه ، فجعلها بسيطا واحدا ، نظْماً اقتضتْه القدرة الإلهية ؛ من غير تعليق ، أى لا كما ينظم الإنسانُ ثوباً مع ثوب ، أو عِقْدا مع عِقْد ، بالتعليق والخياطة، وألصق تلك الفروجَ والشُّقُوق ، فجعلها جسما متصلا ، وسطحا أملس لانتوءات فيه ولافُرَج ولا صُدوع ، بل جعلَ كلّ جزء منها ملتصقا بمثله ، وذلل للملائكة الهابطين بأمرِه ، والصاعدين بأعمال خلقه - لأنهم الكَتَبة الحافظون لها - حُزُونة العُروج إليها ، وهو الصعود

ثم قال : « ونادَاها بعد إذْ هى » روى بإضافة « بَعْد » إلى « إذ » وروى بضمّ « بعد » ، أى وناداها بعدذلك إذ هى دخان ؛ والأول أحسن وأصوب ، لأنها على الضمّ تكون دُخانا بعد نظمه رَهَوات فروجِها وملاحمة صدوعها؛ والحال تقتضى أنّ دخانها قبل ذلك لابعده .

---

(١) سورة الطور ٩ .

فإن قلت: ماهذا النداء ؟قلت:هو قوله : ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾(١)،فهو أمر فى اللفظ ونداء فى المعنى ، وهو على الحقيقة كناية عن سرعة الإبداع . ثم قال: وفَتَق بعد الارتتاق صوامتَ أبوابها ، هذا صريح فى أنّ للسماء أبوابا ، وكذلك قوله : « على نقابها » ،وهو مطابق لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَاءِ ﴾ (٢) والقرآن العظيم وكلام هذا الإمام المعظّم أولى بالاتباع من كلام الفلاسفة ، الذين أحالوا الخرق على الفلك . وأما إقامة الرصد من الشُّهب الثواقب ، فهو نص القرآن العزيز ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً ﴾ (٣) : والقول بإحراق الشهب للشياطين اتباعا لنص الكتاب أولى من قول الفلاسفة الذين أحالوا الانقضاض على الكواكب .

ثم قال : وأمْسَكها على الحركة بقوته ، وأمرها بالوقوف فاستمسكت ووقفت . ثم ذكره الشمس والقمر تذكرةٌ مأخوذ من قول الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ ٱللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ (٤) .

ثم ذكر الحكم فى جريان الشمس والقمر فى مجراهما تذكرةٌ مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ (٥) ، وقوله : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ (٥) ، وقوله : ﴿ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ (٦) .

---

(١) سورة فصلت ١١ .
(٢) سورة الأعراف ٤٠
(٣) سورة الجن ٨، ٩ .
(٤) سورة الإسراء ١٢ .
(٥) سورة يس ٢٨، ٢٩
(٦) سورة يونس ٥ .

ثم قال : « ثم علّق فى جوّها فلكها » ، وهذا يقتضى أنّ الفلك غير السماء ، وهو خلاف قول الجمهور ، وقد قال به قائلون ، ويمكن أن نفسر ذلك إذا أردنا موافقة قول الجمهور بأنه أراد بالفلك دائرة معدّل النهار ، فإنّها الدائرة العظمى فى الفلك الأعظم ، وهى فى الاصطلاح النظرىّ تسمى فَلَكاً .

ثم ذكر أنه زيّن السماء الدنيا بالكواكب ، وأنها رجوم لمسترِقِ السمع ، وهو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ * لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ [1] .

ثم شرح حال الدنيا فقال : « من ثبات ثابتها » ، يعنى الكواكب التى فى كُرة البروج و « مسير سائرها » ، يعنى الخمسة والنيّرين لأنها سائرة دائما

ثم قال : « وصعودها وهبوطها » ، وذلك أنّ للكواكب السيارة صعوداً فى الأوْج ، وهبوطا فى الحضيض ، فالأوّل هو البعد الأبعد عن المركز ، والثانى البعد الأقرب .

فإن قلت : ما باله عليه السلام قال : « ونحوسها وسعودها » ، وهو القائل لمن أشار عليه ألّا يحارب فى يوم مخصوص : « المنجّم كالكاهن ، والكاهن كالساحر ، والساحر كالكافر ، والكافر فى النار » ؟

قلت : إنه عليه السلام إنما أنكر فى ذلك القول عَلَى مَنْ يزعم أن النجوم مؤثّرة فى الأمور الجزئيّة ، كالذين يحكمون لأرباب المواليد وعليهم ، وكمن يحكم فى حَرْب أو سلم ، أو سفر أو مقام ، بأنه للسعد أو النحس ، وأنه لم ينكر على من قال : إنّ النجوم تؤثّر سعوداً ونحوسا فى الأمور الكلية ، نحو أن تقتضى حرًّا أو بردا ، أوتدلّ على مرض عامّ

---

(١) سورة الصافات ٦ ـ ٩

أو قحط عام ، أو مطر دائم ، ونحو ذلك من الأمور التى لا تخص إنسانا بعينه، وقد قدمنا فى ذلك الفصل مايدل على تصويب هذا الرأى ، وإفساد ماعداه .

***

الأصْلُ :

ومنها فى صفة الملائكة :

ثُمَّ خَلَقَ سُبْحَانَهُ لِإِسْكَانِ سَمٰوَاتِهِ ، وَعِمَارَةِ الصَّفِيحِ الْأَعْلَى مِنْ مَلَكُوتِهِ ، خَلْقاً بَدِيعاً مِنْ مَلَائِكَتِهِ ، وَمَلَأَ بِهِمْ فُرُوجَ فِجَاجِهَا ، وَحَشَى بِهِمْ فُتُوقَ أَجْوَائِهَا ، وَبَيْنَ فَجَوَاتِ تِلْكَ الْفُرُوجِ زَجَلُ الْمُسَبِّحِينَ مِنْهُمْ فِي حَظَائِرِ الْقُدْسِ ، وَسُتُرَاتِ الْحُجُبِ وَسُرَادِقَاتِ الْمَجْدِ ، وَوَرَاءَ ذَلِكَ الرَّجِيجِ الَّذِى تَسْتَكُّ مِنْهُ الْأَسْمَاعُ سُبُحَاتُ نُورٍ تَرْدَعُ الْأَبْصَارَ عَنْ بُلُوغِهَا فَتَقِفُ خَاسِئَةً عَلَى حُدُودِهَا .

وَأَنْشَأَهُمْ عَلَى صُوَرٍ مُخْتَلِفَاتٍ ، وَأَقْدَارٍ مُتَفَاوِتَاتٍ ، أُولِي أَجْنِحَةٍ تُسَبِّحُ جَلَالَ عِزَّتِهِ ، لَا يَنْتَحِلُونَ مَاظَهَرَ فِي الْخَلْقِ مِنْ صُنْعِهِ ، وَلَا يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ يَخْلُقُونَ شَيْئاً مَعَهُ مِمَّا انْفَرَدَ بِهِ ؛ ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[1] جَعَلَهُمُ اللهُ فِيمَا هُنَالِكَ أَهْلَ الْأَمَانَةِ عَلَى وَحْيِهِ ، وَحَمَّلَهُمْ إِلَى الْمُرْسَلِينَ وَدَائِعَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، وَعَصَمَهُمْ مِنْ رَيْبِ الشُّبُهَاتِ ، فَمَا مِنْهُمْ زَائِغٌ عَنْ سَبِيلِ مَرْضَاتِهِ .

وَأَمَدَّهُمْ بِفَوَائِدِ الْمَعُونَةِ ، وَأَشْعَرَ قُلُوبَهُمْ تَوَاضُعَ إِخْبَاتِ السَّكِينَةِ ، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْوَاباً ذُلُلاً إِلَى تَمَاجِيدِهِ ، وَنَصَبَ لَهُمْ مَنَاراً وَاضِحَةً عَلَى أَعْلَامِ تَوْحِيدِهِ ، لَمْ تُثْقِلْهُمْ مُؤْصِرَاتُ الْآثَامِ ، وَلَمْ تَرْتَحِلْهُمْ عُقَبُ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ ، وَلَمْ تَرْمِ الشُّكُوكُ بِنَوَازِعِهَا عَزِيمَةَ إِيمَانِهِمْ ، وَلَمْ تَعْتَرِكِ الظُّنُونُ عَلَى مَعَاقِدِ يَقِينِهِمْ ، وَلَا قَدَحَتْ قَادِحَةُ الْإِحَنِ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَلَا سَلَبَتْهُمُ الْحَيْرَةُ مَالَاقَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِضَمَائِرِهِمْ ، وَمَا سَكَنَ مِنْ عَظَمَتِهِ

---

(١) سورة الأنبياء ٢٦ ، ٢٧ .

وَهَيْبَةِ جَلَالِهِ فِي أَثْنَاءِ صُدُورِهِمْ ، وَلَمْ تَطْمَعْ فِيهِمُ الْوَسَاوِسُ فَتَقْتَرِعَ بِرَيْنِهَا عَلَى فِكْرِهِمْ .

وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي خَلْقِ الْغَمَامِ الدُّلَّحِ ، وَفِي عِظَمِ الْجِبَالِ الشُّمَّخِ ، وَفِي قَتْرَةِ الظَّلَامِ الْأَيْهَمِ . وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ خَرَقَتْ أَقْدَامُهُمْ تُخُومَ الْأَرْضِ السُّفْلَى ؛ فَهِيَ كَرَايَاتٍ بِيضٍ قَدْ نَفَذَتْ فِي مَخَارِقِ الْهَوَاءِ ، وَتَحْتَهَا رِيحٌ هَفَّافَةٌ تَحْبِسُهَا عَلَى حَيْثُ انْتَهَتْ مِنَ الْحُدُودِ الْمُتَنَاهِيَةِ ؛ قَدِ اسْتَفْرَغَتْهُمْ أَشْغَالُ عِبَادَتِهِ ، وَوَصَلَتْ حَقَائِقُ الْإِيمَانِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ ، وَقَطَعَهُمُ الْإِيقَانُ بِهِ إِلَى الْوَلَهِ إِلَيْهِ ، وَلَمْ تُجَاوِزْ رَغَبَاتُهُمْ مَا عِنْدَهُ إِلَى مَا عِنْدَ غَيْرِهِ .

قَدْ ذَاقُوا حَلَاوَةَ مَعْرِفَتِهِ ، وَشَرِبُوا بِالْكَأْسِ الرَّوِيَّةِ مِنْ مَحَبَّتِهِ ، وَتَمَكَّنَتْ مِنْ سُوَيْدَاوَاتِ قُلُوبِهِمْ وَشِيجَةُ خِيفَتِهِ ، فَحَنَوْا بِطُولِ الطَّاعَةِ اعْتِدَالَ ظُهُورِهِمْ ، وَلَمْ يُنْفِدْ طُولُ الرَّغْبَةِ إِلَيْهِ مَادَّةَ تَضَرُّعِهِمْ ، وَلَا أَطْلَقَ عَنْهُمْ عَظِيمُ الزُّلْفَةِ رِبَقَ خُشُوعِهِمْ ، وَلَمْ يَتَوَلَّهُمُ الْإِعْجَابُ فَيَسْتَكْثِرُوا مَا سَلَفَ مِنْهُمْ ، وَلَا تَرَكَتْ لَهُمُ اسْتِكَانَةُ الْإِجْلَالِ نَصِيباً فِي تَعْظِيمِ حَسَنَاتِهِمْ . وَلَمْ تَجْرِ الْفَتَرَاتُ فِيهِمْ عَلَى طُولِ دُءُوبِهِمْ ، وَلَمْ تَغِضْ رَغَبَاتُهُمْ فَيُخَالِفُوا عَنْ رَجَاءِ رَبِّهِمْ ، وَلَمْ تَجِفَّ لِطُولِ الْمُنَاجَاةِ أَسَلَاتُ أَلْسِنَتِهِمْ ، وَلَا مَلَكَتْهُمُ الْأَشْغَالُ فَتَنْقَطِعَ بِهَمْسِ الْجُؤَارِ إِلَيْهِ أَصْوَاتُهُمْ ، وَلَمْ تَخْتَلِفْ فِي مَقَاوِمِ الطَّاعَةِ مَنَاكِبُهُمْ ، وَلَمْ يَثْنُوا إِلَى رَاحَةِ التَّقْصِيرِ فِي أَمْرِهِ رِقَابَهُمْ .

وَلَا تَعْدُو عَلَى عَزِيمَةِ جِدِّهِمْ بَلَادَةُ الْغَفَلَاتِ ، وَلَا تَنْتَضِلُ فِي هِمَمِهِمْ خَدَائِعُ الشَّهَوَاتِ .

قَدِ اتَّخَذُوا ذَا الْعَرْشِ ذَخِيرَةً لِيَوْمِ فَاقَتِهِمْ ، وَيَمَّمُوهُ عِنْدَ انْقِطَاعِ الْخَلْقِ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ بِرَغْبَتِهِمْ ، لَا يَقْطَعُونَ أَمَدَ غَايَةِ عِبَادَتِهِ ، وَلَا يَرْجِعُ بِهِمُ الِاسْتِهْتَارُ

بِلُزُومِ طَاعَتِهِ، إِلَّا إِلَى مَوَادَّ مِنْ قُلُوبِهِمْ غَيْرِ مُنْقَطِعَةٍ مِنْ رَجَائِهِ وَمَخَافَتِهِ، لَمْ تَنْقَطِعْ أَسْبَابُ الشَّفَقَةِ مِنْهُمْ فَيَنُوا فِي جِدِّهِمْ، وَلَمْ تَأْسِرْهُمُ الْأَطْمَاعُ فَيُؤْثِرُوا وَشِيكَ السَّعْيِ عَلَى اجْتِهَادِهِمْ[1]. لَمْ يَسْتَعْظِمُوا مَا مَضَى مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوِ اسْتَعْظَمُوا ذَلِكَ لَنَسَخَ الرَّجَاءُ مِنْهُمْ شَفَقَاتِ وَجَلِهِمْ، وَلَمْ يَخْتَلِفُوا فِي رَبِّهِمْ بِاسْتِحْوَاذِ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ.

وَلَمْ يُفَرِّقْهُمْ سُوءُ التَّقَاطُعِ، وَلَا تَوَلَّاهُمْ غِلُّ التَّحَاسُدِ، وَلَا تَشَعَّبَتْهُمْ مَصَارِفُ الرِّيَبِ، وَلَا اقْتَسَمَتْهُمْ أَخْيَافُ الْهِمَمِ، فَهُمْ أُسَرَاءُ إِيمَانٍ لَمْ يَفُكَّهُمْ مِنْ رِبْقَتِهِ زَيْغٌ وَلَا عُدُولٌ، وَلَا وَنًى وَلَا فُتُورٌ، وَلَيْسَ فِي أَطْبَاقِ السَّمَاءِ مَوْضِعُ إِهَابٍ إِلَّا وَعَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ، أَوْ سَاعٍ حَافِدٌ، يَزْدَادُونَ عَلَى طُولِ الطَّاعَةِ بِرَبِّهِمْ عِلْماً، وَتَزْدَادُ عِزَّةُ رَبِّهِمْ فِي قُلُوبِهِمْ عِظَماً.

***

الشَّرْح :

هذا موضع المثل : « إذا جاء نهرُ الله بطل نهر مَعْقِل »[2] ! إذا جاء هذا الكلام الربانيّ، واللفظ القدسيّ، بطلتْ فصاحة العرب، وكانت نسبة الفصيح من كلامها إليه، نسبةَ التراب إلى النُّضار الخالص؛ ولو فرضنا أنّ العرب تقدِرُ على الألفاظ الفصيحة المناسبة، أو المقاربة لهذه الألفاظ، من أين لهم المادّة التى عبّرت هذه الألفاظ عنها ؟ ومن أين تعرف الجاهليّة بل الصحابة المعاصرُون لرسول الله صلى الله عليه وآله هذه المعانى الغامضة السمائيّة؛ ليتهيّأ لها التعبير عنها ! أما الجاهليّة فإنهم إنما كانت تظهر فصاحتهم فى صفة بعير أو فرس أو حمار وحش، أو ثور فلاة، أو صفة جبال أو فلوات؛ ونحو ذلك. وأما الصحابة

---

(١) ج : « فى اجتهادهم ».

(٢) نهر معقل : مضاف إلى معقل بن يسار بن عبد الله المزنى ؛ ذكر ياقوت عن الواقدى أن عمر أمر أبا موسى الأشعرى أن يحفر نهراً بالبصرة وأن يجريه على يد معقل بن يسار ، فنسب إليه .

فالمذكورون منهم بفصاحة إنما كان منتهى فصاحة أحدهم كلمات لا تتجاوز السطرين أو الثلاثة ، إمّا فى موعظة تتضمّن ذكر الموت أو ذمّ الدنيا، أو مايتعلق بحرب وقتال؛ من ترغيب أو ترهيب ؛ فأمّا الكلامُ فى الملائكة وصفاتها ، وصُورها وعباداتها ، وتسبيحِها ومعرفتِها بخالقها وحبّها له ، وَوَلهها إليه ، وماجرى مجرى ذلك مما تضمّنه هذا الفصل على طوله ، فإنه لم يكن معروفاً عندهم على هذا التفصيل ؛ نعمْ ربما علموه جملة غير مقسّمة هذا التقسيم ، ولا مرتّبة هذا الترتيب ؛ بما سمعوه من ذكر الملائكة فى القرآن العظيم ؛ وأمامَنْ عنده علم من هذه المادة ، كعبد الله بن سلاَم وأميّة بن أبى الصَّلْت وغيرهم ؛ فلم تكن لهم هذه العبارة ، ولا قَدَرُوا على هذه الفصاحة ، فثبت أنّ هذه الأمور الدقيقة فى مثل هذه العبارة الفصيحة ، لم تحصل إلا لعلىّ وحده ؛ وأقسم أنّ هذا الكلام إذا تأمّله اللبيب اقشعرّ جلده ، ورجَفَ قلبُه ، واستشعر عظمةَ الله العظيم فى رَوْعه وخَلَده ، وهام نحوه وغلب الوجد عليه؛ وكاد أن يَخرج من مُسْكه شوقاً ؛ وأن يفارق هيكله صَبابةً ووجداً.

ثم نعود إلى التفسير فنقول :

الصَّفيح الأعلى : سطح الفَلَك الأعظم ؛ ويقال لوجه كلّ شىء عريض : صفيح وصَفْحَة .

والفُروج : الأماكن الخالية والفِجاج : جمع فَجّ ، والفَجّ : الطريق الواسع بين جبلين أو حائطين وأجوائها : جمع جَو ، وهو ما اتّسع من الأودية، ويقال لما بين السماء والأرض جَوّ، ويروى : «أجوابها»، جمع جَوْبة، وهى الفُرْجة فى السحاب وغيره ويروى: «أجْوازها» جمع جَوْز، وهو وَسَط الشىء. والفجوات : جمع فَجْوة، وهى الفُرْجة بين الشيئين؛ تقول منه: تفاجَى الشىء ، إذا صار له فَجْوة ، ومنه الفَجاء ؛ وهو تباعُد مابين عُرْقوبَى البعير .

والزَّجَل : الصوت . وحظائر القدس : لفظة وردت فى كلام رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأصل « الحظِيرة » مايعمل شبْه البيت للإبل من الشجر ليقيها البرد ؛ فسمّى عليه

السلام تلك المواطن الشريفة المقدّسة العالية التى فوق الفلك حَظَائر القدس ، والقُدْسُ بتسكين الدال وضمها : الطُّهر ، والتقديس :التطهير ، وتقدّس :تطهّر . والأرض المقدّسة المطهّرة ، وبيت المقدس أيضا ، والنسبة إليه قُدْسىّ ومقدسىّ . والسُّتُرات : جمع سُتْرة . والرجيج :الزلزلة والاضطراب ؛ ومنه ارتجّ البحر . وتستكّ الأسماع : تنسدّ ، قال النابغة:

وَنُبِّئْتُ خَيرَ النّاس أنكَ لمتَنِي ‏ ‏ وتِلكَ الّتِي تَسْتَكّ منها المسامعُ (١)

سُبُحات النور ، بضم السين والباء : عبارة عن جلالة الله تعالى وعظمته . وتردَع الأبصار تكفّها . وخاسئة ، أى سادرة ، ومنه : ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (٢) ، وخسأ بصرُه ، خسْأ وخُسوءا ، أى سَدِر (٣) .

وقوله : « على حدودها » أى تقف حيث تنتهى قوّتها ، لأنّ قوتها متناهية ؛ فإذا بلغتْ حدّها وقفت . وقوله : « أُولِى أَجْنِحَةٍ » من الألفاظ القرآنية (٤) .

وقوله : « لاينتحلون ماظهر فى الخلق من صنعه » ، أى لايدّعون الإلٰهيّة لأنفسهم، وإن كان قوم من البشر يدّعونها لهم . وقوله: « لا يدّعون أنهم يخلقون شيئا معه مما انفرد به »، فيه إشارة إلى مذهب أصحابنا فى أنّ أفعال العباد مخلوقة لهم ، لأنّ فائدة هذا القيد ، وهو قوله : « انفرد به » إنّما تظهر بذلك .

وأما الآيات المقدسة ، فالرواية المشهورة « مُكْرَمون » وقرِئ : « مُكَرَّمُون » بالتشديد ، وقرِئ «لايسبُقونه» بالضم ، والمشهور القراءة بالكسر ، والمعنى أنّهم يتبعون قوله ، ولا يقولون شيئا حتى يقوله ، فلا يسبق قولهم قولَه ، وأراد أن يقول : « لا يسبقونه بقولهم » ، فحذف الضمير المضاف إليه ، وأناب اللّام منابه

---

(١) ديوانه ٥٢ ، وروايته : « أتانى أبيت اللعن » .
(٢) سورة الملك ٤ . ‏ ‏ (٣) سدر : أى كلّ وأعيا .
(٤) من قوله تعالى فى سورة فاطر : ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِى أَجْنِحَةٍ ﴾

ثم قال : « وهم بأمره يعملون » ؛ أى كما أن قولهم تابع لقوله ؛ فعملهم أيضا كذلك فرْعٌ على أمره ، لا يعملون عملا مالم يؤمروا به ؛ وجاء فى الخبر المرفوع عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « أنه رأى جبرائيل ليلة المعراج ساقطا كالحِلْس من خَشْية الله » . والحِلْس : الكساء الخفيف .

والزائغ : العادل عن الطريق ، والإخبات : التذلّل والاستكانة . وأبوابا ذُلُلا ، أى سهلة وطيئة ، ومنه : دابّةٌ ذَلُول ؛ وتماجيده : الثناء عليه بالمجد . والمؤْصِرات : المثقِلات والإصْر : الثقل .

وتقول : « ارتحلتُ » البعير ، أى ركبته ، والعَقَبة : النوْبة ، والجمع عُقَب . ومعنى قوله : « ولم ترتحلهم عُقَب الليالى والأيام » . أى لم تؤثّر فيهم نوبات الليالى والأيام وكرورها ، كما يؤثر ارتحال الإنسان البعير فى ظهره . ونوازعها : شهواتها النازعة المحرّكة ، وروى : « نوازغها » بالغين المعجمة ، من نَزَغ بينهم ، أى أفسد .

ولم تعترك الظنون ، أى لم تزدحم الظنون على يقينهم الذى عقدوه .

والإحَن : جمع إِحْنَة ، وهى الحقد ، يقول : لم تقطح قوادح الحِقْد فى ضمائرهم .

ومالاق ، أى ما التصق ، وأثناء صدورهم : جمع ثِنْى وهى التضاعيف . والرَّيْن : الدَّنَس والغلبة ، قال تعالى : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ (١) .

وتقترع ، من الاقتراع بالسهام ، بأنْ يتناوب كلٌّ من الوساوس عليها . ويروى : « فيفترع » بالفاء ، أى تعلو بريْنها ، فرَعه ، أى علاه .

والغمام : جمع غمامة ، وهى السحابة . والدُّلّح : الثقال ، جاء يدلح بحِمْلِه ، أى جاء مثقلاً به . والجبال الشُّمّخ : العالية الشاهقة .

وقوله : « فى قَتْرة الظلام » ، أى سواده . والأيهم : لا يهتدَى فيه ، ومنه

---

(١) سورة المطففين ٨٣ .

فلاةَ يَهماء . والتُّخُوم ، بضم التاء : جمع تَخْم وهو منتهى الأرض أو القرية ، مثل فَلْس وفلوس ، ويروى : « تَخُوم » بفتح التاء على أنّها واحد ، والجمع تُخُم مثل صَبُور وصُبُر .

وريح هَفّافة ؛ أى ساكنة طَيبة ؛ يقول: كأنّ أقدامهم التى خرقتِ الهواء إلى حضيض الأرض رايات بيض تحتها ريح ساكنة ليست مضطربة ؛ فتموج تلك الرايات ؛ بل هى ساكنة تحبسها حيث انتهت، وجاء فى الخبر أنّ لإسرافيل جناحَيْن أحدهما فى أقصى المشرق والآخر فى أقصى المغرب ، وأنّ العرش على كاهِله ، وإنه ليتضاءل أحيانا لعظمة الله ، حتى يعود مثل الوضع وهو العصفور .

ثم ، قال : « قد استفرغتْهم أشغال عبادته تعالى » أى جعلَتْهم فارغين إلا منها . ويروى : « ووسّلت حقائق الإيمان » ،بالسين المشددة ، يقال: وسّل فلان إلى ربّه وسيلة، والوسيلة مايتقرب به ؛ والجمع وسيل ووسائل ؛ ويقال : وسلتُ إليه وتوسلت إليه بمعنًى .

وسويداوات القلوب : جمع سويداء ؛ وهى حَبّة القلب . والوشيجة فى الأصل :عرق الشّجرة ، وهى هنا استعارة . وَحَنيتُ ضِلَعى ، أى عوجتها . والرِّبَق : جمع رِبقة ؛ وهى الحبل .

قوله : « ولم يتولّهم الإعجاب » ؛ أى لم يستولِ عليهم . والدءوب : الجدّ والاجتهاد. والأسَلات : جمع أسَلة ؛ وهى طرف اللسان ومستدقّه ،والجُؤار: الصّوْت المرتفع ،والهَمس: الصوت الخفىّ ، يقول : ليست لهم أشغال خارجة عن العبادة ، فيكون لأجلها أصواتُهم المرتفعة خافية ساكنة . لاتعدُو ، من عَدَا عليه ، إذا قهره وظلمه ، وهو هاهنا استعارة .

ولا تنتضل الخدائع فى هممهم ؛استعارة أيضا من النّضال ؛ وهو المراماة بالسهام . وذو العرش : هو الله تعالى ؛ وهذه لفظة قرآنية ؛قال سبحانه : ﴿ إِذاً لَا بْتَغَوْا إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ

سَبِيلًا ﴾ .(١) يعنى لابتغوا إلى الله تعالى سبيلا . وقال تعالى :﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾(٢) ، والاستهتار : مصدر استهتر فلان بكذا ، أى لازمه وأولع به .

وقوله : « فَيَنُوا » أى فيضعفوا ؛ ونِى : ينِى . والجِدّ : الاجتهاد والانكماش .

ثم قال : إنهم لا يستعظمون عبادتهم ، ولو أنّ أحداً منهم استعظم عبادَته لأذهب خوفُه رجاءه الذى يتولّد من استعظام تلك العِبادة ؛ يصفهم بعظم التقوى .

والاستحواذ :الغَلبة، والغِلّ : الحِقْد، وتشعّبتهم :تقسّمتهم وفرّقتهم؛ ومنه قيل للمنية شَعوب ، أى مفرّقة . وأخياف الهمم ، أى الهمم المختلفة ؛ وأصله من الخَيَف ؛ وهو كَحَل إحدَى العينين دون الأخرى ؛ ومنه المثل : الناس أخيَاف ؛ أى مختلفون ، والإهاب: الجِلْد . والحافد : المسرع ؛ ومنه الدعاء : اللهمّ إليك نَسْعى ونحفِد .

* * *

واعلم أنه عليه السلام إنما كرّروا كد صفاتهم بما وصفهم به ؛ ليكون ذلك مثالا يحتذِى عليه أهل العرفان من البشر ؛ فإنّ أعلى درجات البشر أن يتشبّه بالملك، وخُلاصة ذلك أمور :

منها العبادة القائمة .

ومنها ألّا يدعى أحدٌ لنفسه الحوْل والقوة ، بل لاحولَ ولا قوّة .

ومنها أن يكون متواضعا ذا سكينة ووقار .

ومنها أن يكون ذا يقين لاتقدَحُ فيه الشكوك والشبهات .

ومنها ألاّ يكون فى صدره إحْنة على أحد من الناس .

ومنها شِدّة التعظيم والهيبة لخالق الخلق ، تبارك اسمه .

ومنها أنْ تستفرغه أشغال العبادة له عن غيرها من الأشغال .

---

(١) سورة الإسراء ٤٢ .

(٢) سورة البروج ١٥ ، ١٦ .

ومنها أنه لا تتجاوز رغباته مما عند الله تعالى إلى ما عند غيره سبحانه .

ومنها أن يعقد ضميره وقلبه على محبة الله تعالى ، ويشرب بالكأس الروية من حبه .

ومنها عِظَم التقوى بحيث يأمن كل شيء عدا الله ، ولا يهاب أحداً إلا الله .

ومنها الخشوع والخضوع والإخبت والذل لجلال عزته سبحانه .

ومنها ألا يستكثر الطاعة والعمل ، وإن جلّ وعَظُم .

ومنها عِظَمُ الرجاء الواقع فى مقابلة عظم الخوف ؛ فإن الله تعالى يحب أن يُرْجَى ، كما يحب أن يخاف .

* * *

[أبحاث تتعلق بالملائكة]

واعلم أنه يجب أن تُعلم أبحاث متعددة تتعلق بالملائكة ونقصد فيها قصد حكاية المذهب خاصة ، ونكلُ الاحتجاج والنظر إلى ما هو مذكور فى كتبنا الكلامية .

البحث الأول فى وجود الملائكة ، قال قوم من الباطنية : السبيل إلى إثبات الملائكة هو الحسّ والمشاهدة ؛ وذلك أن الملائكة عندهم أهلُ الباطن .

وقالت الفلاسفة : هى العقول المفارقة ؛ وهى جواهر مجرّدة عن المادة لا تعلّق لها بالأجسام تدبيرا ، واحترزوا بذلك عن النفوس ؛ لأنها جواهر مفارقة إلا أنها تدبر الأبدان ، وزعموا أنهم أثبتوها نظرا .

وقال أصحابنا المتكلمون : الطريق إلى إثبات الملائكة الخبرُ الصادق المدلول على صدقه ؛ وفى المتكلّمين مَنْ زعم أنه أثبت الملائكة بطريق نظرى ؛ وهو أنه لما وجد خلقا من طين وجب فى العقل أن يكون فى المخلوقات خَلْق من الهواء وخلق من النار فالمخلوق من الهواء هو الملك ، والمخلوق من النار الشيطان .

البحث الثانى فى بنية الملائكة ، وهيئة تركيبهم ، قال أصحابنا المتكلمون : إنّ الملائكة أجسامٌ لطاف ، وليسوا من لحم ودم وعظام ، كما خلق البشَر من هذه الأشياء.

وقال أبو حفص المعوّد القربنسىّ من أصحابنا : إنّ الملائكة من أجسام من لحم وعظم : إنه لا فَرْق بينهم وبين البشر ؛ وإنما لم يُرَوْا لبعد المسافة بيننا وبينهم.

وقد تبعه على هذا القول جماعة من معتزلة ما وراء النهر ، وهى مقالة ضعيفة لأنّ القرآن يشهد بخلافه فى قوله : ﴿ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ(1) ﴾ ، وقوله : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾(2) ؛ فلو كانوا أجساما كثيفة كأجسامنا لرأيناهم.

***

البحث الثالث فى تكليف الملائكة ، حكى عن قوم من الحَشَوِيّة أنهم يقولون : نّ الملائكة مضطرون إلى جميع أفعالهم ، وليسوا مكلّفين.

وقال جمهور أهل النظر : إنهم مكلّفون.

وحكى عن أبى إسحاق النظام ، أنه قال : إنّ قوماً من المعتزلة قالوا : إنهم جبلوا على الطاعة لمخالفة خَلْقهم حلقة المكلفين ، وأنهم قالوا : لو كانوا مكلّفين لم يؤمن أن يعصوا فيما أمروا به ، وقد قال تعالى : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾(3).

وقال قوم : إنّ أكثر الملائكة مكلّفون ، وأن فيهم من ليس بمكلّف بل هو مسخر للملائكة المكلفين ، كما أنّ فى الحيوانات ما هو غير مكلّف ، بل هو مسخّر للبشر ومخلوق لمصالحهم.

قالوا : ولا ننكر أن يكونَ الملائكة الذين ذكر منهم أنهم غُلُظ الأجْسام وعُظْم الخلق والتركيب بحيث تبلغ أقدامهم إلى قرار الأرض ؛ قد جُعلوا عُمُداً للسّموات والأرض ؛ فهم

(1) سورة التحريم ٦ . (2) سورة الزخرف ٨٠ .
(3) سورة ق ١٧ .

يحملونها بمنزلة الأساطين التى تحمل السقوف العالية ولم يرشحوا لأمر من الأمور سوى ذلك .

***

البحث الرابع : فيما يجوز من الملائكة ومالا يجوز ؛ قال شيخنا أبو القاسم : حكى أبو الحسن الخيّاط عن قدماء المعتزلة ، أنه لايجوز أن يَعْصِيَ أحدٌ من الملائكة ؛ ولم يذكر عنهم علّة فى ذلك .

وقال قوم : إنهم لايعصون ، ولا يجوز أن يعصُوا ؛ لأنهم غير مطيقين الشهوة والغضب ، فلا داعى لهم إلى المعصية ؛ والفاعل لايفعل إلا بداعٍ إلى الفعل .

وقال قوم : إنهم لايعصُون ، لأنهم يشاهدون من عجائب صنع الله وآثار هيبته مايبهرُهم عن فعل المعصية والقصد إليها ، وكذلك قال تعالى : ﴿ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾(١) .

وقال قوم : إنما لم يَجُزْ أن يعصوا ، لأنّ الله تعالى أخبر عنهم أنهم لايعصون، ولاينكر مع ذلك أن يكون منهم من يتغيّر حاله ويتبدل بها حالة أخرى ويعصى ، على ماورد من خَبَرِ الملكين ببابل ، وخبر إبليس ، وإنما يسلب عنهم المعصية ماداموا على حالهم التى هى عليها .

وقال شيوخنا أصحاب أبى هاشم رحمه الله تعالى : إنّ المعصية تجوز عليهم ، كما تجوز علينا ، إلا أن الله تعالى علم أن لهم ألطافا يمتنعون معها من القبيح افعالها ، فامتنعوا من فعل القبيح اختيارا ، فكانت حالهم كحال الأنبياء من البشر يقدرون على المعصية ولا يفعلونها،

---

(١) سورة الأنبياء ٢٨ .

اختيارا من أنفسهم باعتبار الألطاف المفعولة لهم ، ولو كان لإبليس أو فرعون أو نمرود ألطاف يعلم الله تعالى إذا فعلها فعلوا الواجب ، وامتنعوا من فعل القبيح لفعلها بهم ، ولكانوا معصومين كالأنبياء والملائكة ، لكنّه تعالى علم أنّهم لا يؤمنون ولو فعل مهما فعل ، فلا لطف فى المعلوم ، وهذا عندهم حكم عام لجميع المكلفين من الإنس والجنّ والملائكة .

* * *

البحث الخامس فى أنّ أىّ القبيلين أفضلُ : الملائكة أو الأنبياء؟ قال أصحابنا : نوع الملائكة أفضل من نوع البشر ، والملائكة المقرّبون أفضل من نوع الأنبياء ، وليس كلّ ملَكٍ عند الإطلاق أفضلَ من محمد صلى الله عليه وآله ، بل بعضُ المقربين أفضل منه ، وهو عليه السلام أفضل من ملائكة أخرى غير الأولين ، والمراد بالأفضل الأكثر ثوابا ، وكذلك القول فى موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء . والذى يحكيه قومٌ من أرباب المقالات أنّ المعتزلة ، قالوا : إنّ أدنى مَلَك فى السماء أفضل من محمد صلى الله عليه وآله ليس بصحيح عنهم .

وقال أهل الحديث والأشعرية : إنّ الأنبياء أفضلُ من الملائكة .

وقال الشيعة : الأنبياء أفضل من الملائكة ، والأئمة أفضل من الملائكة .

وقال قوم منهم ومن الحَشَوِيّة : إنّ المؤمنين أفضلُ من الملائكة .

* * *

البحث السادس فى قِدَم الملائكة وحدوثهم ، أمّا الفلاسفة القائلون بأنّهم العقول المفارقة ، فإنّهم يذهبون إلى قِدم الملائكة .

وقال غيرهم من أهل الملل : إنّهم محدَثون .

وقال قوم من متأخرى الحكماء : إن نفوس البشر إذا فارقت الأبدان بالموت بقيت قائمة بأنفسها غير مدبّرة لشىء من الأبدان ، فإن كانت خَيّرة صالحة فهى الملائكة ،

وإن كانت شرّيرة رديئة الجوهر فهى الشياطين؛ فالملائكة عند هؤلاء محدثون؛ وعندهم أن هذه النفوس تساعد نفوسا أخرى متعلقة بتدبير الأبدان ، إمّا على الخير أو على الشرّ ، فما ينسب فى الكتب الإلٰهية إلى إغواء الشياطين للناس وإضلالهم ، فالمراد به تلك النفوس الشرّيرة ، وما ينسب فيها إلى إعانة الملائكة لهم على الخير والصلاح ، فالمراد به تلك النفوس الخيّرة .

***

البحث السابع فى إبليس ، أهو من الملائكة أو ليس منها ؟ قال شيخنا أبو عثمان وجماعة من أصحابنا : إنه من الملائكة ، ولذلك استثناه الله تعالى ، فقال : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ (١) .

وقال قوم : إنّه كان من الملائكة بدلالة هذه الآية ، لكن الله مَسَخه حيث خالف الأمر ، فهو بعد المسخ خارج عن الملائكة ، وقد كان قبل ذلك مَلَكاً ، قالوا : ومعنى قوله : ﴿ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ﴾ أى من خزّان الجنة ، وروى ذلك عن ابن عباس ، قالوا : ويحمل على معناه أنّه صار من الجن ، فيكون « كان » بمعنى « صار » كقوله تعالى : ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ ، (٢) أى مَنْ صار ، لأنها لو كانت « كان » على حقيقتها ، لوجب ألا يكلِّم بعضُهم بعضا ، لأنهم كانوا صبيانا فى المُهود .

قالوا : ومعنى صيرورته من الجنّ صيرورته ضالًّا ، كما أنّ الجنّ ضالّون ، لأنّ الكفار بعضهم من بعض ، كما قال تعالى : ﴿ وَالْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة ص ٧٣ ، ٧٤ .

(٢) سورة مريم ٢٩ .

(٣) سورة التوبة ٦٩ .

وقال معظم أصحابنا : إنّ إبليس ليس من الملائكة ، ولا كان منها، وإنما استثناه الله تعالى منهم ، لأنه كان مأمورا بالسجود معهم ، فهو مستثنى من عموم المأمورين بالسجود ، لامن خصوص الملائكة .

***

البحث الثامن فى هاروت وماروت ، هل هما من الملائكة أم لا ؟ قال جمهور أصحابنا : إنّهما من الملائكة ، وإن القرآن العظيم قد صرّح بذلك فى قوله : ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ﴾(1) ، وإنّ الذى أنزل عليهما هو علم السّحر ، ابتلاء من الله تعالى للناس ، فمن تعلّمه منهم وعمل به كان كافرا ، ومن تجنبه أو تعلّمه لا ليعمل به ولكن ليتوقّاه كان مؤمنا : قالوا : وما كان هذان الملكان يعلّمان أحدا حتى ينبّهاه وينهياه وينصحاه ، ويقولا له : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ ، أى ابتلاء واختبار من الله ، ﴿ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ ، ولا تتعلّمه معتقداً أنه حق .

وحكى عن الحسن البصرىّ أنّ هاروت وماروت عِلجان أقلفان من أهل بابل ، كانا يعلّمان الناس السحر ، وقرأ الحسن : ﴿ عَلَى ٱلْمَلِكَيْنِ بِبَابِل ﴾ ، بكسر اللام .

وقال قوم : كانا من الملائكة ، فعصيا الله تعالى بالحيف فى الحكومة ، وقد كان استقضاهما فى الأرض ، وركّب فيهما الشهوة والغضب ، على نحو ماركّب فى البشر ، امتحانا لهما ، لأنهما قد كانا عيّرا البشر بالمعصية ، فلما عصيا حبسهما الله تعالى وعاقبهما بعذاب معجّل ، وألهمهما كلاما إذا تكلما به سكن بعض مابهما من الألم ، وإنّ السحرة يستمعون ذلك الكلام فيحفظونه ، ويفرقون به بين المرء وزوجه ، فإنهما يتقدّمان إلى من يحضرهما عندما يتكلّمان بالزجْر عن العمل بذلك الكلام ، ويقولان : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ

---

(1) سورة البقرة .

فِتْنَةٌ فَلاَ تَـكْفُرْ ﴾ ، وهما لم يكفرا ، ولا دَعَوا إلى السحر ؛ وإن عذابهما سيقطع وقد جاء فى الأخبار مايوافق هذا .

وقال قوم من الحشوية : إنهما شربا الخمر وقتلا النفس ، وزنَيا بامرأة اسمها «باهيد» فسخت ؛ وهى الزهرة التى فى السماء .

* * *

الأصْـلُ :

ومنها فى صفة الأرض ودحوها على الماء :

كَبَسَ ٱلْأَرْضَ عَلَى مَوْرِ أَمْوَاجٍ مُسْتَفْحِلَةٍ، وَلُجَجِ بِحَارٍ زَاخِرَةٍ ، تَلْتَطِمُ أَوَاذِيُّ أَمْوَاجِها ، وَتَصْطَفِقُ مُتَقاذِفاتُ أَثْباجِها ، وَتَرْغُو زَبَداً كَالْفُحُولِ عِنْدَ هِياجِها، فَخَضَعَ جِماحُ الْماءِ الْمُتَلاطِمِ لِثِقَلِ حَمْلِها ، وَسَكَنَ هَيْجُ ارْتِمائِهِ إِذْ وَطِئَتْهُ بِكَلْكَلِها ، وَذَلَّ مُسْتَخْذِياً إِذْ تَمَعَّكَتْ عَلَيْهِ بِكَوَاهِلِها ؛ فَأَصْبَحَ بَعْدَ اصْطِخابِ أَمْوَاجِهِ ساجِياً مَقْهُوراً ، وَفِي حَكَمَةِ الذُّلِّ مُنْقاداً أَسِيراً، وَسَكَنَتِ الْأَرْضُ مَدْحُوَّةً فِي لُجَّةِ تَيَّارِهِ ، وَرَدَّتْ مِنْ نَخْوَةِ بَأْوِهِ وَاعْتِلائِهِ ، وَشُمُوخِ أَنْفِهِ وَسُمُوِّ غُلَوَائِهِ ، وَكَعَمَتْهُ عَلَى كِظَّةِ جَرْيَتِهِ ، فَهَمَدَ بَعْدَ نَزَقاتِهِ ، وَلَبَدَ بَعْدَ زَيَفانِ وَثَباتِهِ .

فَلَمَّا سَكَنَ هَيْجُ الْماءِ مِنْ تَحْتِ أَكْنافِها ،وَحَمْلَ شَوَاهِقَ الْجِبالِ الشُّمَّخِ الْبُذَّخِ عَلَى أَكْتافِها ، فَجَّرَ يَنابِيعَ الْعُيُونِ مِنْ عَرَانِينِ أُنُوفِها ، وَفَرَّقَها فِي سُهُوبِ بِيدِها وَأَخادِيدِها ، وَعَدَّلَ حَرَكاتِها بِالرَّاسِياتِ مِنْ جَلامِيدِها ، وَذَوَاتِ الشَّناخِيبِ الشُّمِّ مِنْ صَياخِيدِها ، فَسَكَنَتْ مِنَ الْمَيَدانِ لِرُسُوبِ (١) الْجِبالِ فِي قِطَعِ أَدِيمِها ، وَتَغَلْغُلِها مُتَسَرِّبَةً فِي جَوْباتِ خَياشِيمِها ، وَرُكُوبِها أَعْناقَ سُهُولِ الْأَرَضِينَ وَجَرَاثِيمِها، وَفَسَحَ

(١) مخطوطة النهج : « برسوب » .

بَيْنَ ٱلْجَوِّ وَبَيْنَهَا ، وَأَعَدَّ ٱلْهَوَاءَ مُتَنَسَّمًا لِسَاكِنِهَا ، وَأَخْرَجَ إِلَيْهَا أَهْلَهَا عَلَى تَمَامِ مَرَافِقِهَا .

ثُمَّ لَمْ يَدَعْ جُرُزَ ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي تَقْصُرُ مِيَاهُ ٱلْعُيُونِ عَنْ رَوَابِيهَا ، وَلَا تَجِدُ جَدَاوِلُ ٱلْأَنْهَارِ ذَرِيعَةً إِلَى بُلُوغِهَا ، حَتَّى أَنْشَأَ لَهَا نَاشِئَةَ سَحَابٍ تُحْيِي مَوَاتَهَا ، وَتَسْتَخْرِجُ نَبَاتَهَا ؛ أَلَّفَ غَمَامَهَا بَعْدَ ٱفْتِرَاقِ لُمَعِهِ ، وَتَبَايُنِ قَزَعِهِ ، حَتَّى إِذَا تَمَخَّضَتْ لُجَّةُ ٱلْمُزْنِ فِيهِ ، وَٱلْتَمَعَ بَرْقُهُ فِي كُفَفِهِ ، وَلَمْ يَنَمْ وَمِيضُهُ فِي كَنَهْوَرِ رَبَابِهِ ، وَمُتَرَاكِمِ سَحَابِهِ ، أَرْسَلَهُ سَحًّا مُتَدَارِكًا ، قَدْ أَسَفَّ هَيْدَبُهُ ، يَمْرِي ٱلْجَنُوبُ دِرَرَ أَهَاضِيبِهِ ، وَدُفَعَ شَآبِيبِهِ .

فَلَمَّا أَلْقَتِ ٱلسَّحَابُ بَرْكَ بِوَانَيْهَا ، وَبَعَاعَ مَا ٱسْتَقَلَّتْ بِهِ مِنَ ٱلْعِبْءِ ٱلْمَحْمُولِ عَلَيْهَا ، أَخْرَجَ بِهِ مِنْ هَوَامِدِ ٱلْأَرْضِ ٱلنَّبَاتَ ، وَمِنْ زُعْرِ ٱلْجِبَالِ ٱلْأَعْشَابَ ، فَهِيَ تَبْهَجُ بِزِينَةِ رِيَاضِهَا ، وَتَزْدَهِي بِمَا أُلْبِسَتْهُ مِنْ رَيْطِ أَزَاهِيرِهَا ، وَحِلْيَةِ مَا سُمِطَتْ بِهِ مِنْ نَاضِرِ أَنْوَارِهَا ، وَجَعَلَ ذَلِكَ بَلَاغًا لِلْأَنَامِ ، وَرِزْقًا لِلْأَنْعَامِ ، وَخَرَقَ ٱلْفِجَاجَ فِي آفَاقِهَا ، وَأَقَامَ ٱلْمَنَارَ لِلسَّالِكِينَ عَلَى جَوَادِّ طُرُقِهَا .

* * *

الشّرح :

كبَس الأرض ، أى أدخلها فى الماء بقوة واعتماد شديد ؛ ويقال لضرب من التمر : الكَبِيس ؛ لأنه يكبَس حتى يتراصّ . والمَوْر : مصدر « مار » أى ذهب وجاء . ومستفحلة : هائجة هَيَجان الفحول . واستفحل الأمر : تفاقم واشتدّ . وزاخرة ، زخر الماء أى امتدّ جدًّا وارتفع .

والأواذيّ : جمع آذيّ ؛ وهو الموج وتصطفق : يضرب بعضها بعضا . والأثباج هاهنا :

أعالى الأمواج ، وأصل الثَّبَج: مابين الـكاهل إلى الظهر ؛ فنقل إلى هذا الموضع استعارة

وترغو : تصوّت صوت البعير ، والرغاء : صوت ذات الخُفّ ؛ وفى المثل : « كفى برغائها مناديا » ؛ أى أنّ رُغاء بعير المضيف يقوم مقام ندائه للضيافة والقِرَى . وزَبَدا على هذا منصوب بفعل مقدّر ؛ تقديره : وترغو قاذفةً زَبداً ، والزَّبَد : مايظهر فوق السَّيْل ؛ يقال : قد أزبد البحر والسّيل ، وبحر مُزْبِد ؛ أى مالح يقذف بالزبد . والفحول عند هياجها ؛ فحول الإبل إذا هاجتْ للضِّرَاب .

وجماح الماء : صعودُه وغَلَيانه ، وأصله من جِماح الفرَس ، وهوأن يعزّ فارسَه ويغلبه . والَجموح من الرجال : الذى يركَبُ هواه فلا يمكن ردّه . وَخَضَع : ذلّ . وهَيْج الماء : اضطرابه ، هاج هَيْجا وهياجاوهَيَجانا ؛ واهتاج ، وتهيّج ، كلّه بمعنًى ، أى ثار ، وهاجَه غيرُه ، يتعدّى ولا يتعدّى . وهيْج ارتمائه ، يعنى تقاذفه وتلاطمه ، يقال:ارتمى القومُ بالسهام وبالحجارة ارتماء وكَلْـكَلها : صدرها ؛ وجاء كَلْـكل ، بَكَلْـكَال ؛ وربما جاء فى ضرورة الشعر مشدّدا ، قال :

كأنّ مَهْوَاهَا عَلَى الْـكَلْـكَلّ ۝ موضعُ كَفَّىْ راهبٍ مُصلّى [1]

والمستخذِى : الخاضع ؛ وقد يهمز . وقيل لأعرابىّ فى مجلس أبى زيد : كيف تقول: استخذأتَ ؟ ليتعرف منه الهمزة . فقال: العرب لاتستخذىُ ، وهمزه ؛ وأكثر مايستعمل مليّنا ؛ وأصلهمن خَذَا الشىءُ يخذُو خَذْواً، أى استرخى؛ ويجوز خَذِىَ، بكسر الذال،وأذُنٌ خَذْواء : بيِّنه الخذاء ، أى مسترخية .

وتمعّـكت : تمرغت ؛ مستعارمن تَمعُّك الدابةفى الأرض؛ وقالوا : معكتُ الأديم ، أى دلـكته [2] . وكواهلها : جمع كاهل ؛ وهو ما بين الـكتفين ، ويسمى الحارِك .

---

(١) الرجز لمنظور بن مرثد الأسدى ، اللسان ١٤ : ١١٧ . (٢) ب : « ذللته » .

واصطخاب أمواجه : افتعال من الصَّخَب ؛ وهو الصياح والجَلَبة ، يقال : صخِب الرجلُ فهو صَخْبان ، واصطخب ، افتعل منه ؛ قال :

* إن الضَّفادع فى الغُدران تَصْطَخِبُ (١) *

والساجى: الساكن: والحَكَمة : ما أحاط من اللجام بحَنَك الدابة ؛ وكانت العرب تتخذها من القِدّ والأَبَق ؛ لأن الزينة لم تكن قصدهم ، قال زهير :

القائد الخيلَ منكوباً دوابرُها   قد أُحكمت حَكَمَات القِدّ والأَبَقا (٢)

واستعار الحَكَمة هاهنا ، فجعل للذلّ حَكَمة ينقاد الماء بها ويذلّ إليها .

ومدحوّة:مبسوطة، قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ (٣). ويجوز أن تكون « مدحوّة » هاهنا بمعنى مقذوفة مرميّة؛ يقال : دحوتُ الحصاة أى قذفتها؛ ويقال للاعب الجوز : ادحُ وأبعد المدى. والتيّار : أعظم الموج . واجّته : أعمقه والبأو : الكِبْر والفخر؛ تقول : بأوتُ على القوم أبأى بأوا ، قال حاتم :

فما زادنا بأواً على ذى قرابةٍ   غِنَانا ولا أزرى بأحسابنا الفقرُ (٤)

وهذا الكلام استعارة ؛ يقال: كَسَرتِ الأرضُ سَوْرة الماء الجامح كما تُكسر سَوْرة بأو الرجل المتكبر المفتخر . والاعتلاء : التيه والتكبّر . والشُّموخ : العلوّ ، مصدر شَمَخ بأنفه أى تكبّر ، والجبال الشوامخ : الشاهقة والسموّ : العلو ، وسمو غلوائه أى غلوّه وتجاوزه الحدّ .

---

(١) اللسان ٢ : ١٠ من غير نسبة .
(٢) ديوانه ٤٩ ، والأبق : شبه الكتان .
(٣) سورة النازعات ٣٠ .
(٤) ديوانه ١١٩ .

وكَعَمتُه ، أى شددت فمه لما هاج ، من الكِمام وهو شىء يجعل فى فم البعير ، وبعير مَكعوم .

والكِظة : الجهد والثقل الذى يعترى الإنسان عند الامتلاء من الطعام ، يقول : كعمت الأرض الماء حال كونه مكظوظا لشدة امتلائه وكثرته وازدحام أمواجه . فهمد أى سكن ، همدت النارُ تهمُد ، بالضم همودا ، أى طفِئت وذهبت ألبتةَ . والخمود دون الهمود . والنزَقات : الخفة والطيش ، نزِق الرجل بالكسر ، ينزَق نزَقا . والنزَقات : الدفعات من ذلك .

ولَبَد الشىء بالأرض يلبُد ، بالضم لبودا ، أى لصق بها ساكنا . والزَّيفان : التبختر فى المشى ، زاف البعيرُ يزيف ، والزيَّافة من النُّوق المختالة ، ويروى : « ولبَد بعد زَفَيان وثباته » ، والزَّفيان : شدة هبوب الريح ، يقال زَفَته الريحُ زَفَيانا ، أى طردته ، وناقة زَفَيان : سريعة ، وقوس زَفَيان : سريعة الإرسال للسهم . وأكنافها : جوانبها ، وكنفا الطائر جناحاه ، ويقال صِلاء مُكنَّف[1] ، أى أحيط به من جوانبه ، وتكنَّفه القوم واكتنفوه أحاطوا به .

والجبال الشواهق : العالية ، ومثله البذَّخ . والعِرنين أول الأنف تحت مجتمع الحاجبين . والينابيع : جمع ينُبوع ، وهو ما انفجر من الأرض عن الماء . والسُّهوب : جمع سَهب ، وهو الفَلاة . والبِيد : جمع بَيداء ، وهى الفلاة أيضا .

والأخاديد : جمع أخدود ، وهو الشق فى الأرض ، قال تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾[2] . والراسيات : الثقال . والشناخيب : رءوس الجبال . والشُّم : العالية ، والجلاميد : الصخور ، واحدها جُلمود . والصَّياخيد : جمع صَيخود ، وهى الصخرة الصلبة .

---

(١) الصلاء : الوقود ، أو النار . (٢) سورة البروج ٤ .

والمَيَدَان : التحرك والاضطراب ، وماد الرجل يميد أى تبختر . ورسوب الجبال : نزولها رسب الشيء فى الماء ، أى سَفُل فيه ، وسيف رَسُوب : ينزل فى العظام .

وقوله : « فى قِطَعِ أديمها » جمع قِطْعة ، يريد فى أجزائها وأبعاضها . ويروى فى « قُطَعِ أديمها » ، بضم القاف وفتح الطاء ، جمع قُطْعة وهى القُطْعة مفروزة[1] من الأرض ، وحكىَ أن أعرابيا قال ورثتُ من أبى قُطْعة . ويروى: « فى قطْع أديمها » ، بسكون الطاء ، والقطْع : طِنْفِسة الرَّحْل ، فنقل ذلك إلى هذا الموضع استعارة ، كأنه جعل الأرض ناقة ، وجعل لها قطعا ، وجعل الجبال ثابتة فى ذلك القطع .

وأديم الأرض : وجهها وظاهرها . وتَغلغُل الماء فى الشجر : دخوله وتخلله فى أصوله . وعروقه متسرّبة ، أى داخلة ، تسرّب الثعلب أى دخل السَّرَب ، وجَوْبات : جمع جَوْبة وهى الفُرْجة فى جبل أو غيره . وخَياشيمها : جمع خَيْشُوم وهو أقصى الأنف ، وتقول : خشمت الرجل خَشْماً ، أى كسرت خيشومه . وجراثيمها : جمع جُرثومة ، وهى أصل الشجر . وفَسَح : أوسع . ومتنسَّما ، يعنى موضع التّسيم . والأرض الجُرُز التى لا نبات فيها لانقطاع المطر عنها ، وهذه من الألفاظ القرآنية[2] . والروابى : التلاع وما علا من الأرض . والجداول : الأنهار الصغار ، جمع جدول . والذَّريعة : الوُصْلة .

وناشئة سحاب : ما يبتدئ ظهوره . والمَزات ، بفتح الميم : القفْر من الأرض ، واللمع : جمع لُمعة ، وهى القطعة من السحاب أو غيره . وتباين قزَعه ، القَزَع : قطع من السحاب رقيقة واحدها قزَعة ، قال الشاعر :

---

(١) فى الأصل : « مقروبة » ، تصحيف ، وانظر اللسان (قطع) .

(٢) من قوله تعالى فى سورة السجدة ٢٧ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَاءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا ﴾ .

* كأنَّ رِعالَهُ قَزَعُ الجَهامِ(١) *

وفى الحديث « كأنهم قَزَع الخريف »(٢). وتبايُنها: افتراقها. وتمخضت: تحركت بقوة، يقال: تمخّض اللبن إذا تحرك فى الممخضة، وتمخّض الولد: تحرك فى بطن الحامل، والهاء فى « فيه » ترجع إلى المُزْن، أى تحركت لجة المُزْن فى المُزْن نفسه، أى تحرك من السحاب وسطُه وثَبجُه. والتمع البرقُ ولمع أى أضاء، وكُففُه: جمع كُفّة. والكُفّة كالدّارة تكون فى السحاب. وكان الأصمعىّ يقول: كلّ ما استطال فهو كُفّة بالضم؛ نحو كُفّة الثوب؛ وهى حاشيته وكُفّة الرمل، والجمع كِفاف، وكلّ ما استدار فهو كِفّة بالكسر؛ نحو كِفّة الميزان، وكِفة الصائد وهى حُبالته، والجمع كِفف. ويقال أيضا: كَفّة الميزان بالفتح. والوميض: الضياء واللّمعان.

وقوله: « لم ينم » أى لم يفتر ولم ينقطع، فاستعار له لفظة النوم. والكَنَهْور: العظيم من السحاب. والرّباب: الغمام الأبيض، ويقال: إنه السحاب الذى تراه كأنه دون السحاب، وقد يكون أبيض، وقد يكون أسود، وهو جمع، والواحدة ربابة، وبه سميت المرأة الرّباب. والمتراكم: الذى قد رَكِب بعضُه بعضاً، والميم بدل من الباء. وسَحّا: صبًّا، وسحابة سَحُوح، وتسَحْسَحَ الماء: سال، ومطر سَحْسَاح، أى يسحّ شديدا. ومتداركا: يلحق بعضه بعضا من غير انقطاع. وأسفّ: دنا من الأرض. وهَيْدَبه: ما تهدّب منه، أى تدلّى كما يتدلّى هَدبُ العين على أشفارها. وتَمْرِى الجَنُوب، وهو بمعنى يحلب ويستدرّ، ويروى « تمريه الجَنُوب » على أن يعدّى الفعل إلى المفعولين، كما تقول حلبت الناقة لبنا. ويروى: « تمترى الجَنُوب » وهو بمعنى تَمْرِى، من مريت الفرس وامتريته، إذا استخرجتَ بالسوط ما عنده من الجرى. وإنما

(١) لذى الرمة، ديوانه ٥٩٧ يصف فلاة، وصدره:

* تَرَى عُصَبَ القَطَا هَمَلاً عَلَيْهِ *

(٢) فى النهاية لابن الأثير ٣: ٢٥١؛ من حديث لعلى.

خَصّ الجنوب بذلك لأنها الريح التى يكون عليها المطر . والدِّرر : جمع دِرّة ، وهى كثرة اللبن وسيلانه وصبّه. والأهاضيب: جمع هِضاب، والهِضَاب: جمع هَضْب، وهى حلبات القَطْر بعد القطر . والدُّفَع: جمع دُفعة ، بالضم وهى كالدُّفقة من المطر بالضم أيضا والشآبيب: جمع شؤبوب وهى رَشّة قوية من المطر ، تنزل دفعة بشدة، والبَرْك: الصدر و بِوانيها، تثنية بِوان على « فِعال » بكسر الفاء وهو عمود الخيمة ، والجمع بُون بالضم ، قال الشاعر :

أَصْبَرَ مِنْ ذِى ضَاغِطٍ عَرَكْرَكِ ... أَلْقَى بِوَانَىْ زَوْرِه للمبركِ (١)

ومن روى : « بَوَانِيها » أراد لواصقها ، من قولك : قوس بانية إذا التصقت بالوَتَر. والرواية الأولى أصحّ . وبَعاع السحاب : ثقله بالمطر ، قال امرؤ القيس :

وَأَلْقَى بِصَحْرَاء الْغَبِيطِ بَعَاعَــهُ ... نُزُولَ الْيَمَانِى ذِى الْعِيَابِ الْمُثَقَّلِ (٢)

والعبْء : الثقل ، واستقلّت : ارتفعت ونَهضت ، وهوامد الأرض ، هى الأرضون التى لانبات بها . وزُعْر الجبال : جمع أزعر ، والمراد به قلة العشب والخلَى (٣) : وأصله من الزَّعَر ، وهو قلة الشعر فى الرأس ، قال :

مَنْ يَكُ ذَا لِمَّةٍ يُرَجِّلُهَا ... فَإِنَّــنِى غَيْرُ ضَائِرِى زَعَرِى

وقد زَعِر الرجلُ يزْعَر : قَلّ شعرُه. وتبهج : تُسرّ وتفرح، تقول: بَهَجَنِى أمرُ كذا بالفتح ، وأبهجنى معاً ، أى سرّنى . ومن رواه بضم الهاء أراد يَحْسُنُ ويُملح ، من البهْجَة، وهى الحُسْن ، يقال بَهُج الرجلُ بالضم ، بَهاجَةً ، فهو بهيج ، أى حسن ، قال الله تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (٤)، وتقول: قد أبهجت الأرض بالهمزة ، أى بهج نباتُها وحَسُن.

---

(١) العركرك : الجمل الغليظ القوىّ ، والرجز فى صحاح الجوهرى ؛ وهو فى اللسان أيضاً بنسبته إلى حنظلة بن قيس بن أشيم .

(٢) ديوانه ٢٥ .

(٣) الخلى : الرطب من النبات ، وهو الـكلأ .

(٤) سورة الحج ٥ .

وتزدَهِي ، أى تتكبّر ، وهى اللغة التى حكاها ابن دريد ، قال : تقول : زها الرجلُ يَزْهُو زَهْوًا ، أى تكبّر [1] وعلى هذه اللغة تقول : ازدهى الرجلُ يزدهِي ، كما تقول من «علا» اعتلى يعتلِي ، ومن «رمى» ارتمى يرتمِي ، وأمامَنْ رواها «وتُزْدَهَى بما ألبِسَتْه» على مالم يسمّ فاعله ، فهى اللغة المشهورة . تقول : زُهِي فلان علينا ، وللعرب أحرف تتكلّم بها على سبيل المفعول به ، وإن كانت بمعنى الفاعل ، كقولهم : عُنِي بالأمر ، ونُتِجَت الناقة ، فتقول على هذه اللغة : فلان يُزْدَهى بكذا .

والرَّيْط جمع رَيْطة ، وهى المُلاءة غير ذاتِ لفقين . والأزاهير : النَّوْر ذو الألوان .

وسِمِطَتْ به : علّق عليها السُّمُوط ، جمع سِمْط وهو العقد ، ومن رواه « شَمِطت » بالشين المعجمة ، أراد ماخالط سوادَ الرياض من النَّوْر الأبيض كالأقحوان ونحوه ، فصارت الرياض كالشعر الأشمط . والنّاضر : ذو النَّضارة ، وهى الحسن والطَّراوة .

وبلاغا للأنام ، أى كفاية . والآفاق : النّواحى ، والمنار : الأعلام .

***

[فصـــول متنوعة تتعلّق بالخطبة]

وينبغى أن نتكلّم فى هذا الموضع فى فصول :

الفصل الأول فى كيفية ابتداء خلق الأرض :

ظاهر كلام أمير المؤمنين عليه السلام أنّ الماء خُلِق قبل الأرض ، وقد ذكرنا فيما تقدّم أنّه قولٌ لبعض الحكماء ، وأنه موافق لما فى التوراة إلّا أنّ فى كلامه عليه السلام فى هذا الموضع إشكالا ، وذلك أنّ لقائل أن يقول : كلامُه يشعر بأن هَيَجان الماء وغَلَيانه ومَوْجه

---

(١) نقله صاحب اللسان فى زها .

سكن بوضع الأرض عليه ، وهذا خلاف مايشاهد ، وخلاف مايقتضيه العقل ، لأنّ الماء الساكن إذا جُعِل فيه جسم ثقيل اضطرب وتموّج ، وصعد علوّاً ، فكيف الماء المتموّج يسكن بطرح الجسم الثقيل فيه ؟

والجواب أنّ الماء إذا كان تموّجه من قِبَل ريح هائجة ، جاز أن يسكن هَيَجانُه بجسم يحول بينه وبين تلك الريح ، ولذلك إذا جعلنا فى الإناء ماء وروحناه بمروحة تموّجه ، فإنه يتحرك ، فإن جعلنا على سطح الماء جسما يملأ حافات الإناء وروحناه بالمروحة فإن الماء لايتحرك ، لأن ذلك الجسم قد حال بين الهواء المجتلَب بالمروحة وبين سطح الماء ، فمن الجائز أن يكون الماء الأول هائجا لأجل ريح محرِّكة له ، فإذا وضعت الأرض عليه حال بين سطح الماء وبين تلك الريح ، وقد مرّ فى كلام أمير المؤمنين فى الخطبة الأولى ذكرُ هذه الريح ، فقال : « ريح اعتقمَ مهبّها ، وأدام مُرَبَّها وأعصف مجراها ، وأبعد منشأها ، فأمرها بتصفيق الماء الزخار ، وإثارة موج البحار ، فمخضت مَخْض السقاء ، وعصفت به عصفها بالفضاء » .

* * *

الفصل الثانى فى بيان قوله عليه السلام : « فلما سكن هَيْج الماء من تحت أكنافها ، وحَمل شواهق الجبال البُذَّخ على أكتافها ، فجّر ينابيع العيون فيها ، وعدّل حركاتِها بالراسيات من جلاميدها » :

وذلك لأنّ العامل فى « لمّا » يجب أن يكون أمراً مباينا لما أضيفت إليه ، مثاله : لماقام زيدقام عمرو ، فقام الثانية هى العاملة فى « لمّا » ، فيجوز أن تكون أمراً مباينا لما أضيف « لمّا » إليه ، وهو قيام زيد ، وهاهنا قد قال عليه السلام : لمّا حمل الله تعالى شواهق الجبال على الأرض عَدّل حركات الأرض بالجبال ، ومعلوم أن أحد الأمرين هو الآخر .

والجواب أنه ليس أحدُ الأمرين هو الآخر بعينه ، بل الثانى معلول الأول ، وموجب

عنه لأنّ الأول هو حَمْل الجبال عليها ، والثانى تعديل حركاتها بالجبال المحمول عليها ، فكأنه قال : حمل عليها الجبال ، فاقتضى ذلك الحمل تعديلَ حركاتِها ؛ ومعلومٌ أن هذا الكلام منتظم .

***

الفصل الثالث فى قوله : « إن الجبال هى المسكِّنة للأرض » :

فنقول : إن هذا القول يخالِف قولَ الحكماء ؛ لأن سكون الأرض عند الحكماء لم يكن لذلك ، بل لأنها تطاب المركز ،وهى حاصلة فى حَيّزها الطبيعى ؛ لكنا وإن كان مخالفاً لقول الحكماء ، فإنّا نعتقده دينا ومذهباً ، ونعدل عن قول الحكماء ، لأنّ اتباع قوله عليه السلام أوْلى من اتباع أقوالهم .

***

الفصل الرابع فى ذكر نظائر لما وصف به المطر والسحاب :

فمن ذلك ما رواه عبد الرحمن ، ابن أخى الأصمعىّ ، عن عمّه قال : سئل أعرابىّ عن مَطر ، فقال :

استقلّ سَدٌّ مع انتشار الطَّفَل ، فشصا واحْزَألَّ ، ثم اكفهرّت أرجاؤه ، واحمومَتْ أرحاؤه ، وابْزعرت فوارقه ، وتضاحكَتْ بوارقه ، واستطار وادقه ، وارثعَنّت جوبُه ، وارتعن هيْدَبُه ، وحَشَكَتْ أخلافه ، واستقلّتْ أردافه ، وانتشرت أكنافه ؛ فالرعد يرتجس ، والبرق يختلِس ، والماء ينبجِس ، فأترَع الغُدُر ، وأنبت الوُجُر ، وخلط الأوعال بالآجال ، وقرن الصِّيران بالرئال ، فللأودية هدير ، وللشِّراج خرير ، وللتِّلاع زَفير ، وحطّ النَّبْع والعنَم من القُلل الشمّ إلى القيعان الصُّحْم ، فلم يبق فى القُلَل إلا مُعْصِم

مُجْرَنْشِم ، أو داحض مُحَرجم ، وذلك من فضل رب العالمين ، على عباده المذنبين .

قلت : السَّدّ: السحاب الذى يَسُدّ الأفق . وأصل الجبل . والطَّفَل : اختلاط الظلام وانتشارُه حال غروب الشمس . وشصا : ارتفع وعلا . واحزَألَّ : انتصب . واكفهرّت أرجاؤه : غَلُظلت نواحيه وجوانبه وتراكمتْ . واحمومَتْ : اسودّت مع مخالطة حمرة وأرجاؤه : أوساطه . وانزعرتْ : تفرّقت . والفوارق : قِطَعٌ من السحاب تتفرّق عنه مثل فِرَق الإبل ؛ وهى النوق إذا أرادت الولادة فارقت الإبل وبَعُدت عنها حيث لا تُرَى . وتضاحكت بوارقُه : لمعت . واستطار : انتشر . والوادِق : ذو الوَدْق ، وهو مطر كبار . وأرسعت جُوَبه ، أى تلاءمت فُرَجُه والتحمت . وارثعن : استرخى . وهَيْدَبُهُ : ما تدلّى منه . وحَسَكت أخلافُه : امتلأت ضُروعه . وأردافه : مآخره . وأكنافه : نواحيه ، ويرتجس : يصوّت ، والرَّجس : الصوت . ويختلس : يستلِبُ البصر . وينبجس ينصبّ . فأترع الغُدُرَ ؛ مَلأها ، جمع غَدِير . وأنبت الوُجُر : حفرها : جمع وِجَار ؛ وهو بيت الضبع . والآجال : جمع إِجْل ؛ وهو قطيع البقر : والصِّيران مثله ، جمع صُوار . والرِّئال : جمع رَأْل ؛ وهو فرخ النعام . والهدير : الصوت . والشِّراج : جمع شَرْج ؛ وهو مسيل الماء إلى الحرّة . وخرير الماء . صوته . وزفير التِّلاع : أن تزفر بالماء لفرط امتلائها . والنَّبْع : شجر ، والعَنَم : شجر آخر ؛ وكلاهما لاينبت إلّا فى رءوس الجبال . والشمّ : العالية . والصُّحْم : السود التى تضرب إلى الصفرة ، والمُعْصِم : المعتَصِم الملتجِئ . والمجرنثم : المتقبض ، والداحض : الزالق الواقع . والمحرجم : المصروع .

***

ومن ذلك ما رواه أبو حاتم ، عن الأصمعى ، قال : سألت أعرابيًّا من بنى عامر ابن صعصعة ، عن مطر أصاب بلادَهم ، فقال :

نشأ عارضا ، فطلع ناهضا ، ثم ابتسم وامضا ؛ فاعتَنّ فى الأقطار فأشجاها ، وامتدّ فى

الآفاق فمطّاها ، ثم ارتجس فهمهم، ثم دَوّى فأظلم ، فأركّ ودَثّ، وبَغَش وطَشّ، ثم قطقط فأفرط ، ثم ديّم فأغمط، ثم ركد فأثجم ، ثم وَبَل فسجَم، وجاد فأنعم ، فقَمَس الرُّبا، وأفرط الزُّبَى سَيْماً[(١)] تباعا ، يريد انقشاعا ؛ حتى إذا ارتوت الحزُون ، وتضحضحت المتون، ساقه ربكَ إلى حيث يشاء ، كما جلبه من حيث شاء .

قلت : العارض: سحاب يعترض فى الأفق . واعتنّ: اعترض. وأشجاها : ملأها فكان كالشَّجى فى حَلْقها . وارتجس : صَوّت. والهمهمة : صَوْت الرعد. ودَوّى : أحدث دَوِيّاً. فأظلم: أعدم الضوء من الأرض بتكاثفه. فأركّ، أى مطر ركًّا، والركّ: المطر الضعيف، وكذلك الدّثّ والبَغْش والطَّشّ، وفوق ذلك القَطْقَط . وديّم : صار دِيمةً وهى المطر أياما لا يُقلع. وأغمط ، أى دام. وأثجَم : أقام . ووَبَل : جاء بالوابل ؛ وهو المطر العظيم : وسَجَم: صَبّ. وأنعم : بالغ . وقمسَ: غَوّص فى الماء . وأفرط الزُّبى : ملأها ، جمع زُبْية ؛ وهى حفيرة تحفر الوحوش فى مكان مرتفع. والحُزون : جمع حَزْن، وهو ماغَلُظ من الأرض. والمُتون : جمع مَتْن ؛ وهو الصلب من الأرض . وتضحضحت : صار فوقها ضحضاح من الماء ؛ وهو الرقيق .

***

ومن ذلك مارواه أبو حاتم أيضا ، عن الأصمعىّ ، قال : سألتُ أعرابيًّا عن مَطَرٍ أصابهم بعد جَدْب ، فقال :

ارتاح لنا ربُّك بعد ماستولى اليأس على الظُّنون، وخامر القلوبَ القُنوط؛ فأنشأ بنوء الجبهة قزَعةً كالقُرْص من قِبَل العَيْن ، فاحزألّتْ عند ترجّل النهار لأدم السَّرار؛ حتى إذا نهضت فى الأفق طالعة ، أمرَ مسخّرها الجنوب فتبسّمت لها ، فانتثرت[(٢)] أحضانُها، واحمومَتْ أرْكانها ، وبَسَق عَنانها ، واكفهرّت رَحاها ، وانبعجت كُلاَها[(٣)]، وذمرت

(١) ساح الماء سيماً : جرى واضطرب ،وفى الأصول : « سبماً » تصحيف .
(٢) ب : « فانتثرت » . (٣) كلية السحابة : أسفلها .

أخراها أولاها؛ ثم استطارت عقائقُها، وارتعجت بوارقها، وتعقعقت صواعقها، ثم ارتعبت جوانبها، وتداعَتْ سواكبُها، ودَرّتْ حوالبُها؛ فكانت للأرض طَبَقاً شجّ فهَضَب، وعَمّ فأحسب؛ فعلّ القِيمان، وضَحْضَح الغيطان، وصوّح الأضواج، وأترع الشِّراج، فالحمد لله الذى جعل كفاء إساءتنا إحسانا، وجزاء ظلمنا غفرانا.

قلت: نوء الجبْهة محمود عندهم للمطر، والقزَعة: القطعة الصغيرة من السحاب. والقرْص: الترس. والعَيْن ماعن يمين قِبْلة العراق. وترجّل النهارِ: انبساط الشمس. والأدم: أحد ليالى السِّرار، والأحضان: النواحى. واحمومت: اسودّت. وبَسَق: علا. والعَنَان: مايعترض من السحاب فى الأفق. وانبعجت: انفتقت. وذمرت: حضّتْ. والعقائق: البروق. وارتعجت: اهتزّت وارتعدت. وطبقا، أى غطّت الأرض. وهَضَب: جاء بالمطر دفعة فدفعة. وأحسب: كفى. وعلّ القيمان: سقاها مرّة بعد أخرى، والغِيطان: جمع غائط وهو ما سَفل من الأرض. وصوّح الأضواج: هدم الأجواف. وأترع الشِّراج: ملأ المسيلات.

***

ومن ذلك مارواه ابن دريد، عن عبد الرحمن، عن عمه الأصمعىّ، قال:

سمعت أعرابيا من بنى عامر يصف مطراً، قال: نشأ عند القصْر بنوء الغَفْر حَيًا عارضا ضاحكا وامضا، فكلا ولا ما كان حتى شَجِيَتْ به أقطارُ الهواء، واحتجبت به السماء، ثم أطرَق فاكفهرّ، وتراكم فادلهمّ، وبَسَق فازلأمّ، ثم حدت به الريح فخرّ، والبرق مرتعج، والرعد مُبْتَوِج، والحدج مبتهج، فأثجم ثلاثا، متحيّراً هَتهاثا، أخلافه حاشكة، ودُفَعه متواشكة، وسَوامه متماركة. ثم ودّع مُنْجما، وأقلع مُتْهِما، محمود البلاء، مترع النِّهاء[1]، مشكور النعماء، بطوْل ذى الكبرياء.

قلت: القَصْر: العشىّ. والغَفْر من نجوم الأسد. والحيَا: الدّانِى من الأرض. وقوله: «كلا ولا» أى فى زمان قصير جدا. وشجيت به الأقطار: صار كالشّجَى لها.

(١) نهاء: جمع نِهى؛ وهو الغدير.

وازلأمّ : انتصب. والمرتمج : المتدارك والمبتوِج : العالى الصوت. والحدَّج : السَّحاب أوّل ماينشأ . ويتبعّج : يشقق . وأنجَم : دام متحيِّرا ، أى كأنه قد تحيّر لا وجه له يقصده . والمنهات : المداخل. وأخلافه حاشِكة؛ أى ضروعة ممتلئة . ودُفَعه متواشكة، أى مسرعة. وسَوامه متعاركة ، شبّه قطع السحاب بسَوام الإبل . ومُنْجماً : مقلعا . وتِمْتهِما : يسير نحو تِهامة :

* * *

الفصل الخامس فى بيان أنه عليه السلام إمام أرباب صناعة البديع

وذلك لأن هذا الفن لايوجد منه فى كلام غيره ممن تقدّمه إلا ألفاظ يسيرة غير مقصودة ؛ ولكنها واقعة بالاتفاق كما وقع التجنيس فى القرآن العزيز اتفاقا غيرَ مقصود ، وذلك نحو قولِه : ﴿ يأسَفَا عَلَى يُوسُفَ ﴾ (١) ، وكما وقعت المقابلة أيضا غير مقصودة فى قوله : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ (٢) على أنها ليست مقابلة فى المعنى ، بل من اللفظ خاصة . ولما تأمل العلماء شعر امرئ القيس ووجدوا فيه من الاستعارة بيتا أو بيتين نحو قوله يصف الليل :

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمطَّى بِصُلْبِـــهِ ... وَأَرْدَفَ أَعجازاً وَنَاء بِكَلْكَلِ (٣)

وقوله :

وإن يَكُ قد ساءتكِ مِنِّى خليقةٌ ... فَسُلِّى ثيابى مِنْ ثيابِكِ تَنْسُلِ (٤)

ولم يُنشَدوا مثل ذلك فى أشعار الجاهليّة ، حكموا له بأنه إمام الشعراء ورئيسهم .

وهذا الفصل من كلام أمير المؤمنين عليه السلام قد اشتمل من الاستعارة العجيبة وغيرها من أبواب البديع على مالو كان موجودا فى ديوان شاعر مكثِر ، أو مترسِّل مكثر

(١) سورة يوسف ٨٤ .
(٢) سورة الرحمن ٨ .
(٣) ديوانه ١٨ .
(٤) ديوانه ١٣ .

لـكان مستحقّ التقديم بذلك؛ ألا تراه كيف وصف الأمواج بأنها مستفحلة، وأنها ترغو رُغاء فحول الإبل . ثم جعل الماء جَمّاحاً ، ثم وصفه بالخضوع ، وجعل للأرض كَلْكَلاً، وجعلها واطئة للماء به ، ووصف الماء بالذلّ والاستخذاء لمّا جعل الأرض متمعِّكة عليه كما يتمعّك الحمار أو الفرس ، وجعل لها كواهل، وجعل للذل حَكَمة، وجعل الماء فى حَكَمة الذلّ منقادا أسيرا ، وساجيا مقهورا . وجعل الماء قد كان ذا نخوة وبأوٍ واعتلاء ، فردّته الأرض خاضعا مسكينا، وطأطأت من شُموخ أنفه ، وسُموّ غلوائه، وجعلها كاعمة له، وجعل الماء ذا كِظّة بامتلائه ، كما تعترى الكظّة المستكثر من الأكل . ثم جعله هامداً بعد أن كانت له نزقات ، ولابداً بعد أن كانت له وثبات ، ثم جعل للأرض أكتافا وعرانين ، وأنوفا وخياشيم؛ ثم نفى النوم عن وميض البرق، وجعل الجنوب مارية دِرَرَ السحاب، ثم جعل للسحاب صدرا وبِوَانا، ثم جعل الأرض مبتهجة مسرورة مزدهاة، وجعل لها رَيْطا من لباس الزهور ، وسُموطا تحلّى بها . فيالله وللعجب من قوم زعموا أن الكلام إنما يفضُل بعضه بعضا لاشتماله على أمثال هذه الصنعة، فإذا وجدوا فى مائة ورقة كلمتين أو ثلاثا منها، أقاموا القيامة، ونفخوا فى الصور، وملئوا الصحف بالاستحسان لذلك والاستظراف، ثم يمرّون على هذا الكلام المشحون كله بهذه الصنعة على ألطف وجه ، وأرصع وجه ، وأرشق عبارة، وأدق معنى ، وأحسن مقصد ، ثم يحملهم الهوى والعصبية على السكوت عن تفضيله إذا أجملوا وأحسنوا، ولم يتعصبوا لتفضيل غيره عليه، على أنه لا عجب، فإنه كلام على عليه السلام، وحظّ الكلام حظّ المتكلم ؛ وأشبه امرأً بعضُ بَزِّهِ !

***

وهذا آخر الجزء السادس من الأجزاء العشرين من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد المعتزلى على ماجزأه [1] .

(١) ج : « تم الجزء السادس من أجزاء شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد على ما جزأه ، ويتلوه الجزء السابع والحمد لله وحده » .

فهرس الخطب *

	الصفحة
٦٦ ـ من كلام له عليه السلام فى معنى الأنصار	٤ ، ٥
٦٧ ـ من كلام له لما قلد محمد بن أبى بكر مصر فملكت عليه وقتل	٥٣
٦٨ ـ من كلام له فى ذم أصحابه	١٠٢
٦٩ ـ من كلام له فى سحرة اليوم الذى ضرب فيه	١١٢
٧٠ ـ من كلام له فى ذم أهل العراق	١٢٧
٧١ ـ من خطبة علم الناس فيها الصلاة على النبى صلى الله عليه وآله	١٣٨
٧٢ ـ من كلام له قاله لمروان بن الحكم بالبصرة	١٤٦
٧٣ ـ من كلام له لما عزموا على بيعة عثمان	١٦٦
٧٤ ـ من كلام له لما بلغه اتهام بنى أمية له بالمشاركة فى دم عثمان	١٦٩
٧٥ ـ من خطبة له فى الزهد	١٧٢
٧٦ ـ من كلام له فى شأن بنى أمية	١٧٤
٧٧ ـ من كلمات له يدعو بها	١٧٦
٧٨ ـ من كلام له قاله لبعض أصحابه لما عزم على المسير إلى الخوارج وقوله فى النجوم	١٩٩
٧٩ ـ من كلام له بعد فراغه من حرب الجمل فى ذم النساء	٢١٤
٨٠ ـ من كلام له فى الزهد أيضا	٢٣٠
٨١ ـ من كلام له فى صفة الدنيا	٢٣٨
٨٢ ـ من خطبة له وهى المسماة بالغراء	٢٤١ ـ ٢٧٩

* وهى الخطب التى وردت فى كتاب نهج البلاغة .

الصفحة

٨٣ ـ من كلام له فى ذكر عمرو بن العاص ٢٨٠

٨٤ ـ من خطبة له فى تمجيد الله سبحانه وتعظيمه ، وفيها وصف الجنة ٣٤٥ ـ ٣٤٨

٨٥ ـ من خطبة له فى الوعظ ٣٥٠ ـ ٣٥٤

٨٦ ـ من خطبة له ، ذكر فيها صفات من يحبه الله وحال أمير المؤمنين
مع الناس ٣٦٣ ـ ٣٨٢

٨٧ ـ من خطبة له ذكر فيها وصف ما عليه الناس من الخطأ ٣٨٤

٨٨ ـ من خطبة له ذكر فيها حال الناس قبل البعثة وأن الناس
اليوم لا يختلفون عن سلفهم ٣٨٧

٨٩ ـ من خطبة له فى تعديد بعض صفات الله عز وجل ٣٩٢ — ٣٩٥

٩٠ ـ من خطبة له ، وتعرف بخطبة الأشباح ، فيها وصف السماء
والأرض والسحاب والملائكة وغير ذلك ٣٩٨ ـ ٤٣٨

فهرس الموضوعات (*)

	صفحة
أخبار يوم السقيفة[1]	٥ ـ ٤٥
قصيدة أبى القاسم المغربى وتعصبه للأنصار على قريش	١٤ ـ ١٧
أمر المهاجرين والأنصار بعد بيعة أبى بكر	١٨ ـ ٤٥
ما روى من أمر فاطمة مع أبى بكر	٤٦ ـ ٥٢
محمد بن أبى بكر وذكر ولده	٥٥ ـ ٦٧
هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ونسبه	٥٥ ـ ٥٦
ولاية قيس بن سعد على مصر ثم عزله	٥٧ ـ ٦٥
ولاية محمد بن أبى بكر على مصر وأخبار مقتله	٦٥ ـ ٩٤
خطبة على بعد مقتل محمد بن أبى بكر	٩٤ ـ ١٠٠
مقتل محمد بن أبى حذيفة	١٠٠ ـ ١٠١
الأشعار الواردة فى ذم الجبن	١٠٤ ـ ١٠٧
أخبار الجبناء وذكر نوادرهم	١٠٧ ـ ١١١
خبر مقتل على كرم الله وجهه	١١٣ ـ ١٢٦
ذكر مطاعن النظام على الإمام والرد عليه	١٢٩ ـ ١٣٤
خطبة على بعد يوم النهروان	١٣٤ ـ ١٣٦
من خطب على أيضا	١٣٦ ـ ١٣٧
معنى الصلاة على النبى والخلاف فى جواز الصلاة على غيره	١٤٣ ـ ١٤٥
مروان بن الحكم ونسبه وأخباره	١٤٨ ـ ١٦٥
من كلام له أيضا قبل المبايعة	١٦٧ ـ ١٦٨
من أدعية الرسول المأثورة	١٧٨

(*) وهى الموضوعات التى وردت أثناء الشرح .

(١) انظر أخبار يوم السقيفة فى الجزء الأول ٢١ ـ ٦١

	صفحة
أدعية الصحيفة	١٧٨ ـ ١٨٧
من الأدعية المأثورة عن عيسى عليه السلام	١٨٧
الأدعية المأثورة عن بعض الصالحين	١٨٧ ـ ١٩٦
آداب الدعاء	١٩٦ ـ ١٩٧
القول فى أحكام النجوم	٢٠٠ ـ ٢١٣
أخبار عائشة فى خروجها من مكة إلى البصرة بعد مقتل عثمان	٢١٥ ـ ٢٢٩
الآثار والأخبار الواردة فى الزهد	٢٣١ ـ ٢٣٧
فصل فى ذكر القبر وسؤال الملكين	٢٧٣ ـ ٢٧٤
نسب عمرو بن العاص وطرف من أخباره	٢٨١ ـ ٣٣٠
مفاخرة بين الحسن بن على ورجالات من قريش	٢٨٥ ـ ٢٩٤
عمرو بن العاص ومعاوية	٢٩٤ ـ ٢٩٥
عبد الله بن جعفر بن العاص فى مجلس معاوية	٢٩٥ ـ ٢٩٧
عبد الله بن العباس ورجالات قريش فى مجلس معاوية	٢٩٨ ـ ٣٠٣
عمارة بن الوليد وعمرو بن العاص فى الحبشة	٣٠٤ ـ ٣٠٧
أمر عمرو بن العاص مع جعفر بن أبى طالب فى الحبشة	٣٠٧ ـ ٣١٢
أمر عمرو بن العاص فى صفين	٣٠٢ ـ ٣١٧
القول فى إسلام عمرو بن العاص	٣١٨ ـ ٣١٩
بعث رسول الله عمرا إلى ذات السلاسل	٣١٩ ـ ٣٢٠
ولايات عمرو بن العاص فى عهد الرسول والخلفاء	٣٢٠ ـ ٣٢١
نبذ من كلام عمرو بن العاص	٣٣١ ـ ٣٢٤
أقوال وحكايات فى المزاح	٣٣٠ ـ ٣٣٧
فصل فى حسن الخلق ومدحه	٣٣٧ ـ ٣٤٤
فصل فى ذم الكذب وحقارة الكذابين	٣٥٧ ـ ٣٦٢
فصل فى العباد والزهاد والعارفين وأحوالهم	٣٦٥ ـ ٣٧٢